الكتاب: خلفيات كتاب مأساة الزهراء (ع)
المؤلف: السيد جعفر مرتضى
الجزء: ١
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة: الخامسة
سنة الطبع: ١٤٢٢
المطبعة: دار السيرة
الناشر: دار السيرة - بيروت - لبنان
ردمك:
ملاحظات: دار السيرة - بيروت - لبنان : ص . ب : ٤٩ / ٢٥ الغبيري - هاتف : ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٩

العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي
خلفيات
كتاب مأساة الزهراء (ع)
الجزء الأول
دار السيرة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الخامسة - ١٤٢٢
دار السيرة
بيروت - لبنان ص. ب: ٤٩ / ٢٥ الغبيري هاتف: ٠٩٦١١٥٤٠٦٩٠
WWW. DARALSYRA. COM
E - MAIL: DARALSYRA @ HOTMAIL. COM

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والصلاة والسلام على محمد وآله

سيدي.. يا بن النبي.. ويا حفيد علي.. بحق أمك الزهراء المظلومة.. إلا ما كنت الشفيع لي إلى الله سبحانه.. في يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

سيدي.. إن هذا الجهد الذي أرفعه إليك، وأضعه بين يديك.. ومعه كل هذا الأذى الذي أتحمله، وكل ما أتعرض له من خيانة وكيد.. وكل ما يرميني به الموتورون من سهام الحقد والشحناء، وقوارص الضغينة والبغضاء. إن ذلك كله.. لم يكن منافسة منا في سلطان، ولا التماس شئ من فضول الحطام.. ولكن لنرد المعالم من هذا الدين..

نعم.. لنرد المعالم من هذا الدين، ونظهر كلمة الحق والهدى بين العباد، ونحملها وهي أمانة الله في أعناقنا لننشرها في مختلف البلاد..

سيدي.. فكن لي المعين والنصير، والولي، والمؤيد. فأنت باب الله وخيرة الله من خلقه، وصفوته، وحجته على عباده. وأنت المظهر للعدل والناشر للهدى في بلاده..

سيدي، هذه حاجتي إليك، وطلبتي وضعتها بين يديك، فبحق أمك الزهراء، وعمتك زينب، إلا شملتني بعين عطفك ومحبتك ورعايتك.

١٤ شعبان ١٤١٨ ه. ق.

تنبيه من كلام البعض

يقول البعض:

" نحن ندعو إلى الحوار بين العلماء والنقد بينهم، وعلينا أن لا نعتبر النقد عداوة.. ولكننا لا نزال متخلفين نعتبر النقد عداوة ".

(نشرة فكر وثقافة، عدد ٣ ص ٤)

فنحن عملا بهذه المقولة نبادر إلى عرض بعض ما طرحه هو نفسه من مقولات وأفكار، ونرجو من الله أن لا يعتبر ذلك عداوة حتى لا نكون متخلفين.

ويقول البعض أيضا:

" أنا لا أدعي لنفسي العصمة، ولكنني أستطيع أن أقول: إن ٩٩, ٩٩ % مما يقال وينشر ضدي هو كذب، وافتراء، وبهتان " (١).

ونقول:

إننا نطلب من القارئ الكريم أن يراجع ويقارن فقط!!!.

وسئل البعض:

هل على المفكرين العظام أن ينظروا إلى ردود الفعل الآتية حول كلماتهم أم إن لهم نظرة أخرى؟

فأجاب:

" لابد لهم أن ينظروا إلى ردود الفعل لا أن يتعقدوا منها، ولكن عليهم أن يبحثوا في الأمر جيدا فقد يكون فيها شيء من الحقيقة، فليس معنى هذا أن من يرد عليك هو عدو، فنحن نقول كما علمنا أئمتنا (رحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي) فقد يكون

----

(١) رؤى ومواقف، عدد ٢، سنة ١٤١٧ ه، ١٩٩٦ م، دار الملاك، وجريدة فكر وثقافة.

الشخص الذي ينقدك أو ينقد فكرك يحبك أكثر مما يحبك الشخص الذي يمدحك. لذلك فنحن سعداء أن ينتقدنا الناس، ونحن نسمع ردود الفعل ونقرؤها، ونفكر فيها، فإن كان فيها خير أخذنا بها، وإن لم يكن فيها خير دعونا لصاحبها بالهداية. وتبقى النظرة المستقبلية تتحرك على أساس متابعة الواقع " (١).

ونقول:

إننا لم نجده أعلن عن تراجعه ولو عن مفردة واحدة مما أثير، مما يعد بالمئات، بل بالألوف، كما يظهر من كتابنا هذا، مما يعني أن كلامه هذا لم يزل في مستوى الشعار، ولم يتحول إلى عمل وممارسة خصوصا وهو يعلن أن أفكاره ما تزال أفكاره، وأنه يتحمل مسؤوليتها مائة بالمائة. مما يعني أنه ملتزم حتى بالمتناقضات، وسنرى الكثير منها في هذا الكتاب.

وقد سئل البعض:

كثير من الأفكار والطروحات بدأ البعض يطرح التأويل والشكوك حولها منذ فترة، علما أنها كانت موجودة في مقالاتكم وكتبكم منذ الثمانينات، وكانوا يرون بأنها مميزة ومهمة. ما هو سر الانقلاب؟

فأجاب ذلك البعض بقوله:

" إسألوا هؤلاء الأشخاص فهم يتحملون مسؤولية ما يقولونه، فمن جهتي أفكاري ما تزال أفكاري، ومستعد أن أتحمل مسؤوليتها مائة بالمائة - وأنا مستعد أن أشكر كل من يدلني على خطأ في قول وفعل، وأعتبر أنه قدم لي هدية في هذا المجال - ولكن الكثير من الناس يشتمون ويشتمون، ولا يحاورون، ولا يناقشون " (٢).

ونقول:

سبحان من يغير ولا يتغير!! فهل يعقل أن يعلن أحد عن عدم حدوث أي تغيير في أفكاره طيلة ما يقرب من عقدين من الزمن، ولا تتكامل أفكاره ولا يطرأ عليها أي تطور نحو الأفضل أو أي تقليم أو تطعيم، علما أن في تلك الأفكار الكثير من الاختلاف والتناقض أو نحو ذلك؟.

---

(١) الندوة، ج ٢، ص ٤٤٤.

(٢) الزهراء المعصومة: ص ٤٧ و ٤٨.

يقول البعض:
" إنه عندما تطرح القضية ويكون فيها موقفان فإن صاحب الموقف الذي يرى الحق له يتكلم على أساس أنه لا يخاطب شخصا ولكن يخاطب موقفا ويخاطب رأيا ويخاطب اتجاها، مضافا إلى أنه في الحق لا مجال للمجاملة، ذلك أن المجاملات والديبلوماسيات والكلمات الضبابية إنما هي في العلاقات الإنسانية التي تتصل ببعض الأوضاع التي يعيشها المجتمع في خطوطه، أما عندما تكون القضية قضية إثبات حق ودحض باطل، فإن المجاملة تكون خيانة، وإن الاعتبارات الاجتماعية حينئذ لا تسقط الاعتبارات الموضوعية العلمية، ولذلك كانوا يتكلمون بكل صراحة الحق الذي يعتقدونه، ومن المفارقات أن هذا الحق الذي يطرحونه بكل صراحة وبكل موضوعية لا يثير رد فعل اجتماعي سلبي كما لو يتساءل البعض: كيف تتجرأ على هذا وكيف تتكلم مع هذا بهذه اللغة لأنهم كانوا يعيشون المسألة في أجواء الصراحة في الحق، ولم تؤثر فيهم كل هذه الأساليب التي جاءت بها الحضارات من تغطية الحق بكلمة هنا وبعاطفة هناك " (١).

هكذا هو شعورنا

يقول البعض في كتابه " من وحي القرآن " ج ٢ ص ١٧١:
" وقد يكون الأساس في اختيار النبي للخطاب، ثم اتباع أقسى الأساليب شدة في خطاب الله معه، هو الإيحاء بأن هذه القضية هي من القضايا التي تبلغ مرحلة كبيرة من الأهمية والخطورة بالمستوى الذي لا يمكن فيها مراعاة جانب أي شخص، وإن كان عظيما في مستوى عظمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن عظمة الأشخاص وقداستهم مستمدة من طاعتهم لله فيما يريد وفيما لا يريد فإذا انحرفوا عن الخط، ولن ينحرفوا عنه، سقطت عظمتهم وتحولوا إلى أشخاص عاديين خاطئين لا يملكون لأنفسهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

ويعتبر هذا أسلوب من الأساليب البارزة في القرآن في القضية التي تتخذ جانب الخطورة على أساس العقيدة وصدقها وسلامتها من الانحراف ".

قبل المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

- لولا كتاب مأساة الزهراء

لم أكن أقرأ له.. لأنني - شأن كثيرين غيري عاشوا في حواضر العلم - أعتبر كتبه ومقالاته تخص جيلا بعينه، وتعنيه، وتريد أن ترشده وتهديه.

وقبل أكثر من أربع سنوات.. وفي مسجد بئر العبد بالذات، وأمام كاميرا الفيديو.. تحدث إلى طائفة من النساء عن الزهراء (ع)، وعن مأساتها..

فأثار تساؤلات، على حد تعبيره.. وأصدر أحكاما، أثارت عاصفة من الإحتجاج، ووجهت بالإدانة والرفض..

فتراجع في رسائل له مكتوبة، وعبر وسائل مسموعة..

ولكنه بعد أن هدأت العاصفة، عاد ليثير نفس الأفكار عن الزهراء (ع)، ويحرك قضايا، ويطرح مسائل هي الأخرى حساسة وهامة.

ورأيت أن من واجبي أن أطلع على بعض مقولاته وطروحاته، فقرأت له بعض ما كتب ونشر، وسمعت نزرا يسيرا مما بثته إذاعة محلية تابعة له..

ففوجئت بما قرأت وسمعت، إلى درجة كبيرة.. وأدركت خطورة الأمر.. فبذلت محاولات كثيرة للدخول في حوار مثمر ومفيد، يمنع من تفاقم الأمور، ويعيدها إلى نصابها، فلم أوفق في ذلك.

----

(١) الزهراء القدوة ص ٢٤٠.

وكان كتاب (مأساة الزهراء (ع): شبهات وردود) بمثابة إعلان لفشل تلك الجهود، ودق ناقوس الخطر بالنسبة للموضوع برمته..

وكان أن تحركت بعنف وشراسة حرب الإشاعات والإتهامات، وقيل ما قيل، ونشر ما نشر، وأصدروا عددا من الكتب.. وبدا واضحا أن ذلك كله - تقريبا - يهدف إلى تعمية الأمر على الناس، وإبعادهم عن الموضوع الأساس والحساس جدا، والمصيري من الناحية الإيمانية، والعقائدية..

وكان خيارنا الوحيد لإنجاز التكليف الشرعي الملقى على عواتقنا، تقديم نبذة يسيرة من مقولات يعرف كل عالم بصير: أنها لا تنسجم مع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.. فكان هذا الكتاب..

ونحن على يقين بأن حملاتهم التشكيكية وغيرها ضدنا، ستكون هذه المرة أشد ضراوة وأقسى.. غير أننا نريد لكل المخلصين أن يطمئنوا إلى أن ذلك يزيدنا معرفة، وسيعزز من صلابتنا في نصرة الحق، وتوخي المزيد من الصراحة في بيان الحقيقة، مهما كان الثمن..

ومن جهة أخرى، وقبل حوالي ثلاثة أشهر سرقت إحدى مسودات هذا الكتاب، ورغم أنها كانت ناقصة بدرجة كبيرة، وغير منقحة، فقد بيعت لمن يهمهم الأمر بمبلغ كبير من المال، هو - على ذمة الشهود - يعد بآلاف الدولارات!.

وعلى أثر ذلك نشطت مساع من هنا وهناك، كان من بينها ما شارك فيه عدد من أهل العلم، الأعزاء والأحباء، يطالبوننا بتأخير إصدار هذا الكتاب، ولو لمدة وجيزة، آخذين على عاتقهم إقناع البعض بإصدار كتاب يشتمل على تصحيحات من شأنها أن تحل الإشكال القائم وتعيد الأمور إلى نصابها. على اعتبار: أن ثمة خطأ يحتاج إلى تصحيح ولا نصر أن يكون ذلك بأيدينا، فرحبنا بهم جميعا، وقطعنا على أنفسنا وعدا بتأخير إصدار هذا الكتاب مدة عشرة أو خمسة عشر يوما، إذ لا يحتاج هذا المهم إلى أكثر من ذلك.

ثم مددت المهلة مرة ثانية. وفي المرة الثالثة مددناها لمدة شهر، ومضى أكثر من شهرين، وذهبت تلك الأيام التي حددت في تلك المرات، ولحقتها أيام عديدة أخرى.. ونحن ننتظر الفرج..

وجاء الفرج أخيرا على شكل كتاب تخيل مؤلفه أنه يرد على كتابنا (مأساة الزهراء (ع)) وكتاب (لماذا كتاب مأساة الزهراء (ع)) وتعرض أيضا لكتاب (الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله).

ولم يفاجئنا كل ذلك في حد نفسه. ولكن ما لفت نظرنا هو أنه قد تعرض بصورة مبطنة، فيها شئ من إظهار (الشطارة) لكتابنا هذا بالذات، مستفيدا - كما هو ظاهر - من تلك النسخة التي سرقت وبيعت بذلك المبلغ الكبير من المال..

ومهما يكن من أمر، فقد أحببنا أن نعرف القارئ الكريم بحقيقة ما جرى وأن ينتظر المزيد من أمثال هذه الأمور، فإن ذلك من حقه علينا..

وإذا كان ذلك قد أزعجه، فنحن نعتذر إليه وعليه منا سلام الله، ورحمة منه وبركات.

وعودا على بدء، نكرر ونقرر: أن الزهراء عليها السلام في مأساتها ومعاناتها، ومواقفها الرسالية، كما عرفتنا الحق بعد وفاة النبي (ص)، ها هي في غيبة الولي توضح المكنون، وتظهر ما كنا عنه غافلين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فصلوات الله وسلامه على الزهراء، وأبيها، وعلى بعلها وبنيها..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول المسدد، والمصطفى الأمجد، المحمود الأحمد، حبيب إله العالمين، سيدنا وشفيع ذنوبنا أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد..

لا نريد أن نتجنى على أحد، ولا أن نسيء إلى أي كان من الناس، وما نريده هو فقط أن نسهم في حفظ السلامة العامة من الوقوع تحت تأثير بعض الأفكار التي سجلها البعض في مؤلفاته، وطرحها ليتداولها الناس في شرق الأرض، وغربها.

ونحن نرى أن كل مؤلف يحب نشر أفكاره، ولا سيما التجديدية منها.. ويرغب في أن يتداولها الناس، ليستفيدوا منها، أو لينقدوها، لتصبح أكثر دقة، وأعمق تأثيرا..

ولكن الأمر في هذا المورد بالذات قد يكون على عكس ذلك، فقد ينزعج البعض من نشر ما لديه من أفكار، رغم أنها كانت منشورة مسبقا في ثنايا الكتب، والنشرات، وعلى صفحات الجرائد والمجلات.

ولا ندري إن كنا سنتهم من جديد بأننا نهدف من وراء ذلك إلى التشهير، أو الإسقاط، أو أننا لم نفهم كلامه، ولم ندرك مقاصده، مع أنه يتكلم بلسان عربي، لا تشوبه عجمة، ولا يعاني من لكنة. كما أن من يستمعون ويقرؤون له إنما يفهمون الكلام العربي باللغة العربية ولا يفهمونه بغيرها من اللغات كالصينية أو الهندية أو الكردية، وهم في أكثرهم - أعني من يستمعون لذلك البعض - أناس عاديون، فيهم الكبير والصغير، والمرأة والرجل، والمثقف وغير المثقف.

ومهما يكن من أمر، فإننا قد صرحنا والمحنا إلى أن ما دعانا إلى كتابة

كتاب (مأساة الزهراء (ع) شبهات وردود) ليس هو خصوص قضية كسر الضلع الشريف للزهراء البتول، والصديقة الشهيدة. بل هو دفع ما أثير من شبهات خطيرة حول ظلم الزهراء وما جرى عليها، ثم الإلفات والتحذير مما هو أوسع وأشمل، وأكبر وأخطر، وأمر وأدهى..

ونحن في ضمن كتابنا هذا بأقسامه المختلفة، نعرض مجموعة من مقولات (جريئة) سجلها البعض في مؤلفاته المنتشرة في مختلف البلاد، وبين أصناف شتى من العباد، وللقارئ الكريم الحق في أن يؤيد ما فهمناه واستفدناه منها، أو يرده، إذا اقتضى الأمر - بنظره - أيا من الرد أو القبول، شرط أن يكون ذلك وفق المعايير الصحيحة والموضوعية، ووفق النصوص القرآنية، والتوجيهات الثابتة عن أهل بيت العصمة (ع)، وما هو ثابت ومعروف في مذهب الشيعة الامامية.

ولنا أن نوفر على القارئ الكريم الجهد والوقت، لنقول له إن هذه المقولات التي أوردناها، إنما أوردناها للتدليل على أنها مقولات لا يصح القبول بها، وتبنيها كجزء من تكوينه الفكري والإيماني، ومن أراد ذلك فعليه إن لم يكن قادرا على تمحيصها بالوسائل العلمية الصحيحة، أن يرجع إلى علماء الأمة ليوقفوه على ما فيها من هنات، وما تشتمل عليه من إشكالات وثغرات.

وغني عن القول: أن ما سوف نورده هنا يتفاوت ويختلف الأمر فيه من حيث الأهمية، ثم في طريقة التعاطي معه، فقد نورده لخطأ الرأي فيه بحيث يحتاج إلى التصحيح، وقد نورده لفساد طريقة التعاطي معه، ولوجود خطأ أساسي في معالجته له.

وبعد ما تقدم نقول: لنفترض أننا استطعنا أن نجد لكلام هذا البعض تأويلات بعيدة، ومحامل شاذة وغير سديدة. ولكن ما يثير تعجبنا، وتساؤلنا هو أن يكون كل هذا الحشد الهائل الذي يعد بالمئات - بل الألوف - مما لا بد من تأويله أو حمله على خلاف ظاهره، بالإضافة إلى الكثير الكثير مما يأبى عن أي حمل أو تفسير مقبول أو معقول!!!

ولقد كان بالإمكان التغاضي عن ذلك لو كان الخطاب شخصيا وفي نطاق محدود، أما حين يصبح الخطاب للناس كلهم، ثم يسجل في عشرات الكتب والنشرات وفي مختلف الوسائل المقروءة والمسموعة، ليتناقله الناس ويتداولوه جيلا بعد جيل، حيث سيفهمونه بعفوية، وبسلامة نية، وبالطريقة التي يستظهرها منه أهل

المحاورة، فإن الأمر يصبح أكثر حساسية، وأهمية وخطرا.. ويجعل الجميع أمام واجباتهم، ويفرض عليهم التعاطي مع الموضوع بصورة أكثر جدية ومسؤولية، حيث لابد من التنبيه على هذا الخطأ، وتحصين الناس من الوقوع فيه.

وحيث تتأكد الحاجة إلى إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، وإلى توضيح ما يحتاج إلى إيضاح، من دون أن يكون ثمة أية خصوصية للجهة التي تتولى تحقيق هذا الغرض النبيل، والعمل بهذا الواجب الشرعي والإنساني الجليل، فإن ما لا بد من مراعاته في عملية الإصلاح والإيضاح هذه، هو شموليتها لكل ما كتب ونشر، ولكل ما تتداوله الأيدي وتتناقله الألسن، أو استقر في الأسماع والقلوب.

ولا يكفي لتحقيق هذا الغرض حديث خاص هنا، أو حديث خاص أو حتى عام هناك، يتضمن تأويلا أو تعديلا في مورد أو موارد يسيرة، قد لا تكون هي الأهم والأولى بالإصلاح من غيرها؛ فان ذلك لا يكفي في نفسه، بالإضافة إلى أن معناه أن تبقى نفس تلك الموضوعات، هي وغيرها مما يعد بالعشرات والمئات، مبثوثة في عشرات الكتب والنشرات، وفي مختلف وسائل الإعلام، يتداولها الناس في شرق الأرض وغربها، ويتوارثونها جيلا بعد جيل.

وهذا ما يؤكد الحاجة إلى إجراء تعديلات وإصلاحات مباشرة على كل تلك المكتوبات والمنشورات، وفي كل ما قيل وأذيع، ثم إعادة نشره مع التأكيد - توضيحا وتصريحا - على أن أي رأي أو قول قد يختلف عما ورد في هذه الطبعات الأخيرة لا اعتداد به ولا اعتبار له.

وفقنا الله جميعا للعمل بما يرضي الله ونسأله أن يجعلنا ممن ينتصر به لدينه، وان لا يستبدل بنا غيرنا، وان يثبتنا على طريق الهدى، ولنا برسول الله صلى الله عليه وآله، وبأهل بيته الطاهرين أسوة حسنة، ومنار رشاد، وصلاح وسداد.

هذا الكتاب

وبعد كل ما تقدم نقول: إننا نقدم للقراء الكرام هذا الكتاب (خلفيات كتاب مأساة الزهراء) على أمل أن يجدوا فيه ما ينفع ويجدي في توضيح الحقيقة، وتمييزها عن شوائب يحاول البعض لسبب أو لآخر إلحاقها بها.

ولكن من المحتمل: أن الأمر لن يقف عند هذا الحد، إذ قد يظهر أن ثمة

حاجة لمتابعة إصدارت أخرى تبين موارد الخلل فيما ينشره هذا البعض بين الناس من مقولات.
وبما أن هذا البعض يقول تارة:
" إن ٩٩، ٩٩ % هو كذب وافتراء وبهتان.. "
ويقول تارة أخرى:
" إن ٩٠ % كذب وافتراء، وعشرة بالمئة تحريف للكلام عن مواضعه.. "
فقد التزمنا في هذا الكتاب أن لا نأتي من كلمات هذا البعض إلا بما هو مكتوب أو منشور ومتداول، ولا نتعرض إلى ما يذاع أو يباع على شكل أشرطة تسجيل أو فيديو. إلا في حالات يسيرة تبلغ عددها أصابع اليد الواحدة.. وإن كنا نعلم أن ذلك لن يردعهم عن التمادي في الاتهام الظالم لنا بدبلجة الكلام مخابراتيا أو بغير ذلك!!!

الدوافع والنوايا

إننا لا نريد أن نتحدث عن الخلفيات، والدوافع، والنوايا التي تدفع لتسجيل هذا النوع من السعي لاقتحام المسلمات - على حد تعبير البعض - لأن همنا هو لفت نظر القارئ إلى أن عليه أن لا يأخذ من أقوال هذا البعض شيئا إلا بعد البحث والتمحيص، لأنه يتبنى آراء خاصة به، ويلقيها إلى الناس، دون أن يبين لهم: أنها آراؤه الشخصية التي لا تتوافق مع مذهب أهل البيت عليهم السلام.

لا سباب ولا شتائم

وفي اتجاه آخر نشير إلى أن بيان آراء هذا البعض وطرح أقاويله على بساط البحث ليس سبابا ولا شتما له.. ولا يمكن أن يدخل في دائرة الخلافات الشخصية معه.. فلماذا يحاول هذا البعض الخلط بين هذين الامرين وتصوير الامر للناس على أنه هجوم على شخصه ثم هو يدعي: أنها هجمة مخابراتية، وأن منشأها العقدة والغريزة وقلة الدين.. وأن من يناقشونه في أفكاره (كمثل الحمار يحمل أسفارا)، وأن (مثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).. وإنها إسقاط للرمز وو الخ... وأنهم حاقدون وحاسدون ومعقدون لا يخافون الله.
وإن كانت مناقشة أفكار هذا البعض تعني كل ذلك.. فإنه هو نفسه لم يزل

يناقش أفكار العلماء – الشيعة وغيرهم – وينتقدهم.. ويوجه لهم أبشع الإهانات، وقد ذكرنا طائفة من كلماته في حقهم في بعض فصول هذا الكتاب.
فهل يرضى منا – ولأجل هذا بالذات وفقا لمنطقه – أن نجعل ذلك في دائرة العقد النفسية، والكيد المخابراتي، وعدم التدين وفقدان التقوى.. إلى آخر ما هنالك مما ألمحنا إلى بعض منه؟.
على أن مناقشتنا لا تهدف إلى تسجيل أي هنات في شخصه، ولا في شخصيته، ولا في ممارساته العملية..
كما أنها لم تتضمن أية قائمة، لا طويلة، ولا قصيرة في أي شأن من الشؤون، لا في دائرة تعامله مع الناس ولا في نطاق المواقف والممارسات العملية للشأن العام، ولا في محيط الأخلاق والالتزام.
وذلك لأننا نربأ بأنفسنا عن الإنجرار إلى هذه المزالق، أو الوقوف عند مثل هذه الأمور على أننا قد تحيرنا مع هذا البعض، فتارة هو يقول:
" إنه هو المستهدف شخصيا، وإن المسألة تنطلق من أجواء عقد نفسية وحالات غرائزية ".
وأخرى يقول:
" إن الهدف هو إرباك (الحالة) وإن المخابرات الإقليمية والمحلية والدولية – وحتى قمة شرم الشيخ هي رائدة هذا التوجه البغيض ".
وأخرى يقول:
" إن الصراع إنما هو بين ظاهرتي التخلف والتجديد ".
ورابعة يقول:
" إن مرجعيته هي المستهدفة.. ".
إلى آخر ما هنالك من مفردات احتوتها قائمة البالونات الاعلامية، الهادفة إلى تمييع القضية الأساس، التي هي تلك المخالفات الخطيرة في أمور الدين والعقيدة.. والتي سنقدم في هذا الكتاب طائفة وفيرة منها..
ولا ندري إذا كان الإصرار على تشويه الحقيقة سوف يضطرنا إلى متابعة اطلاع الإخوة الأبرار على المخالفات التي ارتكبت والتي أثارت عاصفة من الاعتراضات القوية في الساحة..

الردود في الميزان

والذي يلفت نظرنا: أن هذا البعض يعمل باستمرار على نشر ردود، على كتبنا تهدف إلى إثارة الغبار، وذر الرماد في العيون.

ونلاحظ على هذه الردود أمورا كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ - إنه يتم انتقاء موارد يسيرة جدا، يرون أن بإمكانهم المداورة، والمناوره فيها.. ولكنهم يتركون الأمور الأساسية، ولا يجرؤون على الإقتراب منها..

٢ - إن هذه الأمور اليسيرة التي يتعرضون لها يحاولون أيضا تغيير اتجاه البحث فيها ثم الإطالة في الحديث، والذهاب يمينا وشمالا حتى يضيع القارئ الكريم في فوضى الأقوال..

ونذكر نموذجا على ذلك، وللقارئ أن يقيس عليه الكثير من الموارد - ما ذكره البعض حول امتداد نسل آدم..

فإن إشكالنا الأساسي عليه هو في ثلاثة أمور هي:

أولا: قوله:

" إنه لا طريق إلى امتداد النسل إلا تزويج الأخوة بالأخوات "

مع أن الله الذي خلق آدم وحواء، قادر على أن يخلق لأبنائهما أناسي أجمل من الحور، ليمتد النسل من هذا الطريق..

ثانيا: قوله:

" إنه بعد امتداد النسل، استقام نظام العائلة، ولتنمو في جو طاهر من الناحية الجنسية "

فإن هذا يستبطن اتهاما خطيرا لبيت نبي الله آدم عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.

ثالثا: قوله:

" إنه لا مناعة جنسية بين الام وولدها.. "

فترى: أن الذين تصدوا للدفاع عنه قد أقاموا الدنيا ولم يقعدوها في عمل خداعي يهدف إلى صرف نظر القارئ عن الإشكال الحقيقي إلى أمر آخر غير ذلك كله، وهو أنه هل يجوز تزويج الإخوة بالأخوات أم لا، مع أن هذا الأمر لم نبحث

فيه، ولم نورده في جملة العناوين التي تحدثنا عنها وإن كنا قد أشرنا إليه إشارة عابرة.
٣ - إن عمدة ما يستدلون به هو أن فلانا قال كذا، وفلانا الآخر قال كذا.. وكأن الأدلة أصبحت خمسة هي:
الكتاب، والسنة، والاجماع، والعقل، وقول فلان، أو فلان.
ونقول لهم: إذا قال أهل الأرض كلهم بأمر يخالف قول الله ورسوله والأئمة وقواعد الدين والمذهب الثابتة فإنهم يكونون مخطئين ولا بد من رد أقوالهم جميعا.
٤ - إن الكثير مما ينسبونه إلى العلماء يعاني من التحريف في معناه أو لفظه.. كما أوضح ذلك الذين واجهوهم بالامر، وصدعوا بالحق فراجع كتاب (جاء الحق) و (الفضيحة) و (حتى لا تكون فتنة).. وغير ذلك من الكتب التي بينت ذلك حين ردت على تلك المقولات التي أطلقها البعض.
٥ - إن ما ينقلونه أيضا من أقوال العلماء لا ينسجم في معظمه مع ما يريدون، بل إن أكثره لا يشبه كلام هذا البعض في شيء، ولا يتضمن أية جرأة على الأنبياء والمرسلين، وعلى الأئمة الطاهرين، ولا ينال من مقاماتهم التي وضعهم الله فيها.
فمثلا لو قارنت بين كلام من يقول: إن سورة عبس وتولى نزلت في رسول الله (ص)، وبين ما قاله هذا البعض في هذا المورد لرأيت البون شاسعا، والفرق كبيرا.. فإن من قال بنزولها فيه (ص) لم يزد على ذلك أي توصيف.
فلم يقل مثلا:
" لا تفعلوا مثل فعل النبي (ص).. ".
ولا تكن " تكون (باللهجة العراقية أو اللبنانية العامية) (١) منطلقاتكم منطلقات النبي (ص) ".

---

(١) وقد اعترف هذا البعض: أنه كان يتكلم باللهجة العامية وذلك في شريط مسجل له، مع أحد أصدقائه الموجودين في قطر، وذلك في نفس الشريط الذي قال فيه: لعل الزهراء لم تكن تدري: أنها يجب أن تستيقظ لصلاة الصبح، وقد أراد النبي (ص) أن يعلمها هذا الحكم، حين حركها برجله (!!) وقال لها: قومي يا بنية لا تكوني من الغافلين.
فإذا كان يتكلم بالعامية، فيكون قوله لا تكون منطلقاتكم، يريد به: لا تكن منطلقاتكم.. لأن المقصود هو العامية باللهجة العراقية، وهي اللهجة التي يفضل أن يتحدث بها، وأن لا يتخلى عنها، والأمر في اللهجة اللبنانية أيضا كذلك. فإن المعنى أحذرك أن تكون قد فعلت ذلك سواء باللهجة العامية اللبنانية أو العراقية.

ولا قرر:
أن النبي يترك الأهم وينشغل بالمهم.
وأن النبي (ص) يقوم بتجربة غير ذات موضوع..
وأن الله يربي رسوله تدريجا بعد الوقوع في الخطأ.
وأن النبي يستغرق فيما فيه مضيعة للوقت.
ويفوت الفرص المهمة.
ويخطئ في التشخيص.
ولا يعرف مسؤوليته المباشرة..
٦ - إنهم يحاولون التشكيك في النوايا فيما يرتبط بالاعتراض على مقولات البعض:
فتارة يقولون: هي عقد شخصية.
وأخرى إنها: خطط مخابراتية.
وثالثة: إنها لأجل الطعن بمرجعية بعينها.
أو أي سبب آخر....
ونقول لهم: ليكن الدافع أي شئ تفرضونه، فإن ذلك لا يبرئ صاحبكم من الأخطاء التي وقع فيها، ولا يجعل خطأه صوابا، ولا يعفيه من مسؤولية التصحيح والتراجع.
٧ - إنهم يتهمون من يعترض على هذا البعض، الذي يريد صدم الواقع، ويسعى لاقتحام المسلمات، بأنه يثير فتنة.
ونقول لهم: إن إطلاق الاتهام بهذه الطريقة يذكرنا بقصة قتل عمار بن ياسر الذي قال رسول الله (ص) له: تقتلك الفئة الباغية، فلما قتل، وطولب معاوية بذلك قال: نحن قتلناه؟! إنما قتله من وضعه بين أسيافنا.
دعوات فاشلة إلى الحوار
وبعد.. فإن ما يثير العجب حقا: أن هذا البعض لا يكل ولا يمل من التلفظ بالدعوة إلى الحوار في الهواء الطلق.. فإذا ندبناه إلى ذلك، وسيرنا إليه وسطاء الخير، وأصحاب النوايا الطيبة وتكررت المحاولات، واختلفت حالات الوسطاء في

مواقعهم الاجتماعية، وفي ميزاتهم وسماتهم، وتكرر الذهاب والإياب، زرافات تارة، ووحدانا تارة أخرى.. وبعد الكثير من الأخذ والرد والجلسات الطويلة، وحين يبلغ الحق مقطعه، فإنك تجده حين يجد نفسه محاصرا ومحرجا يعلن رفضه لهذا الأمر، ويريح نفسه ويريحهم حين يطلب منهم إقفال الموضوع.

مع أننا لم يكن لدينا أي شرط سوى شرط واحد يتيم، وهو أن يتم الحوار أمام ثلة كبيرة من العلماء الذين هم من الطراز الأول، يختار هو نصفهم، ونختار نحن النصف الآخر، وذلك ليكونوا الحكم والمرجع حين تتباين وجهات النظر، وهم الذين يضعون حدا للمكابرة، أو التجني، إن حدث أي شيء من ذلك.

لابد من اعلان التصحيح

وآخر ما نذكره هنا هو أن من حقنا جميعا أن نطالب من يقول: إن أفكاره ما تزال أفكاره منذ الثمانينات، وأنه يتحمل مسؤوليتها، نطالبه لتصحيح أفكاره، وبأن يعلن هذا التصحيح. كما أعلن الإصرار خصوصا بالنسبة لكتابه " من وحي القرآن " حيث يقول عنه:

" إن جميع ما ورد في كتابه (من وحي القرآن) في الطبعة الأولى والطبعة الثانية التي هي طبعة دار الملاك، فهو صحيح، والاختلاف إنما هو في الأساليب ".

مما يعني أن كل فكرة وردت في الطبعة الأولى فهي صحيحة، حتى لو حذفها من الطبعة الثانية، لأن الأسلوب يكون هو السبب في الحذف..

فكيف يفسر لنا إذن إنكاره لنبوة يحيى عليه السلام في الطبعة الأولى، وسكوته عن ذلك في الطبعة الثانية، فإن كل ما فيهما صحيح على حد قوله.

وكيف يفسر لنا ما قاله من أن فواتح السور (ألم وكهيعص (وغيرها هي من إضافات النبي في القرآن - إن كانت السور التي وردت فيها هذه الأحرف مكية في أغلبها - وهي كذلك.

وقد سكت عن هذا الأمر في طبعة دار الملاك، ولم يصرح بخطئه فيه ولا بخطئه في قضية يحيى، وإذا كان كل ما في هذه الطبعة وتلك صحيحا.. فإن معنى ذلك أنه منكر لنبوة من صرح القرآن بنبوته، وأنه يقول بأن النبي قد زاد في القرآن، وأن القرآن محرف بالزيادة فيه.

لماذا السباب، ولماذا الاتهام؟!
على أننا نقول:
إننا من جهة: نتوقع من هذا البعض الذي يعلن أنه سعيد بنقد الناس له، وأنه يقول: رحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي – نتوقع منه – أن يترحم علينا، وأن يكون سعيدا بهذا النقد.. وأن يعفينا من قوله عن مراجع الأمة وعلمائها في إذاعة تابعة له:
- كمثل الحمار يحمل أسفارا.
- كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث.. الخ.
- بلا دين، بلا تقوى.. ولا تثبت.
- يفهمون الكلام بغرائزهم..
- يعانون من عقدة وحسد..
- متخلفون..
وما إلى ذلك..
هذا عدا عن وصمهم بأنهم عملاء مخابرات إقليمية، أو دولية، أو محلية... أو أنهم واقعون تحت تأثير المخابرات.
ثم هو يصور المراجع للناس على أنهم (ألعوبة بلهاء شوهاء) بأيدي بعض المحيطين بهم، وأنهم يأتيهم الناس بقصاصات:
(ما رأيكم بمن يقول كذا..
فيكتب هذا كذا وكذا. على طريقة ويل للمصلين..)
نعم.. إن الأمر أجل من ذلك وأخطر.
لابد من الإنصاف
ومن جهة ثانية:
فإننا نتوقع من أي مؤمن ومنصف أن لا ينظر إلى هذا الأمر على أنه خلاف شخصي بين فريق وفريق..
فكما يستبعد أن يكون شيء من ذلك قد صدر من هذا البعض، ويستبعد أن يكون هذا البعض لا يصرح له بالحقيقة حين يقول له: إن هذه الأمور مكذوبة أو محرفة..
فإننا نطلب منه أن يستبعد أيضا أن يكون العلماء، ومراجع الدين في شتى بقاع الأرض قد كذبوا على هذا الرجل.. أو أنهم يتحاملون عليه من موقع

الحقد والضغينة، فإنهم أيضا علماء مسلمون مؤمنون لهم حق علينا أن ننصفهم، وأن لا نظن بهم سوءا، وأن نسمع منهم كما نسمع من غيرهم، وأن نحتمل الخير والصلاح فيهم كما نحتمل ذلك في من عداهم.

فلا يظن السوء بفريق بعينه، ولا يتهمه ويتحامل عليه، ولا يرفض قراءة ما سجله من مخالفات، بل يقرأ لكل فريق، ويسمع من الطرفين، ويراجع المصادر ليطمئن إلى صحة ما يقال له.

موقف مراجع الأمة

ومن جهة ثالثة:

إن موقف المراجع وعلماء الأمة مما يجري.. لم يكن لأجل جر النفع إلى أنفسهم، إذ إنهم أتقى، وأجل من أن يظن في حقهم ذلك، وهم حفظة هذا الدين، والأمناء على حقائقه، وأحكامه..

وإنما هدفهم هو تحصين أهلنا وأبنائنا من الإنسياق وراء الخطأ في أمور لا تختص بفريق دون فريق.. ولا بطائفة دون طائفة، ولا بجيل دون جيل.

ويلاحظ: أن الاعتراضات قد انصبت بصورة أكبر على الجانب العقائدي، وعلى المفاهيم والقيم، وعلى التفسير وعلى المناهج التي تحكم التوجه الفكري والعقيدي والمفاهيمي ولم تركز اهتمامها - بصورة جدية - على المخالفات في نطاق الأحكام.

وما ذلك إلا لأن دائرة الأحكام تبقى محصورة في نطاق جماعة بعينها استطاع ذلك الشخص بأساليبه أن يؤثر عليها ويربطها بنفسه. وينتهي الأمر عند هذه الفئة، ولا يتعداها إلى الجيل الذي بعدها، حتى من أبنائها.

أما المفاهيم والحقائق الايمانية، وشؤون العقيدة، والتفسير فلا تقتصر على من اليه يرجع في التقليد. بل يأخذ ذلك الناس كلهم وقد يأخذونها من الحي ومن الميت على حد سواء.

فإذا كان ثمة من خطأ فإن هذا الخطأ سينتشر في هذه المجالات، ولسوف لا يقتصر الأمر على فئة دون فئة، أو جيل دون جيل.

فكان أن وقف مراجع الدين، وعلماء الأمة ليصونوا حقائق هذا الدين، حتى

ولو أهينوا وحقروا على شاشات التلفزة، وصوروا على أنهم ألعوبة في يد بعض المقربين منهم، أو يقعون تحت تأثير سياسات المخابرات.. وما إلى ذلك.

فإنا لله وإنا إليه راجعون...

خطر التحصن بالمرجعية

إن المشكلة هي أنه بعد أن افتضح الأمر في ما يرتبط بمقولات البعض الكثيرة جدا، والتي تعد - ربما - بالألوف، والمتنوعة جدا والتي تتعلق بقضايا العقيدة، وحقائق الدين والإيمان، والشعائر، والتفسير، والتاريخ وما إلى ذلك.. ونشرت طائفة من هذه المقولات، وتصدى لها العلماء ومراجع الأمة في النجف الأشرف، وفي قم المشرفة.. وسائر البلاد لجأ هذا البعض إلى أمر بالغ الخطورة، وهو التطلع إلى سدة المرجعية، ليصبح كلامه أشد تأثيرا، وأكثر قبولا عند الناس، حيث يضفي عليه هذا المقام مسحة من القداسة، وليدخل من ثم إلى وجدان الناس بطريقة عفوية، وبتسليم بعيد عن أي إحساس بالحاجة أو الميل إلى مناقشة الامر، أو إلى التفكير فيه..

ورغم أن ظهور هذه الأمور، وقيام العلماء ضدها قد بدأ قبل إعلانه عن طموحاته في المرجعية بسنوات فقد ارتفعت الضجة العارمة ضد مقولاته في سنة ١٩٩٣ م وهو إنما أعلن عن طموحات للمرجعية في سنة ١٩٩٥ م.

نعم رغم ذلك، فإنه ما فتئ يقول للناس عبر الإذاعات، وأجهزة التلفاز، وفي الجلسات الخاصة: إن السبب في قيام الضجة هو تصديه لمقام المرجعية المقدس..

ما يهمنا هنا

ومهما يكن من أمر، فإننا لم نزل نؤكد على أن ما يهمنا بالدرجة الأولى هو مقولات هذا البعض العقائدية، ولا تهمنا كثيرا آراؤه الفقهية، لأنها لا ولن تجد لها مكانا مرموقا بين فقهاء الأمة وأساطينها بعد أن كانت مرتكزة إلى منهجية بحث مرفوضة لدى علماء المذهب. غير أننا أحببنا أن نعطي القارئ الكريم صورة متكاملة ومتقاربة الملامح عن نهج هذا الرجل وعن آرائه، ولسوف يجد أنه حتى في مجال الفقه، لم يزل يقدم الدليل تلو الدليل على أنه بعيد كل البعد عن مسلك فقهاء مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في منهجه الإستنباطي غير المرضي عندهم، لأنه يعتمد القياس والاستحسان وغيرهما من مناهج غير مرضية.

أعتذاراته الموجهة اعلاميا
ونضيف إلى جميع ما تقدم أن هذا البعض كان في بدايات ظهور مقولاته إلى العلن، وتنديد مراجع الدين بها.. واعتراض علماء الأمة عليها، ورفضها وتفنيدها.. - كان - يقول:
" إنهم يقطعون كلامي.. ".
ويقول:
" إن ذلك مكذوب علي.. ".
ويقول:
" إن الأشرطة مدبلجة مخابراتيا.. ".
ويقول.. ويقول..
ولكن الذي شهدناه أخيرا هو تبدل قوي وملفت في السياسة مع المعترضين على هذه المقولات. حيث توجهت أنظاره هو ومؤيدوه إلى الاعتراف والتسليم بأنها من مقولاته، واتجهت هممهم وجهودهم إلى إثبات: أن ثمة من يوافقه عليها من أهل العلم أو من المفسرين، أو ما إلى ذلك.. وارتكبوا في هذا السبيل الكثير من جرائم التزوير، والتحريف، حتى لكلام نفس هذا البعض صاحب المقولات الذي يناصرونه، ويدافعون عنه.
ونحن إذ نشكر الله على هذا الاعتراف، فإننا نعيش أشد أنواع الأسى والألم تجاه هذه الفاجعة التي تحل بالدين من جراء هذا التزوير المتعمد والفاضح من قبل أناس يصح أن يقال فيهم: إنهم باعوا دينهم بدنيا غيرهم.
ونرى في هذا الأمر خطورة قصوى لا تماثلها خطورة.. ولا ندري كيف نوقف زحف هذا التزوير، ولا كيف نكافحه، ونقضي عليه..
وهذا الأمر لا يختص بنوع من مقولات هذا البعض دون نوع، بل هو منتشر في كل اتجاه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.
هذه هي قناعاته
ومهما يكن من أمر فإننا نذكر في هذا الكتاب موارد كثيرة من أقوال البعض توضح لنا: أن ما ذكرناه عنه لم يكن مجرد هفوة عابرة، نشأت عن عدم التفات منه أو أي سبب آخر، ليقال: إنها لا تمثل قناعة راسخة عنده..

بل إن ذلك الذي ذكرناه، وأمثاله كثير، يبين بما لا مجال معه للشك: أن هذه المقولات هي صفوة ما عنده من فكر، وأنه يتبناها، ويرددها وينشرها، وأنه يعتقد بها، ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة وحول..
شاهدنا على ذلك: أنه قد أعاد طبع بعض كتبه، ومنها كتابه المعروف باسم (من وحي القرآن) ولم يغير منه شيئا ذا بال، ولا أصلح أيا من مقولاته الخطيرة والهامة، وإنما بدل بعض العبارات التي لا تحمل في طياتها أهمية تذكر، وإذا كان يقول على المنابر وفي المناسبات، ما ربما يظهر منه خلاف ذلك، فإن إعلانه عن أن أفكاره لم تتبدل منذ الثمانينات كما أشرنا قريبا، ثم إصراره على إبقاء ما كان على ما كان يدلنا على أنه يعرف أن ما يبقى هو المكتوب، أما الخطب والمقابلات، والمداولات في المجالس فإنها تتلاشى، وتزول، وهو يسعى لإرضاء الناس بكلام مبهم من جهة، ويصر من جهة أخرى على إبقاء كل شيء على ما هو عليه، لتتداوله الأجيال من بعده، ومن يريد التأثير عليهم في العالم الإسلامي الكبير.. ليفرض على الآتين أن يفهموا ما ورد في خطبه ومداولاته الشخصية، على أنه إنما كان تحت وطأة الضغوط التي واجهها..

انظر إلى ما قيل

و لي رجاء أكيد من القارئ الكريم، هو أن يراجع كتاب (مأساة الزهراء) في طبعته الثانية التي تشتمل على كتاب (لماذا كتاب مأساة الزهراء).

وثمة رجاء آخر آمل أن لا يرده القارئ علي، وهو أن ينظر إلى ما قيل في هذا الكتاب وفي غيره، ولا يكن همه النظر إلى من قال... ولتكن القاعدة القوية والحاسمة عنده هي: (إن الحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق). و (اعرف الحق تعرف أهله) و (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي الا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون) (١).

فليراجع النصوص التي نقلناها في مصادرها، وليقارن، ليتأكد من أننا لم نقطع أوصال الكلام، ولا أخللنا بالنقل.

---

(١) سورة يونس الآية ٣٥.

وليكن رائده هو معرفة الحق ليحدد موقفه من خلال معرفة تكليفه الشرعي الذي سيطالبه الله به يوم يلقاه، حيث (لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم).
وإنا على ثقة ويقين أن من يعمل بهذه القاعدة بصدق، وينطلق منها بإخلاص، فإن الله سيشرح صدره للحق وللحقيقة، وسيكون إن شاء الله مسددا ومؤيدا من الله سبحانه... قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).
ويلاحظ هنا:
ألف: يقول بعض الأخوة: إنك إذا تتبعت مقولات هذا البعض فستجد أنه قد تعرض لمختلف الحقائق الإسلامية بالتشكيك، وربما إلى درجة النفي القاطع أحيانا.. لكن الملفت - والكلام لبعض الإخوة - أنه لم يتعرض حتى الآن بالتشكيك في الموضوعات التالية:
١ - الخمس..
٢ - الصدقات والمبرات..
٣ - المرجعية، وفقا لبعض المواصفات المناسبة!!
ويضيف هؤلاء الإخوة أمورا أخرى، لا نحب أن نتعرض لها، لأنها قد تصل إلى حد الاتهام..
ونحن لا نريد أن نتهم أحدا، لأننا نعتقد: أن الأهم من كل شيء هو إلفات نظر الناس إلى مقولات نرى أنها على غاية في الخطورة لأنها تمس جوهر مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وتهدف إلى إثارة التساؤلات والشكوك حول أهم مفردات العقيدة، والكثير من حقائق الدين..
ب: إنه ربما يشعر البعض أن ثمة درجة من الجفاء، أو الجفاف في تعابيرنا، الأمر الذي قد يفسح المجال أمام التعللات الهادفة إلى التهرب من مواجهة الحقيقة، حيث يتمكنون من إثارة عواطف الناس، وتحريك مشاعرهم، وصرفهم عن حقيقة المشكلة حيث يصور هو للناس أو يصورون لهم أنه مستهدف، وأنه مظلوم.. وأنه وأنه..
ونقول:
لا بد من ملاحظة الأمور التالية:

أولا: إن اللغة العلمية هي بطبيعتها لغة جافة، لأنها تسعى إلى وضع النقاط على الحروف، بصراحة تامة، وبأمانة ودقة.

ثانيا: إننا نرتاب كثيرا في صدقية كثير من الألقاب والمقامات والقداسات التي يحاط بها بعض الناس، ويتخذون منها ذريعة لمنع الناس من توجيه النقد، وحتى الاتهام المستند إلى الوقائع، وإلى الشواهد المكتوبة وغيرها.. التي يعطيها ذلك البعض لنفسه.. بل نقطع بما لا نحب التصريح به في هذا المجال..

ثالثا: إنه لا مجال لمجاملة من يجترئ على مقامات الأنبياء والأوصياء، ويسعى لاقتحام مسلمات الدين والعقيدة والمذهب، ولا يصح: تعظيمه وتبجيله، وهو يصف الأنبياء بكثير من أوصاف المهانة، ويصورهم بصورة، هي أقرب إلى صورة المتخلفين عقليا منها إلى صورة الإنسان العادي حتى إن شيخ الأنبياء فيها عنده بدرجة من السذاجة أنه ينظر إلى السماء نظرة حائرة بلهاء.

مع أنهم هم الذين اصطفاهم الله لرسالاته، وانتجبهم، واختارهم ليكونوا الأسوة والقدوة، والقادة، والهداة للعباد و.. وقدمهم على أنهم الإنسان النموذج، والأكمل والأفضل والأرقى، والأمثل..

إن الصورة التي يقدمها هذا البعض للأنبياء قد تجعل الانسان العادي يعيد النظر في ما عرفه وهداه إليه عقله عن الذات الإلهية، فيظن بالله الظنون - والعياذ بالله - فينسب إليه الجهل بمخلوقاته.. أو العمل على غشهم، وعدم النصيحة لهم. حيث يختار أناسا غير لائقين بما يختارهم له.

وإن ما نورده في هذا الكتاب من مقولات هذا البعض يوضح هذه الحقيقة بجلاء تام.

هذا كله.. عدا عما يصف به هذا البعض أئمة الدين، وأولياء الله. وكذلك ما يصف به السيدة الزهراء عليها السلام، مما سيمر على القارئ الكريم بعضه أيضا في قسم مستقل إن شاء الله تعالى..

والحمد لله رب العالمين.

جعفر مرتضى العاملي

إلفات نظر

إننا كنا قد اعتمدنا في بعض موارد هذا الكتاب على الطبعة الأولى من كتاب البعض والمسمى - زورا - (من وحي القرآن)، ولكن بعد أن صدرت الطبعة الثانية، آثرنا أن نعتمد عليها في سائر ما نورده من عباراته في كتابه المذكور لأن الوصول إليها أيسر، فعلى القارئ الكريم مراعاة هذه الجهة وملاحظة الطبعة الأولى فيما لا يجده في الطبعة الثانية، راجين منه أن يقبل اعتذارنا عن هذا الأمر.

تمهيد

حيث لا بد من الإشارة:

قد عرفنا: أن البعض قد أفصح في كتبه ونشراته، وفي محاضراته، ومحاوراته الإذاعية وغيرها عن أمور أثارت جوا معينا.. وقد كتبنا كتابنا (مأساة الزهراء (ع) شبهات وردود)، للرد على بعض من ذلك..

وقبل أن نضع أمام القارئ بعضا آخر مما قاله ذلك البعض، مما يحتاج إلى توضيح أو تصحيح، نذكر بالأمور التالية:

الأمر الأول:

إن بعض مسودات هذا الكتاب قد سرقت وبيعت بمبالغ كبيرة، في محاولة لعرقلة صدور هذا الكتاب والحد من تأثيره، ولنا أن نتوقع في نطاق الإصرار على هذه المقولات بعضا مما عرفناه وألفناه، كما كان الحال حين صدر كتابنا: (مأساة الزهراء (ع) شبهات وردود).

الأمر الثاني:

إن ما يحويه هذا الكتاب من مؤاخذات، ليس هو من الأمور التي يمكن إغماض النظر عن أي مورد منها، فلو فرضنا - وفرض المحال ليس محالا - أنه أمكن تلمس بعض التأويلات لموارد قليلة مما ذكر، فإنه لا يمكن الاكتفاء بذلك، وغض النظر عن الباقي، لأن كل مورد فيه له أهمية كبيرة، وقسم منه يتمتع بدرجة عالية من الحساسية والخطورة، فيما يرتبط بالتكوين الفكري، على مستوى المذهب.

الأمر الثالث:

إننا نتوقع أن تنصب ردودهم وإثاراتهم على الأمور التالية:

١ - سيقولون إنها نصوص مجتزأة لا تمثل الحقيقة كلها.
ونحن نرجو من القارئ الكريم أن يتأكد من الأمر بنفسه، ليجد: أن هذا الكلام ليس دقيقا.
٢ - سيقولون إن كلام ذلك البعض لم يفهم على حقيقته، أو إنه لا يقصد ما فهم منه..
ونقول:
أولا: إننا نطلب من القارئ الكريم أن يراجع كلام ذلك البعض، ليفهمه بنفسه، ليتبين له هل يصح أن يعتمد على ما يقال له من تأويلات بعيدة عن ظهور الكلام ودلالاته، أم لا يصح له ذلك.
ثانيا: ليكتب صاحب تلك المقولات إيضاحات لمقاصده، ويضمها إليها، (ليقرأها القارئ معا مباشرة، ويكون بذلك قد حصنه عن الوقوع في فهم خلاف مقصوده.
٣ - قد يقال: إن هذا الكلام قد قيل في مقامات مختلفة تختلف وتتفاوت، ولكل مقام مقال..
ونقول:
لا بد من بيان خصوصيات المقام الذي قيل فيه، إذا كانت تلك المقامات بمثابة قرائن متصلة على المراد؛ ليعرف الناس ذلك؛ فإن الناس لا يعلمون الغيب، ومن سيولد بعد مئة سنة سيكون أبعد عن هذه المقامات، وعن معرفة تأثيرها في دلالة الكلام.
كما أن لنا أن نسأل هنا:
هل المقام الذي قيل فيه هذا الكلام يفرض هذه التنازلات، أو تلك الإعترافات؟!
وهل ستستمر سلسلة التنازلات هذه في المقامات المختلفة؟!
وهل سيأتي يوم نتنازل فيه عما هو أهم وأعظم؟!
وهل هذا الحشد الهائل هو من بوادر ذلك وإرهاصاته؟!

وهل كل هذا الكم الهائل وسواه أضعاف كثيرة، قد اقتضته المقامات المختلفة؟!
أم إن أكثره قد كتب ونشر بمبادرة مباشرة، ومن دون أن يكون ثمة مقام يقتضيه؟ أو يفرض له وعليه قيودا وحدودا؟!..

٤ - قد يقال: لماذا تتمسك بهذا القول بالذات، وتترك ما سواه من أقوال أخرى لهذا البعض نفسه؟.

وجواب ذلك واضح:

أولا: إن الطبيب إنما يلاحق موضع الداء، ويضع إصبعه على الجرح ويعالجه، ولا شغل له بما هو صحيح وسليم.

ثانيا: إن ذلك البعض قد أعلن في ندوة له قبل مدة يسيرة: أنه مسؤول عن كل ما كتبه منذ ثلاثين سنة وهو ملتزم به (١).

وقال أيضا:

" إنني عندما انطلقت في العمل الإسلامي والفكري منذ ما يقارب ال ٤٥ عاما كنت أعتقد في كل ما كتبت وحاورت وحاضرت وكانت حصيلة ذلك عشرات الكتب وآلاف المحاضرات " (٢).

وهذا الذي نقدمه هو بعض ما صدر منه وعنه.

ثالثا: إذا كانت أقوال هذا البعض متناقضة، فليدل على الصحيح منها، ليؤخذ به، وليبين للناس الفاسد ليجتنب عنه، فإن بيان ذلك من مسؤولياته، أيضا، كما أن من مسؤولياته أن لا يتكلم بالمتناقضات.

٥ - قد يقال: إن بعض الموارد التي يرد عليها الإشكال، قد ذكرت لها في مواضع أخرى حدود وقيود تجعلها مقبولة ومعقولة..

ونقول: إن من الواضح أن من يكتب شيئا في مقالة ما، فإنه لا يصح له أن يطلب من الناس أن يقرأوا ما كتبه طول عمره، ليعرفوا ماذا يقصد بكلامه في مقالته تلك، وليس له أن يؤخر البيان عن وقت الحاجة، فيفصل بين مراده وبين الشاهد والقرينة عليه؟!

---

(١) ندوة في مناسبة ولادة الزهراء في هذه السنة ١٤١٨ ه. ق. (قاعة الجنان).

(٢) نشرة بينات العدد الصادر في ٢٥ - ١٠ - ١٩٩٦.

وما هو الداعي له ليجعل البيان في كتب أخرى، فإن الأولى هو إصلاح نفس الكتاب الذي يشتمل على الخطأ، ثم إعادة طباعته، أما تسجيل الإصلاح في كتب قد لا تصل إلى جميع من سيقرأ له؟.. أو في محاضرة أخرى قد لا يسمع بها قراء مقالته تلك، ولا تمر عليهم؟! فلا أثر له، ولا يمكن أن يحل المشكلة، لا سيما مع تكرر صدور هذه المقولات عنه.

بل لماذا يجعل الجواب في موضع آخر من الكتاب نفسه، خصوصا إذا كان ذا أجزاء عديدة، قد تصل إلى خمسة وعشرين جزءا، حيث لا يخطر في بال الكثيرين أن يقرأوه كله، وإذا خطر ذلك لبعضهم، فقد لا يمكنه ذلك.

وهل يصح أن يقال: إنه من أجل معرفة المراد من آية قرآنية، لا بد من قراءة تفسير القرآن كله بجميع أجزائه؟!

ثم ما هي الضمانة في أن تصل تلك الموارد التي تتضمن الفكرة الصحيحة للأجيال اللاحقة، فلعلها تضيع - كما ضاع غيرها - وتصل إليهم الأفكار التي هي موضع الإشكال.

٦ - قد يقال لك في بعض الموارد: قد ذهب فلان من العلماء إلى هذا القول، أو إلى ذاك القول..

ولكن لماذا لا يقال لك: إن ألوفا بل عشرات الألوف على مر التاريخ، وكلهم من كبار العلماء، وأفذاذ الرجال قد قالوا بخلافه؟!..

ولماذا لا تلاحظ الحقيقة التي تقول: إن معالم المذهب إنما تؤخذ من مشهور علمائه، الذي يمتلك الأدلة القاطعة على ذلك، ولا يصح نسبة رأي شذ به هذا العالم أو ذاك العالم إلى المذهب. فمثلا لا يصح أن يقال: الشيعة يقولون ويعملون بالقياس لأن واحدا من علمائهم كان يعمل به - لو صحت النسبة إليه - فإن رفض القياس معروف من مذهب الشيعة، فمن يقول به يكون مخالفا للتشيع، حتى وإن كان ثمة عالم من السابقين يقول به، وإن الزواج المؤقت معروف من مذهب الشيعة، فلا يصح الخروج على ذلك، بحجة أن فلانا العالم قد ذهب إلى رأي آخر.

ولو أردنا أن نجمع شذوذات العلماء إلى بعضها البعض، فقد يتكون

لدينا مخلوق جديد، له مواصفات وحالات تجعله أعجوبة، ما دام أنه قد لا يشبه أيا مما نعرفه ونألفه.

على أن من الواضح: أن كثيرا من الأمور الإيمانية، لا بد أن تؤخذ من النصوص، وقد جمعت تلك النصوص من كتاب إلى كتاب، ومن عالم إلى عالم، في ذلك الزمان الصعب، وضم بعضها إلى بعض بصورة تدريجية، حيث تبلورت النظرة من خلال ذلك، وقد كان طبيعيا أن يتأخر الالتفات إلى بعض القضايا، أو أن يعطي عالم ما رأيا خاطئا فيها، ولا سيما إذا كانت من الأمور التفصيلية، أو تلك التي تحتاج إلى توثيق وتدعيم بالشواهد الكثيرة، والنصوص الغزيرة، خصوصا إذا كان أمرا يقل التعرض لذكره، أو يصعب الانقياد له..

وكجزء من التمهيد نذكر ما يلي:

١ - عقائد الشيعة (متوارثة).

٢ - عقائد الشيعة قد يكون فيها الخطأ.

٣ - هل في عقائد الشيعة بدع؟!!.

٤ - أسعى لاقتحام المسلمات.

لقد قدم إلى البعض سؤال يقول:

هناك فكرة لدى البعض مفادها لزوم ترك التحدث في الأمور العقائدية، حتى ولو كانت محل حاجة الناس الفكرية، والاقتصار في ذلك على المجالس الخاصة للعلماء، وذلك خوفا من أن تتزلزل عقيدة العامة، فهل في الإسلام ما يبرر كتمان العلم والاقتصار على تثقيف الخاصة وحسب، وما هو الصحيح في هذه الفكرة؟

فاعتبر أن هذا الطرح قد جاء بدافع الخوف على موروثاتهم.. لا أنه جاء بدافع الحرص على عدم إدخال الناس في بلبلة فكرية واعتقادية، فهو يقول:

" يخاف البعض أن يؤدي طرح المسائل الفكرية والعقائدية إلى مس أفكار متوارثة قد تكون صحيحة وقد لا تكون ".

ويقول:

" بأنه ليس من حق أي عالم أن يطرح القضايا التي تثير الجدل أمام الناس، وأن عليه أن يقتصر في ذلك على العلماء الذين يناقشهم ويناقشونه حذرا من (ضياع) الناس.

وربما يلاحظ علي بعض إخواننا أنني أطرح القضايا وأثير التساؤلات في الهواء الطلق، ويعتبرون أن بعض الأفكار المطروحة قد تصدم الذهنية العامة المتوارثة، ويرون أن ذلك خطا، لأنه يولد جدلا ومشاكل تضعف عقائد الناس " (١).

ثم بدأ يستدل على صوابية موقفه بأن القرآن قد طرح أفكار المشككين في النبي، كقولهم ساحر، مجنون، وكاذب، ثم قال:

" ولو أن كل مصلح أو عالم أخفى أفكاره عن الناس، فكيف ستصل الحقيقة إليهم " (٢).

نعم، لقد قال هذا البعض ذلك، مع أن القرآن إنما ذكر أقوال المشركين في مقام الإنكار والتهجين لها، هذا مع أنها ليست أفكارا وإنما هي شتائم.

ثم إن ذلك البعض خاطب الناس بقوله:

" لا تبيعوا عقولكم لأحد، ولا تبقوا على جمودكم على غرار ما ذكرته الآية الكريمة: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (الزخرف ١٣)، لأن كل جيل يجب أن ينفتح على الحقيقة وفق ما عقله وفكر به ".

ولكن قد فات ذلك البعض أن عدم إشراك العامة في البحث الفكري والعقائدي - عند القائلين بذلك - إنما هو في مرحلة التحقيق، لا في إطلاعهم على النتائج، ولا يلتزم القائلون بهذا القول، بعدم إشراك جميع الناس في ذلك، بل يقتصرون على من ليس عندهم الأهلية للتحقيق.

وهذا لا ينطبق على الأمور الفكرية والعقائدية فقط، وإنما على جميع العلوم، فلا يتوقع أو يطلب من باحث الطب أن يشرك أو يطلع جميع الناس على تدرجه في البحث مرحلة فمرحلة، ولا الباحث الفيزيائي، ولا سواه في أي علم من العلوم، فلا معنى لقول البعض:

" لو أن كل مصلح أو عالم أخفى أفكاره عن الناس، فكيف ستصل الحقيقة إليهم ".

فإن ثمرة جهد الباحثين والمحققين ستصل إلى الجميع، وتكون مشتركة بينهم، وتعمهم فائدتها.

---

(١) بينات العدد الصادر بتاريخ ٢٥ - ١٠ - ١٩٩٦.

(٢) المصدر السابق.

وسيأتي كلامه بنصه الحرفي والذي يعتبر فيه أن المشكلة هي: أن الشيعة لا يريدون أن يتنازلوا عن شيء مما ورثوه.
ثم يقول:
" إنني أشعر بأن مسؤولية العالم أن يظهر علمه إذا ظهرت البدع في داخل الواقع الإسلامي وخارجه، وإذا لم يفعل ذلك (فعليه لعنة الله) كما يقول النبي (ص)، والله تعالى قال: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (البقرة ١٥٩) " (١).
إذن، فهو يرى أن ما يطرحه هو البينات والهدى، وأن هناك بدعا في عقائدنا، وأن عليه أن يظهر علمه لإزالتها، على أساس أنه لا يؤمن بأن الناس عوام يجب أن نبقيهم على جهلهم.
حيث يعقب ذلك بقوله:
" أنا لا أؤمن بأن الناس عوام يجب أن نبقيهم على جهلهم، إنما يجب أن نثقفهم ليعوا دورهم ومسؤولياتهم في الحياة وأمام الله تعالى.
إني أرى أن من الخطأ إثارة القضايا في المجالس الخاصة وحسب، بل لا بد من أن نثيرها في المجالس العامة بالطريقة التي تحقق للناس توازنا في فهمهم وأفكارهم، حتى يعيشوا ثقافة الإسلام بوعي وفهم وتدبر لأن الله لم يخاطب الخاصة ليحولهم إلى طبقة مغلقة، ولكنه خاطب الناس والمؤمنين جميعا.
وإذا كان بعض الناس يختلفون معي في الرأي أوفي فهم القضايا لأن لهم وجهة نظر أخرى، فليس معنى ذلك أن آرائي التي أطرحها تؤدي إلى نتائج سلبية على مستوى الحقيقة أو في الواقع، بل قد تكون سلبية على مستوى آرائهم. وإذا كان هؤلاء لا يجدون مشكلة في طرح أفكارهم على الناس لأنهم يرون صوابيتها، فما المشكلة في طرح أفكار أخرى يعتقد أصحابها بصوابيتها؟ علما أن اختلافك مع الآخر لا يعني أنك تمثل الحق المطلق، ليكون الآخر في موقع الباطل المطلق ".
إذن، فهو يعتبرها أفكارا في مقابل أفكار، وآراء في مقابل آراء، ووجهات نظر تقابلها وجهات نظر أخرى، وعقائد موروثة.. وقد يكون فيها الخطأ.
غير أن الذي لم يتضح بعد، هو أنها إذا كانت كذلك، كيف ثبت له أن ما

---

(١) نفس المصدر.

عدا أفكاره ووجهات نظره وآراءه هو بدع لا بد من إظهار علمه لإزالتها؟!..
ومهما يكن من أمر، فإن ذلك يجعلنا نفهم ما يرمي إليه حين يعلن أنه: " يسعى لاقتحام المسلمات "، فهو يقول:
" إنني أحاول أن أبحث عن الحقيقة، وأسعى إلى اقتحام المسلمات، لأن المسلمات قد تكون ناتجة من حال ذهنية معينة وقد تصير مسلمات وهي ليست كذلك. بعض الناس يخاف اقتحام المسلمات وحتى اقتحام المألوف. ولكن عندما نريد أن نصنع تاريخنا وفكرنا علينا أن نفكر على أساس البحث عن الحقيقة ومراعاة واقع العصر ".
وأضاف:
" على صاحب التفكير المنفتح أن يتحمل ضربات التيار الذي يقف في وجهه، وأن يتحمل الرجم بالحجار الاجتماعية والسياسية " (١).

----

(١) جريدة النهار بتاريخ ٢٩ / ٧ / ١٩٩٧ م.

المقصد الأول:
المنهج الفكري والإستنباطي
(قواعد ومبان للفكر والاستنباط)

الفصل الأول:
قواعد ومناهج

بداية

قبل الشروع في استعراض مقولات هذا البعض على مختلف الصعد الدينية، والفقهية، والأصولية، والعقائدية، والتفسيرية، وغيرها، أحببت أن أعطي القارئ الكريم لمحة عن الطريقة الفكرية والمنهج الإستنباطي الذي ارتضاه هذا البعض لنفسه، ليكون لديه هو الآخر صورة عن هذا المنهج فإن ذلك سيساعده على فهم كثير من الأمور التي سترد عليه في أقسام الكتاب المختلفة، إذ لا ريب أن أولى الأولويات في سياق الهدف الذي ننشده من وراء الكتاب هو إحاطة القارئ الكريم بضوابط البحث وقواعد الإستدلال التي يعتمدها البعض ليسهل عليه بعد ذلك، وفي كل مورد مورد، تطبيق ما عرفه من قواعده وضوابطه - إن صح تسميتها ضوابط -، وليتضح له أن الأمر ليس مجرد فلتة لسان هنا، أو زلة هناك، بل إن هناك منهجا كاملا مضطرب الأركان مختل الركائز، قد نسج من شذوذ في بعض سماته، ومن شبهات في بعضها الآخر، ومن أباطيل وتزييفات في عمدة ملامحه حتى غدا مخلوقا عجيبا لا تجد له نظيرا في فكر مفكر أو منهج مذهب من المذاهب، لا يراد به إلا خدمة غرض معين يعلمه الله تعالى، ونحن بفضل الله نعلمه، فعسى القارئ الكريم أن يعلمه أيضا، فإلى ملامح هذا المنهج في العناوين التالية:

المنهج الإستنباطي

إننا فيما يرتبط بالمنهج الإستدلالي لذلك البعض، نكتفي بذكر النقاط التالية:

٥ - العمل بالقياس عند الحاجة ولو في مسألة واحدة.

٦ - النهي عن القياس لأجل عدم الحاجة إليه.

إنه لا مانع عند البعض من العمل بالقياس وغيره من الطرق الظنية في أي

مورد لا يجد في الكتاب وفي الحديث، ما يفيد في إنتاج الحكم الشرعي. على اعتبار أن نهي الأئمة عن العمل بالقياس إنما هو بسبب عدم الحاجة إليه. فإذا احتاج الناس إليه ولو في مسألة واحدة فلا مانع من العمل به (١).

وقد صرح بذلك في كتابه تأملات في آفاق الإمام الكاظم عليه السلام، (كما سنرى.. مع أن ما ورد عن أئمة أهل البيت من النهي الصحيح والصريح عن القياس لا مجال للنقاش فيه، وهو معروف من مذهب الشيعة الإمامية..

ونختار بعض ما كتبه ذلك البعض حول موضوع القياس، فهو يقول:

" جاء في الحديث عن الإمام موسى الكاظم (ع) ما رواه المفيد بسنده عن الحسن بن فضال عن أبي الفراء عن سماعة عن العبد الصالح: سألته فقلت: إن أناسا من أصحابنا قد لقوا أباك وجدك وسمعوا منهما الحديث فربما كان شيء يبتلى به بعض أصحابنا وليس عندهم في ذلك شيء يفتيه، وعندهم ما يشبهه، يسعهم أن يأخذوا بالقياس؟ فقال: لا، إنما هلك من كان قبلكم بالقياس، فقلت له: لم لا يقبل ذلك؟ فقال: لأنه ليس من شيء إلا جاء في الكتاب والسنة.

إن هذا الحديث يوحي بأن رفض القياس كان بسبب عدم الحاجة إليه لشمولية الكتاب والسنة لكل ما يحتاجه الناس من الأحكام الشرعية في شؤون الحياة العامة والخاصة بحيث يمكنهم أن يجدوا فيها المعالجة الخاصة للقضايا الجزئية، والمعالجة العامة للقواعد

الكلية المنفتحة على أكثر من موقع.. فيكون الرجوع إلى القياس رجوعا إلى ما لا ضرورة له، بالإضافة إلى أنه لا يملك أساسا للحجية لأنه يعتمد على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، لا سيما أن علل التشريع قد لا تكون واضحة وضوحا كليا بالمستوى الذي يستطيع الإنسان أن يدرك معه أساس التشريع في هذا المورد بشكل قطعي ليستنتج من ذلك حكم المورد الآخر الذي يشابهه، فقد يدرك الإنسان جانبا من المدرك ويغفل عن الكلية التي تزن الأمور بميزان دقيق، حيث يختلف في الموضوع حسب الإنطباعات الذاتية في فهمهم لأسرار الحكم والموضوع معا ".

إلى أن قال:

" وقد ورد في بعض الروايات أن الإمام موسى الكاظم سأل أبا يوسف عندما سأله عن الفرق بين التظليل للمحرم في الركوب وفي النزول، فقال له ما تقول

---

(١) تأملات في آفاق الإمام الكاظم ص ٤٠ - ٤٤ ولا سيما ص ٤٣.

في الطامث أتقضي الصلاة؟ قال: لا، قال: فتقضي الصوم؟ قال: نعم. قال: ولم؟ قال: هكذا جاء. فقال أبو الحسن: وهكذا جاء هذا.

وهذا الذي أراد أهل البيت أن يؤكدوه، وهو أن دين الله لا يصاب بالعقول، لأن العقول تدرك بعض الأمور ولكنها قد تغفل عن إدراك البعض الآخر مما يوحي بأن الحكم الشرعي لم يستكمل ملاكه بشكل دقيق وهذا ما نلاحظه في اختلاف الحكم في بعض الموارد المتشابهة في أكثر من وجه كما في الصلاة والصوم اللذين تجمعهما الناحية العبادية، ولكن حكمهما في القضاء مختلف، وهكذا أمر الله في كتابه بالطلاق وأكد فيه شاهدين ولم يرض بهما إلا عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج وأهمله بلا شهود.

وربما نستفيد من الحديث الأول الذي يؤكد عدم الحاجة إلى القياس لوفاء الكتاب والسنة بجميع الأحكام، أن الأمر لو لم يكن كذلك بحيث كانت هناك حاجة ملحة إلى معرفة الحكم الشرعي لبعض الأمور ولم يكن لدينا طريق إلى معرفته من الكتاب أو السنة، فإن من الممكن أن نلجأ إلى القياس أو نحوه من الطرق الظنية في حال الإنسداد انطلاقا من أن الاعتماد على الطرق الظنية العقلائية أو الشرعية كان مرتكزا على الحاجة إليها لإدارة الشؤون العامة للناس بحيث لولاها لاختل نظام حياتهم لأن العلم وحده لا يكفي في ذلك، ولكننا قد لا نحتاج إلى ذلك لأن في القواعد العامة كفاية، ولأن في توسعة الاستظهار بإلغاء الخصوصية التي تجمد الحكم في مورد خاص من جهة الفهم العرفي الذي لا يجد للخصوصية أساسا في الحكم ونحو ذلك " (١).

ويقول أيضا:

" إننا نتصور أنه لا بد لنا من أن ندرس هذه الأمور دراسة أكثر دقة وأكثر حركية باعتبار أننا نستطيع في حال استنطاق الحكم الشرعي الوارد في هذا المورد نستطيع أن نصل إلى اطمئنان في كثير من الحالات من خلال دراستنا لعمق الموضوع الذي نحيط به من جميع جهاته مقارنا بموضوع آخر مشابه له في جميع الحالات مما يجعل احتمال اختلافهما في الحكم احتمالا ضعيفا بحيث لا تكون المسألة ظنية بالمعنى المصطلح عليه للظن، بل قد تكون المسألة تقترب من الاطمئنان إن لم تكن اطمئنانا، إن المشكلة هي أن الدراسة الأصولية والفقهية تؤطر ذهنية الإنسان في هذه الدائرة

---

(١) تأملات في آفاق الإمام الكاظم ص ٤٠ - ٤٤. ويلاحظ: ان هذا البعض ينسب هنا كتاب الإختصاص المتضمن للمصائب التي جرت على الزهراء للشيخ المفيد رحمه الله تعالى الذي ينسب إليه إنكار ذلك أو على الأقل عدم ذكره لهذا الأمر في مؤلفاته..

الضيقة. ومن هنا ينشأ الإنسان وفي قلبه وحشة من أن يمد الحكم الثابت لموضع إلى أمثاله، لأن ما أسميه لغة القياس التي تألفها الذهنية الشيعية تجعل كل شيء قياسا عندهم حتى ولو كان الاحتمال احتمالا بعيدا جدا، لأنهم إذا لم يستطيعوا أن يشيروا إلى خصوصية الاحتمال في مضمونه، فإنهم يطلقون الاحتمال في المطلق ويقولون إن الله اعلم بالخصوصيات ونحن لا طريق لنا إلى معرفتها بحيث يغلقون الباب على أي استيحاء واستلهام للملاك الشرعي.

حتى إننا نجد بعض الأصوليين عندما يتحدثون عن مورد من الموارد التي كانت متعلقة بالأمر الذي يكشف عن وجود ملاك ملزم في الموضوع، فإننا نراهم أنهم إذا حدث هناك أي عنوان يسقط الأمر؛ إما من جهة عدم القدرة أو من أي جانب من الجوانب أو من جهة التزاحم بأمر آخر أهم مثلا، بحيث يصبح الموضوع من دون أمر، فإنهم يقولون إنه لا يمكننا أن نتقرب، إذا كان المورد مما يتقرب به إلى الله بالملاك عينه لأننا لا نحرز وجود الملاك إلا من خلال الأمر، وإذا سقط الأمر ولو من خلال أشياء أخرى طارئة خارجية عن ذات الموضوع فإننا لا نحرز الملاك، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نعتبر هذا الموضوع واجدا للملاك الشرعي بحيث نرتب عليه آثار أي موضوع وارد من ملاكه، فيما هي من آثار الملاك.

ما نتصوره أن علينا أن نعيد دراسة الأحاديث التي وردت في رفض القياس عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، لأن الواضح أن بعض القضايا التي رفض فيها نقل الحكم من موضوع إلى موضوع آخر كانت منطلقة من أن السائل اعتقد الملاك في جانب مقاس بينما كان الملاك شيئا آخر لا يسمح بهذا القياس، لأنه لا يحقق عناصر القياس كما نلاحظ في رواية أبان بن تغلب عن أبي عبد الله الصادق (ع) (قال: قلت له: ما تقول في رجل قطع إصبعا من أصابع المرأة؟

قلت: كم فيها؟

قال: عشر من الإبل.

قلت: قطع اثنتين.

قال: عشرون.

قلت: قطع ثلاثا.

قال: ثلاثون.

قلت: قطع أربعا.

قال: عشرون.
قلت: سبحان الله، يقطع ثلاثا فيكون عليه ثلاثون، ويقطع أربعا فيكون عليه عشرون!؟... إن هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قاله، ونقول: الذي جاء به شيطان!؟ فقال: مهلا يا أبان! هذا حكم رسول الله (ص) إن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية، فإذا بلغت الثلث رجعت إلى النصف. يا أبان إنك أخذتني بالقياس. والسنة إذا قيست محق الدين).

" إذا تنطلق المسألة من جانب آخر، لا من جانب العدد بالمقام، وإنما من جانب طبيعة مشاركة المرأة في العقل الديتي (أي الدية) التي تتحملها العاقلة، فالقضية لها جانب آخر هو تصور الملاك في جانب ولكن هناك ملاك آخر في جانب آخر، ربما نجد بعض الحالات التي لا مجال فيها حتى للقياس، كما في قضية قضاء الصوم بالنسبة إلى ذات العادة وعدم قضاء الصلاة وهكذا.. إنني أتصور أن ثمة مسلمات درج عليها الأصوليون والفقهاء في الحكم الشامل بالنسبة إلى القياس.

ويمكننا أن نعيد النظر فيها، فلعلنا نكتشف شيئا جديدا. وفي هذا الإطار، لا بد من الإلفات إلى أحد محفزات العمل بالقياس عند بعض المذاهب، وهو انطلاقه من ضرورة معرفة الأحكام مع قلة الأحاديث الصحيحة، فلجأ هذا البعض إلى القياس لملء الفراغ كما حصل مع الإمام أبي حنيفة الذي كان أول من نظر للقياس وعمل به، إذ لم يصح عنده من أحاديث النبي (ص) إلا ثمانية عشر حديثا حسب ما أذكر. بمعنى أنه لا يملك أي مصدر لاستنباط الحكم الشرعي، وهذا ما نعبر عنه بانسداد باب العلم والعلمي، ومن الطبيعي أنه إذا انسد باب العلم بالأحكام أو باب الحجج الخاصة، أي ما يعبر عنه بالعلمي، فإننا لا بد أن نرجع إلى حجية الظن على بعض المباني، كمبنى الكاشفية، بمعنى أن العقل يحكم بذلك عند فقدان كل الوسائل لمعرفة الحكم الشرعي مع وجود علم إجمالي بوجود حكم شرعي لم يسقط. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يجعل الله حجة ويكون الظن حجة، وعند ذلك يكون القياس أقرب الحجج من هذا الموضوع.

ومن خلال هذا نفهم أن مسألة رفض القياس لدى أئمة أهل البيت (عليهم السلام) قد يكون منطلقا من أن هناك أحاديث في السنة الشريفة واردة بشكل واسع جدا لا يحتاج فيه إلى القياس لأن باب العلم مفتوح من جميع الجهات مثلا، سواء أكان من خلال القواعد العامة أم من خلال النصوص الخاصة " (١).

---

(١) مجلة المنطلق عدد ١١١ ص ٧٦ - ٧٩.

ونعتقد أن فساد القياس في مذهب أهل البيت أشهر من أن يحتاج إلى بيان أو إقامة برهان..
٧ - سيرة العقلاء تشرع للإنسان المسلم أحكامه.
٨ - بناء العقلاء يشرع للمسلم أحكامه.
ويقول البعض:
" لا نتحدث عن منهج جديد، فالمنهج هو المنهج، وهو الانطلاق من كتاب الله، وسنة نبيه (ص)، وما استوحى الفقهاء والأصوليون منهما في عملية تقعيد الفقه أو ما انفتح فيه الفقهاء على بناء العقلاء وسيرة العقلاء، باعتبارهما المصدرين اللذين لا يشرعان للمسلم أحكامه فحسب، ولكنهما قد يطلان على جانب من جوانب السنة التي
هي قول المعصوم وفعله وتقريره " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
ظاهر العبارة: أن بناء العقلاء وسيرتهم لهما مهمتان: الأولى، أنهما يشرعان للمسلم أحكامه، والثانية: أنهما قد يطلان على قول المعصوم وفعله وتقريره.
فهو إذن يرى لبناء ولسيرة العقلاء حق التشريع، استقلالا، تارة، وبإمضاء المعصوم أخرى بقرينة قوله الأخير: قد يطلان على جانب.. الخ.
ولكننا نلاحظ:
أنه قد أسهب في باقي كلامه الذي لم ننقله في الحديث عن الشق الثاني، وربما أمكنه بذلك أن يدعي أن هذه كانت زلة لسان، لا تعبيرا صادقا عما في الجنان؟!
٩ - ربط الناس بالعقل أغنى عن النبوة.
ويقول البعض في جواب على سؤال:
لماذا تتغير النبوات، ولماذا اختتمت بالإسلام بالمعنى المصطلح؟
الجواب:
" انطلقت النبوات من خلال حاجات الناس إلى خطوطها ومفرداتها العامة، ثم تطورت حاجات الناس فانطلقت نبوات جديدة حتى كان الإسلام الذي ربط

----
(١) مجلة المرشد عدد ٣ - ٤ ص ٢٤٤.

الناس بالعقل، وبالخطوط العامة ليستطيعوا من خلاله أن يطوروا حياتهم بحيث لا حاجة بعد ذلك إلى نبوة جديدة " (١).

١٠ - النصوص المتوافقة مع ذهنيات المجتمعات القديمة هي سبب الخطأ.

ونجده يصف النصوص الإسلامية التي كان الفقهاء يتحركون في دائرتها بأنها متوافقة مع الذهنية الاجتماعية التي كانت سائدة في العصور السابقة ويعتبر ذلك هو السبب في عدم كون المعرفة على هذه الدرجة من الصحة، فهو يقول معللا سبب حصول المعرفة الأصح بالنسبة للنظرة الإسلامية حول المرأة:

" ربما يعود ذلك إلى الآفاق الجديدة التي فتحت في العالم، الأمر الذي جعل العلماء يفكرون في الجانب الآخر من الصورة، وقد كانوا مستغرقين في الجانب الوحيد الذي عاشوه في دائرة مجتمعهم وفي دائرة النصوص المتوافقة مع الذهنية الاجتماعية السائدة " (٢).

١١ - الحكم الشرعي يتغير تبعا لتغير الاجتهاد.

يقول البعض:

".. إنه يعني الرأي المستمد من القواعد الشرعية في فهم النصوص الدينية في الكتاب والسنة.. فيما يفهمه المجتهد منها وفيما يستوحيه مما ينسجم مع أجواء النص وإيحاءاته فلا يمكن له أن يعطي رأيا في مقابل النص، أو يضع حكما لم يرد به نص، ولم تفرضه قاعدة فقهية مستمدة من الكتاب والسنة.. حتى العقل الذي اعتبره بعض المجتهدين دليلا من أدلة الأحكام.. لا بد له أن يتحرك في نطاق الأفكار القطعية التي لا يقترب إليها الشك فيما يستفيده من ملاكات الأحكام.. فلا مكان للحكم العقلي الظني في ذلك من قريب ومن بعيد..

إن الاجتهاد الإسلامي.. هو اجتهاد في فهم الإسلام.. وليس اجتهادا ذاتيا يستمد أفكاره من حركة الواقع.. ولا مانع من أن يتغير الحكم الشرعي تبعا لتغير الإجتهاد.. ولكن تغير الاجتهاد لا يخضع للتغييرات الحاصلة من الخارج بل من خلال اكتشاف خطأ في الإجتهاد السابق.. على أساس خلل في فهم النص أو تطبيقه.. أو في قاعدة شرعية هنا.. ربما لا يكون لها مجال في هذا المورد أو ذاك لأن قاعدة شرعية أخرى.. هي الأولى في هذا الموضع.. أو ذاك.. وعلى ضوء ذلك.. يبقى الإجتهاد متحركا، في

---

(١) نشرة فكر وثقافة العدد ٢٢ بتاريخ ٢٣ - ١١ - ١٩٩٦.

(٢) دنيا المرأة ص ٢٩.

نطاق حدود علمية معينة تحفظه عن الانحراف وتصونه عن الزلل.. وتحركه في اتجاه الاكتشاف الأمين للحكم الشرعي الذي أنزله الله في كتابه، أو أوحى به إلى نبيه.. فلا مجال لتطوير الإسلام من خلال الإجتهاد.. بل كل ما هناك.. أن نجتهد في دراسة مدى انسجام خطوات تطور الإسلام في التشريع، أو ابتعادها عنه.. لنحدد موقفنا من ذلك على هذا الأساس.. لأن حكم الله هو القاعدة للحياة، وليست القضية بالعكس " (١).

وقفة قصيرة

إن نظرية التصويب في الإجتهاد التي يقول بها جمهور علماء السنة مرفوضة عند الشيعة، ويرونها نظرية باطلة من الأساس.

والمراجع لكلمات القائلين بالتصويب الباطل يجدهم فريقين:

أحدهما: يقول: إنه ليس في الواقعة حكم أصلا، بل الله ينشئ الحكم وفق اجتهاد المجتهد وظنه، فيتعدد الحق بتعدد المجتهدين.

الثاني: يرى: أن كل مجتهد مصيب، وإن كان الحق مع واحد، وهو الذي وافق اجتهاده الحكم الواقعي الذي جعله الله، فلله سبحانه وتعالى حكم واقعي، لكن إذا أدى ظن المجتهد إلى حكم مخالف له فإن الله سبحانه تعالى ينشئ حكما على وفق ظنه واجتهاده، فيصير المجتهد بذلك مصيبا، وإن كان قد أخطأ الحكم الواقعي.

ومن تصريحاتهم الدالة على ما يذهبون إليه من التصويب:

١ - قول الشهاب الهيثمي في شرح الهمزية على قول البوصيري عن الصحابة: (كلهم في أحكامه ذوو اجتهاد - أي صواب - وكلهم أكفاء).

٢ - وعن العنبري في أشهر الروايتين عنه: (إنما أصوب كل مجتهد في الذين يجمعهم الله، وأما الكفرة فلا يصوبون) (٢).

٣ - وقال الشوكاني: (ذهب جمع جم إلى أن كل قول من أقوال المجتهدين فيها، (أي في المسائل الشرعية التي لا قاطع فيها) حق، وأن كل واحد منهم مصيب، وحكاه الماوردي والروياني عن الأكثرين، قال الماوردي: (وهو قول أبي الحسن الأشعري والمعتزلة).

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٩ ص ٢١٢ و ٢١٣.

(٢) إرشاد الفحول ص ١٥٩.

إلى أن قال: (وقال جماعة منهم أبو يوسف: إن كل مجتهد مصيب، وإن كان الحق مع واحد، وقد حكى بعض أصحاب الشافعي عن الشافعي مثله).
إلى أن قال: (فمن قال: كل مجتهد يصيب، وجعل الحق متعددا بتعدد المجتهدين فقد أخطأ) (١).
٤ - وقال حول حجية الإجماع: (فغاية ما يلزم من ذلك أن يكون ما أجمعوا عليه حقا، ولا يلزم من كون الشيء حقا وجوب اتباعه؛ كما قالوا: إن كل مجتهد مصيب، ولا يجب على المجتهد الآخر اتباعه في ذلك الإجتهاد بخصوصه) (٢).
٥ - وقال الأسنوي حول الإجتهاد في الواقعة التي لا نص عليها: فيها قولان:
أحدهما: أنه ليس لله تعالى فيها قبل الإجتهاد حكم معين بل حكم الله تعالى فيها تابع لظن المجتهد. وهؤلاء القائلون بأن كل مجتهد مصيب، وهم الأشعري، والقاضي وجمهور المتكلمين الأشاعرة والمعتزلة إلخ..) (٣).
ونقل عن الأئمة الأربعة - ومنهم الشافعي - التخطئة والتصويب فراجع (٤).
وحين يقول هذا البعض: لا مانع من أن يتغير الحكم الشرعي تبعا لتغير الإجتهاد، مع تصريحه بوجود حكم واقعي أخطأه من أخطأه وأصابه من أصابه فإن كلامه يحتمل أمرين:
أحدهما: أن يكون قد قال بمقولة الفريق الثاني من المصوبة، من غير الإمامية. وهي أن كل مجتهد مصيب لكن الحق مع واحد.
الثاني: أن يكون مراده من الحكم الشرعي الذي يتبدل بتبدل الاجتهاد هو الحكم الشرعي الظاهري كما تقول به الامامية، لكن إطلاق عبارته، وما عرفناه عنه من جنوحه إلى الأخذ بآراء غير الإمامية، مثل عمله بالقياس، وبأخبار العامة، وبالاستحسان، وبالمصالح المرسلة وغير ذلك من مناهج غير الشيعة الإمامية، كما اتضح في هذا القسم - نعم - إن ذلك كله - يجعلنا غير قادرين على تأويل

----

(١) إرشاد الفحول ص ٢٦١
(٢) إرشاد الفحول ص ٧٨
(٣) نهاية السؤل ج ٤ ص ٥٦٠ وراجع ص ٥٥٨ وراجع: الأحكام للآمدي ج ٤
(٤) نهاية السؤل ص ٥٦٧

كلامه بما يوافق ما عليه الشيعة الإمامية، أو فريق منهم، لأن كلام أي شخص إنما يلتمس له التأويل، أو يحمل على خصوص أحد المعاني حينما يكون قد عرف عن ذلك الشخص أنه يلتزم نهج أسلافه في آرائه، وفي مناهجه ومقولاته، حيث يكون ذلك قرينة عقلية ومنطقية على إرادته هذا المعنى بخصوصه، أما حين يظهر في موارد كثيرة ومتنوعة في مجالاتها وخصوصياتها جنوحه إلى مقولات الآخرين، فان هذا يصلح لأن يكون قرينة على تحديد المعنى المراد من كلامه هذا، وهو الأمر الذي دعانا إلى أن نضع بين يدي القارئ الكريم هذا النص الذي يومئ إلى مقولة التصويب، ويظن انطباقه عليها.

١٢ - كل التراث الفقهي والكلامي والفلسفي فكر بشري.

إن البعض يعتبر:

أن كل ما جاءنا من تراث فقهي، وكلامي، وفلسفي، وكل الفكر الإسلامي - باستثناء البديهيات - هو فكر بشري وليس فكرا إلهيا على حد تعبيره.. (١).

فإذا كانت النظرة هي هذه، فإن من الطبيعي أن يكون التعامل في مجال الإستدلال الفقهي منسجما مع هذه النظرة، وأن تصبح أدوات الاستنباط والاستنتاج تحمل معالم هذا التوجه، وسمات هذا الفهم للقضية برمتها.

١٣ - لا توجد حقيقة فقهية مطلقة.

١٤ - لا توجد حقيقة كلامية مطلقة.

١٥ - كل جهد بشري هو نسبي.

يقول البعض:

".. بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، الذي نعتبر أن فهمه للدين ليس بشريا. وفي ظل غياب المعصوم أيضا فنحن نعتقد: أن الإجتهاد في الدين سواء في فهم النص، أو في استيحائه، أو في تقييد القاعدة هو أمر ممكن للمتأخرين أن يناقشوا القدماء فيه، كما كان القدماء يناقشون بعضهم بعضا.

ليس هناك حقيقة فقهية مطلقة. وليس هناك حقيقة كلامية مطلقة. فكل جهد بشري هو نسبي في النهاية ".

----

(١) راجع: حوارات في الفكر والسياسة والاجتماع ص ٤٨٠.

وقفة قصيرة

ونسجل هنا ما يلي:

١ - إن كلام هذا البعض معناه: أن ثمة مجالا للتغيير والتبديل في الإعتقادات.. فنعتقد مثلا: أن الله تعالى في جهة، وأن له مكانا مثلا.. وبالإمكان الاستغناء عن كثير من العقائد، فتقل مفرداتها يوما، وتزيد في يوم آخر، حسب تكثر الآراء والاجتهادات.

وربما ينجر هذا الأمر إلى الإمامة فيكون الأئمة خمسة عشر أو تسعة، بدلا من اثني عشر.. ويمكن أن يكون الإمام معصوما اليوم، فاقدا للعصمة غدا.. وما إلى ذلك.

فإن ذلك كله وسواه من مفردات علم الكلام ليس حقيقة مطلقة.. وإنما هو من الأمور النسبية التي تختلف وتتفاوت حسب الاجتهادات في العصور المختلفة، من مجتهد لآخر..

وكل ذلك داخل في مفردات الحقيقة التي هي نسبية عنده.

وهذا أمر في غاية الخطورة على الدين، وعلى العقيدة.. ولا نريد أن نقول أكثر من ذلك.

٢ - وكذلك الحال بالنسبة لمقولته الأخرى حول: أنه ليس هناك حقيقة فقهية مطلقة.

فهل يمكن أن يأتي يوم تصير فيه صلاة الصبح ركعة واحدة، وصلاة الظهر ركعتين، أو نصلي فيه يوم الجمعة فقط وتسقط الصلاة في سائر الأيام؟

أو يحل فيه اللواط والسحاق؛ باعتبارهما مثل استمناء الرجل والمرأة على حد تعبير هذا البعض؟!

أو يحل فيه شرب الخمر، إذا لم يصل إلى حد الإسكار، أو يحل فيه مصافحة الرجل للمرأة حيث لا تكون هناك ريبة؟! وغير ذلك..

٣ - وهل يمكن أن يأتي يوم تسقط فيه القواعد والأصول عن الصلاحية، فنستبدل فيه قاعدة بقاعدة، ونعتمد على القياس، وعلى الاستحسان، وعلى الرأي؟! إن ذلك ليس ببعيد، فها نحن نرى هذا الأمر يظهر بكل وضوح في كتب وتصريحات هذا البعض.

بل أصبحنا نشاهد آثاره في مختلف ما يصدره من آراء، توصف بأنها فتاوي!!.

٤ - ما معنى إطلاق التعميم بأن كل جهد بشري هو نسبي في النهاية.

فهل إذا قام البشر بعد أوراق كتاب (وهي مائة) يكون ذلك نسبيا بحيث تكون مائة عند شخص وتسعين عند آخر، باعتبار أن عدها جهد بشري؟!.
وهل يصح أن يقال: إن القول بوحدة الخالق أمر نسبي، فقد يقول مجتهد إنه واحد، ويقول الآخر: إنه أكثر من واحد؟!
وحيث يبذل جهد لإثبات نبوة النبي، فهل تكون هذه النبوة نسبية، وكيف؟!
وهل استنباط حرمة الكذب وكذلك حرمة الزنا يجعل هذه الحرمة نسبية؟! وكيف؟!
وكذلك الحال بالنسبة لاستنباط حرمة الخيانة.. وحرمة الظلم، وحرمة المخدرات؟!
وما إلى ذلك..
١٦ - المشكلة أن الكثير من الفقهاء يقولون: لا دليل يدلنا على مقاصد الشريعة.
١٧ - المسألة ترتبط بالمصداق الذي يحقق المفهوم، والثبوت.
١٨ - ربما أضعنا بسبب ذلك الكثير من مقاصد الشريعة في كثير من الفتاوي..
١٩ - ضياع المقاصد هي فتاوي يكون الحكم الشرعي فيها جسدا بلا روح.
٢٠ - حفظ المقاصد يحتاج إلى دقة في الإجتهاد.
سئل البعض:
ما المقصود بمقاصد الشريعة، وهل إغفالها كشرط للاجتهاد أدى إلى ما يسمى بالحيل الشرعية؟!
وهل هي أساسا شرط للاجتهاد؟.
فأجاب:
" المقاصد (كذا) الشريعة تمثل منطلقات الشرع في أحكامه، أو ما يسمى بعلل التشريع أو ملاكاته. وهو ما يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان أن يحققه من أهداف في حياته، من خلال التزامه بهذا الحكم الشرعي أو ذاك.
كما نلاحظ مثلا أن الله تبارك وتعالى يحدثنا عن الصلاة بقوله: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ((العنكبوت / ٤٥) فالنهي عن الفحشاء والمنكر هو من مقاصد تشريع الصلاة، ولذا ورد في الحديث الشريف: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا.
كما أن مقصد الصوم هو التقوى: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة / ١٨٣).

وهكذا، فمقاصد الشريعة هي الأهداف التي تستهدفها الشريعة، من خلال التشريع.
ولكن المشكلة في البحث الفقهي الاجتهادي هي أن الكثير من الفقهاء يقولون بأنه ليست عندنا أدلة حاسمة قاطعة تدلنا على مقاصد الشريعة بشكل صريح، على نحو يمكننا من تحديد علاقة المقاصد بالتشريع كعلاقة العلة بالمعلول، ولكننا نظن ذلك (وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ((النجم / ٢٨).
ولذلك فعلينا أن نأخذ بالشريعة حتى لو لم تحقق ما نظن أنه المقاصد؛ لأن ما نظن أنه كذلك قد لا يكون هو المقصد الحقيقي.
وهذا يعني أن المسألة ترتبط بالمصداق التي يحقق المفهوم والثبوت، فلا طريق لنا إلى إثبات مقاصد الشريعة على أنها بمثابة العلل والأسباب للشريعة.
وهذه هي المشكلة في هذا المجال. ولذلك ربما أضعنا الكثير من مقاصد الشريعة في كثير من الفتاوي التي يشعر الإنسان معها بأن الحكم الشرعي يمثل جسدا بلا روح.
ومن الطبيعي أن هذه الأمور تحتاج إلى دقة في الاجتهاد.. " (١).
وقفة قصيرة
ونقول: إن لنا على كلامه العديد من الملاحظات:
١ - إننا نجد في كلام هذا البعض ما يلي:
ألف: إنه قد اعتبر قول الكثير من الفقهاء، بأن لا دليل يدلنا على مقاصد الشريعة بشكل صريح، بحيث تكون تلك المقاصد هي علة التشريع - اعتبره - هو المشكلة التي يواجهها..
ب: إنه يقول:
" ان هذه المشكلة هي السبب ربما في إضاعة الكثير من مقاصد الشريعة، في كثير من الفتاوي.. "
ج: إن الفتاوي التي ضيعت فيها مقاصد الشريعة يشعر الإنسان فيها أن الحكم الشرعي يمثل جسدا بلا روح.
د: إن هذه الأمور، تحتاج إلى دقة في الاجتهاد.
٢ - إن الأحاديث الذي ذكرت بعض العلل للأحكام، على نحوين:

----
(١) فكر وثقافة عدد ١٧٧ ص ٣ بتاريخ ٢٩ / ٣ / ١٤٢١ ه. ق.

أحدهما: ما ثبت أنه علة للحكم بصورة قطعية، استنادا إلى تصريح المعصوم بذلك.. أو لأن العلة قد جعلت عنوانا لموضوع الحكم أحيانا.. كالإسكار الذي هو علة لتحريم الخمر. فإن قوله عليه السلام: كل مسكر حرام، يظهر بجلاء أن الإسكار الذي علل به تحريم الخمر علة حقيقية لهذا التحريم، ولذلك دار حكم التحريم مدارها وجودا وعدما، حيث جعل المسكر موضوعا للحكم بالحرمة، وذلك ظاهر.

الثاني: ما جاء على سبيل بيان فائدة مهمة من فوائد التشريع، التي يريد الشارع صونها وحفظها، فظهر في لسان الدليل بصورة التعليل للحكم، وإن لم يكن علة تامة للتشريع وذلك مثل عدم اختلاط المياه في ما يرتبط بالعدة، فليس ذلك هو علة للتشريع، وإنما هو من حكمه وفوائده المهمة، ولذلك تجب العدة حتى في صورة استئصال الرحم، أو في صورة الوطء في الدبر..

وكما أن الشارع قد استعمل أسلوب التعليل في كلا الموردين ليظهر أهمية تلك الفوائد عنده واهتمامه بحفظها وصونها، لم يمكن الاطمئنان في مقام الاستظهار والاستدلال إلى أن ما يذكر في صورة بيان السبب - هل هو علة حقيقية؟ أم هو من لوازم العلة، ومن الفوائد المهمة التي يريد الشارع أن يحفظها ويصونها؟!.

٣ - وقد أدرك الفقهاء، من خلال ذلك: أنه حين يكون المقصود هو إعطاء الضابطة، وبيان علل التشريع الواقعية التي يدور الحكم مدارها وجودا وعدما، فإن الشارع ملتزم بإزاحة العلة في بيان مقاصده، ولن يترك الأمر بدون استقصاء البيان الكافي والشافي. وقد ظهر من خلال ممارسة الأدلة أن ما أراد الشارع بيان علله الواقعية قليل جدا، بل هو أقل القليل..

٤ - إن الصلاة وإن كانت قد شرعت من أجل أن تنهى عن الفحشاء، والمنكر.. وقد اعتبر البعض هذا النهي لها من مقاصد الشريعة. ولكن من الواضح أن ذلك ليس هو علة التشريع بحيث يدور مدارها وجودا وعدما.. ولأجل ذلك لا يحكمون ببطلان صلاة لم تنه صاحبها عن الفحشاء والمنكر.. ولا يوجبون عليه إعادتها ولا قضاءها.

وكذلك الصوم، فإنهم لا يحكمون ببطلانه إن لم يحقق التقوى ولا يوجبون إعادته ولا قضاءه..
ويلاحظ هنا ما في التعبير بكلمة (لعل) في قوله تعالى: (لعلكم تتقون (حيث دل على رجاء حصول ذلك.. مما يشير إلى أن ذلك هو فائدة متوخاة من التشريع، وإن لم تكن هي تمام عناصر علته..
و مهما يكن من أمر، فقد قلنا: إنه لو كانت هذه الفائدة وتلك من المقاصد هي تلك التي تمنح مراعاتها توسعا في الفتوى أو تقييدا في الأحكام.. لوجب أن يكون لها تأثير في البطلان والصحة، أو في الإعادة والقضاء، أو في تحمل أعباء معينة من أي نوع فرضت.. مع أن الأمر ليس كذلك، مما يدل على أنها ليست من المقاصد التي توجب توسعا في الفتوى، أو تقييدا في الأحكام.
٥ – وبعد.. فإن هناك مقاصد – كما في التقوى في الصوم، ونهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر – تهدف إلى سوق الإنسان نحو مراتب ومقامات في الكمال قد تتجاوز ما يسعى إليه الكثيرون من الناس الذين رضوا بأن يخرجوا أنفسهم من منطقة الخطر، ولا يريدون أكثر من ذلك..
٦ – وأخيرا.. نقول:
ربما يؤدي ما يسعى إليه البعض من فتح باب الأخذ بمقاصد الشريعة، واعتبارها من آليات التشريع.. إلى الوقوع في فخ خطير، وذلك بسبب شيوع العمل بالاستحسان، وبالرأي، وبغير ذلك من ظنون لا قيمة لها في الشرع الحنيف. ويكون الغطاء لذلك هو ادعاء إدراك مقاصد الشريعة، والعمل على نيلها، وسوق الناس إليها..
ولن يجدي نفعا إطلاق شعارات براقة ورنانة، بأن هذه الأمور تحتاج إلى دقة في الاجتهاد، أو ما إلى ذلك.
كما لا يفيد التباكي على مقاصد الشريعة، حين تصبح الفتاوي فاقدة لها..
ولن يجدي أيضا وصف الحكم الشرعي بأنه يمثل جسدا بلا روح.
إن التربية الروحية هي التي تهيئ الإنسان الذي يتصدى لامتثال الحكم الشرعي لأن ينفخ فيه الروح من خلال إقباله على الله فيه.. وليس بإعطاء

الحرية للناس من خلال شعار حفظ مقاصد للشريعة ليعبثوا بالشريعة حسب آرائهم واستحساناتهم.
٢١ - ما أخذ من القرآن والسنة والقياس شريعة.
٢٢ - اجتهاد الرأي شريعة.
٢٣ - الاستحسان شريعة.
٢٤ - المصالح المرسلة شريعة.
٢٥ - سد الذرائع شريعة.
يقول البعض:
" الشريعة هي: كل حكم أخذ من القرآن الكريم، أو من أحاديث النبي، أو أهل بيته صلوات الله تعالى عليه وعليهم، أو ما ثبت عند المذاهب الإسلامية جواز الاعتماد عليه في استنباط الأحكام من الأصول والقواعد الفقهية. ويصطلح عليه بالسنة، ويقابل ذلك مصطلح البدعة " (١).
وقفة قصيرة
١ - إن هذا النص قد أوضح بما لا مجال معه للشك أن هذا البعض مصر على العمل بالقياس، وأضرابه، كالإستحسان، والمصالح المرسلة.. وغير ذلك..
فإن هذه الأمور هي مما ثبت عند المذاهب الإسلامية جواز الاعتماد عليه في استنباط الأحكام..
٢ - إن الملاحظ هو: أن هذا البعض، قد أثبت هذا النص في الطبعة الأولى، ولكنه حذفه من الطبعة الثانية. ولم ينبه على خطأه فيه، مع تصريحه بالتزامه بكل أفكاره منذ الثمانينات.. أو انها باقية على ما هي عليه لم تتغير ولم تتبدل.
وأما سبب حذفه لهذه العبارة، فلعله إحساسه بتداعيات هذا التصريح، من خلال ردات الفعل التي لمسها لدى أهل العلم.. حيث اعتبروا ذلك من جملة الأدلة الدامغة على سعيه لاقتحام المسلمات في مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وجر الناس إلى ما عليه أهل المذاهب الأخرى.
٣ - وظهر من ملاحظة جملة من مقولاته الكثيرة جدا، والتي تعد بالمئات والألوف: أنه حين قال: أسعى لاقتحام المسلمات، إنما كان يعني بذلك مسلمات

---

(١) فقه الشريعة ج ١ ص ٧ الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ ه.

مذهب التشيع - مذهب أهل البيت (عليهم السلام).. دون سواها..
٤ - إن هذا البعض مهما حاول أن يعتذر عن مقولته السابقة، وحتى حين حذفها من الطبعة الثانية.. فإنه قد أثبت من خلال تصريحاته الأخرى، كتصريحه الذي أورده في كتاب تأملات في آفاق الإمام الكاظم عليه السلام.. أنه ملتزم بهذا الأمر. لا يبغي له بدلا، ولا عنه حولا.
فحذفه للعبارة المذكورة من الطبعة الثانية، لا يدل على أن رأيه قد تبدل في هذا الأمر، إذ إنه لم يصرح بذلك ولا أشار إلى خطأ هذه الفكرة. لا من قريب ولا من بعيد مما يشير إلى أن هذا الحذف كان مصلحيا لا عن قناعة بفساد رأي.
ويدل على ذلك ما سنقوله تحت الرقم التالي.
٥ - إنه حين واجه الاعتراضات من هنا وهناك قد حاول التخلص من تبعات هذا التصريح، فأطلق تأويلا عجيبا وغريبا لكلامه هذا.. حين ادعى:
" أنه لا يقصد في كلامه هذا الشريعة الحقة، بل ما يطلق عليه أنه الشريعة.. وإن كان قد يقع الخطأ والصواب، كما هو الحال في اجتهادات المجتهدين حين تختلف فيما بينها.. " (١).
ومن الواضح: أنه توجيه لا يصح، لأمور عديدة:
فأولا: تقدم أن عمله - في مجال الفقه يظهر أنه ملتزم بالقياس، وبغيره، وإن كان لا يسمي الأمور بأسمائها الحقيقية..
ثانيا: إنه حين يقدم كتابه المشتمل على المسائل الفقهية لمقلديه.. إنما يحدثهم عن أمور تعنيهم، وتفيدهم في مجال عملهم.. ولا يتحدث لهم عما تقوله سائر المذاهب.. ولو فرضنا وجود مبرر لذكر قول مذهب ما، فإنه لا مبرر لاستخدام مصطلحات خاصة لا يخاطب بها إلا أهل الاستنباط. وليس دائما أيضا، وإنما في خصوص حالات معينة تفرض التعميم لآراء سائر المذاهب..
ثالثا: إن سياق كلام هذا البعض في كتابه ذاك الذي ضمنه هذا النص يتجه نحو الحديث عن الشريعة الحقة، التي يكون المكلف معذورا في اتباعها،

---

(١) فكر وثقافة عدد ١٦٧ صادر في ١٧ / ١ / ١٤٢١ ه.

والالتزام بالأحكام الشرعية الواردة فيها، والتي استنبطها مجتهدوها.. ويفرض على مقلديهم – من خلال تعاليمها – الرجوع فيها إليهم، وأخذها منهم.

وفي كلامه قرائن كثيرة على ذلك. فإن أول عبارة قالها في ذلك الكتاب هي:

" إن الشريعة المطهرة قد بينت أحكام أفعال المسلم، وجعلتها موزعة على خمسة أحكام، هي الواجب والحرام.. إلى ان قال: وهذا المبحث هو المتكفل بتحديد السبل التي بها يتعرف على ما كلفه الله تعالى به، وسنه له، وتفصيله كما يلي: إلخ.. "

ثم بدأ بالحديث عن الشريعة، وعن الأحكام الخمسة..

فكلامه صريح في أنه يتحدث عن الشريعة الحقة التي حاول أيضا تحديد السبل إليها، ليتعرف المكلف على ما كلفه الله به وسنه له. ولا يتحدث عن المذاهب التي يعتقد المكلف ببطلانها.. ولا عن السبل التي تعتمدها تلك المذاهب..

ورابعا: إن مصطلح الشريعة الحقة إنما يعني ما يجب العمل به على المكلف – من خلال إلزام الشريعة به – حتى إذا أصاب الواقع فإنه يتنجز في حقه، وإذا أخطأه يكون معذورا فيه، على أساس تعذير الشريعة نفسها له..

فالأمر بالنسبة إلى المكلف هو أن الشريعة قد ألزمته بالأخذ بقول المجتهد.. فقول المجتهد هو الشريعة العملية بالنسبة إليه، وهو حجة في حقه.. مع علمه بأن المجتهد قد يخطئ الحكم الواقعي الإلهي..

وأما المذاهب الأخرى فيراها من الباطل، ولا يصح مخاطبته بها، في ذات الوقت التي يدعى فيها إلى التقليد..

الفصل الثاني: الغاية تنظف الوسيلة.. وقاعدة التزاحم

٢٦ – قاعدة التزاحم هي المصالح المرسلة عند السنة.

وهو يعتبر قاعدة المصالح المرسلة التي يستند إليها أهل السنة في اجتهاداتهم، هي نفس قاعدة التزاحم في مدرسة أهل البيت (ع)! مع أن الفرق بينهما كالنار على المنار، وكالشمس في رابعة النهار.

فهو يقول:

" هناك قاعدة في العلم الأصولي تسمى بقاعدة (التزاحم) في المذهب الشيعي الإمامي، وتسمى ب (المصالح المرسلة) في مذهب المسلمين السنة " (١).

ثم يضرب مثالا لهذه القاعدة بالغريق الذي يتوقف إنقاذه على أن تكسر بابا، أو تهدم غرفة للغير (٢).

ولا يفوتنا التذكير بأن اعتماده لقاعدة (الغاية تبرر الوسيلة) قد كان مبتنيا عنده على قاعدة التزاحم أيضا.

وقال وهو يتحدث عن ولاية الفقيه، وبعد أن قدم آية الله العظمى السيد الخوئي رحمه الله، كنموذج لمن يقول بولاية الفقيه الخاصة، ثم يتصدى لهذا الأمر حينما واجهته التطورات في أيام ما عرف باسم (الإنتفاضة) في العراق:

" ولذلك فالذين يقولون بالولاية الخاصة عندما تجابههم التطورات، فإنهم تلقائيا

---

(١) المصالح المرسلة: قد يجد المجتهد فعلا من الأفعال ورد من الشارع فيه حكم، ويرى فيه وصفا يناسب حكما آخر، من حظر، أو طلب، أو إباحة، أو لم يرد عنه حكم في ذلك الفعل أو الوصف ليناسب حكما، وهذا الوصف قام الدليل على اعتباره بنوع من الاعتبارات الثلاثة السابقة بأن ورد عن الشارع ما يؤذن باعتبار عينه في جنس الحكم المراد إعطاؤه له أو اعتبار جنسه في عين ذلك الحكم، أو جنسه.

وهذا الحكم يسميه الأصوليون: المناسب المرسل الملائم، ويسميه المالكية المصالح المرسلة، ويسميه الغزالي: الاستصلاح. مجلة المرشد العددان ٣ و ٤ هامش ص ٢٤٦ عن محمد الخضري، أصول الفقه ص ٣١١ طبعة دار الفكر.

(٢) للإنسان والحياة ص ١٦٩

يقولون بالولاية العامة، ولكن بالعنوان الثانوي، أو المصالح المرسلة، أو ما شاكل.. ".
ولا نورد قوله هذا كشاهد على ما ذكرناه، ولكننا أحببنا: أن نسأل من أين عرف أنهم استندوا في قولهم بالولاية العامة إلى المصالح المرسلة؟ وهل يمكن له أن يذكر لنا موردا صرحوا فيه بذلك..؟!

وهو مع ذلك كله يقول: " إنه يلتزم بالمنهج الجواهري في الاستنباط " (١).

٢٧ - المحرم ما حرمه القرآن والحلال ما أحله القرآن.

٢٨ - يجب موافقة الحديث للقرآن في حجم دلالته.

وقيل له: ذكرتم أن المحرم هو ما حرم في القرآن، وكذلك الحلال هو ما أحل في القرآن..

فأجاب:

" ما ذكرت ذلك، قلت: هناك بعض العمومات التي تدل على حصر المحرمات في مورد معين، وهناك أشياء واردة في السنة، فعلينا أن نكتشف القاعدة التي نستطيع فيها أن نوفق بين ما جاء في القرآن وما جاء في السنة " (٢).

فهل إذا لم يكتشف القاعدة سيرفض ما جاء في السنة؟!.

٢٩ - ما من عام إلا وقد خص من موارد مسألة التزاحم.

٣٠ - الغاية الكبرى تبرر الوسيلة المحرمة.

٣١ - الغاية تجمد الوسيلة المحرمة.

٣٢ - الأخلاق في الإسلام لا تمثل قيمة إيجابية.

٣٣ - الأخلاق في الإسلام تمثل قيمة سلبية متغيرة تبعا للعناوين الثانوية.

٣٤ - وضع يوسف صواع الملك في رحل أخيه يؤكد: أن الغاية تبرر الوسيلة.

٣٥ - إنما تبرر الغاية الوسيلة لأنها تنظفها وتطهرها.

٣٦ - قاعدة الغاية تبرر وتنظف وتطهر الوسيلة - هي مسألة التزاحم.

يقول البعض:

" إن القاعدة العقلية التي أقرها الفكر الإسلامي الفقهي، انطلاقا من آيات الله وسنة رسوله، تفرض اختيار الجانب الأهم في حسابات المصالح والمفاسد. إذا تعارض حكمان شرعيان يأمرنا أحدهما بشيء وينهانا الآخر عنه ولم يكن هناك

---

(١) فكر وثقافة بتاريخ ٦ / ٧ / ١٩٩٦. ص ٢.
(٢) راجع مجلة المرشد ص ٢٦٥.

مجال لامتثالهما معا، لأن الحكم الشرعي ينطلق من المصلحة الأساسية للإنسان، من خلال ما ثبت لدينا من أن الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد في متعلقاتها. فإذا رأينا المصلحة الأهم في جانب، فمعنى ذلك أن الحكم الذي لا يصل الموقف فيه إلى هذا المستوى من الأهمية، يفقد معناه في حدود ذلك، وتكون النتيجة تقييد فاعلية الحكم الشرعي وحركته في غير هذا المجال.

وهذا ما واجهناه في الآيات السابقة التي تتحدث عن القتال في المسجد الحرام فيما إذا قاتل المشركون المسلمين فيه، وفي هذه الآية التي تتحدث عن القتال في الشهر الحرام في صور مبرراته الإسلامية.

فلو دار الأمر بين أن تهتك حرمة الشهر أو المكان، وبين أن تهتك حرمة الإسلام ويسقط صريعا أو مهزوما أمام ضربات الكفر، فإن من الممكن ان نتجاوز حرمة الشهر والمكان لمصلحة حرمة الإسلام العليا؛ بل قد يجب ذلك في بعض المجالات، إذ وإن كانت حرمتهما جزءا من التشريع الإسلامي، لكن لا يمكن أن تتقدم على سلامة الإسلام نفسه. وهذا ما يعبر عنه علماء الأصول، بحالة (التزاحم بين الحكمين).

وقد نجد هذه القاعدة متمثلة في أكثر من مسألة فقهية في نطاق المحرمات الشرعية، التي جاءت الرخصة فيها في بعض مواردها، وقد تعددت نماذجها حتى أصبحت بمثابة (القاعدة الثانوية الاستثنائية)؛ حتى قال الأصوليون: (ما من عام إلا وقد خص)، مما يوحي بأن التخصيصات الواردة في العموميات القرآنية والنبوية تحولت إلى ظاهرة شرعية من خلال تزاحم المصالح العامة، والتي يعبر عنها بالخاص في دائرة الخصوصيات الحاكمة على العنوان العام.

وهذا ما نراه في الغيبة التي جاء الاستثناء فيها في قوله تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما ((النساء / ١٤٨) فجعل حالة الظلم استثناء من حرمة الغيبة التي جاء فيها قوله تعالى: (يا أيها الذين أمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه؟! واتقوا الله إن الله تواب رحيم ((الحجرات / ١٢) فأطلق للمظلوم الحرية في أن يتحدث عن ظالمه بالسوء من أجل الضغط عليه لرفع ظلمه، باعتبار أن مصلحة رفع الظلم عن المظلوم أكبر من مفسدة الغيبة في إظهار عيب الظالم؛ كما جاء الاستثناء في مقام النصيحة للمؤمنين، لأن إغلاق باب النصيحة في التحدث عن عيوب الإنسان الذي قد يقع الناس في مشاكل كثيرة نتيجة كتمان عيوبه، أكثر من مشاكل الحديث السلبي عنه؛ وفي مقام تجاهر الإنسان

بالفسق الذي تمثل الغيبة وسيلة من وسائل الضغط عليه، وإبعاد الناس عن التأثر به من أجل إصلاحه أو إنقاذ الناس من أضراره؛ وفي مقام تترس الكفار في الحرب بأسرى المسلمين، ليمنعوهم من الهجوم عليهم، خوفا من تأدية ذلك إلى قتل إخوانهم، وبذلك يفقد المسلمون فرصة النصر، فأجاز الإسلام قتل الأسرى المسلمين إذا توقف النصر أو الدفاع على ذلك؛ وهكذا نجد ذلك في كثير من الموارد الشرعية.

وهذا باب ينفتح على أكثر من قضية من قضايا الناس العامة والخاصة، التي قد تؤكد الفكرة القائلة بأن الغاية الكبرى تبرر الوسيلة المحرمة، بمعنى انها تجمدها وتنظفها من خلال ارتباطها بسلامة الخط العام، فلا يتجمد الإنسان المسلم في أخلاقياته إذا تحولت إلى خطر على حياته أو على مصير الإسلام والمسلمين، كما لو أريد له أن يتحدث، وهو في سجن الكافرين والمستكبرين، عن أسرار المسلمين السياسية والأمنية والاقتصادية، التي يمثل إظهارها خطرا على السلامة العامة؛ فيجب عليه في هذه الحالة، أن يكذب من أجل حماية القضية الكبرى؛ ويحرم عليه الصدق الذي يؤدي إلى السقوط الكبير، لأن الكذب يمثل القيمة السلبية الأخلاقية، كما يمثل الصدق القيمة الإيجابية الأخلاقية في الخط العام.

لا يجوز للإنسان أن يكذب باختياره، بل يجب عليه أن يأخذ بالصدق في أحاديثه في الحالة الطبيعية العامة، لكن الحالات الطارئة الضاغطة تفقد الكذب سلبيته ليكون قيمة إيجابية كما تفقد الصدق إيجابيته ليكون قيمة سلبية، لأن المسألة في السلب والإيجاب لا تنطلق من الطبيعة الذاتية للصدق والكذب، بحيث يكون علة تامة للسلب هنا أو للإيجاب هناك، بل تنطلق من الحالة الإقتضائية المنفتحة على النتائج بشكل عام، ولكنها قد تصطدم ببعض الموانع التي تمنعها عن التأثير في المقتضى بدرجة فعلية.

وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الأخلاق في الإسلام لا تمثل قيمة إيجابية، بل تمثل قيمة سلبية قابلة للتغير في حركتها في الواقع الإنساني، تبعا للعناوين الثانوية الطارئة التي تختلف الأحكام الشرعية باختلافها.

ولا بد في هذه الحالة من التدقيق كثيرا في المواقف والقضايا قبل الدخول في عملية الموازنة بين الأحكام، لأن المسألة تحتاج إلى وعي عميق وواسع في فهم أسس الحكم الشرعي، وفي الواقع الذي يتحرك فيه، ولا يمكن إخضاعها للأفكار السريعة الإنفعالية في مواجهة الواقع في ضغوطه العملية على حركة الإنسان في الحياة. " (١).

ويقول البعض أيضا، وهو يفسر وضع صواع الملك في رحال إخوة

---

(١) من وحي القرآن الطبعة الثانية، دار الملاك، ج ٤ ص ٢٠٢ – ٢٠٥.

يوسف (عليه السلام)، (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون (.
" وفي تلك الحادثة يمكننا أن نستوحي فكرة أن الغاية تبرر الوسيلة، إذا كانت الغاية أعظم من ناحية الأهمية، لأنها بذلك تنظف الوسيلة، وتطهرها. وهكذا واجه فتيان يوسف إخوته باتهامهم بالسرقة، وفوجئ هؤلاء الشباب " (١).

ثم يوجه إلى هذا البعض سؤال يقول:

- ما هو المراد من قولكم الغاية تنظف الوسيلة؟

فأجاب:

" إن الغاية تبرر الوسيلة مبدأ مرفوض من قبلنا؛ لأن الغاية الشخصية التي تبرر هدم كرامة هذا وهتك حرمة ذاك غير جائزة إطلاقا. ولكن عندما يكون الهدف كبيرا وله أهمية عند الله، كما لو فرضنا بأن حريقا شب في بناية كبيرة، وتوقف إنقاذ حياة الناس في البناية أن نهدم كثيرا من البناء ونتلف الأثاث، فهذا جائز لأن الغاية تبرر
الوسيلة، ولأن الغاية هي هنا إنقاذ حياة الناس الموجودين أو إنقاذ الجيران، فذلك أهم من البناية.

نحن نقول إن (الغاية تنظف الوسيلة) والفقهاء يضربون في ذلك مثلا، فلو فرضنا أن شخصا يغرق، والطريق إلى النهر أرض مغصوبة، وصاحبها لا يقبل أن نجتازها إلى النهر.. وعندنا حكم شرعي يقول بحرمة المرور في الأرض المغصوبة، فهنا يجب عليك أن تنجي الغريق من جهة، ويحرم عليك أن تمر بالأرض المغصوبة من جهة، والحكمان لا يمكن العمل بهما معا. هنا يقول الفقهاء بأن الغريق أهم وأن الحرام يتجمد عند ذلك لمصلحة الغاية الأهم.

ومن الأمور التي تمثل ذلك: (الكذب) فهو ليس حلالا، ولكن لو توقف إنقاذ أخيك المؤمن على أن تكذب حينما تعرف بأن هناك ظالما يريد أن يقبض عليه ليقتله أو ليحبسه، وأنت تعرف مكانه فهل تقول بسذاجة بأن الكذب حرام، والحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: (إحلف بالله كاذبا ونج أخاك من القتل)!

ومن الأمور التي يذكرها فقهاء السنة والشيعة: إذا كانت هناك حرب كما هي الحرب بيننا وبين إسرائيل بحيث يترتب عليها نتائج كبيرة، وقد اتخذ العدو من أسرى
المسلمين دروعا بشرية، فهنا يجوز لك قتلهم من أجل القضية الكبرى إذا كان الإنتصار يتوقف على ذلك..

من كل ذلك نخلص إلى أن الغاية الكبرى المهمة التي تتصل بقضايا المصير تنظف الوسيلة " (٢).

----

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٥.

(٢) الندوة ج ٢ ص ٤٦٠ و ٤٦١.

وسئل البعض أيضا:
وفقا لرأيكم (الغاية تنظف الوسيلة) لو أن شخصا يعمل في تهريب المخدرات ويقدم من الربح دعما للعمل الإسلامي لرفع راية الحق، فهل يجوز له ذلك؟
فأجاب:
" هذا غير ما قلناه. لقد تحدثنا عن القضية التي تتوقف عليها الحياة، أما هذا المثل فإنه يشبه قول الشاعر:
لك الويل لا تزني ولا تتصدقي!!
كمطعمة الأيتام من كد فرجها
لا تدعم العمل الإسلامي بهذه الطريقة، فالعمل الإسلامي الذي يتوقف على تهريب المخدرات وعلى بيع الخمور هل تراه يكون عملا إسلاميا؟! " (١).
وقفة قصيرة
١ - إننا قبل أن نسجل بعض تحفظاتنا على هذا المنحى الخطير، نود التعبير عن رغبتنا الأكيدة والشديدة في أن لا يلجأ هذا البعض إلى نظريته في أن (الغاية تنظف الوسيلة) فيما نناقشه فيه من أمر الدين والعقيدة، وفي تعامله مع الناس.. ومع العلماء.. وفيما يطرحه في وسائل الإعلام التي تقع تحت اختياره، أو يوفرها له محبوه في داخل لبنان وخارجه.. سواء في ذلك المنابر، والمؤتمرات، والإذاعات، وأجهزة التلفزيون، أو الجرائد أو المجلات - حتى تلك المجلة الخلاعية التركية التي أجرت مقابلة معه، ونشرت صورته على صفحاتها، وهو يهدي صورته لمراسلها..
فإن اعتماده على نظريته هذه في هذا الأمر، لسوف يفقد كل أقواله ومواقفه مصداقيتها، ويفقد الحوار معه معناه، ومغزاه، وجدواه. وعلينا أن لا ننتظر أية نتائج إيجابية على مستوى التأكد من رجوعه إلى الصواب والتزامه به.
٢ - إن هذا البعض قد خلط مسائل العام والخاص بمسائل التزاحم، وبمسائل اجتماع الأمر والنهي وغيرها، ونوضح ذلك في ضمن النقاط التالية:
الف: إننا لا نريد أن نناقش هذا البعض في صحة تعابيره وسلامتها حيث قال:
" إذا تعارض حكمان شرعيان، يأمرنا أحدهما بشيء، وينهانا الآخر عنه، ولم يكن هناك مجال لامتثالهما معا ".

----
(١) الندوة ج ٢ ص ٤٦١.

إلى أن قال:
" وهذا ما يعبر عنه علماء الأصول بحالة التزاحم بين الحكمين ".
فإن ظاهر كلامه: أن الأمر والنهي إذا تعلقا بشيء واحد فهو من موارد التزاحم.. مع أن التزاحم هو في مورد وجود حكمين يتعلق أحدهما بأمر ويتعلق الآخر بأمر آخر، وتضيق قدرة المكلف عن الاتيان بهما معا، فتلزمنا القاعدة العقلية بالإتيان بأحدهما وهو الأهم، وترك الآخر..
ب: إننا لتوضيح خلط هذا البعض بين قاعدة التزاحم، وبين موارد العموم والخصوص، وموارد اجتماع الأمر والنهي نقول:
إن كان الأمر والنهي متوجهين إلى شيء واحد، وعنوان فارد، فإنهما يكونان متكاذبين متعارضين، وذلك مثل: صل. ولا تصل.
وإن تعلق الحكمان بعنوانين، كأن تعلق أحدهما بعنوان إزالة النجاسة عن المسجد، وتعلق الآخر بالصلاة وضاق الوقت عن امتثالهما معا، فيقع التزاحم بينهما، ويقدم الأهم.
وأما إذا كان الحكمان من قبيل الأمر والنهي وقد تعلقا بعنوانين مختلفين، بأن تعلق الأمر بالصلاة، وتعلق النهي بالغصب، ففي مورد اجتماع الغصب مع الصلاة، وحيث لا بد من أدائها في الأرض المغصوبة، فهناك حالتان:
إحداهما: أن يكون العنوان المأخوذ في متعلق الأمر والنهي قد لوحظ فانيا في مصاديقه شاملا لها بما لها من كثرات ومميزات، فهو في حكم النافي لأي حكم آخر، فإذا تصادق مع عنوان آخر في مورد، فإنه يكون نافيا بنحو الدلالة الإلتزامية لحكم ذلك العنوان في ذلك المورد، ويقع التعارض بينه وبين حكم ذاك في مقام الجعل والتشريع لأنهما يتكاذبان في موضع الالتقاء في دلالتهما الإلتزامية. ومع التعارض يتساقط الدليلان في مورد الالتقاء؛ فلابد من التماس دليل آخر.
الثانية: أن يكون العنوان ملحوظا في الخطاب فانيا في مطلق الوجود للطبيعة، من دون نظر إلى أفرادها، فلا دلالة فيه على سعة العنوان للأفراد كلهم. بل المطلوب هو صرف وجود الطبيعة وامتثالها بفعل أي فرد من أفرادها، فلا تعارض بين الدليلين، ولا تكاذب بينهما، إذ لا يتعرض أحدهما للآخر في

هذا الفرد أو ذاك، لأن المتعلق هو صرف الطبيعة لا الأفراد كما قلنا.
فإن صادف وابتلي المكلف باجتماع العنوانين في مورد، كما في الصلاة في الأرض المغصوبة.. ولم يكن له بد من الجمع بينهما، فيقع التزاحم بين التكليفين الفعليين - إذ الدليلان لم يتعارضا في مقام الجعل - بل المنافاة كانت بسبب ضيق قدرة المكلف عن التفريق بين الامتثالين.
وبعد ما تقدم نقول:
إن هذا البعض قد خلط بين هذه الأمور، فهو تارة يتحدث عن تعلق الأمر والنهي في شيء واحد، ويجعله موردا للتزاحم، مع أنه من موارد التعارض..
وتارة يطبق قاعدة التزاحم هذه على موارد العموم والخصوص، مع أن العموم والخصوص لا ربط له بمقام الامتثال ولا بمقام الجعل، وإنما هو من موارد الجمع الدلالي بين دليلين متخالفين لفظا وشكلا، متوافقين مضمونا، فلا ربط لهما بمقام الجعل.. ليتساقط الدليلان في مورد التعارض، كما لا ربط له بمقام الامتثال، وضيق قدرة المكلف عن امتثالهما معا. ليكون من موارد التزاحم ويختار الأهم منهما..
٣ - إننا نعود إلى التأكيد على أن تطبيق قاعدة التزاحم على القول المعروف (ما من عام إلا وقد خص) لا معنى له.. فان التخصيص ليس فيه اختيار للأهم، كما هو الحال في باب التزاحم في مقام الامتثال.. بل التخصيص هو جمع دلالي فقط.
وليس جعلا لحكم مغاير لحكم العام في مورد الخاص.. بل هو استثناء ووضع حد يمنع العام من السريان والشمول في مقام الدلالة.
فإذا قيل مثلا: أكرم العلماء إلا الفساق - في المخصص المتصل - أو قيل: أكرم العلماء.. ولا تكرم الفساق العلماء - في المخصص المنفصل، فإنه ليس من قبيل اجتماع الأمر والنهي على مورد واحد.. بل من قبيل القول: بأن حكم وجوب الإكرام لا يشمل فساق العلماء.. لا أن فساق العلماء قد تعلق بهم وجوب الإكرام أولا.. ثم تعلق بهم حرمة الإكرام ثانيا.. ثم قدمنا الأهم وهو الحرمة بسبب تزاحم المصالح العامة..، لا، ليس الأمر كذلك.
بل الخاص يريد أن يقول: إن المصلحة التي أوجبت الإكرام للعالم غير موجودة

في العالم الفاسق، فشمول العموم للخاص ليس فيه مزاحمة لحكم الخاص، وإنما ذلك مجرد شمول أمر شكلي ولفظي وظاهري، سرعان ما يزول بمجرد النظر إلى الكلامين، والمقارنة بينهما. وذلك ظاهر لا يحتاج إلى مزيد بيان..

٤ – أضف إلى ذلك.. أن هذا البعض تارة يقول: إن المصالح العامة قد تزاحمت – في مورد تخصيص العموم..

وتارة أخرى يقول: إن قاعدة التزاحم كثيرا ما تكون متمثلة في نطاق المحرمات الشرعية، حتى أصبحت بمثابة القاعدة الاستثنائية.. حيث تتزاحم المصلحة مع المفسدة، كما صرح به في أمثلته التي أوردها.. مثل قوله: إن مصلحة رفع الظلم أكبر من مفسدة الغيبة.

٥ – بالنسبة للأمثلة التي ساقها نقول: إن ما ذكره من تقديم مصلحة رفع الظلم على مفسدة الغيبة على أنه من موارد التزاحم في مقام الامتثال. ليس من صغريات قاعدة التزاحم، بل هو من باب تقديم الخاص على العام، فإن حرمة الغيبة تشمل مورد الخاص في نفس الخطاب الإلهي الموجه إلى المكلف.

بل قد يقال: إن هذا المثال لو كان من قبيل جلب المصلحة.. فإنه لا يتناسب مع ما هو مقرر في محله، من أن دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة..

وإن كنا نناقش في إطلاق وتعميم هذه القاعدة، حيث إن بعض المصالح أهم بكثير من بعض المفاسد، فلا يكون دفع المفسدة أولى من جلب تلك المصالح.

٧ – إن هذا البعض قد قال هنا:

" إن الغاية الكبرى تبرر الوسيلة المحرمة، بمعنى أنها تجمدها وتنظفها من خلال ارتباطها بسلامة الخط العام ".

ثم عمد إلى تطبيق هذا المبدأ على اتهام إخوة يوسف بالسرقة.

فإذا أردنا أن نأخذ بهذا الكلام على إطلاقه. فإننا نخرج بنتيجة مفادها: أن علينا: أن نزني، أو أن نبيح الزنا إذا وجدنا أن الزنا أو إباحته للشباب سوف يزيد من إقبالهم على دين الإسلام، وهذا يزيد من قوة الإسلام في العالم. وبه يتم تحصينه في مقابل أعدائه، حيث إن كثرة المسلمين وقوتهم ودخول الشعب الأمريكي، والأوروبي في الإسلام سوف يمنع أعداءه من محاولة إبادة المسلمين!!!

أو يمكن إباحة وضع بعض البدع في الإسلام أو حذف بعض الأحكام منه إذا أوجب ذلك حفظ الإسلام والمسلمين!!!

بل ربما يصبح الابتداع واجبا، والزنا والسرقة مما يقرب إلى الله، ما دام أن الغاية تنظف الوسيلة!!!

ومجرد إنكاره ذلك في السؤال الموجه إليه أخيرا لا ينفع! إذ إن ما بنى كلامه عليه لا بد أن ينتهي إلى مثل هذه النتائج شاء أم أبى؛ فإن المهم هو القاعدة التي يؤسسها، وعليها يكون المدار وليس المهم هو إطلاق الشعار، إلا إذ أردنا أن نعتبر كلامه الأخير يمثل تراجعا عن قاعدته التي أسسها ولكن ذلك لم يظهر لنا بعد.

٨ - إن هذا البعض قد أنكر في كتاب الندوة - حسب النص الذي ذكرناه آنفا - أن يكون مبدأ الغاية تبرر الوسيلة مقبولا عنده.. خصوصا في الغايات الشخصية التي تبرر هدم كرامة هذا، وهتك حرمة ذاك، مع أننا نلاحظ:

أولا: إن عبارته الأولى التي أوردها في كتاب: من وحي القرآن، ونقلناها عنه:

" إن الغاية الكبرى تبرر الوسيلة المحرمة. بمعنى أنها تجمدها وتنظفها ".

فاستعمل كلمة " تبرر ".

وثانيا: إن الأمثلة التي ساقها في كتابه: (من وحي القرآن) وقد نقلناها عنه آنفا قد كان من بينها ما يرتبط بالحالات الشخصية. كمثال غيبة الفاسق. وجواز تكلم المظلوم بالسوء عن ظالمه.. وكما في مورد النصيحة للمؤمن في تجارة، أو في زواج أو ما إلى ذلك.

وذلك يتضمن هدم كرامة هذا، وهتك حرمة ذاك. وليست هذه الأمثلة مما يتصل بقضايا مصيرية كبرى.. حتى لو كان في حجم الحريق الذي ينشب في بناية (كبيرة)، ونريد إنقاذ حياة الناس بإتلاف بعض الأثاث.

تذكير..

قد ذكرنا في هذا الكتاب قول هذا البعض: إن قاعدة التزاحم هي نفس قاعدة المصالح المرسلة عند أهل السنة، وقد قلنا هناك: إنه كلام غير دقيق.. فراجع..

الفصل الثالث:
توثيق الحديث واليقين في غير الأحكام

٣٨ - أحاديث النبي وأهل البيت تحرم، ولدينا في ذلك تحفظ فتوائي.
٣٩ - حرمة أكل لحم الأرنب مبنية على الاحتياط.
سئل البعض:
لماذا لا يؤكل لحم الأرنب؟
فأجاب:
" لأن الأحاديث الواردة عندنا عن أئمة أهل البيت، والمروية عن الرسول تقول بحرمته ذكرا كان أو أنثى. ولدينا تحفظ فتوائي حول الموضوع فإن الحرمة - عندنا - مبنية على الاحتياط " (١).
وقفة قصيرة
١ - إن جوابه هذا يوضح أن المنهج الذي يلتزم به هذا البعض، ويسير عليه هو أن الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل البيت (عليهم السلام) يقولون: حرام وهو يتحفظ على قول الرسول (ص) وأهل بيته عليهم السلام، فلا يفتي في الفتوى بما قالوه، بل تبقى الفتوى عنده مبنية على الاحتياط.
فهل ثمة من جرأة أعظم من هذه الجرأة؟!
٢ - إن هذا البعض يقول في العديد من الموارد:
" إن الاحتياط عنده ميل إلى القول بالجواز.. "
ولم يزل يستشهد بفتاوي العلماء بالاحتياط الوجوبي بالمنع، على صحة قوله هو بالجواز، فيقول: فلان يوافقنا على القول بالجواز، لأنه يقول: الأحوط

---

(١) الندوة ج ١ ص ٨٢٨ وتحديات المهجر ص ١٣٩.

وجوبا الحرمة (١).. فتبارك الله أحسن الخالقين.. كيف يمسخ: الأحوط وجوبا الحرمة أو النجاسة، فيصير فتوى بالجواز والطهارة، ثم يبقى على حاله من كونه احتياطا وجوبيا بالتحريم!!

فهل هذا إلا من قبيل قول البعض للإمام الرضا (عليه السلام): هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكسر البيضة لكن الإمام الرضا (عليه السلام) أجابه بقوله: (نعم، وفي أصغر من البيضة، وقد جعلها في عينك وهي أقل من البيضة لأنك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما، ولو يشاء لأعماك عنها..)

وقريب منه مروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضا..

وروي ما يقرب من ذلك عن الإمام علي (عليه السلام)، وعن عيسى (عليه السلام).. لكن الجواب المروي عنهما يختلف عن هذا، لكنه قاطع ومفحم (٢).

ولو أن الإمام عليه السلام عاش في هذا الزمن لأراه هذا البعض كيف، أنه قد أخطأ - والعياذ بالله - في جواب ذلك الشخص. وأن ذلك ليس ممكنا فقط، وإنما هو سهل ويسير على بعض مخلوقات الله سبحانه.. فها هو الاحتياط الوجوبي بالتحريم قد أصبح قولا بالجواز، مع أنه باق على حاله من كونه احتياطا وجوبيا بالتحريم، كما أنه لا يزال قولا بالجواز، يؤيد به البعض مقولاته وفتاويه، ولكنه حينما يقول الأحوط وجوبا كذا.. فإنه لا يجيز لك أن تنسب اليه القول بالجواز، وسينكر عليك ذلك أشد الإنكار، وينسب إليك الكذب، والافتراء عليه!. ولا بد من أن نكرر، ونكرر: تبارك الله أحسن الخالقين.

٣٩ - توثيق الأحاديث عاش الكثير من المشاكل التاريخية.

٤٠ - توثيق الأحاديث عاش الكثير من المنازعات المذهبية.

٤١ - كثرت علامات الاستفهام أمام توثيق أي راو.

٤٢ - كثرت علامات الاستفهام أمام توثيق أي حديث.

٤٣ - لا بد من الحذر في الأخذ بالأحاديث.

يقول البعض في أحد هجوماته على الحديث الشريف:

---

(١) راجع: فقه الحياة ص ٣٣ و ٣٤ متنا وهامشا.

(٢) بحار الأنوار ج ٤ ص ١٤٣ و ١٤١ وج ٥٨ ص ٢٥٢ و ٢٥٣، وكتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٧ و ١٣٠ نشر دار المعرفة بيروت لبنان.

" إن توثيق الأحاديث قد عاش الكثير من المشاكل التاريخية، والمنازعات المذهبية، بحيث أصبحت علامات الاستفهام كثيرة أمام الباحث الذي يريد أن يوثق راويا أو حديثا، فلا بد من الحذر في الأخذ بالأحاديث لا سيما إذا كان متضمنا لتغيير الظاهر القرآني " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن أئمتنا (عليهم السلام)، وعلماءنا الأبرار رضوان الله تعالى عليهم، وبالخصوص من كانوا قريبين من عهد صدور النص قد رسموا لنا ضوابط ومعايير، وبينوا لنا شرائط قبول الرواية، وطرائق توثيق الرواة. وقد بين لنا القرآن، والمعصومون الطاهرون صلوات الله وسلامه عليهم: أن الحديث الشريف حجة لا بد من الأخذ بها في المعارف والأحكام شرط أن لا يخالف كتاب الله.

٢ - إن المنازعات المذهبية، والمشاكل التاريخية لا تعنينا ولا تهمنا ما دمنا نملك الوسيلة التي رضيها الله سبحانه وتعالى لنا في تمييز الحديث - الذي هو حجة - من غيره. ولا نحذر من الأخذ بالحديث في هذه الحالة.. بل الحذر هو من عدم الأخذ به..

٣ - إنه إذا تمت شرائط الحجية في الحديث فلا بد من الأخذ به، حتى لو كان متضمنا لتغيير الظاهر القرآني، في مستوى تقييد مطلقاته، وتخصيص عموماته. وتبيين مجملاته. وإيضاح مبهماته.

علما أنه لا بد من التفريق بين دليل حجية الخبر.. فإنه قد يكون قطعيا. وبين الخبر نفسه، الذي قد يكون ظنيا دلالة، أو سندا، أو كليهما..

٤٤ - الحديث المتفق على ضعفه مقبول عنده.

٤٥ - الحديث المتفق على رفض الاستدلال به مقبول عنده.

٤٦ - (الوثوق الشخصي) بالخبر هو المعيار ولو خالف كل العلماء.

٤٧ - توثيق أحاديث أهل البيت مشكلة معقدة.

٤٨ - مشكلة السند بسبب كثرة الكذب على أهل البيت (ع).

٤٩ - فتح باب العمل بروايات العامة.

ثم هو يوثق الحديث الذي ينقل اتفاق العلماء على ضعفه ورفض

----

(١) المعارج ص ٥٤٤ و ٥٤٥.

الإستدلال به بدعوى أنه لا داعي للكذب فيه (١).
وهذا يعني أنه يقول بجواز العمل بالروايات بدون وثوق نوعي. إذ مع الاتفاق على ضعف الحديث ورفض الاستدلال به كيف يمكن الوثوق النوعي به.
ثم هو لنفس السبب، أعني عدم وجود داع للكذب يصحح العمل بروايات العامة (٢) غير ملتفت إلى لزوم قيام القرائن العامة والشواهد المفيدة للوثوق النوعي بها، مع أنه قد صرح في بعض مؤلفاته الأخرى بأنه يشترط الوثوق النوعي، فراجع (٣).
أما بالنسبة لروايات أهل البيت عليهم السلام، (فله موقف آخر، حيث إنه يعتبر توثيق أحاديثهم عليهم السلام مشكلة معقدة لوجود الركام الهائل من الكذب في حديثهم (ع). ويرى أن كثرة الكذب على أهل البيت عليهم السلام تجعلنا نواجه مشكلة السند.
ويقول:
" ربما كان توثيق أحاديث أهل البيت عليهم السلام مشكلة معقدة، من حيث اختلاف الرأي في أسس التوثيق للنصوص المأثورة عنهم، وعن النبي محمد (ص)، وفي طبيعة الحقيقة التاريخية، في وثاقة هذا الراوي أو ذاك، مما يجعل الصورة غير واضحة الملامح في التعبير عن الخطوط الفكرية والفقهية في منهج أهل البيت الإسلامي.
وقد تزيد المسألة إشكالا إذا لاحظنا اضطراب الأحاديث المروية عنهم، من حيث التعارض والتنافي بين الروايات، لا سيما أن بعضها قد يكون صادرا عن راو واحد، يروي الفكرة برواية، ليروي خلافها برواية ثانية، وهنا يقع الخلاف حول تفسير ذلك، وتوجيهه بالتقية تارة، وبغير ذلك أخرى " (٤).
ويقول:
" إن المشكلة هي أن الكذب على أهل البيت كان كثيرا، ولذلك فهناك مشكلة السند " (٥).

---

(١) كتاب النكاح ج ١ ص ٥٨.
(٢) نفس المصدر.
(٣) كتاب الوصية ص ١٢١.
(٤) مجلة المنطلق عدد ١١٣ ص ٢٤
(٥) الندوة ج ١ ص ٥٠٣.

ويقول:
" علينا أن نفهم السنة النبوية الشريفة فهما جديدا، ونفهم ما يأتينا من أحاديث أئمة أهل البيت (ع)، وأن ننقي الأحاديث، لأن هناك ركاما من الأكاذيب، ومن المواضيع التي دخلت إلى واقع الناس، وأصبحت حقائق " (١).

٥٠ - تصحيح الروايات التاريخية.

ومن جهة أخرى فان هذا البعض، بنفس الطريقة، وبنفس الأسلوب، (الذي حاول فيه العمل بروايات العامة، وتصحيح الأخذ بها، - مع مخالفته لما درج عليه علماء المذهب - حاول ذلك بالنسبة لما يرتبط بسيرة النبي (ص)، باستثناء ما يرتبط بالخلافة، فهو يقول:

" نعتقد أن الكثير من سيرة النبي (ص)، أخذه المسلمون يدا بيد، ولم تكن هناك ضرورة للكذب في بعض الحالات، فيمكن أن يقع التحريف في بعض ما يتعلق بالخلافة، ولكن الأحاديث التي تتحدث عن أخلاقه لا ضرورة للكذب فيها.

وكان هناك اهتمام كبير، من قبل الصحابة لملاحقة أوضاعه، كيف يأكل، وكيف يلبس، وكيف كان كذا وكذا..

فهناك حالة ارتباط عضوي رائع، ولذلك فقضية نقل سيرة النبي (ص) كان أمرا طبيعيا، بحيث يتناقله الناس جيلا إثر جيل، لأنها كانت محل اهتمامهم.

فنحن نلاحظ: أنه ليس هناك في التاريخ شخصية اتفق عليها المسلمون كشخصية النبي (ص)، ولم يحدث هناك أية حالة سلبية حيال النبي في كل واقع الإسلام " (٢).

ونقول:
قد أشرنا إلى الإشكال في الفقرة الأخيرة في موضع آخر تحت عنوان عدالة الصحابة.
ونشير هنا أيضا إلى أن محاولة حصر التحريف في بعض ما يتعلق بالخلافة غير سديد، فقد روي عن الإمام الجواد (ع) أنه (ص) قد قال في حجة الوداع:
(قد كثرت علي الكذابة، وستكثر، فمن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث، فاعرضوه على كتاب الله وسنتي) الخ.. (٣).

----

(١) الندوة ج ١ ص ٥٣٩.
(٢) فكر وثقافة عدد ٦ بتاريخ ٢٧ / ٧ / ١٩٩٦.
(٣) البحار ج ٢ ص ٢٢٥ وج ٥٠ ص ٨٠ عن الاحتجاج.

وعن علي عليه السلام أنه قال:
(وقد كذب على رسول الله (ص) على عهده حتى قام خطيبا، فقال: أيها الناس، قد كثرت علي الكذابة فمن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار، ثم كذب عليه من بعده.. الخ (٢).
وقد تحدثنا في كتابنا الصحيح من سيرة النبي الأعظم عن الكثير من الموارد في سيرة النبي (ص) التي كذب فيها عليه فراجع ذلك الكتاب.
وإذا كانت كل الفئات والفرق تريد أن تحصل على الشرعية، وعلى المبررات لمواقفها، وتحتاج إلى الارتباط برسول الله (ص)، وإلصاق نفسها به، والتقوي على خصومها، أو منافسيها بما تنسبه إلى رسول الله (ص) وتبرير التصرفات والفتاوي والحركات وغير ذلك، فإن الكذب والحال هذه لا يعرف قيودا ولا حدودا، ولن يقتصر التحريف على بعض ما يتعلق بالخلافة كما يقوله هذا البعض، ولسنا ندري كيف يدعي اقتصار الكذب على موضوع الخلافة في حديث أهل السنة وهو يؤكد على الركام الهائل من الروايات الموضوعة في حديث أهل البيت (ع)، حسبما تقدم، مع أن حديث أهل البيت (ع) ليس بأقل من حديث غيرهم، إن هذا لشئ عجاب.
٥١ - لا بد من شروط أخرى لقبول الأخبار في غير الأحكام.
٥٢ - لا تكفي مطلق الحجة في تفاصيل العقيدة بل المطلوب اليقين.
٥٣ - مفردات الوجود تحتاج إلى اليقين، لا مطلق الحجة.
٥٤ - لعل إهمال تقويم الأحاديث أوقعنا في فوضى المفاهيم في العقيدة.
٥٥ - إهمال تقويم الأحاديث أوقعنا في فوضى المفاهيم في الكون والحياة.
وبعد أن أنكر البعض: أن يكون المعنى الباطن للقرآن مخزونا لدى الراسخين في العلم، وأنه لا فائدة في ذلك حاول.. أن يقرر قاعدة مفادها: أنه لا بد من تحصيل اليقين في مثل هذه الأمور، فهو يقول:
" والسؤال كيف نفهم ذلك؟
قد يكون من المفيد، أن نتحدث في هذا المجال عن نقطة مهمة في تكوين أية فكرة

---

(١) البحار ج ٢ ص ٢٢٩ وج ٣٤ ص ١٦٩ عن الخصال وعن نهج البلاغة وعن تحف العقول وعن غيبة النعماني وعن الاحتجاج ج ١ ص ٢٦٣ ط بيروت.

حول القضايا الفكرية الإسلامية، وهي ضرورة التأكد من صحة الأحاديث المروية عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وعن الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام)، من حيث السند أو المتن، بالطريقة التي تتجاوز الشروط المعروفة في حجية الأخبار في عملية الاستنباط الاجتهادي للأحكام الشرعية، لأن تلك الشروط قد تكون مطروحة في دائرة التنجيز والتعذير من خلال الآثار الشرعية العملية للمضمون الخبري، وذلك من خلال النظرية الأصولية العامة التي ترى في حجية الخبر لونا من ألوان التعبد الذي لا معنى له في المضمون الذاتي للخبر، فلا بد له من الأثر العملي الذي يكون هو الملحوظ في معنى التعبد.

أما القضايا المتصلة بتفاصيل العقيدة، وبمفردات الوجود، أو بالخصوصية التفسيرية للقرآن، فإنها بحاجة إلى القطع، أو ما يقترب من القطع، ويحقق الاطمئنان؛ لأنه ليس خطا للعمل، بل هو خط للقناعة الفكرية على مستوى الالتزام الداخلي، في الاقتناع بالمفاهيم المتنوعة التي تحكم الأشياء المطروحة في الواقع، لئلا يكون الموقف متحركا في إثباتها.

وقد تكون الخطورة في هذه المسألة، أن الخلل في المسائل العقيدية والمفاهيم العامة في الصورة التي تقدمها للإسلام، أكثر مما يؤدي إليه الخلل في الأحكام الشرعية التي تتصل ببعض جوانب السلوك الفردي والاجتماعي في دائرة خاصة.

ولعل إهمال هذا الجانب، هو الذي أوقعنا في فوضى المفاهيم المتنوعة المتصلة بالكثير من قضايا العقيدة في تفاصيلها، وقضايا الكون والحياة، من خلال الأحاديث الكثيرة التي لم تخضع لتقويم علمي في صحتها وضعفها في قاعدتها العامة.

وفي ضوء ذلك، قد نحتاج إلى الوقوف أمام الأحاديث الواردة في قضايا التفسير بشكل دقيق؛ لأن صورة المضمون التفسيري هي صورة القرآن في الوجه الفكري الذي يتقدم إلى الناس في تخطيطه للإنسان وللحياة، وفي تكوينه للذهنية العامة للمسلم في نظرته إلى الوجود كله، مما قد يترك تأثيراته السلبية أو الإيجابية لدى الباحثين في حركة الصراع بين الإسلام والكفر، أو بين الهدى والضلال " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن هذا البعض نفسه يحتج لكثير من الأمور التي يلتزم بها في التفسير وفي

----

(١) تأملات في المنهج البياني للقرآن ص ١١ - ١٣.

المفاهيم، وفي العقائد وفي التاريخ، وفي مفردات الوجود وغير ذلك بأحاديث ضعيفة السند، وبعضها مروي من طرق غير أهل البيت (عليهم السلام)..
ويقول:
" إن الحجة عنده هو الخبر الموثوق، لا خبر الثقة " (١).
فكيف حصل له القطع أو الاطمينان بصحة كل تلك الأخبار الضعيفة والموهونة، وفقا للمعايير المعتمدة لديه إلا إذا كان يرى أن الوثوق الشخصي هو المعيار، وليس ما يوجب الوثوق النوعي عند كل من يلاحظ النص، وما احتف به من قرائن تفيد الوثوق به.
فإذا كان يرى: أن الوثوق الشخصي هو المعيار فتلك هي الكارثة الحقيقية الكبرى لأن دين الله يصبح ألعوبة في أيدي الناس.. ولا تبقى أية ضابطة أو رابطة للقبول أو الرد.
وإذا كان يرى: أن الوثوق النوعي هو المعيار كما صرح به في مورد آخر سيأتي بعد صفحتين، فإن السؤال يبقى الذي طرحناه آنفا عليه عن الأدلة التي جعلته يقطع أو يطمئن بتلك الأخبار الموهونة التي يطرحها هنا وهناك.
٢ - إنه ليس لديه أي دليل يثبت له هذه الدعوى التي يطلقها حول لزوم تحصيل اليقين أو حتى الاطمينان (العلم العرفي) في تفاصيل العقيدة، وقضايا الوجود والتفسير والمفاهيم العامة وغيرها إلا الاستحسانات العقلية، والتحليلات الذوقية التي يبالغ في تصويرها، ويستخدم الكثير من التهويل والتضخيم للأمور من أجل التأثير على النفوس لقبولها..
٣ - إن غاية ما استدل هذا البعض به هنا هو: أن الخلل في المفاهيم العامة، في الصورة التي نقدمها للإسلام وتفاصيل العقيدة أكثر خطورة من الخلل الذي ينشأ من الخطأ في الأحكام الشرعية في قضايا السلوك الخاص والعام في دائرة خاصة..
ونحن لا نجد الكثير من ملامح هذه الخطورة المميزة لهذا عن ذاك، إلا في موارد معينة بقيت مصونة بجهود العلماء الأبرار عن أي خلل.. إلا ما نشأ أخيرا بسبب إثارات هذا البعض نفسه.. ولذلك نجد أن هناك اختلافا في كثير من

---

(١) كتاب النكاح ج ١ ص ٤٨.

المفاهيم العامة بين الناس.. وفي كثير من التفاصيل العقيدية في قضايا الوجود، وفي كثير من خصوصيات التفسير.. ولكن ذلك لم يزد خطر ذلك على خطر الخلل والاختلاف في الأحكام الشرعية المتعلقة بالسلوك الخاص والعام..

بل قد يكون للخلل في بعض الأحكام خطورة أكبر بكثير من الخلل في بعض مفردات التفسير أو في التفاصيل في العقيدة، أو المفاهيم أو غيرها..

فإن الفتوى بجواز أو وجوب ضرب الوالدين وحبسهما، والإغلاظ لهما بالقول في مجال النهي عن المنكر، كالكذاب مثلا مع التساهل في الإلحاد الذي هو من أعظم المنكرات، وعدم إيجاب الإغلاظ لهما فيه..

وكذلك الفتوى بجواز النظر إلى العراة في نوادي العراة، والفتوى بجواز نظر المرأة إلى عورة المرأة، وجواز نظر الرجال إلى عورة المرأة المسلمة إذا كانت لا تنتهي إذا نهيت، ثم القول بأن في الشهادة لعلي بالولاية في الأذان والإقامة مفاسد كثيرة، ثم تجويز قول آمين، والتكتف، دون الإشارة إلى تلك المفاسد، ثم الفتوى بطهارة كل إنسان، وانعقاد الزواج بالمعاطاة، أي بمجرد الفعل والممارسة من دون حاجة إلى عقد، وما إلى ذلك.

نعم.. إن أمثال هذه الفتاوي أشد خطورة على الإسلام من الخلل في بعض خصوصيات التفسير، أو في فهم بعض مفردات الوجود، وأعظم من الخلل في بعض تفاصيل العقيدة التي قد لا تخطر للإنسان على بال طيلة حياته، كالاعتقاد بان الملائكة معصومون بالإجبار على حد زعمه لا بالاختيار، أو ما يشبه هذا.

٤ - إن الذي أزعج هذا البعض ودفعه إلى أن يطلق هذه الدعاوي هو ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) في معنى الراسخين في العلم وأنهم هم الأئمة من أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام)..

وأنهم هم الذين يعرفون المعنى الباطني للقرآن.. مما يعني: أن لديهم (عليهم السلام) علوما ليست لدى غيرهم.

ومن الواضح: أن هذه الأحاديث قد بلغت حدا من الكثرة والوثاقة بحيث لا يستطيع حتى من يدعي أنه يحتاج إلى تحصيل القطع أو الاطمئنان في كل ما سوى الأحكام الشرعية الفرعية، أن يتملص أو أن يتخلص منها..

فكيف وهو يقول:
" وإذا كان الحديث ضعيف السند، فإنه لا يخلو من إيحاء بالمضمون في الآية، مع ملاحظة أننا لا نقتصر في حجية الخبر على خبر الثقة، بل نضيف إلى ذلك الخبر الموثوق به نوعا، لأن سيرة العقلاء أو بناءهم هو الأساس في حجيته؛ وربما كان ضعف احتمال الكذب، لعدم وجود أساس لرغبة الناقل في تعمده هو القرينة الطبيعية على وثاقة الحديث " (١).

ولا ندري لماذا لم توح له كل تلك الأحاديث في المراد من الراسخين في العلم بمضمون الآية الشريفة؟!

ويقول أيضا:
" ونحب أن نشير هنا إلى مبنانا في حجية خبر الواحد، وهو حجية الخبر الموثوق لا خبر الثقة، فإذا لم تكن هناك أي مصلحة في الكذب عند الراوي - كما في مقامنا - فلا بأس بالأخذ بالخبر وإن كان ضعيفا، ولا يعني ذلك أننا نلغي السند بشكل كلي، بل نعتبر أن ضعف السند من القرائن التي قد توجب عدم الوثوق، كما هو الغالب - وقد لا توجب، وعلى هذا يكون المدار على الوثوق لا الوثاقة " (٢).

فهذا الكلام من هذا البعض يجعله ملزما بقبول هذه الأخبار، ولا يبقي له أي عذر لردها أو تجاهلها.

٥٦ - الأخبار كلها ليست حجة في غير الأحكام.
٥٧ - لا يصح الأخذ بالحديث الضعيف في جوانب الحياة.
٥٨ - لا بد من اليقين في الأحاديث عن أسرار الواقع.
٥٩ - لابد من اليقين في الأحاديث عن ملكات الأشخاص.
٦٠ - أخبار الآحاد لا تقوم لها حجة في التفسير.
٦١ - الإخبارات الكونية لا يكفي فيها خبر الواحد.
٦٢ - الإخبارات التاريخية لا يكفي فيها خبر الواحد.
٦٣ - لا بد من القطع والاطمئنان في الكونيات وفي التاريخ.
٦٤ - القضايا الدينية المتصلة بأفعال الأنبياء لا بد فيها من اليقين والتواتر.
٦٥ - اشتراط اليقين في غير الشرعيات يخلصنا من كثير من الروايات.

ونقول:

---

(١) من وحي القرآن، الطبعة الثانية دار الملاك، ج ٤ ص ٣١١.
(٢) كتاب النكاح ج ١ ص ٤٨.

إن البعض يناقش الروايات التي تتحدث عن طبيعة القبضة التي قبضها (السامري) من أثر الرسول، ويقول عن هذه الروايات:

".. وعلى أي حال فهي أخبار آحاد لا تقوم بها حجة في التفسير لأن حجية خبر الواحد، فيما لم يفد القطع والاطمئنان، لا تعني إلا ترتيب الأثر الشرعي على مضمونه، فيما كان له أثر شرعي.. أما الأمور التي تتضمن أخبارا عن قضايا كونية في السماء أو في الأرض، أو عن أحداث تاريخية فلا مجال للاعتماد على الخبر الواحد فيها بنفسه، بل يتبع القطع أو الاطمئنان، من باب حجتها في ذاتها بعيدا عن الخبر.. فلنترك الموضوع لعلم الله كالكثير مما أجمله القرآن ولم نصل فيه إلى يقين، لا سيما إذا كان الأمر مما لا يتعلق به خط العقيدة فيما يجب اعتقاده، أو خط العمل، فيما يجب الالتزام به " (١).

ويقول في موضع آخر:

".. وقد نحتاج إلى أن نثير أمام هذه الأمور، الفكرة القائلة، بأن القضايا الدينية المتصلة بالمفاهيم والأوضاع المختلفة في أجواء الكون وأفعال الأنبياء وغير ذلك مما يتعلق بالأحكام الشرعية، لا بد في الالتزام بها من اليقين، فلا يكفي فيها الظن الحاصل من رواية خاصة لم تبلغ حد التواتر.. وبذلك نستطيع التخلص من كثير من الروايات المتعلقة بالتفاصيل الدقيقة لخصائص الأوضاع، وملكات الأشخاص، وأسرار الواقع، لنرجع الأمر فيها إلى أهلها أو لنأخذ منها بعض الإيحاءات والأجواء بعيدا عن جانب العقيدة.

وربما كان من الضروري أن يتوفر الباحثون في مسالة حجية الخبر الواحد، في علم الأصول على إثارة المسألة بشكل واضح أمام الناس، لأن المشكلة أن الكثيرين قد اعتمدوا على الروايات في الأمور الخارجة عن شؤون التشريع، بنفس الشروط التي اعتمدوا فيها على التشريع، بل ربما تطور الأمر إلى التوسع في ذلك باعتماد الروايات الضعيفة، مما أدى إلى أن يكون عندنا ركام هائل من الأحاديث المذكورة في الكتب الدينية، التي يعتمد عليها الناس في تكوين التصورات والقناعات الدينية في جانب العقيدة والحياة " (٢).

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٥٦ ١٥٧.

(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ١٢ / ١٤.

وقفة قصيرة

إننا نسجل هنا ما يلي:

١ - تقدم في هذا الكتاب أن الذي يطلب فيه اليقين هو خصوص الأمور العقائدية، التي يجب الإعتقاد بها على كل حال، وهي التي يتوقف عليها الإسلام والإيمان، كالتوحيد والنبوة واليوم الآخر، وكذا يطلب اليقين في المعجزة التي يتوقف عليها ثبوت أصول العقيدة، كالتي يتوقف عليها إثبات نبوة النبي، أما ما عدا ذلك، فإنما يجب الاعتقاد به لو التفت إليه لا مطلقا.

وهذه الأمور التي تحدث عنها هذا البعض هنا، لا دليل على اعتبار اليقين فيها، بل يكفي أن تثبت بالحجة المعتبرة شرعا وعند العقلاء، وذلك مثل الاعتقاد بكرامات النبي (ص)، كتسبيح الحصى بيديه (ص)، وسجود الشجر له (ص)، وتكليم الحيوان له، ونحو ذلك.

فإن ذلك لا مدخلية له في تحقق أصل الإيمان والإسلام، نعم لو ثبت للإنسان بحجة معتبرة وجب عليه الإعتقاد به، لئلا يلزم رد الخبر على أهل البيت عليهم السلام، وقد روي عن الإمام الباقر (ع)، وهو يتحدث عن أصحابه:

(إن أسوأهم عندي حالا، وأمقتهم إلي، الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا، ويروى عنا، فلم يعقله، ولم يقبله قلبه، اشمأز منه وجحده، وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا أسند، فيكون بذلك خارجا عن ولايتنا) (١).

وعنه عليه السلام:

(لا تكذبوا بحديث أتاكم به أحد، فإنكم لا تدرون لعله من الحق، فتكذبوا الله فوق عرشه) (٢).

٢ - إن هذا البعض يقول بعدم حجية أخبار الآحاد في التفسير، وفي التاريخ وفي الكونيات، وفي القضايا الدينية المتصلة بالمفاهيم والأوضاع المختلفة في الكون، وأفعال الأنبياء، وغير ذلك، وكذا الحال بالنسبة للروايات التي تتحدث عن ملكات الأشخاص وأسرار الواقع.

---

(١) البحار ج ٢ ص ١٨٦ والكافي ج ٢ ص ٢٢٣ حديث ٧.
(٢) البحار ج ٢ ص ١٨٦ وراجع ص ١٨٧ و ١٨٨ وراجع المحاسن للبرقي ص ٢٣٠ و ٢٣١.

ونقول: لا ندري السبب في حكمه هذا، فإن حجية خبر الواحد لم تخصص من خلال أدلتها، كبناء العقلاء، أو (آية النبأ) أو غيرها مما يستدل به على حجيته - لم تخصص - هذه الحجية في نوع دون نوع. فمن أين جاء هذا التخصيص البديع - بل المستهجن - يا ترى؟

٣ - إن هذا البعض يقول بعدم إمكان الأخذ بالحديث الضعيف في جوانب الحياة.

ونقول: إن من يقول بالأخذ بالحديث الموثوق - وهذا البعض يدعي دائما أنه منهم - لا بحديث الثقة، لا يحق له أن يقول بلزوم الاقتصار على الخبر الصحيح سندا في أمور الشرع، ولا في سائر ما تقدم.

٤ - إن خبر الواحد حين ينقل لنا ملكات الأشخاص، أو حادثة تاريخية لا يزيد عن كونه ينقل خبرا في موضوع من الموضوعات، فإذا كانت حجيته من باب بناء العقلاء، فلماذا لا تشمل ما هو من قبيل الإخبار بعدالة أو بحياة زيد من الناس، أو بوقوع حادثة القتل الفلانية، وكذا الحديث عن الكونيات، والتبدل فيها ووقوع زلزال أو خسف في البلد الفلاني، أو كالشهادة بالهلال..؟

أما القضايا المتصلة بأفعال الأنبياء، فما هي إلا كنقل صلاتهم، وحجهم، وصيامهم (ع) لنا، ومن هذه الأفعال نقل خبر شجاعة النبي، والإمام الخارقة للعادة في بعض المواضع، كخبر ثباته (ص) يوم أحد، وكخبر قلع باب خيبر، وقتل علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود، حيث كانت ضربته تعدل عبادة الثقلين.

٥ - إنه قد اعتبر أنه لا بد من القطع أو الاطمئنان في كل ما ليس حكما شرعيا، مؤكدا على أن حجيتهما الذاتية هي المنشأ، للأخذ بهما بعيدا عن الخبر.

وهذا معناه لزوم إلقاء معظم الحديث المنقول عن أهل البيت عليهم السلام من أصله والاستغناء عنه؛ لأنه لا حجية له، بل الحجية لليقين بذاته، وللإطمئنان بذاته كما يقول. (وهذه مقولة خطيرة).

مع ما في هذا الأخير - أي حجية الاطمئنان بذاته - من إشكال ظاهر.

ومن الطرائف أن تكون سيرة العقلاء التي يستدل بها هذا البعض على حجية الخبر هي نفسها التي يستدل بها على حجية الاطمئنان، فكيف ساغ له

قبول حجية الاطمئنان في غير الشرعيات وهجر حجية الخبر فيها وتوصيف الحجية في الأول بالذاتية وإنكار حجية الثاني من رأس؟ !
وبعد.. فإن من الواضح: أن الموارد التي يحصل فيها اليقين محدودة ومعدودة، فيبقى هذا الكم الهائل من أحاديث أهل البيت عليهم السلام بلا فائدة ولا عائدة.
ولا ندري مدى ابتعاد مقولة الاكتفاء بما في القرآن، وبما دل عليه العقل، وبالمتواترات، لا ندري مدى ابتعادها عن مقولة - (حسبنا كتاب الله)، ولا نعرف كثيرا عن المواضع التي تختلف فيها هذه عن تلك.
٦٦ - القرآن يوسع الحديث ويضيقه.
٦٧ - الحديث لا يخصص ولا يقيد القرآن.
إن البعض يعتبر أن القرآن هو الذي يوسع الحديث أو يضيقه ومعنى ذلك أن لا يستطيع الحديث تضييق المفهوم القرآني.
فهو يقول:
" إنه لا بد من أن يرجع الفقهاء إلى القرآن "
على قاعدة أساسية هي:
" أن العناوين القرآنية هي العناوين الأصلية التي تحكم وتفسر كل مفردات العناوين الموجودة في السنة فهي التي توسعها وتضيقها، لأنها هي الأساس في حركة الأحكام في الموضوعات. كما أن المفهوم القرآني هو المفهوم الحاكم على كل جزئيات المفاهيم الموجودة في الأحاديث، لأنه هو المقياس لصحة الأحاديث وفسادها.. " (١).
والذي نلفت النظر إليه هو خصوص الفقرات الأولى من النص المذكور، فإذا كان مراده غير ما هو الظاهر، أو كان لديه توضيحات وقيود، فقد كان عليه أن يذكر ذلك في هذا الموضع بالذات، لأنه موضع الحاجة للتوضيح والتصحيح.
٦٨ - نحن نميل إلى الرأي السلبي في وثاقة أبي هريرة.
٦٩ - اختلف الرأي في توثيق أبي هريرة.
يقول البعض:

---

(١) مجلة المنطلق، العدد ١١٣ ص ٣٢.

" هذا مع التحفظ الذي نسجله على شخصية أبي هريرة، التي اختلف الرأي في توثيقها وعدم توثيقها. ونحن نميل إلى الرأي السلبي، ونحتمل أن يكون الحديث من موضوعاته " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن من يقرأ هذه العبارات يظن لأول وهلة: أن الاختلاف في وثاقة أبي هريرة واقع بين علماء الشيعة، وذلك لأن قائل هذا القول يحمل شعار هذا المذهب بل هو يعلن نفسه مرجعا فيه..

٢ - ولو أغمضنا النظر عما سبق، فإننا نقول:

لماذا لم يجزم بعدم وثاقة أبي هريرة، بل أظهر الميل إلى الرأي السلبي؟!

وهذا الأمر أيضا يشير إلى وجود درجة من الاعتبار يحظى بها أبو هريرة لديه!!

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٧ ص ٣١٣.

الفصل الرابع:
الإسلام لا يملك وسيلة بيان..
العمل بالرأي

عودة إلى نماذج من مناهجه على النحو التالي:
٧٠ – الإسلام يعاني من مشكلة.
٧١ – الإسلام لا يملك وسيلة بيان قاطعة ويقينية.
٧٢ – الكلمة والفعل لا تملك روحا مطلقة تحميها من الاحتمال الآخر.
٧٣ – اختلاف المسلمين بدأ من زمن النبي.
٧٤ – اختلاف المسلمين من زمنه (ص) هو بسبب الاحتمالات في الكلام النبوي وفي الأفعال النبوية.
٧٥ – المختلفون لم يكونوا جميعا قادرين على لقاء النبي فبقيت خلافاتهم تأخذ طابع الإسلام.
٧٦ – الاجتهاد بالرأي موجود في زمنه (ص).
٧٧ – النبي – إذا صحت الأحاديث – أمرهم بالعمل بآرائهم حيث لا نص.
٧٨ – الأحزاب جعلت الخلافة قضية مركزية.
٧٩ – المختلفون على الخلافة متواصلون – والأحزاب جعلوا الخلافة سبب انقسام.
يقول البعض، وهو يتحدث عن: هوية الحوار الإسلامي – الإسلامي:
" وهكذا كان الإسلام الواحد يهيئ للأمة الواحدة أن تلتقي على كل مفاهيمه، لتلتقي من خلال هذه المفاهيم على كل مواقع حياتها، لكن مشكلة الإسلام كمشكلة أي فكر آخر
، سواء كانت دينية أو غير دينية، أنه لا يملك أن يدخل إلى أفكار الناس بطريقة غيبية، وإنما يدخل من خلال الكلمة ومن خلال الفعل. ومن الطبيعي أن الكلمة لا تملك روحا مطلقة تحميها من الاحتمال الآخر، وهكذا الفعل لا يملك أيضا انفتاحا لما يختزنه، ما يجعل الاحتمالات كثيرة في تفسير طبيعته وخلفياته..
لذلك اختلف المسلمون في زمن النبي (ص)، ولم يكن كل المسلمين قادرين على لقاء النبي (ص)، لذا بقيت كثير من الخلافات تتحرك في وعي هؤلاء وأولئك على أنها الإسلام. ونحن نعرف أن الاجتهادات بالرأي كانت موجودة، خاصة إذا صحت الأحاديث التي تقول بأن بعض الناس ممن أرسلهم النبي ليقضوا في بعض المناطق، قد قال لهم ما مفاده أنه إذا لم يجد أحدكم شيئا في كتاب الله وسنة رسوله – مما يعرض

عليكم – فإنه يعمل باجتهاد رأيه. إنها وجهة نظر على أي حال.
ثم جاءت الأحزاب بعد النبي (ص)، لتجعل من قضية الخلافة قضية مركزية استطاعت أن تمثل حدا فاصلا يفصل المسلمين عن بعضهم البعض. ربما لم يتحقق هذا الانفصال في عهد الخلافة، إذ نجد تواصلا من الذين اختلفوا حول قضية الخلافة " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
إن ما ورد في هذه الأسطر اليسيرة من مقولات يحتم علينا الوقوف – ولو للتنبيه والتحذير – عند النقاط التالية:
١ – هل يصح لأحد أن يقول: إن الإسلام يعاني من مشكلة أنه لا يملك الدخول إلى أفكار الناس بطريقة غيبية. بل من خلال الكلمة والفعل الخ؟!!
ألا يوحي ذلك:
ألف: أن في الإسلام خللا أو نقصا في قدراته وفي وسائله وهو عاجز عن سد هذا العجز؟!
ب: أن الوسائل التي اعتمدها الإسلام لم تستطع أن تقوم بالمهمة التي أوكلت إليها على أتم وجه، بسبب ما تعاني منه من عجز ووهن؟!
ج: أن القول: إن رسول الله (ص) قد جاءهم بها بيضاء نقية، وأن الكتاب يهدي إلى الرشد.. وأنه مبين، وأن الحجة تامة على الخلائق. وأن لله الحجة البالغة.. وأنه: (قد تبين الرشد من الغي.. (ووو الخ.. – إن ذلك كله – يصبح بلا معنى، وبلا فائدة؟!
بل يكون مجرد شعارات رنانة خالية من الصدقية!! باعتبار ان الإسلام لا يزال يعاني من مشكلة!! أعاذنا الله من الزلل في القول، وفي الفكر، وفي العمل.
٢ – ما ادعاه من أن الكلمة لا تحمل روحا مطلقة تحميها من الاحتمال الآخر.. لا مجال لقبوله.. فإن ذلك إنما هو في بعض الموارد، فهو الاستثناء وليس هو

----
(١) بينات عدد ١٩٩ بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية ١٤٢١ ه / الموافق ٢٢ أيلول ٢٠٠٠ م.

القاعدة.. ولولا ذلك لانهارت حياة الناس، واختلط الحابل بالنابل، ولم يعد لهم ما يحل مشاكلهم على صعيد الخطاب الذي يدخل في صميم حياتهم، وعليه تدور أمور معاشهم ومعادهم. وبه وعلى أساسه يكون الأخذ والعطاء، والفصل في القضاء.

والخلاصة:

أنه لا ريب في وجود ما هو قطعي الدلالة في اللغة العربية، ووجود ما هو ظاهر في دلالته، فلا يضر وجود الاحتمال الضعيف الذي لا يلتفت إليه العقلاء ولا يقدح في حجية ظاهره وفي الإلزام ولزوم الالتزام به.

وإذا كانت بعض الكلمات أو التعابير القليلة لا تأبى احتمالات أخرى في معناها فإن بالإمكان تجنبها والتزام غيرها مما لا يعاني من هذه المشكلة، إلا إذا أريد للكلام أن يكون على درجة من الابهام والإجمال لأكثر من سبب.

ومهما يكن الحال، فإن ثمة نظاما عاما يلتزمه الناس في مجال الخطاب في مختلف جهات حياتهم، وإنما يعتنى بالاحتمالات، وتقبل في دائرة التداول ما دامت خاضعة لهذا النظام العام، فإذا تجاوزت حدوده وخطوطه سقطت وأهملت، واستبعدت من دائرة الاهتمام والتداول. ولولا ذلك، لانسد باب المعرفة على الناس، ولم تقم عليهم حجة، وكان اعتبار فعل المعصوم وقوله وتقريره حجة ودليلا على الأحكام والحقائق الدينية بلا معنى ولا فائدة.

٣ - إن وجود احتمالات متعددة للكلام أو للفعل يحتم أن يبقى الناس في دائرة تلك الاحتمالات.. ولا يجوز لهم أن يتعدوها إلى آراء أخرى يخترعونها من عند أنفسهم..

٤ - قوله:

" إن الإسلام لا يملك الدخول إلى أفكار الناس بطريقة غيبية ".

غير مقبول أيضا فإن الإسلام يقول:

ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه (١).

وقال تعالى:

---

(١) بحار الأنوار ج ١ ص ٢٢٥.

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ((١).

ويقول الله سبحانه:

(والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم ((٢).

فالهداية بالإيمان وزيادة الهدى، من قبل الله سبحانه - كسائر التوفيقات والتسديدات الإلهية -، إنما هما عمل غيبي، وتصرف إلهي.

وعن الإمام الباقر (ع):

(من عمل بما يعلم علمه الله ما لم يعلم) (٣).

ولكن شرط أن تتوفر النية الصادقة لقبول هذا الإيمان، وعدم المقاومة له بتمحل المعاذير.

٥ - على أن التعليم لا ينحصر بالكلمة وبالفعل الذي ترد فيه الاحتمالات. بل إن اجتراح المعجزات القاطعة الدلالة هو الآخر ينتهي بالناس إلى العلم، ويضطرهم إليه، بحيث تصبح حجتهم داحضة. ولا يجدون ثمة أي مهرب.

٦ - على أن هناك هداية فطرية كالهداية للتوحيد، ولكثير من الأمور التي تدركها الفطرة، وهداية تكوينية وهداية عقلية.. فلا تنحصر سبل الهداية بالقول وبالفعل..

٧ - قد جعل هذا البعض اختلاف المسلمين في زمن النبي ناشئا عن أن الكلمة والفعل لا تملك روحا مطلقة تحميها من الاحتمال الآخر..

فهل يريد بذلك أن يعذر الذين اغتصبوا الخلافة من أمير المؤمنين، واعتدوا على مقام سيدة النساء؟! وضربوها وأخذوا فدكا.. وما إلى ذلك؟!

باعتبار أن الكلام الذي ألقي إليهم، قرآنا كان أو توجيها نبويا، لا يملك روحا مطلقة تحميه من الاحتمال الآخر!!

٨ - ولنا أن نلزم هذا البعض بما ألزم به نفسه، فهل يقبل بأن نقول له: إن كلامه وفعله لا يملك روحا مطلقة تحميه من الاحتمالات الأخرى. فكلامه يحتمل أن يكون

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) البحار ج ٧٥ ص ١٨٩.

دائما كلام تضليل، وفعله يحتمل دائما أن تكون له طبيعة سيئة، وخلفيات شائنة؟!
ولماذا إذن يقيم الدنيا ثم لا يقعدها على منتقدي مقولاته التي هي صريحة في خلاف الحق. ولماذا يتهمهم بالعقدة تارة، وبالتغفيل أخرى، وبالوقوع تحت تأثير المخابرات ثالثة، وبعدم الدين والتقوى رابعة وما إلى ذلك؟

٩ - على أن هذا الكلام يستبطن أن لا يبقى هناك حق يعرف أو يؤخذ به من أحد من الناس.. كما أنه لا يبقى معنى لتشريع العقوبات ولا لوضع المثوبات. وأن كل ما يقال أو يفعل ترد فيه الاحتمالات المثبتة والنافية، وتدخله الشبهات، فلا مجال للاحتجاج به، أو له أو عليه..

ولم يكن أيضا معنى للجهاد، لعدم إمكان قطع العذر، وإقامة الحجة. ولا معنى للحد والقصاص لأن الحدود تدرأ بالشبهات لأن كل دليل يستدل به على تشريع شيء لا يملك روحا تحميه من الاحتمال الآخر.

١٠ - وإذا انجر الكلام إلى هذا الحد، فإنه لا حرج إذا قيل: إن هذا معناه أن تنتفي الفائدة من بعثة الأنبياء والرسل، ومن تشريع الشرائع والأحكام.. ما دام أنه ليس ثمة من سبيل لنيلها، ولا وسيلة للوصول إليها!!!

١١ - ثم ما معنى قوله:

" لم يكن كل المسلمين قادرين على لقاء النبي (ص)، فبقيت الخلافات تتحرك في وعي هؤلاء وأولئك على أنها الإسلام "؟!

هل يريد أن يقول: إن الذين اختلفوا لم يروا رسول الله (ص) ليسمعوا منه ما يزيل خلافاتهم؟!

إذا كان هذا هو المقصود فإننا نقول له: إن الاختلاف في معظمه لم يكن بين من لم يكونوا قادرين على رؤية الرسول.. بل كان في معظمه بين من رأوا الرسول (ص) وعاشوا معه، وسمعوا أقواله وكانوا قادرين على الرجوع إليه فيما شجر بينهم.

١٢ - وحتى لو رجعوا إلى الرسول فإنه - على حسب قول هذا البعض - لن يكون (ص) قادرا على حسم مادة النزاع، لأن كل كلام سيقوله لهم لا يملك روحا مطلقة، تحميه من الاحتمال الآخر. وكذلك الحال بالنسبة لما يمارسه من فعل توجيهي وتعليمي. وسيبقى الحرج في أنفسهم مما يقضيه، ولا يبقى معنى ولا

مجال لتحقيق مضمون قوله تعالى: ثم لا يكن في أنفسهم حرج مما قضيت.
١٣ - إن هذا البعض يدعي: أنه يعرف:
" أن الاجتهادات بالرأي كانت موجودة خاصة إذا صحت الأحاديث التي تقول: إن النبي أجاز لقضاة المناطق العمل بالرأي.. "
ومن الواضح:
الف: أن وجود الاجتهاد بالرأي في زمن الرسول لا يعني أن الرسول قد أمضاه وقبل به.. بل هو والأئمة من أهل بيته الطاهرين ما زالوا يقبحون العمل بالرأي وينهون عنه، ويعلنون رفضهم له ويخبرون الناس بأن دين الله لا يصاب بالعقول، ويعلمونهم بالعقوبات القاسية التي أعدها الله لمن يفعل ذلك.
ونذكر من هذه النصوص الرواية التالية:
محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الوشاء، عن مثنى الحناط، عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ترد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب الله، ولا سنة نبيه؛ فننظر فيها؟!
(فقال: لا، أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله عز وجل) (١).
ب: لو صح ما ذكره هذا البعض لم تتحقق بدعة أصلا.. لأن بإمكان كل أحد أن ينتج رأيا يخالف فيه حكم الله بحجة: أنه لا يستطيع أن يرى النبي، وحتى لو رآه، فإن ما يقوله وما يفعله (ص) لا يملك روحا مطلقة، تحميه من الاحتمال الآخر..
وقد روي عن رسول الله (ص) قوله: (إذا ظهرت البدع في أمتي، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله) (٢).
وعنه (ص): (من أتى ذا بدعة فعظمه، فإنما يسعى في هدم الإسلام) (٣).
وعنه (ص): (أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة، قيل: يا رسول الله، وكيف ذلك؟ قال: إنه قد أشرب قلبه حبها) (٤).

----

(١) الكافي ج ١ ص ٥٦.
(٢) الكافي ج ١ ص ٥٤.
(٣) الكافي ج ١ ص ٥٤.
(٤) الكافي ج ١ ص ٥٤.

وروى الكليني، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب عن معاوية بن وهب، قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول:
قال رسول الله (ص): (إن عند كل بدعة تكون من بعدي، يكاد بها الإيمان، وليا من أهل بيتي، موكلا به، يذب عنه، ينطق بإلهام من الله، ويعلن الحق وينوره، ويرد كيد الكائدين، يعبر عن الضعفاء، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله) (١).
وعن يونس بن عبد الرحمان عن أبي الحسن الأول: (يا يونس لا تكونن مبتدعا، من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيه (ص) ضل، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه كفر) (٢).
وعن أبي جعفر (عليه السلام): (من أفتى الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضاد الله، حيث أحل وحرم فيما لا يعلم) (٣).
وعن محمد بن يحيى، عن بعض أصحابه: وعلي بن إبراهيم [عن أبيه] عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله (ع): وعلي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب رفعه، عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:
(إن من أبغض الخلق إلى الله عز وجل لرجلين: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف (٤) بكلام بدعة، قد لهج بالصوم والصلاة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدي (٥) من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد موته، حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته.
ورجل قمش جهلا في جهال الناس، عان (٦) بأغباش الفتنة، قد سماه أشباه الناس

---

(١) الكافي ج ١ ص ٥٤.
(٢) الكافي ج ١ ص ٥٦.
(٣) الكافي ج ١ ص ٥٨.
(٤) في بعض النسخ بالغين المعجمة وفي بعضها بالمهملة وبهما قرئ قوله تعالى: (قد شغفها حبا) وعلى الأول معناه: دخل حب كلام البدعة شعاف قلبه أي حجابه وقيل سويداءه، وعلى الثاني غلبه حبه وأحرقه فإن الشغف بالمهملة شدة الحب وإحراقة القلب (آت).
(٥) بفتح الهاء وسكون المهملة أي السيرة والطريقة.
(٦) كذا في أكثر النسخ من قولهم عنى فيهم أسيرا أي أقام فيهم على أسارة واحتبس وعند غيره حبسه والعاني: الأسير، أو من عنى بالكسر بمعنى تعب، أو من عنى به فهو عان أي اهتم به واشتغل. وفي بعض النسخ بالغين المعجمة من الغنى بالمكان كرضي أي أقام به، أو من غنى بالكسر أيضا بمعنى عاش. والغبش بالتحريك ظلمة آخر الليل (آت).

عالما ولم يغن (١) فيه يوما سالما، بكر (٢) فاستكثر، ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من آجن (٣) واكتنز من غير طائل (٤) جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره، وإن خالف قاضيا سبقه، لم يأمن أن ينقض حكمه من يأتي بعده، كفعله بمن كان قبله، وإن نزلت به إحدى المبهمات المعضلات هيأ لها حشوا من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في منزل غزل العنكبوت لا يدري أصاب أم أخطأ، لا يحسب العلم في شيء مما أنكر، ولا يرى أن وراء ما بلغ فيه مذهبا، إن قاس شيئا بشيء لم يكذب نظره وإن أظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه، لكيلا يقال له: لا يعلم، ثم جسر فقضى.
فهو مفتاح عشوات (٥)، ركاب شبهات، خباط جهالات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ولا يعض في العلم بضرس قاطع فيغنم، يذري الروايات ذرو الريح الهشيم (٦).
تبكي منه المواريث، وتصرخ منه الدماء؛ يستحل بقضائه الفرج الحرام، ويحرم بقضائه الفرج الحلال، لا ملئ بإصدار ما عليه ورد (٧)، ولا هو أهل لما منه فرط، من ادعائه علم الحق) (٨).
١٤ - ثم إن هذا البعض قد أشار إلى:
" الأحاديث التي تقول بأن بعض الناس ممن أرسلهم النبي ليقضوا في بعض المناطق، قد قال لهم ما مفاده: أنه إذا لم يجد أحدكم شيئا في كتاب الله وسنة رسوله - مما يعرض عليكم - فإنه يعمل باجتهاد رأيه.. "
ونقول:

---

(١) أي لم يلبث يوما تاما.
(٢) أي خرج للطلب بكرة وهي كناية عن شدة طلبه واهتمامه في كل يوم أو في أول العمر إلى جمع الشبهات والآراء الباطلة.
(٣) أي شرب حتى ارتوى، والآجن: الماء المتغير المتعفن.
(٤) أي عد ما جمعه كنزا وهو غير طائل. أي ما لا نفع فيه.
(٥) العشوة: الظلمة أي يفتح على الناس ظلمات الشبهات؛ والخبط المشي على غير استواء.
(٦) أي كما أن الريح في حمل الهشيم وتبديده لا تبالي بتمزيقه واختلال نسقه كذلك هذا الجاهل يفعل بالروايات ما تفعل الريح بالهشيم؛ والهشيم ما يبس من النبت وتفتت.
(٧) المليئ بالهمزة: الثقة والغنى، والاصدار الارجاع.
(٨) الكافي ج ١ ص ٥٨ - ٥٩ والبحار ج ١٠١ ص ٢٦٦ / ٢٦٧ ونهج البلاغة ج ١ الخطبة رقم ١٧ ومصادر نهج البلاغة عن: غريب الحديث لابن قتيبة وعن قوت القلوب ج ١ ص ٢٩٠ وأمالي الطوسي ج ١ ص ٢٤٠ وعن الاحتجاج ج ١ ص ٣٩٠ وعن الإرشاد للمفيد ص ١٠٩ وغيرهم.

إنه يشير بكلامه هذا إلى ما يستدل به بعض أهل السنة على تشريع الرأي والقياس، وهو ما رووه عن الحارث بن عمر، بن أخي المغيرة بن شعبة عن ناس من أصحاب معاذ [من أهل حمص)، عن معاذ، قال:
لما بعثه (ص) إلى اليمن، قال كيف تقضي، إذا عرض لك قضاء؟!
قال: أقضي بكتاب الله.
قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟
قال: فبسنة رسوله.
قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟
قال: أجتهد رأيي ولا آلو.
قال: فضرب رسول الله (ص) صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله (١).
وهذه الرواية قد حكم عليها أهل السنة أنفسهم بالضعف وذلك:
ألف: لجهالة الحارث بن عمر، ولأن الرواية لم تبين من هم أصحاب معاذ، ليمكن التأكد من وثاقتهم أو عدمها (٢).
ب: قال أبو محمد: هذا حديث ساقط، لم يروه أحد من غير هذا الطريق، وأول سقوطه أنه عن قوم مجهولين لم يسموا، فلا حجية في من لا يعرف من هو. وفيه الحارث بن عمرو، (وهو مجهول لا يعرف من هو، ولم يأت هذا الحديث قط من غير طريقه) (٣).
وقد أورد الجوزقاني هذا الحديث في الموضوعات، وقال: هذا حديث باطل، رواه جماعة عن شعبة. وقد تصفحت هذا الحديث في أسانيد الكبار والصغار،

---

(١) إرشاد الفحول ص ٢٠٢ عن أحمد، وأبي داود، والترمذي وغيرهم والسنن الكبرى ج ١٠ ص ١١٤ والإحكام في أصول الأحكام ج ٧ ص ١١١ وج ٦ ص ٢٦ لابن حزم وأعلام الموقعين ج ١ ص ٢٠٢ وسنن أبي داود ج ٣ ص ٣٣٠ والأحكام السلطانية ص ٨٥ والبرهان في أصول الفقه ج ٢ ص ٧٧٢ و ١١٨٦ و ١٣٥٦ والإحكام في أصول الاحكام للآمدي ج ٤ ص ١٢٣ و ٢٨٠ ونصب الراية ج ٤ ص ٦٣ وسنن أبي داود ج ٢ ص ٣٠٣ والجامع الصحيح ج ٣ ص ٦١٦.
(٢) عون المعبود ج ٩ ص ٥١٠.
(٣) الإحكام في أصول الأحكام ج ٧ ص ١١٢ وراجع ج ٦ ص ٣٥.

وسألت من لقيته من أهل العلم بالنقل عنه، فلم أجد له طريقا غير هذا.
إلى أن قال: ومثل هذا الإسناد لا يعتمد عليه في أصل الشريعة (١).
وقال البخاري عن هذا الحديث: (لا يعرف الحارث إلا بهذا ولا يصح) (٢).
ج: إن هذا الحديث الضعيف لا يقوى على معارضة ما دل على الردع عن إعمال الرأي.
د: قد أشار البعض إلى أن من الممكن أن تصح الأحاديث التي تقول: إن النبي قال لبعض من أرسلهم إلى بعض المناطق أن يعملوا بالرأي.
ونقول له: إن حديث معاذ الذي ذكرناه هو المعتمد، بل وحتى لو انضم إليه حديث أبي موسى الأشعري، ومعاذ، أو انضم إليه حديث ابن مسعود أيضا (٣).
فإنه يبقى غير مقبول.. لأن رواته لم تثبت وثاقتهم عند علماء المذهب. بل ثبت ضدها.
بل إننا نطمئن القارئ الكريم إلى أن أهل السنة أنفسهم يصرحون - وقد قدمنا بعض تصريحاتهم - بإرسال تلكم الأحاديث، وبمجهولية رواتها، وتفرد هؤلاء المجاهيل بنقلها.
إذن، فلماذا هذا التهويل على الآخرين بوجود أحاديث بصيغة الجمع!! وبأنها يمكن أن تكون صحيحة!!.. فإنها لا يمكن أن تكون كذلك عند السنة أنفسهم، فكيف تصح عند الشيعة..
ه: قال ابن ماجة: حدثنا الحسن بن حماد، سجادة، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن محمد بن سعيد بن حسان، عن عبادة بن نسي، عن عبد الرحمن بن غنم، حدثنا معاذ بن جبل، قال: لما بعثني رسول الله (ص) إلى اليمن قال: لا تقضين ولا تفصلن إلا بما تعلم، وإن أشكل عليك أمر، فقف حتى تبينه، أو تكتب إلي فيه (٤).

____

(١) عون المعبود ج ٩ ص ٥١٠.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام ج ٧ ص ١١٢ وج ٦ ص ٣٥ ونصب الراية ج ٤ ص ٦٣ وعون المعبود ج ٩ ص ٥١٠ و ٥١١.
(٣) راجع: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج ٤ ص ٢٩.
(٤) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٢١، وراجع: أعلام الموقعين ج ١ ص ٢٠٢.

قال في هامش عون المعبود: (وهذا أجود إسنادا من الأول، ولا ذكر فيه للرأي) (١).
و: إن من الواضح: أن الله سبحانه، قد أكمل الدين وأتم النعمة، ورضي لنا الإسلام دينا بولاية علي عليه السلام.. وكان كمال هذا الدين بحيث أن الإمام الصادق (ع) يقول: (إن عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة؟!
قال: قلت (أي الراوي): جعلت فداك، وما الجامعة؟
قال: صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله (ص) وإملائه، من فلق فيه، وخط علي (ع) بيمينه، فيها حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش. وضرب بيده إلي، فقال: تأذن لي يا أبا محمد؟!
قال: قلت: جعلت فداك، إنما أنا لك، فاصنع ما شئت.
قال: فغمزني بيده، وقال: حتى أرش هذا؟ (٢).
وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حول الجفر الأبيض، قال (ع): (فيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد، حتى فيه الجلدة، ونصف الجلدة، وربع الجلدة، وأرش الخدش) (٣).
وعن أبي عبد الله (عليه السلام) حول الجامعة: (.. فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وهي فيها) (٤).
وفي نص آخر عنه (عليه السلام): (إن عندنا كتابا أملاه رسول الله (ص) وخط علي عليه السلام صحيفة فيها كل حلال وحرام إلخ..) (٥).
وفي نص آخر يقول عن كتاب علي (ع): (.. ما على الأرض شيء يحتاجون إليه إلا وهو فيه حتى أرش الخدش) (٦).
وعن الإمام الرضا (ع) حول علامات الإمام قال عليه السلام: (يكون عنده

---

(١) عون المعبود ج ٩ هامش ص ٥٠٩.
(٢) الكافي ج ١ ص ٢٣٩ والوسائل ج ٢٩ ص ٣٥٦ وبصائر الدرجات ص ١٥١ - ١٥٢ حديث ٣.
(٣) الكافي ج ١ ص ٢٤٠ وبصائر الدرجات ص ١٥٠ و ١٥١ والبحار ج ٢٦ ص ٣٧ و ٣٨.
(٤) الكافي ج ١ ص ٢٤١.
(٥) الكافي ج ١ ص ٢٤٢.
(٦) بصائر الدرجات ص ١٤٧.

الجفر الأكبر والأصغر [و] اهاب ماعز واهاب كبش، فيهما جميع العلوم، حتى أرش الخدش، وحتى الجلدة، ونصف الجلدة، وثلث الجلدة) (١).

١٥ - قوله:

" إن سبب بقاء الاختلاف بين المسلمين هو عدم قدرة كثير منهم على لقاء رسول الله (ص).. "

غير صحيح، فإن بعضهم قد خالف رسول الله (ص) نفسه، وتنازعوا عنده، ومعه وقالوا: إن النبي ليهجر، ومنعوه من أن يكتب لهم كتابا لن يضلوا بعده..

ونقول أيضا:

ألف: إن قول رسول الله (ص): إيتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا يوضح: أن تلك الكتابة وذلك الفعل سوف يملك روحا مطلقة تحميه من جميع الاحتمالات الأخرى.. ولولا ذلك لم يصح قوله: لن تضلوا بعده أبدا.

ب: إن الأحاديث التي يراد الإيحاء بصحتها هي تلك التي رواها أتباع غير أهل البيت عليهم السلام والتزموا بها. وهي لا تمت إلى أهل البيت ولا إلى شيعتهم بأية صلة. بل المروي عن أهل البيت مناقض لها، فقد روي عنهم عليهم السلام:

(القضاة أربعة: ثلاثة في النار، وواحد في الجنة: رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم، فهو في النار، ورجل قضى بحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بحق وهو يعلم، فهو في الجنة) (٢).

فأئمتنا يقولون: إن من قضى بالحق، وهو لا يعلم فهو في النار.. فهل يصح أن يقول هذا البعض:

" أن النبي صرح لهم بأن يعملوا باجتهاد آرائهم "

إذا لم يعلموا؟!

وإذا قال هذا البعض: إن حكم الله تابع لآراء المجتهدين، وإن تباينت تلك

---

(١) راجع معاني الأخبار ص ١٠٢ و ١٠٣ والخصال ج ٢ ص ٥٢٧ وعيون أخبار الرضا ج ١ ص ٢١٢ و ٢١٣ والبحار ج ٢٥ ص ١١٦.

(٢) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٤٧ وج ١٠١ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ والكافي ج ٧ ص ٤٠٧.

الآراء واختلفت. فإذا لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله كانت آراء الناس هي الحق المعلوم.. وإن الرواية السابقة ناظرة لموافقة أو مخالفة الحق الموجود في كتاب الله وسنة رسوله فقط، دون ما لم يكن واردا فيهما.

فإن الجواب لهذا البعض هو:

الف: إن هذا الكلام يستبطن التصويب في اجتهاد الآراء. والتصويب باطل بلا ريب.

ب: روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

(ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام، فيحكم فيها برأيه، ثم يرد تلك القضية بعينها على غيره، فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم، فيصوب آراءهم جميعا وإلهم واحد! ونبيهم واحد! وكتابهم واحد!.

أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه! أم نهاهم عنه فعصوه! أم أنزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه) (١)!.

وروي عن عمر بن أذينة، وكان من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: (خلت يوما على عبد الرحمن بن أبي ليلى بالكوفة، وهو قاض، فقلت: أردت أصلحك الله أن أسألك عن مسائل وكنت حديث السن.

فقال: سل يا ابن أخي عما شئت.

فقلت: أخبرني عنكم معاشر القضاة ترد عليكم القضية في المال والفرج والدم فتقضي أنت فيها برأيك، ثم ترد تلك القضية بعينها على قاضي مكة فيقضي فيها بخلاف قضيتك، وترد على قاضي البصرة وقضاة اليمن وقاضي المدينة فيقضون بخلاف ذلك، ثم تجتمعون عند خليفتكم الذي استقضاكم فتخبرونه باختلاف قضاياكم فيصوب قول كل واحد منكم، وإلهكم واحد ونبيكم واحد ودينكم واحد، أفأمركم الله عز وجل بالاختلاف فأطعتموه؟ أم نهاكم عنه فعصيتموه؟ أم كنتم شركاء الله في حكمه فلكم أن تقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله دينا ناقصا فاستعان بكم على إتمامه؟ أم أنزله الله تاما فقصر رسول الله (ص) عن أدائه؟ أم ماذا تقولون؟

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١ ص ٨٨، ونهج البلاغة ج ١ الخطبة رقم ١٨ ومطالب السؤل ج ١ ص ٦٤١ والاحتجاج ج ١.

فقال: من أين أنت يا فتى؟
قلت: من أهل البصرة.
قال: من أيها؟
قلت: من عبد القيس.
قال: من أيهم؟
قلت: من بني أذينة.
قال: ما قرابتك من عبد الرحمن بن أذينة؟
قلت: هو جدي.
فرحب بي وقربني وقال: أي فتى لقد سألت فغلظت، وانهمكت فعوصت. وسأخبرك إنشاء الله.
أما قولك في اختلاف القضايا فإنه ما ورد علينا من أمر القضايا مما له في كتاب الله أصل وفي سنة نبيه فليس لنا أن نعدو الكتاب والسنة، وما ورد علينا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله فإنا نأخذ فيه برأينا.
قلت: ما صنعت شيئا لأن الله عز وجل يقول: (ما فرطنا في الكتاب من شيء (، وقال: (فيه تبيان كل شيء ((١)..
وبديهي أنه إذا لم يستطع الناس أن يكتشفوا الحق بأنفسهم فعليهم أن يرجعوا إلى العالمين به، الذين يتيقنون تأويله.. وهم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة.
١٦ - إنه يقول:
" إن الأحزاب بعد النبي (ص) هي التي جعلت قضية الخلافة قضية مركزية، وحدا فاصلا فصل المسلمين عن بعضهم البعض.. "
ونقول:
من الواضح: أن جعل قضية الخلافة قضية مركزية إنما كان من قبل الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم..

----
(١) بحار الأنوار ج ١٠١ ص ٢٧٠ ودعائم الإسلام ج ١ ص ٩٢ و ٩٣ ومستدرك الوسائل ج ١٧ ص ٢٤٥. وبصائر الدرجات.

والأحاديث المتواترة عن رسول الله (ص) خير شاهد على ما نقول. وقد صرحت بذلك الآيات أيضا.

ومنها قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ((١).

حيث اعتبر أن عدم إبلاغ أمر الإمامة والقيادة من بعده، يوازي عدم إبلاغ الرسالة نفسها من الأساس.. وليلاحظ قوله أخيرا: (الله لا يهدي القوم الكافرين) لذي جاء ليؤكد على أن من يقف في الموقع المناهض لهذا الأمر، فإنه يصبح في معسكر الكفر. ولا يكون في دائرة الإسلام، فضلا عن الإيمان..

ونذكر من الأحاديث التي أكدت على محورية أمر الإمامة والولاية في الإسلام والإيمان - وهي أحاديث متنوعة، وكثيرة جدا - الحديث التالي:

محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن صفوان بن يحيى، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول:

(كل من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه، ولا إمام له من الله، فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير، والله شانئ لأعماله) إلى أن قال:

(وكذلك - والله - يا محمد، من أصبح من هذه الأمة، لا إمام له من الله جل وعز ظاهرا عادلا أصبح ضالا تائها، وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق.

واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله، وقد ضلوا وأضلوا، فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد) (٢).

١٧ - إنه يفهم من كلام هذا البعض:

" أن قضية الخلافة هي التي تفصل المسلمين عن بعضهم البعض ".

وقد اعتبر أن:

" هذا الانفصال لم يكن في عهد الخلافة، بل كان هناك تواصل من الذين اختلفوا حول قضية الخلافة.. "

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦٧.

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٧٥.

ونقول:
ألف: إنه لا شك في أن كل ما يختلف فيه الناس لا يمكن أن يكون جميع الفرقاء محقين فيه، فلا شك - والحالة هذه - من وجود مبطل في البين، وإذا كان الطرف الآخر ملتزما بالحق، فلا بد من وقوع الفصل والانفصال بين الحق والباطل والمحق والمبطل.. وقد تحدث الله سبحانه في كتابه الكريم عن هذا التمايز والانفصال - ربما في عشرات الآيات - كقوله تعالى: (فماذا بعد الحق إلا الضلال ((١).
وقوله: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ((٢).
وقوله تعالى: (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ((٣).
وقال: (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ((٤).
وقال: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ((٥).
وقال: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ((٦).
وقال: (لا تستوي الحسنة ولا السيئة ((٧).
وغيره كثير وكثير جدا.
ب: إنه قد نسب إلى الأحزاب أنهم هم الذين جعلوا قضية الخلافة قضية مركزية، فهل يقصد بالأحزاب: الشيعة؟ أم السنة؟ أم هما معا؟
إننا نرجح أنه يقصد الشيعة، أو أنهم في جملة من يقصد، ولكن:
هل الشيعة، أتباع أهل البيت حزب بنظره؟ فإذا كانوا كذلك عنده، فإنهم ليسوا كذلك في واقع الأمر بل هم الصفوة المؤمنة، والملتزمة بما جاء به

---

(١) سورة يونس الآية ٣٢.
(٢) سورة القلم، الآيتان ٣٥ و ٣٦.
(٣) سورة فاطر، الآيات ١٩ - ١ وقريب من ذلك في سورة الرعد الآية ١٦.
(٤) سورة الحشر، الآية ٢٠.
(٥) سورة الزمر، الآية ٩.
(٦) سورة السجدة، الآية ١٨.
(٧) سورة فصلت، الآية ٣٤.

الرسول الكريم (ص) وهم الذين يحملون دين الإسلام الصحيح، وهم المحقون، المدفوعون عن حقهم؟!

وهل تصح مساواة من يصر على الالتزام بالحق بمن يصر على مجانبة الحق، ومحاولة منع أهله من الالتزام به؟!

ج: إن ما يقوله الشيعة في أمر الخلافة لا يختلف عما يقوله أئمتهم عليهم السلام ونبيهم (ص) فيها. فإذا كان ذلك يجعل الشيعة حزبا، فإنه يجعل أئمتهم عليهم السلام، ونبيهم الأكرم (ص) حزبا..

وليسمح لنا هذا البعض بأن نوجه إليه سؤالا واحدا هنا: هل هو راض عن هذا الحزب أم ساخط عليه؟!

إننا نرجح أن يجيبنا بأنه ساخط عليه، وماقت له، لأن الأحزاب - بنظره - هي السبب في فصل المسلمين عن بعضهم البعض.

ه: ما معنى تواصل الذين اختلفوا على الخلافة؟ هل معناه أنهم قد اعترفوا لبعضهم البعض بخطأهم فيما يعتقدونه. وأنهم قد تخلوا عن التمسك بالحق لصالح الباطل، أو عن الباطل لصالح الحق؟.

أم أن معناه أنهم لم يواجهوا العنف بالعنف، واهتموا بحفظ بيضة الإسلام، كما صرح به أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه؟!

وهل تجد أن موقف الشيعة اليوم يختلف عن موقف إمامهم الأول علي بن أبي طالب (عليه السلام)؟.

فهل تجدهم قد حاربوا أحدا ليرغموه على الاعتقاد بإمامة علي عليه السلام؟

أم تجدهم يدفعون بالتي هي أحسن ما وجدوا إلى ذلك سبيلا؟ وأنهم ما زالوا مسالمين ومسلمين ما سلمت أمور المسلمين؟

وأن غاية ما يقومون به هو بيان الحق لمن يريد الحق.. وليس ثمة أكثر من ذلك..

الفصل الخامس:
التأويل.. استيحاء من الأئمة

٨٠ – أقوال الأئمة (عليهم السلام) مجرد آراء.
٨١ – عندما ننسب رأيا للإمام لا بد من معرفة وثاقته بسند صحيح.

سئل البعض:

هناك قول للإمام العسكري (ع) يقول: من لم يحسن أن يمنع لم يحسن أن يعطي.

فأجاب:

" من قال: إن الإمام العسكري (ع) قال ذلك؟، فلا بد لنا عندما ننسب رأيا إلى الإمام (عليه السلام) أن يعرف هل هو موثق بسند صحيح؟! إلخ.. " (١)

وقفة قصيرة

ونقول:

١ – إنك تلاحظ: أن هذا البعض يعتبر هذه الكلمة " رأيا " للإمام عليه السلام!!.

٢ – إنه قد استنكر على هذا الرجل نسبة القول إلى الإمام من دون أن تثبت له صحة سنده.. مع أن هذا البعض نفسه ينسب الكثير الكثير من الأقوال والقضايا والأحداث إلى المعصومين وإلى غيرهم. ولا يمكنه أن يثبت صحة كثير من ذلك، بل هو عاجز عن إثبات صحة أكثرها من حيث السند.

بل إنه هو نفسه حين يسأل بعد صفحة واحدة من كلامه هذا فيقال له:

دعوتم كثيرا للتدقيق في الروايات التي تتحدث عن سيرة الحسين (ع)، خاصة المتعلق منها بواقعة كربلاء، والليلة ذكرتم: أن الحسين (ع) بكى على أعدائه، لأنهم يدخلون النار بسببه، فهل هي موثقة روائيا؟

يجيب بقوله:

---

(١) نشرة فكر وثقافة عدد ٦٧ بتاريخ ١٧ – ١٤٢١ ه، ص ٣.

" قلت: إن بعض الروايات تتحدث، وأنا لم ألتزم هذا. ولكن روحية الإمام الحسين (ع) وأخلاقيته وأريحته تسمح بذلك، فهو يعلم ما لا يعلمون، لأنه على يقين، ولأنه يرى الأمور على اليقين، وهم في الغي سادرون.
وربما كان مضمون الرواية، وانسجامه مع أخلاقيته دليلا على وثاقة الرواية " (١).
ونسجل على هذا الكلام:
أولا: إن مضمون الرواية لا يكون دليلا على وثاقة الرواية، بل هو يرفع المانع أمام قبولها.. إذا تمت شرائط القبول.
ثانيا: قوله:
" وأنا لم ألتزم بهذا ".
لا مجال لقبوله منه، لأنه أتى به ليستدل على قضية أطلقها بصورة يقينية، فكيف تكون الدعوى يقينية، إذا كانت تستند إلى أمر لم يلتزم هو به.
وهذه هي عبارته:
" لأن الإمام الحسين (ع) لا يملك إلا أن يحب، ولذلك يقول بعض رواة السيرة: إنه كان يبكي على الذين يقاتلونه، لأنهم سوف يتعرضون إلى عذاب الله بسببه؛ فأي قلب أرحب، وأوسع وأرق من هذا القلب؟، ولذلك لا نملك إلا أن نحب الحسين (عليه السلام) " (٢).
ثالثا: كيف جاز له أن يورد أمرا، ويستدل به، ولا يعرف الناس أنه لا يلتزم به.
ثم ينكر على ذلك الرجل نسبة ذلك الحديث إلى الإمام؟! فكيف جرت الباء عنده، فأورد حديثا، واستدل به على الناس العوام.. وأنكر على العوام نفس ما فعله هو معهم؟!.
رابعا: إن على من يصف الحديث المروي عن المعصوم بأنه رأي للمعصوم، أن يعذرنا إذا قلنا: إن هدفه من هذا التوصيف هو إثارة الشكوك، والإيحاء بوجود أكاذيب ومختلقات في المروي عنهم (عليهم السلام). وقد قرأنا في هذا الكتاب أنه يقول:
" اعتقد أنه يجب أن نستوحي القرآن، كما كان الأئمة يستوحونه " (٣).

----

(١) المصدر السابق ص ٤.
(٢) المصدر السابق ص ٢.
(٣) للإنسان والحياة ص ٣١٠.

ويقول:
" إن المشكلة هي أن الكذب على أهل البيت كان كثيرا، ولذلك فهناك مشكلة السند ".
ويقول:
" إن هناك ركاما من الأكاذيب إلخ.. " (١).
ثم هو يقول:
" إن علينا أن ننفتح على أصالة التراث الإسلامي الفكري، الذي تركه أهل البيت (ع) لنتنبه إلى ما وضعه الوضاعون، وكذب فيه الكذابون. وهذا ما يدعونا إلى رفض الأحاديث التي تنسب زورا وبهتانا إلى أهل البيت، وقد حذرنا الأئمة من ذلك إلخ.. " (٢).
خامسا: لا ينكر أحد أن هناك من كذب على الله وعلى رسوله (صلى الله عليه وآله) حتى صعد (صلى الله عليه وآله) المنبر في حال حياته، وحذر الناس من أنه قد كثرت عليه الكذابة. وكذلك كان هناك من يكذب على الأئمة الطاهرين (عليهم السلام).
ولكن لماذا ننسى جهود الأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، والعلماء الأتقياء الأبرار، الذين تصدوا للوضاعين، ورصدوا الكذابين، وعرفوا الناس بهم، وبينوا عبر القرون المتمادية من الجهود المشكورة صحيح الحديث، من ضعيفه، وميزوا الأصيل من الدخيل؟!

٨٢ - هناك ما يشبه الإستيحاء للأئمة!!
٨٣ - إستيحاءات الأئمة مجرد اجتهادات.
٨٤ - الأئمة (ع) يستوحون القرآن.
٨٥ - هو يستوحي القرآن كما يستوحيه الأئمة (ع).

وحول آية: (ومن أحياها، فكأنما أحيا الناس جميعا) (٣)، قال الإمام الباقر (ع): (تأويلها الأعظم: من نقلها من ضلال إلى هدى).
فيعقب هذا البعض على ذلك بقوله:
" فالإمام في ذلك يستوحي الحياة المعنوية من الحياة المادية ".

---

(١) راجع فيما تقدم: هذا الكتاب: خلفيات ج ١ ص ٢٨٨ و ٢٨٩.
(٢) نشرة بينات العدد ١٨٤.
(٣) سورة المائدة الآية ٣٢.

ويتابع قائلا:
" أعتقد: أنه يجب أن نستوحي القرآن كما كان الأئمة يستوحونه " (١).
ويقول البعض في تفسير قوله تعالى (كهيعص):
".. وقد وردت بعض الأحاديث المأثورة في تأويل هذه الكلمة عن بعض أئمة أهل البيت، فقد جاء فيما روي عن الإمام جعفر الصادق - فيما رواه عنه سفيان بن سعيد الثوري - قال: (كهيعص) معناه، أنا الكافي الهادي الولي العالم الصادق الوعد.
وعن ابن عباس - كما في الدر المنثور - معناه كريم هاد حكيم عليم صادق وربما كان هذا اجتهادا من ابن عباس، كما قد يكون الأول استيحاء أو ما يشبه ذلك، على تقدير صحة الرواية " (٢).
ويقول أيضا:
".. (ونري فرعون وهامان) فيما نريهم من مظاهر القوة ومواقعها للمستضعفين الذين يتحركون في خط المواجهة لهما ولسلطتهما (وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) ويخافون، فيما يخافه الطغاة من تنامي قوة المستضعفين وتعاظمها بحيث تشكل خطرا مستقبليا على ما يملكونه من سلطة الظلم وقوة الاستكبار على يد شخص من بني إسرائيل.
وقد وردت بعض الروايات عن أئمة أهل البيت (ع) في الاستشهاد بهذه الآية في موارد معينة، كما في مسألة الإمام المهدي، ونحوها.. والظاهر أنها من باب الاستيحاء والتطبيق، باعتبار أن الآية توحي بأن سيطرة المستكبرين لا بد أن تعقبها سيطرة المستضعفين.. مما يجعل من القضية سنة إلهية.. ويوحي بأن النهاية في الدنيا سوف تكون للمستضعفين الذين يكونون ورثة الأرض وخلفاء الله " (٣).
وقفة قصيرة
إن لنا هنا ملاحظات:
الأولى: إن هذا النص قد عرفنا: أن هذا البعض يقصد بكلمة (الإستيحاء): الإجتهاد.
وذلك لأن ما نقله عن ابن عباس في تفسير كلمة (كهيعص) قد

---

(١) للإنسان والحياة ص ٣٠٧ - ٣١٠.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٠.
(٣) من وحي القرآن ج ١٧ ص ٢٩٨ و ٢٩٩.

وصفه بأنه اجتهاد، ثم ذكر أن نفس هذا التفسير منقول عن الإمام الصادق (ع)، ولكنه وصفه بأنه (استيحاء) من قبل الإمام.
ومعنى ذلك هو أنه يلطف التعبير بالنسبة للأئمة عليهم السلام.
وربما يمكن تأييد ذلك: بأنه هو نفسه يرى أن باستطاعته أن يستوحي القرآن كما كان الأئمة عليهم السلام يستوحونه، (١) فإن كان يريد بالإستيحاء غير الإجتهاد فلابد أن يبين لنا معناه، لنعرف كيف نتعامل معه، فإن كان هذا الأمر من مختصاتهم (ع) فلم ادعاه هو لنفسه؟! فهل إن الله سبحانه وتعالى قد خصه بذلك إلى جانبهم، فادعى لنفسه أم لهم وله أيضا؟! وكيف يمكنه أن يثبت لنا ذلك؟!
وإن كان الإستيحاء هو نفس الإجتهاد، خرجنا بنتيجة، حبذا لو لم تتراء لنا من كلامه، لا سيما وأنه لم يزل يكرر على الناس قوله: إن الأئمة رواة لما عند رسول الله (ص).
فإن نسبة الإجتهاد إليهم عليهم السلام أمر مرفوض جملة وتفصيلا، بل ما عندهم هو علم من لدن عليم حكيم.
هذا، ولا يفوتنا التنبيه على أنه حيث نسب الإستيحاء إلى نفسه، وفسر التأويل به، فقد نسب لنفسه تأويل القرآن، وعد نفسه من جملة الراسخين في العلم الذين يقول تعالى عنهم: (ولا يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم)، مع أن روايات أهل البيت عليهم السلام وقراءتهم للآية تدل على أن ذلك من مختصاتهم عليهم السلام.
الثانية: إننا لم نفهم المراد من (ما يشبه الإستيحاء) الذي نسبه إلى الأئمة (ع)، فهل يريد به الإجتهاد في التطبيق للمفهوم العام على موارده، فهذا لا يصح نسبته إلى الإمام كما هو معلوم، أم أنه يقصد به شيئا آخر؟
حبذا لو أوضح لنا ذلك لننظر فيه أيضا.
الثالثة: إن الإمام (عليه السلام) يقول في الرواية المتقدم ذكرها في كلام هذا البعض: تأويلها الأعظم كذا.. وهذا البعض يعتبر هذا استيحاء، ثم يرى لنفسه الحق في استيحاء القرآن كما كان الأئمة يستوحونه!!
٨٦ - التأويل هو الإستيحاء للمعنى من خلال التقاء المعاني في الأهداف.
٨٧ - التأويل لا يعني المعنى الباطن للكلمة.

---

(١) للانسان والحياة ص ٣٠٧ و ٣١٠.

٨٨ – ليس للقرآن بطون، بل أنزل ليفهمه الجميع بشكل طبيعي.
يقول البعض:
" قد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام فيما رواه عنه الفضيل بن يسار، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عز وجل في كتابه: (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) قال: من حرق أو غرق، قلت: من أخرجها من ضلال إلى هدى، قال: ذلك تأويلها الأعظم. ومن خلال ذلك نفهم أن التأويل لا يعني المعنى الباطني للكلمة فيما يحاول البعض أن يفسره من بطون القرآن فإنه قد أنزل على طريقة العرب في التعبير، ليفهمه الجميع بشكل طبيعي.. من دون أن يكون فيه أي إشارات رمزية.. فيما تعارف عليه الأسلوب الرمزي الذي يحمل الكلمة غير معناها، ويجري بها في غير مجالها من دون أساس للاستعارة والكناية والمجاز.. بل التأويل يمثل عملية الإستيحاء للمعنى من خلال التقاء المعاني ببعضها في الأهداف التي يستهدفها القرآن في القضايا التي يثيرها أمام الناس، والمفاهيم التي يريد أن يوحيها إليهم.. كما في هذه الآية التي تحدثت عن الحياة والموت، وعن الناس الذين يعتدون على الحياة، وعن الناس الذين ينقذونها.
.. فقد يستوحي منها الإنسان الفكرة فيمن ينقلون الناس من الضلال إلى الهدى، أو بالعكس، أو فيمن ينقلونه من الجهل إلى العلم أو بالعكس، وذلك لأن الله قد أشار إلى ذلك في قوله تعالى: (يا آيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)، كما عبر عن الذين يعيشون الضلال في واقعهم بالموتى في قوله تعالى: (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين)، وهكذا يمكن لعملية الإستيحاء هذه أن تأخذ من الحياة والموت كل الأجواء التي تشارك هذين المعنيين في تحويل الإنسان من حالة الجمود إلى حالة اليقظة والحركة على مستوى الفكر والعمل والحياة " (١).
وقد قال في موضع أخر عن هذه الرواية المروية عن الإمام الباقر عليه السلام:
" فالإمام في ذلك يستوحي الحياة المعنوية من الحياة المادية " (٢).
وقفة قصيرة
ولنا هنا مع ما ذكره هذا البعض كلام كثير، لكن بما أن المقام ليس مقام

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٨ ص ٩١ / ٩٣.
(٢) للإنسان والحياة ص ٣٠٧ و ٣١٠.

تحقيق وتفصيل، فإننا سوف نقتصر على الإلماح إلى ثلاث نقاط، آثرنا الوقوف عندها، وهي التالية:

١ - إن هذا الرجل قد حاول أن ينكر بطون القرآن - واعتبرها من المحاولات التفسيرية لبعضهم - وقد برهن على مدعاه هذا بمقولة أن القرآن قد أنزل على طريقة العرب في التعبير، ليفهمه الجميع بشكل طبيعي، من دون أن يكون فيه أي إشارات رمزية إلخ..

٢ - قوله:

" بل التأويل يمثل عملية الإستيحاء للمعنى من خلال التقاء المعاني ببعضها في الأهداف التي يستهدفها القرآن، في القضايا التي يثيرها أمام الناس، والمفاهيم التي يريد أن يوحيها إليهم. "

٣ - ثم إنه قد ذكر في مناسبات عديدة أن الأئمة عليهم السلام كانوا يستوحون القرآن، وعقب على ذلك في بعض الموارد بقوله:

" أعتقد أننا يجب أن نستوحي القرآن كما كان الأئمة يستوحونه " (١).

ونحن نرى ذلك كله إخلالا في جهات هامة، حبذا لو سنحت الفرصة لنا للتوسع في الحديث عنها وفيها، لا سيما بعد أن عرفنا أنه يقصد بالإستيحاء: " الإجتهاد "، غير أن علينا أن نتوقف قليلا أمام تبسيطه القضايا إلى حد يجعل من فهم القرآن أمرا طبيعيا حيث يقول: فإنه قد نزل على طريقة العرب في التعبير، ليفهمه الجميع بشكل طبيعي.. إذ إن الأمر ليس بهذه البساطة التي يدعيها، لأنا نبقى جميعا وبلا استثناء بحاجة إلى النبي (ص)، وإلى الامام (ع) ليفسر لنا القرآن ويبقى أكثر الناس بحاجة إلى العلماء ليفسروا لهم ما يمكنهم تفسيره. كما أن في القرآن آيات لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم، الذين هم الأنبياء والأوصياء، فليس التأويل الذي يعلمه الإمام مجرد عملية استيحاء للمعنى، بل هو علم من ذي علم، على حد تعبيرهم عليهم السلام.

بطون القرآن والإستيحاء والتأويل

وعن (أن للقرآن بطونا) نقول:

قد صرحت الروايات المتواترة بذلك، فلا معنى لإنكار ذلك. ولا صحة

----

(١) للإنسان والحياة ص ٧ ٣٠ و ٣١٠.

لما يحاوله البعض من تفسيره لبطون القرآن بالإستيحاءات، بل هي حقائق ثابتة أخبر المعصوم عنها، وليست مجرد استيحاءات.

ومهما يكن من أمر فإننا نشير هنا إلى بعض ما يرتبط بالتأويل، ثم إلى بطون القرآن لنؤكد على حقيقة أننا بحاجة إلى المعصوم، ليعلمنا التأويل، وليكشف لنا عن غوامضه وبطونه، ويفسره لنا، لأنه لا يتظنى تأويله، بل يتيقن حقائقه كما في الرواية عنهم (ع).

أما ما يستوحيه غيرهم فهو من التظني، وربما يصل إلى حد الحدس والتخمين، بل والتخرص والرجم بالغيب.

تأويل القرآن

قد يطلق التأويل على التفسير وبيان الوجه الخفي لما ظهر من فعل أو نحوه، وذلك كما في قول العبد الصالح لموسى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) وفيما عدا ذلك فإن المتأمل في آيات القرآن يجد أنه أطلق وأريد منه معنيان:

أحدهما: تحقق مصداق ما تحدث عنه، وظهور حقيقته في المستقبل، كما في قوله تعالى:

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء؟) (١).

وقوله تعالى:

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله) (٢).

وقال تعالى حكاية عن يوسف:

(لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) (٣).

الثاني: رجوع المتشابه إلى المحكم من آيات القرآن، كما جاء في قوله تعالى:

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات،

---

(١) سورة الإعراف آية ٥٢ و ٥٣.

(٢) سورة يونس آية ٣٩.

(٣) سورة يوسف آية ٣٧.

فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (١).

فظهر مما تقدم:

١ - أن التأويل يحتاج إلى تعليم إلهي ولا يصح فيه التخرص والتخمين والتظني، فقد قال تعالى بالنسبة ليوسف:

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) (٢).

وقال تعالى:

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة) (٣).

وقال سبحانه:

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته، أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره) (٤).

٢ - إن آية سورة آل عمران المتقدمة (لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) تفيد أن العلم بتأويل آيات القرآن مقصور عليه سبحانه وتعالى، وعلى الراسخين في العلم، باعتبار أن الواو عاطفة، كما ظهر من الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية، فعن أبي عبد الله عليه السلام: نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله (٥).

وعن الباقر أو الصادق عليهما السلام في تفسير الآية: فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله، والأوصياء من بعده يعلمونه كله الخ.. (٦).

----

(١) سورة آل عمران آية ٧.
(٢) سورة يوسف الآية ٦.
(٣) سورة يوسف الآية ١٠١.
(٤) سورة يوسف الآية ٢١.
(٥) الكافي ج ١ ص ٢١٣ وتفسير البرهان ج ١ ص ٢٧٠ و ٢٧٢ عنه وعن تفسير العياشي ج ١ ص ١٦٤.
(٦) الكافي ج ١ ص ٢١٣ والبرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢٧٠ و ٢٧١ وتفسير القمي ج ١ ص ٩٦ و ٩٧ وعن العياشي ج ١ ص ١٦٤.

وعن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر (ع): (((وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم): نحن نعلمه)) (١).
وثمة روايات أخرى تدل على ذلك فلتراجع في مظانها.
٣ - وعن الإمام الحسن عليه السلام، في خطبة له بعد البيعة له ذكر فيها أنهم أحد الثقلين: (التالي كتاب الله فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره، لا نتظنى تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إلخ..) (٢).
وما ذلك إلا لأن القرآن - كما قال رسول الله (ص) - لا تحصى عجائبه، ولا يشبع منه علماؤه. ولعمري بعد قول الامام (ع): (لا نتظنى تأويله، بل نتيقن حقائقه)، كيف يدعي البعض لنفسه تأويل واستيحاء القرآن كالامام (ع)!؟.
بطون القرآن
أما بالنسبة لبطون القرآن فنقول:
لقد ثبت وجود بطون للقرآن بالنصوص الكثيرة الواردة من طرق الشيعة وغيرهم، ونذكر منها ما يلي:
في خطبة مروية عن النبي صلى الله عليه واله وسلم يقول: له ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، لا تحصى عجائبه، ولا يشبع منه علماؤه (٣).
وعنه صلى الله عليه واله وسلم: (ما في كتاب الله آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حد مطلع) (٤).
قال ابن المبارك: سمعت غير واحد في هذا الحديث: (ما في كتاب الله آية إلا ولها

---

(١) تفسير العياشي ج ١ ص ١٦٤ والبرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢٧١.
(٢) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٣٥٩ عن الأمالي للشيخ المفيد. وعن الأمالي للشيخ الطوسي ص ١٢٠ ط مؤسسة البعثة - دار الثقافة.
(٣) كنز العمال ج ٢ ص ١٨٦، وليراجع ج ١ ص ٣٣٧، وحياة الصحابة ج ٣ ص ٤٥٦ عنه وعن العسكري، وراجع: نور القبس ص ٢٦٨ / ٢٦٩.
(٤) الزهد والرقائق، قسم ما رواه نعيم بن حماد ص ٢٣ وفي الهامش عن المشكاة ص ٢٧، وراجع الإتقان ج ٢ ص ١٨٤ و ١٢٨، والموافقات للشاطبي ج ٣ ص ٣٨٢ وفي الهامش عن روح المعاني وعن المصابيح، وراجع غرائب القرآن (مطبوع بهامش جامع البيان) ج ١ ص ٢٣ و ٢١ ولباب التأويل للخازن ج ١ ص ١٠ والفائق ج ٢ ص ٣٨١ وراجع التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٧٦.

ظهر وبطن، يقول: لها تفسير ظاهر، وتفسير خفي، ولكل حد مطلع، يقول: يطلع عليه قوم يستعملونه على تلك المعاني، ثم يذهب ذلك القرن، فيجئ قرن آخر، فيطلعون منه على معنى أخر، فيذهب عليه ما كان قبلهم، فلا يزال الناس على ذلك إلى يوم القيامة) (١).

وعن ابن عباس قال: (إن القرآن ذو شجون، وفنون، وبطون، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل) (٢).

وعن الحسن البصري: (ما أنزل الله عز وجل آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع) (٣).

وعن ابن مسعود: (ان القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن) (٤).

وأوضح من ذلك في الدلالة على ما ذكرناه، ما نقل عن أبي الدرداء: " لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة " (٥).

وقال علي (عليه السلام) لابن عباس، حينما أرسله لحجاج الخوارج: " القرآن حمال ذو وجوه " (٦).

وليراجع ما روي عن الإمام أبي جعفر (عليه السلام) حول أن للقرآن ظهرا وبطنا في كتب الإمامية أعزهم الله تعالى (٧).

---

(١) الزهد والرقائق، قسم ما رواه نعيم بن حماد ص ٢٣

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٨٥ عن ابن أبي حاتم

(٣) كنز العمال ج ١ ص ٤٨٨ عن أبي عبيد في فضائله وعن أبي نصر السجزي في الإبانة.

(٤) حلية الأولياء ج ١ ص ٦٥ والاتقان ص ١٨٧، وهامش الموافقات ج ٣ ص ٣٨٢ عن كتاب المصابيح، ومصابيح السنة ج ١ ص ١٧٦ وفي هامشه عن موارد الظمآن ص ٤٤٠ - ٤٤١ وعن غيره، وجامع البيان ج ١ ص ٩ وكشف الأستار ج ٣ ص ٩٠ ونزل الأبرار ص ٧٣ وأسمى المناقب ص ٨٢، ومجمع الزوائد ج ٧ ص ١٥٢ عن البزار، وأبي يعلى والطبراني في الأوسط ولم يذكر الهيثمي قول ابن مسعود في علي عليه السلام وراجع: الغدير ج ٧ ص ١٠٨ عن الحلية ومشكل الآثار ج ٤ ص ١٧٢ و ١٨٢، وترجمة الإمام علي (ع) من تاريخ ابن عساكر بتحقيق المحمودي ج ٣ ص ٢٥ وفي الهامش عن الحلية وفرائد السمطين، والغدير ج ٧ ص ١٠٧ / ١٠٨ وج ٢ ص ٤٥ عن الحلية ج ٣ ص ٩٩ و ٢٢٤ عن مفتاح السعادة ج ١ ص ٤٠٠..

(٥) المصنف للصنعاني ج ١١ ص ٢٥٥، والإتقان ج ٢ ص ١٨٥ عن ابن سبع في شفاء الصدور، وحلية الأولياء ج ١ ص ٢١١ والطبقات الكبرى ج ٢ قس ٢ ص ١١٤ والغدير ج ٣ ص ٩٩ وج ٢ ص ٤٥ عن أبي نعيم وعن مفتاح السعادة ج ١ ص ١٠٠.

(٦) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٥٠ بشرح عبده قسم الكتب والوصايا رقم ٧٧.

(٧) مثل المحاسن البرقي ص ٢٧٠ والبحار ج ٩٢ ص ٧٨ - ١٠٦ وتفسير العياشي ج ١ ص ١١ وتفسير البرهان ج ١ ص ١٩ - ٢١ وتفسير الصافي ج ١ ص ٢٩ و ٣١. ومعاني الأخبار ص ٢٥٩ والغدير ج ٧ ص ١٠٨ عن ابن مسعود وميزان الحكمة ج ١ ص ٩٥.

بل قال بعضهم: إن الأخبار تدل على أن " للقرآن بطونا سبعة أو سبعين " (١).
وقد ألفوا كتبا فيما تضمنه القرآن، من علم الباطن (٢).
ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى: (لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) (٣).
وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) حول القرآن:
(فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون) (٤).
وعنهم عليهم السلام:
(ظاهره أنيق، وباطنه عميق).
وعنهم عليهم السلام:
(ظاهره حكم، وباطنه علم) (٥).
وما يشير إلى هذا المعنى كثير جدا لا مجال لاستقصائه، ولعل إلى جميع ذلك يشير ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، وعن الإمام الحسين عليه السلام: (كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق؛ فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء) (٦).
أهل البيت عليهم السلام يعلمون بطون القرآن
وقد دلت الأحاديث السابقة على أن عليا عليه السلام وهو نفس النبي (ص) وابناءه الأئمة الهداة عليهم السلام يعرفون حقائق القرآن ولطائفه، وبطونه، وهم الواقفون على أسراره؛ السابرون لأغواره، الخائضون لغماره، والمستخرجون للكنوز من أعماق بحاره.

----
(١) كفاية الأصول آخر مبحث (استعمال اللفظ في أكثر معنى) ووسائل الشيعة للكاظمي ص ١٣.
(٢) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٧٩.
(٣) سورة آل عمران، آية ٧.
(٤) البحار ج ٩٢ ص ٨٢ عن تفسير القمي ج ١ ص ٤.
(٥) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٣٨.
(٦) البحار ج ٩٢ ص ١٠٣ و ٢٠ وج ٧٨ ص ٢٧٨ عن كتاب الأربعين، وعن الدرة الباهرة، وجامع الأخبار ص ٤٨ / ٤٩.

ومما يدل على وجود البطون، وعلى أن الأئمة عارفون بها، واقفون عليها ما روي عن علي عليه السلام: لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا في تفسير فاتحة الكتاب (١).
وعنه عليه السلام: (لو شئت لأوقرت بعيرا من تفسير: بسم الله الرحمن الرحيم) (٢).
وفي حديث آخر عنه: (لو شئت لأوقرت أربعين بعيرا من شرح بسم الله) (٣).
وعن الغزالي عنه عليه السلام: (أنه لو أذن له الله ورسوله لشرح معاني ألف الفاتحة حتى يبلغ أربعين وقرا أو جملا) (٤).
وفي نص ثالث عنه عليه السلام: (لو شئت لأوقرت ثمانين بعيرا من معنى الباء) (٥).
وعن ابن عباس قال: (يشرح لنا علي عليه السلام نقطة الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ليلة؛ فانفلق عمود الصبح، وهو بعد لم يفرغ) (٦).
و نقول:
١ - إنه قد لا يكون ثمة منافاة بين حمل البعير الواحد، والأربعين والثمانين بعيرا؛ إذا كان عليه السلام قد قال ذلك في مناسبات مختلفة، واقتضت كل مناسبة منها أن يشير إلى مستوى معين من المعاني والمعارف، فإن ذكر الأقل لا ينافي ذكر الأكثر ولا يناقضه، فهو لو شاء لأوقر بعيرا، ولو شاء لأوقر أكثر من ذلك إلى الأربعين، بل لو شاء لأوقر ثمانين بعيرا أيضا.
٢ - إن سعة علم علي عليه السلام وغزارته مما لا يختلف فيه اثنان؛ كيف وهو باب مدينة علم النبي (ص)، وقد علمه رسول الله (ص) ألف باب من

---

(١) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٨٣ وبحار الأنوار ج ٨٩ ص ١٠٣ و ٩٣ عن أسرار الصلاة، ومناقب آل أبى طالب ج ٢ ص ٥٣ وتفسير البرهان ج ١ ص ٣ وينابيع المودة ص ٦٥ وجامع الأخبار والآثار للأبطحي ج ٢ ص ٤٨ وإحقاق الحق (الملحقات ج ٧ ص ٥٩٤ كلاهما عن: أسرار الصلاة ص ١٣٨ وعن شرح ديوان أمير المؤمنين ص ١٥ مخطوط، وشرح عين العلم وزين الحلم ص ٩١ والروض الأزهر ص ٣٣ وجالية الكدر ص ٤٠ وتاريخ آل محمد ص ١٥٠.
(٢) إحقاق الحق (الملحقات ج ٧ ص ٥٩٥ عن ابن طلحة في مطالب السؤل ص ٢٦، وراجع: كشف الغمة ج ١ ص ١٣٠ والتفسير الكبير للرازي ج ١ ص ١٠٦ ومستدرك سفينة البحار ج ١ ص ٢٣١ و ٣١٦.
(٣) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ١٨٦ عن مشارق أنوار اليقين.
(٤) بحار الأنوار ج ٨٩ ص ١٠٤.
(٥) مستدرك سفينة البحار ج ١ ص ٢٣١ وإحقاق الحق ج ٧ ص ٥٩٥ عن الشعراني في لطائف المنن ج ١ ص ١٧١ وراجع: جامع الأخبار والآثار للأبطحي ج ٢ ص ٤٨.
(٦) مستدرك سفينة البحار ج ١ ص ٢٣١.

العلم، يفتح له من كل باب ألف باب. وقد أثبت عليه السلام عمليا ما يقرب إلى الأذهان معقولية تلك الأقوال والنقول وواقعيتها.
٣ - إنه عليه السلام بقوله هذا يريد أن يفتح الآفاق الرحبة أمام فكر الإنسان لينطلق فيها، ويكتشف أسرار الكون، والحياة، ويتعامل معها من موقع العلم والمعرفة، وليقود مسيرة الحياة من موقع الطموح، والهيمنة الواعية والمسؤولة.
٤ - إن هذه الأرقام ليست خيالية بالنسبة لسورة الفاتحة، التي هي أم القرآن، وهي السبع المثاني التي جعلت عدلا للقرآن العظيم في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) (١) كما روي (٢).
كما أن ذلك ليس بعيدا عن بسم الله الرحمن الرحيم، أعظم آية في كتاب الله العزيز، كما روي عن الإمامين الصادق، وأبي الحسن الكاظم عليهما السلام (٣).
أما بالنسبة لحديث نقطة الباء فلا ندري مدى صحته، بعد أن كان المؤرخون يذكرون أن تنقيط الحروف قد تأخر عن عهد علي عليه السلام بعدة عقود من الزمن. إلا أن يكون ثمة نقط لبعض الحروف في أول الأمر، ثم استوفي النقط لسائرها بعد ذلك.

مناوئوا علي عليه السلام وحساده

وحين رأى حساد علي عليه السلام، ومناوئوه المتسترون: أن عليا عليه السلام قد ذهب بها فخرا ومجدا وسؤددا في جميع المواقع، وفي مختلف الجهات، انبروا ليدعوا لأنفسهم ما هو أعظم من علي (ع)، ومن علم علي (ع)، رغم أن كل أحد يعرف مبلغهم من العلم، ويعرف نوع ومستوى ما يتداولونه من أمور عادية مبتذلة، أطلقوا عليها اسم العلم، وهي أبعد ما تكون عنه، وذلك بسبب ما فيها من شوائب وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان؛ فلنقرأ ما يقوله هؤلاء عن أنفسهم في انتفاخات وادعاءات استعراضية خاوية.

---

(١) سورة الحجر آية ٨٧.
(٢) تفسير البرهان ج ١ ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ وغرائب القرآن (بهامش جامع البيان) ج ١ ص ٢٨ وتفسير العياشي ج ١ ص ٢١.
(٣) راجع البحار ج ٨٢ ص ٢١ وج ٨٩ ص ٢٣٨ عن العياشي ج ١ ص ٢٢ و ٢١ ومجمع البيان ج ١ ص ١٩. وتفسير البرهان ج ١ ص ٤٢ والتفسير الكبير ج ١ ص ٢٠٤ ومستدرك الوسائل ج ٤ ص ١٦٦ و ١٦٧ وجامع الأخبار والآثار ج ٢ ص ٦٢ و ٦١ و ٦٣ عن من تقدم وعن مواهب الرحمن ص ٢١.

فقد ادعى أعظم مفسريهم الفخر الرازي: أنه يمكن أن يستنبط من فوائد سورة الفاتحة عشرة آلاف مسألة (١).

كما يدعون: أن أبا بكر ابن العربي قد استنبط من القرآن بضعا وسبعين ألف علم (٢).

أما البكري، فقد تكلم على بعض علوم البسملة في سنين بكرة كل يوم في الأشهر الثلاثة منه، وقال في بعض مجالسه: لو أردت التكلم على ذلك العمر كله لم يف، أو كما قال (٣).

بل إن البكري قد تكلم في نقطة البسملة في ألفي مجلس ومائتي مجلس.

ونقول:

حدث العاقل بما لا يليق له، فإن لاق له فلا عقل له، ونحن لا ندري كيف لم تظهر فرق ومذاهب من الغلاة في البكري يقدسونه، بل ويؤلهونه، كما غلا بعض الناس في علي عليه السلام حتى ألهوه؟!!

ولا ندري أيضا كيف ضاعت تلك العلوم التي نشرها البكري في محاضراته تلك؟!

وكيف لم يحفظها تلاميذه ولم ينشروها في سائر الأقطار والأمصار، ليستفيد منها الناس، في أمور معاشهم ومعادهم؟!!

وليت الناس قد نقلوا لنا ولو أسماء وهمية للعلوم التي استنبطها أبو بكر ابن العربي من القرآن!! وتلك هي مؤلفات هذا الرجل متداولة بين الناس، ولا نجد فيها أي رائحة لهذه العلوم، بل لا نجد فيها أي تميز لها عما سواها من مؤلفات أقرانه، ومن هم على شاكلته، إن لم نقل: إن في الآخرين من هو أكثر براعة منه، وأدق نظرا.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأكاذيب والأباطيل لن تستطيع أن تنال من المقام الشامخ والباذخ لعلي عليه السلام، ونقول هنا نفس ما قالته الحوراء زينب عليها السلام ليزيد لعنه الله:

(فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت

---

(١) التفسير الكبير ج ١ ص ٥ والتراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٨٣ عنه.

(٢) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٨٣.

(٣) المصدر السابق.

وحينا، وهل رأيك إلا فند وجمعك إلا بدد، وأيامك إلا عدد)؟!!
فصلوات الله وسلامه عليها، وعلى جدها النبي الأعظم، وأمها الزهراء وعلى أبيها أمير المؤمنين، وسيد الوصيين، وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم، ورحمة الله وبركاته.

خلاصة وبيان

وبعد ما تقدم كله نقول:

لماذا ينسب القول بأن للقرآن بطنا وظهرا إلى الشيعة فقط؟!!

ولماذا أيضا يشنعون على الشيعة إذا تفوهوا بهذا الأمر، أو كتبوه، إذا كانت الروايات الدالة عليه موجودة عند غيرهم، كما هي موجودة عندهم؟!

وإذا كان معنى الظهر والبطن هو أن يكون ذلك المعنى الذي يزاح عنه الستار مما يمكن للفظ أن يتحمله، وللمتكلم أن يقصده ليكون بالنسبة للبعض بمنزلة البطن لهذا المعنى المكشوف؛ فأي محذور عقلي أو شرعي يحصل من الالتزام بهذا؟!!

فليكن - والحال هذه - للقرآن بطون سبعة بل سبعون، أو أكثر، يكتشفها هذا الإنسان كلما ترقى في مدارج العلم والمعرفة، أو يكشفها له الأئمة الأطهار (ع) الراسخون في العلم والسابقون في العمل، الذين أشار إليهم - كما تقدم - القرآن الكريم - صلوات الله وسلامه عليهم.

المقصد الثاني:
النبوة ومعالمها وأمور عقائدية عامة حول الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)

الفصل الأول:
سمات الأنبياء.. ومستوياتهم

بداية

نذكر في هذا الفصل مقاطع من كلمات البعض حول ملامح النبوة العامة وحول أنبياء الله (عليهم السلام) وتصرفاتهم وحالاتهم مع الله سبحانه وتعالى، ومع الناس، وحركتهم في الحياة وأساليبهم، نحسب أنها تكفي لإعطاء تصور دقيق عن نظرة هذا الرجل إليهم وإلى دورهم، ومواقفهم، ولتقديم الدليل الحي على حقيقة ما وكيف يفكر هذا البعض تجاه القضايا الإسلامية والإيمانية وغيرها.

وحيث إن فريقا من الناس هم في منأى عن وعي هذه الحقيقة بصورة كافية وسليمة، فقد رأينا من اللازم الوقوف عند العهد الذي قطعناه على أنفسنا بضرورة ذكر طائفة كبيرة من الموارد تعطي بمجموعها تصورا أوفى عن تشعب وتخالف وتنوع القضايا التي تعرض لها، وعن أن ذلك يدخل في دائرة نهج تشكيكي عريض له ميزاته وخصائصه، التي تهئ من خلالها الفرصة لتكوين تيار يحاول الانفصال عن القاعدة الإيمانية الأم، ليواصل هجرته عنها إلى غيرها.

ولربما نلمح في ضمن أسطر يسيرة إلى بعض أوجه الخلل ومواقع الاشتباه فيما يرتبط بتفسير الآيات القرآنية، وقد نهمل ذلك اعتمادا على وضوح فساد الفكرة المطروحة، فإلى ما يلي من مطالب وموارد نقرؤها في الصفحات التالية:

٨٩ - ضعف النبي بشريا في أكثر من موقع.

٩٠ - النبوة لا تفرض الكمال.

٩١ - القرآن لا يريد إعطاء النبوة هالة مقدسة.

وبعد، فإن نظرة هذا البعض للنبوة وللأنبياء نظرة عجيبة وغريبة، فهو يقول في قصة النبي آدم عليه الصلاة السلام:

" إننا نستفيد منها نقطتين:

الأولى: أن النبوة تلتقي بمواقع الضعف البشري في الإنسان في أكثر من موقع، ولا تفرض الكمال الذي يبتعد عن المواقع الطبيعية لديه.
الثانية: أن القرآن لا يريد إعطاء النبوة هالة مقدسة، غائمة في مجال التصور " (١).
وظاهر العبارة لا يأبى عن القول: إن النبي قد يقع في ما يخالف العصمة، مما يلتقي في مواقع الضعف البشري، وإرادة خلاف ذلك تحتاج إلى بيان.
أما حديثه عن " الهالة المقدسة والغائمة "، فإن كان يقصد به: أن القرآن لا يعطي انطباعا عن الرسول يفيد أن لديه قدرات تفوق قدرات البشر.. فكيف يجيب عن ما يذكره القرآن من إحضار عرش بلقيس من قبل من لم يكن نبيا، (بل كان من أتباع أحد الأنبياء؟ وماذا يصنع بإحياء عيسى (ع) للموتى، وإبراء الأكمه والأبرص؟ وبقاء يونس (ع) في بطن الحوت؟ والإسراء والمعراج؟ وما إلى ذلك.
وإن كان يقصد به أنه ليس للأنبياء أي تميز في أنفسهم، فذلك معناه عدم صحة ما ذكره القرآن من أمر الله للملائكة بالسجود تحية وتكريما له، وكذلك ما ورد حكاية عن قول عيسى عليه السلام (وجعلني مباركا أينما كنت... ((الآية)، وعدم صحة ما ورد من أن النبي (ص) والأئمة (ع) كانوا أنوارا قبل خلق الخلق، أو في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة. أليس هذا الأمر مقبولا ومتواترا عند الشيعة وعند السنة أيضا؟!! ألا يعطيهم ذلك هالة مقدسة، ويفرض كمالا يبتعد عن المواقع الطبيعية لديهم؟! فهل الاقتراب من تصور مواقع الأنبياء الطبيعية الواقعية، يقتضي منا أن نكذب كل ما دل على قداستهم؟!
٩٢ - لا أسرار فوق العادة في شخصية الأنبياء.
٩٣ - الضعف في طبيعة الروح للأنبياء.
٩٤ - أوضاع سلبية في التصور والممارسة لدى الأنبياء.
وهو يقول:
" إن الأسلوب القرآني لا يريد أن يعمق في ذهننا الإسلامي الفكرة التي تتحدث عن شخصية الأنبياء، بالمستوى الذي يوحي بأن هناك أسرارا فوق العادة تكمن في داخل شخصيتهم، في ما هي الخصائص الذاتية للشخصية، فهناك أكثر من نقطة ضعف خاضعة للتكوين الإنساني في طبيعة الروح والجسد.

---

(١) من وحي القرآن ج ١٥ ص ١٧٦.

ويمكن أن تتحرك لتصنع أكثر من وضع سلبي على مستوى التصور والممارسة " (١).
ونلاحظ أننا لا نعرف مدى هذا الضعف الروحي للأنبياء، الذي تنشأ عنه أوضاع سلبية على مستوى التصور والممارسة. فقد يظهر ذلك في صورة أخطاء في السلوك وفي تلقي الوحي، أو في سلوكهم الأخلاقي، وحتى في دائرة الإيمان والكفر وغير ذلك مما قد يناله هذا الضعف الروحي ويؤثر فيه. حيث لا يوجد أية ضمانة، وأية حدود يمكن أن ينتهي إليها.. وقد ظهر ذلك فيما يأتي من أمور نسبها إلى الأنبياء، إذا لوحظت جميعا فإنها تظهر أن الضعف الذي يتحدث عنه لا حدود له ولا قيود..
ومع غض النظر عن ذلك، فإن مراجعة التراث الإسلامي تعطينا أن لأنبيائنا ولأئمتنا عليهم السلام مقامات عظيمة، وأن هناك أسرارا فوق العادة في شخصياتهم، حتى لقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لعلي (عليه السلام):
(يا علي ما عرف الله حق معرفته غيري وغيرك، وما عرفك حق معرفتك غير الله وغيري).
ويكفي أن نشير إلى حديث الأنوار المروي عن نبينا (ص) عند الشيعة والسنة، بل لقد رواه السنة عن ثمانية من الصحابة، فضلا عما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، كما أن الأئمة وفاطمة عليهم السلام هم موضع سر الله سبحانه كما صرحت به الأحاديث الشريفة.
٩٥ - نسيان المعصوم في أمور الحياة الصغيرة.
وعن نسيان المعصوم يقول:
" لا نجد هناك أي دليل عقلي أو نقلي يفرض امتناع نسيان النبي لمثل هذه الأمور الحياتية الصغيرة، لأن ذلك لا يسيء إلى نبوته من قريب أو بعيد.
ولكن ربما نلاحظ - في هذا المجال - أن النبي إذا كان لا ينسى أمر التبليغ كما هو المتفق عليه بين المسلمين - فلا بد أن يكون ذلك من خلال ملكة ذاتية تمنعه من النسيان بحيث تجعل وجدانه واعيا للأشياء فلا تغيب عنه عندما ينفصل عنها.. مما يجعل المسألة غير قابلة للتجزئة، كما هي القضايا المتصلة بالملكات النفسية..

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٥ ص ١٧١ / ١٧٢.

وقد يثير البعض أمام هذه الملاحظة أن مسألة التبليغ قد تكون موضعا لتدبير إلهي غير عادي من أجل حفظ الرسالة عن الضياع أو التحريف بحيث يعطي وجدانه الرسالي إشراقة قوية، تختلف عن وعيه للأشياء الأخرى والله العالم " (١).
فهو إذن لا يجد أي دليل عقلي أو نقلي يمنع من نسيان هذه الأمور الحياتية الصغيرة..
وحين تحدث عن أن عدم النسيان في التبليغ يدل على وجود ملكة تمنع من النسيان في كل شيء، سجل إشكالا نسبه إلى البعض، مفاده: أن عدم النسيان في التبليغ لا يكشف عن وجود ملكة، بل قد يكون نتيجة تدبير إلهي.. ثم لم يتحفظ على هذا الإشكال ولا أجاب عليه.
ونتيجة لذلك فإن قوله:
" لا نجد هناك أي دليل عقلي أو نقلي يفرض امتناع نسيان النبي لمثل هذه الأمور الحياتية الخ.. "
يبقى محتفظا بقوته وبدرجة اعتباره.
٩٦ - سهو المعصوم في الأمور الحياتية.
ويقول:
" على أن هناك من يتحدث عن أن السهو عن بعض الأشياء التي لا تتصل بالتبليغ على أنه لا ينافي العصمة، وطبعا هناك وجهة نظر أخرى لا تقول ذلك.
وهذا الرأي ليس رأيا مطلقا بالنسبة للسهو والنسيان، بل هناك من يقول أن السهو ليس منافيا للعصمة في القضايا الحياتية، ونحن نقول بذلك " (٢).
٩٧ - لا يجب أن يكون النبي هو الأعلم في كل شيء.
يقول البعض:
" أما وجوب أن يكون النبي أعلم الأمة في كل شيء، حتى ما لا علاقة له بمهمته الرسالية، ولكن الله قد يعلمه من ذلك ما يحتاجه فيه، أو إذا أراد علم، فليس لدينا دليل على هذا " (٣).

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٣٨٤.
(٢) نشرة فكر وثقافة عدد ١ تاريخ المحاضرة ٢٩ / ٦ / ١٩٩٦.
(٣) الندوة ج ١ ص ٣٦٠.

٩٨ - أحاديث الأسرار الخفية في الأنبياء أحاديث مبالغة.
٩٩ - أحاديث الأجواء النورانية في أجواء القدس للأنبياء مبالغة.
١٠٠ - أحاديث الأسرار والأجواء النورانية لا تملأ الوجدان.
١٠١ - أحاديث الأسرار والأجواء النورانية لا تغني الفكر.

يقول البعض:

" ونلاحظ في هذا الاتجاه كيف يتحدث الله عن إبراهيم (ع) كنموذج حي للنبي المطيع والموحد له والذي اختاره الله لرسالته وهداه إلى صراط مستقيم وذلك هو الحديث عن الأنبياء في الدائرة الإنسانية المنفتحة على ساحة المسؤولية بين يدي الله.. من دون الدخول في أحاديث المبالغة التي تتحدث عن الشخصية الغامضة ذات الأسرار الخفية والآفاق النورانية السابحة في أجواء القدس.. وغير ذلك من الكلمات التي قد تثير في داخلك الكثير من مشاعر التعظيم ولكنها لن تثير في نفسك المعرفة التفصيلية التي تملأ وجدانك وتغني فكرك " (١).

وقفة قصيرة

لا ندري كيف سوغ هذا البعض لنفسه أن يحكم على الأحاديث المروية عن رسول الله (ص) وعن أهل بيته الطاهرين (ع)، والتي لا يملك دليلا صالحا بأنها " أحاديث مبالغة " ومن أين عرف أنها كذلك؟! وكيف ولماذا؟!.

فهل أطلعه الله على غيبه، فعرف أنها أحاديث لا حقيقة لها ولا واقع وراءها؟

وهل يصح من رسول الله (ص) والأئمة الطاهرين (ع) أن يبالغوا في الأمور، ويتكلموا بغير ما هو حق وواقع؟!.

أم أنه يريد أن يحكم على هذه الأحاديث بأنها موضوعة ومكذوبة. لمجرد استبعادات ذهنية خطرت له!؟.

وهل يستطيع أن يحكم على هذه المئات بل الألوف من الأحاديث التي تتحدث عن قدسيتهم ومقاماتهم الشريفة عليهم سلام الله وما أعده الله لهم، وما لهم من شأن عند الله، هل يستطيع أن يحكم على ذلك كله بالوضع والافتعال؟.

أليست هذه الأحاديث فوق حد التواتر الإجمالي الذي يعلم معه على نحو اليقين صدور جزء من هذه الأحاديث عنهم عليهم السلام، مما يعني قطع

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٣ ص ٣٨٨ و ٣٨٩.

الطريق على ردها وتكذيبها.
وقد تقدم في أوائل هذا الفصل ما ينفع هنا فليراجع.
وإذا كان سبب حكمه على هذه الأحاديث بأنها مبالغة هو أنها لن تثير في نفسه المعرفة التفصيلية، فهل يصلح هذا مبررا لإصدار حكمه هذا عليها؟.
وهل إن كل ما لا نستطيع معرفته بالتفصيل تطرح معرفته الإجمالية ويحكم عليه بأنه مبالغات؟
وهل نستطيع أن نجري هذه القاعدة حتى بالنسبة إلى ما ورد في القرآن من حديث عن أمور لا نملك معرفة تفصيلية فيها؟!.. كما صرح هو نفسه بهذا الأمر في موارد تعد بالعشرات في كتابه (من وحي القرآن)، حيث يطلب باستمرار أن نجمل ما أجمله القرآن، ولا نرجع إلى التفاصيل التي تكفل بها الحديث الشريف.. فهل تعتبر تلك الموارد القرآنية من أحاديث المبالغة؟ فنطرح ما علمناه منها بالإجمال؟!.
١٠٢ - الدور الرسالي.. يفجر المشكلة من الداخل، ويحولها إلى صراع يثير النزاع والخلاف والإهتزاز..
ويقول البعض:
" ذلك لأن الدور الرسالي يمثل إرادة التغيير في المفاهيم والوسائل والأهداف.. وتفجير المشكلة من الداخل وتحويلها إلى حالة صراع يثير النزاع والخلاف والإهتزاز وتجاذب المواقف.. من أجل أن تكون النتائج النهائية خاضعة لعملية غربلة وتقييم وتفتيت للواقع الذي يراد تغييره.. لئلا تبقى الرواسب الماضية عقبة نفسية أمام التغيير الداخلي الذي يفسح المجال لتغيير الواقع.. وهكذا أراد الله لرسوله (ص) أن يتجاوز كل المخاوف التي قد تعطل الحركة وتمنع المبادرة وتربك المسيرة.. يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك.. " (١).
وقفة قصيرة
لا نريد أن نتهم هذا البعض بأنه يريد التسويق للفكرة التي تقول: " إن كل شيء يحمل نقيضه في داخله ".
ولكننا نقول: إننا لا نتفاعل كثيرا مع قوله: إن الدور الرسالي يعمل على تفجير المشكلة من الداخل وتحويلها إلى حالة صراع يثير النزاع والخلاف والاهتزاز.. فهل

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٨ ص ١٧٠.

يسمح لنا بهذا المقدار من التحفظ على هذا القول؟ إذ كيف نقبل بأن يقال: إن الدور الرسالي هو دور يثير النزاع، والخلاف، والإهتزاز، نعم ربما استلزم الدور الرسالي ذلك أحيانا؛ لكن هل هذا الأمر أعني إثارة النزاع والخلاف هو من مقدمات الدور الرسالي كما يظهر من كلام هذا الرجل؟! كلا، وحاشا!.
١٠٣ - عجز النبي عن الإتيان بالخوارق، إلا في مواقع قريبة من التحدي.
١٠٤ - الوحي هو الفارق بين النبي وبين والناس.
١٠٥ - لم نعهد تحدث النبي عن المغيبات في المجتمع لا في الشؤون العامة ولا الخاصة.
١٠٦ - لم تحتج الرسالة إلى الحديث عن المغيبات العامة أو الخاصة.
ويقول البعض:
".. وقد يلاحظ المتأمل في القرآن أن الآيات تؤكد دائما على جانب الوحي كفارق بين الناس وبين النبي، كما تثير مسألة عجزه الذاتي عن القيام بكل الأمور الخارقة للعادة في غير النطاق المحدود للمعجزة في طبيعتها القريبة من مواقع التحدي الذي يجتذب ذلك للمحافظة على شخصية الرسالة وفاعليتها في المجتمع.. كما أن هناك نقطة مهمة في سيرته، وهي أنه لم يعهد عنه التحدث بالمغيبات في مجتمع المسلمين فيما يتعلق بشؤونهم العامة والخاصة لأن رسالته لم تحتج إلى ذلك " (١).
وقفة قصيرة
١ - لا نريد أن نقول: إن مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون مقام النبي (ص) قد نزل إلى درجة أنه لم يعد الفارق - بنظر البعض - بينه وبين الناس إلا الوحي.
فقد يتهمنا البعض - كما عودنا - بأننا نفهم كلامه بطريقة غرائزية أو من خلال العقدة، أو ما إلى ذلك.
ولكننا نريد أن نقول: ماذا تعني دعوى كون هذا النبي عاجزا ذاتا عن أي أمر خارق للعادة في غير النطاق المحدود للمعجزة، فيما هو قريب من مواقع التحدي.
فهل معنى ذلك هو أن كل ما ورد من أحاديث في مناقبهم، وخوارق عاداتهم في غير مواقع التحدي مكذوب ومخالف للواقع؟!.
أو هل أن هذا البعض يرى.. أن هذه المئات من خوارق العادات التي

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٢٣ ص ١٨٦ / ١٨٧.

صدرت عن النبي (ص) وعن الأئمة (ع) قد كانت كل مفردة منها في مواقع قريبة من التحدي؟.

فهل كان ذلك الرجل الذي دخل على الامام الصادق (ع) وكان قد ارتكب مخالفة مع الجارية على الباب، فأخبره الإمام (ع) بما كان منه (١)، هل إن ذلك الرجل كان في مواقع قريبة من التحدي؟

وهل كان ذلك الرجل الذي دخل على الإمام الصادق (ع) والامام الحسين (ع) وهو جنب، فنهاه (ع) عن ذلك (٢)، هل كان هو الآخر في موقع قريب من مواقع التحدي؟!

وحين جاء رجل إلى النبي ليفدي أسيرا له وكان معه عدد من الجمال فاستحسن جملا منها وخبأه في الطريق، فأخبره النبي (ص) بذلك، هل كان ذلك الرجل في موقع التحدي؟!.

وحين اشتكى ذلك الجمل صاحبه إلى النبي (ص)، هل كان النبي (ص) في موقع التحدي (٣)؟.

وحين سبح الحصى بيده الشريفة، وحين حن الجذع إليه، ونبع الماء من بين أصابعه، وأطعم الجيش كله من فخذ شاة، وكلمه كتف الشاة بأنه مسموم، وطلبت الغزالة منه أن تذهب لإرضاع ولدها ثم تعود، وغير ذلك مما يعد بالمئات من المنقول عنه (ص)، وكذا الكثير مما نقل عن الأئمة الطاهرين عليهم صلوات الله وسلامه، وكذلك حين تحدثت النملة عن سليمان وجنوده، وغير ذلك، هل كان ذلك كله في مواقع التحدي. أو أن ذلك من الأكاذيب والموضوعات!؟.

٢ - إن الآيات حين أكدت على افتراق النبي (ص) عن سائر الناس بالوحي، فإنما أرادت أن تحصن كلامه عن التشكيك والريب: (وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى). أو أرادت أن تنفي عنه (ص) صفة الألوهية، أو صفة الملك، التي يريد الكفار ان يجدوها فيه.

----

(١) الوسائل ج ٢٠ ص ١٩٦. ومن لا يحضره الفقيه ج ٤ ص ٨ والخرائج والجرائح ج ٢ ص ١٩٠.

(٢) الوسائل ج ٢ ص ٢١١ و ٢١٢. وبصائر الدرجات ص ٢٦١ وقرب الاسناد ص ٢١ والارشاد ص ٢٧٣ وكشف الغمة ج ٢ ص ٢٨٨ والخرائج والجرائح ج ٢ ص ١١٦٦ و ٢٢٦ ورجال الكشي ١٧٠ - ٢٨٨.

(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) ج ٨.

ولم تذكر هذه الآيات أبدا.. أن الفارق بين النبي (ص) وبين الناس محصور بالوحي بحيث لا يملك أية ميزة أخرى سوى ذلك.
على أنه إذا كان الفارق بين النبي وبين الناس يقتصر على خصوصية الوحي - كما هو صريح كلام هذا الرجل هنا ولم يزل يردد ذلك في كثير من المواضيع - فإن السؤال الذي نطلب الإجابة عليه هو:
ما هو الفارق بين الإمام وبين سائر الناس يا ترى، فإن الامام لا يملك خصوصية الوحي التي يتحدث عنها هذا الرجل؟ !..
٣ - إن تعبير هذا الرجل ب (العجز الذاتي) لا يغير في الحقيقة شيئا، لأن من يثبت هذه الكرامات والمعجزات للأنبياء والأصفياء، لا يدعي استغناء هذا النبي عن قدرة الله تعالى، لأن الفقر هو قوام كل من عداه سبحانه.
والأنبياء والأصفياء هم أولى الناس بتذكر هذه الحقيقة، وبالتذكير بها على الدوام.
٤ - وأما أنه لم يعهد من النبي (ص) التحدث في المغيبات في الشؤون العامة والخاصة. لأن الرسالة لم تحتج إلى ذلك.
فلا ندري كيف نفسره، وتلك هي كلمات النبي (ص) والأئمة (ع) التي يخبرون فيها عن العشرات بل المئات من المغيبات في الشؤون العامة والخاصة، قد زخرت بها المجاميع الحديثية السنية والشيعية، وغيرها من مؤلفات علماء الإسلام.
فكيف يقول: لم نعهد أن النبي تحدث بشيء من ذلك؟.
هذا عدا عما ورد في القرآن من إخبارات غيبية كثيرة، يتداولها الناس ويسألون عنها باستمرار، كما في قوله تعالى (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقوله تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا، أولي باس شديد فجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا..).
فكيف يقول: إن الرسالة لم تحتج إلى الحديث عن المغيبات، لا العامة منها ولا الخاصة؟. ولماذا امتدح تعالى في كتابه المؤمنين بالغيب؟
إلا أن يدعي هذا البعض: أن الله سبحانه قد تحدث بأمور لا فائدة فيها، ولم تكن لها مناسبة تقتضيها.

أو أن يكذب بكل هذا المنقول الذي لا يرتاب أحد في تواتره الإجمالي.!
أو أن ينكر كل ما نقل عن الأئمة عليهم السلام في هذا السبيل.!
فإنه إذا لم يحتج مجتمع المسلمين إلى الحديث عن المغيبات في المجتمع في الشؤون العامة أو الخاصة؛ فهل احتاج المسلمون إلى ذلك بعدها حتى زخرت كتب الحديث والتاريخ بما أخبر به علي عليهم السلام من بعده.؟
وما الفرق بين أن يحدثنا الكتاب العزيز عن هذه المغيبات، أو يحدثنا بها وعنها أحد المعصومين عليهم السلام. سوى قطعية الصدور في الكتاب ولزوم التثبت والتأكد من السند في الثاني.

١٠٧ - تفضيل نبي على نبي مبعث خصام وانقسام.
١٠٨ - تفضيل الأنبياء على بعضهم هو في مواقع العمل.
١٠٩ - تفضيل الله لبعض الأنبياء لا يمثل مسؤولية لأتباعهم.
١١٠ - التفضيل هو في نوعية الكتب.
١١١ - التفضيل في طبيعة المعجزة.
١١٢ - لا تستغرقوا في الأنبياء كأشخاص (كلام تكرر عشرات أو مئات المرات في خطبه وفي كتبه).
١١٣ - لا فائدة في الوقوف عند تفضيل نبي على نبي.

يقول البعض:
" (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض..) فيما ميزناهم به من مواقع العمل، وطبيعة المعجزة، ونوعية الكتب، من قاعدة الحكمة التي أقام الله الحياة عليها.. " (١).
ويقول في موضع آخر:
".. وربما كان لنا أن نستوحي من ذلك.. أن الله يريد أن يعلمنا ويقول لنا.. لا تستغرقوا في الأنبياء كأشخاص، بل استغرقوا فيهم، كخط وكهدى وكرسالة.. ولا تقولوا إن هذا النبي أفضل من ذاك، ليكون ذلك مبعث خصام وخلاف وانقسام فيما بينكم، لأنهم لا يعيشون في حياتهم هذا الهاجس، ولا يتحركون من أجل تأكيده، وإن كان الله قد فضل بعضهم على بعض، لكن ذلك لا يمثل مسؤولية أتباعهم، ولا يباعد بين خطواتهم.. بل كل ما هناك هو السير على الخط الذي ساروا عليه، في اتجاه الهدف الذي استهدفوه، لأن الله هو الذي يفاضل بينهم، في الدرجات

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ١٥٧.

عنده، بعد أن فاضل بينهم في المسؤوليات في الحياة، وليس لنا في ذلك دخل من قريب أو من بعيد، فلنقف حيث يريد الله لنا أن نقف، ولنوفر على أنفسنا جهد البحث فيما لا سبيل لنا إلى الإحاطة به ولا فائدة لنا في الوقوف عنده، ولندخر تفكيرنا لما أرادنا الله من الخوض في معرفته، والجهاد في سبيله، وهو الرسالة من خلال قيادة الرسول، في الفكر والحركة والعمل " (١).

وقفة قصيرة

أما بالنسبة للحديث عن تفضيل نبي على نبي، فإننا نقول:

أولا: قد ادعى هذا البعض أن الحديث عن تفضيل نبي على نبي يوجب الخلاف والخصام والانقسام.

مع أننا لم نجد في كل الحقب التاريخية أي مفردة تشير إلى أي نزاع نشأ عن الحديث عن تفضيل نبي على نبي، فضلا عن أن يكون، هناك خصام أو انقسام بسبب ذلك.

ثانيا: إننا لم نعرف كيف تكون نوعية الكتب من أسباب تفاضل الأنبياء، فأيهما أفضل إبراهيم (ع) الذي جاء بالصحف فقط؟! أم موسى (ع) الذي جاء بالتوراة والألواح والصحف أيضا؟! وأيهما أفضل موسى (ع) صاحب التوراة أم عيسى (ع) صاحب الإنجيل؟!

ثالثا: قوله إن الأنبياء يتفاضلون بحسب طبيعة المعجزة أيضا، يثير لدينا السؤال، كيف نفهم أن التفاضل بين إبراهيم (ع) وعيسى (ع) وموسى (ع) عن طريق المعجزة؟ وهل إنزال التوراة والألواح زيادة على الصحف، يعني أن موسى (ع) كان أفضل من إبراهيم (ع)؟ إن ذلك لا يقبل به أحد.

رابعا: قوله إن التفاضل بين الأنبياء إنما هو فيما ميزهم به من مواقع العمل، فإن ذلك يطرح أمامنا أسئلة كثيرة؛ فهل كان موقع العمل من الأنبياء مختلفا، فيشتغل أحدهما بتبليغ الدين، ويشتغل الآخر بأمر آخر غير ذلك؟!.

أم أن المقصود بمواقع العمل، هو أن يكون شغل هذا مع بني إسرائيل، وشغل ذاك مع آخرين، وهذا مع عاد، وذاك مع ثمود.. وهكذا؟!..

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٩ ص ١٤١ - ١٤٢.

ثم إننا لا ندري لماذا يصر هذا الرجل على كون المفاضلة هي في المسؤولية في الحياة، ولا ربط لها بمقاماتهم الغيبية سلام الله عليهم. مع أنه لا يملك دليلا على دعواه هذه.. سوى الادعاء والاستحسان!.

خامسا: إن كان يريد: أن التفاضل في المسؤولية هو الموجب للتفاضل في الآخرة وعلو الدرجات؛ بسبب كثرة العمل الناشئ عن حجم المسؤولية، فمعنى ذلك: هو أن لا يبقى ثمة من فرق في ذات الأنبياء بين نبي ونبي، وذلك يعني، أن ما جوزه هذا البعض على يونس (ع) وآدم (ع)، ونوح (ع)، وموسى (ع) والخ.. لا بد أن يجوز صدوره من نبينا الأكرم (ص)، فيمكن أن يكون نبينا (ص) ساذجا وأن يرتكب معاصي، تشبه معصية إبليس، ثم يتوب كما جرى لادم (ع)، وأن يرتكب جرائم دينية، ويقتل أنفسا بريئة، وأن لا يعرف تكليفه الشرعي فيما يرتبط بهداية الناس، كما يزعم البعض جريانه في حق موسى (ع) وهارون (ع)، وأن.. إلى آخر القائمة التي سنذكرها قريبا.

فإن كان مراده غير ذلك، فعليه أن يشرح لنا كيف ومن أين جاء ارتفاع الدرجات وتدانيها في الآخرة.

سادسا: ليت هذا البعض يدلنا على وجه التفاضل بين مسؤولية إبراهيم (ع) ومسؤولية نبينا الأكرم (ص)، أو مسؤولية عيسى، ومسؤولية سليمان عليهم السلام.

سابعا: إن قول هذا البعض: إن تفضيل الله تعالى بعض الأنبياء على بعض لا يمثل مسؤولية أتباعهم.. غير سديد، فقد حدثنا النبي والأئمة عليهم السلام عن أفضلية السيدة الزهراء، عليها السلام على مريم بنت عمران، وعن أفضلية الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) على بقية التسعة من ذرية الإمام الحسين عليه السلام. وعن أفضلية الإمام أمير المؤمنين على الحسن والحسين عليهم السلام: (وأبوهما خير منهما).

وحدثونا أيضا عن أفضلية سلمان إلى غير ذلك مما لا مجال لاستقصائه، أضف إلى ما تقدم أن على الإنسان المؤمن أن يلتزم خط القرآن، ونهج أهل البيت عليهم السلام في كل تفاصيله وحيثياته، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه

الآخر. بل عليه أن يؤمن بكل ما جاء به، ولا حرج عليه من الجهر بحقائقه، رضي الناس لأجل ذلك أم غضبوا، وكذا الحال فيما جاء به الرسول الكريم، والعظيم، لا بد من الالتزام به ولا حرج من التصريح به ونشره وإشاعته.

ثامنا: لو سلمنا حصول نزاع بسبب الجهر ببعض الحقائق الدينية؛ فإن ذلك لا يمنع من نشرها وبلورتها في أذهان وعقول الناس على نحو لا توجب التنازع، لا أن تلغى هذه المعاني من أساسها واللازم على المتنازعين الذين يخالفون أمر الله أن يكفوا عن نزاعهم الذي لا يرضاه الله، وأن يلتزموا بحقائق الدين مهما كانت، ولولا ذلك للزم الكف عن تبيان أية حقيقة دينية اختلف عليها المسلمون، فلا نتحدث عن الإمامة والإمام، ولا عن غير ذلك من التعاليم والأحكام، لأن ذلك يغضب فريقا من الناس وهو من أسباب انقسام الناس قطعا إلى فريقين.

ولنفرض جدلا، صحة ما يدعى من نزاع أو خصام؛ وصحة لزوم التحاشي عن ذكر مثل هذه الأمور، فإنما تقدر الضرورات بقدرها، وبالتالي يكف عن ذلك حيث ينشأ عنه خصام وحيث يلزم منه تضييع الدين الواجب حفظه والعمل به، ولا يكف عنه حيث لا يلزم ذلك.

تاسعا: قوله: إنه لا فائدة من هذا الأمر فلا داعي للوقوف عنده. لا يصح: لأن الله سبحانه لا يتحدث عن شيء بلا فائدة، وكذلك النبي (ص) الذي لا ينطق عن الهوى، وفي حكمه (ص) الأئمة الأطهار (ع).

عاشرا: لا ندري كيف عرف هذا البعض أن تفضيل الله سبحانه نبيا على آخر إنما هو فيما ميزهم من مواقع العمل، وطبيعة المعجزة ونوعية الكتب، وأين هي القرينة التي اعتمد عليها في حكمه هذا.

١١٤ - الرسالة الإلهية تجربة واقعية في مستوى التطبيق.

١١٥ - حركة الأنبياء مجرد تجارب عملية.

١١٦ - لا مصلحة في إعطاء الصورة الإنسانية للنبي - ثم إعطائه قدرات مطلقة تمتد من الله في ذاته.

يقول البعض:

وهو يتحدث عن صفة الرسولية في الرسول، وأن دراسة هذه القضية:

" من خلال القرآن في ظواهره من حيث يريد للناس أن يفهموه، ويعتقدوه،

ويعيشوه، لا سيما في عهد الرسالة الأول في المرحلة التي كان يعيشها النبي مع الناس من أتباعه وخصومه، مما كانت تثير الكثير من المشاكل، والتعقيدات، وعلامات الاستفهام، لأن الوحي كان ينطلق من الفكرة العامة في مستوى النظرية، ومن حركة التجربة الواقعية في مستوى التطبيق، فكان الناس يرون النبي في مضمون الآيات.. الخ " (١).

ويتحدث عن الصورة النبوية في الوجدان الإسلامي، فيقول:

" ما هي المصلحة في أن يقدم الله لنا الصورة في ملامحها الإنسانية المنسجمة مع الواقع الإنساني في قدراته المحدودة، وفي تجاربه العملية، في الوقت الذي قد تكون الصورة الحقيقية تنطلق في البعد الإلهي، الذي يمتد في القدرات المطلقة، التي تحلق بعيدا في أجواء الغيب، الذي يقترب من قدرة الله بفارق واحد، وهو ذاتية القدرة في ذاته، وامتدادها منه في ذات النبي.. " (٢).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - ماذا يعني تعبير هذا البعض عن حركة الرسالة، التي تحظى بالتوجيه والرعاية الإلهية من خلال جهد النبي (صلى الله عليه وآله) وتضحياته ومواقفه.. ما معنى التعبير عنها ب: " التجربة الواقعية في مستوى التطبيق ".

وعن حركة النبي الرسالية ب: " تجاربه العملية ".

إنه تعبير غير سليم وله إيحاءاته التي تختزن مفهومي الخطأ، والإصابة، والقصور عن إدراك ما يصلح، وما يفسد.. وتختزن أيضا جهلا، وضعفا.. وما إلى ذلك.. مما لا يصح نسبته إلى التوجيه الإلهي والتسديد الرباني الذي ما زالت حركة الأنبياء تعيش آفاقه.

٢ - لماذا يصر هذا البعض على إظهار محدودية قدرات الأنبياء، وأنها قدرات تقترب، بل هي لا تزيد عن قدرات أي إنسان عادي.

وما هو دليله على: أن الله لم يعط أنبياءه وأولياءه فوق ما أعطى البشر من

---

(١) المعارج: عدد ٢٨ - ٣١، ص ٥٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٤٤.

قدرات، ومن طاقات، وذلك من خلال طاعتهم لله سبحانه، وفقا لقوله تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وهو عام مطلق لم يحدد أي سبيل..
كذلك وفقا للحديث القدسي المأثور الذي أيده هذا البعض، والذي سنذكر كلامه حوله فيما يأتي من فصول:
(عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون).
فطاعة الله إذن - حسب اعتراف هذا البعض - تضاعف قدرات المطيع لتصل بها إلى درجات لم يكن ليتصورها هذا البعض وسواه مع أن هذا المطيع هو واحد من الناس المؤمنين، فكيف بالأنبياء، والأوصياء؟!
٣ - أي محذور في أن يعطي الله عباده الصالحين قدرات هي فوق قدرات البشر، وإن كانت لا تقترب من قدراته، والفارق هو أنها ممتدة من الله في ذات النبي، وأي محذور في أن يمتد في القدرات المطلقة التي تحلق بعيدا في أجواء الغيب..
فإن كل شيء يعود إلى الله، ومنه، وليس في ذلك أي شرك أو غلو، بل هو محض التوحيد، وخالص الإستقامة على جادة المعرفة بالله سبحانه، والتسليم له، واعتباره هو المبدأ، والمنتهى، والأول والآخر، وسوف نتحدث عن ذلك فيما يأتي.
٤ - إن جهل هذا البعض بالمصلحة لا يعني عدم وجودها، ومن الواضح: أن الله سبحانه لا يستأذنه إذا أراد أن يفعل ذلك، لمصلحة يعلمها هو تعالى ويجهلها هذا البعض، كما يجهل ما هو أهون وأبسط..
١١٧ - جو النبي قد يعيش نوعا من الاهتزاز والضعف فلا يؤثر كثيرا في عائلته.
١١٨ - ضغط الدعوة قد يشغل النبي في بيته.
١١٩ - قد ينغلق النبي عن أهله.
١٢٠ - المجتمع المنحرف قد يأخذ من النبي أهله دون مقاومة، لأن مقاومته كانت متجهة للمجتمع الكبير.
١٢١ - المرأة تدخل الانحراف إلى بيت النبي، بحيث تحاصر النبي.
١٢٢ - قد تملك الزوجة فعاليات لا يستطيع النبي أن ينقذ نفسه منها.
١٢٣ - الفرق بين إسماعيل، وابن نوح أن إبراهيم عزل ابنه عن ضغط البيئة.
١٢٤ - إسماعيل عاش في بيئة لا يضغط عليها الانحراف لأن أمه كانت صالحة.
١٢٥ - فساد وصلاح البيئة مكن من حماية التجربة في إسماعيل ومنع من ذلك في ابن نوح.
سئل البعض:
في قبال صورة إبراهيم وإسماعيل طرح القرآن صورة نوح وابنه، هناك

دعوة للذبح، وهنا دعوة للنجاة.. هناك امتثال وطاعة، وهنا رفض وتمرد.. ماذا نستوحي من ذلك؟..
فأجاب:
" إن أبناء الأنبياء والأوصياء والعلماء هم بشر كبقية البشر يتأثرون بالأجواء الإيجابية كما يتأثرون بالأجواء السلبية.. وقد يعيشون في ساحة الصراع عندما تتدافع العوامل الإيجابية والسلبية لتكسب هذا الإنسان أو ذاك، بحيث يعيش في صراع داخلي من خلال الصراع الخارجي بما فيه من مؤثرات وإيحاءات، وعلى هذا الأساس فليس من الضروري أن يكون ابن النبي صالحا، أو أن يكون ابن الوصي أو العالم أو المجاهد مثله، لأن الأب يمثل جزءا من البيئة وهو واحد من العوامل الكثيرة التي تؤثر في شخصيته، وقد يعيش جو الأب نوعا من الاهتزاز، والضعف الذي قد لا يستطيع فيه أن يترك التأثير الكبير على عائلته بفعل العوامل المضادة الأخرى أو بفعل الضغط على مواقع حركته، إنها قد تكون مشكلة الكثيرين من الدعاة سواء كانوا أنبياء أو أوصياء أو علماء وذلك أن ضغط الدعوة في تعقيداتها وتحدياتها ومشاكلها قد يشغل الإنسان عن بيته بحيث يعيش منفتحا على العالم ومنغلقا عن أهله من خلال طبيعة ما يفرضه هذا الانفتاح من ابتعاد عن مواقعه الذاتية باعتبار أن أهله يمثلون أحد هذه المواقع.
ومما يجدر بالذكر أن المجتمع المنحرف قد يأخذ من النبي أهله دون مقاومة على اعتبار أن مسألة المقاومة كانت موجهة للمجتمع الكبير، وربما تكون المسألة أن القوى المضادة تملك من القوى المادية والتحدي ما لا تستطيع العناصر الرسالية أن تصمد أمامها بفعل الظروف الطبيعية الطارئة بحيث لا يصمد الرسول في حركته أمام هذه القوى الكبيرة لأن الرسول، أي رسول كان، لا يملك كل الوسائل، وإنما يملك بعض الوسائل المنطلقة من معطيات قدراته الذاتية فعالم الرسالة ليس هو عالم الغيب، وإنما عالم القدرة البشرية التي يطل الغيب عليها في بعض مواقعها إلى حد معين، وقد لا يطل عليها بالكامل بالمعنى الحركي لهذه الإطلالة.
وفي هذا الجو يتحول المجتمع إلى قوة ضاغطة حتى على بيت النبي أو بيت الوصي أو بيت العالم، على اعتبار أنه يملك من عناصر الضغط ما يستطيع معه أن يجتذب جوانب الانحراف لدى هؤلاء بالمستوى الذي يمكن أن يهزم فيه الحركة الرسالية، وقد يبتلى بعض الأنبياء أو العلماء أو الأولياء بزوجات تقف في الموقف المضاد من حركة الرسالة بحيث إنها تقف ضد حركة النبي، وهذا ما

حدثنا القرآن عنه بالنسبة لامرأة نوح وامرأة لوط: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) (التحريم: ١٠).
إننا نستطيع أن نستوحي من ذلك أن الخيانة ليست خيانة العرض في الجانب الجنسي، ولكن الخيانة خيانة الرسالة، وخيانة الأمانة الرسالية.
ومن الطبيعي أن مثل هذا يترك تأثيرا سلبيا على أولاد الأنبياء، أو أولاد الأوصياء أو أولاد العلماء، وأن للأم تأثيرها الكبير إذا كانت خاضعة في أفكارها، وسلوكها للتيار الكافر المنحرف المضاد حيث إنها تدخل كل التيار إلى بيتها على نحو يجد النبي فيه نفسه محاصرا كما أنه محاصر في مجتمعه لأنه لا يستطيع أن يحمي بيته على أساس أن امرأته جزء من هذا البيت، وقد تملك من الفعاليات ما لا يستطيع أن ينقذ نفسه منها.
كما أننا لا نجد إشارة في القرآن إلى تاريخ ابن نوح لكننا نلاحظ أن أباه خاطبه أن يركب معه، وأن لا يكون من الخاسرين: (إركب معنا ولا تكن مع الكافرين) (هود: ٤٢).
ولكنه لم يستجب لوالده: (قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) (هود: ٤٣)، فأجابه نوح الذي فقد الأمل في تلك اللحظة: (لا عاصم اليوم من أمر الله) (هود: ٤٣)، وعندما نادى ربه فإنه لم يناد ربه معترضا، ولكنه كان متسائلا لأن الله سبحانه وعده بأن ينجي ابنه: (قال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) (هود: ٤٦).
وهكذا نستطيع أن نربط قرآنيا بين امرأة نوح، وابن نوح فنجد أنه كان خاضعا لتأثيرات تربية أمه أكثر من خضوعه لأبيه لقربه أكثر منها وتعلقه بمجتمعها.
وبهذا نستطيع أن نفهم الفرق بين مسألة إسماعيل وبين مسألة ابن نوح من أن إسماعيل عاش في بيئة استطاع إبراهيم أن يعزل فيها الولد عن ضغطها، بحيث عاش في بيئة لا يضغط عليها الانحراف بقوة في الوقت الذي كانت أمه صالحة أيضا، وبذلك أمكن حماية التجربة هنا، ولم يمكن حماية التجربة هناك " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
قد ذكر هذا البعض:

----
(١) المعارج: ص ٦١٠ - ٦١٢.

" أن دور البيئة في صنع شخصية ابن نوح كان قويا إلى درجة يعجز النبي نوح عن مواجهة تأثيراتها، حتى كانت النتيجة هي الهلاك والبوار لولده.. "

وذكر هذا البعض أيضا أن ضغط الدعوة على النبي والوصي والعالم في تعقيداتها وتحدياتها ومشاكلها قد يشغل الإنسان عن بيته، بحيث يعيش منفتحا على العالم ومنغلقا

عن أهله.. وأن المجتمع المنحرف قد يأخذ من النبي أهله دون مقاومة، باعتبار أن مسألة المقاومة كانت موجهة للمجتمع الكبير.

ثم مثل لذلك بامرأة نوح، وامرأة لوط، وبابن نوح، الذي تأثر بتربية أمه أكثر من خضوعه لأبيه، لقربه منها أكثر من قربه من أبيه..

ونقول له:

إن كلامه هذا يعطينا كل الحق في أن نرفض ما قاله في حق الزهراء (عليها السلام) من أنه لا يجد فيها، ولا في أمها خديجة الكبرى، وابنتها زينب - لا يجد - خصوصية إلا الظروف الطبيعية التي كفلت لهن إمكانيات النمو الروحي والعقلي، والالتزام العملي بالمستوى الذي تتوازن فيه عناصر الشخصية بشكل طبيعي في مسألة النمو الذاتي، ولا نستطيع إطلاق الحديث المسؤول القائل بوجود عناصر غيبية مميزة تخرجهن عن مستوى المرأة العادي، لأن ذلك لا يخضع لأي إثبات قطعي، على حد تعابيره في كتابه: تأملات حول المرأة.

وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في محله من هذا الكتاب.. فراجع.

وكلامه هنا يثبت صحة ما فهمناه من كلامه هذا، وأنه لا يرى للزهراء عصمة، إلا بمقدار ما حققته ظروفها الطبيعية لها، بحيث إنها لولا تلك الظروف لكان سبيلها سبيل ابن نوح، وغيره من الجناة والعصاة.

٢ - إن بيت النبي والوصي يعتبر جزءا من المجتمع الذي بعث لهدايته ورعايته، وتربيته، وإقامة الحجة عليه.

فلا معنى لأن ينغلق عنه - على حد تعبير هذا البعض - ولا لأن يشغله المجتمع الكبير عن الصغير..

كما أن على النبي المبعوث أن يقاوم الانحراف أينما كان، وحيثما وجد،

فلا معنى لأن يوجه مقاومته إلى جهة، ويترك جهة أخرى، وإلا لكان مقصرا - والعياذ بالله - في أداء مهماته الرسالية، أو غير قادر على القيام بها، فلا مبرر لبعثته، بل اللازم هو بعث سواه، أو إرسال رسول آخر معه ليعينه، كما كان الحال بالنسبة لهارون وموسى عليهما وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام..

إن هذا البعض يقيس الأنبياء على الناس العاديين، سواء أكانوا علماء أو غير علماء، فيصفهم بأوصافهم فالحق الذي لا محيص عنه هو أن امرأتي نوح ولوط، وكذلك ابن نوح كانوا غير مستعدين للهداية ولا للصلاح، ولا شك في أن نوحا ولوطا (عليهما السلام) قد بذلا مختلف المحاولات في سبيل هدايتهم وإصلاحهم، ولكن قد ران على قلوب أولئك الكفرة ما كانوا يكسبون، وغرتهم الحياة الدنيا، وراقهم زبرجها.

٣ - والغريب في الأمر مقارنته إسماعيل (عليه السلام) بابن نوح، حيث استطاع إبراهيم (عليه السلام) أن يعزل ولده عن الضغط القوي للانحراف في البيئة التي عاش فيها، مع كون أمه صالحة أيضا، وبذلك أمكن حماية التجربة هنا، ولم يمكن حماية التجربة هناك، على حد تعبيره..

مما يعني أنه لو كانت أم إسماعيل غير صالحة لما أمكن حماية التجربة، ولكان إسماعيل قد اتخذ سبيل الكفر والانحراف - والعياذ بالله - كما فعل ابن نوح.

وهذا ما يؤكد طبيعة ما كان يرمي إليه هذا البعض حين تحدث عن أنه ليس في الزهراء أي خصوصية إلا الظروف الطبيعية التي كفلت لها إمكانات النمو الروحي والعقلي والالتزام العملي.. وأنه ليس فيها أي عنصر غيبي مميز يخرجها عن مستوى المرأة العادي..

٤ - إننا لا نوافق على اعتباره ما يقوم به الأنبياء من واجبات، وتكاليف حتى في مجال التربية مجرد تجارب تخطئ وتصيب، بل هي إنجازات جاءت وفق التكليف الإلهي الشرعي الصائب لكبد الحقيقة، دون أي تقصير أو ضعف في ذلك..

وقد أشرنا إلى هذا الأمر أكثر من مرة في نظائر المقام.

٥ - ما الدليل على أن امرأة نوح قد حاصرت النبي في فعالياتها فإن التصويرات التي قدمها عن بيت نوح، وعن فعاليات زوجته، ومحاصرتها له..

وغير ذلك، ما هي إلا رجم بالغيب، لم يقدم عليها أي دليل مهما كان ضعيفا وهزيلا.. مع أنه يشترط في أحداث التاريخ الدليل المفيد لليقين كأن يكون متواترا، ولا يكفي مطلق ما هو حجة حسب زعمه..

وكذلك الحال فيما ذكره بالنسبة إلى إسماعيل عليه السلام، فقد أشرنا إلى عدم مقبوليته أو معقوليته.. كما أن عليه - حسب ما قرره هو - أن يأتي بالدليل القاطع عليه.. وأين ذلك منه، وأنى له!!

١٢٦ - القول بلزوم كون النبي أجمل الناس تطرف.

١٢٧ - نتحفظ على قاعدة قبح قيادة المفضول للفاضل.

١٢٨ - لا يجب تفوق النبي في كل صفة ذاتية.

١٢٩ - لا يجب تفوق النبي في كل علم.

١٣٠ - لا ضرورة تفرض قدرات غير عادية للنبي.

١٣١ - لا ضرورة في أن يصنع النبي كل شيء خارق للعادة في أي وقت ومناسبة.

١٣٢ - المطلوب في النبي القدرة فيما يحتاج اليه الداعية والمشرع والحاكم.

١٣٣ - الربط بين النبوة وبين القوة الخارقة تصور منحرف.

١٣٤ - القول بلزوم أن يكون النبي أشجع الناس تطرف.

١٣٥ - القول بلزوم التفوق فيما لا يرتبط بالقيادة والنبوة تطرف.

١٣٦ - قد يكون الجنود أشجع من قائدهم في قيادات العالم.

١٣٧ - المهم تفوق القائد في الفكر القيادي، وليس المهم خوض المعركة.

١٣٨ - المهم هو التفوق والكمال في المسائل التي تدخل في قيادة النبي.

١٣٩ - ليس دور النبي التأسيس للعلوم الطبيعية والرياضية، ولا المعلم للألسن واللغات.

١٤٠ - دور النبي هو الإبلاغ والإنذار، والهداية، والتعليم، وقيادة الناس إلى تطبيق ذلك.

يقول البعض:

" فقد نلاحظ - بوضوح - تحديد المهمات الرسالية للأنبياء في وضع الخطوط العامة للفكر والتشريع من أجل أن ينطلق الحكم على أساس الحق، وميزان العدل، وفي رعاية الناس بما يخفف عنهم أغلالهم، وأثقالهم التي ترهقهم وتعطل مسيرتهم في بناء الحياة على قاعدة ثابتة، وفي تركيز الأسس التي تلتقي عليها مصالح الناس وأفكارهم، من أجل إخضاع الاختلافات إلى الحكم العدل الذي لا ينحرف ولا يجور. وبالتالي، إشاعة السلام القائم على الرحمة والعدل..

وفي ضوء ذلك، لا نجد أمامنا - في هذا الإطار - أي ضرورة تفرض اتصاف

النبي بالقدرات الغير عادية (١) التي يستطيع – معها – أن يصنع كل شيء خارق للعادة في أي وقت وفي أية مناسبة.

بل كل ما هناك، أن يملك النبي القدرة على حمل الرسالة وإبلاغها وتطبيقها بالحكمة والمرونة والقوة، في كل ما يحتاج إليه الداعية والمشرع والحاكم فيما يتعلق بدعوته وشريعته وحكمه.. وبذلك يبطل التصور المنحرف الذي يربط بين النبوة وبين القوة الخارقة التي تصنع ما تشاء، بلا حدود.

النبوة والتفوق المطلق

وقد يمكن لنا في هذا المجال أن نتحفظ فيما يفيض فيه الكثيرون من علماء الكلام عندما يتحدثون عن صفات النبي – أي نبي كان – فيوجبون له التفوق في كل علم، وفي كل صفة ذاتية على أساس القاعدة العقلية المعروفة لديهم وهي قبح قيادة المفضول للفاضل.. فإذا لم يكن النبي في مستوى القمة في كل شيء، لم يصلح لمركز القيادة الحياتية للناس.

وقد يتطرف البعض فيوجب أن يكون النبي أجمل الناس، وأشجعهم، وأقواهم في عضلاته إلى غير ذلك من الصفات الجسمية التي لا ترتبط بالنبوة ولا بالقيادة من قريب ولا من بعيد.. فإننا نلاحظ في أوضاع القيادات في العالم.. حتى العسكرية منها.. أن القائد لا يفرض فيه أن يكون أكثر شجاعة من جنوده، فربما يكون الكثيرون من جنوده أشجع منه، لأن دوره الأساسي – كقائد – ليس هو خوض المعركة، بل قيادتها التي تتمثل في الفكر العسكري القيادي الذي يعرف كيف يخطط للمعركة وكيف يواجه التطبيق العملي للخطط المرسومة.

وهكذا نجد القضية في كل جانب من الجوانب الحياتية التي لا تتطلب في القيادة إلا أن تكون في مركز التفوق والكمال في القطاع الذي تتولى قيادته.

إننا نسجل تحفظنا الشديد حول هذا كله.. لأن دور النبي، لم يكن هو دور المؤسس للعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، ولم تكن مهمته هي مهمة المعلم للألسن واللغات، يجب أن يكون ملما بجميع العلوم، وبجميع اللغات، فضلا عن أن يكون متفوقا من زاوية نبوته، بل المهمة الأساسية – كما حددها القرآن الكريم، في الآيات المتقدمة، هي الإرشاد والإبلاغ والإنذار وتعليم الناس الكتاب والحكمة، وقيادتهم إلى تطبيق ذلك كله على حياتهم، ليخرج الناس من

----

(١) الصحيح: غير العادية.

الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - إن هذا البعض: قد نفى وجود ضرورة تفرض اتصاف الأنبياء بهذه الصفة، أو بتلك، ومن الواضح: أن نفي وجود شئ من هذا القبيل يحتاج إلى الاطلاع على أسرار كل الواقع القائم، ليتمكن من تحديد وجود ضرورة فيه، أو عدم وجودها.
فهل أطلع الله هذا البعض على غيبه، وأوقفه على أسرار خلقه، حتى استطاع أن ينفي وجود ضرورة، تفرض اتصاف الأنبياء بقدرات غير عادية؟!
٢ - إن هذا البعض قد حدد المهمات الرسالية للأنبياء، وفق فهمه الخاص للأمور.. واعتبر نفسه قد استوفى المعرفة بكل الأهداف الإلهية من الخلق والخليقة، ومن بعثة الأنبياء.
وعلى هذا الأساس فإن لنا كل الحق في أن نوجه إلى هذا البعض الأسئلة التالية:
إذا كان ما ذكره هو المبدأ والمنتهى، ويبرر له أن يحكم بعدم وجود أية ضرورة تفرض اتصاف النبي (ص) بالقدرات غير العادية.. فلماذا، أو ما هو السر في حدوث الإسراء والمعراج؟!
ولماذا سخر الله الريح والجن، والطير. و.. و.. لسليمان. الخ؟!
ولماذا يرفع الله للنبي والوصي عمودا من نور، فيرى أعمال الخلايق؟!
ولماذا علم الله داود (ع) منطق الطير؟!.
ولماذا وصف الله داود (ع) بذي الأيد، أي القوة؟!.
ولماذا تطوى الأرض للأنبياء وللأئمة عليهم السلام؟!.
ولماذا يطعم النبي الجيش كله من شاة عجفاء يذبحها لهم، مع أن معجزته هي القرآن.؟!.
ولماذا، ولماذا، مما لو أردنا استقصاءه، لملأنا مئات الصفحات بالأسئلة التي

----

(١) المعارج: ص ٦٥٤، ٦٥٦، والحوار في القرآن ص ١٠٣ و ١٠٤.

لابد من الإجابة عنها لمن يدعي، معرفة ما تفرضه المهمات الرسالية للأنبياء.
٣ - إن آصف بن برخيا لم يكن نبيا، وليس لديه مهمات رسالية.. فلماذا أعطاه الله قدرة فوق قدرة عفريت من الجن - كما تنص الآية - مكنته من أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس، قبل ارتداد الطرف، وذلك بعلم من الكتاب.
٤ - لماذا آثر سليمان (ع) أن يتصرف تصرفا غير عادي تجاه بلقيس، حيث قال لمن حوله (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين)، فآثر إظهار القوة الخارقة التي تقهر عقولهم. على استعمال قوة السلاح وفرض السلام أو الإسلام عليهم.
٥ - كيف ثبت لهذا البعض، ثم كيف يثبت لنا أن الربط بين النبوة وبين القوة الخارقة للعادة هو من مصاديق التصور المنحرف؟!
وهل انحرافه عن تصورات هذا البعض؟ أم كان انحرافه عن الحق والحقيقة؟!!
٦ - ما معنى رفضه للقاعدة العقلية القاضية.. بقبح قيادة المفضول للفاضل، فهل يريد التمهيد لتصحيح خلافة أبي بكر، وفقا لمقولة معتزلة بغداد بجواز إمامة المفضول، والتي عبر عنها ابن أبي الحديد المعتزلي في كلمته الشهيرة في مفتتح كتابه (شرح نهج البلاغة) حيث قال: (الحمد لله الذي قدم المفضول على الفاضل). أي قدم أبا بكر على علي عليه السلام.
٧ - وانظر إلى دليله الذي ساقه على عدم صحة مقولة لزوم كون النبي هو الأكمل والأشجع و.. حيث قاس ذلك على القيادات الظالمة والمنحرفة، حيث لا يفترض فيها - عندهم - أن يكون القائد أشجع من جنوده. فإنها مبنية في الغالب على الأهواء، وعلى الجهل بحقيقة الأشخاص وطاقاتهم.
٨ - ولو صح ما ذكره من أن القيادة لا تتطلب الا أن تكون في مركز التفوق، والكمال في القطاع الذي تتولى قيادته، لجاز لنا أن نقول له: بل هي لا تتطلب التفوق أصلا، بل يكفي المساواة بين القائد وبين الآخرين، بل حتى لو كان أقل من الآخرين، فإنه يكفي له ما يحفظ به ما يوكل إليه من أمر قيادته.
٩ - حتى لو كان الآخرون من أعلم الناس بشؤون وشجون ذلك الامر الذي هو محط النظر.

فمن أين ثبت: أن مهمة النبي والوصي لا تحتاج إلى التفوق حتى في العلوم الطبيعية والرياضيات واللغات وبجميع العلوم..

وأما الآية القرآنية التي استشهد بها فإنما تدل على خلاف مقصوده. فإن الحكمة المطلوب تعليمها للناس (ويعلمهم الكتاب والحكمة ((١) لا تقتصر على مجال دون مجال.. بل هي وضع الشيء في موضعه في كل كبيرة وصغيرة، وفي كل علم وصنعة وحرفة وغير ذلك..

----

(١) سورة الجمعة، آية ٢.

الفصل الثاني:
الولاية التكوينية.. ادعاءات واستدلالات واهية

بداية
إن حديث هذا البعض عن قدرات الأنبياء وطاقاتهم، وسعيه إلى تجريدهم عن أية قدرات وطاقات امتن الله بها عليهم، إلا فيما يرتبط باجتراح المعجزات.. التي يصرح هذا البعض أيضا.. ويقول: إنها لا ترجع إلى قدرة أودعها الله فيهم، بل ربما تكون بتدخل إلهي مباشر.

إن هذا الحديث قد ذاع عنه وشاع، ولم يعد من الأمور الخفية ولا المستورة، كيف وقد جهر به في أكثر من مناسبة، وسجله في أكثر من كتاب.

ومهما يكن من أمر، فإنهم من أجل التعبير عن قدرة الأنبياء - الممنوحة لهم من الله سبحانه - على التصرف في أمور واقعية خارجية وغيرها، فقد اصطلحوا على عبارة (الولاية التكوينية) لتفيد أن الله سبحانه قد أقدر أنبياءه على التصرف في هذه الأمور الواقعية على سبيل إظهار المعجزة أو غيرها.

ولم يزل هذا البعض ينكر ذلك، ويخص قدرتهم على التصرف في خصوص دائرة المعجزة وقد يتعدى ذلك إلى ما تتوقف عليه مهمات النبي كمبلغ ومرشد وحاكم.. مع احتفاظه بإمكانية أن يكون ذلك حتى في المعجزات بتدخل إلهي مباشر، دون أن يكون للنبي أي دور في ذ لك وهذه بعض كلماته.. ونسجل أيضا تحفظاتنا عليها:

١٤١ - الولاية التكوينية شرك

ويقول البعض:

" رأينا في الولاية التكوينية - بحسب الدلالة القرآنية - هو أن الله يعطي القدرة للأنبياء من علم الغيب ومن المعاجز والكرامات ما يحتاجونه في نبوتهم وإمامتهم،

ولم يعطهم أكثر من ذلك " (١).
ويقول:
" أنا من الناس الذين لا يرون الولاية التكوينية؛ لأنني أتصور كل القرآن دليل على عدم الولاية التكوينية " (٢).
ويقول عن الولاية التكوينية:
" الولاية التكوينية. نحن نقول ولاية تكوينية، يعني بعض الناس يقول: إنه يعني الأنبياء والأئمة مشاركين الله، مثل ما الله ولي الكون هم أولياء الكون " (٣).
ونقول:
١ - لا يقول أحد من الإمامية بأن الولاية التكوينية تفويضية على النحو الذي أشير إليه في النص الأخير، فإذا كان هذا البعض قد درس الموضوع دراسة موسعة فليدلنا على قائل بهذا القول من الإمامية.
٢ - إن هذا البعض نفسه قد كرر عند الكلام عن الحديث القدسي (عبدي أطعني) قوله:
" ومن الممكن أن أجعلك تقول للشيئ كن فيكون كما جعلت ذلك لعيسى (ع) ".
وهو معنى الولاية التكوينية.
ولكن ناقض هذا البعض نفسه!! فقال مرة:
" ومن الممكن أن أجعلك تقول للشيئ كن فيكون، كما جعلت ذلك لعيسى (ع)..، فمن الممكن جدا أن الطاعة تستلزم ذلك أي الحصول على هذه القدرة ".
وقال أخرى:
"... ولكن ليس معنى ذلك أن الطاعة تستلزم هذه القدرة، وليس كل من أطاع الله حصل على هذه القدرة ".
٣ - إذا كانت الولاية التكوينية تفويضية كما يقول، فكيف كانت ممكنة عنده

---

(١) راجع أجوبة البعض على فتاوى المرجع الديني الشيخ جواد التبريزي، الجواب رقم ١١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) راجع الولاية التكوينية ص ١٣٤ للشيخ جلال الدين الصغير، عن شريط مسجل بصوت البعض، وقد استبدلنا الكلمات العامية بمشابهاتها الفصيحة.

لعيسى (ع) أو لغيره من عبيد الله المطيعين.؟! وكيف صحت لعبيد الله المطيعين من غير المعصومين بينما منع من صحتها في حق الأئمة الأطهار عليهم السلام؟.

ثم كيف لم تثبت الولاية التكوينية عنده بحسب الدلالة القرآنية - كما يقول - مع أن الله تعالى يصرح في كتابه فيقول: (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني) وهذه الآية صريحة الدلالة على إعطاء الله تعالى لعيسى (ع) الولاية التكوينية.

قد يقال: قد قيد الله تعالى كل ذلك بإذنه، فلا دلالة على ما تقولون من أنه (ع) يتصرف باختياره من دون إذن الله.

والجواب:

أولا: لم ندع أن أصحاب الولاية التكوينية يمكن أن يفعلوا شيئا بغير إذن الله.

ثانيا: قال الله تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) ففي هذه الآية دلالة على أن الفعل - وهو الإيمان - مع كونه اختياريا، فهو صادر عن العبد بإذن الله تعالى. فكذلك الأفعال التي يقوم بها المعصوم صاحب الولاية التكوينية، فهي مع كونها صادرة عنه بكامل اختياره (ع)، كلها حادثة بإذن الله.

٤ - إن من يقرأ القرآن يدرك أنه لا يمكن أن يكون كله دليلا على نفي الولاية التكوينية، بل في القرآن ما يدل على إعطاء الولاية التكوينية لمثل آصف بن برخيا، الذي جاء بعرش بلقيس من اليمن قبل ارتداد الطرف.. ودعوى أن الله لم يعطه أزيد من مقدار الحاجة في دوره الموكول إليه تحتاج إلى دليل، فان هذا المستدل نفسه يقول: إن النفي يحتاج إلى دليل كما أن الإثبات يحتاج إلى دليل.

على انه لم نتبين كيف كانت حاجة سليمان في دوره النبوي لإحضار عرش بلقيس، فهل كانت حاجته الإتيان بعرشها قبل ارتداد الطرف، في حين أن عفريتا من الجن كان قد عرض عليه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مقامه. وكل هذا لا ربط له بالدور الظاهري لسليمان النبي (ع).

٥ - إن ذلك البعض قد ذكر في أجوبته على المرجع الديني الشيخ

التبريزي: أن الله لم يعطهم - أي الأنبياء والأئمة - أكثر من ذلك، أي أكثر مما يحتاجونه في نبوتهم وإمامتهم.
ولكنه حين بدأ يستدل على ذلك، قال عن عيسى (ع):
" وليس هناك دليل على أنه أعطاه غير ذلك في تدبير أمور الكون الأخرى، كما أنها لا تدل على أنه أعطاه الكمال النفسي الذي يتصرف به في أمور الكون بإذن الله، فان هذا وان كان أمرا ممكنا من حيث الثبوت، إلا أن الكلام في إثبات ذلك يحتاج إلى دليل ".
فهو تارة ينفي عنهم ذلك بصورة قاطعة، ويجعله من التفويض الباطل قطعا لرجوعه إلى الشرك، وتارة يعترف بالإمكان في مقام الثبوت من دون لزوم محذور، ثم يدعي بعد ذلك عدم وجود ما يدل على الإثبات! وثالثة يقر بجعل الولاية التكوينية كما أقر بذلك فيما يتعلق بعيسى (ع).
٦ - وقول البعض في أجوبته على المرجع الديني الشيخ التبريزي (١):
" وأما الأخبار الواردة في ذلك فهي ضعيفة سندا ودلالة ".
لا يصح لوجود روايات صحيحة وموثقة، فراجع كتاب: الولاية التكوينية: الحق الطبيعي للمعصوم ص ١١٢ - ١٢١.
١٤٢ - الجزم بأن الله لم يخلق في الأنبياء طاقة تكشف الغيب بشكل مطلق.
١٤٣ - الجزم بأن الله يفيض عليهم ما يحتاجون إليه في رسالتهم ومواجهة التحديات.
١٤٤ - إعطاء الغيب المحدد للأنبياء يبطل الولاية التكوينية لهم.
يقول البعض:
" (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء (وتلك هي قصة الخالق في علمه غير المحدود بالنسبة إلى المخلوق المحدود في وجوده المستمد من وجود الله، وعلمه المستمد من علم الله، فيما أعطاه وفتح له من مجالاته وهيأ له أسبابه، فليس للمخلوق أن يحيط بشيء من علم الله في عالم الشهود، وفي عالم الغيب إلا بما شاء الله، حتى الأنبياء، فإنهم لا يملكون علم الغيب في تكوينهم الذاتي، بحيث ان الله خلق فيهم الطاقة التي تكشف لهم عالم الغيب بشكل مطلق، فينفتحون عليه باستقلالهم بعد ذلك بل ان الله هو الذي يفيض عليهم من هذا العلم بما يحتاجون اليه من ذلك في شؤونهم الرسالية من خلال

----

(١) الجواب رقم ١١.

طبيعة الدور الذي يقومون به والتحديات التي تواجههم، وهذا هو ما نستوحيه من قوله تعالى في الحكاية عن النبي نوح في خطابه لقومه على ما قصه الله من ذلك في سورة يونس (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ((الأنعام - ٥٠).
وقوله تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم، وأحصى كل شيء عددا ((الجن: ٢٦ - ٢٨).
فإنها ظاهرة في أن الله يمنحهم علم الغيب بما يهئ لهم السبيل لاستقامة أمرهم وسلامة دورهم وحمايتهم من كل ما بين أيديهم وما خلفهم مما هو حاضر عندهم أو غائب عنهم، تأكيدا لبقاء الإشراف الإلهي والسيطرة الربوبية عليهم، بحيث يحتاجونه في كل شيء مما يحدث لهم أو يطرأ عليهم، وهذا ما قد يوحي ببطلان نظرة الولاية التكوينية التي يراها بعض العلماء للأنبياء وللأئمة (عليهم السلام) " (١).
وقفة قصيرة
ونعود فنكرر القول، لأن البعض ما فتئ يكرر مقولاته هذه، ويؤكدها ونقول:
١ - من الذي قال لهذا البعض:
" إن الله سبحانه لم يخلق في نبيه طاقة تمكنه من معرفة ما هو غائب.. "
وكيف يرفع الله للوصي والولي عمودا من نور فيرى فيه أعمال الخلائق، كما ورد في الرويات (١).
وكيف يمكن تكذيب ما يدل على أن النبي كان يرى من خلفه كما يرى الذي أمامه..
٢ - وكيف جزم بأمر دون أن يقدم دليلا يفيد اليقين حسب شروطه هو نفسه في مثل هذه الأمور. أليس النفي يحتاج إلى دليل حسبما قرره هذا البعض نفسه؟
٣ - وهل ثبت لديه بشكل قاطع:
" أن الله سبحانه لم يطلع أحدا على غيبه حتى من ارتضاه من رسول ".
ولعله أطلعه على ذلك بواسطة خلق قوة فيه تعرفه الغيب وتوصله اليه، لينفتح عليه باستقلاله في عين أنه بإذن منه، وبإعطاء إلهي كريم.
٤ - من الذي حدد له مقدار الغيب الذي يعطيه الله لمن ارتضاه من

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ٥ ص ٣٨.

الرسل، حتى جاز له القول: يفيض عليهم من العلم ما يحتاجون إليه، من ذلك في شؤونهم الرسالية، من خلال طبيعة الدور الذي يقومون به.
٥ - ومن الذي قال لهذا البعض:
" إن دور النبي والوصي لا يحتاج إلى الاطلاع على مختلف حالات الغيب وشؤونه.. "
وكيف يفسر لنا أن طبيعة دور الرسول والتحديات التي تواجهه قد اقتضت المعراج، والاطلاع على كل تلك الآيات بتفاصيلها حتى بلغ (صلى الله عليه وآله) إلى سدرة المنتهى..
٦ - وكيف استوحى من الآية الكريمة بطلان الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، وما هو ربط الآية بالولاية التكوينية..
بل إن اطلاع النبي على الغيب، إذا كان له مساس بدوره وبالتحديات التي تواجهه فإنما يكون من أجل أن يحرك الغيب في مواجهة التحديات وللقيام بذلك الدور، وإلا فليس ثمة من فائدة كبيرة في علم الغيب هذا..
وإذا نفى النبي نوح عن نفسه علم الغيب فإنما نفى أن يكون علما له بالاستقلال عن الله سبحانه ولم ينفه مطلقا ولو بتعليم منه تعالى.
١٤٥ - وسائل النبي عادية إلا في مواقع التحدي.
١٤٦ - إهانة وتحقير الأنبياء بحجة نفي الولاية التكوينية.
١٤٧ - النبي لا يستعمل الوسائل غير العادية للتخلص من المشاكل.
١٤٨ - التشريف لا يتمثل في إعطاء القدرة من دون قضية.
١٤٩ - الله لا يشرف أنبياءه في الدنيا..
١٥٠ - الولاية التكوينية إنما تكون في أصعب أوقات التحدي فقط.
١٥١ - في التحدي، يحتمل كونها تدخلا إلهيا مباشرا، لا من فعل النبي.
١٥٢ - لا معنى لولاية، لا أثر لها في حياة الأنبياء.
١٥٣ - لا معنى لولاية، لا أثر لها في حماية رسالاتهم.
١٥٤ - قراءة تاريخ الأنبياء الصحيح أظهرت أنهم لم يحركوا الولاية لحماية أنفسهم..
١٥٥ - دور عيسى في إحياء الموتى كان دور الآلة..
١٥٦ - حصر مهمة النبي في الإبلاغ والتبشير والإنذار، والهداية فقط.
١٥٧ - الآيات قد تدل على عدم الولاية التكوينية.
١٥٨ - موسى كان خاضعا للخوف من تجربة السحرة.
١٥٩ - موسى كان خاضعا للحيرة فيما يمكن أن يردوا به التحدي.

١٦٠ - موسى كان ينتظر التدخل الإلهي المباشر.
١٦١ - لا معجزة للنبي (ص) سوى القرآن.
١٦٢ - انشقاق القمر أصعب من اقتراحات المشركين عليه..
١٦٣ - مظاهر الضعف البشري للأنبياء.
١٦٤ - خوف موسى من قتل فرعون له مظهر ضعف.
١٦٥ - خوف موسى من موقف التحدي مع السحرة مظهر ضعف.
١٦٦ - خوف إبراهيم حين دخول الملائكة مظهر ضعف.
١٦٧ - الله يمنح الرسول بقدر حاجة الرسالة.
١٦٨ - لا توجد لدى النبي بالفعل طاقة دفع الشر وجلب الخير.
١٦٩ - دفع الشر وجلب الخير يحصل تدريجا بإفاضة مباشرة، لا من خلال قدرة موجودة.
١٧٠ - لا يحتاج النبي إلى الغيب إلا في تاريخ رسالات السابقين فقط.
١٧١ - علم الغيب إنما يكون بطريق الوحي التدريجي عند الحاجة.
١٧٢ - قد يكون المراد بالغيب الذي يطلع عليه رسله الجو الملائكي الذي يحميه من الشياطين.
١٧٣ - علم الغيب الماضي وحي، وفيما يواجهه من حاجات إلهام.
١٧٤ - الاستثناء في آية (إلا من ارتضى من رسول (منقطع.
١٧٥ - حصر علم الغيب في مفردات قليلة.
١٧٦ - لا يملك النبي فعلية علم الواقع.
١٧٧ - الله لم يعط النبي قدرة على الغيب، لا أصالة ولا تبعا.
١٧٨ - لا ضرورة أو حاجة تفرض الولاية التكوينية المطلقة.
١٧٩ - الرسالة لا تفرض الولاية التكوينية.
١٨٠ - الأنبياء لم يمارسوا الولاية التكوينية في حياتهم.
١٨١ - لا نجد تفسيرا معقولا للأحاديث: (إن الله خلق الكون لأجلهم).
١٨٢ - هل خلق الكون لأجلهم لأجل التشريف أو في نطاق الدور الرسالي.
١٨٣ - الكلام هو في المبررات الواقعية للمضمون في العلاقة بين النبوة والإمامة وبين الولاية التكوينية.
١٨٤ - حديث خلق الكون لأجلهم لا بد من إهماله.
١٨٥ - حديث: (خلق الله الكون لأجلهم) لابد من إخراجه عن العقيدة.

ويقول البعض:

" ولكن التأمل يفرض علينا - بالإضافة إلى ذلك - أن نجد تفسيرا للمضمون الفكري من حيث انسجامه مع طبيعة الأشياء المتصلة بالمضمون، وذلك كما هو الحديث عن مسألة الولاية التكوينية التي يذهب إليها الكثيرون من علماء الإمامية انطلاقا من

الأحاديث الدالة على ذلك، ومن عدم وجود أية ممانعة عقلية في تجويزها، فقد يبرز سؤال
في ذلك، عن ضرورتها، ما دامت الرسالة التي أمروا بالحفاظ عليها، كما أمر النبي (ص) بتبليغها لا تفرض ذلك، وما داموا لا يمارسونها في حياتهم

بشكل وبآخر، لا سيما أن النبي (ص) ينفي عن نفسه هذه القدرة فيما حدثنا القرآن عنه في جوابه للمشركين الذين اقترحوا عليه القيام ببعض الأفعال الخارقة للعادة، وذلك بقوله (سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) (الإسراء: ٩٣) مما يوحي بأن الرسولية لا تفرض وجود مثل هذه القدرة في دوره ومهمته.

وهكذا نجد السؤال يفرض نفسه في الأحاديث التي تدل على أن الله خلق الكون لأجلهم، فإننا لا نستطيع أن نجد له تفسيرا معقولا حتى على مستوى وعي المضمون في التصور الفكري، فهل القضية واردة في نطاق التشريف، أو في نطاق الدور الرسالي، أو نطاق الهداية أو ما إلى ذلك؟

إن القضية ليست في الحديث عما هو الممكن والمستحيل في الجانب التجريدي من حيث الحكم العقلي، بل هي في إيجاد المبررات الواقعية للمضمون على أساس العلاقة بين النبوة أو الإمامة وبين هذه الأمور وإذا كان البعض يتحدث بأن ما لا نفهمه من هذه الأمور لا بد أن يرد علمه إلى أهله، فإن ذلك يفرض علينا إهمالها وعدم اعتبارها من أصول العقائد باعتبار أن العقيدة لا بد أن تمثل وعيا في الفكر وقناعة في الوجدان " (١).

وفي مورد آخر:

بعد أن اعترف هذا البعض صراحة بأن:

" الله القادر يملك أن يمكن بعض خلقه من بعض مواقع القدرة ووسائلها، ويمكن أن يوسع هذه الإمكانات لأكثر من مهمة جديدة في الكون.. كما أنه يمكن أن يبقيها في دائرة خاصة، وليس في ذلك أي انحراف عن العقيدة التوحيدية لأن القضية قضية عطاء إلهي يتحرك في الدائرة الخاصة التي يحددها الله لعباده من خلال إرادته المطلقة التي لا يعجزها شيء.. "

بعد أن قرر ذلك.. اتجه نحو الحديث عن وقوع ذلك بالفعل أو عدم وقوعه، فقال:

" جانب الحاجة أو الضرورة لذلك، والسؤال: لماذا يجعل الله لهم الولاية التكوينية؟ هل هناك مهمة تتوقف على ذلك، بحيث تكون المسألة هي أن يملكوا القدرة الفعلية الشخصية بحيث يصدر الفعل منهم فلا يتحقق الهدف إلا من خلال ذلك، أم هي قضية تشريف إلهي لهم حيث يمنحهم هذا الموقع الكبير الذي لا يملكه أحد في الوجود غيرهم؟

---

(١) المعارج: ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

هذه علامات استفهام تطوف في الذهن، فلا نجد لها جوابا إيجابيا يؤكد النظرية، فنحن نعلم أن دور الأنبياء هو دور تبشير وإنذار وتبليغ، وإذا كان لهم دور تنفيذي فإنهم يتحركون فيه من خلال الوسائل العادية المطروحة بين أيديهم في الحالات العادية، فإذا جاء التحدي الكبير الذي يحول الموقف إلى خطر كبير على الرسالة والرسول، بحيث كانت الوسائل العادية ذات مردود سلبي على الموقف والموقع، لأنها تجعل القضية في حالة الضعف الشديد، فإن المعجزة عندئذ تتحرك لتحفظ توازن الرسالة في موقع الرسول، وتصدم واقع الكافرين بالصدمة القوية القاهرة التي ترد كيدهم وتهدم كيانهم وتؤدي بهم إلى الضعف والهزيمة. كما في طوفان نوح (عليه السلام) ونار إبراهيم (عليه السلام)، وعصا موسى (عليه السلام)، أو يده البيضاء، وفلق البحر له، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص لدى عيسى (عليه السلام)، وقرآن محمد (ص)، وتنتهي المسألة عند هذا الحد فتكون بمثابة قضية في واقعة، وتعود الرسالة إلى مجراها الطبيعي، ويعود الرسول إلى الوسائل العادية، ويتحرك الصراع من جديد ليعيش النبي هنا، وهناك أكثر من مشكلة، وهم وبلاء، فيتحمل الألم القاسي، ويواجه التحديات الصعبة، كأي إنسان آخر من دون أن يبادر إلى أية وسيلة غير عادية للتخلص من ذلك كله.

أما التشريف، فإنه لا يتمثل في إعطاء القدرة من دون قضية، أو توسيع السلطة من دون مسؤولية، والله يشرف أنبياءه من خلال رفع درجتهم عنده من خلال تقريبهم إليه، ومحبته لهم، وعلو مقامهم في الآخرة، أما الدنيا فلا قيمة لها عنده، ولذلك لم يجعلها أجرا لأوليائه بل أتاح الفرصة الكبرى فيها لأعدائه.

إننا لا نجد أية ضرورة أو حاجة تفرض إعطاء الولاية التكوينية المطلقة لهم إلا بالمقدار الذي تحتاجه الرسالة في أصعب أوقات التحدي مع احتمال أنها ليست من قدرتهم، ولكنها قدرة الله بصورة مباشرة، ثم ما معنى هذه الولاية التي لا أثر لها في حياتهم من قريب أو من بعيد، ولا دخل لها في حماية رسالتهم، فلم يستعملوها في إذهاب الخطر عنهم، ولم يتحركوا بها في الانتصار لرسالاتهم، وذلك من خلال قراءة تاريخهم الصحيح كله؟

أدلة الولاية التكوينية:

الناحية الثانية: ناحية الدليل على ثبوتها من خلال النص القرآني في نطاق المعاجز الخارقة في حياة الأنبياء، فنلتقي في البداية بالنبي نوح في قوله تعالى: (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء

على أمر قد قدر ((القمر: ٩ – ١٢) وهي واضحة الدلالة على أن المسألة كانت دعاء نوح واستجابة ربه له بإغراق الكافرين بالطوفان، من دون أن يكون لنوح أي دور عملي فيه.

فإذا انتقلنا إلى إبراهيم (ع) فنجد قوله تعالى: (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ((الأنبياء: ٦٨ – ٧٠)

إنه اللطف الإلهي بنبيه إذ أردوا إحراقه، فأنجاه الله من النار، فحولها إلى عنصر بارد، فإذا انتقلنا إلى الطلب الذي قدمه النبي إبراهيم (عليه السلام) إلى ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وذلك قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم ((البقرة: ٢٦٠) فإننا نرى أن دور إبراهيم في المسألة هو أن يأتي بالطيور ويذبحها، ويقسمها إلى أجزاء ثم يدعوهن لتأتينه سعيا، لنشاهد الصورة الواضحة في كيفية إحياء الله الموتى، فإن الله هو الذي أحياها بطريقة مباشرة، ولم يكن لإبراهيم دور في ذلك.

ونصل إلى موسى (ع) الذي تمثلت المعجزة لديه أولا في مجلس فرعون الذي قال كما جاء في قوله تعالى: (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ((الأعراف: ١٠٦ – ١٠٨) ثم في ذروة التحدي الذي واجهه في صراعه مع السحرة، وذلك في قوله تعالى: (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ((الأعراف: ١١٧)، ونحن لا نرى أي جهد لموسى في الموضوع، فإنه كان يعيش دور المنفعل الذي يحول الله يده السمراء إلى بيضاء، ويحول العصا التي يمسكها إلى ثعبان، وكان خاضعا للخوف من تجربة السحرة، وللحيرة في ما يمكن أن يقوموا به ردا للتحدي، لأنه كان ينتظر تدخل الله غير العادي في المسألة، وذلك هو قوله تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ((طه: ٦٧ – ٦٩).

ثم نلتقي بالنبي سليمان (عليه السلام) الذي قال: (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ((ص: ٣٥) واستجاب الله دعاءه: (فسخرنا

له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ((ص: ٣٦ - ٣٩)، فليس في القصة إلا دعاء واستجابة ربانية أعطته ما يريد من دون أن يكون له أي دور عملي أو قدرة واقعية في تحقيق ذلك.

ونصل - بعد هذه الجولة الطويلة - إلى عيسى (ع) الذي يدعى ظهور الآية في صدور المعجزة عنه من خلال جهده الذاتي الذي اكتسبه بإذن الله، وهذا هو ما جاء في الآية الكريمة: (أني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم (فنلاحظ أنه ينسب الخلق إلى نفسه، كما يتحدث عن عملية إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار بالغيب في أوضاع الناس الخاصة إلى جهده وفعله الشخصي، ولكن بإذن الله.

وربما يجد القائلون بالولاية التكوينية الحجة الدامغة في هذه الآية الكريمة، ولكننا نستوحي من كلمة: (بإذن الله (في هذه الآية، أو كلمة: (بإذني ((المائدة: ١١٠) أن دور عيسى كان دور الآلة التي تتحرك لتصنع شيئا كهيئة الطير وتنفخ فيه، فيبعث الله فيه الحياة، وهكذا يضع يده على الأكمه والأبرص، وعلى الميت، فتحدث العافية في الأولين، وتنطلق الحياة في الثالث من خلال إرادة الله.

من هنا فإن كلمة (بإذن الله (لا تعني معناها الحرفي اللغوي، بل تعني معنى القوة التي تنطلق لتحقق النتائج الحاسمة التي لا يملك عيسى (ع) اية طاقة خاصة به فيها.

وهكذا نرى أنه لا دليل في كل هذه المواقع على الولاية التكوينية في النص القرآني، بل ربما نجد الدليل على خلافها من خلال الآيات التي تدل على أن النبي لا يملك شيئا في ذلك كله وأن مهمته الأولى والأخيرة هي الرسالة في حركتها في الإبلاغ والتبشير والإنذار، وهداية الناس إلى سبل السلام في الطريق إلى الله، بل ان القرآن يؤكد وجود عناصر الضعف البشري في ذات الرسول، ولكن في المستوى الذي لا ينافي العصمة، فنقرأ في سورة الإسراء قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) (الإسراء: ٩٠ - ٩٣) فنحن نلاحظ أن النبي (ص) لم يتحدث عن رفضه للمعجزات الإقتراحية التي يوجهها الناس الكافرون

للأنبياء كوسيلة للتحدي والتعجيز مما يرفضه الأنبياء، لأن مهمة النبي ليست هي إشغال نفسه بتنفيذ هذه الطلبات التي لا معنى لها بعد إقامة الحجة عليهم من قبله، بل تحدث عن أن ذلك لا يدخل في مهمته الرسالية، كما أنه لا يملك هذه القدرة باعتبار بشريته التي تختزن في داخلها الضعف البشري.

وإذا كان بعض الناس يتحدثون عن أن القائلين بالولاية التكوينية يؤكدون أن النبي لا يختزن في مضمون بشريته أية قدرة ذاتية، بل إن الله هو الذي يمنحه ذلك، فإننا نجيب أن النبي (ص) إنما كان يتحدث عن الواقع الفعلي الذي تمثله طاقته في دوره، فإن الله أعطاه الطاقة المرتبطة بحركية الرسالة في الناس، ولم يعطه الطاقة – حتى بإذنه – لمثل هذه الطلبات الصعبة.

وقد نستوحي من هذه الآيات ومن غيرها أن المعجزة الوحيدة للنبي هي القرآن الكريم، فلم يقم النبي بمعجزة أخرى كانشقاق القمر، بحيث لو كانت منه لكانت أكثر استجابة للتحدي الذي واجهه النبي (ص) من قبل المشركين، كما أنها أكثر صعوبة من هذه الإقتراحات، وقد تحدث المشركون عن هذه المسألة – وهي عدم قيام النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بالمعجزة المماثلة لما قام به الأنبياء السابقون – وذلك في قوله تعالى: (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ((الانعام: ٣٧) وقوله تعالى: (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ((الرعد: ٧) فقد يظهر من هذه الآية، أن إنزال الآيات ليس أمرا ضروريا للنبوة إلا في حالات التحدي الكبير الذي يهدد حركتها في ساحة الصراع والمواجهة، ولذلك لم ينزل الله على النبي آية لأن التحدي لم يصل إلى هذه المرتبة الحاسمة، وقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ((الاسراء: ٥٩) وظاهرها نفي الإرسال بالآيات بالرغم من أنها كانت مطلبا ملحا للمشركين، كما جاء في آية أخرى في قوله تعالى:

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ((الانعام: ١٠٩) فإن المسألة لم تكن في مستوى الضرورة، ولم تكن في واقع الحاجة للمهمة الرسالية.

ونلتقي في آيات أخرى ببعض مظاهر الضعف البشري الفعلي للأنبياء، وذلك كما في قصة موسى الذي خرج من المدينة خائفا يترقب وكان يعيش الخوف من قتل فرعون وقومه له: (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ((الشعراء: ١٤)

والخوف في ساحة التحدي مع السحرة: (فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ((طه: ٦٨)، ونجد في قصة إبراهيم عندما دخل عليه الملائكة: (فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ((الذاريات: ٢٨).
ونلاحظ ذلك في خطاب الله للنبي محمد (ص) كيف يقدم نفسه للناس: (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحي إلي ((الانعام: ٥٠)، وقد ورد هذا المضمون في سورة هود في آية: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ((هود: ٣١)، فإن هذه الآية ظاهرة في تأكيد بشرية الرسول (ص)، وبأن كل ما لديه إنما هو من الله سبحانه وتعالى، يمنحه إياه بقدر حاجة الرسالة إليه في حركتها في الحياة، وثمة إشارة في الآية إلى أن الغيب الذي قد يعلمه الله للنبي إنما ينزل عليه بطريق الوحي، كما جاء التصريح به في آية أخرى: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ((آل عمران: ٣٤)، وقد جاء به في قوله تعالى: (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ((الأعراف: ١٨٨)، وهذه الآية تدل على نفي الفعلية في وجود الطاقة التي تدفع عن الانسان الشر، وتجلب له الخير، بحيث إنها تأتي تدريجا بمشيئة الله، لا بنحو خلق الطاقة في الكيان النبوي ليتحرك من خلالها إراديا، ويؤكد ذلك أنه يتحدث عن الواقع الذي كان يصيبه بسوء بمختلف ألوانه، أو يمنع منه الكثير من الخير، فكأنه يريد الإيحاء بأن ذلك لا يتصل بدوره لأن دوره البشارة والإنذار لقوم يؤمنون مما لا يحتاج فيه إلى علم الغيب إلا بما يرتبط بحركة الرسالة في تاريخ الرسالات في الأمم السابقة، وهذا مما يوحيه الله إليه في القرآن الكريم من أنباء الغيب، في التاريخ الذي لا يعلمه هو ولا قومه.
وقد ورد في بعض الآيات الحديث عن أن الله يظهر رسله على الغيب، وذلك هو قوله تعالى:
(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ((الجن: ٢٦ – ٢٨)، فقد استند إليها القائلون بأن الله قد أعطى رسوله وأولياءه العلم بالغيب إما بطريق الفعلية الإستحضارية، وإما بطريق القوة، بمعنى أنه لو شاء أن يعلم لعلم.
وذكروا أن ظاهر الاستثناء في قوله تعالى: (إلا من ارتضى من رسول (هو الإطلاق

الذي لم يتقيد بشيء مما يوحي بأن المسألة تشمل كل شيء يريد الرسول أن يعلمه من الغيب ويفسرون ما حكي من كلامه تعالى من أن إنكارهم العلم بالغيب أريد به نفي الأصالة، الاستقلال دون ما كان بوحي، ولكننا نحتمل أن يكون قوله تعالى: (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (إشارة إلى الغيب الذي يظهر عليه من ارتضى من رسله، وهو الجو الملائكي الذي يحميه من الشياطين، فيطردهم عنه ويعصمه من وساوسهم وتخاليطهم، حتى يبلغ ما أوحي به إليه، فليست الآية في مقام الحديث عن علم الرسول للغيب بل عن حمايته بطريق الغيب، فكأنه بداية كلام جديد في الحديث عن مهمة الرسل في إبلاغهم رسالات ربهم واطلاعه عليهم وحمايته لهم، وذلك على أسلوب الاستثناء المنقطع، لأن مثل هذا الاستثناء - على حسب ما يرى هؤلاء - يتنافى مع الأسلوب القرآني الذي يؤكد نفي علم الأنبياء بالغيب، الذي لم يكن واردا على سبيل نفي الاستقلال - كما ذكر - بل على نفي الفعلية بحسب الواقع الفعلي الذي يعيشه في حياته، وفي مهمته الرسالية.

وخلاصة الفكرة أن هناك فرقا بين علم الغيب كملكة تدخل في نطاق التكوين الذاتي للنبي - في خصوصية نبوته - وهذا ما ينفيه الظاهر القرآني، سواء ذاك المتصل بأخبار الماضين، والذي يمكن إدراجه تحت عنوان علم الغيب، حيث ثمة إشارة واضحة في القرآن الكريم أن أنباءه هي من وحي الله تعالى، أو ذاك المتصل ببعض موارد الحاجة اليه في موارد معينة، فيلهمه الله تعالى إياه إلهاما، فهذا ما لا ينفيه النص القرآني، بل قد تؤكده بعض الآيات، وقد وردت أحاديث متنوعة في علم الأنبياء والأئمة بالغيب، وهي موضع جدل علمي، وربما نتعرض لها في ما يأتي في حديث الغيب في آيات القرآن.

ومن خلال هذا الحديث الطويل نستطيع أن نخرج بالفكرة التي تنفي الولاية التكوينية بمعناها التكويني الذي منحه الله للأنبياء وللأئمة، لأن الدليل لم يدل عليه - حسب فهمنا القاصر - ولكن يبقى - في المسألة أن الله يمنح الأنبياء الفرصة التي يواجهون فيها تحديات الكفر بالمعجزات عند الحاجة إليها، والله العالم " (١).

ويقول البعض أيضا في موضع آخر عن علم الأنبياء ونفي ولايتهم التكوينية ما يلي:

" وقد جاء ذلك في قوله تعالى: (قل: ما كنت بدعا من الرسل، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلي، إن أنا إلا نذير مبين ((الأحقاف: ٩) فإنها تدل على نفي فعلية علم الغيب في واقع الذات، وحصر المسألة فيما يأتيه من الوحي. فهو

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ٦، ص ٢٦ - ٣٤.

خارج هذا النطاق لا يملك علم الواقع من ناحية فعلية.. وبهذا يرد على ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن علم الغيب المنفي عن غير الله وارد على نحو الأصالة، فلا ينافي علم غيره بالتبعية مما يصدر منه، فإن الظاهر من كل الآيات نفي العلم الذاتي حتى على نحو التبعية بمعنى جعل النبي عالما بالغيب بحيث يملك علم الغيب في ذاته بقدرة الله في عطائه له كما أعطاه ملكاته الأخرى بل المسألة هي مسألة مفردات الغيب في حاجاته له من خلال الوحي بطريقة أخرى.

وفي ضوء ذلك نستطيع في النص القرآني الرد على الفكرة التي تجعل للنبي الولاية على الكون بأن يغيره ويبدله ويتصرف فيه من خلال القدرة العظيمة التي أودعها الله في شخصه مما يطلق عليه اسم (الولاية التكوينية) وإن هذه الفكرة لا تلتقي بالنصوص القرآنية السابقة فإذا كان النبي لا يملك - في فعلية قدرته الوجودية - لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يعلم الغيب الذي يهيئ له فرصة استكثار الخير في حياته وإبعاد السوء عن نفسه، فيما يستقبله من أمره، وتزداد المسألة وضوحا في الآية الكريمة في مواجهة النبي للمشركين في اقتراحاتهم التعجيزية كشرط للإيمان... الخ " (١).

ثم يتابع كلامه شارحا مقولته هذه وفقا لما نقلناه عنه في النص السابق، فلا حاجة إلى إعادته بتمامه ما دام أن ذلك لن يفيد شيئا وسيكون من التكرار الممل، والإطناب المخل.

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن هذا البعض قد قرر:

" أن الولاية التكوينية ليست من الضرورات التي تفرضها الرسولية.. ".

ونقول:

إن الرسولية تعني قيادة الأمة من موقع الهيمنة، كما دلت عليه طبيعة التشريع الإسلامي، وتعاليمه الغراء والمشتملة على جهاد الظالمين، وعلى إقامة الحدود، والقصاص، والقضاء بين الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك..

ودلت عليه أيضا الآيات الكثيرة مثل قوله تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط. وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد،

---

(١) المعارج: العدد ٢٨ - ٣١، ص ٥٦٧ و ٥٦٨.

ومنافع للناس. وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز ((١).
بل إن كون النبي شاهدا على الناس في شرق الأرض وغربها، إنما يعني: أنه لابد أن يكون مطلعا على أعمالهم الجوارحية والجوانحية حتى خلجات هذا الإنسان النفسية، وأفعاله القلبية. وحتى في عواطفه، وفي حبه، وفي بغضه، وفي حالاته النفسية، كاليأس والرجاء.. وما إلى ذلك.. ثم تربيته تربيه صالحة، والهيمنة عليه من موقع المعرفة والوعي وما إلى ذلك..
وبعد ذلك كله نقول:
من الذي قال: إن ذلك كله وسواه مما مر ويأتي لا يقتضي ولاية تكوينية سواء في حدها الأدنى، أو في حدها الأعلى، فإن هذا البعض ينفيها بجميع مراتبها..
٢ - إن هذا البعض لا بد أن يعترف بأن الله قد سخر لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب وسخر له غير الريح أيضا..
كما أنه لا يستطيع أن يناقش في ان آصف بن برخيا - وهو ليس بنبي - قد جاء بعرش بلقيس - من اليمن قبل ارتداد الطرف.. وقد نسب الإتيان به إلى نفسه واعتبره فعلا له..
٣ - قوله:
" إن الأنبياء، لم يمارسوا الولاية التكوينية في حياتهم ".
قد عرفت آنفا أنه لا يصح.. وثمة أمثلة كثيرة أخرى ستأتي.
٤ - أما بالنسبة لما اقترحه المشركون على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأجابهم بقوله: (قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (فقد أشرنا أكثر من مرة إلى أنهم إنما طلبوا منه أن يفعل ذلك لأجل أن يثبتوا أنه (صلى الله عليه وآله) ليس بشرا.. فإجابة طلبهم سوف توجب تضليل الناس، لأنهم سيعتبرونه - والحالة هذه - من غير البشر، ولأجل ذلك حكى الله عنهم تعجبهم من بشريته، فقال تعليقا على مطالبهم تلك:
(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، إلا أن قالوا: أبعث الله بشرا رسولا.. (فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى:

----
(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا.. ((١).
أضف إلى ما تقدم: أنه لا يجب على الله إجابة مقترحي الآيات والمعجزات في ما يقترحونه.
٥ - إن عدم وجدان هذا البعض التفسير المعقول - عنده - للأحاديث التي تدل على أن الله سبحانه خلق الكون لأجل النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل البيت الطاهرين (عليهم السلام)، لا يعني عدم صحة هذه الأحاديث، وعدم وجود التفسير المعقول لها.
ولا يستطيع هذا البعض ولا غيره أن يدعي: أنه قد فهم كل شيء ورد في كتاب الله، وعن النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام).
وهذا هو القرآن يكتشف العلماء في كل جيل الكثير من حقائقه، ويقفون على الكثير من دقائقه، وكذلك الحال بالنسبة لكلام المعصومين (ع).
فهل ذلك يعني أن ما لم يفهمه هذا البعض من القرآن، ومن غيره يجب إسقاطه وحذفه وعدم الاهتمام له، والاعتداد به؟!
٦ - إنه يمكن فهم هذه الأحاديث على أساس التشريف، والتكريم لهم فإنهم هم الحقيقة التامة في ظهورها، والكمال في تجلياته الجمالية في مواقع القرب إلى الله، فإن هذا التجلي، وذلك الظهور هو الغرض من خلق الخلق الذي لا يستحق شيئا من ذلك في ذاته، وهو مظهر النقص والإنحدار والسقوط فلولا أنه تعالى أراد أن يتجلى ذلك الكمال، وأن تتجسد تلك الحقيقة التامة، فإن هذا الكون الناقص، الذي هو عالم الفساد والإفساد لا يستحق العناية والاهتمام بأي حال..
٧ - وأما بالنسبة لقول هذا البعض:
" إن رد علم بعض الأمور إلى أهله يقتضي إهماله.. "
فغير سديد أيضا، لأن هناك أمورا يطلب العلم والاعتقاد بها على سبيل الإجمال، حيث قد يمتنع التفصيل فيها لأكثر من سبب.. وقد رأينا: أن هذا

----

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٤ - ٩٥.

البعض يعترف في مواضع كثيرة جدا قد تعد بالعشرات بوجود أمور أجملها القرآن، فراجع كلماته.
وخذ على سبيل المثال قوله عن دابة الأرض التي يخرجها الله في آخر الزمان بأنها مما أجمله القرآن، فلنجمل ما أجمله القرآن، وكذا الحال بالنسبة لما ذكره حول الرجعة (١)، وعن الملائكة (٢)، ومفارقة روح الميت جسده (٣)، وغير ذلك..
فهل يجيز هذا البعض أن لا نعتقد بكل تلك الأمور التي اعترف بإجمالها، وأن نخرجها عن دائرة الإعتقاد لمجرد أنه لا يوجد تفصيلات كافية لها؟! لكي تمثل وعيا في الفكر، وقناعة في الوجدان على حد تعبيره، ولماذا لا يكون المطلوب هو الوعي والقناعة الإجمالية على ما هو عليه الواقع؟!
وهل يستطيع هذا البعض أن يتحفنا بتفاصيل دقيقة عن الروح والجن والملائكة وعن حقيقة الذات الإلهية وعن تفاصيل ما يجري في البرزخ وكيفياته... وغير ذلك؟!!
مع أن ذلك كله وسواه كثير جدا.. مما يلزم الإعتقاد به على ما هو عليه، وعلى سبيل الإجمال!!.
وهل يصح إخراج ذلك كله عن دائرة العقيدة لمجرد عدم قدرتنا على الإحاطة بتفاصيله؟!
هذا.. وقد روي عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن جميل بن صالح عن أبي عبيدة الحذاء، قال:
سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول:
(والله إن أحب أصحابي إلي، أورعهم، وأفقههم، وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالا، وأمقتهم للذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يقبله اشمأز منه، وجحده، وكفر من دان به. وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا أسند، فيكون بذلك خارجا عن ولايتنا) (٤).

---

(١) الموسم، العددان: ٢١، ٢٢ ص ٢٤٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٤٢.
(٤) الكافي ج ٢ ص ٢٢٣، والبحار ج ٧٢ ص ٧٦، وراجع: ج ٢٥ ص ٣٦٥ / ٣٦٦، عنه وعن مختصر بصائر الدرجات ص ٩٨.

٨ - إن ما ذكره من أن المعجزة إنما تكون في مقام التحدي، وبعدها تعود الرسالة إلى مجراها الطبيعي، ويعود الرسول إلى الوسائل العادية، كأي إنسان آخر من دون أن يبادر إلى أي وسيلة عادية غير دقيق..

فإن ما تقدم يظهر لنا: أن الرسول الشاهد يحتاج إلى الاطلاع المباشر على ما يشهد به، فيرى من خلفه، وتنام عيناه، ولا ينام قلبه، ويرى أعمال الخلائق، وذلك يحتاج إلى وسائل غير عادية، والرسول المسؤول حتى عن البقاع والبهائم يحتاج إلى وسائل غير عادية ليعرف لغات البهائم ويحل مشاكلها (علمنا منطق الطير).

(قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها (.

ولنتذكر أيضا حديث سليمان مع الهدهد.. وكذلك ما قدمنا في هذا المورد وموارد أخرى من هذا الكتاب حيث تكلمنا حول هذا الموضوع أكثر من مرة.

٩ - ونجد في سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) مبادرات كثيرة إلى الوسائل غير العادية للتخلص من المشاكل.. وقد طلب سليمان من الذين حوله أن يأتوه بعرش بلقيس بوسائلهم غير العادية، فكان له ما أراد، كما نص عليه الكتاب العزيز.

وفي حرب الخندق أطعم النبي (ص) الجيش الجائع كله من شاة عجفاء، وحطم الصخرة التي اعترضت الجيش في حفر الخندق فعجز عنها - حطمها - بثلاث ضربات، ولو أردنا استقصاء الموارد التي من هذا القبيل لكان علينا ملء عشرات بل مئات الصفحات من تاريخ النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام)، ولا يمكن لأي كان من الناس أن يعتبر ذلك كله في عداد الموضوعات والمختلقات، فكيف أجاز هذا البعض لنفسه: أن يدعي أن معجزة النبي (صلى الله عليه وآله) الوحيدة هي القرآن؟!.

١٠ - أما قوله:

" إن التشريف لا يتمثل في إعطاء القدرة دون قضية "

فغير مقبول أيضا.. فإن التشريف نفسه هو القضية، حيث يؤدي إلى المزيد من الاحترام للرسول، ورفعة شأنه، وتعميق الارتباط به من موقع التعظيم،

والاجلال، والتقديس.. الأمر الذي يؤدي إلى المزيد من الحرص على التأسي به، وإلى عمق تأثير كلامه في النفوس، وإلى مزيد من الدقة في التعامل معه، وما إلى ذلك من قواعد وفوائد جليلة وهامة.

١١ - وأما عن التشريف في الآخرة لا في الدنيا، فإن الله قد شرفه في كتابه الكريم مزيد تشريف حيث أمر الناس بالصلاة عليه.. وبأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وبأن لا ينادوه من وراء الحجرات، وبأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله. وأن يقدموا بين يدي نجواهم صدقة.. وبأن لا يكون دعاء الرسول بينهم كدعاء بعضهم بعضا، وحرم الزواج بنسائه من بعده.. وغير ذلك كثير.

فهل إن ذلك كله من التشريف له (صلى الله عليه وآله)؟! أم إنه قلة مبالاة وعدم اهتمام؟!

وهل نسي هذا البعض قوله تعالى: (ورفعنا لك ذكرك (، فهل رفع الذكر لا يدخل في نطاق التشريف والتكريم، كما وأنه سبحانه قد أعطاه الكوثر من خلال ابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام).

بل إن الله سبحانه إذا كان قد كرم بني آدم، وكرم المؤمنين وميزهم أيضا على الكافرين، فهل يعقل أن يكون قد ترك أنبياءه، وأولياءه كسائر الناس، خلوا من أي تكريم..؟!

١٢ - أما قوله:

" أما الدنيا فلا قيمة لها عنده، ولذلك لم يجعلها أجرا لأوليائه، بل أتاح الفرصة الكبرى فيها لأعدائه.. ".

فهل يعني: أن المؤمنين حتى الأنبياء يجب أن يكونوا في الدنيا أذلاء حقراء، خالين من أوسمة الشرف التي يستحقونها بظل الله وعنايته، ولا كرامة لهم، ولا قيمة؟!.

وهل إن التكريم في الدنيا، هو عمل دنيوي أم إنه عمل يقصد به شد عزيمة الناس، وتعميق ثقتهم برموزهم الكبار، وبسط الرجاء والأمل لهم فيهم، وتأكيد حالة الإكبار، والإجلال في نفوسهم.. ليتأكد إلتزامهم بهذا، وليعيشوا حالة الاعتزاز به، والإحساس بالمجد، والكرامة، والسؤدد فيه..

١٣ - وعن احتماله:

" أن يكون ما يحصل في أوقات التحدي ليس من قدرة الأنبياء، ولكنها قدرة الله مباشرة.. ".
نقول:
إن ذلك لا ينسجم مع قوله تعالى: (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيرا بإذن الله (.
(وأبرئ الأكمه، والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله.. ((آل عمران: ٤٩) وقوله تعالى ناسبا العمل إلى عيسى (عليه السلام): (وتبرئ الأكمه والأبرص ((المائدة: ١٠٠)، وقول آصف بن برخيا: (أنا آتيك به.. (وغير ذلك مما يدل على نسبة الفعل إلى فاعله، لأن الله سبحانه قد أجراه على يد عيسى، وآصف بن برخيا، من دون أن يكون ذلك باختيارهما بحيث لا يصحح النسبة إليهما (عليهما السلام) والحال هذه إلا على أساس نظرية الكسب، التي جاء بها الأشعري.. والتي تقول: إن الله سبحانه يخلق قدرة الإنسان حين صدور الفعل من الله سبحانه، ولكنها ليس لها أي تأثير في الفعل نفسه، بل التأثير منحصر بالله سبحانه (١).
وتكون هذه القدرة بمثابة الحجر في جنب الإنسان!!.
١٤ - إن الإذن الإلهي في الفعل لا ينافي الاختيار، وقد قال الله سبحانه وتعالى: (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ((٢) فإن الإيمان ليس أمرا إجباريا.
وقال تعالى: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ((٣).
والآيات في هذا المجال كثيرة.
١٥ - وعن استعمال الأنبياء الولاية التكوينية في حماية أنفسهم من الأخطار، وفي رسالتهم.. نقول:
لا ريب في أنهم قد استعملوها في خدمة الرسالة.. وقد أشرنا إلى ذلك فيما ذكرناه آنفا فلا نعيد.
١٦ - وأما بالنسبة:

---

(١) راجع: نشأة الأشعرية وتطورها ص ٢٣٤ فما بعدها، واللمع ص ٧٦ و ٧٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

" لحماية أنفسهم من الأخطار من خلال الولاية التكوينية، وكذلك حماية رسالتهم.. " فإن ذلك لا ينسجم مع إعطاء الخيار، والاختيار للانسان العاصي، والمطيع على حد سواء.. حيث قد ذكرنا أكثر من مرة: أن عدل الله سبحانه يقضي بأن لا يحول بين المرء وإرادته، وأنه إن كان ثمة من حاجة إلى التدخل الإلهي، فإنما يكون في خارج دائرة اختيار الانسان.

ولأجل ذلك، حين واجه إبراهيم تصميم قومه على قتله بإحراقه بالنار، اقتضى العدل الإلهي أن يمارس الطغاة حريتهم في جمع الحطب، وفي إضرام النار، وفي أخذ إبراهيم، ووضعه في القاذف (المنجنيق)، وإطلاقه، ووضعه وسط النار، ولم تتدخل الإرادة الإلهية للحيلولة بينهم، وبين ما أرادوه، فلم نجد أيديهم قد تعطلت عن الحركة، ولم نجد المنجنيق (القاذف) استعصى عليهم بل فعلوا كل ما أحبوه، ولكن الإرادة الإلهية تدخلت من خارج هذه الدائرة، وتوجهت إلى النار نفسها وحالت بينها، وبين إنتاج النتيجة المفترضة، وهو الإحراق.. (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم.. (.

وهكذا الحال بالنسبة إلى نبينا حين الهجرة، فإن المشركين قد فعلوا كل ما أرادوا، ولكن التدخل الإلهي قد كان خارج دائرة اختيارهم، حيث نسجت العنكبوت على باب الغار، ونبتت الشجرة، وباضت الحمامة الوحشية على باب الغار أيضا، واحتضنت بيضها، فتوهم المشركون: أن لا أحد في داخل ذلك الغار، فانصرفوا عنه..

ولأجل ذلك نجد المسلمين رغم أنهم كانوا يعانون من حفر الخندق، ومن حرب الأحزاب، فإن الله لا يتدخل لينجز لهم ما هو مطلوب منهم، ولا يحول بصورة جبرية بين أولئك الأشرار، وبين ما يريدونه من شر بالمسلمين..

بل يكون التدخل في دائرة أخرى، وهي تكثير الطعام حتى ليأكل الجيش كله من شاة عجفاء، ليزداد المسلمون بصيرة في أمرهم، وثقة بربهم، ولينجزوا أمر الجهاد ومن ثم، يحققون الأهداف الإلهية باختيارهم وبملئ إرادتهم لينالوا ثواب المجاهدين الصابرين..

١٧ – ولا ندري بعد هذا.. متى؟ وكيف؟ تسنى لهذا البعض أن يقرأ التاريخ الصحيح كله للأنبياء..؟

وأين يوجد هذا التاريخ الصحيح؟..

وكيف ميز صحيح هذا التاريخ من سقيمه؟..

ومتى قام بهذه المهمة الشاقة والتي تحتاج إلى عشرات السنين، بل المئات؟

وإذا كان قد قرأ التاريخ الصحيح، فلماذا لم يجد بعض ما صرح به القرآن مما تضمن تحريك الولاية التكوينية؟

وكذلك ما ذكرناه له من مفردات في هذا المورد من هذا الكتاب؟!

وكيف لم يقرأ كيف أن سليمان كان يستخدم الجن: (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكرا، وقليل من عبادي الشكور ((سبأ: ١٣).

فهل ذلك كله لم يكن فيه أي شيء يعود لسليمان نفسه، حتى الجفان، والقدور، والتماثيل، وغيرها..

والذي كان شياطين الجن يبنونه له، ثم الذي كانوا يستخرجونه له بالغوص في قاع البحار (والشياطين كل بناء وغواص (، وحتى داود حيث ألان الله له الحديد، حين كان يعمل الدروع السابغات، هل كان هو نفسه يستفيد من تلك الدروع في حماية نفسه.

وكيف يثبت أن ذلك كله قد كان بعيدا كل البعد عن إمكانية استفادته الشخصية منه.

١٨ – أما بالنسبة لقضية نوح، حيث دعا على قومه، فاستجاب الله سبحانه له، فكان الطوفان.. فإن هذا الامر يتعلق بعقوبة الناس على كفرهم، وطغيانهم وظلمهم، وليس ثمة من ضرورة لأن يتولى الأنبياء ذلك بأنفسهم من خلال قدرتهم على التصرف, حيث لم يثبت أن ذلك يدخل في نطاق صلاحيتهم.. بل ربما يكون في إيكال ذلك إليهم إحساس لدى الناس بالقهر وبالجبر بمجرد بعثة الرسل إليهم، ولا تبقى لديهم فرصة للاختيار، حين يشعرون: أنهم أمام أمرين إما الإيمان، أو الموت على يد هذا الرسول نفسه.

وحتى لو قبل هذا البعض بما ورد عنهم (عليهم السلام) في تفسير قوله تعالى: (إن إلينا إيابهم (فإن ذلك لا يدفع هذا الإشكال، لأنه ناظر إلى عالم الآخرة لا إلى الدنيا.

١٩ – وفي قضية طلب إبراهيم عليه السلام من الله أن يريه كيف يحيي الموتى.. قال: فخذ أربعة من الطير.. إنما كان الأمر متعلقا برؤية التصرف الإلهي المباشر.. وتجسيد نفس هذه القدرة الإلهية.. وأما تصرف إبراهيم عليه السلام، فربما لا يحقق النتيجة المتوخاة.. فإن في نسبة الفعل إلى نفسه، وأن يكون له هو دور في الخلق، إيحاءاته التي لا تنسجم مع ما يسعى إبراهيم (ع) إلى تحقيقه، وهو إخراج قضية الإيمان الراسخ المستند إلى البرهان والحجة، من حالة المعادلة العقلية إلى دائرة التجسد الحي على صفحة الوجود، سعيا وراء تحقيق السكينة، ليتلائم، وليتحد السكون النفسي مع تلك القناعة الفكرية والعقلية الراسخة، ليكونا معا الرافد للأحاسيس والمشاعر.

٢٠ – وعن موسى عليه السلام نجد الله سبحانه قد نسب الفعل إلى موسى نفسه في بادئ الأمر، (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء.. (.

وحين تحدث سبحانه بعد ذلك عن إيحائه له: (أن ألق عصاك (لم يبين: أن هذا الفعل هو لموسى (ع)، بأن يكون تعالى قد أمره باستخدام الطاقة، والقدرة التي منحه إياها.. أو أنه تعالى، قد تصرف مباشرة من دون أن يكون لموسى (ع) أية علاقة بذلك.. لا شك أن الخيار الأول هو الأولى بالاعتبار، لأن الإيحاء إلى موسى عليه الاسلام بأن يفعل كذا.. معناه أن موسى نفسه هو الذي يملك القدرة على الفعل – وأن الله سبحانه هو الذي منحه هذه القدرة – كأي إنسان آخر يمنحه الله قدرة واختيارا، ثم يطلب منه أن يمارس قدرته باختياره..

وحين أوحى الله سبحانه إلى أم موسى: (أن اقذفيه في اليم (فإنه أوحى إليها أن تفعل ذلك باختيارها.

إذن، فلا معنى لقول هذا البعض:

" ونحن لا نرى أي جهد لموسى في الموضوع فإنه كان يعيش دور المنفعل الذي يحول الله يده السمراء إلى بيضاء، ويحول عصاه إلى ثعبان الخ.. "

إذ ليس في الآية إلا أن الله سبحانه قد أمر موسى بأن يخرج يده من جيبه لتظهر المعجزة.. وليس فيها: أن لا دور لموسى (ع) فيها.. أو أن له دورا – ليقال: إنه يعيش دور المنفعل أو لا يعيش.

ولنفرض أن الأمر في خصوص هذا المورد كان كذلك أي أن موسى كان يعيش دور المنفعل فيه.. فهل ذلك يدل على نفي وجود أي دور له أو أية قدرات عنده في مختلف الموارد؟!.

٢١ – وأما عن خوف موسى (ع) من تجربة السحرة، فمن الواضح: أنه لم يكن خوف ضعف، وإنما خاف من أن يؤثر السحرة على عقول الناس، فيضلوهم.

٢٢ – وفيما يتعلق بحيرة موسى (ع) فيما يمكن أن يرد السحرة به التحدي.. فليس لذلك أثر في الآيات القرآنية، وإنما هو رجم بالغيب، يراد به إظهار ضعف موسى (ع)، وفقدانه أية وسيلة لمواجهة كيد السحرة.

٢٣ – وفيما يرتبط بأن موسى كان ينتظر تدخل الله غير العادي لحسم الموقف ورد كيد السحرة، فإنه هو الآخر تخرص ورجم بالغيب، وليس في الآيات أية إشارة إليه، ولا يصح الاستناد إليه في أي استنتاج.

ولا ندري السبب في إقدام هذا البعض على تسويق مثل هذه الأمور.

٢٤ – وأما عن النبي سليمان (ع) فهل يظن هذا البعض أنه قد فتح القسطنطينية حين قال:

" ليس في القصة إلا دعاء واستجابة ربانية أعطته ما يريد من دون أي دور عملي له.. "

فهل ثمة من يدعي أن سليمان (ع) هو الذي أوجد هذا الملك لنفسه، وأعطى لنفسه القدرة على تسخير الريح، والجن؟!. أم أن الله هو الذي أعطاه ذلك. وجعل له القدرة على تحريك الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب؟!.

فهل يريد هذا البعض أن لا يطلب الأنبياء من الله ان يعطيهم القدرات التي تمكنهم من القيام بمهامهم الرسالية؟!.

فها نحن نقرأ دعاء إبراهيم (ع): (رب اجعلني مقيم الصلاة، ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء)(١).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: ٤٠.

فهل يصح القول بأنه في إقامته للصلاة ومن ذريته، لم يكن إلا دعاء، واستجابة ربانية، أعطته ما يريد من دون أن يكون له أي دور عملي، أو قدرة واقعية في تحقيق ذلك على حد تعبير هذا البعض؟!

وكذا بالنسبة للشكر، والعمل الصالح الذي يرضي الله في دعاء الإنسان، وفي مثل دعاء سليمان (ع): (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي، وعلى والدي، وأن أعمل صالحا ترضاه ((١).

ولتراجع سائر الآيات التي تتضمن الأدعية فيها ما يشبه ذلك.

٢٥ - وأما بالنسبة لعيسى (عليه السلام) فكيف يستطيع أن يثبت أن دوره (ع) كان دور الآلة.. ولماذا لا يكون مالكا لقدرة أفاضها الله عليه، والله هو الذي يأذن له باستعمالها هنا تارة، وهناك تارة أخرى؟!

ولماذا خرجت كلمة (بإذن الله (عن معناها الحرفي اللغوي في خصوص هذا المحور، لتصبح دالة على القوة التي تباشر هي تحقيق النتائج من دون أي دور لعيسى (ع)، سوى كونه آلة؟!

ومن أين عرف أن عيسى (عليه السلام) لم يكن يملك أية طاقة خاصة به.. ألا يحتاج ذلك حسب ما يقوله هو نفسه إلى دليل موجب لليقين، لأن القضية لا تدخل في دائرة الأحكام ليكتفي فيها بمطلق الحجة؟! وألا يحتاج هذا النفي القاطع إلى دليل كما يحتاج الإثبات إلى دليل، على حد تعبيره؟!

هذا وقد ذكر عند النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله): أن عيسى (عليه السلام) كان يمشي على الماء. فقال (صلى الله عليه وآله): (لو زاد يقينه لمشى على الهواء) (٢). مما يدل على أن وجود هذه القدرة لدى عيسى (عليه السلام) تابع لمستوى اليقين لديه، ولا شك في كونه اختياريا.

أم أن هذا البعض يتصور أن يمشي عيسى (عليه السلام) على الماء لا باختياره تماما كما يتم تحريك الآلة الجامدة من قبل فاعل مختار قادر؟!.

----

(١) سورة النمل: الآية: ١٩، وسورة الأحقاف: الآية: ١٥.
(٢) مصباح الشريعة ص ١٧٧ وبحار الأنوار ج ٦٧ ص ١٧٩.

٢٦ – إن من جملة ما اقترحه المشركون على رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو أن يرقى في السماء، ثم ينزل عليهم كتابا يقرؤونه..

فلم يستجب لهم، وقد جعل هذا البعض ذلك دليلا على عجزه، وأن الله سبحانه لم يعطه قدرة، فهل ذلك معناه، أن هذا البعض يقول بعدم صحة المعراج الذي تحدث عنه القرآن؟!

وعن عدم قدرته على تفجير الينابيع نقول:

إنه حين استسقى موسى قومه، ضرب بعصاه الحجر (فانبجست منه اثنتا عشرة عينا (، كما أنه (صلى الله عليه وآله) وكذلك الأئمة (عليهم السلام) قد فجروا الينابيع للناس..

وذلك يدل على أن رفضه للإستجابة لهم إنما هو لأجل أنهم يريدون اتخاذ ذلك ذريعة للتشكيك في بشريته، لا لأنه لم يكن قادرا عليه.

٢٧ – إن المعراج الذي حدث لرسول الله فعلا هو باعتراف هذا البعض مفردة من مفردات رقيه إلى السماء، بل حيث بلغ العرش، ورجع في ليلة واحدة..

ومن الواضح: أن هذا الأمر ليس بأقل من حيث أهميته وخطورته، وحساسيته وصعوبته من انشقاق القمر.. فإذا كان هذا العروج قد حصل، فلماذا لا يحصل ذلك الانشقاق؟!

٢٨ – قد عرفنا حين الحديث عن الولاية التكوينية أن هذه الإقتراحات كانت تهدف إلى إثبات أن النبي الذي يرسله يجب أن لا يكون بشرا، فالإستجابة لهم تستوجب تضليل فريق من الناس فلا بد من رفض طلبهم، وابطال كيدهم.

هذا بالإضافة إلى أن فتح باب الآيات الإقتراحية خطير للغاية، حيث يصبح الأمر ملعبة بأيدي السفهاء، والجهال، وأصحاب الأهواء..

وقد جاءت السنة الإلهية لتواجه هذه الظاهرة، بإنزال عذاب الاستئصال..

٢٩ - إنه لا ضير في أن تكون آية: (لولا نزل عليه آية من ربه (قد نزلت قبل حادثة المعراج، وانشقاق القمر، وتكليم الشجر، والحجر، وتسبيح الحصى، وتكليم الحيوانات، وغير ذلك من آيات.. فلم يستجب الله سبحانه إلى طلبهم هذا.. ثم حصلت آيات من شأنها أن تعطي اليقين، والدلالة الظاهرة على صحة هذا الدين، دون أن يكون هناك أي اقتراح من المشركين، من شأنه أن يثير سلبيات من أي نوع.

٣٠ - وحتى لو أن هذه الآية، وآية سورة الرعد قد نزلتا بعد المعراج، وانشقاق القمر، وغير ذلك من آيات كثيرة، لم يكن ذلك ضائرا، إذ المقصود هو طلب نزول الآية في تلك الفترة، سواء أكانت قد سبقتها آيات أم لم تسبقها..

٣١ - كيف يظهر من آيتي سورتي (الأنعام والرعد): أن إنزال الآيات ليس ضروريا للنبوة إلا في حالات التحدي الكبير؟! والحال.. أن المطلوب هو آيات اقتراحية ، لا مجال للاستجابة لهم فيها، لأمور أربعة:

الأول: إن الآيات التي من شأنها إزاحة العذر، وإقامة الحجة القاطعة قد جاءتهم، فلم يؤمنوا بها، ومنها القرآن نفسه.

الثاني: إن للإستجابة للآيات الإقتراحية عواقب وخيمة - لو أنهم لم يؤمنوا بمقتضاها حيث قد جرت سنة الله في إهلاك الأولين بعد الاستجابة إلى مقترحاتهم.. واستمرارهم على الجحود، فراجع سورة الإسراء: الآية ٥٩، وسورة الانعام: الآية ٨ و ٥٨.

الثالث: إن ذلك يجعل هذا الدين ملعبة بأيدي الأشرار والسفهاء، وأصحاب الأهواء..

الرابع: إن ذلك ربما يساعد على ضلال كثير من الناس، إذا كانوا يريدون إظهار أن النبي ليس من جنس البشر.

٣٢ - وعن خوف موسى عليه السلام من قتل فرعون وقومه له، نشير إلى: أن هذا الخوف يدخل في دائرة الحذر الواجب شرعا.. كما حصل للنبي (ص) حين دخوله الغار، فإن ذلك حذر واجب على الرسول.. وليس خوف الجبن، والضعف، والانهزام، ولا يصح احتمال ذلك في حق الأنبياء.

والعجز عن فهم الأمور التي توهم ذلك في ظاهرها الساذج لا يبرر نسبة أمور كهذه لأنبياء الله.
٣٣ - وكذلك الحال تماما بالنسبة لخوف إبراهيم (ع) من ضيوفه، فإنه خوف الحذر الواجب، لا خوف الضعف، والجبن.
٣٤ - وخوف موسى (ع) في موقف التحدي مع السحرة إنما هو على الناس من أن يقعوا فريسة الوهم، ويؤثر بهم هذا الخداع، فهو خوف على الرسالة، وعلى الناس لا خوف الجبن، والانهزام، والضعف، كما يقوله هذا البعض.
٣٥ - وفي مقام الجواب عن استدلاله بآيتي الأنعام: (قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى
إلي (وقريب منها في سورة هود.
نقول: إنه إذا كانوا يريدون من خلال إثبات هذه الأمور للأنبياء عليهم السلام التأكيد على عدم بشريتهم، فإنه لا مجال لقبول ذلك منهم، إذ يلزم من هذا القبول بتضليل الناس وسوقهم لاعتقاد أمور فاسدة في حق الأنبياء (صلوات الله عليهم).
فالمراد إذن نفي ما يكون من هذه الصفات ملازما لعدم كون الرسول بشرا، أي نفي صفة علم الغيب مثلا من حالاته الذاتية التي لا صلة لها بالله، فإن بعضهم كان يعبد الملائكة، وبعضهم يعتقد أن للملائكة قدرات خارقة، وعلم غيب ذاتيا فيهم، لا صلة له بالله.
إذن، فلا يريد الله أن يقول في هذه الآية: إن نبيه لا يملك طاقة ذاتية كان الله سبحانه قد أفاضها عليه، بل يريد أن ينفي ما يلزم منه عدم بشرية الرسول، أي أنه يريد أن يقول: إنه لا يقول لهم مثلا إنه يعلم الغيب بطريقة ذاتية لا صلة لها بالله بحيث تجعله من غير البشر، بل الغيب الذي يعلنه سواء كان قدرة أم غير قدرة هو من فيض الله عليه واعطائه له مع كونه لا يزال بشرا.
٣٦ - قوله:
" إن دفع الخير وجلب الشر كان يحصل بصورة تدريجية من دون أن يكون هناك طاقة في ذات الرسول تؤثر في ذلك.. "

ما هو إلا رجم بالغيب، فلعل هذا الأثر التدريجي كان يصدر عن طاقة أودعها الله فيه، ويتحرك من خلالها إراديا بحيث لولا أن الله أودعها فيه فهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا.

٣٧ - والغريب أنه حصر علم النبي بالغيب بتاريخ الرسالات السابقة، لأن ذلك هو الذي يتصل بالتبشير والإنذار؟! بل لعله الأعظم أثرا في ذلك.

ولماذا لا يكون الإخبار عن الغيب الآتي أيضا له دوره الأهم في التبشير والإنذار.

٣٨ - إن هذا البعض حصر علم النبي بالغيب بطريق الوحي الإلهي التدريجي عند الحاجة.

وهذا غير مقبول منه وغير سديد، إذ قد يكون هذا العلم بواسطة إعطاء قوة يستطيع بها أن يحصل على علم الغيب كلما أراد، كالإلهام مثلا.

٣٩ - وحين تحدث عن العموم، والشمول لكل علم الغيب في قوله تعالى: (فلا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول.. (.

أجاب عن ذلك بأنه يحتمل!! أن يكون قوله تعالى: (فإنه يسلك من بين يديه، ومن خلفه رصدا (إشارة إلى أن هذا الغيب، هو الجو الملائكي الذي يحميه من الشياطين.. فالآية لا تتحدث عن علم الرسول للغيب، بل عن حمايته بطريق الغيب، على طريقة الاستثناء المنقطع.

ونقول له:

ان من الواضح: أن مجرد الاحتمال لا يكفي للحكم بالنفي بصورة قطعية، بل لا بد من الدليل القاطع لأن النفي يحتاج إلى دليل، كما الإثبات يحتاج إلى دليل حسبما قرره هذا البعض.

ولا بد أن يكون هذا الدليل مفيدا للعلم، واليقين، لأنه في غير الشرعيات حسبما يقول أيضا.

٤٠ - إنا نعرف أن الاستثناء المنقطع يحتاج إلى قرينة تبين أن المستثنى غير داخل في المستثنى منه.. والقرينة التي ذكرها هي نفس ما يدعيه من أن القرآن يؤكد نفي علم الأنبياء بالغيب.

وقد عرفنا:
أولا: إن القرآن لم يؤكد شيئا من ذلك، بل هو يتحدث عن نفي العلم الذاتي المنقطع، والمستقل بنفسه من الله، حيث يريد الكفار إثبات هذا الامر ليثبتوا أن الأنبياء ليسوا من البشر، بل هم موجودات أخرى تنال الغيب بقدراتها الذاتية من دون حاجة إلى الله سبحانه.
ولا أقل من أن ذلك محتمل احتمالا قويا، فلا يبقى ثمة لديه ما يصلح لأن يكون قرينة على ما يقول.
ثانيا: إن ظاهر هذه الآية هو الاستثناء المتصل، وثبوت كونه منقطعا يتوقف على ثبوت ما يدعيه هذا البعض بصورة قاطعة، وثبوت ما يدعيه يتوقف على كون الاستثناء منقطعا.. إذ لو لم يكن كذلك لدل القرآن على أن الأنبياء يعلمون الغيب وذلك بهذه الآية بالذات.
وبعبارة أخرى: إنه إذا كان المستثنى منه صالحا للانطباق على المستثنى، فلا بد من الحكم باتصال الاستثناء، ولا يحكم بكونه منقطعا إلا بقرينة، ولا يستطيع هذا البعض نفي علم الأنبياء بالغيب قرآنيا إلا إذا ثبت عدم دلالة هذه الآية على ذلك وأن الاستثناء منقطع، أما الآيات الأخرى فلم يثبت فيها ذلك، ومن الواضح أن كون الاستثناء منقطعا يتوقف على إثبات أن القرآن ينفي علم الأنبياء بالغيب، ونفي علم الأنبياء بالغيب يتوقف على كون الاستثناء منقطعا.
وقد عرفنا: أن جميع ما استدل به من آيات لا يدل على مطلوبه، وهو نفي فعلية العلم بالغيب.. بل هي ناظرة إلى نفي الاستقلال في مقابل التبعية حسبما أوضحناه.
٤١ - ثم إنه قد حسم الأمر في نهايات كلامه حين أكد نفي الولاية التكوينية:
" لأن الدليل لم يدل عليه - حسب فهمنا القاصر "
على حد تعبيره..
ولكن.. كيف نقبل ذلك منه، وهو نفسه يقول:
" إن النفي يحتاج إلى دليل كما الإثبات يحتاج إلى دليل.. "

مما يعني: أن مجرد عدم وجود دليل لا يكفي للحكم بعدم وجود ولاية تكوينية..
هذا بالإضافة إلى أننا قد ذكرنا: أن تشكيكاته بالآيات غير صحيحة، ولا مجال لقبول أي منها..
٤٢ - أما بالنسبة لمهمة الأنبياء، وأنها مجرد التبشير والإنذار، والإبلاغ، والهداية، فقد ذكرنا فيما تقدم.
أولا:
أنه كلام مرفوض.. من وجهة نظر القرآن، والحديث القطعي.. فلا حاجة إلى الإعادة.
ثانيا:
أن حصره ذلك في هذه الأمور الأربعة ينافي ما تقدم في فقرة سابقة من أنها: الإبلاغ، والإنذار، والهداية، والتعليم، وقيادة الناس إلى تطبيق ذلك.
٤٣ - بقي أن نشير إلى ما ذكره هذا البعض حول آية (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ((سورة الأحقاف، الآية ٩)، حيث اعتبرها دالة على نفي فعلية علم الغيب في واقع الذات، وأنها تحصر المسألة، في ما يأتيه من الوحي.
ونقول:
أولا:
إن هذه الآية - كما أشرنا إليه أكثر من مرة في مثيلاتها - ليست ناظرة إلى النفي المطلق، بدليل: أن النبي (ص) والأئمة عليهم السلام قد أخبروا عن غيوب كثيرة جدا، وإنما هي تنفي ما يعتقده أولئك الناس، من أن النبوة تقتضي بذاتها علما للغيب مستقلا عن الله سبحانه، مما يعني أنها مقام لغير البشر بزعمهم.
فجاءت هذه الآية ومثيلاتها لتؤكد على أن الأنبياء بشر، وأن علمهم بالغيب ليس ناشئا عن ذواتهم بالاستقلال، وإنما هو عطاء من الله، واكتساب منه تعالى.
ومجرد الإصرار على أنها دالة على نفي فعلية علم الغيب في واقع الذات، أي أنها تنفي علم الغيب بالأصالة، وبالتبعية معا، لا يكفي في مقام الإستدلال، خصوصا

وأن الله قد صرح بأنه لا يطلع على (غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ((١).
ثم أخبر عن رسوله بأنه لا يبخل على الناس بما عنده من علوم غيبية، فقال:
(وما هو على الغيب بضنين ((٢).
ثم ذكر عن عيسى عليه السلام أنه قال لقومه:
(وأنبؤكم بما تأكلون، وما تدخرون في بيوتكم ((٣).
رغم: أنه لم يثبت أن عيسى عليه السلام حين قال لهم ذلك كان في مقام التحدي الأقصى لهم، وليس إخباره لهم بذلك بأعظم - من إحيائه لموتاهم، وإبرائه الأكمه والأبرص. وهذه هي معجزته لهم، وهي تكفي في مقام التحدي.
وقال يوسف عليه السلام لصاحبي السجن:
(.. لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ((٤).
وما هي حاجة يوسف عليه السلام للعلم بتأويله قبل أن يأتيهما؟، فهل كان في موقع التحدي آنئذ؟! وما هو المنصب والمقام الذي اضطر يوسف لأن يحوز هذا العلم، ومنع غيره منه؟
وقال سبحانه في مواضع:
(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ((٥).
وذلك كله يبعد جدا تفسير الآية المذكورة، ومثيلاتها بإرادة النفي المطلق للغيب، إلا ما كان يوحيه الله إليهم في حالات تفرض الحاجة ذلك.
ثانيا:
إن هذا البعض يصر على أن ما يعلمه النبي بالغيب إنما يصله - حصرا - عن طريق الوحي - ونحن نقبل منه ذلك. وإن كنا لا نمنع من أن يكون الله سبحانه قد منح نبيه قوة يعلم بها بعض الغيوب كما دلت عليه الروايات

----
(١) سورة الجن: الآية ٢٧.
(٢) سورة التكوير: الآية ٢٤.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٩.
(٤) سورة يوسف: الآية ٣٧.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

بالنسبة لرؤية الإمام والنبي اعمال الخلائق وشهادته عليهم، غير أننا نقول إن هذا البعض نفسه قد ذكر في النص السابق: أن هذا العلم ما كان منه متصلا بأخبار الماضين، فالقرآن يشير بوضوح إلى أن أنباءه هي من وحي الله.
أما ما كان متصلا ببعض موارد الحاجة إليه في موارد معينة، فيلهمه الله تعالى إياه إلهاما (١) (إلا أن يفرق بين الوحي والإلهام).
فيرد عليه سؤال: لماذا فرق بين الموردين فكان أحدهما بواسطة الوحي، وكان ذاك بواسطة الإلهام؟! ولماذا لا يكون العكس؟!
ثالثا: لماذا لا يكون هذا الإلهام الذي اعترف به ناشئا عن قدرة، أو ملكة أودعها الله في نبيه، تجعله قادرا على أن يعلم ساعة يشاء، حسبما دلت عليه الروايات الكثيرة.
رابعا: إن قوله تعالى في نفس آية سورة الأحقاف:
(إن أتبع إلا ما يوحى إلي (بعد قوله: (ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ((٢) يفيد أنه قد جاء في موضع الاضراب عما قبله.. ليكون المعنى: إني ما أدري شيئا من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي. وإنما أتبع ما يوحى إلي من ذلك.
وحسبنا ما ذكرناه، فإن فيه كفاية لمن أراد الرشد والهداية.

----
(١) قد تقدم ذلك عن كتابه من وحي القرآن الطبعة الجديدة ج ٦ ص ٣٤.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٩.

الفصل الثالث:
الولاية التكوينية للمعصوم:
توضيح.. و.. بيان

بداية

إننا نذكر في هذا الفصل نموذجا من أقاويل هذا البعض حول أمور مختلفة ترتبط بالأنبياء والأوصياء.. ثم نعقب ذلك ببيان نحاول أن يكون واضحا، وموجزا في آن واحد لما يقوله علماؤنا حول الولاية التكوينية للمعصوم، من خلال ما فهموه من نصوص القرآن ومن أحاديث الرسول وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)، فنقول:

١٨٦ – العلاقة الإلهية المميزة بالنبي تقتصر على الوحي.

١٨٧ – دور النبي هو تبليغ الوحي للناس كرسالة فقط.

١٨٨ – دور النبي أن يغير العالم في صفته الفكرية والعملية، لا التكوينية.

١٨٩ – من يقول بقدرة النبي على التغيير الكوني كمن يقول بلزوم كونه ملكا.

١٩٠ – الإعتقاد بأن الله جعل للنبي ولاية تكوينية مبعث استغراب.

١٩١ – استهجان الاعتقاد بأن النبي يعلم الغيب دون حدود إذا أراد. (مع وروده في أخبار معتبرة وكثيرة عن أهل البيت (ع)).

١٩٢ – لا داعي للبحث فيما ليس من الضروريات في العقيدة والعمل.

١٩٣ – ما ليس من ضرورات العقيدة وفروض العمل لا قيمة له عقيدية أو عملية.

١٩٤ – بعض العقائد التي تثبت بالروايات الصحيحة قد تكون مما لا قيمة له.

١٩٥ – أنبياء يبرزون نقاط ضعفهم البشري بصراحة وتأكيد.

١٩٦ – حتى ما يثبت من العقائد بالروايات الصحيحة قد يكون فيه سلبيات (كالغلو، أو ما يشبه عبادة الشخصية).

١٩٧ – تحدث القرآن عن الضعف البشري للأنبياء في واقعهم الداخلي والخارجي.

يقول البعض:

".. كيف يطلب هؤلاء منه أن يقوم بتلك الأعمال الخارقة التي لا يستطيع أي بشر بقدرته العادية أن يحققها.. وهل كانت دعوى النبوة تعني القيام بمثل ذلك،

أو تختزن في مضمونها ادعاء القدرات الغيبية، أو العمق الإلهي الذي يمكنه من تحقيق ذلك.. لقد كان النبي يعلن دائما أنه بشر يحمل الرسالة، مما يعني اقتصار العلاقة الإلهية المميزة بشخصه، التي يختلف بها عن بقية الناس، على الوحي الذي ينزله الله عليه ليبلغه للناس كرسالة إلهية، بعيدا عن كل شيء آخر لأن ذلك هو دور النبي في الحياة، فليس دوره أن يغير صورة العالم في صفته التكوينية، بل كل دوره أن يغيره في صفته الفكرية والعملية، في حركة الحياة والإنسان.. حتى المعجزة، فيما
كان يقوم به الأنبياء من معاجز لم تكن غاية في الرسالة، بل كانت وسيلة لمواجهة التحدي الكبير حولها (١).

ويقول أيضا:

" ما هي شخصية الرسول؟ وما هي قدراته..؟ هل هو إنسان غيبي في شخصه، وفي إمكاناته.. هل من المفروض في الرسول الذي يرتبط بالله من خلال الوحي، أن يكون - في طبيعته - شخصا غير عادي، كما هو الوحي شيء غير عادي في طبيعته.. أو هو إنسان مثل بقية الناس في شخصيته، وفي قدرته، فلا يملك أن يغير شيئا من سنن الكون التي أودعها الله في الحياة، ولا يستطيع أن يكتشف الغيب بخصائصه الذاتية هذه أسئلة كانت تدور في وعي الإنسان الذي عاصر الرسالات؟ عندما كان يطلب من الرسول تفجير الينابيع من الأرض القاحلة، والصعود إلى السماء، والإتيان بكتاب غير عادي منها.. وهذه أفكار لا تزال تعيش في وعي الإنسان المتأخر عن عصر الرسالات، في اعتقاده بالنبي، كشخصية غيبية في قدراتها، حتى اعتبرها البعض ذات ولاية تكوينية على الحياة، وعلى الناس فيما جعلها الله له من ولاية، كما أن الكثيرين يعتقدون، بأنه يعلم الغيب، إذا أراد من غير حدود.. إلى غير ذلك من الاعتقادات التي أبعدت النبي في تحديد شخصيتهم عن مستوى شخصية الإنسان في طبيعته وقدرته.

إن الآية - التي أمامنا تحدد لنا المسألة، كغيرها من الآيات المماثلة، من دون فرق بين أن تكون جوابا عن الفكرة التي تتطلب في النبي، شخصية الملك وبين أن تكون جوابا عن الفكرة التي تتطلب فيه شخصية القادر على التغيير التكويني للواقع.. " (٢).

ويقول في تفسير قوله تعالى:

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٧ ص ٢١.

(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٣.

".. (قل، لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون..) (سورة الأنعام / الآية ٥٠) وهذه هي الصورة المشرقة الواقعية للشخصية النبوية التي يريد الله للنبي أن يقدم بها نفسه إلى الناس، فهو لا يريده كائنا غيبيا يبرز إليهم من خلال الجو الغيبي الضبابي الذي يوحي إليهم بالأسرار الخفية المقدسة للذات بعيدا عن التصور البشري الطبيعي، ولا يريد له أن يبدو في نظرهم شخصية أسطورية تملك في حوزتها كل خزائن الله الذهبية والفضية ونحو ذلك مما يدخل في عالم التقييم المادي بالمستوى الذي يستطيع أن يغرف منها ما يشاء من المال لمن يشاء من الناس، ولا يريده إنسانا يقف بين الناس ليتحدث للناس عن أسرارهم الكامنة في صدورهم وعما ينتظر كل واحد منهم من أحداث المستقبل الخاصة والعامة، على أساس ما يحمل من علم الغيب الإلهي، كما يتصور الكثيرون هذا الدور لشخصية النبي، كما هي شخصية الكاهن الذي كان يمثل بعضا من ذلك.. ولا يريد له الشخصية الملائكية ليأخذ لنفسه دور الملك السماوي الذي يأخذ بألباب الناس فيدهش العقول بأجنحته المتنوعة المتعددة، وقدرته الأسطورية الخارجة عن كل حد.. لأن الله يريد للناس أن يؤمنوا به من خلال رسالته بعيدا عن كل ضغط نفسي أو مادي.. وعن كل ألوان الإغراء الذاتي، أو الاستعراض الانفعالي، الذي يوحي للإنسان بالانجذاب العاطفي، والانسحاق الشعوري.. وهكذا أراده أن يقف بينهم عبدا خاشعا بين يدي الله، لا يملك أية مقومات ذاتية، كبيرة، أو أية قدرات شخصية مطلقة.. رسولا أمينا على الدور الذي أوكله الله إليه فهو ينتظر أمر الله ووحيه في كل صغيرة وكبيرة ليتبعه ويبلغه للناس.. وربما كان الحديث عن الأتباع موحيا بالصفة المطيعة المتواضعة التي تجسدها شخصيته ليكون في ذلك بعض الإيحاء لهم بالطاعة لله من خلال الاستغراق في دور العبد المطيع الذي يتمثل في حركة العبد – النبي، ليتمثل – من خلاله – في شخصية العبد المؤمن.. وإذا كان التوجه الإلهي يفرض على الرسول أن يقدم نفسه إلى الناس بهذه الصفة فقد نجد فيه الدرس الفكري الذي يريدنا أن لا نغرق أنفسنا بالأسرار العميقة التي يريد البعض أن يحيط بها شخصية النبي، ليحصل له اللون الإيحائي الذي يرتفع به فوق مستوى البشر في إمكاناته الذاتية، وقدراته الكبيرة.. بل يعمل على أن يربطنا بصفته الرسالية من حيث أخلاقه وخطواته ومشاريعه المتصلة برسالته.. وذلك هو السبيل للتعامل مع شخصية الأنبياء، والأولياء، بالأسلوب القريب إلى الوعي الإنساني العادي، فيما يمكن للإنسان أن يعيشه ويتصوره ويتمثله في نفسه، ليشعر بأن النبي قريب منه بصفاته البشرية المثلى التي يمكن أن تكون أساسا للتمثل والاتباع والاقتداء.. وفي ضوء ذلك.. نجد في الأبحاث السائرة في هذا الاتجاه، انحرافا عن الخط القرآني الذي يرسمه القرآن للناس في دراستهم

لشخصية النبي (ص) " (١).
ويقول أيضا:
".. وقد نستوحي من هاتين الآيتين.. أن الأنبياء لا يتحدثون عن أنفسهم كثيرا للناس ليثيروا في حياتهم الشعور بالتعظيم والتقديس لهم.. بل هم – على العكس من ذلك – يعملون على تأكيد جانب البشرية في ذواتهم بشكل صريح مؤكد.. ويبرزون نقاط الضعف البشري بطريقة واضحة..
كما نجد ذلك فيما حكاه الله عن رسوله في حواره مع المشركين.. الذين طلبوا منه فعل بعض خوارق العادة التي يقترحها للدلالة على نبوته انطلاقا من عقيدتهم فيه بأنه مزود بطاقات هائلة يستطيع أن يقوم من خلالها بكل شيء يطلب منه.. فقد أجابهم بقوله (.. قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا..) وفيما حدثنا الله.. قل لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أتبع إلا ما يوحي إلي ربي وهكذا نلاحظ أن القرآن لم يتحدث عن الأنبياء إلا من خلال صفاتهم الذاتية المتصلة برسالتهم كما حدثنا عن حركة الرسالة في حياتهم وما لاقوا من عنت واضطهاد وتشريد.. وعن بعض نقاط الضعف البشري التي عاشوا في واقعهم الداخلي والخارجي.. من أجل إبعاد الناس عن الضلال والغلو ليظل التصور في العقيدة مشدودا إلى الواقع، بعيدا عن كل ضروب الخيال والمثال الذي قد يطوف في أخيلة الكثيرين وأفكارهم ".
ثم هو يقول:
الفكرة في خط التربية الإسلامية
".. وقد نحتاج إلى استيحاء هذا الأسلوب التربوي في دراساتنا وأبحاثنا التي فيها حياة الأنبياء والأئمة والأولياء، فنستغرق في الجوانب العملية في حركة الإسلام في حياتهم الشخصية والعامة لنبقى في خط الارتباط بالشخص من خلال الفكرة والرسالة والعمل، فيزيدنا ذلك ارتباطا بالخط الصحيح وابتعادا عن مواطن الخطأ والضلال في الطريق ولا نستغرق في الأسرار الخفية والغامضة التي يثيرها البعض في حديثه عن هذه الشخصية أو تلك ممن نعظم من شخصيات الأنبياء والأولياء. لأن الاستغراق في الجوانب الضبابية الغامضة التي لا نستطيع فهمها ولا تعقلها قد يؤدي بنا إلى الانحراف في التصور أو الوصول إلى درجة الغلو..
إن القضية ليست في واقعية هذه الصفات الممنوحة لهذه الشخصية أو تلك

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٩ ص ٧٩ – ٨١.

وعدم واقعيتها ليتجه الحديث إلى إثبات صحة ذلك بالروايات الصحيحة أو غير الصحيحة، في عملية نقاش علمي طويل بل القضية هي.. أن ذلك الأمر ليس من ضرورات العقيدة ولا من فروض العمل، فلماذا نكلف أنفسنا الجهد والتعب في الدخول في أبحاث ليس لها قيمة عقيدية أو عملية، بل قد تؤدي في بعض الحالات إلى ما يشبه عبادة الشخصية، إذا لم تؤد إلى الغلو المفرط عصمنا الله من الزلل ووقانا شر الانحراف عن الخط الإسلامي في العقيدة والعمل.. " (١).

وقفة قصيرة

إن ما نقلناه عن هذا البعض آنفا من كلام، يتضمن الكثير من الموارد التي تستحق التوقف عندها، وحيث إن ذلك سيدخلنا في بحوث مطولة ومتشعبة، فلا بد من الاقتصار على ما لا يخل بالحد الأدنى من الانسجام في مطالب الكتاب، فنقول:

١ - إن هذا البعض لا يزال يؤكد - في كتبه ومحاضراته - على أن مهمة الأنبياء تنحصر في التبليغ والدعوة، وأن كل دورهم هو أن يغيروا العالم في صفته الفكرية العملية، لا التكوينية.

٢ - ثم يدعي هذا البعض أن الأنبياء بشر عاديون، لا قدرة لهم على التصرف والتأثير في الأمور التكوينية. وهو يبدي استغرابه ممن يقول ذلك..

٣ - إنه لم يزل يستشهد لمقولاته هذه بالآيات التي تضمنت التصريح بأن النبي بشر، كما في قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) (٢).

ثم هو يضيف أن الآيات قد دلت على أن النبي لا يقدر على شيء مما ذكر، وليس لديه خارج قدرة البشر أي قدرة ذاتية غير عادية.

ولذا لم تنسب الخوارق في القرآن إلى الشخص إلا في قصة عيسى وإبرائه الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى.

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٦ ص ٨٢ / ٨٣ / ٨٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٠ - ٩٣.

٤ - فإذا كانت مهمات الأنبياء هي التبليغ والإرشاد، وفقا لقوله تعالى: (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) (١).
فان التصرفات الإعجازية وغير العادية تبقى محصورة في دائرة التحدي وإثبات النبوة وحاجات التبليغ والدعوة.
ثم يستنتج من ذلك أن: كل النصوص التي تثبت كرامات أو معجزات أو تصرفات غير عادية للأنبياء - خارج هذا النطاق - لا يلتفت إليها، بل تخرج عن دائرة السيرة والتاريخ الصحيح، أو الذي يمكن أن يكون صحيحا.
٥ - ثم هو تبعا لذلك لا يرتضي القول بأن النبي (ص) قد يعلم الغيب - بلا حدود - إذا أراد (٢).
٦ - إنه يقول: من يقول إن بإمكان النبي أن يمارس التغيير الكوني كمن يقول: بأن النبي ملك.
فكلام هذا الرجل يدور حول هذه الأمور التي قدمناها، ولذلك فإننا سنقتصر على الحديث عنها.
فنقول:
١ - آيات التحدي لبشرية الرسول:
إن الآيات التي ذكرت تحدي الناس للرسول بالمطالب التعجيزية، فلم يستجب النبي (ص) لمطالبهم، لكونه بشرا وليس ملكا، إنما جاءت ردا على ما يزعمونه من لزوم كون النبي من غير البشر، ولذلك عقب الله تعالى هذه الآيات بقوله: (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشرا رسولا. قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (٣).
ولأجل هذا نجد أنه (ص) لم يستجب لمطالبهم التعجيزية لأن ذلك يعني ترسيخ اعتقادهم الخاطئ في نفوسهم وإقرارهم عليه بصورة عملية.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٥ - ٤٦.
(٢) يلاحظ إقحامه كلمة (بلا حدود) ولا يخفى على الناقد البصير سبب هذا الإقحام.
(٣) سورة الإسراء الآيات ٩٤ - ٩٥.

علما أنه قد ثبت في علم الكلام أنه لا يجب على النبي الاستجابة لكل المطالب من المعاجز الاقتراحية التي يطلبها آحاد أو جماعات القوم الذين بعث إليهم ويكفيه في اثبات صدقه معجزته التي يلقيها من تلقاء نفسه.

٢ - مهمة الأنبياء وعلومهم:

إن مهمة الأنبياء لا تنحصر بالتبليغ والدعوة، وإنما تتجاوز ذلك ليكونوا القادة والذادة والحكام على الناس، المهيمنين على مسيرة البشرية، حيث يريدون ايصالها إلى الله سبحانه، من خلال تربيتهم وهدايتهم لها، وحاكميتهم وهيمنتهم على كل شؤونها، في مسيرتها إلى كمالها، الذي ينتهي بها إلى معرفته سبحانه وتعالى. ولهم إشراف على كل الواقع الروحي، والعقيدي والتربوي، والسلوكي للأمة، وعلى كل علاقاتها بأي شيء في هذا العالم، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة.

ولأجل ذلك يرفع للامام عمود من نور يرى فيه أعمال الخلائق. وهذا يحتم أن يكونوا على درجة كبيرة من المعرفة، وان يملكوا قدرات وطاقات كبيرة، تتناسب مع حجم المهمة الموكلة إليهم على مستوى البشرية بل والعالم بأسره.

والعنصر الأساس والضروري والحساس في هذه الهيمنة الشاملة هو العلم، وهو الأمر الذي ظهر لنا من قصة داود (ع): انه هو الوسيلة الأعظم تأثيرا في ذلك. وقد قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) (١).

وقد قال سليمان (ع): (علمنا منطق الطير) (٢).

و وصف الله سبحانه داود: ب (ذا الأيد) (٣)

وقال: (وشددنا ملكه، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) (٤).

بل إن أحد أتباع سليمان (ع) قد جاء بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف، بواسطة العلم، قال تعالى: (قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقرا عنده) (٥).

---

(١) سورة النمل الآية ١٥.
(٢) سورة النمل الآية ١٦.
(٣) سورة ص الآية ١٧.
(٤) سورة ص الآية ٢٠.
(٥) سورة النمل الآية ٤٠.

وحين فهم سليمان (ع) كلام النملة: (تبسم ضاحكا من قولها)، واعتبر ذلك نعمة إلهية تستوجب الشكر، الأمر الذي يشير إلى أنه هو الذي فهم قولها بما أنعم الله عليه من معرفة لغات الطير والحيوان وتعلمه لها.
كما أن معرفة سليمان (ع) بوجود عرش بلقيس لم تكن بواسطة المعجزة بل بواسطة الهدهد.
وتسخير الجبال، والجن، الطير، والريح لآل داود (ع)، وحتى لين الحديد لداود (ع) قد كان - فيما يظهر - من خلال المعرفة والعلم، لا لمجرد الإعجاز، وإلا لما كان يحتاج سليمان (ع) إلى مراقبة الجن الذين كانوا يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، ولما كان بحاجة إلى تشغيلهم بالبناء، وبالغوص في البحار لاستخراج خيراتها. فقد كان بإمكانه إيجاد ذلك بالمعجزة، ولم يكن أيضا بحاجة إلى أن يقرن شياطين الجن بالأصفاد كما لم يكن بحاجة لتهديد الهدهد ووعيده، ما لم يأته بسلطان مبين..
وكذلك الحال بالنسبة لموسى (ع)، فإن الأمر لو كان يقتصر على الإعجاز المجرد، لم يكن ثمة حاجة إلى ضرب البحر بعصاه، ولا إلى تحول عصاه إلى ثعبان، بل كان البحر ينفلق وإبطال السحر يتم بدون ذلك، بصورة اعجازية. فهل كانت هذه الأسباب مجرد أدوات صورية لتقريب الفكرة إلى الناس؟!!. أم كانت شيئا آخر لم يدركه البعض، فقال ما قال، وكتب ما كتب!؟.
٣ - المعصوم يعلم إذا أراد:
وأما استغرابه المعبر عن رفضه للقول بأن النبي يعلم الغيب - بلا حدود - إذا أراد (ويلاحظ، أنه أقحم كلمة: بلا حدود لغرض لا يخفى).
فهو عجيب منه وغريب، فإن من يراجع الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) يجد أنهم هم الذين صرحوا بهذا الأمر، وأعلنوه وأشاعوه، فهو مأخوذ منهم وعنهم، فما هو الوجه في استغرابه واستهجانه.
كما أن طبيعة المهمة الموكلة إليهم تقضي بصحة - بل بضرورة - مثل هذه العلوم لهم، وأن يتمكنوا من الحصول عليها كلما وجدوا حاجة إلى ذلك..

على أن الحديث عما لديهم عليهم السلام من علوم، وعن كيفية حصولهم عليها هو بحد ذاته من الأمور الغيبية، التي لا سبيل لعقل البشر إليها، فلا بد من أخذها عنهم (ع)، لأنها لا تعرف إلا من قبلهم.

٤ - معجزات الأنبياء خارج نطاق التحدي:

وملاحظة أخرى نسجلها هنا وهي أن ما أسماه ب " الخدمات غير العادية " لسليمان ولداود (ع)، هي من الأمور المعجزة التي كانت خارج دائرة التحدي واثبات النبوة وقد نطق بها القرآن الذي هو معجزة النبي (ص)، خارج نطاق التحدي واثبات النبوة، فهل إن حديث القرآن عن غيبيات الأنبياء يعد من الحديث الضبابي الذي لم يفهمه البعض؟!.

أما قضية الإسراء، وقضية المعراج ونحوها مما لا يستطيع ذلك البعض أن ينكره، فليست هذه كلها هي معجزته الرئيسية العامة.

هذا، مع أن كرامات ومعجزات النبي (ص) والأئمة من بعده، تعد بالعشرات، بل المئات، إلى درجة أن إنكارها وعدم ثبوتها يفسح المجال أمام إنكار واحدة من واضحات الإسلام. فراجع ما ينقلونه عنه (ص) من إطعامه (ص) جيشا بأكمله قبضة من تمر، أو من شاة، وتسبيح الحصى بيده، وتسليم الشجر والحجر عليه، وتكليم الحيوانات له، وغير ذلك كثيرا جدا. ولم يكن ثمة تحد يقتضي المعجزة، ولا كان ثمة ضرورة لإقامة الحجة لإثبات النبوة.

مع تذكيرنا بأن المعجزة لا تعني خرق سنن الكون وتغييرها.

أما قوله: لم يذكر في القرآن ما ظاهره نسبة الفعل إلى الشخص إلا بالنسبة لعيسى (ع). فلا يمكن قبوله. إذ قد تقدم ما يشير إلى مثل ذلك في آل داود وغيرهم بل ثمة ما يشير إلى ذلك بالنسبة لأحد أتباع سليمان (ع) وهو آصف بن برخيا، الذي نسب الإتيان بعرش بلقيس إلى نفسه: أنا آتيك به.. الخ..

على أن تعقيب الحديث عن عيسى (ع) بقوله (بإذن الله) لا يمنع من نسبة الفعل إلى هذا النبي، واختياره فيه كما اعترف به،.. فهي على غرار قوله تعالى، (وما كان لنفس أن تؤمن الا بإذن الله)، مع أن مدار العقاب والثواب، على الايمان. وكل ذلك يدل على أن قوله تعالى (بإذن الله) غير ظاهر الفائدة

فيما يرمي اليه البعض، إذ إن كل معجزات وكرامات الأنبياء صدرت بإذن الله تعالى وكانت من فعلهم واختيارهم. وقول الله لموسى: اضرب بعصاك، أو: ألق عصاك. إذن منه تعالى، فلا يختلف الأمر بالنسبة إليه عن عيسى (ع).

بل ربما كان فعل موسى أظهر في نسبة الفعل إلى صاحبه من فعل عيسى، لأن موسى لم يأت بكلمة بإذن الله مع أنه بإذن الله قطعا.

وكل ذلك يدل على أن لهم قدرة ذاتية، وهبهم الله إياها، وهم يتصرفون فيها في الكون، كما يريد الله وفي طاعته سبحانه، (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).

وذلك يؤكد على أن ما يجري ليس لأجل أن لدى الأنبياء والأئمة قدرات ذاتية بمعزل عن إرادة الله تعالى، كما أن ما يجري على أيديهم بإذن الله هو فعلهم وباختيارهم، لا أنه فعل الله أجراه على أيديهم بصورة جبرية، ومن دون أي اختيار منهم.

٥ - لا قيمة لغير العقائد الضرورية:

إننا نستغرب قوله: إن ما ليس من ضروريات العقيدة ولا من فروض العمل لا قيمة له، لا عقيدية، ولا عملية.

فإن معنى ذلك هو أن تعرض النبي (ص) والأئمة (ع) لها كان أمرا عبثيا، لا قيمة له ويكون قد ارتكب أمرا جزافا.

كما أن الإسلام قد طلب من الناس الاعتقاد بها، وحرم عليهم رفضها وذلك مثل عقيدة الرجعة ونحوها، فهل يصح أن يقال لما هو من هذا القبيل: إنه لا قيمة له: لا عقيدية ولا عملية؟!. وإذا كان البحث في غير العقائد الضرورية لا قيمة له، فلماذا أفتى بوجوب الاعتقاد ب (الرجعة) مع حكمه بأنها ليست من ضروريات الدين (١) ثم قوله بلزوم تأويل أحاديث كما جاء في مقالته: (مع الشيخ المفيد في تصحيح الإعتقاد) (٢).

---

(١) المسائل الفقهية ج ١ ص ٣١٢.

(٢) مجلة المعارج، السنة الثامنة ص ٣٢٨ و ٣٢٩.

٦ - لا داعي للبحث في غير العقائد الضرورية
أما قوله بعدم وجود داع للبحث في غير العقائد الضرورية، فلا نرى حاجة للتذكير بعدم صحته، فإن الكلام المتقدم يكفي لرده، وبيان بطلانه.
٧ - العلاقة المميزة بين الله وبين أوليائه:
وأما ما ادعاه من أن العلاقة المميزة بين الله وأنبيائه تقتصر على الوحي، فهو غير صحيح. وكيف نفسر العلاقة المميزة لمريم عليها السلام، مع الله سبحانه، حتى إنها كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: (يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله).. مع أن مريم ليست من الأنبياء!!
وكيف نفسر قوله تعالى: (واصطنعتك لنفسي) وقوله تعالى: (ولتصنع على عيني) وكيف نفسر تكليم عيسى للناس في المهد وجعله مباركا أينما كان.. وإيتاء يحيى الحكم صبيا.. ألا يدل ذلك على علاقة إلهية مميزة مع كل هؤلاء الأنبياء صلوات الله عليهم خارج نطاق الوحي؟! وكيف نفسر (الخدمات غير العادية) التي أعطاها الله لداود ولسليمان (عليهما السلام). أليست هي الأخرى خارج نطاق الوحي. وخارج نطاق المعجزة في مقام التحدي؟!..
٨ - الولاية التكوينية للأنبياء:
ثم إن هذا البعض قد صرح بمعارضته للقائلين بأن الله قد أعطى الأنبياء والأوصياء القدرة على التصرف في الأشياء المادية، والهيمنة عليها، وهو ما يعبر عنه بالولاية التكوينية.
وقد صرح أيضا - كما يأتي في فصول لاحقة من هذا الكتاب وهو متواتر عنه (١) بأنه يراه شركا، وأن القرآن كله دليل على عدم الولاية التكوينية. وقد ذكرنا هناك بعض نقاط لا تخلو المراجعة إليها من فائدة.
ونحن هنا لا نريد أن نتوسع في الحديث عن هذا الأمر، لأن ذلك يحتاج إلى وقت طويل، وجهد مستقل، وإلى مساحة لا يتسع لها، ولا ينسجم معها هذا الكتاب، بملاحظة طبيعة أسلوبه، وما توخينا معالجته فيه.

---

(١) وقد سمعنا عن بعض المولعين بالبعض. انه يبني على شرك القائل بها، تبعا له ولكنه بنفس الوقت يقول بطهارة القائل بها بناء على ما يذهب اليه هذا البعض من طهارة كل انسان.

ولكننا نذكر القارئ بأمور قد يكون وقوفه عليها مفيدا وسديدا، فنقول:

الولاية التكوينية ضرورة حياتية

المقصود بالولاية التكوينية هو المقدرة على التصرف والتأثير في الموجودات المحيطة إلى حد تجاوز القدرة العادية في التعامل مع النواميس الطبيعية، مثل أن يفجر للناس ينبوعا، أو أن يرقى في السماء، أو أن يكلم الحيوان، أو أن تطوى له الأرض، أو أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل ارتداد الطرف، أو تحريك الرياح، وما إلى ذلك.

ونحن بغض النظر عما اشتملت عليه الأحاديث الكثيرة من تفاصيل فيما يرتبط بالولاية التكوينية، نستطيع أن نقرب للقارئ الكريم هذا الأمر على النحو التالي:

مقدمة ضرورية

إن الغاية من تأسيس الدول، هو أن تضطلع بمهمات، وتعالج أمورا، أدرك الناس أنها ضرورية لحياتهم وبقاء وجودهم، فتصدوا لمعالجتها، وتفادي سلبياتها، وللهيمنة عليها في المجالات التي تعنيهم.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه الأمور فإننا نجد أنها محدودة جدا، ومحصورة في نطاق خاص، وهو عينات قليلة مما يتعامل معه هذا الإنسان في حياته العملية الجوارحية، فتنشأ الوزارات، والأجهزة، والمؤسسات العظيمة والواسعة لإنجاز هذا المهم.

ولكنها برغم كل ما توظفه من إمكانات وقدرات مادية، وبشرية وفكرية، وغيرها، تبقى عاجزة عن حماية حفنة من التشريعات والقرارات المحدودة جدا التي تنشؤها، مع أن ما تضطلع به هذه الدول وتتصدى له ما هو إلا نقطة في بحر بالقياس إلى ما يدخل في نطاق اهتمامات الإسلام، ويأخذ على عاتقه مهمة التعاطي معه، ويريد أن يفرض نظامه وهيمنته عليه، وأن يجريه وفق مفاهيمه، ويدخله في أطره ومناهجه، التي وضعها بهدف إقرار حالة التوازن العام في مسيرة التكامل باتجاه الهدف الأسمى والأمثل الذي تسعى إليه المخلوقات بحسب مقتضيات خلقتها.

الهدف من الخلقة، وضروراتها الطبيعية

وإن من الواضح: أن الله قد خلق هذا الإنسان وأراد له أن يدخل هذا الوجود ليقوم بدور هام فيه، وهو أن يعرف الله تعالى، ويعبده؛ قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون) وقد أباح له في هذا السبيل أن يعمر هذا الكون، ويتكامل فيه، ومعه، ومن خلاله، قال تعالى (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (١) نعم، إنه أراد له أن ينطلق في هذه الحياة في مسيرة تكاملية سليمة وقويمة، تستطيع أن تحقق الأهداف السامية من خلقته، وهي العبودية المطلقة والحقيقية لله سبحانه وتعالى.

هذا مع العلم أن ما في هذا الكون ليس جمادا بقول مطلق، وقد دلت الآيات الكثيرة، والروايات المتواترة: أن لدى الكثير من الموجودات إن لم يكن كلها درجة من الشعور، تجعل التعاطي معه ذا حساسية معينة.

وذلك كله يستدعي رسم ملامح شخصية هذا الإنسان بصورة تتناسب مع الدور الكبير الذي أعده الله له.

كما أنه يتطلب أن يقدم له أطروحة تشتمل على ضوابط ومناهج تحفظه من الزلل والخطأ في تعاطيه الإيجابي أو السلبي في جميع المواقع والمواضع على أن تكون تلك المناهج موضوعة من قبل من يملك المعرفة الحقيقية والكافية، ومن له الحق في ذلك.

كما لا بد من أن يمنحه قدرات وإمكانات تفي بحاجاته، ويستفيد منها في نطاق انطلاقته في هذه الحياة، وتعاطيه الإيجابي مع كل ما يحيط به من منطلق المعرفة التي تمكنه من تسخير ما في هذا الكون، والاستفادة مما أودعه الله فيه من خلال الهيمنة على نواميسه الطبيعية وتفعيلها، وبث الحياة فيها، وإثارتها، واستكناه الكثير من أسرارها، وتحريك كوامن هذا الكون وتوظيف ذلك كله في مجال تحقيق الهدف الأسمى وبناء الحياة، ومساهمته الحقيقية في إعمار هذه الأرض، وفي إسعاد الإنسان وتكامله، وبإنمائه المطرد في خصائصه الإنسانية، فيما يرتبط بحالاته الروحية، والنفسية، والفكرية، والعقيدية، فضلا عما سواها مما يدخل في تكوينه الإنساني، وله دوره في فاعليته الحياتية، وتأثيره الإيجابي في كل ما يحيط به.

ومن هنا نجد الإسلام يرصد هذا الإنسان ثم يتدخل في أدق تفاصيل

----

(١) سورة هود الآية ٦١.

وجوده وحياته، ومختلف حالاته، وفي كافة شؤونه وعلاقاته، ويواكبه في حركته نحو الأهداف الإنسانية والإلهية: (يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) (١). ويفرض عليه أن يلتزم بضوابط محددة، لأنه يريد من خلال ذلك كله أن ينشئه بصورة متوازنة ومتكاملة، تنشئة خاصة، تؤهله للإضطلاع بدوره الكبير والخطير، وتتوازن وتتكامل مع كل ما سخره الله للإنسان ليفجر من خلاله - وبالإيحاء الصحيح - روافد الحياة في هذا الكون الفسيح، فيشرع له في جميع ميادين الحياة ما يعينه على السير في هذه الطريق.

ولأجل ذلك نجده يتدخل حتى في أفكاره ونواياه، ويلاحقه حتى في خياله الرحب، بل حتى في خطرات قلبه وأوهامه، فضلا عن طموحاته وأحلامه..

فهو يريد منه أن يكون عطوفا رحيما في موضع، وقاسيا وحازما بل وغليظا (وليجدوا فيكم غلظة) في موضع آخر. ثم هو يريده أن يحب تارة، وأن يبغض أخرى، وأن يتراجع في موضع، وأن يكون شجاعا مقداما في موضع آخر، وأن ينطلق في خياله في حالة، وأن يمحو حتى الصورة التي كان حضورها عفويا في حالة أخرى، إنه يريد أن يرافق الإنسان في كل موقع، وفي كل مجال، وأن يكون هو القائد والرائد وله كلمة الفصل، في كل صغيرة وكبيرة من قضاياه.

ومن جهة أخرى، إنه تعالى حين سخر هذا الكون كله لخدمة هذا الإنسان، ليستعين بما أودعه الله فيه على تحقيق أهدافه، وأراد له أن يعمر الأرض، فإنما أراد أن يتم ذلك من خلال شخصيته الإنسانية التي نمت وتكاملت وتتكامل بعين الله ورعايته وتربيته. وأراد أيضا لهذا التسخير أن ينبسط على مساحات شاسعة على هذا الكون الفسيح من موقع الهيمنة على نواميسه وتفعيلها إيجابيا في نطاق إعماره، واستكناه الكثير من أسراره..

على أن يتم ذلك كله من موقع الرعاية الإلهية المتمثلة بمقام الإمامة والنبوة التي تقف في موقع الرصد الدقيق، والمعرفة الواعية، والهادية، والقادرة على التدخل الحقيقي حيث تمس الحاجة إلى ذلك..

---

(١) سورة الانشقاق الآية ٦.

وذلك ينتج أنه لا بد من تزويد النبي (ص) والإمام (ع) الهادي والمهيمن على المسيرة بحاجاته ووسائله المؤثرة في نجاحه، وفي نجاح المهمة الموكلة إليه، فلا يتعاطى مع الأمور من موقع القاصر في معارفه وفي إمكاناته، لأن ذلك يجعل دوره دور الواعظ لا دور المربي والراعي، ولا دور المهيمن والحاكم الذي انزل الله معه الحديد فيه بأس شديد، ليقوم الناس بالقسط..

قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز) (١).

فلا غرو إذن في أن يعرف الأنبياء والأئمة لغات البشر، بل أن يعرفوا حتى لغات الطير والحيوان وغيرها.. بل لقد كان الحجر والشجر يكلمهم عليهم الصلاة والسلام، ويسبح الحصى في أيديهم..

ولا غرو أيضا أن تطوى لهم الأرض ليذهب الإمام السجاد (ع) من الكوفة إلى كربلاء لدفن أجساد الشهداء، بمعونة قبيلة بني أسد (٢)، ويأتي أمير المؤمنين علي (ع) بسرعة خاطفة من المدينة في الحجاز إلى مدائن كسرى في العراق ليتولى تجهيز سلمان الفارسي رحمه الله والصلاة عليه ودفنه.

وأن يذهب الإمام الجواد النقي (ع) من مدينة الرسول إلى خراسان ليجهز أباه الإمام الرضا عليه السلام ويصلي عليه، صلوات الله وسلامه عليهما.

إلى غير ذلك من موارد كثيرة حفل بها التاريخ القطعي، والحديث المتواتر، الذي لا ريب في صحته.. لأن ذلك هو من مسؤوليات النبي والإمام عليهما السلام.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) ولعل هذا ما يفسر لنا الحديث الذي يكثر السؤال عن معنا ه: (من رآنا فقد رآنا، فإن الشيطان لا يتمثل بنا) حيث يكون هذا القول قد جاء ليعالج شائعات ربما كان أعداء أهل البيت من الأمويين وغيرهم يطلقونها في مواجهة الناس الذين كانوا يخبرون عن مشاهداتهم للأئمة في المواضع البعيدة جدا عن محل سكناهم، كبني أسد وأهل المدائن. فيتخلص أولئك الحاقدون من الإحراجات بالقول: إن الذي رأيتموه شيطان. فيأتي الرد من قبل الأئمة عليهم السلام: (من رآنا فقد رآنا، فإن الشيطان لا يتمثل بنا).

أما قولهم عليهم السلام: (من رآنا فكذبوه) فربما يكون المراد به رد من يدعي رؤية الإمام قائم آل محمد عجل الله تعالى فرجه الشريف في أيام الغيبة بهدف تضليل الناس واستغلال طهارتهم، فأوصدوا (ع) هذا الباب الذي قد يحاول الطامحون أو المستغلون النفاذ منه إلى عقول الناس الأمر الذي تترتب عليه سلبيات كثيرة وخطيرة فيما يرتبط بسلامة المسيرة الإيمانية.

ولأجل مسؤولية هذا النبي عن كل شيء في هذه الحياة، كان لابد لسليمان (ع) أن يسمع ما تقوله النملة، وان يتعاطى مع الهدهد، ومع الريح، ومع الجن، ومع الجبال، من موقع مسؤوليته ليقدم نموذجا مصغرا للحكم الإلهي المطلوب تحقيقه على يد الأنبياء والأوصياء، وليقدم تجسيدا حيا لنوعية تعاطيهم ومستواه في هذا النطاق.

ومن جهة أخرى، إذا كنا نعلم أن الله سبحانه قد أرسل النبي للناس جميعا، حيث قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (١).

ويقول (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (٢)

وقال تعالى: (وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين) (٣).

فلا بد أن يكون هذا النبي قد أبلغ رسالته لكل من على وجه الأرض، لا لخصوص أهل الحجاز، أو أهل المنطقة العربية، ولا لخصوص الملوك الذين أرسل إليهم رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام.

إننا نقطع بأن النبي (ص) والإمام والأئمة من بعده قد أقاموا الحجة، وقاموا بمسؤولياتهم تجاه كل الناس من ملوك وغيرهم وقد تعاملوا معهم باللغات التي يفهمونها، وبالطريقة التي يتعقلونها.. ولا بد أن تكون لديهم القدرة على الاتصال بهم، وعلى الانتقال إليهم لهدايتهم ورعايتهم، وتدبير أمورهم، وحل مشاكلهم، لأنهم رعيتهم، فيكون النبي (ص) والامام (ع) هو المسؤول عنهم، والشاهد عليهم، والمعني بهم.

وحين يصعد هذا الإنسان إلى الأجرام السماوية، فإن عليه أن يكون معه، وأن يهيمن عليه من موقع المعرفة والقدرة على التصرف في أي موقع كان، وإلى أي جهة اتجه، حتى وهو خارج دائرة السماوات.. فيما لو استطاع هذا الإنسان أن ينفذ بعلمه ووسائله من أقطارها حسبما أشارت إليه الآية الكريمة التي تقول: (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات

----

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٢) سورة الفرقان الآية ١.

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٤ - وراجع سورة الانعام الآية ٩٠

والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) (١).
وذلك كله يفسر لنا ما ينقل عن النبي والأئمة عليهم السلام من كرامات وخوارق للعادات (٢).
ثم هو يفسر لنا قضية الإسراء والمعراج لنبينا الأكرم (ص) حسبما نطق به القرآن الكريم.
ويفسر لنا أيضا علم الأنبياء والأئمة بلغات الحيوان وشكواها لهم بعض ما تعانيه من مشاكل.
هذا فضلا عن معرفتهم عليهم السلام بلغات جميع البشر كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

إعادة توضيح وبيان

إنه ما دام أن المفروض بالإنسان هو أن يتعاطى مع جميع المخلوقات التي سخرها الله تعالى له، فقد كان لا بد من أن يخضع تعامله هذا، وكذلك تعامله مع نفسه ومع ربه ومع أي شيء آخر لضوابط تحفظه من الخطأ أو التقصير أو التعدي.؟
ولأجل قصور الإنسان الظاهر فقد شاءت الإرادة الإلهية من موقع اللطف والرحمة أن تمد يد العون له وأن تقوم بهدايته في مسيرته الطويلة المحفوفة بالمزالق والأخطار، هداية تامة تفضي به إلى نيل رضا الله سبحانه وتثمر الوصول إلى تلك الأهداف الكبرى السامية وتحقيقها وهي إعمار الكون وفق الخطة الإلهية، التي تريد من خلال ذلك بناء إنسانية الانسان وايصاله إلى الله سبحانه وتعالى حيث يصبح جديرا بمقامات القرب منه تعالى حيث الرضوان والزلفى.
وإذا كان كذلك فإنه يصبح واضحا: أن المثل القرآني الذي يتمثل في تجربة سليمان وداود عليهما السلام، إنما أراد أن يجسد ولو بصورة مصغرة هذه الحقيقة بالذات ليتلمس هذا الإنسان الأهداف الإلهية وهي تتجسد واقعا حيا ملموسا، وليس مجرد خيالات أو شعارات أو آمال وطموحات غير عقلانية ولا مسؤولة ولا حتى خدمات غير عادية.

\-

(١) سورة الرحمن الآية ٣٣.
(٢) راجع على سبيل المثال: السيرة الحلبية الجزء ٣ ص: ٢٨٣ - ٢٨٤ - والسيرة النبوية لدحلان مطبوع بهامش السيرة الحلبية الجزء ٣ ص ١٢٨ وما بعدها.

وهي أيضا تجسد معنى القيادة المطلوبة والصالحة لتحقيق هدف كهذا، حتى إن طائرا وهو الهدهد يضطلع بدور حيوي، وفي مستوى ملك بأسره، وكما أن أحد الحاضرين في مجلس سليمان يأتي بعرش بلقيس – بواسطة العلم الذي عنده من الكتاب – قبل أن يرتد الطرف.

كما أن هذه الشواهد القرآنية وتلك الكرامات والمعجزات النبوية قد رسخت هذه الحقيقة.

سواء بالنسبة لدور الإنسان في الكون وتعاطيه معه، أو بالنسبة إلى حقائق راهنة لا بد أن تأخذ دورها وحقها ويحسب حسابها على مستوى التخطيط وعلى مستوى الممارسة.

أو بالنسبة إلى الدور الذي لا بد لهذه القيادة أن تضطلع به في مقام الرعاية التامة، والهداية العامة. وما يتطلبه ذلك من طاقات، ومن إمكانات ومواصفات قيادية خاصة ومتنوعة، لا تحصل إلا بالرعاية والتربية الإلهية لها، ولا تكون إلا في نبي أو في وصي. وتصبح معرفة لغات الحيوانات، والوقوف على كثير من أسرار الخلقة، ونواميس الطبيعة ضرورة لا بد منها لهذه القيادة التي لا بد أن ترعى، وتوازن، وتربي، وتحفظ، لكل شيء حقه، وكيانه ودوره في الحياة، حيث لا بد لها من التدخل المباشر، في أحيان كثيرة لحسم الموقف، ولحفظ سلامة المسار، كما لا بد لها من توجيه الطاقات والاستفادة منها في الوقت المناسب وفي الموقع المناسب بصورة قويمة، وسليمة، كما كان الحال بالنسبة لنبي الله داود أو نبي الله سليمان عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.

النقاط على الحروف

وبذلك يتضح: أنه لا بديل عن قيادة المعصوم إذ إن كل القيادات الأخرى حتى إذا كانت عادلة لن يكون لها أكثر من دور الشرطي الذي ينجح في درء الفتنة حينا، ويفشل أحيانا.

أما إذا كانت قيادة منحرفة، فهناك الكارثة الكبرى التي عبرت عنها الكلمة المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام حيث يقول: (أسد

حطوم، خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم، خير من فتنة تدوم) (١).
وقد اتضح أيضا أن وجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان أمر حتمي وضروري حتى ولو كان غائبا ومستورا، لأن هذا الإمام يحفظ ويرعى كثيرا من المواقع والمواضع في هذا الكون المسخر للإنسان، والتي لولا حفظه ورعايته (ع) لها وقعت الكارثة، كما أنه لولاه لساخت الأرض بأهلها، كما ورد في الروايات المعتبرة.
وبذلك نعرف السر في أن الروايات قد ذكرت: (أنه لو بقيت الأرض بغير إمام)، أو (لو أن الإمام رفع من الأرض ولو ساعة لساخت بأهلها، وماجت كما يموج البحر بأهله) (٢).
وأصبح واضحا معنى الرواية التي تقول: (وأما وجه انتفاع الناس بي في غيبتي فكالشمس إذا جللها عن الأنظار السحاب).
واتضح أيضا سر معرفة الأئمة بعلوم الأنبياء، وسر أنهم يعلمون إذا أرادوا، وسر معرفتهم بألسنة جميع البشر وبألسنة أصناف الحيوان أيضا (٣) إلى غير ذلك من خصائص وتفصيلات علومهم (عليهم السلام) وفي حدود ولايتهم ورعايتهم لهذا الإنسان في هذا الكون الأرحب (٤).
وبذلك يتضح أنه لا مناص من الالتزام بالولاية التكوينية للأنبياء وأوصيائهم (ع).
إيضاح لا بد منه
ولكي تصبح الفكرة أكثر وضوحا فيما يرتبط بالمعجزات والكرامات نقول: هناك معجزات وكرامات في اتجاهات ثلاثة:
الأول: معجزات وخوارق للعادات قد ظهرت للنبي الأكرم (ص) وللأنبياء السابقين، وكذلك الأوصياء، تهدف إلى مواجهة الإنسان المكابر بالصدمة التي توصد أمامه كل أبواب التملص والتخلص، والتجاهل للواقع، ودلائله القاهرة وأعلامه الباهرة وحججه الظاهرة، بحيث لو لم تظهر المعجزة أو الكرامة لاستطاع

---

(١) البحار الجزء ٧٥ ص ٣٥٩. عن كنز الفوائد للكراجكي وراجع دستور معالم الحكم صفحة ١٧٠ وغرر الحكم ودرر الكلم ج ١ ص ٤٣٧ وج ٢ ص ٧٨٤.
(٢) راجع بصائر الدرجات ص ٤٨٨ - ٤٨٩ والكافي ج ١ ص ١٧٩ - ١٩٨ والغيبة للنعماني ص ١٣٨ - ١٣٩.
(٣) راجع كتاب بصائر الدرجات وفيه التفاصيل حول الأئمة عليهم السلام في جميع المجالات وراجع أيضا البحار للعلامة المجلسي والكافي ج ١ وغير ذلك.
(٤) راجع كتابنا الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) ج ٨ ص ٣٤٧ - ٣٦٠.

أولئك الشياطين أن يثيروا الشبهات المضعفة للدعوة والموجبة لزعزعة درجة الطمأنينة والوثوق لدى كثير ممن آمن بها، واطمأن إليها، أو يحدث نفسه بذلك.
فتأتي المعجزة لتثبت أولئك، وتشجع هؤلاء، ولتسحق أيضا كبرياء المستكبرين، وتكسر شوكتهم. ويكون بها خزي المعاند، وبوار كيد الماكر والحاقد.
الثاني: وثمة معجزات وكرامات، وخوارق عادات أكرم الله بها أنبياءه وأولياءه تشريفا لهم، وتجلة وتكريما، وإعزازا لجانبهم. وقد يستفيد منها المؤمن القوي سموا ورسوخ قدم في الإيمان، ومزيد بصيرة في الأمر، حيث تسكن نفسه، ويطمئن قلبه، على قاعدة قوله تعالى: (قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) (١). وعلى قاعدة (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) (٢).
ونلحق بهذا القسم ما يصدر عنهم عليهم السلام مما تقتضيه قواهم الروحية ومكانتهم النفسية وتعلقاتهم الغيبية، وهذا لا يسأل عنه إلا على نحو السؤال عن سبب صدوره عنهم لا عن سبب وجوده فيهم، وليس بالضرورة أن يكون فيه إظهار كرامة من الله لهم أو إعجاز يظهره الله تعالى على أيديهم، بل هو من آثار طبيعتهم البشرية الصافية، التي تقتضي هذا النوع من الآثار بل تقتضي ما هو أكثر منه.
الثالث: ذلك القسم الذي هو عبارة عن تجلي السنن والنواميس الواقعية التي تحكم المسار العام، فيما يرتبط بتبلور دور الشخصية القيادية الواقعية في نطاق هيمنتها على الواقع العام، من خلال تلك النواميس وعلى أساسها، فتجسد الكرامة والمعجزة بصفتها ضرورة حياتية في نطاق الهداية الإلهية على أساس نواميس الواقع، وتجلياتها حسب مقتضياته، الأمر الذي يعني أن تعامل النبي والإمام مع المخلوقات من موقع المدبر والراعي، والحافظ لها، باعتبارها جزءا من التركيبة العامة، حيث لا بد من التعامل معها على هذا الأساس.
وهذا القسم الأخير هو الذي يعنينا الحديث عنه هنا.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦.
(٢) سورة الإسراء الآية ١

نقاط لا بد من التأكيد عليها

إن جميع ما قدمناه يمثل جوهر البحث الذي أردنا اطلاع القارئ على موجز منه. ولكن لكي يتضح ما نرمي إليه بصورة أوفى وأصفى، لا بد من وضع النقاط على الحروف في الأمور التالية:

١ - حجم هذا الكون حسب البيان الإلهي.

٢ - الآيات الدالة على تسخير الموجودات للإنسان.

٣ - هذا الكون ليس جمادا، بل لديه درجة من الشعور والإدراك.. وذلك يعني أن ثمة مسؤولية ذات طابع معين يتحملها هذا الإنسان في تصرفاته مع كل ما فيه.

٤ - نموذج تجسدت فيه الخطة الإلهية فيما يرتبط بالحاكمية التي يريد الله أن يوصل الإنسان إليها - وهو قصة سليمان (ع).

حجم الكون حسب البيان الإلهي

واستطرادا نقول: إن سعة السماوات والأرض التي سخر الله جميع ما فيها لبني الإنسان هي فوق حدود التصور، وأكثر بكثير مما تشير إليه الإكتشافات التي تعتمد وسائل الرصد والإكتشاف المتطورة جدا في هذا العصر.

ونوضح ذلك على النحو التالي:

إن لغة العرب، قد وضعت في بداياتها لمعان حسية أو قريبة من الحس، فلم تكن قادرة على تحمل المعاني الدقيقة والعميقة إلا بالاستعانة، بأساليب بيانية متنوعة باستطاعتها توجيه الفكر والخيال باتجاه الأعماق والآفاق، ليقتنص المعنى، أو يتلمسه بصورة أو بأخرى.

فكانت الكنايات والمجازات، وكان التطعيم للمعاني الحسية بمعان إيمائية، تعتمد على حالات الألفاظ، وطبيعة التراكيب المختلفة وخصوصياتها، حسبما تشير إليه - جزئيا - علوم البلاغة.

ولكن كل ذلك لم يف أيضا بالمطلوب، فكان لا بد من ضم المعاني بعضها إلى بعض في تراكيب متعددة، تشير كل منها إلى جزء أو إلى خصوصية في المعنى المقصود بيانه.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك، ما روي، من أن الإمام عليا عليه السلام قد استنبط أقل الحمل من الجمع بين آيتين قرآنيتين. إحداهما تقول: (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) (١)، والأخرى تقول: (وفصاله في عامين) (٢) فيكون أقل الحمل ستة أشهر.

أما بالنسبة لحجم السماوات التي سخر الله كل ما فيها لهذا الإنسان. والتي ورد في الحديث عن النبي (ص):

(ما السماوات السبع في الكرسي الا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة) (٣).

فقد استخدم لبيان حجمها وسعتها تراكيب وكنايات متنوعة، فبين في بعض الآيات: أن السماوات سبع، ثم بين أن هناك سماء دنيا، أي قريبة وواطئة يقابلها سماوات عالية وبعيدة.

وتحدث مشيرا إلى حجم السماء الدنيا والواطئة والقريبة بأسلوب آخر، حينما أشار إلى أنها هي التي تستوعب الكواكب، وتضم النجوم التي يصل نورها إلينا، حتى لو بقي يسير ملايين السنين الضوئية، فكل ما يصل نوره - مهما بعد - فهو من السماء الدنيا.

قال تعالى: (انا زينا السماء بزينة الكواكب) (٤).

وقال: (فقضاهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم) (٥).

وقال سبحانه: (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين) (٦).

وقال تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم: كيف بنيناها وزيناها) (٧).

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

(٢) سورة لقمان آية: ١٤.

(٣) راجع: البحار: ج ٥٧ ص ٥ و ١٧ وج ٧٧ ص ٧١ و ٧٣ عن الآمالي للطوسي ج ٢ ص ١٣٨ وفي هوامشه عن معاني الأخبار ص ٣٣٣ وعن الخصال ج ٢ ص ١٠٣ و ١٠٤ والدر المنثور ج ١ ص ٣٢٨.

(٤) الصافات، آية ٦.

(٥) سورة فصلت الآية ١٢ وراجع سورة الملك الآية ٥.

(٦) سورة الحجر، الآية ١٦.

(٧) سورة ق الآية ٦.

فالسماء الدنيا إذن أوسع مما نظن، وربما تصل امتداداتها إلى ما لا يعلم من السنين الضوئية، إذا كان ثمة كواكب ونجوم يمكن أن يصل ضوؤها إلينا، ونصير قادرين على رؤيتها. وأصبحت تزين هذه السماء، وتعطيها المزيد من الرواء والبهجة والبهاء.

فإذا كان هذا حال السماء الدنيا والقريبة، فما حال سائر السماوات: الثانية، ثم الثالثة، وهكذا إلى السابعة؟!

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى حقيقة علمية أخرى تباريه وتجاريه، وهي: أن السماء في اتساع مستمر، كما قال تعالى: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) (١).

ثم إنه تعالى قد قرر في آية أخرى: أن هذا الإنسان قادر على اختراق جميع السماوات، والخروج منها جميعا إلى عالم جديد، لم يبين ما هو، وما هي طبيعته، وآفاقه، وامتداداته. غير أنه أشار إلى أن هذا الاختراق سيواجه بصعوبات وموانع كبيرة وخطيرة، لن يمكن التغلب عليها إلا بالإعداد، والحصول على القوة، وامتلاك قدرات فائقة وكبيرة.

ثم بين لنا طبيعة هذه الحواجز والعوائق ونوعها، ليفهمنا بأسلوب (بيان الواقع بتفاصيله): أن الكلام ليس مسوقا على سبيل الفرض والإدعاء بهدف التعجيز، بل هو الحقيقة التي لا بد أن تقع في دائرة طموحات هذا الإنسان، وفي متناول أطماعه حين يريد الله له أن يفتح عينيه على هذا الكون الرحيب، ويثير شهيته للتعامل معه، وللتسلط والهيمنة عليه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك كله في الآية الكريمة التي تقول: (يا معشر الجن والإنس، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (٢).

ثم قدم نموذجا عمليا لإمكان هذا الاختراق لآفاق السماوات، وحدوثه بالفعل، وذلك في قضية المعراج برسول الله (ص). وهي قضية مسلمة عند المسلمين.

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

(٢) سورة الرحمن، الآية ٣٣ - ٣٥.

ومعنى ذلك هو: أن البشرية بالنسبة لاكتشاف أسرار الكون ومعرفة آفاقه الرحبة وامتداداته الهائلة ربما هي اليوم لا تزال في عصرها الحجري السحيق. فكيف بالنسبة لتسخير ما في السماوات والأرض، والهيمنة عليه.

تسخير المخلوقات للإنسان في الآيات القرآنية

وقد أشارت الآيات القرآنية إلى تسخير الموجودات للإنسان ويتضح ذلك بالتأمل في الآيات التالية:

(ألم تروا: أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (١).

(وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعا منه) (٢).

(وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٣).

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) (٤).

الشعور والإدراك لدى المخلوقات

ثم إن الإنسان يريد أن يتعامل مع عالم ليس جمادا بقول مطلق، وإنما كل الموجودات فيه تمتلك درجة من الشعور والإدراك، وإن كنا لا نعرف كنهه، ولا حدوده.

قال تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات، والأرض، الجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، انه كان ظلوما جهولا) (٥).

فليلاحظ كلمة: (وأشفقن منها) فإن الاشفاق يرتبط بالمشاعر، لا في عالم الإدراك وحسب. وإضافة كلمة (والجبال) في الآية تظهر عدم صحة التفسير

----

(١) سورة لقمان الآية ٢٠.
(٢) سورة الجاثية الآية ١٣.
(٣) سورة إبراهيم: الآيات ٣٢ - ٣٤.
(٤) سورة النحل من آية ١٤ حتى آية ١٨..
(٥) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

الذي يقول بأن المقصود هو العرض على (أهل السماوات والأرض) من ملائكة وجن وغيرهما لو وجد.

ولو سلمنا جدلا صحة هذا التفسير فإن الآيات الأخرى التي ذكرناها، تكفي في إثبات ما نرمي اليه.

وقال سبحانه عن داود (ع): (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كل له أواب) (١).

وقال في آية أخرى عن داود أيضا: (يا جبال أوبي معه، والطير..) (٢) والمراد بالتأويب ترجيع التسبيح على ما يظهر.

وقال تعالى: (ويسبح الرعد بحمده) (٣).

وقال تعالى: (والنجم والشجر يسجدان) (٤).

وقال تعالى: (تسبح له السماوات السبع، والأرض، ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) (٥).

ولو كان المراد التسبيح التكويني، بمعنى تنزيه الله سبحانه فلا يبقى مجال لقوله: (ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

وتسبيح ما في السماوات والأرض، مذكور في عدة آيات (٦).

وقال سبحانه: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا، من خشية الله) (٧).

وقال تعالى: (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، وكثير من الناس) (٨).

---

(١) سورة ص الآية ١٨ - ١٩.
(٢) سورة سبأ الآية ١٠.
(٣) سورة الرعد الآية ١٣.
(٤) سورة الرحمن الآية ٦.
(٥) سورة الإسراء الآية ٤٤.
(٦) راجع: سورة الحشر الآيات ١ و ٢٤ والتغابن ١ والصف ١ والجمعة ١ والحديد ١.
(٧) سورة الحشر الآية ٢١.
(٨) سورة الحج الآية ١٨.

وقال تعالى: (ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض، والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه) (٢).
فكل ما تقدم يشير بوضوح إلى أن هذه المخلوقات تملك حالة شعورية وإدراكية معينة، وليست مجرد جمادات أو حيوانات خاوية.
نماذج حية من تسخير الموجودات العاقلة
فإذا كان الله سبحانه قد سخر المخلوقات لهذا الإنسان، وكانت هذه المخلوقات تمتلك صفة الشعور والإدراك، ولها أعمال عقلانية، ومرتبطة بالشعور، ومستندة إليه، وهي على درجة من الإدراك، فما علينا الا أن نذكر هنا نموذجا قرآنيا حيا، وواقعيا لهذا التسخير تجلت فيه طريقته، وأبعاده ومجالاته بصورة ظاهرة، حيث ذكرت الآيات أن الله سبحانه قد سخر الريح، والطير، والجبال، والجن، لسليمان، وداود عليهما السلام.
قال تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن، والطير، وكنا فاعلين) (٣).
وقال تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وكنا بكل شيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له، ويعملون عملا دون ذلك) (٤).
(إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أواب) (٥).
وقال تعالى عن سليمان: (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد) (٦).
وقال تعالى: (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) (٧)
نلاحظ كلمة: (فهم يوزعون). أي يمنعون.

----
(٢) سورة النور الآية ٤١.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٤١.
(٤) سورة الأنبياء الآيات ٨١ - ٨٢.
(٥) سورة ص الآيتان ١٨ - ١٩.
(٦) سورة ص الآيات ٣٦ - ٣٨.
(٧) سورة النمل الآية ١٧.

قصة سليمان وداود عليهما السلام نموذج فذ

وإذا راجعنا سورة النمل، فإننا نجد فيها نماذج فذة عن تعاطي سليمان وداود (ع) مع ما آتاهما الله سبحانه في هذا المجال. وأول ما يواجهنا في الحديث عنهما عليهما السلام أنه تعالى قد وفر لهما الأدوات الضرورية للتعامل مع هذه المخلوقات في نطاق رعايتها وهدايتها وتوجيهها. فنجدها تبدأ الحديث بأن الله قد آتاهما علما، وعلما منطق الطير، وأوتيا من كل شيء، ثم ذكرت الآيات نماذج تطبيقية لهذا العلم، وللمعرفة بجميع الألسنة.

ثم لتأثير ما آتاهم الله سبحانه في إدارة الأمور، وتوجيهها ورعايتها، والهيمنة عليها بصورة حيوية وبناءة وإيجابية، لا تأتي إلا بالخير، ولا تؤدي إلا إلى الفلاح.

فقد قال تعالى: (ولقد آتينا داود وسليمان علما، وقالا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورث سليمان داود، وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن، والإنس، والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على وادي النمل، قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكا من قولها) (١).

مع آيات سورة النمل

وقد أظهرت الآيات المتقدمة كيف تم توظيف كل القدرات المادية وغيرها في تحقيق رضا الله سبحانه، وبناء الحياة وتكاملها باتجاه الأهداف الإلهية، ووفقا للخطة الربانية.

بدءا من قصة تبسم سليمان من قول النملة، مرورا بقصة الهدهد والدور الذي قام به، والإتيان بعرش بلقيس من قبل أحد أتباع سليمان (ع) بعلم من الكتاب قبل ارتداد الطرف، ثم تنكير عرشها لها، وانتهاء بأمرها بدخول الصرح الذي حسبته لجة، مع أنه صرح ممرد من قوارير.

وقد تجسد ذلك كله من خلال حاكمية وإمامة سليمان عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام، ورعايته وهدايته التامة والشاملة.

وقد كانت هذه الهداية والرعاية مستندة إلى علم آتاه الله إياه، وإلى إمكانات ذات صفة شمولية. (وأوتينا من كل شيء) فلم يكن ثمة أي قصور في القدرات الذاتية،

----

(١) سورة النمل الآيات ١٥ - ١٩.

فقد علم سليمان منطق الطير، وأوتي من العلم ما يكفيه في مهمته الكبيرة والخطيرة.
كما أنه لم يكن ثمة نقص في الإمكانات المادية، كما أشرنا وكان سليمان أيضا يحظى برعاية الله تعالى له، ولطفه به، وتسديده وتأييده له، في درجة العصمة وغير ذلك.
فلم يبق والحالة هذه إلا المبادرة إلى القيام بالدور المرصود له في نطاق الاستفادة الواعية والإيجابية والبناءة من كل المخلوقات المسخرة لهذا الإنسان، وتوجيهها لتؤدي دورها في الحياة كاملا غير منقوص.
وهذا ما حصل بالفعل، فكانت المعجزة الكبرى، وكان الإنجاز العظيم وهذا ما سوف يتحقق بحول الله وقدرته بصورة أكثر رسوخا وشموخا وعظمة في عهد ولي الأمر قائم آل محمد عجل الله تعالى فرجه الشريف. وجعلنا من جملة العاملين في نصرته والمدركين لأيامه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين المعصومين.

العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي
خلفيات
كتاب مأساة الزهراء
الجزء الثاني
دار السيرة
بيروت – لبنان

المقصد الثالث:
مع الأنبياء والرسل
(عليهم السلام)

القسم الأول:
أنبياء الله تعالى ورسله
(عليهم السلام)

بداية

قد ذكرنا في المقصد السابق ما يتضح به الصورة العامة لدى البعض حول النبوة وحقيقتها وخصوصياتها، وهي تشكل القاعدة الفكرية والمنهج العقيدي لديه بالنسبة للخط العام الذي يحكم مسيرة الأنبياء (عليهم السلام) وحركتهم وأساليبهم في التعاطي مع القضايا ومع الناس، وعلى هذا الأساس سيكون تفسيره لجميع ما نقل من تصرفات الأنبياء (عليهم السلام) ومواقفهم في القضايا المختلفة ما يوحي مسبقا بالنتيجة التي سيخرج بها عند تعرضه لأمثال هذه الأمور.

ومن هنا فإن المقصد الثالث معقود لذكر جملة من كلمات البعض التي ذكرها في سياق تفسير الآيات المرتبطة بقصص الأنبياء (عليهم السلام) بغرض اظهار ما فيها من خلل وزلل.

فإلى ما يلي من مطالب وموارد..

الفصل الأول:
آدم ونوح
(عليهما السلام)

١٩٨ – معصية آدم كمعصية إبليس.
١٩٩ – الفرق بين آدم وإبليس هو في الإصرار والتوبة.
٢٠٠ – آدم ينسى ربه وينسى موقعه منه.
٢٠١ – آدم استسلم لأحلامه الخيالية وطموحاته الذاتية.
٢٠٢ – آدم طيب وساذج: لا وعي لديه.
٢٠٣ – آدم يعيش الضعف البشري أمام الحرمان.
٢٠٤ – آدم يمارس الرغبة المحرمة.
٢٠٥ – الدورة التدريبية لآدم عليه السلام.

إن جميع النقاط السابقة قد سجلها البعض في كلماته المكتوبة، وليست مجرد استنتاجات أو افتراضات.. فتلك هي ملامح صورة آدم النبي المبعوث من قبل الله سبحانه باعتراف وتصريح ذلك البعض نفسه. فلنقرأ معا كلماته التالية، لنجد كل هذه المعاني تتحدث عنها الكلمات بصراحة ووضوح. إنه يقول:

".. وغفر لهما وتاب عليهما، ولكنه أمره بالخروج من الجنة، كما أمر إبليس بالخروج منها، لأنهما عصياه كما عصاه، وإن كان الفرق بينهما: أنه ظل مصرا على المعصية، ولم يتب، فلم يغفر له الله، بينما وقف آدم وزوجته في موقف التوبة إلى الله، فغفر لهما " (١).

ويقول:

----
(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٤.

" فانطلقا إليها بكل شوق ولهفة، وأطبقت عليهما الغفلة عن مواقع أمر الله ونهيه، لأن الإنسان إذا استغرق في مشاعره، وطموحاته الذاتية، واستسلم لأحلامه الخيالية، نسي ربه، ونسي موقعه منه ".

ويقول:

" كيف نسيا تحذير الله لهما؟ كيف أقبلا على ممارسة الرغبة المحرمة؟ " (١).

ويقول عنه:

" كان يعيش الضعف البشري أمام الحرمان " (٢).

٢٠٦ - كان عاصيا ولم يكن مكلفا؟؟؟.

ويقول:

" فالله أراد أن يدخل آدم في دورة تدريبية، ولذلك لم يكن أمرا جديا. ولكنه كان أمرا امتحانيا، اختباريا تجريبيا. وكان أمرا تدريبيا، تماما كما يتم تدريب العسكري، ولذلك فالجنة لم تكن موضع تكليف وما يذكر لا يرتبط بالعصمة أبدا، نعم إن الأنبياء من البشر وهم يعيشون نقاط الضعف، ولكن نقاط الضعف التي لا تدفعهم إلى معصية الله، أما مسألة الجنة وقصة آدم في الجنة فهذا خارج عن نطاق التكليف. لقد أراد الله أن يدخله في دورة تدريبية حتى يستعد للصراع القادم عندما ينزل هو وإبليس إلى الأرض ليكون بعضهم لبعض عدوا حتى يتحرك في مواجهة العداوة التاريخية " (٣).

ويقول:

" الله أراد لآدم أن يمر في دورة تدريبية في مواجهة إبليس، لأن آدم طيب وساذج، ولم يدخل معترك الحياة " (٤).

وقفة قصيرة

تلك هي الصورة التي قدمها ذلك البعض عن النبي آدم عليه السلام في بعض جوانب شخصيته، فهل ذلك كله يليق نسبته إلى نبي من أنبياء الله؟ بل هل يرضى أحد من الناس بأن ينسب إليه بعض من ذلك، كأن يقال عنه: إنه ساذج أو يمارس الرغبة المحرمة أو غير ذلك مما تقدم؟..

ونحن قبل أن ننتقل إلى الحديث عن موارد أخرى نسجل ما يلي:

----

(١) نفس المصدر ص ٣٢.

(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٧١.

(٣) الندوة ج ١ ص ٣١٥.

(٤) الموسم عدد ٢١ - ٢٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ وعن كونها دورة تدريبية وكيف ذلك؟ راجع من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٧٦ - ١٧٧ والندوة ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٥.

إن الموافق لأصول العقيدة أن يقال: إن معصية آدم ليست كمعصية إبليس، وان تصرف آدم عليه السلام لم يكن تمردا على إرادة الله سبحانه.. وهو المروي عن أئمة أهل البيت (ع).

كما أن الفرق بين آدم (ع) وإبليس (لعنه الله) ليس هو في التوبة وعدمها، وإنما هو في خصوصيات ذاتية، وملكات وحوافز لا تدع مجالا لقياس أحدهما بالآخر..

كما أننا لا نوافق على التعبير بأن آدم (ع) قد نسي ربه سبحانه وتعالى، ونسي موقعه منه، فلم يكن آدم النبي لينسى ربه، بل كان دائم الحضور معه، وفي غاية الانقياد والاستسلام له.. كما هو حال الأنبياء والأولياء سلام الله عليهم.

تفسير الآيات

ونرى أن المناسب لأصول العقيدة هو تفسير الآيات التي تحكي قصة آدم على النحو التالي:

١ - إن آدم عليه السلام حين نهاه الله سبحانه عن الأكل من الشجرة، (قد عرف من خلال ذلك وجود مضرة من أكلها يصعب عليه تحملها، لكن إبليس قال له: إن هذا الضرر وإن كان صعبا، ولكن لو تحملت ذلك الضرر فثمة نفع عظيم ستحصل عليه وهو الخلود.

وليس من حق آدم أن يكذب أحدا لم تظهر له دلائل كذبه، فكان من الطبيعي أن يقبل آدم منه ما أخبره به، ورضي أن يتحمل هذه الصعوبة البالغة من أجل ذلك النفع، وكانت له الحرية في أن يقرر ويختار هذا النفع في مقابل ذلك الضرر، وتلك الصعوبة البالغة، أو لا يختار ذلك.

وهذا كما لو أخبرك طبيب بأن جلوسك في الشمس قد يتسبب لك بآلام حادة في الرأس، ولكنه سيضفي أثرا جماليا على لون البشرة، أو يشفيك من مرض جلدي معين. أو كما لو أجريت لك عملية زرع شعر، أو عملية تجميلية، أو أعطاك الطبيب دواء مرا، للتخلص من وجع معين، فلم تطعه، أو ما إلى ذلك.. مما يتوقف على الألم والعناء الشديدين، فإن فعلت هذا الأمر تحصل على ذاك الامتياز، وإن أردت

السلامة وعدم التعرض للأوجاع والمتاعب، فلن تحصل على شيء.
٢ - إنك حين تفعل ذلك الأمر لا تكون متمردا على إرادة الذي نهاك عن الفعل ليرشدك إلى مشقته، وليجنبك التعب والشقاء.. ولا تكون بذلك خارجا عن زي العبودية والانقياد، ولا مخلا بمولوية سيدك وآمرك.
وهذا كما لو قال السيد لعبده أو الأب لولده: لا تركض حتى لا تتعب،) ثم قال له رفيقه: أركض لتصبح أقوى، فإذا علم بالتعب، وعلم بالقوة، فإن اختياره العمل بقول رفيقه لا يعني التمرد على إرادة أبيه.
٣ - في هذه الصورة الأخيرة يصح أن يقال: عصيت أبي فتعبت وعرقت، ولو أنك لم تقبل بشرب الدواء المر، أو لم تبادر إلى إجراء عملية التجميل، فإنه يصح أن يقال: إنك عصيت أمر الطبيب.
٤ - وحين لا يتحقق ذلك الهدف الذي توخى الفاعل الحصول عليه، وهو الحصول على الخلد، أو الحصول على بعض المنافع، فمن الصحيح أن يقال: إنه عصى فغوى، أي لم يحقق مراده ولم يصل إلى هدفه، بل غوى عنه ومال.
٥ - أما سذاجة آدم فلا ندري كيف يكون هذا النبي ساذجا وبسيطا مع أن المفروض بأي مؤمن أن يكون كيسا فطنا، فهل هي سذاجة من أصل الخلقة؟! أم هي ناشئة عن نقص في إيمان آدم؟!
ولعل هذا البعض قد حسب أن عدم معرفة آدم (ع) بأمر خفي، لم يجد السبيل إلى معرفته، نوع من السذاجة والبساطة.. مع أن هناك فرقا بين السذاجة التي تعني التطلع إلى الأمور بنظرة حائرة بلهاء كما سيأتي في كلام نفس هذا البعض عن إبراهيم (أبي الأنبياء) عليه السلام أو تعني نوعا من القصور في الوعي والفهم، كما يقول عن آدم (ع)، وصرح به في خطبة ليلة الجمعة بتاريخ (٢٩ - ج ٢ - ١٤١٨ هـ) وبين عدم الاطلاع على الواقع لسبب أو لآخر.
وكيف يكون آدم ساذجا وقد خلقه الله تعالى بيديه وعلمه الأسماء كلها، وباهى به ملائكته، وأثبت لهم أنه أوسع علما ومعرفة منهم، وأمرهم أن يجعلوه قبلة في سجودهم لله سبحانه، وذلك تكريما منه تعالى لآدم وتعظيما له؟ أم يعقل أن الله سبحانه - بالرغم من ذلك كله - لم يتقن خلق آدم، ولم

يتدارك مواقع الخلل فيه، وهو الذي يقول: (تبارك الله أحسن الخالقين (؟!
٦ - أما الدورة التدريبية التي تحدث عنها بالنسبة لآدم، ولغيره من الأنبياء، فنحن نخشى أن يكون ثمة رغبة في الحديث عن دورات مماثلة لعيسى، وللإمامين الجواد والهادي والإمام المهدي عليهم السلام!! حيث، إن تصديهم للمقامات الإلهية لم تسبقه دورة تدريبية فيها أوامر امتحانية وعسكرية.
إلا أن يقال: إن إمامتهم لم تبدأ في ذلك السن، وبقي مقام النبوة والإمامة شاغرا إلى أن انتهت دوراتهم التدريبية. ولعل ما يعزز هذا الاحتمال ما قالوه من:
" أن غيبة الإمام المهدي عليه السلام إنما هي ليكتسب خبرة قيادية ".
فلما أوردنا عليهم الإشكال قالوا:
" إن الشهيد الصدر هو الذي قال ذلك.. ".
فراجعنا كلام الشهيد الصدر، فوجدناه يقول:
" وعلى هذا الأساس نقطع النظر مؤقتا عن الخصائص التي نؤمن بتوفرها، في هؤلاء الأئمة المعصومين.. " (١) أي: من أجل تقريب الفكرة لمن لا يعتقد بما نعتقده، كذا وكذا...
وهكذا يتضح: أن آيات القرآن لا تريد أن تنسب لآدم (ع)، ما ينسبه إليه البعض من هنات ونقائص.
٢٠٧ - استسلم آدم ولم يشعر أن استسلامه يمثل تمردا على الله وعصيانا لإرادته.
٢٠٨ - آدم يسقط إلى درك الخطيئة.
٢٠٩ - آدم أصبح منبوذا من الله.
٢١٠ - أراد الله تدريب آدم في مواجهة حالات السقوط ليتنبه لأمثالها.
٢١١ - أراد الله تدريب آدم ليعي كيف تتحرك الخطيئة في نفسه في المستقبل.
٢١٢ - آدم لا يحمل أية فكرة فطرية عن التوبة فتلقاها من الله.
٢١٣ - الأقرب أن الكلمات التي تلقاها آدم ليست هي أسماء الأئمة.
٢١٤ - الله يتحدث عن آدم في كل مورد للإيحاء بالضعف الإنساني.
٢١٥ - آدم يسقط أمام تجربة الإغراء فيتعرض للحرمان الأبدي.
٢١٦ - آدم وتجربة الانحراف بتسويل إبليس.
٢١٧ - آدم لم يأخذ الموضوع مأخذ الجدية والاهتمام ولم يتعمق في وعيه.
٢١٨ - آدم انحرف من موقع الغفلة وأجواء الحلم لا من موقع الوعي.

---
(١) راجع كتاب بحث حول المهدي ص ٤٢ وما بعدها.

٢١٩ - آدم لم يفكر جيدا.
٢٢٠ - آدم استسلم للجو الخيالي المشبع بالأحاسيس الذاتية المتحركة مع الأحلام.
٢٢١ - آدم ابتعد عن خط الرشد.
٢٢٢ - معصية آدم معصية تكليف (لا إرشاد).
٢٢٣ - كان أمرا إرشاديا (لا تشريعيا).
٢٢٤ - شعور آدم وحواء بالخزي والعار.
٢٢٥ - آدم غير متوازن.
٢٢٦ - يخصفان من ورق الجنة للتخلص من العار.
٢٢٧ - إبليس أسقط آدم لئلا يبقى هو الساقط الوحيد في عملية التمرد على الله.
٢٢٨ - جريمة آدم تمثلت له في مستوى الكارثة.
٢٢٩ - إبليس نجح في إثارة الضعف في شخصية آدم.
٢٣٠ - آدم عاد إلى الله في عملية توبة وتصحيح.
٢٣١ - آدم أساء إلى نفسه بانحرافه عن خط المسؤولية في طاعة الله.
٢٣٢ - إبليس أوصل آدم وحواء إلى مرحلة السقوط، بسبب الغرور الذي أوقعهما فيه.
٢٣٣ - سقط آدم في الامتحان، وأخفق في التجربة.
٢٣٤ - إبليس قاد آدم إلى الموقف المهين.
٢٣٥ - خطيئة آدم أبعدته عن الله.
٢٣٦ - آدم والشجرة المحرمة، والرغبة المحرمة.
٢٣٧ - إبليس هبط بقيمة هذا المخلوق الذي كرمه الله.
٢٣٨ - انحراف آدم طارئ بسيط.
٢٣٩ - آدم ثاب إلى رشده ودخل عالم الإستقامة من جديد.

يقول البعض:

".. وتبدأ الآيات من جديد في هذه السورة، لتضع الإنسان أمام بداية الخلق، ليعيش التصور الإسلامي عن تكريم الله للإنسان، وعن شخصية إبليس في خصائصه الذاتية، وفي طريقته في التفكير، وفي مخططاته من أجل إغواء الإنسان وإضلاله من خلال عقدة الكبرياء المتأصلة فيه.. ثم في محاولاته الناجحة، في البداية - فيما قام به من إثارة نقاط الضعف في شخصية آدم - حتى أخرجه وزوجه من الجنة.. ثم.. في عودة آدم إلى الله في عملية إنابة وتوبة وانطلاقة تصحيح، وموقف قوة في حركة الصراع مع إبليس وذلك من أجل أن يعيش الانسان الوعي لدوره المتحرك في آفاق الصراع مع الشيطان في كل مجالات حياته.. فكيف عالجت هذه الآيات القصة..؟ " (١).

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٢٢ و ٢٣.

ويقول أيضا:
" وأراد الله أن يوحي إلى آدم بكرامته عليه، فيما يمهد له من سبل رضوانه ونعمه.. فقال له.. (اسكن أنت وزوجك الجنة) وخذا حريتكما في التمتع بأثمارها فيما تختاران منها مما تستلذانه أو تشتهيانه.. (فكلا من حيث شئتما) لا يمنعكما منه مانع (ولا تقربا هذه الشجرة) فهي محرمة عليكما.. هذه هي إرادة الله التي انطلقت
من موقع حكمته في توجيهكما إلى أن تواجها المسؤولية من موقع الالتزام والإرادة، في الامتناع عن بعض ما تشتهيانه من أجل إطاعة الله فيما يأمر به أو ينهى عنه فلا بد من تجربة أولى لحركة الإنسان في عملية الإرادة.. فلتبدأ تجربتكما الأولى.. في هذه الأجواء الفسيحة التي منحكما الله فيها كل شيء.. مما يجعل من النهي الصادر منه إليكما، تكليفا ميسرا لا صعوبة فيه ولا حرج.. فبإمكانكما السير في نقطة البداية من أيسر طريق.. فلا تقربا هذه الشجرة (فتكونا من الظالمين) الذين يظلمون أنفسهم، ويسيئون إليها بالانحراف عن خط المسؤولية في طاعة الله.. ولم يكن لديهما أي حافز ذاتي يدفعهما إلى المعصية، لأنهما لا يشعران بالحاجة إلى هذه الشجرة بالذات.. ما دامت الشجرة لا تمثل شيئا مميزا في شكلها وثمرها.. فليست هناك أية مشكلة في ذلك " (١).
ويقول أيضا:
" ولم يكن عندهما أية تجربة سابقة في مخلوق يحلف بالله ويكذب، أو يؤكد النصيحة ويخون.. أو يغش، فصدقاه، وأقبلا على تلك الشجرة المحرمة يذوقان من ثمرتها ما شاءت لهما الرغبة أن يذوقا.. (فدلاهما بغرور) أي أنزلهما عن درجتهما الرفيعة فأوصلهما إلى مرحلة السقوط بسبب الغرور الذي أوقعهما فيه، فيما استعمله من أساليب الخداع (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوأتهما) وشعرا بالعري.. الذي بدأ يبعث في نفسيهما الشعور بالخزي والعار، في إحساس جديد لم يكن لهما به عهد من قبل.. وقيل.. إنهما كانا يلبسان لباس أهل الجنة فسقط عنهما بسبب المعصية.. (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة..) ليستراها في إحساس بالحاجة إلى ذلك، بطريقة غريزية من خلال شعورهما بالدور الخجول للعورة.. أو لأمر آخر يعلمه الله.. وسقطا في الامتحان وأخفقا في التجربة.. وبدأ هناك شعور خفي بالخيبة والمرارة.. فيما بدا لهما أنهما ارتكبا ما لا يجب أن يرتكباه.. وربما تذكرا نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة.. وربما يكونان قد عاشا بعض الحيرة فيما يفعلانه في موقفهما هذا.. فهذا أمر جديد لا يعرفان كيف يتصرفان فيه.. وهنا جاءهما النداء من الله مذكرا ومؤنبا (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة..) فكيف خالفتما هذا النهي وعصيتماني.. ما هي حجتكما في

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٢٨ و ٢٩.

ذلك؟.. هل هي وسوسة الشيطان..؟ وكيف لم تنتبها إلى وسوسته..؟ ألم أحذركما منه (وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) يضمر لكما الحقد والعداوة والحسد.. منذ رفض السجود مع الملائكة وخالف أمر الله بذلك.. ووقف وقفة التحدي للإنسان ليغويه ويضره ويقوده إلى عذاب السعير.. وها أنتما تريان كيف قادكما إلى هذا الموقف المهين.. وتمثلت لهما الجريمة في مستوى الكارثة.. كيف نسيا تحذير الله لهما.. كيف أقبلا على ممارسة الرغبة المحرمة وغفلا عن عداوة الشيطان لهما.. وكيف خالفا أمر الله الذي خلقهما وانعم عليهما.. وبدءا يعيشان الندم كأعمق ما يكون.. في إحساس بالحسرة والمرارة والذعر.. ولكنهما لم يستسلما لهذه المشاعر السلبية طويلا ولم يسقطا في وهدة اليأس.. فلهما من الله أكثر من أمل " (١).

ويقول مشيرا إلى إحساس آدم بالخزي والعار:

" (ينزع عنهما لباسهما) الذي يستر عورتيهما.. فيما ألقى الله عليهما من ألوان الستر (ليريهما سوآتهما) ليعيشا الإحساس بالخزي والعار " (٢).

ويقول أيضا مشيرا إلى نفس الموضوع:

".. وجاءت هذه الآيات التي تبدأ النداءات بكلمة (يا بني آدم) للإيحاء إليهم بالتجربة الحية التي عاشها آدم مع إبليس.. لئلا يكون التفكير في المسألة في المطلق.. بل يكون من موقع التاريخ الحي.. وقد استوحت الآيات قصة العري الذي شعر به آدم بسبب معصيته، في حالة من الإحساس بالخزي والعار.. لتوجه بنيه إلى النعمة التي أنعم الله بها عليهم، فيما خلق لهم من اللباس الذي يصنعونه من أصواف الأنعام وأوبارها وشعورها " (٣).

ويقول أيضا:

".. كانت أول تجربة لهما في الوجود.. وانسجما مع التجربة في بساطة وعفوية.. وكان الشيطان لهما بالمرصاد. فقد عرف أن الفكر الذي يملكه الإنسان لا يقوى على مواجهة التحديات إلا من خلال التجارب المريرة التي يتعرف من خلالها أن الحياة لا تتمثل في وجه واحد، فهناك عدة وجوه وألوان.. ولم تكن لهذين المخلوقين الجديدين أية تجربة سابقة مع الغش والكذب والخداع واللف والدوران.. كان الصدق.. وكانت البساطة في مواجهة الأشياء، وكانت العفوية في تقبل الكلمات.. هي الطابع للشخصية البريئة الساذجة التي تتمثل في كيانهما..

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٢ و ٣٣.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٩
(٣) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٧.

وبدأت العملية من موقع حقده وحسده وعداوته.. فمشى إليهما في صورة الملاك الناصح ليقول لهما: إن هذا النهي عن الأكل من الشجرة لا يلزمهما، بل سيحصلان - من خلال تجاوزه - على لذة الخلود والانطلاق في أجواء الملائكة.. وبدأت الكلمات الجديدة المغلفة بغلاف من البراءة والنصح تأخذ مفعولها في نفسيهما، فهما لم يتصورا أن هناك غشا في النوايا، وخداعا في الأساليب.. بل كل ما عندهما الصفاء والنقاء والنظر إلى الحياة من وجه واحد، هو الحقيقة بعينها.. فاستسلما للكلمات من دون أن يشعرا بأن ذلك يمثل تمردا على الله وعصيانا لإرادته فقد كان لأساليبه فعل الساحر في نفسيهما تماما كما هي الأحلام عندما تغرق الإنسان في أجواء روحية لذيذة فتبعده عن واقعه وعن حياته.

وسقطا أمام أول تجربة.. ونجح إبليس في التحدي الأول للإنسان، فأهبطه من عليائه وأسقطه من مكانته.. لئلا يبقى الساقط الوحيد في عملية التمرد على الله.. فها هو يشعر بالزهو والرضا، لأنه استطاع أن يهبط بقيمة هذا المخلوق الذي كرمه الله عليه، إلى درك الخطيئة ليصبح منبوذا من الله.. وجاء الأمر من الله إليهم جميعا.. آدم وحواء وإبليس أن يهبطوا جميعا.. وان يعيشوا في الأرض إلى المدى الذي يريد لهم أن يعيشوا فيه، ويتمتعوا فيما هيأه الله لهم من صنوف المتع واللذات.. وان يواجهوا الموقف بين الفريقين، فريق الانسان.. الخ.. " (١).

ويقول أيضا في مورد آخر:

".. ويعود القرآن إلى حديث الإنسان الأول آدم في كل مورد للإيحاء بالضعف الإنساني الذي قد يسقط أمام تجربة الإغراء حتى يخيل إليه أنه يمثل الفرصة السانحة السريعة التي إذا لم يستفد منها وينتهزها فإنه يتعرض للحرمان الأبدي.. ولذلك فإنه يبادر إلى انتهازها مدفوعا بهذا التصور الوهمي.. ثم يكتشف - بعد الوقوع في المشكلة - بأن المسألة ليست بهذه السرعة، وأن النتائج الإيجابية الموعودة ليست بهذا الحجم، فقد كان بإمكانه أن يصبر ويحصل على نتائج جيدة أفضل وأكثر دواما وثباتا ".

إلى أن قال:

(ولقد عهدنا إلى آدم من قبل) وأوصيناه وحذرناه مما قد يواجهه من تجربة

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١ ص ١٨١ و ١٨٢

الانحراف بتسويل إبليس الذي يحمل له أكثر من عقدة منذ إبعاده عن رحمة الله بابتعاده عن الاستجابة لأمره بالسجود لآدم.. في الوقت الذي لم يحمل له آدم أي شعور مضاد.. ولكن آدم لم يتعمق في وعي الموضوع، ولم يأخذ مأخذ الجدية والاهتمام، وبقي مستمرا على خط العفوية والبساطة الصافية في مواجهته للأشياء (فنسي) ما ذكرناه به فترك الامتثال للنصيحة الإلهية التي لم تكن أمرا تشريعيا يستتبع عقابا جزائيا، بل كان أمرا إرشاديا يتحرك من المنطق الطبيعي للأمور فيما ترتبط به النتائج بمقدماتها ".

إلى أن قال:

" (فوسوس إليهما الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) التي إذا أكلت منها أعطتك خلود الحياة التي لا فناء فيها (وملك لا يبلى) فيما يشتمل عليه من سلطنة دائمة مطلقة لا تسقط أمام عوامل الاهتزاز والسقوط.

وهكذا حاول الالتفاف على أحلامهما الإنسانية في الخلود والملك الباقي من دون أن يثير فيهما عقدة الخوف من المعصية لله، ولهذا كان أسلوبه هو أسلوب التخدير الذاتي، والغفلة الروحية عن النتائج السلبية التي تنتظرهما، إذا استسلما إليه.

وهذا هو الذي يجب أن ينتبه إليه الإنسان في مواقفه العملية، فيما قد يوسوس إليه الشيطان من التأكيد على حركة الحلم الوردي في مشاعره بطريقة غير واقعية، مستغلا حالة الاسترخاء الروحي، والغفلة الفكرية التي يخضع لها في وجدانه، مما يجعله مشدودا إلى الجانب الخيالي من أفكاره من دون مناقشة لها في قليل أو كثير فينحرف من موقع الغفلة لا من موقع الوعي، ومن أجواء الحلم لا من أجواء الواقع، كما حدث تماما لآدم وحواء عندما كانا ينعمان بسعادة الجنة ونعيمها في ظلال عفو الله ورحمته ورضوانه، يتبوءان من الجنة حيث يشاءان، فليس لديهما مشكلة هناك.. فلم يكن من إبليس إلا أن وسوس إليهما مستغلا جانب الغفلة، فعزلهما عن الواقع، ودفعهما إلى التفكير بالخلود والملك الباقي من خلال الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها.. ولو فكرا جيدا لعرفا أن الخلود والملك ليسا من الأشياء التي تحصل بفعل الأكل من شجرة، بل هما نتيجة الإرادة الإلهية التي تملك أمر الموت والحياة، والملك الباقي أو الفاني، ولكنهما استسلما للجو الخيالي المشبع بالأحاسيس الذاتية المتحركة مع الأحلام.

إن الموقف المتوازن هو الموقف الذي ينطلق من القرار المبني على الدراسة الموضوعية للأشياء، وعلى النظرة الواقعية لموقعها من المستقبل مما يفرض على الإنسان أن

يتخفف كثيرا من أحلامه، لمصلحة الكثير من أفكاره ومواقفه الثابتة في الحياة.
(فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما) فيما يعنيه ذلك من الإحساس بالعري الذي لا يغطيه شيء، فيما يعيشان الشعور معه بالعار والخزي في الوقت الذي كانا يتحركان ببساطة من دون مراعاة لوجود شيء في جسديهما يوحي بالستر، لأن مسألة الخطيئة في أفكارها وأحلامها لم تكن واردة في منطقة الشعور لديهما.. ولهذا كانا لا يشعران بوجود عورة.. لأن ذلك هو وليد الشعور بالمنطقة الخفية من شخصية الإنسان فيما يختزنه في داخله من أفكار وأحاسيس كامنة في الذات. (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) في عملية تغطية وإخفاء وتخلص من العار (وعصى آدم ربه فغوى) وابتعد عن خط الرشد الذي يقود الإنسان إلى ما فيه صلاحه في حياته المادية والمعنوية ولكن هذا الانحراف الطارئ البسيط لم يكن حالة معقدة في عمق الذات تفرض عليه الاستسلام للخطيئة كعنصر ذاتي لا يملك الإنفكاك منه بل هو حالة إنسانية تستغرق في الغفلة لحظة ثم تثوب إلى رشدها لتدخل في عالم الاستقامة من جديد..
إلى أن قال:
(ثم اجتباه ربه) واصطفاه إليه واختاره لنفسه فلم يتركه ضائعا حائرا في قبضة فرعون.. (فتاب عليه) ورضي عنه (وهدى) وفتح له أبواب رحمته، ودله على الطريق المستقيم وأراده أن يواجه الحياة من مواقع قوة الإرادة في ساحة الصراع مع الشيطان، ولعل الله سبحانه أراد أن يجعل له من تجربة العصيان في الجنة، فترة تدريبية يمارس فيها حركة الوعي للجو الشيطاني الذي يتحرك فيه الكذب والغش والدجل والخيانة والرياء..
ليختزن الفكرة قبل أن ينزل إلى الأرض التي أعده الله ليكون خليفة له فيها، فيستفيد من تجربة سقوطه وخروجه من الجنة على أساس ذلك، كيف يعمل على أن يتفادى السقوط في الأرض أمام الشيطان الذي غره من موقع العقدة الشيطانية المستعصية، وكيف يجعل من دوره الرسالي، موقع قوة للحياة وللإنسان لا موقع ضعف. وهكذا أراد الله له أن يعيش الشعور برضا الله عنه وهدايته له فيما يريد له أن يتحرك فيه.. " (١).
ويقول أيضا:
".. قد يثور أمامنا سؤال: إننا نعرف في قصة خلق آدم، في حوار الله مع

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٦٩ - ١٧٧

الملائكة، أن الله قد خلقه للأرض ولم يخلقه ابتداء ليعيش في الجنة، فكيف نفسر هذا الأمر الذي يوحي بأن الجنة كانت المكان الطبيعي له لولا العصيان؟ والجواب عن ذلك.. هو أن الأمر الإلهي كان جزءا من عملية التدريب الإلهي المرتكزة على فكرة الربط بين الجنة والطاعة في وعي الإنسان مع علم الله بأنه لن ينجح في الامتحان، فكان تقديره في خلقه للأرض من اشتراط البقاء في الجنة بشرط غير متحقق، فلا منافاة بين الأمرين.

وقد نستوضح الصورة في إطار الفكرة الأصولية التي يبحثها علماء الأصول في موضوع صيغة الأمر.. وهي أن دوافع الأمر قد تختلف، فقد يكون الدافع له هو إرادة حصول الفعل من المأمور وقد يكون الدافع هو امتحان اخلاص المأمور وطاعته، أو إظهار قوة إيمانه وإخلاصه، من دون أن يكون هناك أي غرض يتعلق بالفعل، كما نلاحظه في أمر الله لإبراهيم بذبح ولده، لا لأن الله يريد ذلك (ولذلك رفعه قبل حصوله) بل ليظهر عظمة التسليم المطلق لله في سلوك الأب والابن ليكونا مثلا وقدوة للناس، وقد يكون الداعي أمرا آخر، وهو تدريب الإنسان على مواجهة حالات السقوط بتعريضه لتلك التجربة ليتنبه إلى أمثالها في المستقبل كما في حالة آدم (ع). ونحن لا نجد أي مانع عقلي في ذلك بل هو واقع كثيرا في أفعال العقلاء وأساليبهم في الأوامر والنواهي.. ولا مجال للاعتراض هنا بأن الله كلف آدم بما يعلم أنه لا يمتثل من خلال الظروف الموضوعية المحيطة به، أولا، لأن العلم بعدم الامتثال لا يمنع من التكليف أساسا باعتبار أن العلم معلول للمعلوم وليس الأمر بالعكس.. وثانيا: أن التكليف لم يستهدف حصول الفعل، بل استهدف وعي التجربة المستقبلية من خلال التجربة الحاضرة وعلى ضوء هذا نجد أن الأمر هنا يشبه الأمر في قصة إبراهيم ولكن بطريقة متعاكسة في الموضعين.

التوبة ومدلولها في حياة الإنسان

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم..) إنه هو: لعل في هذه الآية بعض الدلالة على أن الموقف كله في قضية آدم كان تدريبا من أجل أن يعي الإنسان في مستقبل حياته كيف تتحرك الخطيئة في نفسه وكيف تدفعه بعيدا عن الله.. فقد عالجت هذه الآية قضية التوبة، ووضعها في نطاق الأشياء المتلقاة من الله مما يوحي بأن آدم لا يحمل أية فكرة فطرية عنها، فكان الإيحاء والإلهام من الله من اجل أن يتعلم كيف يتراجع عن الخطأ فلا يستمر

عليه.. أما طبيعة الكلمات فقد اختلف المفسرون فيها، ولكن الأقرب إلى الذهن هو ما حدثنا عنه القرآن في سورة الأعراف في قوله تعالى: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (الأعراف / ٢٣).
إنه الشعور العميق بطبيعة الخطأ وعلاقته بنفس الخاطئ وحياته وانعكاساته على قضية مصيره فليست القضية متصلة بالله باعتبارها شيئا يسيء إليه أو يمس سلطانه، ولكنها متصلة بالموقف الإنساني من الله بقدر علاقته بموقفه من مصلحة نفسه، مما يجعل من بقاء الذنب في موقعه خسارة كبيرة للإنسان في الدنيا والآخرة، ويكون طلب المغفرة والرحمة منطلقا من الرفض الكبير للمصير الخاسر. فلا خسارة أعظم من خسارة الإنسان علاقة القرب إلى الله لأنه يخسر بذلك امتداده الإنساني في الطريق المستقيم (١).
وقفة قصيرة
١ - إننا لا نريد أن نعلق على كل ما ورد في الصفحات المتقدمة حول آدم عليه السلام، ولا سيما قوله: إن شخصية آدم بريئة وساذجة. وهو الأمر الذي أكده من جديد في محاضرته في قاعة الجنان بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية ١٤١٨ ه وطبعت بعنوان: الزهراء المعصومة النموذج للمرأة العالمية، ط سنة ١٩٩٧ ص ٥٠. وليعلم القارئ الكريم أن ما تركناه من أقاويل هذا الرجل المشتملة على أمثال ما ذكر هنا، هو أكثر مما أوردناه في هذا الموضع من الكتاب.
٢ - إن هذا البعض قد ذكر في ما نقلناه عنه: أن الله سبحانه أراد أن يضع الإنسان أمام بداية الخلق، ليعيش التصور الإسلامي عن تكريم الله للإنسان.
ولكن ليت شعري أي تكريم هذا الذي يتحدث عنه هذا البعض، وهو نفسه يقدم لنا في كتابه (من وحي القرآن) بل وسائر كتبه - التي جدد التزامه بكل ما أورده فيها في محاضرته المشار إليها في قاعة الجنان - أوصافا وأفعالا ينسبها إلى الأنبياء ما يقزز النفس، ويثير الغثيان، ويبعث على القرف، حتى ليتمنى أي إنسان عادي لو أن الله خلق شيئا آخر بدلا عن هذا الإنسان الأضحوكة والمسخرة والساقط والمهان. وإن ما ذكرناه هنا وفي مواضع أخرى من هذا الكتاب يكفي للدلالة على نوع الأفكار التي يقدمها هذا

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١ ص ١٨٨ - ١٩١.

البعض عن أنبياء الله وأصفيائه، فهي إلى التوراة أقرب منها إلى القرآن.
وليس ثمة مجال للاعتذار عن ذلك بكونه ظاهر القرآن لأننا قد شرحنا فيما تقدم من الآيات الكريمة المرتبطة بقضية النبي آدم (عليه السلام) كيفية عدم انطباق ما يقوله هذا البعض على تلك الآيات.
وسيأتي عند الحديث عن الآيات المتعلقة بسائر الأنبياء (عليهم السلام) ما يقطع العذر عن مثل هذا الوهم.
٣ - على أن من الطريف أن نشير هنا إلى أن الحديث عن شعور آدم وحواء بالخزي والعار، لا موقع له، إذ إنهما كانا وحدهما في الجنة، ولم يكن ثمة ناظر لهما غيرهما، وهما زوجان لا محذور من نظر أحدهما إلى الآخر..
إلا أن يقال: إن الجن والملائكة، وحتى الشيطان كان أيضا موجودا، ولا يريدان أن ينظر أحد - خصوصا هذا المخلوق الشرير - إليهما، أو يقال: إن إحساسهما بظهور عورتيهما كان هو المرفوض من قبلهما. وعلى أي حال، فإننا لا نتفاعل!! مع تعبيره عن آدم النبي عليه السلام، أنه شعر " بالخزي والعار (١) " فإن ذلك
غير لائق في حقه عليه السلام.
كما أن ذلك مجرد دعوى بلا دليل، ولم يكن هذا البعض حاضرا ولا ناظرا، ولا مطلعا على آثار هذا الخجل الناشئ عن الشعور بالخزي والعار، ولا رأى عليهما آثار الاضطراب ولا شاهد حمرة الخجل في وجهيهما، ولا غير ذلك من علامات.
وبعد، فإن من الواضح أن آدم عليه السلام، قد أكل من الشجرة، فواجه آثارا سلبية في جسده لم تكن قد مرت به من قبل. وقد كانت هذه الآثار متعددة عبر عنها القرآن الكريم بكلمة " سوءات " التي هي صيغة جمع، وقد نسب هذا الجمع إلى آدم وحواء كل على حدة، ومعنى ذلك أنه قد ظهرت سوآت عديدة لكل واحد منهما، لا سوءة واحدة لينحصر الأمر بموضوع ظهور العورة منهما، إذ لو كان المراد هو خصوص ذلك لكان الأنسب أن يقول: بدت لهما سوأتاهما. وتبديل المثنى بالجمع إنما يصار اليه في الموارد التي يقطع فيها بإرادة المثنى، بحيث يكون العدول غير موهم.

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٧ و ٣٨.

٤ - إن العناوين التي ذكرناها في بداية كلام هذا البعض، والمأخوذة من كلماته وتعابيره، تعطينا فكرة عن طبيعة اللغة واللهجة التي يتحدث بها عن أنبياء الله سبحانه وتعالى؛ فإنها ليست لغة سليمة ولا مقبولة، مهما حاولنا التبرير والتوجيه، والالتفاف على الكلمات بالتأويل أو بغيره.

فهل يصح أن يقال: إن آدم عليه السلام وهو النبي المعصوم قد سقط أمام التجربة، أو إنه أساء إلى نفسه بانحرافه عن خط الرشد والمسؤولية في طاعة الله؟

أو إن آدم قد تعرض للحرمان الأبدي حين سقط في تجربة الإغراء؟!

أو إن الله حذر هذا النبي من تجربة الانحراف بتسويل إبليس؟!.

وهل يصح وصف آدم بالمنحرف؟، وما جرى له بالانحراف؟!

أم يصح أن يقال عن نبي: إنه لم يفكر جيدا؟!

أو يقال إنه لم يشعر أن ذلك يمثل تمردا على الله وعصيانا لإرادته؟!

أو إنه لم يأخذ الموضوع - فيما يرتبط بالأمر الإلهي - مأخذ الجدية والاهتمام؟!

أو إن جريمة آدم تمثلت له في مستوى الكارثة؟!

وماذا يعني أن ينسب إلى آدم استسلامه للجو الخيالي المشبع بالأحاسيس المتحركة مع الأحلام؟!

أو أن يقال: إن الله تعالى أراد تدريبه ليعي كيف تتحرك الخطيئة في نفسه في المستقبل؟! وكيف تبعده عن الله؟!

وهل يصح أن يقال عن نبي من الأنبياء: إنه سقط إلى درك الخطيئة؟!

أو أن يقال: إن إبليس قاد آدم إلى الموقف المهين؟!

أو إن هذا النبي قد أصبح منبوذا من الله سبحانه؟!

ألا ترى معي أنها عبارات تستعمل عادة لأقل الناس وأحطهم؟!

٥ - وهل يمكن أن يقبل أحد مقولة أن هذا النبي لا يحمل فكرة فطرية عن التوبة فاحتاج إلى أن يتلقاها من الله سبحانه وتعالى؟!. وأية آية دلته على هذا النفي؟! فإن تلقي الكلمات من الله وتعليم الله سبحانه لآدم كلمات (هي أسماء أصحاب الكساء) أو دعاء مخصوصا، لا يعني أنه كان لا يدرك

حسن التوبة، ومطلوبيتها، فإن وجوب التوبة امر عقلي، ثابت في الشرع، والعقل يدرك حسنها كما هو معلوم لدى العلماء إذن فالذي علمه الله إياه من الكلمات - كما ورد في روايات أهل البيت (ع) - هو الدعاء، والاستشفاع بأهل البيت من أجل أن يتوسل بذلك إلى الله في توبته التي يدرك بعقله حسنها ومطلوبيتها لله سبحانه وليس في الآية أنه تعالى علمه ان يتوب.

٦ - كما أننا نلاحظ: أنه يستقرب أن تكون الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، هي خصوص قوله تعالى (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (١).

فإن هذه الكلمات تفيد أن آدم (ع) قد دعا بها ربه، طالبا أن يغفر له ويرحمه حتى لا يكون من الخاسرين. وليس هناك ما يدل على أنها هي الكلمات التي علمها الله لآدم.

٧ - إن الأنسب والأوفق بسياق الآيات هو أن تكون الكلمات التي علمها الله لآدم هي تلك التي وردت في الروايات الكثيرة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، وهي أسماء الأئمة والحجج على الخلق عليهم أفضل السلام، لأنها هي الكلمات التي تحتاج إلى تعليم في مقام كهذا لكي يستشفع آدم (ع) بمسمياتها لما لهم (ع) من كرامة على الله.

وتكون هذه مناسبة جليلة يتعرف فيها آدم وذريته أكثر فأكثر على مقام هؤلاء الصفوة ليكون تعلقهم بهم أقوى، ومحبتهم لهم أشد، وتقربهم منهم ومن خطهم ونهجهم أولى وأتم..

ولا ندري لماذا لم يشر هذا البعض إلى هذه الأحاديث الكثيرة جدا التي صرحت بأن الكلمات التي علمها الله لآدم هي أسماء هؤلاء، وكيف ولماذا استقرب أنها - أي الكلمات - آية ٢٣ من سورة الأعراف: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا..) مع أنه لا إشارة إلى ذلك أصلا لا في الآية ولا في الرواية. بل إن ما ورد في هذه الآية هو

الموقف الطبيعي والعفوي الذي ينتظر صدوره من آدم عليه السلام من دون حاجة إلى أي تعليم (٢).

----

(١) سورة الأعراف الآية ٢٣.

(٢) تفسير البرهان ج ١ ص ٨١ - ٨٩ عن مصادر كثيرة.

٨ - على أن لنا أن نتوقف قليلا عند قصة سجود إبليس لآدم، التي سبقت قضية الأكل من الشجرة، لأنها كانت في بدء خلقة آدم، فهل بقي آدم غافلا عن حقيقة موقف إبليس منه؟ ألم يطلعه الله سبحانه على سوء سريرة إبليس، وعلى أنه عدو لهما (وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين).

أليس في قول الله سبحانه هذا لهما إشارة إلى أن هذا المخلوق ليس مأمونا، وغير مرضي الطريقة، ولا يسير في الصراط المستقيم؟.

وألا يكفي آدم التوجيه الإلهي الصريح والواضح، حتى يحتاج إلى التدريب والتجربة؟!..

ولماذا اقتصرت تجربة آدم على الكذب والغش، ولم تتعد ذلك إلى سائر أنواع الفواحش؟!

أم أن هذا البعض يلتزم بأن آدم في نطاق دورته التدريبية قد واجه إبليس وعاينه حين ارتكابه لسائر الفواحش وممارسته لها عمليا؟!

وما هو السر في أن التجربة قد اقتصرت على الكذب والغش ولم تتجاوزه إلى الفتنة والغيبة والنميمة وغير ذلك، بل اكتفى في الباقي بالتوجيه والتعليم؟! ولماذا لم يستغن عن هذه الدورة التدريبية أيضا بتعليم مناسب بالنسبة إلى الغش والكذب، يتفادى معه حصول ما حصل؟! أم أن الأساليب الإلهية قد استنفدت مع آدم (ع) ولم يفد معه إلا هذا الأسلوب الصعب والقاسي؟!

ولعل قوله: " الظاهر أنه استمر في الخط المستقيم " (١) يشير إلى صحة هذا الاحتمال الأخير لأنه ألمح إلى أنه حتى هذا الأسلوب لم يكن مجديا إلى درجة يقطع معها باستقامة آدم على الطريق المستقيم.

٢٤٠ - الظاهر أن آدم استمر في الخط المستقيم.

٢٤١ - عدم حديث الله عن خطأ آخر لآدم دليل عدم وقوعه من بعد ذلك.

ويقول البعض:

".. وانتهت قصة إبليس مع آدم.. واستطاع آدم بعد نزوله إلى الأرض أن يعي - تماما - معنى الدور الشيطاني لإبليس في الإضلال والإغواء، من موقع العقدة المستحكمة في نفسه ضده.. وأن يحفظ نفسه منه فلم يحدثنا الله عن خطأ آخر في

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٦.

مخالفة أوامر الله ونواهيه.. بل الظاهر، أنه استمر في الخط المستقيم الذي ترتبط فيه كل ممارسات حياته وتطلعاته بالله، بعيدا عن وساوس الشيطان وأضاليله.. (١).

وقفة قصيرة

١ - لا ندري كيف نعتذر عن هذا البعض في نسبة الخطأ في مخالفة أوامر الله ونواهيه إلى النبي آدم عليه السلام. وقد تحدثنا عن المراد من الآيات فيما تقدم من الفصل، فتذكره..

٢ - كما أننا لا ندري كيف لم يجزم بعصمة آدم عليه السلام عن الخطأ في مخالفة أمر الله ونهيه، بل احتاط، وحمله على الأحسن!! فاعتبر أن الظاهر من أمر آدم أنه استمر على الخط، ولم يقطع بذلك وأبقى باب احتمال المعصية، والانحراف عن خط الرشد مفتوحا، مع أنه يقول: إن العصمة عن الخطأ في الأنبياء تكوينية!! إلا أن يريد: أن ذلك في خصوص العصمة عن الذنوب، أما الخطأ فلا عصمة عنه وهو الظاهر من كلماته التي نقلناها وننقلها.

٣ - والذي لفت نظرنا أنه اعتبر عدم حديث الله سبحانه عن خطأ آخر لآدم عليه السلام دليلا على عدم وقوع أي خطأ منه.. فهل هذا الدليل يصلح للاعتماد عليه في ذلك يا ترى.!؟.

٢٤٢ - إهبطا أنتما وإبليس لفشلكم في الإستقامة على خط أوامر الله ونواهيه.

٢٤٣ - إهبطا أنتما وإبليس لعصيانكم الله.

٢٤٤ - أدرك آدم الهول الكبير الذي يواجهه في البعد عن رحمة الله.

٢٤٥ - أدرك آدم الهول الكبير في الخروج من مواقع القرب لله.

٢٤٦ - التحول الإنساني لآدم في الاعتراف بالذنب.

٢٤٧ - التحول الإنساني لآدم في العزم على التصحيح.

٢٤٨ - التحول الإنساني لآدم في الرجوع إلى الله بالعودة إلى طاعته.

٢٤٩ - الأوامر الإرشادية تتصل بمحبة الله لعبده كي لا يقع في قبضة الفساد.

٢٥٠ - الكلمات التي تلقاها آدم هي: ربنا ظلمنا أنفسنا.. الخ..

٢٥١ - الحديث المروي يؤكد تفسيره للكلمات المتلقاة ويستبعد أسماء أهل البيت.

٢٥٢ - آدم وحواء سقطا في التجربة الصعبة.

٢٥٣ - السقوط في التجربة كان بعد التحذير الإلهي من الشجرة، ومن الشيطان.

ويقول البعض:

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ٣٦.

" (وقلنا اهبطوا) إلى الأرض أنتما وإبليس لعصيانكم الله، وفشلكم في الإستقامة على خط أوامره ونواهيه، (بعضكم لبعض عدو (بفعل الحرب المفتوحة بينكما وذريتكما وبينه، وجنوده، لأنه يستهدف إبعادكم عن رحمة الله، وعن جنته، بينما تعملون على التمرد عليه والخروج من سلطته والسعي إلى دخول الجنة والبعد عن النار. (ولكم في الأرض مستقر (أي مقام ثابت لأن الله جعلها قرارا، (ومتاع (تستمتعون فيه في حاجاتكم الوجودية العامة والخاصة، (إلى حين (إلى الأجل الذي جعله الله لكم في مدة العمر التي حددها لكم في هذه الدنيا.

وهكذا عرف آدم، ومعه زوجته معنى الشيطان في وسوسته، وقسوة التجربة في نتائجها، وأدرك الهول الكبير الذي يواجهه في البعد عن رحمة الله، وفي الخروج من مواقع القرب إليه، ومقامات الروح في رحابه.

آدم يتوب إلى الله تعالى

(فتلقى آدم من ربه كلمات (ترتفع إلى الله من روح خاشعة خاضعة، وقلب نابض بالحسرة، والندم ولسان ينطق بالتوبة، وكيان يرتجف بالتوسل، وذلك بالإلهام الإلهي من خلال الفطرة التي توحي بالمعرفة في علاقة النتائج بالمقدمات، وفي طريقة تغيير الموقف من دائرة السلب إلى دائرة الإيجاب، ليكون التحول الإنساني في الاعتراف بالذنب والاستسلام للندم، والعزيمة على التصحيح، والرجوع إلى الله بالعودة إلى طاعته في ما يكلفه به من مهمات، وفي ما يرشده إليه من إرشادات، لأن أوامر الله الإرشادية تتصل بمحبته لعبده لئلا يقع في قبضة الفساد، كما تتصل أوامره المولوية بحرصه عليه في البقاء في خط الإستقامة، وابتعاده عن خط الانحراف الذي يؤدي إلى الزلل ويقوده إلى الهلاك.

ولكن ما هي هذه الكلمات؟

إن الرجوع إلى القصة في سورة الأعراف يوحي بأن آدم الذي انطلق نحو التوبة في عملية تكامل مع حواء، وقف معها ليقولا في توبتهما (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ((الأعراف: ٢٣) ويبدو من خلال هذه الآية، أن التوبة كانت قبل الهبوط إلى الأرض، بعد التوبيخ الإلهي والتذكير لهما بأن سقوطهما في التجربة الصعبة لم يحصل من حالة غفلة، لا تعرف الطريق إلى الوعي، بل كان حاصلا بعد التحذير الإلهي من الأكل من الشجرة، ومن الشيطان، باعتباره عدوا لهما، وذلك قوله تعالى:

(فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ((الأعراف: ٢٢).

ويؤكد هذا التفسير للكلمات الحديث المروي في قوله تعالى:

(فتلقى آدم من ربه كلمات (و (قال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني وأنت خير الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم. (.

وهذا ما ينسجم مع الآية في أصل الفكرة، ولكنه يختلف عنها في التفاصيل " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - قد تحدثنا فيما مضى من هذا الفصل بما فيه الكفاية عن قصة آدم عليه السلام، ولأجل ذلك، فإننا سوف نصرف النظر عن الإعادة ولعل نفس العناوين التي استخرجناها من طيات كلام هذا البعض توضح لنا مدى جرأته على أنبياء الله وأوليائه.

٢ - قد أشرنا حين الحديث عن تفسيره لقوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم..) وذلك عند الحديث عن كلام البعض حول نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) إلى أن مخالفة الأولى لا مجال لقبولها في حق الأنبياء، بأي وجه لأنها تنتهي إلى الطعن بهم، أو الطعن في عظمة الله وجلاله، جل وعز..

٣ - إننا لم نستطع أن نفهم السبب في استبعاده أسماء أهل البيت (عليهم السلام) وحصره الكلمات التي تلقاها آدم من ربه في خصوص هذا الدعاء، فإن التجاء الإنسان إلى الله، والاعتراف أمامه بالقصور، وبالتقصير، وطلب العون والستر والمغفرة، لا يحتاج إلى التلقي من الله سبحانه، وإلى التعليم، إذ إن ذلك هو ما تسوق إليه طبيعة الإنسان الذي يعرف الله، ويقف أمام جلاله، وعظمته، مدركا عجزه في مقابل قدرته، وضعفه في مقابل قوته، وفقره، وحاجته في مقابل

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

غناه، و.. فكان من الطبيعي أن يدعو آدم ربه، وقد نقلت الروايات لنا ذلك.
ثم تفضل الله عليه بتعليمه أسماء أهل البيت (عليهم السلام) ليكونوا شفعاءه ووسيلته. فيكون قد جمع بين الدعاء وبين التوسل.
ولماذا يستبعد الروايات التي تحدثت عن أن الكلمات هي محمد، وفاطمة، وعلي، والحسنان.. فإن بإمكانه أن يجمع بين الروايات باعتبار أنه عليه السلام قد جمع بين الدعاء وبين التوسل فيكون دعاؤه عليه السلام قد اشتمل على الأمرين معا.
٤ - من قال: إن هبوط آدم (ع) وحواء من الجنة كان قد جاء على سبيل العقوبة لهما.. فلعله قد جاء من خلال: الحالة التي استجدت لهما بسبب الأكل من الشجرة، من خلال تبلور الطبيعة البشرية بما لها من عوارض في شخصيتهما حيث أصبحا يشعران بالحر والبرد، وبالقوة والضعف، وبالصحة والمرض، وبالجوع والشبع، وبالري والعطش.
وأصبح الواحد منهم يعرق، ويبول، ويتغوط، وينام إلى غير ذلك من حالات تعرض للبشر العاديين.
فلم يعد يمكنهما البقاء في الجنة من أجل ذلك فكان لا بد من التوجيه الإلهي لهما باختيار المكان المناسب، دون أن يكون ذلك إبعادا لهما عن ساحة الرحمة والقرب، والزلفى.
أما إبليس، فإن خروجه كان عقوبة له.. فإن طبيعة كينونته، وتكوينه لا تقتضي أن يحصل له ما كان يحصل لآدم من العطش والجوع والحر والبرد والمرض وما إلى ذلك. فإذا طرد من الجنة، فإن طرده يمثل إبعادا عن ساحة القرب والزلفى والرحمة الإلهية، وحرمانا من مقام الكرامة الربانية.
وسيتضح الفرق بين الموقفين، الذي يبرر اعتبار هذا عقوبة وذاك كرامة.
٥ - وقد روي عن الإمام الصادق (ع) أو الإمام الباقر (ع) قوله عن آدم (ع): (إنه لم ينس وكيف ينسى وهو يذكره، ويقول له إبليس: (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين () (١).

---

(١) البحار ج ١١ ص ١٨٧ عن العياشي وتفسير البرهان ج ٢ ص ٦.

وذلك يفيد، أن المراد من قوله تعالى: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما (– إن كانت الآية تتحدث عما جرى بين آدم وإبليس – أن المراد بالنسيان هو أنه قد عمل عمل الناسي، بأن ترك الأمر وانصرف عنه، كما يترك الناسي الأمر الذي يطلب منه.

لكن الظاهر من الرواية المتقدمة هو: أن آدم (ع) لم ينس نهي الله عن الشجرة، كما أنه قد روي عن الإمام الصادق (ع) ما يدل على أن نسيان العهد في هذه الآية لا يرتبط بالنهي عن الشجرة، بل هو يرتبط فيما أخذ عليه في الميثاق.. وللبحث في هذه الآية مجال آخر.

٦ – قد ذكرنا أن ما فعله آدم لم يكن تمردا على إرادة الله ولا كسرا لهيبته، بل ما فعله (ع) يشبه مخالفة المريض لأمر الطبيب الذي نهاه مثلا عن المشي لمدة ساعة وأعطاه دواء، فظن المريض المشي دواء له كما أن الدواء يقوم بمهمة المشي ويؤدي وظيفته، لكن المشي ساعة هو الأسرع في تحقيق الغرض من الدواء الذي يحتاج إلى عشرة أيام، فآثر المريض أن يتحمل مشقة المشي ليحقق غرض الطبيب وليفرح بالشفاء العاجل. وإذ بالنتيجة تكون عكسية حيث يظهر للمريض أن المشي ليس هو الدواء بل هو سبب الداء.

فيصح القول بأنه عصى أمر الطبيب، وإن لم يكن الطبيب سيدا له ولا نشأ أمره من موقع السيادة، بل من موقع الإرشاد والنصيحة، ولا تستحق مخالفة النصيحة، ولا مخالفة أمر الناصح أية عقوبة.

٧ – إن إقدام آدم (ع) على الأكل من الشجرة، وكل ما جرى له عليه السلام، قد جاء ليثبت أهلية آدم (ع) للنبوة، وامتلاكه للمواصفات التي تحتاجها في أعلى درجاتها، تماما كما حصل لموسى (ع) مع الخضر (ع). إذ إن ما كان يطمح إليه آدم (ع) ويطمع به لم يكن أمرا دنيويا، ولذة عاجلة، كالسلطة، والمال، والجاه، والنساء، والمأكل، والملبس، وما إلى ذلك، بل كان طموحه منسجما مع شخصيته الإيمانية والنبوية، وهو أن يعيش مع الله سبحانه وتعالى، وأن يكون خالصا له. وأن يستأصل من داخله حتى ميوله وغرائزه الذاتية التي من شأنها أن تشده إلى أمور أخرى، ليصبح تماما كما هو الملاك

الذي يكون الخير طبيعته وسجيته، ولا يحمل في داخله أي شهوة أو غريزة يمكن أن يكون لها أدنى أثر في صرفه عن وجهته، أو أدنى أثر في وهن عزيمته.

كما أنه حين أراد الحصول على ملك لا يبلى، فإنه لم يرده حبا في الدنيا وإيثارا لها.. وإنما ليكون قوة له في طاعة الله سبحانه، ووسيلة لإقامة العدل المحبوب لله فيما استخلفه سبحانه وتعالى فيه.

أضف إلى ذلك أن طموح آدم (ع) وسعيه هو أن يبقى يعيش مع الله، وأن يكون عمره مديدا ومديدا جدا يصرفه كله في عبادته سبحانه، وفي رضاه، فهو لا يريد الخلود لأجل الدنيا، أو استجابة لشهوة حب البقاء..

نعم هذه هي أهداف وطموحات آدم (ع) النبي العاقل والحكيم، وهذا هو كل همه، وغاية سعيه، ولو أنه لم يرد ذلك، لكان فيه نقص، ولما استحق مقام النبوة، لأنه بذلك يريد أن يبقى بعيدا عن الله، مستجيبا لغرائزه وشهواته..

وفوق ذلك كله، فإنه إذا كان قادرا على التصرف في الأمور وكان ملكا فإنه سيكون قادرا على التقلب في طاعة الله في مختلف الحالات، وينال بذلك أعظم مواقع القرب والزلفى منه تعالى.

ولأجل ذلك نجد أن إبليس اللعين قد ضرب على هذا الوتر الحساس بالذات، حين قال لهما وهما لا يريانه - كما روي عن الإمام العسكري عليه السلام - أو على الأقل لا دليل على رؤيتهم له ولا على معرفتهم به (١).

نعم، لقد ضرب إبليس اللعين على هذا الوتر فقال: (هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى (.

وقال لهما أيضا: (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ((٢)، فوعدهما بثلاثة أمور هي: الملك الباقي.. والخلود ونيلهما صفة الملائكية.

----

(١) وقد يحجب الله سبحانه عن آدم (ع) معرفته بمن يخاطبه حين يخاطبه من وراء الحجاب، وذلك لكي يظهر آدم (ع) على حقيقته السامية التي استحق بها مقام النبوة، تماما كما كان الحال بالنسبة لموسى (ع) مع الخضر (ع) حسبما أشرنا إليه، إذ قد كان يمكن أن يعرف الله نبيه موسى (ع) بالكنز الذي تحت الجدار، وبالملك الغاصب للسفن، وبحقيقة معاملة ذلك الشاب مع أبويه.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٠.

ولعل هذا الذي ذكرناه هو السر في أن إبليس لم يتحدث لحواء وآدم (ع) عن الملذات التي يندفع إليهما الإنسان بدافع غريزي أو شهواني، كالطعام والشراب والنكاح وما إلى ذلك. بل تحدث لهما عن الملك الذي لا يبلى، وعن الحصول على صفة الملائكية وعن الخلود في كنف الله سبحانه وتعالى.

٨ – إن من يراجع الآيات يجد: أن الله سبحانه حين نهاهما عن الاقتراب من الشجرة لم يقل لهما إني أعذبكما عذابا أليما، أو فتكونا من العاصين، ليكون في ذلك إشارة إلى أن في الاقتراب منها هتكا لحرمة المولى، وجرأة على مقامه وتعديا عليه وتمردا على إرادته، وكسرا للهيبة الإلهية، بل قال لهما: (فتكونا من الظالمين (وهو تعبير يمكن فهمه على أن المقصود منه صورة ما لو كان الظلم للنفس، ولو بأن يحملها فوق ما تطيقه، بحسب العادة، كأن يحملها خمسين كيلو بدلا من عشرين مثلا وهذا بطبيعة الحال سيرهقها ويشق عليها، ويتعبها.

ويمكن فهمه أيضا في صورة الظلم للناس والمعنى الأول هو الذي أراده الله سبحانه حين خاطب آدم عليه السلام بهذه الكلمة.

فلا يلام آدم (ع) إذن إذا حمله على معنى ظلم النفس، بإرهاقها في أمر تكون نتيجة المعاناة فيه محققة لا محالة لآماله وطموحاته – كنبي – وهي التخلص من كل الغرائز والدواعي التي قد يجد فيها عائقا عن الوصول إلى الله، ثم الخلود على صفة الملائكية في طاعته وعبادته سبحانه، لا الخلود من حيث هو شهوة بقاء خصوصا إذا حصل على القدرات، والملك الذي لا يبلى الذي من شأنه أن يوصله إلى الطاعات بصورة أيسر وأكبر وأكثر.. وإلى الأبد، وليس إلى مدة محدودة.

٩ – ثم إن الله سبحانه قد قال لآدم وزوجه: (لا تقربا هذه الشجرة (و (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة (فكلمة هذه وتلكما.. تشيران إلى أن ثمة عناية إلهية في بيان أن المنهي عنه أمر محدود وخاص وجزئي بعينه، ولم يتعلق النهي بالطبيعة الكلية، ولا كان الحكم الصادر من قبيل الأحكام الشرعية العامة.

ولأجل ذلك ورد في الحديث الشريف عن الرضا (ع) أنه قال للمأمون:

((ولا تقربا هذه الشجرة (وأشار لهما إلى شجرة الحنطة (فتكونا من الظالمين (، ولم يقل لهما: لا تقربا هذه الشجرة ولا ما كان من جنسها، ولم يقربا تلك الشجرة،

وإنما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة، وإنما نهاكما عن أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما من الناصحين، ولم يكن آدم وحواء شاهدا من قبل ذلك من يحلف بالله كاذبا، فدلاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه بالله) (١).

والنتيجة هي:

أولا: إن الشجرة المنهي عنها هي شجرة مخصوصة ومحددة، ولم ينههما عن جنسها، وهما إنما أكلا من غير التي حددت لهما.

ثانيا: وجود القسم - كما سنرى.

ثالثا: وجود التعليل الذي ينسجم مع طموح آدم كنبي، كإنسان كامل.

١٠ - لقد كان الله سبحانه قد أعطاهما حياة تناسب الجنة، وتحمل الخصائص التي تحقق السعادة الواقعية (فكلا منها رغدا حيث شئتما (. ومن الواضح: أن الإنسان المتوازن والمدرك والعاقل، الذي هو في مستوى نبي، ويليق بأن يكون أبا للبشرية ويكون النموذج للكمال البشري، حين جعله الله في الجنة فإنه أهله بما يناسب الجنة من حالات وخصائص ومواصفات ولكنه حين أكل هو وزوجه من الشجرة ظهرت صفاتهما البشرية وغير من حالهما بصورة أساسية ما فاجأهما، حيث صارا يحسان بالجوع وبالعطش وبالصحة، وبالمرض والخوف والحزن والتعب والحر والبرد، واحتاجا إلى النكاح وغير ذلك، مع أن الله سبحانه حين أسكن آدم عليه السلام في الجنة قال له: (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى (فهذه الآية الشريفة - فيما يظهر - لا تريد حصر الوعد الإلهي بهذه الأربعة، بل هي تشمل كل ما هو من هذا السنخ، حتى الصحة والمرض والخوف والحزن و.. الخ، ولعل هذه الأربعة قد خصصت بالذكر.. لتكون مثالا، أو لتكون هي الأصول التي ينشأ عنها كل ما يدخل في هذا السياق فإن الله حين يتعهد بأن يمنع عن الإنسان حتى ما يضايقه من حر الشمس، فهل يرضى له بالحزن والخوف والمرض.. وما إلى ذلك؟!!

----

(١) البرهان في تفسير القرآن ج ٣ ص ٤٦ وج ١ ص ٨٣، والبحار ج ١١ ص ٦٤ عن عيون أخبار الرضا (ع) ص ١٠٨ و ٩٠١.

والحاصل: أنه بعد أن ظهرت عليهما هذه الأعراض لم تعد الجنة هي المكان المناسب لحياتهما. فكان لا بد لهما من الهبوط إلى مكان آخر يناسب الجسد، وحالاته، حيث أضحى بحاجة إلى ما يسد الجوع ويشفي من المرض، ويرفع العطش، ويقي من الحر والبرد، ويؤمن من الخوف، ويدفع أسباب الحزن والتعب، وما إلى ذلك.
ولعل بعض الروايات قد قصدت هذا المعنى حيث أشارت إلى أمر الخلقة وتحولاتها، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) قوله:
(فلما اسكنه الله الجنة، وأتى جهالة إلى الشجرة، أخرجه الله، لأنه خلق خلقة، لا يبقى إلا بالأمر والنهي، والغذاء، واللباس، والا... والنكاح ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوفيق من الله..) (١) ثم تذكر الرواية تفاصيل ما جرى له مع إبليس..
وفي نص آخر عن أبي جعفر (ع)، عن رسول الله (ص): أن آدم عليه السلام قال مخاطبا ربه:
(وبدت لنا عوراتنا، واضطرنا ذنبنا إلى حرث الدنيا، ومطعمها، ومشربها) (٢).
وعن الإمام الصادق (ع): (لما هبط بآدم (ع) إلى الأرض احتاج إلى الطعام والشراب، فشكا إلى جبرئيل إلخ) (٣).
فتجد أن هذه الروايات تشير إلى أن أكلهما من الشجرة هو الذي اضطرهما إلى الطعام والشراب واللباس.. وأيقظ غرائزهما، فاحتاجا إلى النكاح..
وربما يكون في قوله تعالى: (ينزع عنهما لباسهما (إشارة أخرى إلى ذلك أيضا.
١١ - وأما بالنسبة لمعنى توبتهما التي تحدث عنها الكتاب الكريم، فلعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن المقصود بها هو عودتهما إلى الله سبحانه بعد أن أحسا أنهما الآن بأمس الحاجة إلى عونه، وإلى تدبيره فالتجأ إلى الله، وعادا إليه يطلبان منه أن يعود عليهما بإحسانه وفضله، وعونه في مواجهة هذه المشكلات الجديدة، ورفع تلك الحاجات، وخشعا إليه وخضعا، وابتهلا، فاستجاب لهما لأنه هو مصدر اللطف والرزق والشفاء وستر جميع النواقص، وسد سائر الثغرات.

---

(١) راجع تفسير القمي ج ١ ص ٤٣، وتفسير البرهان ج ١ ص ٨٠ وج ٢ ص ٨٠ وج ٢ ص ٦، والبحار ج ١١ ص ١٦١.
(٢) تفسير البرهان ج ١ ص ٨٤، والبحار ج ١١ ص ١٨٣ عن تفسير العياشي.
(٣) البحار ج ١١ ص ٢١٧ عن الكافي.

ومن مظاهر هذه الاستجابة ما تجلى في قوله تعالى: (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ((١).
فهي إذن ليست على حد توبة العصاة والمتمردين، بل هي بمعنى الالتجاء من موقع الإحساس العميق بالحاجة إلى اللطف والعون.
١٢ - وبعد أن اتضح لزوم أن يبادر آدم عليه السلام إلى الأكل من سنخ الشجرة، وفقا للمعطيات التي توفرت لديه.. فإنه يبقى سؤال آخر يلح بطلب الإجابة، وهو: أن الله قد حذره من إبليس، ومن أن يخرجه من الجنة. فكيف قبل منه قوله؟!
ونقول في الجواب:
أولا: إننا نجد في الروايات، ما يدل على أن آدم وحواء عليهما السلام لم يعرفا أن مخاطبهما هو إبليس، لأن إبليس كان قد خاطبهما من بين لحيي حية وكان آدم (ع) وحواء يظنان أن الحية هي التي تخاطبهما، وأن إبليس قال لهما: إن الله قد أحل لهما تلك الشجرة بعد تحريمها عليهما، لما عرف سبحانه من حسن طاعتهما، وتوقيرهما إياه. وجعل لهما علامة على صحة قوله: أن الملائكة الموكلين بالشجرة لا يدفعونهما عنها كما يدفعون غيرهم عنها. ولم تدفعهما الملائكة عنها لأنهم كانوا موكلين بدفع من لا يملك اختيارا وعقلا (٢). فإذا صحت هذه الرواية فلا يبقى إشكال في القضية بمجملها.
ويلاحظ هنا: أنه تعالى قد قال لهما: (إن هذا عدو لك ولزوجك (فحدد له العدو، وأراه إياه، وجسده له. ولم يقل له: إن إبليس عدو له. وحين تخفى عنه، فإن آدم (ع) لم يخاطب الذي أخبره الله بعداوته، بل خاطب مخلوقا آخر هو الحية.
وربما يؤيد ذلك: أن الله سبحانه وتعالى قال: فوسوس إليه الشيطان، قال: يا آدم.. الخ، فإن الآية تشير إلى وجود التفاف وتمويه في أسلوب التعاطي، ليصبح التعبير بالوسوسة التي تعني إلقاء الكلام من طرف خفي.. وليس الخفاء إلا في إخفاء إبليس لنفسه عنه بطريقة أو بأخرى.. ليصبح كلامه معه، وكأنه

----
(١) سورة الأعراف الآية ٢٦.
(٢) تفسير الإمام العسكري ص ٢٢٢ و ٢٢٣ وتفسير البرهان ج ١ ص ٨٠، والبحار ج ١١ ص ١٩٠ و ١٩١ وراجع: تعليق العلامة المجلسي ص ١٩٣ ومستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢٨٦ ح ٦٠٧.

لا يحس بأن أحدا يدفعه إلى الأكل من الشجرة، فإن الحية بحسب الظاهر قد أخبرته بأن في هذه الشجرة ثلاث خصوصيات، ولم تطلب من آدم (ع) أن يأكل منها بصراحة. وقد جاءت هذه الخصوصيات بحسب نتيجة التحليل الذي انطلق منه آدم عليه السلام من موقع إيثاره رضى الله سبحانه، وشوقه إلى مقامات القرب منه حسبما أوضحناه - جاءت لتمثل العناصر التي ارتكز إليها قرار آدم عليه السلام بالأكل من سنخ الشجرة المنهي عنها.

وثانيا: إنه إنما أكل من شجرة أخرى تشبه الشجرة التي نهي عنها بالإشارة الحسية إلى الخارجي، فلا يرى أنه قد عصى أمر الله الذي انصب على شجرة محددة بكلمته هذه. ولأجل ذلك جاء تعبير إبليس بكلمة تلكما التي أشارت إلى الشجرة البعيدة عنها والمحددة لها بشخصها، والوصف، والإغراء، إنما وقع بهذه الشبيهة لا بتلك التي نهاه الله عنها مباشرة.

وثالثا: يقول الله عز وجل عن إبليس: (وقاسمهما إني لكما من الناصحين (وقد صرحت روايات عديدة عن الأئمة عليهم السلام، بأن آدم عليه السلام إنما تقبل قول إبليس لأنه أقسم له، قال آدم (عليه السلام): إن إبليس حلف بالله أنه لي ناصح، (فما ظننت أن أحدا من خلق الله يحلف بالله كاذبا) وهذا المعنى قد ورد في عدة روايات (١).

ولعل السر في ذلك هو: أن الحلف بالله معناه إيكال الأمر إلى الله، وجعله في عهدته، والقبول بأن يكون سبحانه هو المتولي للتوفيق للصادق، ولإنزال العقوبة بالكاذب والتعويض على من يلحقه الضرر نتيجة ذلك..

وقد جاء التعبير ب: (قاسمهما (ربما ليشير بذلك من خلال إيراده بصيغة المفاعلة إلى مشاركة من قبل آدم (عليه السلام) وحواء في الوصول إلى هذا القسم ولو عن طريق اشتراطهما للعمل بالنصيحة أن يقسم لهما على صدقه وصحة ما يقول.. ولعلهما قد أقسما أن لا يعملا بنصيحته إلا إذا أقسم لهما على أن يقول الحق والصدق في محاولة منهما لإلجائه إلى جعل الأمر بين يدي

----

(١) تفسير البرهان ج ١ ص ٨١ و ٨٣، وراجع تفسير القمي ج ١ ص ٤٤ والبحار ج ١١ ص ١٦١ و ١٦٣ و ١٨٨ و ٢٠٦ و ١٦٤، وعيون أخبار الرضا ص ١٠٨ و ١٠٩ وعلل الشرائع ص ١٤٨ وعن الكافي (الفروع) ج ١ ص ٢١٥.

الله سبحانه، والقبول بتحمل كامل المسؤولية أمام العزة الإلهية القادرة على ملاحقة المجرم في صورة ظهور زيف ما جاء به.
فأقسم هو لهما على ذلك أيضا، فصح التعبير بقاسمهما.
١٣ - وعن دخول إبليس إلى الجنة فعلا، قد يرجح بعض الأعلام، أن لا يكون إبليس ممنوعا من الاقتراب منها فاقترب منها وبقي في خارجها، وألقى الكلام إلى آدم (ع) وهو - أي آدم - في داخلها قرب الباب، فلما كان منه في حق آدم (ع) ما كان، أهبطه الله عن هذا المقام أيضا، وحرمه حتى من الإقتراب من الجنة عقوبة له.
كما أنه قد أهبط آدم (ع) وزوجه منها، لكن لا على سبيل العقوبة لهما، وإنما بسبب عدم ملائمة حالهما لها بعد أن ابتليا بما ابتليا به، من ظهور حالات البشر في طبيعة التكوين، حسبما أوضحناه.
كما أن هناك من يقول: إن آدم (ع) إنما كان في جنة من جنان الدنيا، ولعلها هي المكان الذي تكون فيه أرواح المؤمنين، ولم يكن دخولها حتى ذلك الوقت ممنوعا على إبليس، فلما كان منه ما كان في حق آدم عليه السلام حرمه الله سبحانه حتى من دخول جنان الدنيا.
١٤ - ويتضح من جميع ما ذكرناه هنا وفيما تقدم من هذا الكتاب أن تفسير الآيات التي تحدثت عما جرى لآدم عليه السلام لا يفرض نسبة المعصية الحقيقية إليه.. وأن ثمة إشارات في الروايات وفي الآيات نفسها إلى وجوه من التفسير الصحيح،
والمنسجم مع قداسة هذا النبي الكريم ومع الضوابط العقلية والإيمانية.. فلماذا الإصرار إذن على نسبة النقائص له صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا وآله؟!
٢٥٤ - لا طريق إلا تزويج الإخوة بالأخوات.
٢٥٥ - لا مناعة جنسية حتى بين الأم وولدها.
٢٥٦ - بامتداد النسل يحصل الجو النظيف جنسيا.
وفي إجابة له عن كيفية توالد أولاد آدم (ع) نجده يقول:
" يمكن القول - كما نتبنى نحن هذا الرأي وثابت بالأدلة الشرعية - يمكن القول بأن الإخوان تزوجوا الأخوات ".
ثم يذكر أن ذلك لم يكن حراما فيقول:

" أول الخلق كان هذا الشيء حلال، لماذا؟ لأن هذا هو الذي يفسح المجال لانطلاقة البشرية، ولا يوجد طريق غيره " (١).
ثم يفلسف هذا الموضوع فيقول:
" فنظام العائلة مكون من أب وأم وإخوة وأخوات، وهو إنما يتوازن ويستقيم عندما تكون هناك مناعة عند الأب وعند الأم وعند الأخ وعند الأخت ضد أي إحساس جنسي تجاه الآخر، لأنه لو فرضنا أن الأحاسيس الجنسية كانت موجودة في حياة الأب والأم تجاه أولادهما، أو في حياة الأولاد تجاه بعضهما البعض فلن تستقر حياة عائلية ولن تنسجم في خصوص الجو العائلي المغلق، حيث يفسح المجال لهذه الأمور بشكل فوق العادة. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن صار هناك أبناء عم أو أبناء خال وخالة، أي عندما امتد التناسل وأصبحت هناك علاقات طبيعية، حرم الله ذلك ليستقيم نظام العائلة ولتنمو العائلة في جو طاهر نظيف من الناحية الجنسية، وبعد ذلك تنطلق لينشئ كل واحد منهم عائلة " (٢).
وقفة قصيرة
١ - إن هذا الكلام معناه أن عائلة آدم (ع) أو العائلة في عهد آدم لم تكن تعيش في جو طاهر نظيف من الناحية الجنسية.. ولم يكن ثمة مناعة عند الأب والأخ والأخت والأم ضد أي إحساس جنسي تجاه الآخر. فهل يفترض هذا البعض وجود انفلات جنسي إلى هذا الحد فيما بين عائلة آدم، بحيث كان الكل لديه أحاسيس جنسية تجاه بعضهم البعض حتى الأم تجاه ولدها.. ثم لما تكاثرت العائلة وأصبح هناك أبناء عم وأبناء خالة حصلت المناعة؟!.. وكيف حصلت؟!..
٢ - إن هذا البعض يقول، إن تزويج الأخ بأخته في أولاد آدم ثابت بالأدلة الشرعية، ويزعم أنه لم يكن ثمة طريقة يمكن بواسطتها حل هذه المشكلة وانطلاقة البشرية من خلالها..
ونقول له: أليس من الممكن أن يخلق لكل ولد زوجته، كما خلق آدم وحواء من قبل؟!

---

(١) الموسم العددان ٢١ و ٢٢ ص ٣١٩.
(٢) الندوة ج ١ ص ٧٣٧.

وقد روى الصدوق رحمه الله في العلل عن الصادق عليه السلام في حديث له ينكر فيه عليه السلام حديث زواج الأخ بأخته:

" سبحان الله عن ذلك علوا كبيرا، يقول من يقول هذا: إن الله تعالى جعل أصل صفوة خلقه، وأحبائه وأنبيائه، ورسله، وحججه، والمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات من حرام!! ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطاهر الطيب؟! " (١).

وأما خبر " الإحتجاج " و " قرب الإسناد " حول تزويج الإخوة بالأخوات فيضعفه مطابقته في هذا الأمر لمذهب غير الشيعة (٢).

٢٥٧ - الله يؤنب ويوبخ نبيه.

٢٥٨ - نوح لم يلتفت إلى (إلا من سبق عليه القول).

٢٥٩ - كلمة (من سبق عليه القول) لم تكن واضحة.

وعن عدم التفات نوح عليه السلام إلى ما قاله الله تعالى حين أوحى إليه بشأن ولده، نجد البعض يقول في سؤال وجواب:

" كيف يمكن له أن يعيش لحظة الضعف أمام عاطفة البنوة، ليقف بين يدي الله ليطلب منه إنقاذ ولده الكافر، من بين كل الكافرين؟!

وكيف يخاطبه الله بكل هذا الأسلوب الذي يقطر بالتوبيخ والتأنيب؟ ويتراجع نوح، ليستغفر، ويطلب الرحمة لئلا يكون من الخاسرين.

ويمكن لنا أن نجيب عن ذلك: أن المسألة ليست مسألة عاطفة تتمرد، ولكنها عاطفة تتأمل وتتساءل، فربما كان نوح يأمل أن يهدي الله ولده في المستقبل.

وربما كان يجد في وعد الله له بإنقاذ أهله ما يدعم هذا الأمل لأنه من أهله ولم يلتفت إلى كلمة: (إلا من سبق عليه القول) لأنها لم تكن واضحة " (٣).

ويقول في موضع آخر عن نوح الذي كان السؤال يلح على قلبه:

" والحسرة تأكل قلبه على ولده أن الله وعده أن ينقذ أهله "

إلى أن قال:

---

(١) تنزيه الصفوة، ص ١٥ و ٧ و ٨ و ٢٣ و ٥ و ١٧ - ١٩.

(٢) تنزيه الصفوة ص ٢١ و ٢٢ و ١٠ و ١١.

(٣) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٢ ص ٧٩ و ٨٠.

" ولم ينتبه إلى كلمة: (إلا من سبق عليه القول) فأقبل إلى ربه بالنداء الخ.. " (١).
وقفة قصيرة
إننا نسجل هنا ما يلي:
أولا: إنه ليس ثمة من دليل ملموس يدل على أن نوحا صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بكفر ولده، فلعله كان قد أخفى كفره عن أبيه، فكان من الطبيعي أن يتوقع عليه السلام نجاة ذلك الولد الذي كان مؤمنا في ظاهر الأمر، وذلك لأنه مشمول للوعد الإلهي، فكان أن سأل الله سبحانه أن يهديه للحق، ويعرفه واقع الأمور، فأعلمه الله سبحانه بأن ولده لم يكن من أهله المؤمنين، وأنه من مصاديق (من سبق عليه القول (.. فتقبل نوح ذلك بروح راضية (٢).
ثانيا: إنه ليس ثمة ما يدل على أن نوحا عليه الصلاة والسلام قد عاش الحسرة على ولده، من حيث إنه ولده.. فإن الأنبياء يعيشون الحسرة على الكافرين لما يفعلونه بأنفسهم، لا لقرابتهم منهم.
والشاهد على ذلك ما حكاه القرآن عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث خاطبه الله بقوله: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (.
ويقول: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (.
ويقول: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (.
غير أننا إن تأكد لدينا أن نوحا عليه السلام كان واقفا على كفر ولده، فإن من المعقول والمقبول جدا فهم موقف نوح، على أنه عليه السلام قد أراد أن يفهم الناس الذين نجوا وهلك أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم وأحباؤهم، أراد أن يفهمهم من خلال الوحي الإلهي: أن لا خصوصية لمن نجا من أهل نوح، كما لا خصوصية لمن هلك منهم ومن غيرهم، إلا ما يدخل في دائرة الإيمان، فلهم النجاة، أو في دائرة الكفر فلهم الهلاك..
وأراد أن يفهمهم أيضا أن القضية قد نالت فيمن نالت حتى نبي الله نوحا في ولده..
وأن هلاك ذلك الولد لم يكن فيه خلف للوعد الإلهي، لأن المقصود

----

(١) الحوار في القرآن ص ٢٣٠ ط سنة ١٣٩٩ ه‍ ق.
(٢) راجع تفسير الميزان ج ١٠ ص ٢٣٢.

بالأهل الذين صدر الوعد بنجاتهم هم أهله المؤمنون.
ثالثا: إذا راجعنا الآيات نفسها، فلا نجد فيها أنه عليه السلام يطلب من ربه نجاة ولده، بل فيها أنه عليه السلام قد اعتبر رحمة الله ومغفرته هي الربح الأكبر، وبها تكون النجاة من الخسران.
ولأجل ذلك نجده عليه السلام قد قال: (إن ابني من أهلي (توطئة للرد الإلهي الذي سيحدد خصوصية الأهل الموعود بنجاتهم، وهم المؤمنون، دون الكافرين.. حيث قد سبق القول بإهلاك الكافرين سواء أكانوا من أهل نوح أو من غيرهم.
رابعا: بالإضافة إلى ما تقدم نقول: إن نوحا عليه السلام قد طلب من ولده أن يركب معهم، فقال:
(يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ((١).
وهذا - أعني قوله تعالى: (ولا تكن مع الكافرين (يشير إلى أنه يراه مؤمنا، وأنه هو الذي رفض الركوب معهم، وعرض نفسه للهلاك مع علم نوح بأن التخلف عن ركوب السفينة معناه التعرض للهلاك المحتم، وكان هذا هو خيار ولده نفسه..
ثم أشار (عليه السلام) إلى ما يفيد أنه لم يكن بصدد طلب نجاة ولده، ولا كان يتهم الله تعالى بخلف وعده، حيث صرح (ع) أن وعد الله هو الحق..
وقبل أن يتقدم بأي طلب من الله كان التعليم الإلهي له: أن لا يسأله ما ليس له به علم.
إذن، فهناك شيء لم يكن نوح مطلعا عليه، حسب دلالة الوحي الإلهي، (فجاءت استجابة نوح لتؤكد على أنه عليه السلام لم يسأله، ولن يسأله في المستقبل:
(فلا تسألن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ((٢).
ثم جاء قوله عليه السلام:) وإلا تغفر لي، وترحمني أكن من الخاسرين ((٣)،

---

(١) سورة هود الآية ٤٢ و ٤٣.
(٢) سورة هود الآية ٤٦ و ٤٧.
(٣) سورة هود الآية ٤٧.

ليؤكد هذه الحقيقة، حيث إنه قد استعمل كلمة (لا) ولم يستعمل كلمة (لم)، ليفيد أنه لا يتحدث عن الماضي، حيث لم يصدر منه ما يحتاج إلى ذلك، بل هو يتحدث عن المستقبل.

ويتضمن هذا التعبير إشارة إلى أن طلب الأنبياء للمغفرة، إنما يراد منه طلب دفع المعصية عنهم، لا رفعها، كما هو معلوم عند أهله..

خامسا: إنه ليس ثمة ما يدل على أن نوحا عليه السلام، لم يلتفت إلى كلمة (إلا من سبق عليه القول (أو أن هذه الكلمة لم تكن واضحة حين الوحي، علما أن ذلك يخالف العصمة في البلاغ وفي التبليغ، وهي أمر عقلي،) مسلم وقطعي، عند جميع المسلمين، وليس في الآيات أيضا: أن نوحا قد عاش الحسرة على الكافر، حتى لو كان ذلك الكافر هو ولده بالذات.

سادسا: وأخيرا، هناك الكثير من الاحتمالات التي تتحملها الآيات بحيث تكون بعيدة عن وصم الأنبياء (ع) بهذه النقائص، ولا تتنافى مع (بلاغة القرآن)، فلماذا اختيار التفاسير التي تظهر أو تنسب نقيصة للنبي أو الولي، دون غيرها من التفاسير التي تنزههم عن مثل هذه النقائص؟!

الفصل الثاني:
إبراهيم ولوط
(عليهما السلام)

٢٦٠ – التأكيد على سذاجة إبراهيم عدة مرات.
٢٦١ – خشوع إبراهيم للكوكب، وقناعته بربوبيته.
٢٦٢ – إبراهيم (ع) في وهم كبير.
٢٦٣ – إبراهيم يعبد القمر ويتصوف له.
٢٦٤ – ضياع إله إبراهيم في الأجواء الأولى للصباح.
٢٦٥ – (لا أحب... هذا أكبر) صرخة طفولية.

يقول عن إبراهيم عليه السلام، في ما قصه الله تعالى، من خطابه عليه السلام للكوكب ثم للقمر والشمس: إن هناك احتمالين في تفسير الآيات التي تعرضت لذلك:

أحدهما: أن يكون ظاهر الآيات هو حقيقة موقفه، فيكون إبراهيم قد صدق بأن الكوكب والقمر والشمس آلهة..

الثاني: أن يكون إبراهيم (ع) قد قام بحالة استعراضية أمام قومه ليقنعهم بالحقيقة.

وقد ذكر لكلا الاحتمالين ما يقربه.. ولكنه شرح الآيات شرحا مسهبا على أساس الاحتمال الأول، ثم بعد أن ذكر ما يؤيد كل واحد من الاحتمالين، وذكر ما يمكن استفادته من الآيات، عاد وختم كلامه وفق الاحتمال الأول..

ومن الواضح: أننا وإن كنا نستظهر من ذلك ميله إلى ذلك الاحتمال الفاسد، ولم يذكره لمجرد كونه احتمالا، إلا أن مجرد توهم أن يكون نبي الله إبراهيم (ع) قد عبد غير الله، أو اعتقد بألوهيته وربوبيته، هو توهم واحتمال باطل في حق الأنبياء، ويلزم التصريح بتسخيفه وبطلانه، فضلا عن تأييده بالشواهد، ثم شرح الآيات بما يناسبه، ثم إنهاء الكلام والخروج من الموضوع من خلاله..

ونحن نذكر فيما يلي كلماته كلها.. فنقول:
يقول البعض:
" وتطالعنا – في هذا المجال – شخصية إبراهيم – النبي.. التي يقدمها لنا القرآن في أجواء الصفاء الروحي، والبساطة الإنسانية.. والطبيعة العفوية.. التي تلامس في الإنسان طفولته البريئة فيما تلتقي به من حقيقة الأشياء.. ليفكر من خلال براءة النظرة في عينيه، وسلامة الحس في أذنيه ويديه، فيما يرى أو يسمع أو يلمس، فيما لديه من أدوات الحس الواقعي.. فنحن لا نرى فيه – من خلال الصورة القرآنية – شخصية الإنسان الذي يتكلف الكلمات التي يقولها للآخرين، ولا نلمح لديه روحية الشخص المشاكس الذي يبحث عن المشاكل في أفعاله وعلاقاته.. بل نشاهد فيه الشخصية البسيطة الواقعية التي ترتبط بالأشياء من جانب الإحساس، فتسمي الأشياء بأسمائها بعيدا عن تزويق الألفاظ، وزخرفة الأساليب، بقوة وصدق وواقعية وإيمان.
ففي الصورة الأولى، نلتقي به في موقفه من أبيه الذي يعبد الأصنام التي يعبدها قومه.. فيواجهه بالإنكار القوي الرافض للموقف من الأساس، لرفضه الفكرة التي يرتكز عليها.. فهذه الأصنام، هي أحجار جامدة، كبقية الأحجار الموجودة في العراء.. ولا ميزة لها إلا أن يد الإنسان قد أعطتها بعض ملامح الصورة، فحولتها إلى تماثيل.. فإذا كان الإنسان هو الذي أعطاها تلك الميزة التي تختلف بها عن سائر الأحجار.. فهي صنع يده، فكيف تكون آلهة له.. ومن الذي أودع فيها سر الألوهة..؟ وهل الألوهة شيء يصنع ويخلق، أو هي قوة تصنع وتخلق.. ثم.. إن الألوهة تعني القدرة والعلم والحياة والغنى المطلق فيما تعنيه من ملامحها الحقيقية.. فما هي ملامح ذلك كله في هذه التماثيل؟.. ولكنها الأوهام التي حولت الأشياء غير المعقولة.. إلى عقائد وتصورات ورموز قداسة في مستوى الآلهة.. فكيف تتخذ هذه الأصنام آلهة..؟ كيف..؟
.. إن فكري لا يلمح أية إشراقة للحقيقة فيما تسير عليه.. ولو من بعيد بعيد.. بل كل ما هناك الظلام والتيه والضياع.. وهنا يتحول التساؤل.. إلى حكم قاطع في مستوى وعيه للحقيقة المنطلقة من خط الهدى.. التي تحدد ملامح الضلال في خطوط الآخرين..
إني أراك وقومك في ضلال مبين
إنه الموقف الصلب الذي لا يهادن ولا يجامل.. ولا يغلف الأشياء بغلاف سحري، بل يدفع الموقف إلى الأمام، بكل وضوح وصراحة.. بعيدا عن المجاملة

واللياقة التي تفرضها علاقة الابن بأبيه.. لأن قضية العقيدة لا تخضع للجانب العاطفي للعلاقات لأن علاقة الإنسان بالحقيقة التي تربطه بالله أقوى من أية علاقة بأي إنسان كان.

وفي الصورة الثانية نشاهد إبراهيم يتطلع إلى السماء، كما لو كان شاهدها أول مرة، فهو – فيما توحيه الآية – يواجهها كتجربة جديدة لم يلتق بها من قبل، وذلك فيما تعنيه التجربة من المعاناة في حركة الحس البصري كمادة للتفكير، للانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن المادة إلى المعنى.. فقد كان يشاهدها سابقا، في رؤية جامدة، لا تعني له شيئا، إلا بمقدار ما يعنيه انعكاس الصورة في العين – لمجرد تجميع الصور في الوجدان.. فيما يلتقي به الإنسان من مألوفاته العادية في حياته اليومية..

وهكذا نجد أن الرؤية التي يتحدث عنها القرآن في قوله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض.. (هي الرؤية الواعية الفاحصة المدققة التي تثير في الداخل المزيد من التأمل والحوار والاستنتاج.. بدليل قوله تعالى: (وليكون من الموقنين.. (، مما يوحي بأنها الرؤية التي تبعث على القناعة من خلال اليقين.. وبدأ يفكر في استعراض عقلي للعقائد التي يعتقدها قومه في عبادتهم للكواكب والقمر والشمس.. ومحاكاة ذاتية تتحرك من أجل إثارة التساؤل.. وهكذا التقى بالكواكب المتناثرة في السماء، في صورة بديعة في روعة التنسيق والتكوين.. فما أن لمح كوكبا يتلألأ ويشع في قلب هذا الظلام المترامي.. حتى سيطرت عليه أجواء

الروعة، واستولى على فكره الخشوع الروحي أمام هذا الشعاع الهادئ في الأفق البعيد.. فخيل إليه أن هذا هو الإله العظيم الذي يتعبد الناس إليه.. لأن الفكرة الساذجة تجعله في الأفق الأعلى البعيد، الذي تتطلع إليه الأبصار برهبة وخشوع ولا تستطيع الخلائق أن تصل إليه أو تدرك كنهه.. (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي.. (.. في صرخة الإنسان الطيب الساذج الذي خيل إليه أنه اكتشف السر الكبير الذي يبحث عنه كل الناس، كما لو لم يكتشفه أحد غيره.. وكأنه أقبل إليه في خشوع العابد، وفي لهفة المسحور.. وفي اندفاعة الإيمان.. وربما ردد هذه الكلمة (هذا ربي.. (في سره كثيرا.. ليوحي لنفسه بالحقيقة التي اكتشفها ليؤكدها في ذاتها.. بعيدا عن كل حالات الشك والريب.. وبدأ الليل يقترب من نهايته.. وبدأت الكواكب تشحب وتفقد لمعانها.. ثم بدأت تبهت.. وتبهت حتى غابت عن العيون.. وحاول أن يلاحقها هنا وهناك.. لقد ضاع الإله في الأجواء الأولى للصباح.. وانكشفت له الحقيقة الصارخة.. فقد كان يعيش في وهم كبير.. فقد أفل الكوكب.. ولكن الإله لا يأفل لأنه القوة التي تمثل الحضور الدائم في الحياة كلها فلا يمكن أن تبتعد عن حركتها المتنوعة لأن ذلك يتنافى مع الرعاية المطلقة للكون ولما فيه

من موجودات حية وغير حية.. واهتزت قناعاته من جديد.. وبدأ يسخر بالفكرة والعقيدة في عالمه الشعوري الصافي.. (فلما أفل قال لا أحب الآفلين.. (.

(فلما رأى القمر بازغا.. (في صفاء الليل، ووداعة السكون.. وكان الشعاع الفضي الساحر يلقي على الكون دفقا من النور الهادئ الذي يتسلل إلى العيون فيوحي إليها بالخدر اللذيذ ويخترق القلوب فيوحي إليها بالأحلام اللذيذة الساحرة.. ويطل على الطبيعة فيغلفها بغلافه الشفاف الوادع الذي يثير في آفاقها الكثير الكثير من اللذة والأحلام.. وبدأت المقارنة بين ذلك النور الكوكبي الذي يأتي إلينا متعبا واهنا في جهد كبير.. وبين هذا النور القمري الذي يتدفق كشلال في قلب الأفق.. فأين هذا من ذاك.. فهذا هو السر الإلهي الذي كان يبحث عنه.. (قال هذا ربي.. (وعاش معه في حالة روحية من التصوف والعبادة لهذا الرب النوراني الذي يتمثل في السماء قطعة فضية من النور الهادئ الساحر.. وفجأة بدأ الشعاع يبهت.. ثم يغيب.. وانطلقت الحيرة في وعيه من جديد.. أين ذهب الإله وأين غاب.. وهل يمكن للإله أن يغيب ويأفل.. وضجت علامات الاستفهام في روحه تتساءل من هو الإله؟ وأين هو.. وعاش في التصور الضبابي المبهم الغارق في الغامض.. يتوسل بالرب الذي لا يعرف كنهه، أن يهديه سواء السبيل لئلا يضل ويضيع.. (فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.. (وما زال ينتظر وضوح الحقيقة.. وفجأة أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية الدافئة فأخذت عليه وجدانه.. (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي.. هذا أكبر.. (فأين حجم الشمس.. من حجم القمر والكواكب.. فلا بد أن تكون هي الإله الذي يبحث عنه، لأنها تتميز عنهما بصفات كثيرة.. وبدأ يتابعها وهي تتوهج وتشتعل.. وتملأ الكون كله دفئا وحياة وإشراقا وجمالا.. فإذا به يهتز ويتحرك في قوة وامتداد وحيوية دافقة.. ولكن.. ماذا..؟ وبدأ يفكر.. فها هي تبهت وتبرد وتكاد تتضاءل.. ثم تغيب وتأفل.. وتترك الكون في ظلام دامس.. فكيف يمكن أن تكون إلها تعيش الحياة في قدرته وقوته.. ما دامت تغيب مع المجهول تاركة الكون كله في ظلام وفراغ؟.. وأطلق الصرخة فيمن حوله من هؤلاء الناس الذين يعبدون الكواكب والقمر والشمس.. فيما خيل له، في وقت من الأوقات، أنه الحقيقة المطلقة التي لا يعتريها شك ولا ريب.. (فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون.. (من هذه المخلوقات التي انطلقت من العدم، ولا يزال العدم يعشش في كل حركة من حركاتها، أو خطوة من خطواتها.. وتمرد على كل هذه الاتجاهات

الإشراكية لأن الله لا يمكن أن يكون هذه الأشياء المحدودة.. بل لا بد أن يكون شيئا أعظم من ذلك وأكبر.. في القوة والقدرة.. لا في الحجم.. (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض.. حنيفا وما أنا من المشركين.. (.

وهكذا تدفقت إشراقة الإيمان في وعيه وفي قلبه، فأحس بأن الله هو شيء لا كالأشياء لأن الأشياء نتاج قدرته.. وأدرك أن الله لا يحس كما تحس الموجودات الأخرى بالسمع والبصر واللمس، ولكنه يدرك بالعقل وبالقلب وبالشعور.. من خلال كل هذه المخلوقات التي تحيط بالإنسان في الكون الكبير.. من السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن.. فتترك لديه انطباعا بان الله هو الذي فطرها وأوجدها.. ومن خلال هذه الإنطلاقة الإيمانية الرائعة التي أحس معها بالراحة والطمأنينة والانفتاح.. وقف بكل كيانه – ليحول كل وجهه – والوجه هنا كناية عن الذات بجميع التزاماتها وعلاقاتها وتطلعاتها – إلى الله، حنيفا، مخلصا مائلا عن خط الانحراف.. فهو وحده الذي تتوجه إليه العقول والقلوب والوجوه بالخضوع والطاعة المطلقة.. بإحساس العبودية.. وحركة الإيمان.. الذي يعلن هذا التوحيد بما يشبه الصرخة الهادرة الرافضة لكل الوجودات المحدودة، التي تتأله أو التي يحسبها الناس في عداد الآلهة.. وما أنا من المشركين.. وماذا بعد ذلك؟

هل هي الرحلة الأولى في طريق الإيمان، لدى إبراهيم.. أو هي محاكاة استعراضية للأجواء المحيطة به، فيما يعتقده الناس من ألوهية الكواكب والقمر الشمس.. في محاولة إيحائية لمن حوله بسخافة هذه العقائد وتفاهتها وضعفها أمام المنطق الوجداني الصافي، وذلك من موقع ابتعاده عنها بعد اقترابه منها، مما يعطي لموقفه بعض القوة في الإيحاء، باعتباره الموقف الذي عاش التجربة وعاناها.. ثم تمرد عليها..

ربما كان هذا هو الرأي الأقرب الذي يلتقي مع شخصية إبراهيم فيما حدثنا القرآن عن حياته.. فنحن لم نلمح – في غير هذه الآية – حالة تأثر بالجو المحيط به.. بل ربما نرى الأمر – بالعكس من ذلك – حالة تمرد على البيئة حتى فيما يتعلق بالجو العائلي المتمثل في أبيه الذي نقل لنا القرآن موقف إبراهيم منه.. وقد نستطيع استيحاء الآية السابقة التي حدثنا القرآن فيها عن كلام إبراهيم لأبيه حول الأصنام التي يعبدها أن هذا الموقف سابق لموقفه من هذه العقائد.. هذا بالإضافة إلى أن الرؤية التي حدثنا الله عنها لملكوت السماوات والأرض.. لا بد أن تكون الرؤية الوجدانية الواعية التي تحاول أن تثير التفكير من خلالها وليست

الرؤية البصرية الساذجة.. لأنها تبدأ مع الإنسان منذ اللحظة التي يفتح فيها عينيه على الحياة ليتطلع إلى ما فيه من موجودات يدركها البصر.. وربما كانت كلمة (وليكون من الموقنين (إشارة إلى ذلك، لتلتقي بكلمة (.. رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي.. (مما يوحي بأن إبراهيم كان يعيش حالة الفكر الذي يريد أن ينمي من خلاله معلوماته وأفكاره، بكل الأشياء التي تركز قوتها وفاعليتها وثباتها وحركتها أمام التحديات التي تواجهها.. حتى فيما يشبه الأوهام.. ليواجه الصراع الذي يعيشه بانفتاح وقناعة وقوة لا تعرف الضعف ولا التراجع في كل المجالات..

أما الاحتمال الأول، فقد يقربه، أن تكون الحادثة قد حدثت في بداية طفولته، عندما بدأ يتطلع للأشياء، ويفكر في الإله.. في عملية تأمل وتدبر.. في مستوى ذهنية الطفل..

ولعل هذا هو الذي نستوحيه من الجو النفسي الساذج الذي توحي به الآية.. فهذا هو إبراهيم يواجه الكوكب الذي يبدو عاليا عاليا، بعيدا بعيدا.. ولكنه يشرق في قلب الظلام.. فيشعر بالرهبة والروعة.. فيصرخ – في مثل اللهفة – هذا ربي.. انطلاقا مما كان يسمعه بأن الإله بعيد بعيد عن الإنسان، فلما أفل.. أحس بالإنقباض وقال: (لا أحب الآفلين.. (فقد نجد في كلمة (لا أحب.. (بعض كلمات الطفولة البريئة، التي تحب أو لا تحب من خلال مشاعرها الساذجة إزاء الأشياء.. وتتكرر التجربة مع القمر.. وتنطلق الصرخة الطفولية من جديد.. تماما كمثل الهتاف الذي يهتف به الطفل عندما يجد شيئا قد أضاعه، أو شيئا قد طلبه.. وتتكرر خيبة الأمل من جديد.

ولكن الوعي يتنامى هنا – فلا نجد رد الفعل طفوليا.. بل نلاحظ في ردة الفعل حالة حيرة وذهول وتوسل إلى هذا الرب الغامض الذي يتمثله في وعيه هاديا لعباده، أن يهديه إلى الحق لئلا يكون من القوم الضالين.. وتشرق الشمس في هذا الدفق اللاهب من النور الذهبي في إطار هذا الوجه الواسع الذي يتفايض بالشعاع كما يتفايض الينبوع بالماء الصافي الرقراق.. فتكبر الصرخة في طفولية بارزة.. (هذا ربي.. هذا أكبر.. (وينطلق الحجم ليؤكد الفكرة، فيما لا توحي به إلا أفكار الطفل، أو ما يشبه الطفل.. لأن الأشياء الكبيرة توحي للفكر الساذج بالهيبة والعظمة.. بما لا توحي به الأشياء الأقل حجما.. وتتجدد خيبة الأمل بالأفول.. ولكن تلك الإشراقة الساطعة للشمس استطاعت أن تبعث في قلبه إشراقة الإيمان الرافض لكل هذه الأوهام والظنون.

وفي كلا الاحتمالين.. يمكن للعاملين في حقل التوجيه، استيحاء الفكرة العملية في أسلوب التربية.. من خلال الأسلوب الإستعراضي، فيما يتمثل فيه من مناجاة ذاتية تجعل الإنسان يواجه الأفكار المطروحة في الساحة، مواجهة المؤمن بها.. ثم يقوم بمناقشتها بالطريقة التي توحي باكتشاف مواطن الضعف والخلل فيها، بالمستوى الذي يجعلها بعيدة عن الحقيقة، وعن إمكان اعتبارها عقيدة ترتبط بها قضية المصير.. ولا يختص الأمر بالأفكار المتصلة بالعقيدة الإلهية بل يمتد إلى جميع المجالات التي تمثل الخط العملي للحياة.. ويمكن لنا ممارسة هذا الأسلوب في القصة والمسرح والسينما وغيرها من الأساليب التي تخاطب الجمهور لتوجيه قناعاته.. وقد لا نحتاج إلى التأكيد على ضرورة دراسة المستوى العقلي والروحي للناس من أجل تركيز هذا الاتجاه على قاعدة متحركة في الفكرة والأسلوب.. كما يمكن استيحاء القصة في مدلولها الرسالي في عدم خضوع الإنسان للبيئة فيما تحمل من أفكار وعادات ومشاعر، بل يعمل على ممارسة دوره الذاتي المستقل، كإنسان يفكر بحرية.. ويقتنع على أساس الدليل.

وتبقى لنا - في هذا المجال - هذه البراءة الفكرية من إبراهيم.. حيث نتمثله إنسانا يواجه العقيدة من موقع البساطة الوجدانية، والعفوية الروحية، التي تلتقي بالقضايا من وحي الفطرة لا من وحي التكلف والتعقيد.. ثم هذه اللهفة الحارة المنفتحة على الله - سبحانه - عند اكتشافه للحقيقة في توحيده في كل شيء، وفي الإقبال عليه بكل وجهه، وبكل فكره، وبكل روحه وانطلاقه العملي في الحياة.. لأن توجيه الوجه لله.. لا يعني - في مدلوله العميق - هذا الموقف الساذج الذي يتطلع فيه الإنسان نحو الأفق الممتد في السماء بنظرة حائرة بلهاء.. بل يعني انطلاقة حياة الإنسان وكيانه مع الله فيما يحمل من عقيدة، وفيما يرتبط به من فكر، وفيما يتحرك معه من خط، وفيما يستهدفه من أهداف.. وفيما يعيشه من علاقات وأوضاع وتطلعات.. إنه الاندماج في الحقيقة الإلهية، بأن تكون الحياة كلها لله.. وفي خدمة الله..

ولعل قيمة هذه الفكرة.. هي أنها لا توحي إلينا بآفاقها وخطواتها العملية، من وحي التجريد لنعيش معها في متاهات النظريات التجريدية.. بل هي حركة الإنسان - النبي الذي يعيش حركة الإيمان والفكر في حياته من موقع إنسانيته البسيطة.. ليوحي إلينا بأن دور الإنسان الذي يريد أن يحقق إنسانيته، هو أن ينعزل عن كل الحدود المادية الضيقة التي تشده إلى الأرض في استسلام ذليل،

ويرتبط بالحقيقة المطلقة التي يحلق من خلالها مع الله " (١).

وقفة قصيرة

ونقول: إن احتمال عبادة إبراهيم (ع) للكوكب وغيره، مناف للعصمة، ولا يصح إبداؤه في حق المعصومين عموما، ولا يمكن أن يقربه شيء، لا في الطفولة ولا فيما بعدها، على ما هي عليه عقيدة علماء المذهب القطعية، المأخوذة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ونحن نشير هنا إلى بعض ما يوضح ذلك، وعدم صحة تفسير الآيات بما فسرها به ذلك البعض.

تفسير الآيات

إننا نستفيد من الآيات الكريمة، ما يدل على عدم صحة ما ذكره هذا البعض، فلاحظ ما يلي:

١ - إننا لا نجد أي دليل على أن هذه القضية قد حصلت لإبراهيم في زمان طفولته، بل في الآيات ما يشير إلى خلاف ذلك، وأن ذلك كان في مقام الاحتجاج على قومه.

٢ - إن ما يلفت نظرنا أنه حين طلع الصباح على إبراهيم (ع)، ورأى أفول الكوكب وانحسار نوره، لم يتوجه إلى الشمس التي ظهرت له، بل انتظر إلى الليل، ليتوجه إلى القمر، ليخاطبه بذلك الخطاب: (هذا ربي)!! فلما أفل، وطلع الفجر مرة أخرى، وأشرقت الشمس، توجه إليها ليعتقد أنها هي ربه الحقيقي. حسبما شرحه لنا ذلك البعض (!!).

فلماذا تركها في اليوم الأول حين أفول النجم، وانتظر إلى الليل ليعتقد بألوهية القمر دونها؟!. أم أنه قد نام النهار كله من شروق الشمس إلى غروبها، فلم ير الشمس، حتى ولو في ساعة من نهار؟!. أو أنه قد دخل كهفا مظلما، ولم يتذكر وجود الشمس، ولا التفت إليه؟!

٣ - إن نفس ذلك البعض يقر بأن إبراهيم (ع) كان يرى الشمس قبل ذلك في سنوات طفولته، وكان يرى القمر والكواكب أيضا - فلماذا لم يعتقد بربوبيتها منذئذ؟!. أو لماذا لم يتساءل عن هذا الأمر؟!. ولماذا لم يدرك

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٩ ص ١١٢ - ١٢٣.

أن الشمس أكبر من القمر والكواكب فور رؤيته لها طالما أنه قد رآها؟. أم أنه يريد تأكيد طفولة وبراءة إبراهيم من خلال عبارة (هذا أكبر) أو (لا أحب)؟.

٤ - لماذا التزم إبراهيم بربوبية هذا الكوكب بعينه، دون سائر الكواكب الطالعة وما أكثرها؟ !.

٥ - إن ذلك البعض يصرح بأن الظاهر أن قصة إبراهيم (ع) مع أبيه آزر، كانت أسبق من هذه القضية، فكيف كان مؤمنا هناك، ويدعوه للإيمان بالله وترك الأصنام؟ وكافرا ومشركا هنا يعبد الكواكب والنجوم تارة ولا يعرف إلهه تارة أخرى؟!، فهل كان يدعوه إلى إله لا يعرفه؟! أم أن إبراهيم (ع) كفر بعد إيمانه؟!. وهل يصح منه بعد هذا أن يحتمل في حقه عليه الصلاة والسلام أن يكون قد عبد الكوكب حقيقة؟!. علما أن عبادة الكواكب خروج عن الفطرة، ومعصية ما بعدها معصية، والأنبياء معصومون عنها قبل البعثة وبعدها.

٦ - ثم إن إبراهيم (ع) استدل على بطلان ألوهية الكوكب بالأفول، لان الله لا يأفل. فالذي يدرك مثل هذا الأمر الدقيق في ما يتعلق بصفات الإله، كيف لا يدرك صفة أوضح منها وهي استحالة الجسمية على الله؟ مع أنه كان يعرف هذا الأفول قبل ذلك لأنه كان قد رأى الكواكب سابقا، وعرف أنها تطلع وتغيب باعتراف القائل نفسه.

٧ - إن إبراهيم (ع) بعد أن استدل بالأفول على بطلان ألوهية الكوكب، كيف عاد واعتقد بألوهية القمر؟ مع علمه بأنه يأفل ويغيب، ثم كيف عاد ليعتقد بألوهية الشمس مع علمه بأنها تغيب أيضا؟!.

٨ - أما التعليل ب (هذا أكبر)، فلا ينفع مع الاستدلال ب (لا أحب الآفلين)، لان الآفل لا يصلح للألوهية سواء كان كبيرا أو صغيرا.

أضف إلى ذلك كله أن القمر قد كان أكبر من الكوكب أيضا فلماذا لم يلتفت إبراهيم إلى ذلك في حينه؟.

٩ - إن ذلك البعض لم يذكر لقارئه ما روي عن الإمام الرضا (ع)، من أنه قد رفض أن يكون إبراهيم عليه السلام قد أشرك بالله، وقرر أن إبراهيم (ع) إنما قال ذلك على سبيل الإنكار على قومه لتسخيف معتقدهم. والرواية هي التالية:

ابن بابويه قال حدثنا تميم بن عبد الله بن تميم القرشي رضي الله عنه، قال حدثنا أبي عن حمدان بن سليمان النيسابوري، عن علي بن محمد بن الجهم، قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟

قال: بلى.

قال: فسأله عن آيات من القرآن في الأنبياء، فكان فيما سأله أن قال له فأخبرني عن قول الله عز وجل في إبراهيم (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي (.

فقال الرضا (ع): إن إبراهيم وقع إلى ثلاثة أصناف، صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس، وذلك حين خرج من السرب الذي أخفى فيه، (فلما جن عليه الليل رأى الزهرة قال هذا ربي على الإنكار والإستخبار، فلما أفل الكوكب قال لا أحب الآفلين، لأن الأفول من صفات المحدث لا من صفات القديم.

(فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي (على الإنكار والإستخبار، (فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (.

فلما أصبح (رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر (من الزهرة والقمر على الإنكار والإستخبار، لا على الإقرار والإخبار..

(فلما أفلت (قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس (يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين (.

وإنما أراد إبراهيم بما قال أن يبين لهم بطلان دينهم، ويثبت عندهم أن العبادة لا تحق لما كان بصفة الزهرة والقمر والشمس، وإنما تحق العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض. وكان ما احتج به على قومه مما ألهمه الله عز وجل وآتاه، كما قال عز وجل (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه (، فقال المأمون: لله درك يا ابن رسول الله (١).

١٠ – إن قوله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون

---

(١) تفسير البرهان ج ١ ص ٥٣١.

من الموقنين (، قد فرع عليه قوله: (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي (، فهذا التفريع على إراءته ملكوت السماوات والأرض، وعلى كون إبراهيم (ع) من الموقنين، يشير إلى أنه لم يقل هذا ربي عن اعتقاد، بل قاله عن إنكار واستهزاء.

١١ - هذا غيض من فيض مما ورد في النص المنقول عن (من وحي القرآن)، ونترك الكثير الكثير من المداليل والملاحظات الموجودة لقارئنا الكريم، ليستخلصها بنفسه بعد أن عرف الضابطة في الفرق بين أوصاف الأنبياء وأحوالهم، وأوصاف الأشقياء وخصالهم.

٢٦٦ - أنا أقول: إن آدم ساذج.

٢٦٧ - أنا لا أقول: إن إبراهيم ساذج.

٢٦٨ - قلنا: إن آدم لم يكن عنده تجربة.

سئل البعض:

نريد منكم توضيحا من أجل أن نطمئن، فالعلم حاصل والحمد لله، ولكننا نريد توضيحا للبعض، والأمور التي نأمل توضيحها، والتي ينسبونها إليكم: أن إبراهيم ساذج؟

فأجاب:

" أنا أصحح، إنا نقول: إن آدم ساذج، وليس إبراهيم، ولكن هم يقولون إني قلت: إن إبراهيم كان كافرا في بداية حياته، وأما عن آدم كان ساذجا، فنحن قلنا: إن آدم لم يكن عنده تجربة بعد، فقد خلقه الله بعلم أولي لكن بدون تجربة ميدانية يختبر فيها قوته، وقدرته وعزيمته.. الخ " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن تصحيح هذا البعض غير صحيح، فإنه قد اتهم إبراهيم بالسذاجة أكثر من ثلاث مرات، بل خمس مرات، فراجع كتابه (من وحي القرآن ج ٩ - ص ١١٥ و ١٢٠ و ١٢١ - الطبعة الأولى) فهل نسي هذا البعض ما كتبته يداه؟!.

٢ - إن تأويله لمعنى السذاجة غير مقبول وذلك لما يلي:

----

(١) الزهراء المعصومة: ص ٤٨.

أولا: إنه هو نفسه قد طلب من الناس أن لا يكونوا ساذجين - يضحك الناس عليهم - وذلك في بعض خطبه التي بثت من إذاعة تابعة له.
كما أنه قد فسر السذاجة التي يقصدها في حديثه عن شيخ الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) بأنها النظرة الحائرة البلهاء (١).
وثانيا: لنفترض جدلا أن تفسيره للسذاجة بالنسبة للنبي آدم يمكن غض النظر عنه، باعتبار أنه لم يكن لديه اطلاع على مكر إبليس.. فما هو مراده منها حين أطلقها خمس مرات على شيخ الأنبياء إبراهيم - عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.
وثالثا: لو أردنا أن نصف هذا البعض نفسه بالسذاجة، بأي معنى أراد، وبغير ذلك من أوصاف أطلقها على أنبياء الله وعلى الأوصياء، فضلا عما وصف به مراجع الأمة وأساطين العلم فيها، ثم نثبت ذلك في مؤلفاتنا، لتقرأه الأجيال، وليتدارسوه ويتناقلوه، فهل سيكون راضيا هو ومحبوه ومناصروه؟ أم أنهم سوف يقيمون الدنيا ثم لا يقعدونها؟!!

ليس من التناقض

وقد ذكر البعض:
في الفقرة السابقة والتالية: أننا قلنا عنه: إنه يقول: إن:
٢٦٩ - إبراهيم كان كافرا في بداية حياته..
فيجيب:
" إنه لم يقل ذلك، بل ذكر احتمالين.. "
وقال:
٢٧٠ - الأقرب: أن فعل إبراهيم كان طريقة ذكية للإقناع:
ونقول:
نعم إن هذا البعض يذكر بالنسبة لإبراهيم احتمالين اثنين:
" أحدهما: أنه لما رأى الكوكب بازغا اعتقد أنه ربه على الحقيقة، ثم لما رأى القمر

----
(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ٩ ص ١٢٢ و ١٢٣، وراجع: خلفيات: ج ١، ص ٨٠.

بازغا غير رأيه، واعتقد أنه هو الإله، وعاش معه حالة روحية من التصوف والعبادة لهذا الرب، فلما أفل غير رأيه ثالثة فاعتقد أن الشمس هي ربه، فلما أفلت اتضحت له الحقيقة..

الثاني: أن إبراهيم قد قال ذلك على سبيل المحاكاة الاستعراضية، ليؤكد لقومه فساد آرائهم واعتقاداتهم ".

ثم اعتبر أن الاحتمال الثاني ربما يكون أقرب من الاحتمال الأول (١) وهذا يعنى أن الاحتمال الأول لا يزال موجودا وقائما.

وذلك يتنافى مع اليقين والقطع، والاعتقاد بالعصمة، وعدم كفر الأنبياء، ولو قبل البعثة..

والغريب أنه وهو ينكر علينا ما نقلناه عنه قد عاد فقرر نفس ما أخذناه عليه فقال:

" يأتي الثاني ويقول: إن السيد يقول: إن إبراهيم كان يعبد الكواكب في بداية حياته، أنا أقول في تفسيري من وحي القرآن وهو مطبوع من ١٥ سنة وهو ليس جديدا، أنا أقول هناك تفسيران: بعض الناس يفسرون أن إبراهيم (عليه السلام) كان يسمع أناسا يعبدون الكواكب، فتدور الأفكار في رأسه وتحيره، فهو قد أراه الله ملكوت السماوات والأرض. رأى كوكبا، قال: هذا ربي، رأى قمرا، قال: هذا ربي، وبعدها انتهى إلى نتيجة تلتقي بالدين الصحيح.

وهنا فكرة ثانية تقول: إن إبراهيم (عليه السلام) حاول أن يواجه قومه بطريقة ذكية، وبأسلوب منفتح. كيف ذلك؟ بأن يصور نفسه وكأنه واحد منهم، أي أنه يعبد الكواكب، ثم يجلس أمامهم وهم قاعدون ويقول: هذا ربي فيرتاحون لقوله.. ولما أفل قال: لا أحب الآفلين، لا يمكن أن يكون الرب كوكبا، فالرب يجب أن يكون موجودا دائما، ولما رأى القمر بازغا.. كذلك، لما رأى الشمس.. كذلك.. فهو حاول أن يرد على أفكارهم كما لو كان ممن يتبنى هذا الفكر ليحصل على فرصة مناقشته دون إثارة حساسياتهم.

أنا ذكرت هذين الاحتمالين في تفسير (من وحي القرآن) قبل خمسة عشر عاما، وكل منكم يمكن أن يعود إلى هذا التفسير ويراجعه، أنا قلت: الأقرب من هذين الاحتمالين هو أن هذا أسلوب من أساليب النبي إبراهيم (عليه السلام) من أجل أن يهدم هذه الفكرة بالطريقة الذكية.

----

(١) راجع من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٩، ص ١١٢ - ١٢٣.

حتى أني قلت: يجب أن نستفيد من هذا الأسلوب في مجال الرواية والقصة والمسرح.. إذا أردنا أن نثبت هذا المعنى.

فجاء من يقول: إن السيد يقول بأن إبراهيم (عليه السلام) كان كافرا، ونحن نعرف أن الأنبياء (عليهم السلام) لا بد من أن يكونوا معصومين، وأنا قلت: إن إبراهيم (عليه السلام)، من الأساس تمرد على بيئته، تمرد على أبيه أو عمه " (١).

وسئل البعض أيضا:

في قوله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ((الأنعام: ٧٥) فهل كان إبراهيم (عليه السلام) غير مقتنع بظواهر الكون الدالة على وجود خالق منظم؟ أم هي واردة بمثابة الحجة؟.

فأجاب:

" الأقوى أن إبراهيم كان يستعرض العقائد الباطلة الموجودة في زمانه.. وكان يحاول أن يطرحها كما لو أنها كانت متبناة من قبله حتى يستمع الناس اليه وهو يناجي نفسه.. الخ (٢).

وقفة قصيرة

وإننا ننبه القارئ العزيز إلى أنه إذا كان يقصدنا بقوله " يقولون:.. "، فإننا نعلن أننا لم نقل: إنه قال عن إبراهيم: إنه كان كافرا.. بل قلنا: إنه يقول: يحتمل أن يكون إبراهيم قد عبد الكوكب والشمس والقمر.. فراجع عباراتنا حول هذا الموضوع تجد صحة ذلك.

وخلاصة القول: أنه قد أنكر شيئا لم يتهمه به أحد.

ثم إنه عاد وقرر نفس مقولته التي اعتبرناها خروجا على الإعتقاد بعصمة الأنبياء عن الكفر والشرك، لما تتضمنه من احتمال ذلك في حق إبراهيم (عليه السلام)، فإن احتمال عبادة الشمس والقمر والكوكب لا ينسجم مع اليقين بالعصمة عن ذلك. وها هو نفسه هنا يعترف بما قلناه، وإن كان يمكن القول بأنه قد عاد وناقض نفسه من جديد في آخر كلامه الذي نقلناه عن: " الزهراء

---

(١) الزهراء المعصومة: ص ٥٠ - ٥٢.

(٢) نشرة فكر وثقافة: عدد ١٦٧، ص ٣.

المعصومة "، ويمكن رفع هذا التناقض ببيان أن كلمة الأقوى لا تزال تستبطن وجود الاحتمال الآخر الذي هو قوي أيضا، لكن هذا الاحتمال أقوى منه.
٢٧١ - النبي يخاف لأنه يعيش الضعف البشري.
٢٧٢ - لا مشكلة في الاستسلام للخوف.
٢٧٣ - الملائكة لم يأتوا ليخلقوا عقدة الخوف والقلق لدى إبراهيم.
٢٧٤ - الحالة فاجأت إبراهيم بما يشبه الصدمة.
يقول البعض:
" (وأوجس منهم خيفة (نظرا للغموض الذي لف الموقف، فهو لا يعرفهم بأشخاصهم، والامتناع عن الأكل يوحي - في عرف الناس آنذاك - بالعداوة وبإضمار الشر للمضيف، مما جعله يحس بالخوف والقلق، ولا مانع من حدوث مثل ذلك للأنبياء الذين يعيشون الضعف البشري الذي تخضع له المشاعر الذاتية، ولكن بالمستوى الذي لا يؤدي إلى السقوط في المعصية، ولا يوحي بالإنسحاق، ولا يمنع من العصمة.
ولعل سر عظمتهم في تمثلهم خط التوازن بين نقاط الضعف التي تؤكد بشريتهم، ونقاط القوة التي تنطلق من حركة الإيمان والرسالة في روحيتهم، فلا مشكلة في إحساس الإنسان بالخوف، بل في الاستسلام له، وليس الخوف حالة سلبية في ذاته، بل قد يكون حالة إيجابية بما يشكله من حماية للإنسان من الأخطار المهلكة التي تحيط به. ولذا كان إبراهيم خاضعا لتأثير هذه الحالة الطبيعية من الإحساس بالخوف أمام ظاهرة غامضة فاجأته بما يشبه الصدمة، ولكن الملائكة لم يأتوا ليخلقوا عقدة الخوف، وليثيروا في داخله القلق، (قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (فلسنا من البشر، ولا نريد بك شرا، بل نحن مرسلون إلى قوم لوط لأداء مهمة إلهية، تستهدف إهلاكهم بالطريقة التي أمرنا الله بها " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - لو قبلنا جدلا أن الضعف البشري الذي تخضع له المشاعر الذاتية هو الذي يتسبب بحدوث الخوف لدى الأنبياء.. فإننا نسأل: من أين عرف هذا

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٢ ص ٩٧.

البعض: أن هذا الخوف لا يصل إلى درجة يؤدي إلى السقوط في المعصية، ولا يوحي بالإنسحاق، ولا يمنع من العصمة؟! فهل هذا الا رجم بالغيب، وحديث في أمور لا سبيل للاطلاع على مقاديرها إلا لعلام الغيوب؟!

ويزيد الأمر إشكالا أن هذا البعض نفسه يشترط الدليل المفيد للقطع في كل أمر هو من هذا القبيل، فأين هو هذا الدليل الذي قدمه على أن الخوف يكون بهذا المقدار أو ذاك؟!.

٢ - من أين عرف هذا البعض: أن منشأ خوف نبي الله إبراهيم (عليه السلام) هو ضعفه البشري. ولماذا لا يقول: إن التكليف الإلهي لإبراهيم (عليه السلام) هو أن يقف موقف الحذر، وأن يحتاط لنفسه كما يحتاط الخائف في المواقع المماثلة.. حتى وإن لم يكن قد اختلج في نفسه أي خاطر؟!

٣ - من أين عرف: أنهم قد امتنعوا عن الأكل.. فإن الآية الشريفة تقول: (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم، وأوجس منهم خيفة.. (فإن ظاهر الآية أنه رآهم يتظاهرون بأنهم يأكلون، ويمدون أيديهم إلى الطعام بحسب الظاهر. ولكن أيديهم لا تصل إلى ذلك الطعام، فكان أمرا غير طبيعي، وهو يدعو إلى الحذر.. وذلك هو الواجب الشرعي، وهو الحزم في مثل هذه الحالة.

٤ - من أين عرف هذا البعض: أن ما جرى قد فاجأ إبراهيم بما يشبه الصدمة. وربما نجد في قوله تعالى (أوجس منهم خيفة (، والخيفة هي نوع من الخوف.. - ربما نجد فيه - إشارة إلى أنها خيفة ضعيفة استحقت الإشارة إليها بتنوين التنكير المفيد للضعف والوهن، نظير قوله تعالى عن اليهود: (لتجدنهم أحرص الناس على حياة.. (أو أنها كانت خيفة خاصة - وهي ذلك الإدراك لأمر خفي يدعو إلى الحذر الحازم الذي هو واجب شرعا..

٥ - وأما قوله:

" ولكن الملائكة لم يأتوا ليخلقوا عقدة الخوف.. "

فهو مما لا يمكن الموافقة عليه.. لأن ذلك يستبطن إمكانية ابتلاء أنبياء الله بالعقد النفسية، وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلا، بالنسبة لأي نبي كان، فكيف بشيخ الأنبياء الذي هو من أولي العزم، وأفضل رسل الله بعد نبينا

الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).
٦ - ونلفت النظر أخيرا.. إلى أن ثمة عدة آيات تحدثت عن خوف حصل لبعض الأنبياء في بعض المواقع الحساسة، كقول الله سبحانه: (وأوجس في نفسه خيفة موسى (، وقوله تعالى (قلنا: لا تخف إنك أنت الأعلى (ونحو ذلك..
فمن الواضح: أن خوفهم (عليهم السلام) ليس خوف الضعفاء والجبناء، وإنما هو خوف المسؤولية، حيث يخاف النبي على الرسالة، وعلى الدين، وعلى مستقبل الدعوة إلى الله سبحانه، فيحزن لذلك، ويتألم، وهو يرى بطش الجبارين وكيد المبطلين، وقد تحدثنا عن ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.
٧ - وأما بالنسبة لقول هذا البعض:
" إن إبراهيم أحس بالخوف أمام ظاهرة فاجأته بما يشبه الصدمة.. "
فهو كلام مرفوض، لأن الصدمة تعبير يختزن معنى العجز عن التصرف، والإستئسار للمفاجأة، وفقدان البصيرة تحت وطأة الحدث الصاعق، ولو للحظات، ولا يمكن قبول ذلك بالنسبة للأنبياء الذين يعيشون حالة اليقظة التامة، والتوازن في جميع الأحوال فلا تأسرهم المفاجآت، ولا تذهب بأحلامهم (١) مهما عظمت.
٢٧٥ - إبراهيم يتحير في أمر نزول العذاب على القوم ولوط فيهم.
٢٧٦ - إبراهيم لا يعرف أن الله ينجي أنبياءه من عذاب الاستئصال.
٢٧٧ - إبراهيم تصرف انطلاقا من النظرة السريعة للموقف.
٢٧٨ - التسرع سبب الإعلان المفاجئ عن تعذيبهم.
٢٧٩ - إبراهيم تسرع في البشارة فاستغرب ذلك واستبعده.
٢٨٠ - لا يستحضر في نفسه كل ما يتصل بالاحداث.
٢٨١ - قد تكون فكرة هلاك لوط مع قومه واردة عند إبراهيم.
٢٨٢ - الرواية تؤيد الرأي المخالف.. الذي ناقشه ولا يأخذ بها.
يقول البعض:
" (قال إن فيها لوطا (فإذا كانوا ظالمين، فإن لوطا ليس منهم، فكيف ينزل العذاب عليها وهو فيها، فإن عذاب الله إذا نزل على أهل بلد شمل الجميع، فلا ينجو منه

---

(١) المقصود: عقولهم.

أحد (قالوا نحن أعلم بمن فيها (فقد عرفنا وجود لوط، وقد خططنا لإخراجه منها مع أهله - ما عدا امرأته - قبل إنزال العذاب، فإن الله قد أنزل العذاب عليهم لاستحقاقهم ذلك ولتمردهم على لوط واستخفافهم به، ولاستجابة دعائه بالنصرة عليهم، فكيف يناله العذاب و (لننجينه وأهله، إلا امرأته كانت من الغابرين (الهالكين الذين يضمهم غبار الموت لأنها كانت مؤيدة لقومها ضد لوط.

هل كان إبراهيم يعلم أن لوطا يعذب؟

وهناك لفتة جيدة، ذكرها صاحب تفسير الميزان في تفسير كلام إبراهيم للملائكة (إن فيها لوطا (قال: إن إبراهيم - عليه السلام -، لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطا وهو نبي مرسل، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته، ولا أنه يخوفه ويذعره ويفزعه بقهره عليهم، بل كان (عليه السلام) يريد بقوله: (إن فيها لوطا (أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط، فأجيب بأنهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة: (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ((هود: ٧٤ - ٧٦) (١).

وقد نلاحظ على ذلك، أن الآية لا يظهر فيها ما ذكره، ولهذا كان جواب الملائكة بيانا لمصير لوط، لا لمناقشة مصير قومه، كما ذكر في سورة هود، ولا مانع من أن يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أثار مصير قوم لوط معهم كما أثار مصير لوط، انطلاقا من النظرة السريعة للموقف على أساس الإعلان المفاجئ عن تعذيبهم، تماما كما كان رد فعله السريع على البشارة، باستغراب ذلك واستبعاده، وليس من الضروري أن يكون النبي مستحضرا في نفسه لكل الأمور المتصلة بالاحداث، بحيث يفقد عنصر المفاجأة في كل شيء، فقد تكون فكرة هلاك لوط مع قومه واردة على أساس أن الأمور التكوينية لا تفرق في بلاء الدنيا بين الصالحين، وغيرهم، والله العالم.

وقد جاء في الكافي ما ربما يؤيد التفسير السابق الذي ناقشناه، بإسناده عن أبي زيد الحماد، عن أبي عبد الله جعفر الصادق - عليه السلام - في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال: فقال لهم إبراهيم: لماذا جئتم؟ قالوا: في إهلاك قوم لوط فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل لا، قال: فإن كان فيها

----

(١) تفسير الميزان: ج ١٦، ص ١٢٨.

خمسون؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها ثلاثون؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها عشرون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها عشرة؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها واحد؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها لوطا؟ قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، قال الحسن بن علي (عليه السلام): لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم، وهو قول الله تعالى (يجادلنا في قوم لوط ((١).

وقفة قصيرة

ونقول:

إننا نلاحظ الأمور التالية:

١ - قوله:

" إن قلق إبراهيم عليه السلام إنما كان على مصير النبي لوط (عليه السلام) وذلك استنادا إلى قول إبراهيم للملائكة: (إن فيها لوطا.. (.. "

غير صحيح فإن هذا القول لا يدل إلا على توقعه أن وجود لوط سيمنع من أن ينالهم العذاب.. ولا يدل على اعتقاده أن العذاب - لو نزل - سيحيق بلوط أيضا.

٢ - إن الله سبحانه قد صرح بأن جدال إبراهيم إنما كان في قوم لوط، قال تعالى: (فلما ذهب عن إبراهيم الروع، وجاءته البشرى * يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا (أي عن رفع العذاب عن قوم لوط (إنه قد جاء أمر ربك * وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ((٢).

٣ - هذا بالإضافة إلى الرواية المروية عن الامام الصادق، والتي أوردها هذا البعض نفسه حيث تدل - كما اعترف هو نفسه - على أن إبراهيم كان مهتما برفع العذاب عن قوم لوط، وأنه اتخذ من وجود لوط فيما بينهم ذريعة إلى ذلك فلماذا يصر هذا البعض على مخالفة الرواية، بل الآية أيضا؟!

ولماذا أشار إلى دلالة الرواية على خلاف ما يذهب إليه، مع مزيد من التضعيف، وإثارة الشك والارتياب في تلك الدلالة، حيث قال: " ما ربما يؤيد ".

٤ - لماذا يتهم إبراهيم (عليه السلام) شيخ الأنبياء، وأفضلهم بعد نبينا

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٨، ص ٤٦ و ٤٧ و ٤٨.

(٢) سورة هود: ٧٤ - ٧٦.

محمد (صلى الله عليه وآله) بأنه كان متسرعا في موقفه، وواقعا تحت تأثير المفاجأة، حتى إنه حينما جاءته الملائكة بالبشرى استغرب ذلك واستبعده..

كما أنه قد عرض به (عليه السلام) حين اعتبر أن ليس من الضروري أن يكون إبراهيم (عليه السلام) مستحضرا في نفسه لكل الأمور المتصلة بالأحداث بحيث يفقد عنصر المفاجأة في كل شيء.

فإن هذا التعريض مرفوض جملة وتفصيلا، إذ مهما كان وقع المفاجأة على إبراهيم (عليه السلام) قويا، فإنه لا يمكن أن لا يمر في وهمه: أن الله سبحانه رحيم بالعباد، ولا يفعل إلا الحق، ولا ينزل العذاب إلا بمن يستحق.

ولا يمكن أيضا أن تختلط عليه الأمور فيظن أن الله سبحانه ينزل العذاب بحيث يشمل حتى نبيه الذي أرسله.. فإن غضب الله سبحانه ليس عشوائيا بحيث لا تبقى ثمة ضوابط أو معايير لما يصدر عنه ومنه، وحاشا إبراهيم أن يظن بالله ذلك.

٥ - وإذا كان هذا البعض قد أدرك هذه الحقيقة، وهي إساءة القوم واستحقاقهم نزول العذاب عليهم، ثم نزوله بالفعل، ونبي الله فيهم معناه هلاك ذلك النبي الأمر الذي لا بد أن يمنع من نزول العذاب - نعم إذا أدرك هذا البعض ذلك فكيف لم يدركه إبراهيم النبي (صلوات الله وسلامه عليه)؟!.

٦ - وقد كان من المفروض: أن يثور احتمال لدى إبراهيم، إن يخرج الملائكة لوطا من بين قومه، ثم يهلكونهم بما فعلت أيديهم.

٧ - ومن الواضح: أن إبراهيم كان يعلم: أن للشفاعة تأثيرا في رفع العذاب، وهي من أسباب غفران الذنوب حتى الكبيرة..

وقد كان الموقف يحتاج إلى إظهار وتجسيد حقيقة أن عذاب قوم لوط قد أصبح من المحتوم، وأن جرائمهم هي من الخطورة إلى درجة أنها حجبت حتى عنصر الشفاعة عن التأثير في رفع العذاب عنهم.. وقد كان من واجب إبراهيم أن يبادر إلى ذلك الموقف من أجل أن تستنفد جميع الأسباب، من جهة، ومن أجل إظهار وتجسيد هذه الحقيقة بالذات من جهة أخرى..

٨ - إن هذا البعض قد ادعى أن إبراهيم خاف على لوط، ولم يكن يعرف أن الله ينجي أنبياءه من عذاب الاستئصال.

ونقول:
إن العقل يرفض أخذ البريء بذنب المجرم، كما أن النصوص القرآنية قد ألمحت وصرحت مرارا وتكرارا بأن الله لا يظلم أحدا، ولا يعامل البريء والمذنب على حد سواء، (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) (١). وصرحت الآيات أيضا بأنه تعالى إنما يهلك أهل القرى بظلمهم، ويأخذهم بذنوبهم.. (٢).
بل صرحت بأن الله ينجي المؤمنين، ويهلك من عداهم فقد قال تعالى:
(واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر، إذ يعدون في السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ قالت أمة منهم: لم تعظون قوما الله مهلكهم، أو معذبهم عذابا شديدا، قالوا: معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتقون. فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ((٣).
وبعدما تقدم نقول:
صحيح أن السنة الإلهية جارية على أن عذاب الاستئصال إذا نزل، فإنه يعم كل من نزل عليهم..
ولكن من الواضح أيضا: أن العذاب إنما ينزل على خصوص المجرمين، إما لارتكابهم الجرائم فعلا، أو لأجل رضاهم بها وعدم قيامهم بواجبهم في رفعها، وعدم تحريكهم ساكنا في مواجهتها.
فيأخذهم الله بذنوبهم نفسها.. فهل يمكن اتهام لوط بأنه مقصر في واجباته، أو أنه مرتكب للجرائم أو راض بارتكابها؟! أو هل يمكن اتهام إبراهيم بأنه يجهل هذه الحقيقة أعني حقيقة أن الله لم يكن ليعذب نبيه بعذاب الاستئصال؟ بل ينجيه منه وينجي من آمن معه؟!
ولأجل ذلك نجد أن الله سبحانه لم يغرق قوم نوح حتى صنع نوح

---

(١) سورة القلم: الآية ٣٥، وسورة النساء: الآية ٤٠.
(٢) سورة القصص: الآية ٥٩، والعنكبوت: الآية ٣١ و ٣٤ و ٤٠، وسورة الأعراف: الآية ١٠٠، وسورة النحل: ١١٢ و ١١٣، وسورة الإسراء: ١٦، وسورة الأنبياء: ١١، وسورة الحج: ٤٥ و ٤٨.
(٣) سورة الأعراف: الآيات ١٦٣ - ١٦٦.

السفينة، وحمل بها كل من آمن معه، فلماذا لم يتعلم إبراهيم - عليه السلام - من هذه القضية بالذات.
وقد سئل الرضا (عليه السلام): لأي علة أغرق الله عز وجل الدنيا كلها في زمن نوح عليه السلام وفيهم الأطفال، وفيهم من لا ذنب له؟ فقال عليه السلام: (ما كان فيهم الأطفال، لأن الله (عز وجل) أعقم أصلاب قوم نوح (عليه السلام)، وأرحام نسائهم أربعين عاما، فانقطع نسلهم، فغرقوا ولا طفل فيهم، وما كان الله - عز وجل - ليهلك بعذابه من لا ذنب له.
وأما الباقون من قوم نوح (عليه السلام) فأغرقوا لتكذيبهم نبي الله نوحا (عليه السلام)، وسائرهم أغرقوا برضاهم بتكذيب المكذبين.
ومن غاب عن أمر، فرضي به كان كمن شهده وأتاه) (١).
وسأل سدير أبا جعفر (عليه السلام): أرأيت نوحا (عليه السلام) حين دعا على قومه، فقال: (يا رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا)؟.
قال (عليه السلام): (علم أنه لا ينجب من بينهم أحد، قال: قلت: وكيف ذلك؟! قال: أوحى الله إليه: (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن (فعند هذا دعا عليهم بهذا الدعاء) (٢).
وعن ابن عباس: قال عزير: يا رب، إني نظرت في جميع أمورك وإحكامها، فعرفت عدلك بعقلي، وبقي باب لم أعرفه، إنك تسخط على أهل البلية، فتعمهم بعذابك، وفيهم الأطفال!
فأمره الله تعالى: أن يخرج إلى البرية، وكان الحر شديدا، فرأى شجرة فاستظل بها ونام، فجاءت نملة فقرصته، فدلك الأرض برجله، فقتل من النمل كثيرا، فعرف أنه مثل ضرب، فقيل له:
(يا عزير، إن القوم إذا استحقوا عذابي قدرت نزوله عند قضاء آجال الأطفال، فماتوا أولئك بآجالهم، وهلك هؤلاء بعذابي) (٣).

---

(١) علل الشرائع: ص ٢٢ وعيون أخبار الرضا: ج ١، ص ٢٣١ - والبحار: ج ٥ ص ٢٨٣.
(٢) علل الشرائع: ص ٢٢ - والبحار: ج ٥، ص ٢٨٣.
(٣) بحار الأنوار: ج ٥، ص ٢٨٦، عن قصص الأنبياء.

قال المجلسي:
(إن الله تعالى كما أنه يميت متفرقا، إما لمصلحتهم، أو لمصلحة آبائهم، أو لمصلحة النظام الكلي، كذلك قد يقدر موتهم جميعا في وقت واحد لبعض تلك المصالح.
وليس ذلك على جهة الغضب عليهم، بل رحمة لهم، لعلمه تعالى بأنهم يصيرون بعد بلوغهم كفارا، أو يعوضهم في الآخرة، ويميتهم لردع سائر الخلق عن الاجتراء على مساخط الله، أو غير ذلك.
مع أنه ليس يجب على الله تعالى إبقاء الخلق أبدا، فكل مصلحة تقتضي موتهم في كبرهم، يمكن جريانها في موتهم عند صغرهم، والله تعالى يعلم) (١).
وعن الإمام الباقر (عليه السلام): (إن الله أوحى إلى يونس حين دعا على قومه: إن فيهم الحمل، والجنين، والطفل، والشيخ الكبير، والمرأة الضعيفة، والمستضعف المهين، وأنا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، وهم يا يونس عبادي، وخلقي، وبريتي، في بلادي، وفي عيلتي، أحب أن أتأناهم، وأرفق بهم، وأنتظر توبتهم.. الخ) (٢).
وهذه الرواية وإن كان فيها مواضع مشكلة، ولكن هذه الفقرة فقط هي موضع الحاجة، وليس في الأخذ بها محذور.. لأنها آتية وفق القواعد والأصول العامة العقلية وغيرها، كما أنها مؤيدة بسائر الروايات الآنفة الذكر.
وقد رأينا:
أن العذاب لم ينزل على قوم يونس حتى خرج عليه السلام من بينهم مغاضبا لهم، فرأوه قد دنا منهم، ثم رفع عنهم بسبب توبتهم.
وأخيرا، فقد قال الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم (وما كان الله ليعذبهم (أي أهل مكة (وأنت فيهم (. قال ابن عباس: إن الله لم يعذب قومه حتى أخرجوه منها، (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (، أي وفيهم بقية المؤمنين بعد خروجك من مكة.
وذلك أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما خرج من مكة بقيت فيها بقية المؤمنين لم يهاجروا لعذر، وكانوا على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكة لحرمة استغفارهم، فلما خرجوا أذن الله في فتح مكة.

---

(١) المصدر السابق: ج ٥، ص ٢٨٦ و ٢٨٧.
(٢) البحار: ج ١٤، ص ٣٩٣، عن تفسير العياشي، والبرهان: ج ٢، ص ٢٠٠ و ٢٠٢.

وقيل: معناه: وما يعذبهم الله بعذاب الإستيصال في الدنيا، وهم يقولون: غفرانك ربنا. وإنما يعذبهم على شركهم في الآخرة (١).

٨ - بقي أن نشير إلى أن ثمة آية ورواية، قد يتوهم متوهم: أنهما تدلان على خلاف ذلك.

ألف: أما الآية فهي:

قوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا: أن الله شديد العقاب ((٢).

ولكن الحقيقة هي: أن هذه الآية ليست ناظرة إلى عذاب الاستئصال، بل المقصود بالفتنة هو البلاء الناشئ عن المعاصي في الدنيا، كالفتن والحروب، والأمراض، وما أشبه ذلك، فإن ضررها لا يقتصر على من يثيرها.

باء: وأما الرواية فهي:

ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (ما عذب الله قرية فيها سبعة من المؤمنين..) (٣).

فالجواب: أنها لا يمكن الإستدلال بها على أن عذاب الاستئصال يمكن أن ينال المؤمنين، إذ لا تأبى أن يكون المراد أن القرية لا تستحق العذاب ما دام فيها سبعة من المؤمنين يقومون بواجبهم في إنكار المنكر، والأمر بالمعروف.. فإذا قل عدد المؤمنين عن هذا استحقت عذاب الاستئصال.. فيؤمر هؤلاء بالخروج منها، ويمهلون من أجل ذلك، فإذا خرجوا نزل عليها العذاب، تماما كما جرى لقوم نوح، ولوط، ويونس، ومشركي مكة أعزها الله تعالى. وإن كان الله قد رفع العذاب عن قوم يونس بعد أن دنا منهم ورأوه رأي العين، فكان ذلك سبب توبتهم.

٢٨٣ - جبرائيل لم يكن ينزل على لوط (ع).

٢٨٤ - لوط (ع) يتلقى الأوامر من إبراهيم (ع).

وقد أعلن البعض في إذاعة محلية تابعة له، إنكاره نزول جبرائيل عليه

----

(١) بحار الأنوار ج ١٨، ص ١٥٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية: ٢٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٣٨٣ عن الاختصاص، ص ٣٠.

السلام على نبي الله لوط (ع).. وأنه إنما كان ينزل على إبراهيم عليه السلام، وهو الذي كان يصدر الأوامر إلى لوط (ع)، وذكر أن ذلك يعطي أسلوبا تنظيميا جيدا، واعتبر ذلك كشفا مهما من الله به عليه!!

مع أن الله سبحانه يقول: (وإن لوطا لمن المرسلين) (١)، فهل يكون لوط مرسلا ولا ينزل عليه الوحي؟! ومن أين صح له أن الوحي لم يكن ينزل على لوط؟!

فاستمع إليه يقول (ونحن نعتذر للقارئ الكريم لأنا سنورد كلامه، الذي جاء باللغة العامية، ولم نتدخل في صياغة عبارته):

" إن إبراهيم من أولي العزم، يعني هو رسول الله إلى الناس جميعا، وكان يرسل ذاك الزمن مثلا إبراهيم عليه السلام، مثلا يرسل أشخاص أنبياء محليين، يعني مثلا أرسل لوط إلى هذه القرية التي انتشر فيها الفساد والشذوذ الجنسي المذكر (اللواط) على أساس أن يذكرهم بالله، وان يركز لهم القاعدة الإيمانية، وان يواجه هذا الانحراف الشاذ عندهم، ف.. هناك أنبياء محليون، هؤلاء الأنبياء المحليون لا يرتبطون بالوحي مباشرة وإنما يرتبطون بالوحي العام، ما تسمعوا بأولي العزم؟ أولي العزم يعني هم إبراهيم وموسى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، هؤلاء أولياء.. أنبياء أولي العزم، هؤلاء هم كأن الأنبياء الموجودين، في أنبياء ضيع، في أنبياء قرى مثلا، فكأن لوط.. إبراهيم هو مسؤول لوط، كأنه لوط ليس نبيا بشكل مباشر، ولكن نبوته من خلال أنه وكيل إبراهيم عليه السلام في هذا المجال، فاستئذانهم من لوط من إبراهيم باعتبار أنه يتحمل مسؤولية لوط، فمن الناحية التنظيمية، الله سبحانه وتعالى راعى الناحية التنظيمية، أنه يستأذن إذا أراد أن.. العذاب على الجماعة أولئك فيستأذن إبراهيم بعدما إبراهيم يفهم القضية يذهبون إلى لوط ويحدثونه ويتولوا المهمة ويدبروا الوضع مع لوط هذا.

وهذا المعنى إذا صح هذا الفهم من هذه المسألة هذا نفهم من عندها الجانب التنظيمي أنه عندما يكون هناك مسؤولية لإنسان عن إنسان آخر فما يجوز إحنا نتصل بالإنسان الآخر بشكل مباشر إذا كان أي شخص يعني أي عمل يتصل بالشخص الثاني سواء فيما يوكل إليه من مهمات أو فيما يوكل إليه من مهمات للقاعدة التي يعيش فيها لازم يتصل حتى القيادة لا تتصل بالأشخاص الثانويين بشكل مباشر تتصل بالأشخاص الأساسيين حتى تتحدث معهم حول القضية فهني يذهبون هذا..

----

(١) سورة الصافات، الآية ١٣٣.

وبعد ذلك عندما يفهم يروحوا إلى تلك الديار، هذا الجانب التنظيمي جدا مهم يعني لما الواحد.. أنا مثلا مكلف واحد.. أستوحي هذا المعنى من هذا الجو ولم أجد أحدا، استوحى هذه القضية فيما قرأت من تفاسير.. حتى أنني لم أذكرها في تفاسيري، لكن كما يقولون: (العلم يزكو على الإنفاق) (١).

وحاصل كلامه – كما هو ظاهر – أنه ينكر نبوة لوط (ع) بالمعنى المعروف للنبوة، وجعله له نبيا بمعنى من المعاني – وهو كونه نبيا بالمعنى العام بهذا المقدار – وهذا المعنى يصدق في حق الكثيرين ممن سبق، ممن يصدق في حقهم أنهم وكلاء للأنبياء ومتعاونون معهم، وينفذون أوامرهم.. فلا بد على هذا التقدير من عدهم في جملة الأنبياء، كما أنه ينبغي – بناء على هذه المقولة – أن يصح القول في وكلاء الإمام صاحب الزمان (ع) بأنهم أئمة أيضا، فهل يلتزم هذا البعض بذلك؟!!.

---

(١) النص الحرفي لكلام البعض مسجلا بصوته على شريط موجود عندنا برقم ٣٢ وقد بثتها إذاعة محلية تابعة لذلك البعض.

الفصل الثالث:
موسى وهارون
(عليهما السلام)

٢٨٥ – موسى (ع) ينكث العهد.
٢٨٦ – موسى (ع) غير منضبط.
٢٨٧ – خطأ موسى (ع) في موقفه.
٢٨٨ – موسى (ع) لا يستفيد من التجربة الخاطئة الأولى.
٢٨٩ – موسى (ع) لم يفهم الحدث ولم يفكر.
٢٩٠ – علم الأنبياء والأئمة (ع) محدود بحدود مسؤولياتهم.
٢٩١ – نسيان موسى عليه السلام.
٢٩٢ – النسيان حالة اضطرارية.
٢٩٣ – موسى (ع) في دورة تدريبية.
٢٩٤ – عدم أهلية موسى لمرافقة الخضر.

ويقول عن موسى (ع) والخضر (ع):

".. وأحس موسى بالحرج الشديد لمخالفته للمرة الثانية، ونكثه بالعهد، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني لأنني لن أكون أهلا لمرافقتك فيما يمثله ذلك من عدم الانضباط أمام الكلمة المسؤولة التي التزمت بها أمامك " (١).

وقال عنه:

" وها هو يعود إلى الإخلال بكلمته من جديد " (٢).

ويقول حكاية لقول العبد الصالح لموسى عليه السلام:

" (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) ولماذا لم تستفد من التجربة الأولى التي عرفت فيها خطأ موقفك في اهتزاز مشاعرك أمام الحدث الذي لم تفهمه، ولم

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٣٩٣ – ٣٩٤.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٣٩٥.

تفكر بأن من الممكن أن يكون له وجه آخر " (١).

" ففي قصة الخضر هو العبد الصالح، هي أن الله أراد أن يدخل موسى في دورة تدريبية، حتى يفهم الجانب الثاني من الصورة " (٢).

وعن علم الأنبياء (ع) والأئمة (ع) ببعض مفردات علوم الحياة والإنسان، أو ببعض خفايا الأمور البعيدة عن عالم المسؤولية يقول:

" أما هذه الجوانب فلا دليل على ضرورة إحاطته بها، ولا يمنع العقل أن يكون لشخص حق الطاعة في بعض الأمور التي يحيط بها على الناس الذين يملكون إحاطة في أشياء أخرى لا يحيط بها، ولا تتعلق بحركة المسؤولية وربما كانت هذه القصة دليلا على صحة هذا الرأي الذي نميل إليه " (٣).

ويقول:

".. قال لا تؤاخذني بما نسيت، من عهدي لك، هذا موقف ثان للنسيان يعيشه موسى في ذاته، لأن النسيان حالة اضطرارية، لا يملك الإنسان معها عنصر الاختيار " (٤).

وقفة قصيرة

ونقول:

قال الله تعالى حكاية لما جرى بين موسى عليه السلام والعبد الصالح:

(قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال: ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها، قال أخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئا إمرا. قال ألم أقل: إنك لن تستطيع معي صبرا، قال لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسرا. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله، قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٣٩٣.
(٢) فكر وثقافة عدد ٣ بتاريخ السبت ٢٩ / ٦ / ١٩٩٦ م.
(٣) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٣٨٧.
(٤) من وحي القرآن ج ١٤ ص ٣٩١ و ٣٩٢.

فأقامه، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا، قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ((١).
تفسير الآيات
قد قلنا: إنه إذا كان ثمة وجه صحيح ومعقول، ومنسجم مع دلالات الآيات القرآنية، فلماذا اللجوء إلى تفسير الآيات بطريقة توجب الشبهة، وتوقع في المحذور.
ونحن نذكر فيما يلي عرضا موجزا لما ترمي إليه الآيات، دون أن يكون ثمة أي محذور عقائدي، فنقول:
١ - إن المراد بالقصة المشار إليها في كلام هذا البعض هي قصة العبد الصالح وموسى (ع)، ومن الواضح أن نسبة النسيان - بهذا المعنى - إلى موسى تعني نفي العصمة عنه من هذه الجهة، كما أن موسى لم ينكث العهد، لأنه لم يكن قد عاهد الخضر (ع) على السكوت على ما يراه مخالفا لأحكام الشريعة، وحقائق الدين، وقد كان تكليفه الإلهي أن يعترض وأن يسأل.. وأن يظهر حساسية بالغة لصالح الالتزام بالحكم الشرعي، ولو لم يعترض (عليه السلام) لم يكن أهلا لمقام النبوة والرسالة.
٢ - إن قول موسى عليه السلام: لا تؤاخذني بما نسيت، لا يعني: أن المبرر لاعتراضه على الخضر هو النسيان وأنه يعتذر له منه، ولأجل ذلك لم يقل له: لا تؤاخذني بنسياني، بل قال: بما نسيت، أي: بتركي العمل في المورد الذي كان علي أن أهمل الوعد فيه، وأزيحه عن ذاكرتي، لكي أبادر لمواجهة ما أراه من مخالفة للشرع، إذ لا يجوز لي في هذا الموقف إلا أن أبادر للردع عن المنكر الظاهر، فالمراد بالآية الاعتذار بالانشغال بالأهم عن غيره..
٣ - وحين أكد له الخضر (ع) بصورة ضمنية على أن عمله ليس فيه مخالفة للحكم الشرعي، وأنه سيعرف باطن الأمر في الوقت المناسب، قبل منه ذلك، فلما تكرر ما ظاهره المخالفة كان لا بد من تكرار الاعتراض، عملا بالتكليف الإلهي، ولم يستعجل الحكم، ولا نكث العهد، ولا كان ذا فضول

----
(١) سورة الكهف الآيات ٦٦ - ٧٩.

كما يقوله البعض.. ولا هو يعاني من عدم الانضباط أمام الكلمة المسؤولة..
وأما بالنسبة للمرة الثالثة، فلم تكن امتدادا لما سبقها، بل كانت نتيجة اتفاق جديد بين العبد الصالح وبين موسى عليه السلام، حيث توافقا على الالتزام بمضمون قوله تعالى: (قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) (١).
حيث قد أصبح بإمكان موسى عليه السلام أن يعترض على العبد الصالح إن شاء، فتكون المفارقة بينهما، وبإمكانه أن يستمر معه.
فاختار موسى الانفصال، لا عن نسيان للوعد، بل عن معرفة به، والتفات إليه..
والمراد بالنسيان في الآية هو: الترك والإهمال، ولو ظهر بصورة العمل الذي يصفه الناس – عادة – بأنه نسيان، ولم يكن في واقعه وحقيقته كذلك، وهذا العمل هو وضع هذا الوعد جانبا، والمبادرة لإنجاز التكليف الشرعي الحاضر، الذي هو الأهم.
فالتعبير بالنسيان لا يراد به الإخبار عن حدوثه، بل الإخبار عن العمل الذي يراه الناس كذلك، وإن لم يكن في واقعه كذلك.
٤ – ولعل نجاح موسى (ع) الباهر في هذا الامتحان هو الذي أظهر أهليته لمقام النبوة والرسالة، وعرفنا على سر اصطفاء الله له من بين سائر قومه ليكون نبيا من أولي العزم.
٥ – كما انه لا ربط لهذه الآية بموضوع علم الأنبياء والأئمة، وإنما هي ترتبط بموضوع تنجز التكليف في ما يرتبط بالمعذرية أمام الله سبحانه، لكي يكون العمل عن حجة ظاهرة لكي لا يصبح ذريعة للجبارين والظالمين.
٢٩٥ – احتمال ارتكاب النبي موسى (ع) جريمة دينية.
٢٩٦ – الآلام النفسية لموسى (ع) بسبب عملية القتل.
٢٩٧ – جريمة موسى (ع) في مستوى الخطيئة.
٢٩٨ – الخطأ غير المقصود لموسى (ع).
٢٩٩ – موسى (ع) يستجيب للوسوسة الخفية بالقتل.
ثم إن هذا البعض يقرر أن النبي قد يكون مجرما، ويحتمل أن يكون

----

(١) سورة الكهف، الآية ٧٦.

قد ارتكب جريمة قتل نفس بريئة، فهو يقول عن موسى:
" ولكن هل كان يشعر بالذنب لقتله القبطي، باعتبار أن ذلك يمثل جريمة دينية في مستوى الخطيئة التي يطلب فيها المغفرة من الله؟!.. أو أن المسألة هي أنه يشعر بالخطأ غير المقصود الذي كان لا يجب أن يؤدي إلى ما انتهى إليه مما يجعله يعيش الألم الذاتي تجاه عملية القتل.. ".
إلى أن قال:
" إننا نرجح الاحتمال الثاني " (١).
وهذا يعني أن الاحتمال الأول لا يزال واردا، ولكنه مرجوح!!!
ويقول عن وسوسة الشيطان لموسى (ع) بقتل القبطي:
" أما حديث التأثير الشيطاني في الأشياء من خلال آية المائدة فلا يدل على المقصود، فإن الظاهر إرادة الارتباط بهذه الأشياء في الجانب العملي من خلال وسوسته للإنسان في الأخذ بها بالطريقة المضادة لمصلحته، وهذا هو الذي نفهمه من آية موسى (ع) لأن قتله للقبطي قد يكون ناشئا من الوسوسة الخفية فيما تصنعه من حالة الإثارة التي تقود إلى ذلك " (٢).
وقفة قصيرة
(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين، فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين، فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) (٣).
وإذا قرأنا هذه الآيات الشريفة، فإننا نذكر القارئ بما يلي:
١ إن الاحتمال الأول باطل جزما، إذ لا يحتمل في حق نبي أو وصي أن

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٧ ص ٣١٠.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٩ ص ٣٠١ و ٣٠٢.
(٣) سورة القصص ١٣ - ١٩.

يكون قاتلا أو مرتكبا لجريمة دينية.. لأن احتمال المعصية الكبيرة في حق المعصوم كالقول - بوقوعها - مناف للقول بالعصمة.
فلو أن ذلك البعض قد ذكر هذا الاحتمال وبادر إلى رده وإبطاله بصورة حاسمة، لم يكن ثمة إشكال.. ولكنه لم يفعل ذلك، بل أبقاه احتمالا واردا، وله درجة من المقبولية، إلى درجة أنه بعد التأمل يكتفي بترجيح الاحتمال الآخر عليه، ولا يمكن قبول هذا الأمر في حق الأنبياء ولو على مستوى الاحتمال.
٢ - إن من البديهي: أن الآيات الكريمة لا تؤيد ما ذكره، بل فيها ما يدل على خلافه، وأن الشيطان لم يوسوس لموسى (ع)، ولا ارتكب موسى (ع) جريمة دينية، ولا أخطأ، ولا غير ذلك مما احتمله هذا البعض. وذلك لأن هذه الآيات بدأت بذكر إعطاء موسى عليه السلام حكما وعلما جزاء على إحسانه، ثم ذكرت ما جرى له مع ذلك الرجل الذي هو من عدوه، فهي تقول: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين) (١).
٣ - ثم ذكرت الآية التي بعدها هذه القصة، وصرحت بأن المقتول كان رجلا من الأعداء، فهي تقول: (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، (فوكزه موسى فقضى عليه).
والمراد بالعداوة عداوة الدين والإيمان.
٤ - وقوله: (هذا من عمل الشيطان (يقصد به أن الاقتتال بين الرجلين قد نشأ من وسوسة الشيطان، الذي حرض على الفتنة، حتى انتهى الأمر إلى القتال بين الرجلين، اللذين أغاث موسى (ع) أحدهما، الذي كان من شيعته على الذي من عدوه، ولا يقصد به أن موسى (ع) نفسه قد تأثر بالشيطان، فإن كلمة هذا ليست إشارة إلى القتل، وإنما هي إشارة إلى القتال الذي بدأه العدو، وانتهى بمبادرة موسى (ع) لنصرة ذلك المظلوم.
٥ - إن موسى (ع) بنصرته لذلك المظلوم، لم يكن مجرما ولا مخطئا، وإنما كان يطيع أمر الله، ويعمل بتكليفه وواجبه الشرعي في دفع الكافر الظالم عن المؤمن المظلوم ولو أدى ذلك إلى قتل هذا الكافر.

----
(١) سورة القصص، الآية ١٤.

وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: (فقضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره، فوكزه موسى فقضى عليه)، وحينما قال له فرعون: (وفعلت فعلتك وأنت من الكافرين (أجابه هازئا ومستنكرا مرددا قول فرعون بصيغة السؤال: (فعلتها إذا وأنا من الضالين (؟!.

ولو لم يكن ذلك، فلا معنى لإقحام كلمة (إذا) التي يراد بها رد الكلام على قائله، على سبيل الإنكار عليه.

٦ - ومما يشير إلى ذلك أيضا: أن موسى (ع) حين قتل الذي من عدوه لم يكن من الضالين.. بل كان الله قد آتاه حكما وعلما.. كما ذكرت الآيات.

كما أنه عليه السلام قد كان من عباد الله المحسنين، فاستحق المكافأة على إحسانه، فلم يكن ليظلم غيره، فيقتل نفسا بريئة ويرتكب جريمة دينية!!!

٧ - فما حكاه الله سبحانه عن موسى (ع) بعد تلك الحادثة بقوله: (قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فغفر له (، يراد به: أنه قد انتهى به الأمر بدخوله المدينة، ثم بقتله للذي من عدوه، إلى أن يحتاج إلى تدخل إلهي ليستره عن عيون الفراعنة، الذين يطلبونه.. فقد صدر منه فعل له عواقب تعود على النفس بالمشقة والمتاعب، ويحتاج إلى ستر الله سبحانه، وإلى معونته، وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير هذا الموضع قوله: (فاغفر لي)، أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي، فيقتلوني، (فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم (، ومعنى الغفران الستر، وسمي المغفر الذي يستعمل في الحرب - مغفرا لأنه يستر الرأس، ويقيه ضرب السيوف.

ولو صح منه (ع) طلب المغفرة من الذنوب، فقد عرفت أنها إنما تكون من المعصومين بمعنى دفع المعصية عنهم، لا رفع آثارها بعد وقوعها منهم.

٨ - ثم إن موسى (ع) يصر على مواصلة الطريق في نصرة المظلومين، ويقطع على نفسه عهدا بذلك فيقول: (رب بما أنعمت علي) أي بهذه الحماية والستر، (
فلن أكون ظهيرا للمجرمين) وسوف أستمر.. يقول الإمام الرضا عليه السلام: رب بما أنعمت علي من القوة حتى قتلت رجلا بوكزة، فلن أكون ظهيرا للمجرمين بل أجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى.

٩ - ثم وجد موسى (ع) ذلك الرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه

اليوم على آخر، فعاتبه على دخوله في هذا النزاع الجديد بقوله: (إنك لغوي مبين)، لا تسلك سبيل الرشد ولماذا لا تتفادى المشكلات مع أعداء الله بحكمة وروية؟ ثم بادر موسى عليه السلام ليبطش بعدو الله، فظن المؤمن أنه يريد البطش به هو، لأنه كان قد أنبه قبل ذلك، لا البطش بعدوه، فقال له (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس)، فسمعها الذي من عدوه وذهب إلى فرعون وأخبره بالأمر.

وهكذا يتضح أن الآيات المذكورة بعيدة عن إفادة تلك القضايا التي حاول البعض استفادتها منها، حتى احتمل بحق نبي من أولي العزم ما لا يصح نسبته إلى من رتبته دون ذلك بكثير، والإستيحاء من الآيات إذا كان على هذا النحو، فهو غير مقبول، لا عقلا ولا شرعا.

٣٠٠ - خطأ الأنبياء في تقدير الأمور.

٣٠١ - العصمة إنما هي فيما يعتقد أنه معصية.

٣٠٢ - الجهل المركب عند الأنبياء.

٣٠٣ - نقاط ضعف الأنبياء في حياتهم العملية.

٣٠٤ - الضعف البشري عند الأنبياء.

٣٠٥ - جهل النبي بتكليفه الشرعي.

ثم هو يتحدث عن خطأ الأنبياء في تقدير الأمور، فيقول:

" وتبقى لفكرة العصمة بعض التساؤلات: كيف يخطئ هارون (ع) في تقدير الموقف وهو نبي؟ أو كيف يخطئ موسى (ع) في تقدير موقف هارون (ع)، وهو النبي العظيم؟ !. وكيف يتصرف معه هذا التصرف؟!

ولكننا قد لا نجد مثل هذه الأمور ضارة بمستوى العصمة، لأننا لا نفهم المبدأ بالطريقة الغيبية التي تمنع الإنسان من مثل هذه الأخطاء في تقدير الأمور، بل كل ما هناك أن لا يعصي الله فيما يعتقد أنه معصية، أما أنه لا يتصرف تصرفا يعتقد أنه صحيح ومشروع، فهذا ما لا نجد دليلا عليه.

بل ربما نلاحظ في هذا المجال أن أسلوب القرآن في الحديث عن حياة الأنبياء (ع)، في نقاط ضعفهم في حياتهم العملية قد يؤكد الحاجة إلى الإيحاء بأن الرسالة لا تتنافى مع بعض نقاط الضعف البشري في الخطأ في تقدير الأمور " (١).

ونقول: إذا جوزنا على النبي أن يقع في التصرف الخاطئ، وإن اعتقد أنه

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ١٧٨ و ١٧٩.

صحيح ومشروع، فلازم ذلك أن لا يكون فعل النبي حجة، مع أن من المسلم به: أن سيرة المعصومين بأجمعهم حجة وطريق إلى أحكام الله تعالى.. هذا كله عدا عما تقدم في مختلف العناوين التي استخلصناها من كلمات ذلك البعض فلتراجع.
وسنتحدث بإيجاز بعد الفقرة التالية عن حقيقة موقفي هارون (ع) وموسى (ع) حيث سيظهر: أن الآيات تدل على خلاف ما ينسبه هذا البعض إلى أنبياء الله سبحانه، فانتظر.
٣٠٦ - إختلاف نبيين في الرأي في مسألة واحدة.
٣٠٧ - موسى (ع) يغضب لله سبحانه على هارون (ع).
٣٠٨ - موسى (ع) يحمل هارون مسؤولية ضلال قومه.
٣٠٩ - هارون (ع) يتساهل مع قومه وموسى يعنف.
٣١٠ - موسى (ع) يشعر بالحرج مما صدر منه.
٣١١ - لو احتاط موسى وهارون لكانت النتائج أفضل.
٣١٢ - خطأ موسى أو هارون (ع) في تقدير الموقف.
٣١٣ - مرة أخرى العصمة لا تمنع من الخطأ في تقدير الأمور.
٣١٤ - الجهل المركب لدى الأنبياء (ع).. ثانية.
٣١٥ - لا يفهم العصمة بالطريقة الغيبية.
٣١٦ - هارون (ع) مقصر لكنه ليس بعاص.
ويقول ذلك البعض:
" وأخذ برأس أخيه يجره إليه، في تعبير صارخ عن الحالة النفسية التي كان يعيشها موسى إزاء ما حدث،.. وربما تحدث الكثيرون عن مبدأ العصمة في شخصيته كنبي.. وعن التساؤل الإيماني، في مدى انسجام هذا التصرف الغاضب مع هذا المبدأ.. ولكننا لا نجد هناك تنافيا بينهما إذا أردنا أن نأخذ القضية ببساطة تحليلية بعيدا عن التعقيد والتكلف.. فموسى بشر يغضب كما يغضب البشر، ولكن الفرق بينه وبينهم، أن لغضبه ضوابط في التصرفات، فلا يتصرف بما لا يرضي الله وفي الدوافع فلا يغضب إلا لما يرضاه الله.. وقد غضب على قومه لله.. وعلى أخيه هارون لنفس الغرض.. لأنه اعتبره مسؤولا عما حدث، من خلل التساهل معهم، وعدم ممارسة الضغط الشديد عليهم، ومنعهم من ذلك، فقد كان تقديره، أن رفع درجة الضغط يمكن أن تساهم في منع ما حدث.. ما لم يقم به هارون.. فكان موسى منسجما مع نفسه، ومع دوره، وصفته.. فيما اتخذه من إجراء مع هارون.. ولكن هارون كان له رأي آخر.. فقد وقف ضدهم، وواجههم بكل الوسائل التي يملكها في الضغط

عليهم.. ولكنهم كانوا لا يهابونه كما يهابون موسى من خلال شخصيته القوية، فيما عاشه من عنف المواجهة مع فرعون، حتى قهره ".

إلى أن قال:

" (قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء..) فلم أفعل ما أحاسب عليه، لأن الظروف كانت أقوى من قدرتي.. فقاومت حتى لم يعد هناك مجال للمقاومة.. وجابهت.. حتى كدت أن أقتل.. فإذا تصرفت معي بهذه الطريقة.. فإن ذلك سوف يكون دافعا لشماتة الأعداء بي.. لأنني قاومتهم وجابهتهم.. وها هم يرونني أمامك واقفا وقفة المذنب من دون ذنب.. فلا تفعل بي ذلك (ولا تجعلني مع القوم الظالمين)، لأني قمت بما اعتقدت انه مسؤوليتي من دون تقصير..

وشعر موسى بالحرج.. وسكن غضبه.. فرجع إلى الله يستغفره، لنفسه ولأخيه، لا لذنب ارتكباه.. ولكن للجو الذي ابتعد فيه القوم عن الله، من خلال الفكرة التي كانت تلح عليهما.. فيما لو كان الاحتياط للموقف أكثر، فقد تكون النتائج أفضل.. ".

إلى أن يذكر هنا ما تقدم قوله آنفا من قوله:

" وتبقى لفكرة العصمة.. بعض التساؤلات "

إلى قوله:

" في الخطأ في تقدير الأمور " (١).

ويقول البعض أيضا:

" ربما كانت القضية على أساس أنه اعتبر أن هارون قصر، وليس من الضروري أن يكون تقصيره معصية.. ".

إلى أن قال:

" هارون عنده تقييم معين للمسألة، وانطلق فيها من حالة أنه قال: (إني خشيت أن تقول: فرقت بين بني إسرائيل)، ولهذا واجه القضية بطريقة لينة.

وكان موسى (ع) يعتقد على أنه لازم تواجه القضية بقوة، لأن بني إسرائيل لا يفهمون إلا بلغة القوة.. الخ.. " (٢).

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ١٧٦ - ١٧٩.

(٢) مجلة الموسم عدد ٢١ - ٢٢ ص ٣٢١.

وقفة قصيرة

إن من الواضح: أن مخالفة هارون لموسى، الذي هو إمام لهارون، إنما تعني التأسيس لتجويز مخالفة كل مأموم لإمامه، وتبرير خروجه عليه. أضف إلى ذلك أن الاختلاف في الرأي هنا يستبطن وجود مخطئ ومصيب، فبأيهما تكون الأسوة والقدوة للناس والحالة هذه، والمفروض أن كلا منهما نبي ومعصوم!!؟

وأضف إلى ذلك أيضا: أنه إذا كان اختلاف الرأي يرتبط بالدعوة وأسلوبها، فذلك يعني أن هذا النبي يجهل تكليفه الشرعي، فكيف يمكنه تبليغه للناس، وإعلامهم به؟! ألا يلزم من ذلك تبليغ حكم خاطئ لا واقع له؟!

والذي نقوله نحن هنا هو: أنه لم يكن ثمة اختلاف في الرأي، فيما بين موسى وهارون عليهما السلام، ولا كان ثمة جهل بالتكليف الشرعي، ولا غير ذلك مما تقدم، فان الاختلاف في الموقف تجاه الواقعة الواحدة، ينبئ عن جهل بالحكم الشرعي، في كيفية التعاطي مع بني إسرائيل.

كما أن اتهام نبي بالتساهل في القيام بمهماته، وتسببه في ما حصل للناس، من انحراف وضلال تعتبر تهمة خطيرة على مستوى الإعتقاد في الأنبياء وفي النبوات بصورة عامة، بل في هذا اتهام صريح لحكمة الله تعالى، حيث أرسل مع موسى من ينقض غرضه في تبليغ الرسالة، ويكذب توقعاته فيه، كما جاء في الآية الكريمة: (واجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري) (١).

ومهما يكن من أمر فإن الآيات الشريفة قد فسرت على غير وجهها الصحيح، إذ إن ما أظهره موسى (ع) تجاه أخيه هارون (ع) لم يكن سببه الاختلاف في الرأي بينهما في كيفية المعاملة، بل كان من أجل إظهار خطر ما صدر منهم، ومدى بشاعة الجريمة التي ارتكبوها.. ثم من أجل إظهار براءة هارون (ع)، وتحصينه من نسبة القصور أو التقصير إليه.

وقد بين موسى (ع): أنه لم يتهمه بمعصية أمره ليستحق - بزعم البعض - هذه المواجهة القاسية، وهذا العتاب والتوبيخ بهذه القوة، بل وجه إليه سؤالا عن ذلك ليسمع الناس جوابه الذي يتضمن برهانا إقناعيا يدل على دقته، وحسن تقديره

----

(١) سورة طه الآية ٢٩ - ٣١.

للأمور، وقد قبل موسى منه ذلك بمجرد تفوهه به، ودعا لنفسه وله، كما جاء في قوله تعالى: (ربي اغفر لي ولأخي، وأدخلنا في رحمتك، وأنت أرحم الراحمين)
.
وأما ما زعمه هذا البعض من أن هارون عليه السلام كان يرى لزوم معاملتهم باللين، وكان موسى عليه السلام يرى لزوم الشدة في ذلك، فهو لا يصح، وذلك لما ذكرناه آنفا، ولأن هارون قد وصل معهم إلى درجة المواجهة، حتى لقد قال لأخيه موسى: (إن القوم استضعفوني، وكادوا يقتلونني)
وأما القول بأن موسى عليه السلام قد غضب على أخيه هارون عليه السلام، وكان غضبه لله سبحانه وتعالى، فذلك يعني أنه عليه السلام كان يتهم أخاه النبي هارون صلوات الله وسلامه عليه بارتكاب المعصية، ويحمله مسؤولية ما جرى، ويتهمه بالتساهل والتخلف عن أن يكون عضدا له، يشد أزره، ويشركه في أمره، وذلك مما لا يمكن قبوله في حق الأنبياء.
وهكذا يتضح أن كل ما ذكره ذلك البعض أجنبي عن دلالة الآيات.
٣١٧ - أصول العقيدة تعرف بالسمع لا بالعقل.
٣١٨ - لا دليل يصرف معنى الرؤية عن الرؤية الحسية.
٣١٩ - النبي موسى (ع) لا يعرف: أن الله لا يرى.
٣٢٠ - الله يعلم أنبياءه أصول العقيدة بالتدريج.
٣٢١ - لا يبعد أن سؤال موسى عن رؤية الله الحسية.
٣٢٢ - وأيضا.. نقاط الضعف لدى الأنبياء.
٣٢٣ - الله يسلط نوره على الجبل فكيف لو تسلط عليه بنفسه؟
٣٢٤ - موسى والتحاليل الفلسفية والمعادلات العقلية في استحالة تجسد الإله وإمكانه.
ويقول ذلك البعض:
" ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر إليك،.. ووصل موسى إلى الموعد الذي أعطاه الله له.. وكلمه ربه.. فيما يريد أن يوحي به إليه.. واندمج موسى في الجو الإلهي.. وشعر بالسعادة الغامرة تغمر قلبه.. ففاضت روحه بالأشواق الروحية، فيما توحيه كلمات الله إليه.. وفيما تمثله من معاني القرب من الله، والوصول إلى الدرجة العليا من رضوانه.. وبما توهج في كيانه من إشراق النور الإلهي في لحظة روحية حالمة.. فطلب من ربه أن ينظر إليه.. فقال: رب أرني انظر إليك فقد خيل إليه أن من يسمع كلام الله، يستحق أن يراه.. أو يمكن له أن يطلب رؤيته.. وهنا يقف المفسرون

وقفة حيرة فلسفية كلامية.. فكيف يمكن لهذا النبي العظيم أن يطلب مثل هذا الطلب المستحيل من ربه.. وهو يعرف من خلال سمو درجته، ورفعة منزلته في عالم المعرفة بالله.. أن الله ليس جسدا ماديا محسوسا لتمكن رؤيته.. فهو ليس كمثله شيء.. وأجاب بعضهم أن المراد بالنظر.. الرؤية القلبية التي هي كناية عن العلم الواسع بالحقيقة الإلهية.. وأجاب آخرون.. بأنه لم يسأل انطلاقا من قناعة بالسؤال، أو انسجام معه.. بل كان سؤاله استجابة لسؤال قومه الذين رافقوه إلى الموعد الإلهي.. فأراد أن يجعلهم وجها لوجه أمام الجواب الصاعق على هذا السؤال.. ولكننا لا نستبعد أن يسأل موسى هذا السؤال.. فقد لا نجد من البعيد في مجال التصور والاحتمال أن لا يكون قد مر في خاطر موسى مثل هذا التصور التفصيلي للذات الإلهية.. لأن الوحي لم يكن قد تنزل عليه بذلك.. ولم يكن هناك مجال للمزيد من التحاليل التأملية للجانب الفلسفي من المعادلات العقلية التي تتحدث عن استحالة تجسد الإله أو إمكانه.. لأن ذلك قد لا يكون مطروحا لدى موسى (ع).. ونحن نعرف، تماما، معنى التكامل التدريجي للتصور الإيماني في شخصية الرسول الفكرية.. ولهذا فإننا نحاول هنا أن نسجل تحفظنا على الكثير من الأحكام المسبقة التي تحاول تطويق النص القرآني ببعض الإستبعادات الذاتية.. كما في مثل هذه الآية.. فإننا نلاحظ أن تصورنا لشخصية الأنبياء، يبدأ من القرآن، فيما يحدثنا عنهم من أحاديث، ويسبغه عليهم من صفات فهو المصدر الأساس الأمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ونحن نرى أن الحديث القرآني يركز في بعض نقاطه على نقاط الضعف لدى الأنبياء كما يركز على نقاط القوة عندهم.. من موقع البشرية التي يريد القرآن أن يركزها في التصور القرآني في أكثر من اتجاه.. فهل نريد أن ندخل في مزايدة كلامية على القرآن، فيما يتعلق بمثل هذه الأمور.. فنفرض لأنفسنا تصورات معينة للأنبياء ثم نحاول تأويل كلام الله بطريقة لا يتقبلها النص في بعض الأحيان.. إننا نفهم التأويل حملا للفظ على خلاف الظاهر، على أساس المجاز أو الكناية أو ما يقترب منهما.. ولا بد للخروج من الظاهر أن يكون هناك دليل لفظي أو عقلي حتى نصرف اللفظ عن الظاهر من خلاله.. ولا نجد شيئا من هذين في موضوع هذه الآية، فليس هناك مانع من إرادة النظر بالمعنى الحسي فيما طلبه موسى بل هو الظاهر الواضح جدا في أجواء الآية من خلال التجربة التي قدمها الله أمامه، فيما تعطيه كلمة التجلي من أجواء استحالة الرؤية البصرية فيما وجهه الله للجبل من نوره الذي لا يستطيع الجبل أن يتماسك معه.. فكيف لو كان التجلي له – سبحانه –.. ثم لو كان المراد الرؤية القلبية لما كان هناك وجه قريب لهذه التجربة في انهيار الجبل، فيما تعطيه من معنى مادي للمسألة.. لأن الجبل لا يحمل أي جو للجانب

القلبي في الموضوع في تأثره بنور الله.. (قال لن تراني..) لأن الرؤية لا تكون إلا للمحدود الذي يحمل خصائص مادية، فيما يستحيل فرضه بالنسبة إلى الله الذي لا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء.. (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني..) إنها التجربة التي تعطي لموسى فكرة توضيحية للمسألة المطلوبة.. ولكن من جانب آخر.. فقد أراد الله له أن ينظر إلى هذا الجبل العظيم.. وهو يتهاوى قطعة قطعة حتى يتحول إلى رميم أمام التجلي الإلهي الذي قد يكون كناية عن
تسليط نوره عليه.. فكيف يمكن لمخلوق مثله أن يواجه نور الله.. فضلا عن أن يواجه الله بذاته - لو كان ذلك أمرا ممكنا " (١).

وقفة قصيرة

إن موضوع رؤية الله سبحانه، وصفاته، وأصول العقيدة، هي من الأمور التي يدركها العقل، وبه تعرف، وليست مما يعرف بالسمع، إلا من حيث تأكيد حكم العقل، والإرشاد إليه.

إذن كيف لم يكن موسى النبي (ع)، الذي سبق له مواجهة فرعون، المدعي للربوبية، كيف لم يكن يعرف - على حد قول البعض - إلى مضي زمن طويل من نبوته أن الله سبحانه لا يرى؟.

فهل يعقل أنه لم يخطر في بال موسى أن يستعد لمواجهة طلب محتمل جدا من فرعون ومن بني إسرائيل رؤية هذا الإله الذي كان يأتيه جبرئيل بالأوامر والتوجيهات والتوجهات من قبله، ولم يطلب من جبرئيل أن يجمعه به ويتحدث إليه!!

ويقول:

" لذلك فإن الله تعالى لم يعرف موسى حتى ذلك الوقت أنه لا يرى " (٢).

ولا ندري لماذا لم يكن قد مر في خاطر موسى هذا التصور التفصيلي للذات الإلهية؟ وكيف خيل إليه ذلك في هذا الوقت بالذات، ولم يخيل ذلك قبل هذا الوقت؟! ولماذا لم يعرفه الله ذلك في بدايات نبوته وانتظر إلى أن مضت هذه المدة كلها؟! وهل يمكن أن يرسل تعالى نبيا لا يعرفه حق المعرفة؟ وهل يمكن أن نقبل ممن لا يعرف أصول الدين وصفات الباري تعالى أن يكون مرشدا دينيا في قرية؟ فكيف نرتضي أن يكون نبيا لله سبحانه - فضلا عن أن يكون نبيا من أولي العزم

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٠ ص ١٦٥ - ١٦٧.
(٢) نشرة بينات ٢١ / ٢ / ١٩٩٧.

- أرسله الله إلى فرعون مدعي الربوبية؟ وكيف نسي فرعون، ومن معه، أن يسألوه عن هذا الإله الذي أرسله، من هو، وأين وكيف هو؟..

وكيف يمكن أن نفهم تعليل ذلك البعض وتوضيحه لهذا الأمر بقوله: إن الله كان يعرف أنبياءه أصول العقيدة وصفاته بالتدريج (١).

ومن أين عرف هذا البعض، هذا الأمر التاريخي المرتبط بالتعاطي التعليمي لله سبحانه مع أنبيائه؟!! وهل صحيح: أن أصول العقيدة تعرف بالسمع؟! وبالتدريج؟! أولا يوجد دليل عقلي يمنع عن الأخذ بظاهر الآية ويصرف الرؤية عن ظاهرها؟!..

وهل كان هذا الطلب اقتراحا من موسى مباشرة؟ أم كان استجابة لطلب قومه منه، ليؤكد لهم بصورة عملية عدم صحة طلب كهذا؟

٣٢٥ - ربما كان القبطي مستحقا للقتل (أي وربما كان لا يستحق القتل فيكون قتله جريمة).

٣٢٦ - موسى يفعل أمرا محرما بغير قصد.

٣٢٧ - موسى (ع) يقر على نفسه بالضلالة وعدم الهدى.

٣٢٨ - موسى يعترف بجهله بالنتائج السلبية لقتله القبطي.

٣٢٩ - كان موسى حين قتل القبطي ضالا، لم يحدد لنفسه الطريق المستقيم المنطلق من قواعد الشريعة.

٣٣٠ - الضعف البشري قبل النبوة بسبب فقد الهداية التفصيلية.

٣٣١ - موسى ارتكب ما لو كان في الموقع الذي هو فيه بعد النبوة لما فعله.

٣٣٢ - لم يكن قتل القبطي ضروريا.

يقول البعض:

".. كيف اعترف موسى على نفسه بالضلال؟

(قال فعلتها إذا) أي حينئذ (وأنا من الضالين) أي الجاهلين بالنتائج السلبية التي تترتب علي فيما أدى إلى أكثر من مشكلة اعترضت حياتي وأبعدتني عن أهلي وبلدي، مع أن القضية كانت تحل بغير ذلك.. فلم أفعلها في حال الرسالة لتكون تلك نقطة سوداء تسجلها علي في موقعي الرسالي، بل فعلتها قبل أن يلهمني الله الهدى المتحرك في خط الرسالة، عندما كنت ضالا لم أحدد لنفسي الطريق الواضح المستقيم المنطلق من قواعد الشريعة المنزلة القائمة على التوازن فيما يصلح الإنسان أو يفسده.. وبذلك نستوحي من الفقرة في الآية أن الضلال ليس بالمعنى الوجودي المضاد الذي يعبر عن الانحراف، بل بالمعنى السلبي المعبر عن عدم معرفة طريق

----

(١) نفس المصدر السابق.

الهدى، الذي يضيء عمق الأمور على أساس المصلحة الحقيقية للإنسان.
القرآن يثير نقاط الضعف البشري في الأنبياء وفي ضوء ذلك، نفهم كيف يقدم لنا القرآن شخصية النبي من نقاط الضعف البشري قبل النبوة، عندما كان بعيدا عن الاهتداء التفصيلي بالشريعة والمنهج، خلافا للفكرة المعروفة لدى الكثيرين من العلماء الذين لا يوافقون على أن النبي يمكن أن يضعف أمام عوامل الضعف الذاتي قبل النبوة أو بعدها، حتى فيما لا يشكل معصية، أو انحرافا خطيرا عن الخط المستقيم.
وهكذا واجه موسى الموقف بشجاعة الاعتراف بما فعله قبل أن يبعث بالرسالة، ويهتدي بالحق من خلال الوحي النازل من الله.. فلم يسقط أمام التحدي الذي وجهه فرعون للرسالة على أساس ما وجهه لشخصه من عمل سابق.. بل أكده في مواقعه الذاتية قبل الرسالة قبل أن ينزل عليه الهدى الذي يدعو إليه الناس الآن، فارتكب ما ارتكبه في الجو الذي لو كان في الموقع الذي هو فيه الآن لما فعله، لا لأنه فعل حراما فلم يكن متعمدا للمسألة، وربما كان الشخص يستحق القتل، بل لأنه لم يكن ضروريا بالمستوى الذي وصلت إليه القضية في نتائجها السلبية على مستوى حياته الشخصية فيما أدت إليه من إرباك وتعقيد.. " (١).
وقفة قصيرة
إن ما ذكره هذا البعض قد تضمن عدة نقاط لا يمكن قبولها وهي التالية:
١ - قلنا فيما تقدم من هذا الكتاب: إن جواب موسى (ع) لفرعون، حين ذكر فعلته بقتله للقبطي: (قال فعلتها إذن، وأنا من الضالين) يراد به السخرية من كلام فرعون بقرينة كلمة (اذن). وقد شرحنا ذلك هناك بما يناسب المقام فليراجع.
ولم يكن موسى (ع) بصدد الاعتراف بالجهل بالنتائج السلبية لما فعله، فإنه حتى الإنسان الغبي يدرك النتائج المترتبة على قتل إنسان ما من أي فئة كانت، فكيف إذا كان يعلم أن وراء هذا المقتول أمة بأسرها، بما فيها حاكمها المستكبر المدعي للألوهية؟.
٢ - ولا ندري كيف حكم هذا البعض على موسى (ع) أنه حين قتل القبطي كان ضالا لا يعرف قواعد الشريعة؟!..

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٧ ص ١٠٨ و ١٠٩.

مع أن هذا البعض قد فسر قوله تعالى: (لقد جئت شيئا نكرا) (في مسألة قتل الغلام مع العبد الصالح بحضور موسى) بأنه قتل النفس أمر ينكره العقل والشرع والعرف الأمر الذي يبطل كلامه هنا.

ألم يكن موسى (ع) على علم بشريعة إبراهيم التي كان البشر كلهم مطالبين بالعمل بها؟!..

ولنفترض أنه لم يكن على علم بتفاصيل أحكام الشريعة الربانية، فهل كان ما فعله من الأمور الغامضة، التي تحتاج في الإقدام عليها إلى معرفة تفاصيل الشريعة؟!.

وهل كان يحتمل أحد أن تأبى الشريعة قتل هذا الكافر المحارب المتعدي على الأبرياء، والذي يحاول قتلهم؟!

٣ - كيف عرف هذا البعض أن موسى (ع) قد ارتكب قبل النبوة ما لا يفعله بعدها؟!

فإن هذا الحكم الجازم ليس له ما يبرره! كما أن هذا مخالف لما عند الشيعة الامامية من أن النبي معصوم مطلقا قبل البعثة وبعدها.

٤ - ومن أين عرف أن موسى (ع) لم يكن نبيا من أول أمره.؟

٥ - ومن أين عرف أيضا أن قتل القبطي لم يكن ضروريا حتى أدركه هو، ولم يدركه موسى آنذاك؟!.

٦ - ومن أين استنتج أن قتل القبطي عائد إلى وجود ضعف بشري لدى موسى (ع) قبل نزول النبوة، ثم استنتج من ذلك بطلان ما يذهب إليه البعض من تنزيه الأنبياء عن أي ضعف بشري قبل النبوة وبعدها؟.

وهل هذه إلا دعوى ليس لها ما يبررها، لا من عقل ولا من نقل؟.

كما أنه هو نفسه يصرح في نفس كتابه (من وحي القرآن) بأن كل ما كان يريده موسى هو أن يدافع عن الذي من شيعته، ويخلصه من بين يدي القبطي، فحصل القتل منه من دون قصد.

إذن فلم يكن في الأمر جريمة ناتجة عن ضعف بشري ولا غيره..

٧ - وأخيرا فإن هذا البعض يجوز على الأنبياء أن يرتكبوا جرائم قبل النبوة حتى بمستوى قتل النفس البريئة، وفقا لما احتمله في كتابه في هذا المورد

بالذات، وهذا امر مرفوض في عقائد الشيعة الإمامية كما هو معلوم، إذ قتل النفس المحترمة هو من الكبائر التي توعد الله فاعلها بالنار؟!.
٣٣٣ – غريزة الفضول لدى موسى عليه السلام.
٣٣٤ – لا دليل على ضرورة علم النبي بما لا يتصل بمسؤولياته من علوم الحياة والإنسان.
٣٣٥ – يمكن أن يكون لمن لا يعلم بعض الأمور حق الطاعة على العالم بأمور أخرى.
٣٣٦ – القرآن لا يتحدث عن الأنبياء، من خلال الكمال القريب من المطلق.
٣٣٧ – القرآن لا يتحدث عن الأنبياء من خلال الأسرار الخفية.
٣٣٨ – موسى استعجل المعرفة قبل توفر عناصر النضوج لديه.
٣٣٩ – استعجال موسى من شأنه أن يحوله إلى إنسان سطحي في تفكيره.
يقول البعض:
".. ولكن هنالك رأيا، يقول: إن العقل لا يفرض، في مسألة القيادة والإمامة والطاعة، إلا أن يكون الشخص الذي يتحمل هذه المسؤوليات محيطا بالجوانب المتصلة بمسؤولياته، فيما لا يحيط به الناس إلا من خلاله.. أما الجوانب الأخرى من جزئيات حياتهم العامة، أو من مفردات علوم الحياة والإنسان، أو من خفايا الأمور البعيدة عن عالم المسؤولية، أما هذه الجوانب فلا دليل على ضرورة إحاطته بها.. ولا يمنع العقل أن يكون لشخص حق الطاعة في بعض الأمور التي يحيط بها، على الناس الذين يملكون إحاطة في أشياء أخرى لا يحيط بها ولا تتعلق بحركة المسؤولية..
وربما كانت هذه القصة دليلا على صحة هذا الرأي الذي نميل إليه، كما يميل إليه بعض العلماء القدامى.. لأنه يلتقي بالجو القرآني الذي يتحدث عن الأنبياء بطريقة معينة بعيدة عما اعتاده الناس في نظرتهم إليهم من خلال الأسرار الخفية، والكمال القريب من المطلق. "
إلى أن قال:
".. (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) مما قد ترى فيه انحرافا عن الموازين التي تزن بها الأمور على أساس ما تراه قاعدة للشرعية أو فيما تتصوره منسجما مع طبيعة الواقع الذي تخضع في تقييمك له، لرؤية معينة.. الأمر الذي يجعلك تنتفض وتحتج وتستثير فضولك لتطرح السؤال تلو السؤال لتتعرف طبيعة المسألة، لأن الإنسان الذي ركب تكوينه على أساس غريزة الفضول، فيما أراده الله من إثارة قلق المعرفة في ذاته كسبيل من سبل الحصول عليها، أو الذي يملك قاعدة معينة للتفكير، قد تختلف عن غيره، لا بد له أن يعبر عن موقفه بطريقة

متوترة لا تملك الصبر على ما يواجهه من علامات الاستفهام، أو على ما يراه من مظاهر الانحراف.. ولكن موسى يصر على الحصول على شرف مرافقته، لأن الله يريد له ذلك، فهو مأمور باتباعه.
(قال ستجدني إن شاء الله صابرا) فيما يصبر عليه طالب المعرفة من الجهد النفسي والعملي الذي يتحمله في سبيل الحصول عليها.. إنه العزم الذي يتحرك في إرادتي التي لا أضمن امتدادها في خط الالتزام العملي إلا بمشيئة الله، فيما يقدره من أسباب، وفيما يخلقه من ظروف، وفيما يثيره في حياتي من أفكار ومشاعر، قد تغير العزم، وتسقط الالتزام، إن القضية هي أني أعدك بالصبر، فسأكون صابرا، أتحمل كل النوازع الذاتية الصعبة (ولا أعصي لك أمرا) كما هو دور التلميذ مع أستاذه الذي يثق بكفاءته وحسن تقديره للأمور، وإخلاصه في سبيل رفع مستواه.
ولكن العبد الصالح يريد أن يحدد المسألة في دائرة محددة في خط الأسلوب العملي للمعرفة.. فهو لا يريد أن يبادر تلميذه بالمعرفة، ولا يريد له أن يبادره بالسؤال.. بل يريد له أن يتأمل، ويثير الفكرة في داخله، ويحاول أن يحصل على طبيعة التعمق في القضايا من خلال المعاناة الفكرية التي تمنحه قوة عقلية متقدمة، كما يريد له أن يحصل على ملكة الصبر في مواجهة المشاكل الفكرية المعقدة، فلا يستعجل الوصول إليها قبل توفر عناصر النضوج لديه فيتحول إلى إنسان سطحي في تفكيره..
(قال فإن اتبعتني فلا تسألن عن شيء) مما لم تعرف وجهه، ولم تحط بخفاياه (حتى أحدث لك منه ذكرا) وأبدأ حواري معك، عندما تحين اللحظة المناسبة، التي أرى فيها المصلحة للحديث عن الموضوع معك.. وهذا هو شرطي الوحيد الذي أضعه أمامك للموافقة على أن تصاحبني في هذا الطريق " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - إن موسى (ع) لم يسأل العبد الصالح انطلاقا من غريزة الفضول لديه، بل انطلاقا من الإحساس بالتكليف الشرعي القاضي بعدم السكوت على ما يخالف أحكام العقل والفطرة والدين. ولو بحسب الظاهر، فبادر إلى

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٣٨٦ - ٣٨٩.

السؤال ليستطيع على ضوء ذلك أن يحدد موقفه الشرعي.
وهذا الأمر هو الذي أعطى موسى (ع) وسام الاستحقاق لمقام النبوة، فإنه قد نجح في الامتحان الذي استهدف تجسيد مدى حساسيته تجاه قضايا الحق والدين.
٢ - إن اتهام نبي من أنبياء الله بأنه يتخذ مواقفه من خلال تحرك غريزة الفضول لديه ناشئ عن عدم الاهتمام باحترام مقام الأنبياء في مقام الخطاب والحديث عنهم، وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلا.
٣ - إن ما استقربه من أنه لا دليل على لزوم معرفة النبي بأكثر مما يتصل بمسؤولياته في القيادة والإمامة والطاعة.
وأنه يمكن أن يكون هناك من هو أعلم من النبي في مفردات علوم الحياة والإنسان.
إن ذلك مما لا مجال لقبوله منه، وذلك لوجود أحاديث متواترة في مجالات مختلفة تدل على خلاف هذا الكلام. ففي الكافي - كتاب الحجة -، وفي بصائر الدرجات وفي البحار طائفة كبيرة جدا من هذه الأحاديث فليراجعها من أراد، وتلك هي الدليل القاطع على عدم صحة هذه المقولة.. وقد تقدم حين الحديث عن الولاية التكوينية للمعصوم ما يفيد في هذا المجال..
٤ - أما قوله:
" إن استعجال موسى (ع) بالسؤال يحوله إلى إنسان سطحي في تفكيره "
فلو صح لمنع من مبادرة الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء وغيرهم إلى طرح أسئلتهم في مختلف المجالات، لأن ذلك يحولهم إلى سطحيين، مع أن من يراجع آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يجد أن الأمر قد جرى منهم على خلاف هذا التوجيه، حيث نراها زاخرة بالأسئلة منهم عليهم السلام في مختلف الشؤون، ولم يتحولوا بسبب ذلك إلى أناس سطحيين.
٥ - لا ندري من أين عرف هذا البعض: أن موسى (ع) قد استعجل المعرفة قبل توفر عناصر النضوج لديه. فهل دله على ذلك آية أو رواية؟ أم أنه كان حاضرا وناظرا آنذاك؟! أم هو الاستيحاء، والتظني الذي لا يقوم به

حجة، ولا يستند إلى برهان؟ أم ماذا؟!.
هذا مع الإغماض عما ذكرناه آنفا من أن تكليف موسى عليه السلام كان هو المبادرة إلى السؤال، ولولا ذلك، لم ينل عليه السلام هذا المقام العظيم..
ولعل هذه هي الحكمة في إرساله عليه السلام إلى العبد الصالح، أو أنها أحد عناصر حكمة ذلك.
٣٤٠ - شخصية موسى غير متوازنة.
٣٤١ - موسى (ع) يعاني من عقدة نفسية ذاتية.
٣٤٢ - موسى ارتكب ذنبا أخلاقيا.
٣٤٣ - قتل القبطي خطأ أخلاقي مبرر بطريقة ما.
٣٤٤ - مغفرة الله لموسى لطف في توازن الشخصية لا عفو عن ذنب.
ويقول عن موسى عليه السلام في موضوع قتله القبطي:
".. كان كل همه أن يدافع عن الإسرائيلي ويخلصه من بين يدي القبطي الذي كان يريد أن يقتله، فيما يبدو،.. وبهذا لم يكن في الأمر جريمة، بل كان الدخول شرعيا، ولم تكن النتيجة مقصودة له.. ولكنه كان يفضل أن لا يحدث ما حدث.. وبذلك كان يرى في ذلك نوعا من الذنب الأخلاقي، أو الاجتماعي الذي يحس بالعقدة الذاتية منه.. وعلى ضوء هذا كان التعبير بأنه ظلم للنفس، تعبيرا عن الحالة الشعورية أكثر مما كان تعبيرا عن حالة المسؤولية وربما كان تعبيرا عن القلق من النتائج الواقعية السلبية التي يمكن أن تترتب على ذلك في علاقاته الاجتماعية بمحيطه فيما يحمله من أخطار مستقبلية على شخصه بالذات. أما طلب المغفرة من الله، فقد يكون ناشئا من الرغبة الروحية العميقة للإنسان المؤمن، أن يضع أعماله بين يدي الله - حتى التي لا تمثل انحرافا عن أوامره ونواهيه،.. بل تمثل نوعا من الخطأ الأخلاقي المبرر بطريقة ما، ليحصل على لمسة الرحمة الإلهية العابقة بالحنان والعطف، فيبلغ - من خلال عصمته له - الكمال في سلوكه، والتوازن في أخلاقه.. مما يجعل من المغفرة لطفا في توازن الشخصية لا عفوا عن ذنب.. وهكذا كان اللطف الإلهي بموسى.. فيما يعلمه الله من حاله في ظرفه الواقعي مما يحقق له الكثير من العذر في حساب المسؤولية (فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) الذي تتحرك مغفرته من عمق رحمته لتفيض على الإنسان الراجع إليه بكل خير وإحسان (١).

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٧ ص ٣١١.

وقفة قصيرة
إن ما ذكره هذا البعض لا يحتاج إلى تعليق، ولكننا نرشد القارئ الكريم إلى ما شرحنا به الآيات التي تحدثت عن قتل القبطي فيما تقدم من هذا الكتاب فليراجع.
غير أن ما يحز في النفس ألمه، ويدمي كلمه أمور:
١ - أن ينسب إلى موسى عليه السلام وهو كليم الله ونبي من أولي العزم يقول تعالى في حقه (واصطنعتك لنفسي) - ينسب إليه - أنه ارتكب ذنبا أخلاقيا.
٢ - وأنه كان يحس بالعقدة الذاتية منه!!.
٣ - والأغرب من ذلك أن يصرح في كلامه: أن شخصية هذا النبي العظيم غير متوازنة فاحتاج إلى اللطف الإلهي لتتوازن شخصيته.
٤ - ويبقى هنا سؤال حول الطريقة المجهولة التي أشار إليها والتي تبرر وقوع موسى عليه السلام في الخطأ الأخلاقي المتمثل في قتله للقبطي.
٥ - وأي خطأ أخلاقي في قتل الإنسان لرجل يهاجمه ويحاربه ويبطش بالناس ليقتلهم، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون، وهو كافر وعدو؟!.
٦ - بل إن هذا البعض نفسه قد صرح في كلامه بأن موسى (ع) لم يقصد قتل القبطي، فأي خطأ أخلاقي صدر عن موسى (ع) إذن؟!.
٣٤٥ - خوف موسى كان بسبب الضعف البشري الذي كان يعيشه في حالات الغفلة.
٣٤٦ - كاد موسى أن يتأثر بسحرهم من خلال طاقته البشرية.
ويقول البعض:
".. وكانوا يملكون الفن العظيم الذي يسحر العيون ويخلب الألباب حتى كاد موسى أن يتأثر بها من خلال طاقته البشرية.. وطاف به خيال الإنسان الذي يتأثر بسرعة، بما يحيط به (فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) في صورة سريعة متلاحقة (فأوجس في نفسه خيفة موسى) من خلال الضعف البشري الذي يعيشه الإنسان في حالات الغفلة.. لا سيما أن موسى لا يعرف ماذا يحدث له من خلال التفاصيل الجزئية لأن المسألة ليست اختيارية له، بل هي مسألة التدبير الإلهي الذي يثق

بحصوله، ولكنه لا يعرف طبيعته.. ولذا فإنه كان ينتظر نداء الله وتعليماته " (١).
وقفة قصيرة
إن من الواضح أن موسى عليه السلام: لم يخف على نفسه، فإنه كان يعلم أنها حبال وليست حيات حقيقية، كما أنها احتيالات وتخييلات لا واقع لها. (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى).
وإنما خاف عليه السلام على الناس أن يتأثروا بسحرهم، وأن يتسبب ذلك بضلالهم عن الحق، وابتعادهم عن سبيل الرشاد والهدى.
ولذلك نجد الآيات القرآنية تشير إلى أن الله تعالى قد طمأن موسى إلى حقيقة أن الله سيبطل سحرهم وكيدهم، ويكون موسى عليه السلام هو الغالب، حيث قال الله تعالى له (لا تخف انك أنت الأعلى) (٢)، إذن فموسى عليه السلام قد خشي من أن تكون الغلبة لهم وان يكون لهم العلو الذي سينشأ عنه غواية الناس عن طريق الحق والهدى.
وبذلك يتضح أيضا أن خوف موسى عليه السلام لم يكن ناشئا عن ضعف طاقته البشرية، بل كان خائفا على الناس كما قلنا.
و عن علي عليه السلام:
(لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال، ودول الضلال). (٣)
٣٤٧ - نقاط ضعف طبيعية ونقاط ضعف انفعالية أيضا.
٣٤٨ - بشرية النبي قد تدفعه إلى نقاط الضعف الطبيعية.
٣٤٩ - قد يغفل النبي عن يعض المناسبات الشكلية أو المعنوية.
٣٥٠ - موسى (ع) ينساق مع نقاط الضعف الانفعالية.
ويقول البعض:
" لنا ملاحظة في موقف موسى من هارون:
ولنا ملاحظة، في هذا الموقف الذي انطلق فيه موسى ضد أخيه، من موقع غضبه

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٣٥ و ١٣٦
(٢) سورة طه الآية ٦٨..
(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤

لله وانفعاله بالوضع الجديد الذي عاش فيه بنو إسرائيل مبدأ الصنمية..
إننا لا نجد في موقفه هذا ابتعادا عن خط الطاعة لله ليكون منافيا للإستقامة الشرعية في دائرة العصمة، ولكننا نجد فيه انسياقا مع نقاط الضعف الإنفعالية التي توحي بأن بشرية النبي قد تدفعه إلى نقاط الضعف الطبيعية التي قد يغفل فيها عن بعض المناسبات الشكلية أو المعنوية (قال فما خطبك يا سامري) كيف فعلت ما فعلته من هذا الأمر الخطير الذي جئت به وهذا هو معنى الخطب الذي هو الأمر الخطير الذي يهمك (قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) (١).

وقفة قصيرة

قد تحدثنا فيما مضى من هذا الكتاب عن أن غضب موسى عليه السلام لم يكن على أخيه هارون صلوات الله وسلامه عليه، بسبب جرم ارتكبه، أو تقصير منه في القيام بالواجب، وإنما كان من أجل أن يعرف بني إسرائيل بخطر ما أقدموا عليه، وبمدى بشاعة الجريمة التي ارتكبوها.. ثم هو قد أراد أن يسمع الناس إجابة هارون عليه السلام من أجل إظهار براءته وتحصينه من نسبة القصور أو التقصير إليه، وتكون النتيجة هي التالية:

١ - لم يكن موسى عليه السلام يقف ضد أخيه.

٢ - إن موسى عليه السلام لم يغفل عن بعض المناسبات الشكلية ولا المعنوية - كما يقول هذا البعض - بل كانت الأمور واضحة لديه وضوحا تاما، لا سيما ان المسألة هي من جملة ما يتعلق بأمر التبليغ الذي ليس لمسلم أن يشكك في القول بعصمة الأنبياء فيه.

٣ - إن موسى عليه السلام قد انساق مع نقاط القوة، وحقق الهدف الإلهي، ولم يكن لديه نقاط ضعف انفعالية لينساق معها.

وإن نسبة ذلك كله وسواه إلى هذا النبي العظيم هي مجرد تبرع من هذا البعض لا مستند له فيه، فضلا عن كونه مخالفا للقواعد العقلية الصحيحة، وليست الآيات ظاهرة ولا ناظرة في شيء من معانيها إلى شيء مما ذكره.

٣٥١ - رأي موسى (ع) يخالف ما قرره الله له.

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٥٦.

٣٥٢ - موسى (ع) يقول لربه: لا فائدة من إرسالي لأن النتيجة معلومة.
٣٥٣ - إحتباس كلام موسى (ع) يمنعه من الحوار والجدال بالكلمات القوية.
٣٥٤ - إحتباس كلام موسى (ع) يمنعه من الأسلوب اللبق.
٣٥٥ - موسى (ع) يعاني من نقص في الصفات التي يحتاج إليها.

ويقول هذا البعض:

".. (قال رب إني أخاف أن يكذبون) لأنني أعرف فيهم الطغيان الذي يمنعهم من الإذعان بالرسالة ويدفعهم إلى احتقار الناس من حولهم، ممن هم دونهم في الطبقة الاجتماعية، الأمر الذي يدعوهم إلى تكذيبي فيما أبلغهم من رسالاتك.. فلا فائدة من إرسالي إليهم لأن النتيجة معلومة بالرفض (ويضيق صدري) في مواجهة الضغط الذي أتعرض له منهم، مما لا أستطيع تحمله في قدرتي الذاتية
(ولا ينطلق لساني) فيما أعانيه من حالات احتباس الكلام، مما لا يسمح لي المجال معه - بالحوار والجدال، وإدارة الصراع بالكلمات القوية، والأسلوب اللبق (فأرسل إلى هارون) ليكون عونا لي على أداء الرسالة، لما يتميز به من صفات تسد النقص الذي يعاني منه كفصاحة اللسان ونحوها (ولهم علي
ذنب) فقد قتلت شخصا منهم (فأخاف أن يقتلون) ثأرا له " (١).

وقفة قصيرة

إن هذا البعض قد لا يكون الوحيد الذي فسر الآيات بهذه الطريقة. ولكننا نسجل عليه وهو داعية دراسة الأمور بعقلانية وموضوعية، ما يلي:

١ - إن هذا البعض يقول: إن احتباس الكلام لدى موسى كان إلى درجة لا يسمح له بإدارة الصراع بالأسلوب اللبق.

كما أن هذا الإحتباس قد بلغ حدا لا يسمح له بالحوار والجدال.

ولا ندري كيف استطاع عليه السلام أن يحاور فرعون حينما واجهه بالدعوة التي انتهت بجمع السحرة في يوم الزينة؟ وكيف استطاع أن يحاور بني إسرائيل في شأن البقرة وغيرها؟ بل كيف استطاع تأدية الرسالة التي بعث من أجلها لا سيما أن هارون الذي أرسل ليسد النقص الموجود عند موسى - كما يزعم هذا البعض - قد توفي قبل موسى (ع)، فماذا صنع موسى (ع) بنقصه الذي يعاني؟ ومن الذي قام مقام هارون في هذا الأمر؟

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٧ ص ١٠٢ و ١٠٣.

٢ - هذا بالإضافة إلى أن هذا البعض يتحدث عن موسى (ع) ويصوره لنا كأنه يعترض على الله، ويدله على أنه غير مصيب في إرساله، لأن ذلك سيكون أمرا عقيما، وعبثيا، ومن دون فائدة. فانظر إلى قول هذا البعض:
" إنني أعرف فيهم الطغيان.. مما يوحي بأن سبب مبادرة موسى باقتراح إرسال أخيه معه هو معرفته بطغيانهم ".
وكأن الباري تعالى لا يعرف ذلك.
٣ - مع أن موسى (ع) حين تحدث عن خوفه من تكذيبهم، وعن أن صدره يضيق بهذا التكذيب، وأن لسانه لن ينطلق معهم في البيان لأنهم سيتعاملون معه من موقع المعادي والحاقد، الذي لا يصغي إلى الحجة، ولا يخضع للدليل - نعم إن موسى (ع) حين تحدث عن ذلك، فإنما أراد به أن يعرف من الله سبحانه أوجه معالجة الموقف في هذه الحالات والظروف الصعبة، ولا يريد أن يعرف الله - والعياذ بالله - أن إرساله لا فائدة منه، لأن النتيجة معلومة على حد زعمه.
٤ - أما بالنسبة لاحتباس لسان موسى (ع)، إن المراد ليس هو اللكنة في اللسان، التي تمثل عائقا عن الإفصاح في الكلام، بل المراد هو أن قتل القبطي، وكونه قد تربى عندهم سيجعلهم يتعاملون معه بطريقة حاقدة وغير عقلانية تمنعه من الإفصاح عن مراده ولذا فهو يطلب من الله أن يهديه إلى الطريقة المثلى في التعامل مع هذا الواقع الذي يواجهه.
على أن هذا الإحتباس، لا ربط له باللباقة، وبالأسلوب، كما هو معلوم.
وسيأتي المزيد من توضيح هذا الأمر فيما يرتبط بالعقدة في لسان موسى عليه السلام في تعليقنا على الفقرة التالية.
٣٥٦ - القرآن يوحي بما لا يتفق مع كون النبي أعلم الناس وأشجعهم وأكملهم في المطلق.
٣٥٧ - الرسالة تتصل بحركة الكلام في لسانه، وطريقة التعبير في كلامه.
٣٥٨ - ضعف موسى في طبيعة الكلمة، والمنهج، والأسلوب، وقوة هارون في ذلك.
٣٥٩ - لكنة في لسان موسى تؤدي إلى ضعف موقفه.
٣٦٠ - نقاط ضعف بشري تتحرك بشكل طبيعي في شخصية النبي، حتى في مقام حمل الرسالة.
٣٦١ - لكنة موسى تمنعه عن إفهام ما يريد للناس.

٣٦٢ - الجانب الغيبي لا يتدخل في تضخيم شخصية النبي على حساب بشريته العادية.
٣٦٣ - اللكنة في لسان موسى تثير السخرية ونحوها.
وبعد ما تقدم نقول:
يتحدث البعض عن طلب موسى من الله أن يشد عضده بأخيه هارون، فكان مما لاحظه في هذه القصة ما أجمله بقوله:
".. (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) فقد كان يعيش حبسا في لسانه بحيث يمنعه من الطلاقة التي تفصح الكلمة بحيث يفهم الناس ما يريد أن يقوله.. لأن الرسالة تتصل بحركة الكلام في لسانه، وطريقة التعبير في كلامه.
وتلك هي مشكلته الخاصة التي أراد الله أن يساعده في حلها وترويضها وتيسيرها وتسهيل صعوباتها.. فيما يريد أن يمارسه بجهده الذاتي (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري) لأن المهمة تحتاج إلى جهد آخر يشترك مع جهده في الدعوة والحركة والانطلاق.. ليعاون أحدهما الآخر فيما يمكن أن يواجههما من مشاكل وقضايا وصعوبات، خصوصا في جانب الدعوة في طبيعة الكلمة والمنهج والأسلوب، الذي يتمتع هارون بمميزات جيدة لأن لسانه أفصح من لسان موسى، كما جاء في سورة أخرى.. وتلك هي الروح المتواضعة الجادة التي تدرس حجم المسؤولية، وحجم إمكاناتها فإذا رأت بعضا من الخلل الذي قد يصيب المسؤولية أمام ضعف الإمكانات، فإنها لا تتعقد ولا تهرب من الواقع لتلجأ إلى الذات في عملية استغراق في الإيحاء بالقدرة الشاملة غير الموجودة لينعكس ذلك سلبا على حركة الموقف العملي، بل تعمل على أن تستكمل القوة من جانب آخر لمصلحة العمل المسؤول.. وهذا هو ما فعله النبي موسى (ع) عندما أراد من الله أن يضيف إليه شريكا في أمره، لأنه يعيش بعض نقاط الضعف التي يملك فيها هارون نقاط قوة..
وهذا هو الذي يوجب على العاملين في سبيل الله، أن يواجهوه فيما يتحملونه من مسؤوليات ليعملوا على الإخلاص للدور العملي في استكمال كل الإمكانات التي يحتاجها، ولو كانت لدى الآخرين.. لأن ما نعانيه في ساحة العمل، هو أن بعض العاملين قد يدفعهم الشعور الأناني بالعظمة الفارغة، فيسيئون إلى مسؤولياتهم للحفاظ على ذواتهم لأنهم لا يريدون الاعتراف بالحجم المحدود لقدراتهم، وبالإمكانات المتوفرة لدى الآخرين " (١).

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٠٨ - ١١٠

ويقول البعض أيضا:
" وقد نلاحظ في هذه القصة، أن النبوة لا تتنافى مع الضعف البشري الذي يعيشه النبي ويعترف به، فيطلب إلى الله أن يقويه بإنسان آخر في أداء مهمته لا بواسطة تنمية قدراته الذاتية.. مما يوحي بأن الجانب الغيبي لا يتدخل في تضخيم شخصية النبي على حساب بشريته العادية، بل يترك المسألة للطبيعة البشرية لتتكامل بطريقة عادية.. وهذا ما قد يحتاج إلى مزيد من الدراسة فيما يطلقه علماء الكلام فيما يتصل بصفات النبي، بأن يكون أعلم الناس وأشجعهم وأكملهم في المطلق.. فإن تأكيد القرآن على نقاط الضعف البشري في شخصية الأنبياء، لا سيما في شخصية موسى (ع) قد توحي بما لا يتفق مع ذلك " (١).
ويقول أيضا:
".. وهناك نقطة أخرى، وهي أن الرسالة تفرض الدخول في جدل مرير مع هؤلاء القوم يمكن أن يثيروه من شبهات، أو يطالبوه بالحجة، فيحتاج إلى التحدث بطريقة مقنعة حاسمة، بلسان فصيح.. وهذا ما لا يملكه موسى للكنة كانت في لسانه، مما يؤدي إلى ضعف موقفه الذي ينعكس سلبا، على موقف الرسالة فيما قد يثيره ذلك من سخرية ونحوها.. لذلك كان بحاجة إلى شخص آخر يشاركه المسؤولية، ليواجه مثل هذا الموقف الطارئ معه، أو ليكون بديلا عنه في مقارعة الحجة بالحجة.. ولهذا فقد أراد أن يكون أخوه هارون معه (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا) أي ناصرا ينصرني ويشد ظهري " يصدقني " ويشرح بفصاحته مواقع الصدق في رسالتي، ومواطن القوة في موقفي، (إني أخاف أن يكذبون) فيفرض ذلك علي الدفاع والجدال حول مفاهيم الرسالة ومواقعها " (٢).
ونجد هذا البعض يقول أيضا في موضع آخر في تفسير قوله تعالى (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (٣):
" ونلاحظ في هذه الآية الإشارة إلى ما يعيشه النبي من نقاط الضعف البشري التي تتحرك في شخصيته بشكل طبيعي، حتى في مقام حمل الرسالة.. فيتدخل اللطف الإلهي من أجل أن يمنحه القوة الروحية التي تفتح قلبه، بعمق على التأييد الإلهي في أوقات الشدة الأمر

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١١٠ و ١١١.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٧ ص ٣٢٦ - ٣٢٨.
(٣) سورة طه الآية ٤٥.

الذي يعطي الفكرة بأن النبي يتكامل في وعيه وقوته وحركته في الرسالة. " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
إننا رغم أننا لم نذكر في العناوين المستخرجة من كلام هذا البعض ما ذكره عن الضعف البشري في شخصية الأنبياء، فإننا نذكر القارئ الكريم بما يلي:
١ - إن هذا البعض قد فسر الآيات بطريقة أوصلته إلى أن ينسب إلى الأنبياء ما ألمحنا إليه في العناوين التي صدرنا بها كلامه هذا الأخير..
ونحن نذكر هنا ما يشير إلى المراد من أفصحية هارون (ع)، ليظهر للقارئ أن الآية ليست ناظرة إلى موضوع طلاقة اللسان من الأساس..
ولو سلمنا أنها ناظرة إلى طلاقة اللسان من حيث البلاغة والفصاحة الكلامية، فذلك لا يستلزم ما ذكره ذلك البعض.
ونحن نشرح ذلك ضمن النقاط التالية، فنقول:
أ - لقد طلب موسى (عليه السلام) من الله أن يشد عضده بأخيه هارون (عليه السلام).
وهو طلب طبيعي، ليس فيه أية مشكلة، وهو لا يعني وجود نقص في شخصية النبي موسى (ع) يحتاج إلى رفعها بواسطة الاستعانة بهارون (ع)، ويدل على ذلك ما روي من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد طلب أيضا مثل ذلك من الله تعالى فقال (ص): واجعل لي وزيرا من أهلي، عليا أخي، أشدد به أزري..
وقد صحت الرواية بذلك من طريق الفريقين على حد تعبير صاحب الميزان (٢).
".. وعن أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله (ص) بإزاء ثبير وهو يقول: أشرق ثبير، أشرق ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري، وأن تيسر لي أمري، وأن تحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، وأن تجعل لي وزيرا من أهلي عليا أخي. أشدد به أزري، وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا (٣) ".

---

(١) من وحي القرآن ج ١٥ ص ١١٩.
(٢) تفسير الميزان ج ١٤ ص ١٤٧.
(٣) تفسير البرهان ج ٣ ص ٣١ وتفسير الثقلين ج ٣ ص ٣٧٦.

فالمراد من الأمر في قول موسى (ع) (وأشركه في أمري) غير النبوة، بدليل أن رسول الله (ص) دعا الله بأن يشرك عليا (ع) أمره مع أن عليا ليس نبيا قطعا، بل المراد هو آثار النبوة، كافتراض الطاعة وغير ذلك والله العالم.

ب - كما أن رسول الله (ص) قد طلب من الله سبحانه حل العقدة من لسانه حيث قال (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) مع أن ذلك لم يكن لقلة فصاحة فيه، ولا لعقدة أو لكنة في لسانه، ولا لكون علي عليه السلام أفضل منه، وهو القائل (ص): (أنا أفصح من نطق بالضاد).

وهذا يشهد بأن المراد من الفصاحة في دعاء موسى (ع) ليس هو المعنى الذي يذكرونه في علم المعاني والبيان، وإلا لما صح أن يدعو به أفصح من نطق بالضاد، فالمراد إذن شيء آخر وهو أنه أكثر انطلاقا في الحديث معهم حيث لم يقتل منهم رجلا من عدوه كما فعله أخوه موسى (ع)، بالإضافة إلى جدالهم في أمر إحسانهم لموسى وتربيتهم له (ع) وليدا كما ذكر الله تعالى حكاية ذلك في قوله (.. ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين).

وهكذا يتضح أن ذلك لا ينافي كون موسى (ع) أعلم الناس وأكملهم وأشجعهم كما يقول هذا البعض.

٢ - وحتى لو سلمنا - جدلا - بأفصحية هارون من الناحية الكلامية، ولم نحمل كلامه على ما ذكرناه آنفا، أو على أن ذلك كان منه تواضعا وهضما للنفس، فلا مشكلة في ذلك، لأن هذه الآية نفسها تثبت صفة الفصاحة لموسى (عليه السلام) أيضا غير أنه يمهد للحصول على مطلوبه وهو أن يكون أخوه هارون وزيرا له. وأين هذا مما ذكره هذا البعض من كون لكنة موسى تمنعه من إفهام ما يريده للناس، الأمر الموجب للنقص في الصفات التبليغية المتوجب توفرها في المبلغ لدين الله.

فأفصحية هارون (ع) كمال له، وفصاحة موسى (ع) لا تعتبر نقصا ولا تضر في أفضلية موسى (ع)، حيث إن ملاك الأفضلية هو التقوى الناشئة عن العلم والتي تقترن بالعمل.

وأما بالنسبة للصفات الجسدية ونحوها فقد ذكر العلماء أن المطلوب هو الكمال وعدم النقص، وهذا متحقق في موسى عليه السلام.

ثم إن هذه الأفصحية قد حازها نبي بالقياس إلى نبي آخر لا أنها ثابتة لشخص عادي بالقياس إلى النبي، ليقال: لا بد أن يكون النبي أكمل من سائر الناس. فموسى وهارون (ع) أكمل أهل زمانهما لكن موسى أفضل عند الله وأكمل من أخيه في كثير من الصفات. فكما أن أكملية موسى (ع) لا تضر في نبوة هارون. كذلك أفصحية هارون - مع كون الفصاحة الكاملة موجودة عند موسى - لا تضر في نبوة موسى، ولا في أفضليته عند الله بمعرفته بالله سبحانه حتى على هارون نفسه. وإلا لكان الدعاء من الرسول (ص) بدعاء موسى (ع) بلا معنى.

هذا كله، لو سلمنا - جدلا - بأفصحية هارون (ع). فيتضح مما تقدم أن ما ذكره ذلك البعض من ضعف بشري لدى الأنبياء، وأن موسى (ع) كان يعاني من حبس في لسانه يمنعه من الطلاقة المفهمة لمراده غير صحيح.

ملاحظة:

واللافت للنظر هنا: ان الله سبحانه قد اتخذ موسى كليما، وأعطاه الكرامة عن سائر الأنبياء، فهل اختاره كليما لأجل لكنته هذه تعويضا له عما فيه من نقص؟ إن هذا الأمر عجيب حقا، وأي عجيب!! وإذا كان هناك من احتمال آخر فليطلعنا عليه.

٢ - انه إذا كانت مشكلة موسى (ع) هي في احتباس لسانه المانع له من الطلاقة المفهمة لمراده كما يقول البعض، فما هو ربط ذلك بالمنهج واللباقة في الأسلوب؟ ومن أين عرف أن منهج هارون (ع) وأسلوبه، كان أحسن من منهج وأسلوب موسى (ع)؟!! ومن أين علم ان موسى استعان بهارون كي لا يهزأ ولا يسخر منه قومه لعدم قدرته على أفهامهم!؟.

مع أن القرآن سجل لنا في تساؤل بني إسرائيل عند امره لهم بذبح البقرة موقفا معاكسا حيث اتهموه بأنه يهزأ بهم (قالوا أتتخذنا هزوا، قال أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين).

٣ - إن قول موسى وهارون عن فرعون: (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن

يطغى) لا يستلزم وجود نقاط ضعف بشري تتحرك في شخصية النبي بشكل طبيعي، حتى في مقام حمل الرسالة، كما يقوله ذلك البعض.

فإن معرفتهما بشخصية فرعون، ثم ذكرهما لما يحتمل أن يواجهاه معه، ليس معناه أنهما يعانيان من وجود ضعف في شخصيتهما. بل ذلك يعني أنهما وهما يتحسبان لما سيواجههما به فرعون إنما يريدان إعداد العدة لمواجهة أي احتمال.. وهذا هو غاية القوة في مقام حمل الرسالة..

فما هو نقاط قوة في الحقيقة أصبح - بنظر هذا البعض - نقاط الضعف في شخصية النبي التي تتحرك بشكل طبيعي حتى في مقام حمل الرسالة!!.

الفصل الرابع:
يعقوب ويوسف
(عليهما السلام)

٣٦٤ - يعقوب والصدمة وتأثيرها المؤلم فيه.
٣٦٥ - يعقوب لم يفعل أي شيء يؤذي جسده.
٣٦٦ - العوارض الطبيعية هي التي أوجبت عمى يعقوب.
٣٦٧ - كان يعقوب يعيش الحزن الهادئ دون أن يؤثر على حياته.
٣٦٨ - ظنوا أن أباهم قد نسي يوسف..

يقول البعض:

" ولكن يوسف أصر على موقفه، وعادوا إلى أبيهم من دون أخيهم، وكم كان وقع الصدمة قاسيا على يعقوب - عليه السلام -، واجه الصدمة فأثرت به تأثيرا مؤلما، لأنها أيقظت أحزانه وأثارت أشجانه وذكرياته، فتولى عنهم (وقال: يا أسفى على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ((يوسف: ٨٤)، وهنا ربما يتساءل البعض ويقول: كيف يجزع يعقوب، وهو نبي؟ نجيب على ذلك بأنه (عليه السلام) لم يفعل أي شيء يؤذي جسده، ولكن كان يعيش الحزن الهادئ حيث ابيضت عيناه من البكاء كنتيجة طبيعية للعوارض التي أوجبت فقدان بصره، لذلك عندما قالوا له: (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ((يوسف: ٨٥) أجابهم بأنه لا يشكو لهم، ولا يسبب أي مشكلة معهم (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ((يوسف: ٨٦) فلست إنسانا يشكو أمره للعباد، فالقادر على قضاء حاجتي، وتفريج همي وكربي هو الله، فيعقوب (عليه السلام) كان يملك الإحساس العميق بعدم اليأس، فوهبه الله معرفة أن يطل على المستقبل، لذلك على الرغم من مرور السنوات الطوال على غياب يوسف ومحاصرته بكثير من المشاكل بقي منفتحا.. الخ (١).

ويقول البعض أيضا:

" (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (ورغم كل شيء فهو يحبس غيظه

----

(١) حركة النبوة في مواجهة الانحراف: ص ٢٥٣.

وحزنه في نفسه، ولم يتصرف تصرف الجازعين الذين يتمردون على إرادة الله، ولكنه يعطي للحزن دوره الهادئ في قلبه وإحساسه وشعوره، من دون أن يترك الحزن تأثيره على حياته وعلى دوره في رسالته وحركته في الحياة (قالوا تالله (لقد فوجئوا بذكره ليوسف الذي يقال بأنه غاب عنهم مدة ثمانية عشر عاما، وظنوا أن أباهم قد نسيه، لأن الذكريات الماضية تذوب وتزول وتذهب (قالوا تالله تفتأ (أي لا تفتأ ولا تزال (تذكر يوسف حتى تكون حرضا (أي مشرفا على الهلاك قريبا من الموت (أو تكون من الهالكين (أو يؤدي بك ذلك إلى الهلاك (قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله (أنا لا أشكو بثي وحزني إليكم، فأنا لا أشكو لبشر، وأنا عندما أتذكر يوسف وآسف على غيابه، فإنما أجلس في حالة مناجاة مع الله، ولذا فإني أرجع شكواي إلى الله وأقدم حزني بين يديه سبحانه، فهو الذي يملك إزالة حزني عني ويبدله إلى فرح، وعندما أعبر عن حزني فليس لإثارة الإشفاق علي من الناس، أو لأفرض حزني عليهم (وأعلم من الله ما لا تعلمون (أعلم من الله أنه رحيم بعباده، فهو يعطي الأمل من قلب اليأس وهذا ما أعلمه من خلال معرفتي به تعالى، لذلك لم أفقد ثقتي بربي أو إيماني به، ولا أرى أن التعبير عن الحزن يتنافى مع استسلامي له، فالتعبير عن الحزن حالة إنسانية، والاستسلام إلى الله هو حركة هذه الحالة بين يدي الله حتى تعين الإنسان على أن ينفتح على المستقبل أكثر من خلال الله، لا من خلال غيره (١).

وقفة قصيرة

ونلاحظ:

١ - من الواضح: أن الجزع المذموم والمرفوض من قبل الشارع هو الذي يستبطن الاعتراض على الله سبحانه حين يعتبر الجازع أن ما حدث يمثل ظلما، وتعديا وتصرفا غير سديد.. كما أن من الواضح أيضا: أن إظهار الحزن الشديد لا يستبطن الاعتراض على الله بحيث لا ينفك هذا الإظهار عن ذلك الاعتراض، إذ كثيرا ما ينطلق الجزع من حب الله ومن شدة الاهتمام بالحفاظ على الدين ورموزه الكبرى، وهذا يكون جزعا ممدوحا، ومحبوبا له تعالى، ومندوبا إليه، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام):

---

(١) حركة النبوة في مواجهة الانحراف ص ٣٤١.

(كل الجزع والبكاء مكروه سوى على الحسين) (١).
وقد روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه قال:
(إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا الخ..) (٢).
وذلك يدل على أنهم عليهم السلام قد بكوا على الحسين حتى تقرحت جفونهم..
والقرح هو الجرح وذلك معناه أنهم عليهم السلام قد فعلوا أمرا قد نشأ عنه أمر لم يكن ليجوز لهم في الحالات العادية تماما كما بكى يعقوب على فراق يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن.
وفي زيارة الناحية المقدسة:
(ولأبكينك بدل الدموع دما).
وذلك يدل على جواز فعل ما يؤدي إلى مثل الجرح والعمى، فلا معنى للمنع من ضرب الرأس بما يدميه تفجعا على الحسين (عليه السلام)..
فإن عمى يعقوب وتقرح جفون الأئمة أعظم ضررا من إدماء الرأس أو اللطم على سيد الشهداء (عليه السلام).
وعن اللطم بالخصوص نجد الإمام الرضا عليه السلام لا يعترض على دعبل حينما أنشد قصيدته. وقد جاء فيها:
أفاطم لو خلت الحسين مجدلا وقد مات عطشانا بشط فرات
إذن للطمت الخد فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات
فلم يقل له إن فاطمة لا تفعل ذلك، لأنه حرام. بل نجده - كما تذكر بعض الروايات - قد زاد له بيتين في قصيدته يؤكد أن الحزن العظيم والمستمر إلى يوم القيامة عليه هو عليه السلام. والبيتان هما:
وقبر بطوس يا لها من مصيبة الحت على الأحشاء بالزفرات
إلى الحشر حتى يبعث الله قائما يفرج عنا الهم والكربات

----

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٣١٣ وراجع علل الشرائع ص ٢٦٤ ومصباح المتهجد، وغير ذلك.
(٢) الأمالي للصدوق ص ١١ المجلس ٢٧ ح ٢ والبحار: ج ٤٤ ص ٢٨٤.

كما أن النساء حين رأين جواد الحسين خرجن من الخدور.. على الخدود لاطمات، كما جاء في زيارة الناحية المقدسة.
وقد لطم النسوة خدودهن ليلة العاشر أمام الحسين (ع)، فقال الحسين (ع)، يا أختاه، يا أم كلثوم، يا فاطمة، يا رباب، انظرن إن انا قتلت فلا تشققن علي جيبا ولا تخمشن وجها ولا تنطقن هجرا (١) فهو إنما نهاهن عن ذلك بعد موته.
وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: (وقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب).
كما أن الحديث عن الأئمة (عليهم السلام) قد عد يعقوب من البكائين الخمسة، أو الثمانية (٢).
ويروى أن الإمام الصادق عليه السلام: (جزع على ابنه إسماعيل جزعا شديدا) (٣) و (أن آدم عليه السلام جزع على ابنه هابيل) (٤).
٢ - إن من الواضح: أن حبس الإنسان غيظه وحزنه في قلبه لا يوجب عمى عينيه، كما زعم هذا البعض.. ولم نسمع، ولم نر إنسانا حبس غيظه وحزنه في قلبه قد أصيب بالعمى رغم الكثرة الكاثرة في كل هذا التاريخ الطويل، لمن يصابون بأفدح المصائب ثم يكظمون غيظهم وحزنهم..
٣ - ما معنى قوله:
" إن يعقوب قد أعطى الحزن دوره الهادئ في قلبه وإحساسه وشعوره، من دون أن يترك تأثيره على حياته ودوره في رسالته وحركته في الحياة.. "
ألم يصب يعقوب بالعمى في عينيه من شدة حزنه، وهل العمى ليس له تأثير سلبي على حياة الإنسان.

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٦٤ / ٢٦٥ عن الإرشاد، وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج ٨ ص ٣٢٥ والذكرى ص ٧٢ طبعة حجرية.
(٢) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٢٠٤ وج ١٢ ص ٣١١ وراجع ص ٢٤٤ و ٢٦٤ و ٣٠٥ وج ٧٩ ص ٨٦ وج ٤٣ ص ٣٥.
(٣) بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٢٤٩ و ٢٥٠.
(٤) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٢٤٠ و ٢٦٤.

٤ - ما معنى قول أبناء يعقوب له: (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا (أليس معنى الحرض هو (الإشراف على الهلاك قريبا من الموت) حسب تفسير هذا البعض نفسه، ثم قولهم له: (أو تكون من الهالكين (.
ألا يدل ذلك على أن حزن يعقوب كان ظاهرا قويا، وليس هادئا، ولا محبوسا في داخل نفسه - حسبما يدعيه هذا البعض -.
وهل ثمة من جزع أكبر من أن يشرف الإنسان على الهلاك من شدة الحزن، أو أن يهلك بالفعل بسبب ذلك؟!
وإذا كان يعقوب قد حزن على يوسف إلى درجة العمى، أو حتى اشرف على الهلاك، فما بال البعض ما فتئ يقبح الجزع على الإمام الحسين (عليه السلام) رغم ورود الرواية الصحيحة - عن أهل بيت العصمة في أنه لا محذور فيه؟ !
ولماذا يعتبر أن مظاهر الحزن واللطم في عاشوراء غير حضارية ولا واعية؟! بل هي من مظاهر التخلف، ومن دواعي السقوط، كما أن بعض مفرداتها محرمة لأنها بنظره من مصاديق الإضرار بالنفس؟.
٥ - ما معنى قول هذا البعض عن يعقوب: مجيبا على سؤال: كيف يجزع يعقوب، وهو نبي؟!
" إنه لم يفعل أي شيء يؤذي جسده، ولكن كان يعيش الحزن الهادئ حتى ابيضت عيناه من البكاء، كنتيجة طبيعية للعوارض التي أوجبت فقدان بصره ".
فهل إن البكاء الذي صدر من يعقوب لا يدخل في دائرة الفعل أصلا أم أنه فعل لكنه لم يكن من فعل يعقوب؟!
وإذا كان العمى قد نشأ عن البكاء الذي هو من فعل يعقوب، فكيف يقول: إنه لم يفعل أي شيء يؤذي جسده؟! وهل العمى بسبب البكاء لا يعد أذى للجسد؟!
ألم يكن العمى نتيجة لفعل البكاء؟
وكيف يمكن الجمع بين قوله:
" إن العمى كان نتيجة العوارض الطبيعية "

وقوله:
" إنه قد عمي من البكاء "؟!
٦ - إن التعبير بالصدمة بالنسبة لنبي الله يعقوب غير سديد جزما، فإن هذا النبي المجاهد الصابر لم يفاجأ بما حدث، وقد حكى الله عنه: أنه أخبر أبناءه بخوفه على ولده، وأخذ عليهم المواثيق أن يأتوه به إلا أن يحاط بهم، وهم لم يأتوا بجديد عما كان يتوقعه، بل اقتصروا على شرح ما جرى لهم، وإنما تكون الصدمة في أمر لم يكن متوقعا.
٧ - من أين علم أن أبناء يعقوب (عليه السلام) قد ظنوا أن أباهم قد نسي يوسف (عليه السلام) فإن قولهم له: (تالله تفتؤ تذكر يوسف (يدل على أنه كان مستمرا على ذكره، مثابرا عليه، وأنهم كانوا يعلمون ذلك وينكرونه عليه فمن أين جاء ظنهم ذاك.. إن قوله هذا يحتاج إلى إثبات قطعي - حسبما يقرر هذا البعض نفسه - وإن أي إثبات يأتي به سيكون مخالفا للقرآن، فلا بد من رده عليه..
٣٦٩ - النبي يعقوب يحب ولده لجماله.
٣٧٠ - النبي يحب ولده لذكائه ووداعته.
يقول البعض:
".. وجاء يوسف إلى أبيه.. وكان أثيرا عنده حبيبا إليه، لجماله ووداعته وصفاء روحه.. وجلس عنده يقص عليه رؤياه الغريبة التي أثارت في نفسه القلق لما تشتمل عليه من جو يوحي بالسمو ولكنه حافل بالغموض " (١).
ويقول أيضا:
".. ولكن يعقوب يعرف أن أولاده الآخرين يحسدون يوسف على ما تميز به عنهم من جمال وذكاء ووداعة وصفاء.. وعلى ما له من المنزلة عند أبيه، كنتيجة لما يملكه من هذه الصفات وغيرها مما يجعله أهلا للمعاملة المميزة " (٢).

----
(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٢ ص ١٧٨.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٢ ص ١٧٩.

وقفة قصيرة

ونقول:

أ - إننا لا نريد أن نرهق القارئ بالتعليق على هذه الفقرات، لكننا نلفت نظره إلى أننا ما كنا نحسب أن علاقة نبي الله يعقوب عليه السلام بولده النبي يوسف عليه السلام كانت بسبب جمال صورة ولده، أو بسبب ذكائه، ووداعته، فنحن نجل الأنبياء عن أمر كهذا. وإنما نعتقد أنه ينطلق في حبه له مما يلمسه فيه من معان إنسانية، وصلاح وهدى، واستقامة على طريق الخير والرشاد.

ب - وإذا كان الله سبحانه قد أعطى يوسف عليه السلام جمالا خصه به، ولم يعط سائر إخوته، فإن ذلك لم يكن بسوء اختيارهم ليستحقوا هم ذلك الإبعاد، ويستحق يوسف (ع) هذا القرب.

وإنما هي مشيئة الله سبحانه التي ليس لهم أو ليوسف (ع) معها أي اختيار، أو خيار.

ج - ولو أردنا أن نفسح المجال لموضوع الانجذاب للجمال، بحجة أن هذا يعبر عن الذوق الرفيع، ليكون هذا الأمر من المعايير والضوابط التي يعتمدها الأنبياء في حبهم وفي ارتباطهم العاطفي بالأشياء وبالأشخاص لا سيما بعد ملاحظة ما يذكره هذا البعض عن يوسف وامرأة العزيز، فإن ذلك قد يدفع من لا تقوى لديه من أعداء الإسلام أمثال سلمان رشدي إلى كتابة (آيات شيطانية) جديدة تهدف إلى طرح وتسويق مثل أكذوبة زوجة أوريا، حينما رآها النبي داود في حالة مثيرة كما يزعمون، وكذلك الحال بالنسبة لقضية زينب بنت جحش وما افتروه من أن النبي قد عشقها بعدما رآها بصورة مثيرة.. وغير ذلك.

وهذا باب خطير، لا يمكن فتحه، ولا مجال للقبول به.

٣٧١ - عذاب يوسف (ع) في مقاومة الإغراء.

٣٧٢ - الإنجذاب إلى الحرام والقبيح لا ينافي العصمة.

٣٧٣ - جسد يوسف (ع) تأثر بالجو (الجنسي).

٣٧٤ - عزم على أن ينال منها ما أرادت نيله منه.

٣٧٥ - هم بها، ولكنه توقف، ثم تراجع.

٣٧٦ - إيمان يوسف (النبي) يستيقظ.
٣٧٧ - إستنفد كل طاقاته في المقاومة.
وأما حديث ذلك البعض عن يوسف (ع) فهو أشهر من أن يذكر، ونقتصر هنا على قوله في بيان ما جرى لهذا النبي (ع) مع امرأة العزيز:
" التفسير الذي نميل إليه ونستقربه، هو الإنجذاب اللا شعوري، تماما كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ".
إلى أن قال:
" فالعصمة لا تعني عدم الإنجذاب إلى الطعام المحرم، والشراب المحرم، أو الشهوة المحرمة، ولكنها لا تمارس هذا الحرام، فالإنجذاب الغريزي الطبيعي هنا لا يتحول إلى ممارسة، وتتضح الصورة أكثر عندما جمعته مع النسوة، اللاتي قلن: (حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (، عند ذلك شعر أن الطوق بدأ يضيق ويحاصره إلى درجة لا يستطيع فيها أن يتناسى، على اعتبار أنه استنفد كل طاقاته في المقاومة ".
" وهذا يجعلنا نشعر بالعذاب الذي كان يعيشه يوسف في مقاومته لإغراء هذه المرأة ".
ويقول:
" خلاصة الفكرة: إن يوسف (ع) لم يتحرك نحو المعصية، ولم يقصدها، ولكنه انجذب إليها غريزيا، بحيث تأثر جسده بالجو، دون أن يتحرك خطوة واحدة نحو الممارسة " (١).
وذكر في بعض ما بثته بصوته إذاعة تابعة له:
" عزم على أن ينال منها ما كانت تريد نيله منه " (٢).
ويقول:
" (وهم بها (في حالة لا شعورية، فيما يتحرك فيه الإنسان غريزيا بطريقة عفوية من دون تفكير.. لأن من الطبيعي لأي شاب يعيش في أجواء الإثارة أن ينجذب إليها، تماما، كمن يتأثر بالروائح الطيبة أو النتنة التي يمر بها، أو كمن تتحرك غريزة الجوع في نفسه بكل إفرازاتها الجسدية عندما يشم رائحة الطعام ".
إلى أن قال:
" وهكذا نتصور موقف يوسف، فقد أحس بالإنجذاب في إحساس لا شعوري وهم بها

---

(١) دنيا الشباب ص ٣٦ وراجع الندوة ج ١ ص ٣٠٤.
(٢) هذا الكلام مسجل بصوته، والشريط موجود لدينا.

استجابة لذلك الإحساس، كما همت به، ولكنه توقف ثم تراجع.. ورفض الحالة بحزم وتصميم، لأن المسألة عنده ليست مسألة تصور سابق، وموقف متعمد، وتصميم مدروس، كما هي المسألة عندها، ليندفع نحو خط النهاية، كما اندفعت هي، ولكنها كانت مسألة انجذاب جسدي يشبه التقلص الطبيعي، والإندفاع الغريزي.. إنها لحظة من لحظات الإحساس، عبرت عن نفسها ثم ضاعت وتلاشت أمام الموقف الحاسم، والعقيدة الراسخة، والقرار الحازم.. المنطلق من حساب دقيق لموقفه من الله، فيما ينطلق فيه من عقيدة، وفيما يتحرك فيه من خط، وفيما يقبل عليه من عقاب الله، لو أطاع إحساسه.. وهذا ما عبر عنه قوله تعالى: (لولا أن رأى برهان ربه.. (، فيما تعنيه كلمة " البرهان " من الحجة في الفكرة التي تقوده إلى وضوح الرؤية، فتكشف له حقيقة الأمر، فيحس، بعمق الإيمان، أنه لا يملك أية حجة فيما يمكن أن يقدم عليه، بل الحجة كلها لله.. وربما كان جو هذه الآية هو جو قوله تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون.. (وقد
نستوحي ذلك من مقابلة كلمة (هم بها)، لكلمة (همت به) فقد اندفعت إليه بكل قوة وضراوة واشتهاء، فحركت فيه قابلية الاندفاع.. وكاد أن يندفع إليها لولا يقظة الحقيقة في روحه، وانطلاقة الإيمان في قلبه.. وبذلك كان الموقف اليوسفي، فيما هو الإنجذاب، وفيما هو التماسك والتراجع والإنضباط، مستوحى من الكلمة، ومن الجو الذي يوحي به السياق معا " (١).

وقفة قصيرة

إن آيات القرآن الكريم لا تؤيد ما ذكره هذا البعض، إن لم نقل: إنها تدل على عدم صحته. ونحن نبين المراد من الآيات الشريفة بمعزل عما ذكره ذلك البعض، فنقول:

١ - إننا قبل كل شيء هنا نذكر سؤالا وجه إلى ذلك البعض، وأجاب عليه.. والسؤال والجواب هما كما يلي:

س: إذا نوى الإنسان أن يفعل فعلا سيئا مثلا، وصمم أن يرتكب فاحشة الزنا فهل يحاسب هذا الإنسان وكيف يمكن أن نتخلص من مقولة (إنما الأعمال بالنيات) إذا كان الجواب بالنفي؟

" ج: المعروف أن الإنسان لا يحاسب على نيته إذا لم يحولها إلى واقع فالإنسان

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

تخطر في باله أعمال يعبرون عنها في علم الأصول بالقول (فعل قبيح وفاعل قبيح) بمعنى أن هذا يدل على قبح الفاعل، أي أنه إنسان سيئ ذاك الذي يفكر بالجريمة لكنه لم يفعل " (١).

فهل يلتزم هذا البعض بنسبة القبح إلى نبي الله يوسف عليه السلام؟ وهل يجوز أن يقول عنه: إنه (إنسان سيئ) أو إنه (فاعل قبيح)؟! لا سيما وأن هذا القائل قد صرح في مورد آخر بأن يوسف (ع) قد عزم على أن ينال منها، ما كانت تريد هي أن تناله منه (٢).

٢ – إن قوله تعالى: (لولا أن رأى برهان ربه (يفيد: أنه لم يحصل منه أي شيء مما ذكره هذا البعض، فإنك إذا قلت: لولاي لوقع الطفل عن السطح، فمعناه أن الطفل لم يقع، فيوسف عليه السلام – إذن – لم ينو هذه المعصية، ولم تدخل في دائرة اهتماماته.. فالله سبحانه ينفي أن يكون قد صدر عن النبي يوسف أي فعل قلبي، ويقول: إن هذا الأمر قد كان خارج دائرة نواياه..

٣ – أضف إلى ما تقدم أن الشيطان قد استثنى عباد الله المخلصين من إمكانية تأثيره فيهم، فقال: (لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين) (٣)، وقال تعالى: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ((٤).

وقد صرحت الآية هنا بأن بعد يوسف عن هذا الأمر، وإبعاده له عن دائرة نواياه، إنما هو لأنه كان من عباد الله المخلصين. فقد قال تعالى: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين ((٥). حيث ظهر من الآية: أن سبب صرف ذلك عنه هو كونه مخلصا.

٤ – إن وجود نوايا قبيحة مرفوضة ستكون نتيجتها سقوط الإنسان عن درجة الاعتبار وأنه سينظر إليه بعين الإحتقار والنقص، فلو أن إنسانا نوى الفاحشة مع امرأة محصنة، فإنه لن يكون محترما عند الذين يعلمون منه ذلك،

----

(١) الندوة ج ١ ص ٦٤٠.

(٢) هذا القول قد جاء على لسان هذا البعض في شريط مسجل بصوته، والشريط موجود أيضا لدى مؤلف هذا الكتاب.

(٣) سورة الحجر الآية ٤٠.

(٤) سورة الحجر الآية ٤٢.

(٥) سورة يوسف الآية ٢٤.

فكيف إذا كانت هذه النية من أحد الأنبياء المخلصين، فإنها تكون أشنع وأقبح، وقد تقدم تصريح البعض: بأن من ينوي ذلك، فهو إنسان سئ، وأن ذلك من مصاديق القبح الفاعلي على حد تعبيره، وفقا لما عند علماء الأصول.

٥ - إن المخلص - بالفتح - هو الخالص لله، بحيث لا يكون فيه أية شائبة لغيره، فمن ينجذب نحو الفاحشة انجذاب الجائع إلى الطعام، ومن عزم على أن يفعل ما طلبته منه امرأة العزيز، ومن تتحرك فيه قابلية الاندفاع نحو الفعل الحرام، هل يكون خالصا لله، وصافيا بحيث لا تكون فيه أية شائبة؟!.

٦ - هذا مع العلم: أن الله سبحانه قد قرر قبل ذلك مقام يوسف، وعلو درجته حيث قال: (.. ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين ((١). ولم يشر بعد ذلك، لا من قريب ولا من بعيد ولو حتى بالعتاب، إلى ما ربما يتوهم منه عزمه على أن ينال منها ما كانت تريد نيله منه كما يدعيه ذلك البعض.

٧ - ومع غض الطرف عن ذلك كله، فإن كلمة (هم بالشخص) ليس معناها هم بنكاحه، بل معناها: هم بضربه وإيصال الأذى إليه، حيث يقال: جاء فلان وتكلم بكلام سئ، فهممت به، أي هممت بإيصال الأذى إليه أو بضربه.

وقد ذكر هذا المعنى في الروايات عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وأن المراد: هم يوسف (ع) بضربها.

مناقشة وردها

قال المرجع الديني سماحة الشيخ التبريزي وهو يرد على مقولات ذلك البعض: (إن لفظ (لولا) دال على امتناع همه بالمعصية لرؤية برهان ربه)..

فرد عليه ذلك البعض بقوله:

".. إن التعبير الصحيح أو البليغ لهذا المعنى هو: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، لتفيد معنى حصول الفعل الذي يحصل بالمستقبل، فلا يصح أن نقول: (جاء زيد لولا القوم)، بل الصحيح أن نقول: (لولا القوم لجاء زيد) " (٢).

ونقول: إننا نسجل هنا ما يلي:

----

(١) سورة يوسف الآية ٢٢.

(٢) راجع رد ذلك البعض على المرجع الديني الشيخ التبريزي - الرد على السؤال السابع.

إن السيد المرتضى هو ممن لا يشك في تضلعه في علوم اللغة والبيان والفقه حتى قيل فيه: (لو قيل إن المرتضى أعلم العرب بلغتهم لم نتجاوز) وهو من أبرز أعلامنا.. منذ مطلع القرن الخامس وإلى يومنا هذا.. وقد ذكر هذا العلم هنا عدة أجوبة (١).

الأول: إن الآية قد علقت - في ظاهرها - كلمة (هم) بذاتيهما، فقالت: (همت به، وهم بها (، ولا يجوز تعلق الهم بالذات بمعنى الإرادة والعزم، فلا بد من تقدير محذوف، وليس بعض الأفعال أولى بالتقدير من بعضها الآخر، فهل هم بالضرب؟ أو الإكرام؟ أو أي شيء آخر؟ ويترجح أن يكون يوسف قد هم بالضرب، كقولك: هم فلان بفلان، أي بأن يوقع به ضربا أو مكروها..

أما من ناحيتها، فالمحذوف هو الفعل القبيح، وإنما فرقنا بينها وبينه في هذا الأمر، لما ظهر من أنها قد راودته عن نفسه، فجاز عليها فعل القبيح فهمت به، أما يوسف (ع) فلا يجوز ذلك عليه، لأنه رفض واستعصم، حسبما دل عليه القرآن..

والسبب في أن برهان ربه قد صرفه عن ضربها هو أنه لو فعل ذلك لأهلكه أهلها وقتلوه، أو أنها تدعي عليه المراودة على القبيح، وتقذفه به، وأنه إنما ضربها لامتناعها، وسيصدق الناس عليه ذلك.

وعلى هذا التفسير لا يكون جواب (لولا) متقدما عليها، بل هو مقدر ومتأخر عنها، والتقدير: همت به وهم بدفعها أو ضربها، لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك.

وحذف الجواب هنا كحذفه في قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم) (٢)، والتقدير لهلكتم.

أضف إلى ما تقدم: أن من يقول: المراد أنه عليه السلام قد هم بالقبيح كما همت هي به، يحتاج هو الآخر أيضا إلى تقدير جواب، كأن يقال: همت بالقبيح وهم به لولا أن رأى برهان ربه لفعله..

الثاني: أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، أي: لقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وهذا كقولك: قد كنت هلكت لولا أني تداركتك،

---

(١) هذه النقاط مقتبسة مما ذكره علم الهدى في كتابيه تنزيه الأنبياء ص ٨٠ - ٨٥ ط الأعلمي، وأمالي المرتضى ج ١ ص ٤٧٧ - ٤٨١.

(٢) سورة النور الآية: ٢٠.

وقتلت لولا أني خلصتك، أي لولا تداركي لك لهلكت، ولولا تخليصي لك لقتلت، وقال الشاعر:

فلا يدعني قومي ليوم كريهة لئن لم أعجل طعنه لم أعجل

وقال الآخر:

ولا يدعني قومي صريحا لحرة لئن كنت مقتولا ويسلم عامر

فقدم جواب (لئن) في كلا البيتين.

ومما يشهد على ذلك أنهم يقولون: (قد كان زيد قام لولا كذا كذا (و) قد كنت قمت لولا كذا (و) قد كنت قصدتك لولا أن صدني فلان) وإن لم يقع قيام ولا قصد، وهذا هو الذي يشبه الآية.

وخلاصة الأمر: أن في الآية شرطا، ويحتاج إلى جواب، وليس تقديم جواب (لولا) بأبعد من حذف الجواب من الأساس..

وإذا جاز عندهم الحذف - لئلا يلزمهم تقديم الجواب - جاز لغيرهم تقديم الجواب حتى لا يلزم الحذف.

تذكير

إن الملفت للنظر هنا: أن أبا علي الجبائي المعتزلي - تبعا لغيره - هم أصحاب مقولة: أن معنى هم بها اشتهاها، ومال طبعه إلى ما دعته إليه.. وقد روي هذا التأويل عن الحسن البصري، من علماء العامة أيضا.

قال المرتضى رحمه الله: (ويجب على هذا الوجه أن يكون قوله تعالى: (لولا أن رأى برهان ربه (، متعلقا بمحذوف، كأنه قال: لولا أن رأى برهان ربه لعزم أو فعل) انتهى (١).

هذا مع أن قوله تعالى: (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين (، يدل على صحة تقديم لولا عليها.

٣٧٨ - لعل يوسف نسي أهله بعد انقطاع أخبارهم.

٣٧٩ - لعل أهل يوسف قد نسوه بعد انقطاع أخباره.

٣٨٠ - رؤية يوسف لإخوته كانت بمثابة الصدمة له.

----

(١) أمالي المرتضى ج ١ ص ٤٨١.

٣٨١ - ضغط الأحداث على يوسف، جعل ذكر أهله يغيب عن فكره.
وفي تفسير قوله تعالى:
(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه، فعرفهم وهم له منكرون (.
يقول البعض:
".. ومرت الأيام.. وابتعد يوسف عن أهله.. وابتعدوا عنه.. وربما نسيهم بعد انقطاع أخبارهم عنه، وربما نسوه بعد انقطاع أخباره عنهم.. وتحول الجميع لدى بعضهم البعض إلى ذكرى تغيب عن الفكر أمام ضغط الأحداث المتلاحقة " (١).
ويقول:
" أما بالنسبة ليوسف، فقد كانت ملامحهم في ذهنه، لأنهم كانوا كبارا عندما فارقهم، ولم يحدث في حياتهم تغيير يذكر، يبعد الصورة البارزة لديه. لهذا كانت رؤيته لهم، بمثابة الصدمة التي أعادته إلى الماضي، وربما يكون قد ساهم في ذلك أنهم كانوا قد ذكروا أسماءهم، ومواقع بلادهم عند قومهم، فمن المتعارف لدى الناس، سؤال الغرباء عن هويتهم وبلادهم " (٢).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - ما المبرر لطرح احتمال نسيان يوسف لأهله.. وطرح احتمال نسيان أهله له، حتى تحولوا لدى بعضهم البعض إلى ذكرى تغيب عن الفكر أمام ضغط الأحداث المتلاحقة؟!.
وإذا كانت الذكرى للأهل تغيب عن الفكر أمام ضغط الأحداث المتلاحقة فهل يصح اعتبار الأهل قد نسوا ولدهم، والولد قد نسي أهله في حالات الانصراف الذهني حين الانشغال بالعمل، وذلك يكون حتى حين يكون الولد جالسا إلى جنب أبيه وأمه؟!.
وهل الأنبياء كانوا يعانون من ضعف الذاكرة إلى هذا الحد؟! وما معنى أن ينسب مثل هذا الأمر إليهم؟!

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٢، ص ٢٣٤.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٢، ص ٢٣٥.

٢ - ما معنى تصويره لحالة يوسف حينما رأى إخوته، فعرفهم وهم له منكرون.. على أنها كانت بمثابة الصدمة له؟!! وهل يصح استعمال أمثال هذه التعابير في حق أنبياء الله سبحانه؟!

٣ - من أين استنبط هذا الحدث حتى أخبر عنه على أنه حقيقة واقعة؟! ومن أين عرف أن ملامحهم لم يحدث فيها تغيير يذكر؟ وما هو الدليل القطعي الذي يثبت له ذلك؟! أو فقل: ما هي الأخبار المتواترة أو غير المتواترة التي تثبت هذا؟

٤ - إننا نعتقد أن يوسف الذي كان يعيش آفاق النبوة لا يمكن أن ينشغل عن أهله، وأن ينساهم مهما طال الزمن، خصوصا بالنسبة لأبيه النبي العظيم (١) الذي يرتبط به روحيا وإيمانيا، - قبل أن يرتبط به جسديا - وبصورة أعمق وأوثق من أي رباط آخر بنحو يتناسب مع الآفاق التي يعيشها الأنبياء، والمسؤوليات التي يحملونها.

كما أن يعقوب لا يمكن أن ينسى ولده لنفس السبب الذي أشرنا إليه، وقد طال حزنه عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن. وقد صرح القرآن بأنه لم يكف عن ذكر يوسف طيلة تلك المدة، حتى قال له أبناؤه: تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين.. فمن كانت هذه حاله كيف يقال: إن أهله نسوه.. وإذا كان بعضهم يوشك أن ينساه فإن حزن يعقوب وبكاءه عليه يمنع من حدوث هذا النسيان.

٥ - قد صرح هذا البعض:

" بأن يوسف قد عرف أسماء اخوته ومواقع بلادهم من خلال أسئلته التي وجهها لهم، فساهم ذلك في تذكره لهم ".

فهل يريد هذا البعض أن يقول: إن يوسف الذي أصبح على خزائن الأرض، وصار له هذا الشأن العظيم، إنما لم يستخدم موقعه ونفوذه، والوسائل المتوفرة لديه في السؤال عن أهله، ومعرفة أخبارهم، وكذلك لم يأت بهم من البدو بسبب النسيان الذي طرأ عليه بسبب ضغط الأحداث المتلاحقة؟!

---

(١) وكذلك بنيامين، بناء على كونه نبيا.

وهل يعقل أن لا يخطر له على بال أبدا طيلة سنين، وسنين أن له أبا وأما، وأن له إخوة وأنهم قريبون منه.. وأنهم هم الذين أوقعوه بالمصائب، والبلايا؟!.

ألم يمر في وهمه أي خاطر من هذا القبيل ولو حين يأوي إلى فراشه فيدفعه ذلك إلى السؤال عن منطقتهم، وعن أحوالهم، وعن مصيرهم؟! إن ذلك لغريب حقا، وأي غريب!!

إننا نبادر إلى القول بأن يوسف الذي هو نبي اصطفاه الله لا يمكن أن ينسى مسؤوليته الشرعية تجاه أبويه على الأقل، ولزوم التعرف على أخبارهما، لأداء واجب البر بهما وصلة رحمهما، التي هي من الواجبات..

وإن ما جرى لم يكن يجري في صراط النسيان والغفلة - وحاشاه من ذلك وهو نبي الله سبحانه - ثم التذكر حين مواجهة الصدمة (!!) على حد تعبير البعض بل كانت الأمور تجري في نطاق الخطة الإلهية، والرعاية الربانية لأنبيائه ورسله، وتسديدهم فيما يعملون له من نشر راية الحق والهدى، والفلاح والصلاح بنجاح. وهكذا كان..

الفصل الخامس:
يونس (عليه السلام)

٣٨٢ – يونس (ع) ليس لديه الصبر الكافي.
٣٨٣ – الله يؤدب نبيه يونس (ع).
٣٨٤ – يونس (ع) تهرب من مسؤولياته.
٣٨٥ – الله يعتبر يونس (ع) هاربا كإباق العبد من سيده.
٣٨٦ – يونس (ع) يخرج دون أن يتلقى تعليمات من الله.

يتحدث البعض عن تأديب الله ليونس بسبب عدم صبره، بملاحظة حجم يونس، فيقول بلهجة عامية:

" ما كان عنده الصبر الذي تحتاجه المسألة، فتفسير (فظن أن لن نقدر عليه) ليس معناها أنه ظن أن الله لا يقدر عليه، أن لن نقدر عليه، يعني أن نضيق عليه كأنه في هذا المجال، وما في مانع أن الأنبياء الله سبحانه يتعهدهم بالتربية وبالتأديب في حالة من الحالات، لا سيما إذا كانوا أنبياء في حجم يونس، وأمثال يونس من الأنبياء المحليين الخ.. " (١).

ويتحدث عن هروب يونس (ع) من مسؤولياته، وإباقه من الله، وأنه عندما لم يستجب له فيها منهم الكثيرون:

" خرج مغاضبا احتجاجا على ذلك، من دون أن يتلقى أية تعليمات من الله في ذلك منه (اعتقادا منه) (٢) بأن المسألة لا تحتاج إلى ذلك، فقد قام بدوره كما يجب، ولم يدخر جهدا في الدعوة إلى الله بكل الأساليب والوسائل، ولم يبق هناك شيء مما يمكن عمله. ولكن الله اعتبرها نوعا من الهروب، فيما يمثله ذلك من

---

(١) الموسم عدد ٢١ – ٢٢ ص ٣٢٢.
(٢) أضفنا هذه الكلمة لينسجم الكلام ويتم المعنى.

معنى الإباق، تماما كما هو إباق العبد من مولاه " (١).
ثم هو يقول:
" نستوحي من هذه القصة الخاطفة: أن الله قد يبتلي الدعاة المؤمنين، من عباده ورسله، فيما يمكن أن يكونوا قد قصروا فيه، أو تهربوا منه من مسؤوليات.
وأن الداعية قد يضعف أمام حالات الفشل الأولى، أو أوضاع الضغط القاسية، أو مشاكل الظروف الصعبة، كنتيجة لفكرة انفعالية سريعة، أو لشعور حاد غاضب.
ثم يلطف الله بهم بعد أن يتراجعوا عن ذلك، ويرجعوا إليه، فينجيهم من بلائه، ويحوطهم بنعمائه، ويسبغ عليهم من ألطافه وآلائه، لئلا يتعقد الخطأ، أو الانفعال في شخصيتهم، لينطلقوا إلى الحياة من روحية الصفاء الروحي، والنقاء الشعوري، من جديد، ليبدؤا الدعوة من حيث انتهوا، ويتابعوا المسيرة بعزم، وقوة، وإخلاص.
ثم نلتقي في أعماق الموقف بالابتهالات الخاشعة الخاضعة لله في روحية الإحساس بالعبودية، التي يشعر المؤمن معها بأن الله يلتقيه في مواقع الإنابة، مهما كانت الخطايا والذنوب، وأن الخطأ لا يتحول إلى عقدة، بل يتحول إلى فرصة للقاء بالله من جديد، في مواقع التوبة الحقيقية الخالصة، التي يبدأ فيها التائب تاريخا جديدا، وصفحة بيضاء من حياته " (٢).
وقفة قصيرة
إننا قبل أن نتعرض لشرح الآيات الخاصة بنبي الله يونس عليه الصلاة والسلام، نشير إلى أمرين:
أحدهما: إن ذلك البعض - حسبما أسلفنا - قد استوحى من قصة يونس (ع) أمورا ترتبط بما يبتلي الله به الدعاة من عباده ورسله، وذلك يعني: أن ما استوحاه من قصة هذا النبي ظهر له من قصته، وأنه مما ابتلي به هذا النبي نفسه، وذلك يعني أنه يمكن أن ينال جميع الأنبياء الآخرين، كما أنه قد قرر إمكانية ابتلاء الدعاة المؤمنين من عباد الله ورسله، بمثل ما ابتلى الله يونس، فيما يمكن أن يكونوا قد قصروا فيه، أو تهربوا منه من مسؤوليات.. وها نحن هنا نذكر النقاط التي استوحاها، وهي التالية:

----
(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٩ ص ٢٤١.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ٢٨٤.

أ – الدعاة من الرسل قد يقصرون في واجباتهم كدعاة.
ب – الدعاة والرسل قد يتهربون من مسؤولياتهم.
ج – قد يضعفون أمام حالات الفشل الأولى.
د – ضعفهم أمام الفشل قد يجعلهم ينفعلون ويغضبون.
ه – قد يلطف الله بهم لئلا يتعقدوا من الخطأ، أو الانفعال.
و – يجب أن لا يتحول خطؤهم إلى عقدة بل إلى فرصة للقاء الله.
ز – توبتهم تكون بفتح صفحة بيضاء جديدة، أو تاريخ جديد.

الثاني: قد ظهر أن هذا البعض يرى أن تأديب الله لأنبيائه تابع لأحجامهم!! فثمة أحجام تستدعي التأديب وتبرره، وقد كان يونس عليه السلام من هذا النوع بالذات!!

ولا ندري إذا كان السبب في اتخاذ يونس لهذا الحجم (!!) وهو كونه نبيا محليا (!!) الأمر الذي يجعله – بنظر ذلك البعض – غير جامع للكمالات المطلوبة، وليس في المستوى الذي يؤهله لتقدير مسؤولياته، ويمنعه من الهروب منها!!

ولكن ليت شعري أي نبي سلم من نسبة الخطأ في تقدير الأمور إليه، من قبل هذا البعض؟ فقد تقدم أن موسى عليه السلام – وهو من أولي العزم – وأخاه هارون (ع) قد أخطأ أو أحدهما في تقدير الأمور.. بل قد جعل الخطأ قاعدة – لدى هذا البعض – نالت جميع الأنبياء حتى سيد المرسلين وأفضل الأنبياء نبينا محمد (ص).

تفسير الآيات

ومهما يكن من أمر، فإننا نشير هنا إلى تفسير الآيات التي تحدثت عن يونس، فنقول: إن قصة يونس (ع) من خلال الآيات لا تدل على تلك المقولات التي أطلقها البعض، فقد تحدث الله سبحانه عن يونس (ع) في أكثر من موضع من كتابه العزيز، ونحن نذكر أولا الآيات التي ذكرت، وهي التالية:

أ – قال تعالى: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا، فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له، ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين).

ب – وقال تعالى مخاطبا نبيه: (.. فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه، لنبذ بالعراء، وهو مذموم. فاجتباه ربه، فجعله من الصالحين).

ج – وقال سبحانه: (وإن يونس لمن المرسلين، إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين).

وهنا نذكر القارئ الكريم بنقاط تدل على براءة يونس (ع) مما ينسب إليه، وهي التالية:

١ – كلمة مغاضبا التي تعني حدوث فعل الإغضاب من طرفين، – أحدهما يونس عليه السلام – حيث يريد كل منهما أن يغضب الآخر، ولا يصح القول بأن المغاضبة قد كانت بين يونس (ع) وبين الله سبحانه، فإن فرض ذلك لا يليق بمؤمن صالح فضلا عن أن تكون قائمة بين الله سبحانه وبين يونس (ع)، فلم يكن ثمة سعي من يونس (ع) لإغضاب الله تعالى، ولا إرادة من الله سبحانه لإغضاب يونس (ع)، فإذا كان الله سبحانه يقول عن سائر المؤمنين: (رضي الله عنهم ورضوا عنه)، فكيف بالأنبياء الكرام، ومنهم يونس (ع)؟ إن الحقيقة هي أن المغاضبة كانت بين يونس (ع) وبين فريق آخر، والظاهر أنهم قوم يونس (ع)، الذين يئس من هدايتهم، وتنحى عنهم بعد أن علم أن العذاب سينزل عليهم. فالتجأ إلى الفلك المشحون بالناس، وكان قومه يطلبونه، ليوصلوا إليه الأذى، لأنهم كانوا يرونه قد أساء إليهم، فاعتبروه فارا وآبقا منهم، وكانوا لا يصدقون بنزول العذاب عليهم.

فلما رأوا علائم العذاب استكانوا إلى الله وخضعوا له، فكشف الله عنهم العذاب، ومتعهم إلى حين. وكان ذلك في غياب يونس (ع)، ولم يكن يونس (ع) يعلم بذلك، وتذكر بعض الروايات: أن جبرئيل عليه السلام كان قد استثنى في هلاكهم، ولم يسمعه يونس (ع)، فإن كان ذلك الاستثناء قد حصل حين الوحي ليونس فلا بد من توجيه الرواية أو طرحها، حتى لا يكون ثمة تقصير من قبل جبرئيل (ع) في إيصال الوحي، ولا في يونس (ع) في تلقيه له.

وإن كان ذلك على سبيل الحديث العادي، الذي يجري بين اثنين، فأراد

جبرئيل أن يخبر يونس من عند نفسه، لا على سبيل إيصال الوحي الإلهي إليه، فلا مانع من أن يكون جبرئيل (ع) قد تعمد أن لا يسمع يونس (ع) هذا الاستثناء إذ لا يضر ذلك في تلقي الوحي، ولا في إلقائه، لأن هذا ليس من الوحي أساسا، ولكننا لا نجد مبررا عقلانيا لتصرف كهذا من قبل جبرئيل (ع). وإن كان حديثه مع الأنبياء في أمور ليست من الوحي الإلهي مما لاشك فيه.

وقد روي أن جبرئيل كان بعد وفاة رسول الله (ص) يأتي إلى فاطمة (ع) ويحدثها بما يسليها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك في مصحف فاطمة (ع) (١).

٢ - قوله تعالى: (فظن أن لن نقدر عليه) أي: أن نضيق عليه، فالذي يكون آبقا وهاربا من المسؤولية لا يظن أن الله سوف لا يضيق عليه، بل هو يتوقع التضييق، وأن يلاقي جزاء هروبه هذا.. إذن الفقرة تشير إلى أنه (ع) كان واثقا من رضا الله عنه، ولم يكن آبقا منه تعالى، ولا هاربا من مسؤولياته.

وكلمة ظن هنا بمعنى: علم (٢) وحسب.

٣ - إن مناداة يونس عليه السلام في الظلمات الثلاث، اعني ظلمة الليل، وظلمة أعماق البحار، وظلمة بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك) تؤكد على حقيقة التوحيد الخالص لدى يونس (ع) - خصوصا في هذا الموقع - حيث لم يتعلق بغير الله سبحانه كمنقذ له من ذلك البلاء.. فهو العالم به، وهو القادر دون سواه على إنقاذه.

أما قوله: (إني كنت من الظالمين)، فهو تعبير يشير إلى رسوخ قدم هذا النبي في معرفة الله، فإنه يرى نفسه باستمرار مقصرا عن أداء شكر ربه، وعن قيامه بواجبه تجاهه، وعن عبادته حق عبادته، فكلمة (كنت) قد جاءت مجردة عن الزمان، والمراد بها الحديث عن خصوصية ذاته، كما يقتضيه مقام العبودية.

ويشير إلى ذلك ما روي من تفسير الإمام الرضا (ع) له بقوله: إني كنت من الظالمين بتركي مثل هذه العبادة التي أفرغتني لها في بطن الحوت.

وبكلمة موجزة نقول: لا بد من تنزيه الأنبياء عن ارتكاب الظلم الذي ربما

----

(١) راجع كتاب مأساة الزهراء ج ١ ص ١٠٦ - ١١٧.

(٢) راجع قواميس اللغة.

يخطر بالبال حين سماع هذا التعبير، قبل التأمل والتعمق في فهم المراد..

٤ - إنه لو كان سبحانه هو الذي ابتلى يونس (ع) بالتقام الحوت ليؤدبه بذلك على ما فرط منه، وعلى إباقه منه، فان المناسب أن يقول فرفعنا عنه العقوبة، لا أن يعبر بكلمة أنجيناه من الغم فان ذلك يشير إلى أن الله سبحانه قد نجاه من بلاء ناله من غير جهة الله سبحانه.

٥ - إن قوله تعالى: (وكذلك ننجي المؤمنين) كأنه تعليل لإنجائه تعالى ليونس (ع)، مشيرا بذلك إلى أن إيمان يونس (ع) هو السبب في هذا التدخل الإلهي، وهذا ما لا يتناسب مع ما يقوله هذا البعض من إباق يونس عليه السلام كإباق العبد من سيده، وهروبه من مسؤولياته..

إذ لو كان الهروب من المسؤولية، لكان الأنسب سوق الحديث باتجاه تأكيد التوبة والاستغفار، لأنه هروب يحتاج إلى ندم وتضرع وتوبة، ثم قبول إلهي لها، فيقول مثلا، وكذلك نرحم التائبين، ونحسن إليهم ونتوب عليهم، بدل أن يقول وكذلك ننجي المؤمنين، الظاهر في أن انجائه له، إنما كان جائزة ومكافأة له على إيمانه..

٦ - أما آيات سورة القلم، التي تقدمت في أوائل هذه الوقفة، فإنما يراد بها أن يتذرع الرسول الأكرم (ص) بالصبر، لينال بذلك مقاما عظيما يفوق مقام يونس عليه السلام. فان دعاء يونس (ع) وهو مكظوم أي مختنق بغيظه، لم يحط من مقام يونس، ولولا أن تداركته نعمة من الله لنبذ من قبل غير الله سبحانه - تماما كما هي سنة الله في هذه المواقع - بالعراء على أقبح صورة ممكنة ولناله أعظم السوء، ولكنه لو تحمل المزيد لحصل على مقام أسمى مما هو فيه..

فالله يريد لنبيه أن يتسامى في مدارج القرب ليصل إلى أبعد منازل الكرامة الإلهية، ولا يريد له أن يقف عند هذا الحد، ويرضى بما ناله، وبما وصل إليه، كما كان الحال بالنسبة إلى يونس (ع)، فالتشبيه إنما هو في هذه الناحية.

فالآيات إذن ما هي إلا إرشاد من الله للرسول إلى هذه الخصوصية، التي لا يستلزم تركها تنزلا عن المقام الذي هو فيه، غير أن فعلها له آثاره الكبيرة في نيل أسمى درجات القرب والكرامة.

٧ - فيونس (ع) إذن واقع في مأزق، فلحقته نعمة الله فنجا، ولو كان المراد قبول توبته، لكان الأنسب التعبير بالرحمة بدل النعمة.
وقوله: (وهو مذموم) لا يراد به الذم من قبل الله سبحانه كما ألمحنا إليه.
٨ - قد ظهر أن الإباق إلى الفلك المشحون، لم يكن إباقا من الله سبحانه، ولا هروبا من المسؤولية، بل هو إباق إليه، من موقع المسؤولية في مواجهة تبعاتها.
٩ - وقوله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين) يشير إلى عدم إباق يونس (ع) من الله تعالى، لأن من كان كل حياته من المسبحين، حتى استحق بذلك معونة الله له، فإنه لا يهرب من ربه، ولا يتمرد عليه.
١٠ - إن معنى أبق العبد: ذهب بلا خوف، ولا كد عمل، أو استخفى، ثم هرب (١). نعم قد فسر في الشرع بذلك، فان الآبق شرعا (مملوك فر من مولاه، تمردا أو عنادا لسوء خلقه) (٢).
١١ - قوله: (وهو مليم) أي يلوم غيره، لا أنه يلوم نفسه، فان هذه الكلمة هي اسم فاعل من (ألام) بمعنى (لام)، أو بمعنى (أتى ما لا يستحق اللوم عليه)، وتلك إشارة أخرى تؤكد عدم استحقاق يونس (ع) لأدنى لوم، ولو كان آبقا من ربه لاستحق أشد اللوم بل العقاب بلا ريب.
٣٨٧ - يونس استنفد تجاربه في الدعوة إلى الله.
٣٨٨ - يونس لم يفكر بالمرحلة الجديدة من عمله.
٣٨٩ - يونس لم ينتظر نتائج التجربة الأخيرة.
٣٩٠ - يونس يعيش جو الحيرة.
٣٩١ - أراد يونس أن يخرج من جو الغم والحزن والحيرة ليجد ملجأ جديدا.
٣٩٢ - ظن يونس أن لن يضيق الله عليه فجاءت النتيجة عكس ما كان يتصوره.
٣٩٣ - يونس خرج من دون أن يستأذن الله في ذلك.
٣٩٤ - يونس يقول ظلمت نفسي في تقصيري في أمر الدعوة من غير قصد.
٣٩٥ - أنا عائد إليك يا رب لتكشف عني أجواء الحيرة.
٣٩٦ - كان خروجه السريع سرعة انفعالية في اتخاذ القرار.

---

(١) محيط المحيط ص ٢.
(٢) المصدر السابق.

٣٩٧ - قد لا يكون خروج يونس تهربا من المسؤولية.
يقول البعض:
" ولكن المراد هنا من كلمة (نقدر) المعنى الذي يلتقي بالتضييق، أو بالتحديد كما في قوله تعالى: (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ((الفجر: ١٦) وهكذا يكون معنى الآية، إن هذا العبد الصالح خرج مغاضبا لقومه، وهو يظن أنه قد ملك حريته، بعد أن انتهت مهمته باستنفاد كل تجاربه في الدعوة إلى الله وعدم تجاوب قومه معه، واستحقاقهم العذاب على ذلك، وقرب نزوله عليهم، فلم يفكر بالمرحلة الجديدة من عمله، ولم ينتظر عودتهم إلى الإيمان من خلال التجربة الأخيرة التي قد تحقق نتائج كبيرة على هذا الصعيد، وهي مسألة تهديدهم بالعذاب الذي ثبت - بعد ذلك - أنه كان الصدمة القوية التي أرجعتهم إلى عقولهم، فانفتحت قلوبهم على الإيمان بالله وبرسالاته من جديد. كما حدثنا الله عن ذلك في آية أخرى.
لقد كانت لحظة انفعال تختزن الغضب لله، ولكنها لم تنطلق للتفكير بالمستقبل في آفاق الدعوة إلى الله، التي تعمل على أن تطل على الآفاق الواسعة من عقل الإنسان وروحه وقلبه لتنتظر منه انفتاحة إيمان، ويقظة روح، وخفقة قلب.. وفي هذا الجو كان خروجه السريع، سرعة انفعالية في اتخاذ القرار، وقد لا يكون ذلك تهربا من المسؤولية، وحبا للراحة، وابتعادا عن أثقال الرسالة ومشاكلها، فربما كان الجو يتحرك في حالة شديدة من الحيرة والغم والحزن، مما يريد معه أن يخرج من هذا الجو الخانق ليجد لنفسه ملجأ جديدا، أو موقعا آخر للدعوة، أو لأي مشروع جديد، في هذا الاتجاه، وهو يظن أن الله لن يضيق عليه أمره، في رزقه، وفي حركته، وجاءت النتيجة غير ما كان يتصوره أو ينتظره، فالتقمه الحوت، بعد أن وقعت القرعة عليه، وعاش في ظلمات البحر، وجوف الحوت، وظلمات الهم والغم، وانفتحت أمامه من جديد، آفاق إيمانه الواسع، فعاش روحيته مع الله في ابتهال وخشوع، وبدأ يتذكر لطف الله به ورعايته، وتكريمه إياه من خلال ما اختصه به من رسالته وما سهل له من سبل الحياة، وهداه اليه من وسائلها، وكيف خرج من دون أن يستأذن الله في ذلك، أو ينتظر ما يحدث لقومه، فانطلقت صرخته المثقلة بالهم الكبير الروحي والرسالي الذاتي، من كل أعماقه، في استغاثة عميقة بالله وحده لا سيما في مثل ظروفه التي لا يملك أحد فيها أن يقدم إليه شيئا.
(فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت (فلا ملجأ لأي هارب أو ضائع أو حائر إلا إليك، ولا ملاذ إلا أنت، فأنت القادر على كل شيء، والرحيم لكل مخلوق، والعليم بكل الخفايا والمهيمن على الأمر كله والغافر لكل ذنب، والمستجيب لكل داع، والمغيث

لكل ملهوف، والمفرج عن كل مهموم ومكروب.. وليس لي غيرك اسأله كشف ضري والنظر في أمري، فأنت ربي وسيدي ومولاي وملاذي في كل الأمور، (
سبحانك (إذ يختزن قلبي وعقلي ووجداني الإحساس بعظمتك في كل مواقع العظمة في مجالات التصور، وفي حركة القدرة في الواقع، في مظاهر الخلق والإبداع..
فيتحول ذلك إلى تسبيح منفتح خاشع مبتهل إلى الله، (إني كنت من الظالمين (فقد ظلمت نفسي في تحركي، أو تقصيري في سبيل الدعوة، من غير قصد، ولا عمد، وها أنذا - يا رب - راجع إليك بكل قلبي وعقلي وحياتي، لتتقبلني بكل لطفك ورضوانك ورحمتك، ولتكشف عني في كل أجواء الحيرة والغم التي تغمرني بالآلام والمشاكل، فهل تستجيب لي؟ إنك أنت الذي تستجيب كل الدعوات لمن دعاك " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - إن ثمة إصلاحا طرأ على عبارة هذا البعض وهو: أنه كان قد جزم في الطبعة الأولى من كتابه " من وحي القرآن " بأن الله سبحانه قد اعتبر ما فعله يونس تهربا من المسؤولية، لكنه في هذه الطبعة قال: قد لا يكون ذلك تهربا من المسؤولية.
ولعله قد ظن أن الناس سوف يعتبرونه قد اصلح وتراجع عن مقولته السابقة، الظاهرة في الإخلال بالعصمة للأنبياء..
ولكن الحقيقة هي أن ما فعله هنا قد اظهر إصراره الشديد على الطعن بعصمتهم (عليهم السلام) حيث قد نبهنا في الأبحاث السابقة لهذا الكتاب - وربما أكثر من مرة - إلى أن احتمال صدور المخالفة من النبي لا ينسجم ولا يجتمع مع اليقين بعصمته، مهما كان ذلك الاحتمال ضعيفا، حتى ولو بنسبة واحد بالمئة.. فإن عبارة: " قد لا يكون ذلك تهربا " تعني أن احتمال أن يكون تهربا، لا يزال باقيا أيضا. ولا يحتمل في حق المعصوم أن يتهرب من المسؤولية في أي من الظروف والأحوال، لأن احتمال ذلك في حقه معناه: أننا لسنا على يقين من عصمته.. وذلك واضح..
٢ - من أين علم هذا البعض: أن يونس لم ينطلق للتفكير بالمستقبل في آفاق الدعوة إلى الله، التي تعمل على أن تطل على الآفاق الواسعة من عقل الإنسان وروحه وقلبه، لتنتظر منه إنفتاحة إيمان، ويقظة روح، وخفقة قلب - على حد تعبيره؟!

---

(١) من وحي القرآن: ج ١٥، ص ٢٥٨ و ٢٥٩.

فإن هذا الكلام يمثل إخبارا غيبيا عن ضمير يونس، وعن خلجات قلبه، كما أنه يمثل إدانة خطيرة له، فلماذا يسيء الظن ولا يحسنه بهذا النبي الفاني في الله، والباذل نفسه، وكل حياته ووجوده في سبيله؟! أم أن الله أطلعه على قلب نبيه بعد آلاف السنين، فانبرى ليخبرنا بهواجسه واهتماماته، وبنجواه، وخلجات قلبه، وما فيه إدانة بل إهانة له؟!

إننا نعتقد أن جميع الأنبياء لا يفكرون بمصالحهم كأشخاص، وإنما يفكرون في مستقبل الرسالة، ويخططون له، ويتحملون مسؤولياتهم في ذلك.

٣ - أضف إلى ذلك: أن هذا البعض قد جزم بأن يونس (عليه السلام) قد خرج من دون أن يستأذن الله في ذلك، أو ينتظر ما يحدث لقومه، ولا ندري من أين، وكيف جاز له الجزم بهذا الخبر التاريخي وهو الذي لا يقبل بخبر الواحد، بل يشترط التواتر أو كل ما يفيد الجزم واليقين بالأخبار التاريخية سواء من حيث السند أو من حيث الدلالة..

كما أننا قد قلنا فيما ذكرناه سابقا من قصة يونس (ع): إن قومه هم الذين كانوا يرونه آبقا منهم وإننا لننزه ساحته وهو النبي المعصوم عن أن يعمل عملا من تلقاء نفسه، ومن دون أن يتحقق من رضا الله سبحانه وتعالى فيه، فإن ذلك مما ينافي انقياده لله سبحانه، ويخل بأهليته لمقام النبوة والرسالة..

٤ - إننا نعتقد: أن الأنبياء لا يقومون بتجارب في حقل الدعوة إلى الله سبحانه، لأن هذا التعبير (تجربة - تجارب)

له إيحاءات سيئة - وهو يؤمن بالإيحاءات، وكتابه موضوع على أساسها - لا مجال للالتزام بها، من حيث إنه يختزن أن من يمارس التجربة لا يملك المعرفة التامة بجدوى ودقة ما يقوم به.. كما أنه يختزن معنى الخطأ في إصابة الواقع..

إن الأنبياء لا يقومون بتجارب، وإنما يعملون بوظيفتهم الشرعية التي لا يشكون في أنها المعالجة الصحيحة والدقيقة.. غير أن حالة استكبار قومه - كما هو الحال في استكبار إبليس - وجحودهم، هو الذي يمنع من أن يؤثر هذا البلسم الشافي أثره.

٥ - وقول هذا البعض:

" إن يونس (عليه السلام) لم يفكر في المرحلة الجديدة من عمله "
وإنه:
" لم ينتظر نتائج التجربة الأخيرة "
ما هو إلا رجم بالغيب، لا يملك دليلا قطعيا يثبته - حسب ما يشترطه هذا البعض - وهل يمكن أن يجد دليلا يثبت على أنبياء الله القصور والتقصير في مسؤولياتهم؟!
أضف إلى ذلك أنه هو نفسه يقول:
" إن النفي يحتاج إلى دليل، كما الإثبات يحتاج إلى دليل ".
٦ - إن الله لم يضيق على يونس، بل كان الله الذي وثق به يونس هو الذي هون عليه المشكلات التي واجهها، وذلل المصاعب والمصائب التي حلت به وحفظه، ورعاه..
فكان الله معه في كل صغيرة وكبيرة، وكان ظن يونس علما صحيحا وقطعيا، قد تحقق كما أراد يونس صلوات الله وسلامه عليه.
٧ - إن يونس لا يمكن أن يقصر في أمر الدعوة وهو النبي والمسؤول الأول فيها وعنها، وذلك معلوم وواضح.
٨ - إن كلام هذا البعض عن حيرة يونس لا يمكن قبوله، فإنه كان يعرف تكليفه الإلهي والشرعي بدقة، وينفذ ما يريده الله منه دون زيادة أو نقيصة.
ولا يمكن أن نتصور نبيا حائرا، ولا يدري ما هو تكليفه الشرعي، ولا يعرف كيف يقوم بواجبه، وكيف ينجز مسؤولياته.
٩ - إن كلامه عن الخروج من جو الحزن والغم والحيرة ليجد لنفسه ملجأ آخر يعطي: أن يونس إنما كان مهتما بنفسه كشخص.. أو على الأقل هو يحتمل ذلك في حقه - كما ويحتمل أن يكون بصدد البحث عن موقع آخر للدعوة. فلماذا لا يكون واضحا وصريحا فيما يريد أن ينسبه إلى يونس ليعرف القارئ مراده بدقة، ويحفظه من غائلة الريب والشك في أنبياء الله سبحانه وتعالى.
٣٩٨ - درجات الأنبياء في الكمال تتفاوت حسب مواقعهم الإيمانية.
٣٩٩ - استعجال يونس العذاب لقومه بسبب ضعفه البشري.
٤٠٠ - استسلام الأنبياء للضعف البشري تابع لدرجاتهم.

٤٠١ - يونس لم يصبر لتبلغ الرسالة مداها في تحقيق شروط النجاح، أو نهاية التجربة.
٤٠٢ - ليس ضروريا أن يكون الاستسلام للضعف في حجم المعصية.

ويقول البعض:

" من إيحاءات الآية: وقد نستوحي من هذه الوصية للنبي أن لا يكون كصاحب الحوت الذي ضاق صدره بتكذيب قومه، فاستعجل العذاب لهم، ولم يصبر على الامتداد في تبليغ الرسالة لتبلغ مداها في تحقيق شروط النجاح أو نهاية التجربة.

قد نستوحي من ذلك، أن الأنبياء يستسلمون لنقاط الضعف البشري تبعا لدرجاتهم..

وقد لا يكون من الضروري أن يكون ذلك في حجم المعصية، لأنهم ربما انطلقوا من معطيات إيمانية في الغضب لله ولرسوله ولكن ذلك يعني أن درجاتهم في الكمال تتفاوت حسب تفاوت مواقعهم الإيمانية الروحية " (١).

وقفة قصيرة

قد شرحنا هذه الآيات فيما مضى من هذا الكتاب.. وأوضحنا أن الحديث فيها عن صبر يونس لا يتجه إلى اتهام يونس بالاستسلام للضعف البشري وعدم صبره إلى أن تبلغ الرسالة مداها في تحقيق شروط النجاح أو نهاية التجربة ليقول لنا البعض بعد ذلك: هل إن ذلك في حجم المعصية أم لا؟.

١ - ولكن الذي لفت نظرنا هنا هو قول هذا الرجل:

" قد لا يكون من الضروري أن يكون ذلك في حجم المعصية، لأنهم ربما انطلقوا من معطيات إيمانية الخ.. ".

فإن هذا الكلام يستبطن احتمال المعصية في حق يونس عليه السلام كما يفهم من قوله:
" قد لا يكون من الضروري!! ".

وقوله:
" لأنهم ربما انطلقوا ".

وهذا الأمر مرفوض في حق الأنبياء حتى على مستوى الاحتمال.

٢ - ولفت نظرنا أيضا: ما أطلقه في حق الأنبياء من أن استسلامهم لنقاط الضعف البشري يكون تبعا لدرجاتهم.

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٢٣ ص ٧٠.

فلو فرضنا جدلا: أنهم يستسلمون لنقاط الضعف البشري، فمن أين استنتج أنهم يختلفون في درجات الاستسلام هذه تبعا لدرجاتهم، فما هي القرينة في الآية المباركة التي تدل على ذلك؟ فالآية قد جاءت خطابا للنبي (ص) وهي تدل إذن على أن ذلك ممكن في حق نبينا (ص) كما هو ممكن في حق يونس (ع) مع علمنا باختلاف الدرجة فيما بينهما.

هذا بالإضافة إلى أن هذا البعض يزعم عدم ثبوت تفضيل النبي (ص) على سائر الأنبياء (١). ثم يشرح حقيقة ما فضل الله به بعض الأنبياء على بعض فيقول:

".. (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) (٢) فيما ميزناهم به من مواقع العمل، وطبيعة المعجزة، ونوعية الكتب، من قاعدة الحكمة التي أقام الله عليها الحياة " (٣).

٣ - ولفت نظرنا أيضا ما زعمه من أن استعجال يونس العذاب لقومه، إنما هو لأن صدره قد ضاق بتكذيبهم.

فهل ذلك يعني أن يونس عليه السلام كان متسرعا، وأن المسألة قد انطلقت من ضعف يونس الذي ألجأه إلى مواجهة ألوف من الناس بالعذاب الماحق، وبالخطر الداهم والساحق، الأمر الذي يعني أن قومه قد ذهبوا ضحية ضعفه البشري.؟!

وهذه تهمة خطيرة في حق أنبياء الله صلوات الله عليهم.

والأدهى من ذلك أن الله سبحانه قد جارى نبيه هذا الضعيف في ذلك حتى رأوا نذير العذاب بالفعل..

٤ - ثم هو ينسب إلى نبي من أنبياء الله أنه لم يصبر على الامتداد في تبليغ الرسالة، حتى تبلغ مداها في تحقيق شروط النجاح أو نهاية التجربة.

وهذا معناه تسجيل تهمة على هذا النبي أنه لم يقم بمهمة التبليغ الرسالي على الوجه الأكمل والأمثل، لأنه لم يصبر على الرسالة لتحقق شروط النجاح. مع أنه هو نفسه يسلم بعصمة النبي في مقام التبليغ، ولا بد أن يكون ذلك يشمل صورتي الخطأ والتقصير في التبليغ على حد سواء.

---

(١) راجع: من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٥ الصفحات ٨ - ١٤ - ١٥.
(٢) سورة الإسراء الآية ٥٥.
(٣) من وحي القرآن ج ١٤ ص ١٥٧.

الفصل السادس:
داود وسليمان وزكريا ويحيى
و عيسى (عليهم السلام)

٤٠٣ – قضية داود (ع) كقضية آدم (ع).
٤٠٤ – داود (ع) يستسلم لعواطفه في قضائه.
٤٠٥ – داود (ع) يعتمد على ما لا يصح الاعتماد عليه في القضاء.
٤٠٦ – داود (ع) يخطئ في إجراء الحكم.
٤٠٧ – الله هو الذي أراد لداود (ع) أن يقع في الخطأ.
٤٠٨ – خطأ داود (ع) كانت له نتائج سلبية.
٤٠٩ – الخطأ لا يتنافى مع مقام النبوة.

ويقول البعض عن قصة حكم داود (ع) بين الخصمين:

" وهكذا أطلق داود الحكم، وتدخل في تفسير المسألة من ناحية اعتبارها مظهرا من مظاهر الانحراف الاجتماعي في العلاقات العامة في الحقوق المتنازع عليها بين الناس.. ولم يكن قد استمع إلى الطرف الآخر مما تقتضيه طبيعة إدارة الحكم في جانب الشكل والمضمون، فعليه أن يدرس الدعوى، من خلال الاستماع إلى حجة المدعي ودفاع المدعى عليه.. لأن مسألة الغنى والفقر، والكثرة والقلة، لا يصلحان أساسا للحكم على الغني الذي يملك الكثير لحساب الفقير الذي يملك القليل أو لا يملك شيئا في دائرة الحق المختلف فيه..

ولكن المشاعر العاطفية قد تجذب الإنسان إلى الجانب الضعيف في الدعوى، لتثير فيه الإحساس بالمأساة التي يعيشها هذا الإنسان من خلال ظروفه الصعبة بينما يعيش الإنسان الآخر الراحة والسعة في أجواء اللا مشكلة، مما يجعل من الحكم على الضعيف تعقيدا لمشكلته بينما لا يمثل الحكم عليه لمصلحة الضعيف مشكلة صعبة بالنسبة إليه.. هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الواقع الذي يتحرك في حياة الناس تستبعد أن يكون هذا الفقير معتديا على الغني، لا سيما في هذا الشيء

البسيط، بينما يمكن أن يكون الغني في جشعه وطمعه معتديا على الفقير من موقع قوته، كما هي حال الأقوياء بالنسبة إلى الضعفاء..
(وظن داود أنما فتناه) أي أوقعناه في الفتنة، أي في البلاء والاختبار الذي يفتتن به الإنسان فيكون معرضا للخطأ من خلال طبيعة الأجواء المثيرة الضاغطة المحيطة به وانتبه - بعد إصدار حكمه لمصلحة صاحب النعجة، إلى استسلامه للمشاعر العاطفية أمام مأساة هذا الإنسان الفقير، وخطأه في عدم الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى (فاستغفر ربه) على هذا الخطأ في إجراءات الحكم الشكلية (وخر راكعا وأناب) أي رجع إلى الله وتاب إليه وأخلص إليه.
قصة داود أمام علامات الاستفهام
فغفرنا له ذلك الخطأ الذي لم يؤد إلى نتيجة سلبية كبيرة في الحياة العامة ولم يصل إلى الموقف الحاسم في تغيير الواقع (وإن له عندنا لزلفى) وهي المنزلة والحظوة (وحسن مآب) فيما يرجع إليه من رحمة الله ورضوانه.. ".
إلى أن قال في جملة نقاط ذكرها:
" النقطة الثانية: كيف نفهم المسألة في دائرة فكرة عصمة الأنبياء، أمام تصريح الآية بالاستغفار والرجوع إلى الله بعد الفتنة التي لم يستطع النجاح فيها، فأخطأ في إدارة مسألة الحكم في الجانب الإجرائي منه..
ربما تطرح القضية، على أساس أن الخصمين إذا كانا من الملائكة، فإنها لا تكون تكليفا حقيقيا، بل هي قضية تمثيلية على سبيل التدريب العملي ليتفادى التجارب المستقبلية فيما يمارسه من الحكم بين الناس،..
تماما كما هي قضية آدم التي كانت قضية امتحانية لا تكليفا شرعيا، فلم تكن هناك معصية بالمعنى المصطلح، وبذلك يكون الاستغفار مجرد تعبير عن الانفتاح على الله والمحبة له، والخضوع له فيما يمكن أن يكون قد صدر عنه من صورة الخطيئة، لا من واقعها، وأما إذا كان الخصمان من البشر، فقد يقال بأن القضاء الصادر من داود لم يكن قضاء فعليا حاسما بل كان قضاء تقديريا، بحيث يكون قوله: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه)، بتقدير قوله: لو لم يأت خصمك بحجة بينة.
ولكن ذلك كله لا يمنع صدور الخطأ منه، فإنه لم ينتبه إلى أن الخصمين ملكان، بل كان يمارس القضاء بالطريقة الطبيعية على أساس أنهما من البشر.. وبذلك فلم تكن المشكلة هي إنفاذ الحكم ليتحدث متحدث بأن المسألة قد انكشفت قبل إنفاذه، أو

أنها لم تكن واقعية بل كانت تمثيلية، بل المشكلة هي الخطأ في طريقة إجراء الحكم.. فلا بد من الاعتراف بأن مثل هذه الأخطاء لا تتنافى مع مقام النبوة، لا سيما إذا كانت الأمور جارية في بداياتها مما قد يراد به الوقوع في الخطأ من أجل أن يكون ذلك بمثابة الصدمة القوية التي تمنع عن الخطأ في المستقبل.

وتابع هذا البعض فقال:

وقد أكد الإمام الرضا (ع) - ذلك - فيما روي عنه في عيون أخبار الرضا، قال الراوي وهو يسأله عن خطيئة داود (ع): يا بن رسول الله ما كانت خطيئته فقال: ويحك إن داود إنما ظن أنه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه، فبعث الله إليه الملكين فتسورا المحراب فقالا: (خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب) فعجل داود على المدعى عليه فقال: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه)، ولم يسأل المدعي البينة على ذلك ولم يقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه.

وقد ذكرنا في هذا التفسير أن علينا أن نأخذ الفكر في طبيعة العقيدة من نصوص القرآن الظاهرة، لا من أفكار خارجة عنه، مما قد تتحرك به الفلسفات غير الدقيقة " (١).

آيات حكم داود عليه السلام

قال الله تعالى: (إصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب. إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كل له أواب. وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب. وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب. يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٩ ص ٢٧٨.

يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) (١).

وقفة قصيرة

قد ذكر العلامة الطباطبائي أن أكثر المفسرين يقولون: إن الخصمين كانا من الملائكة، وأيد رحمه الله ذلك ببعض الشواهد، فلم يكن هناك نعجة ولا متخاصمان في عالم المادة، لأن القضية إنما هي في ظرف التمثل، ولا تكليف هناك، فلا توجد خطيئة ولا حكم، ولا غير ذلك في عالم الشهود..

وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين كانا بشرا، فينبغي أن يؤخذ قوله تعالى: (لقد ظلمك) الآية... قضاء تقديريا، أي إنك مظلوم لو لم يأت خصمك بحجة بينة (٢).

وإنما ذلك للحفاظ على ما قامت عليه الحجة من طريقي العقل والنقل: أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله، لا يجوز عليهم لا كبيرة ولا صغيرة، على أن الله صرح قبل هذا بأنه آتاه الحكمة، وفصل الخطاب، ولا يلائم ذلك خطأه في القضاء (٣).

ولو أغمضنا النظر عما قاله العلامة الطباطبائي فإننا نقول:

١ - إن افتراض الخطأ في ما جرى لداود (ع) على النحو الذي يقوله ذلك البعض، معناه عدم مصداقية كونه أسوة وقدوة، ومعناه أنه يحكم بين الناس بغير الحق، وأنه يتبع الهوى في أحكامه مما ترتب عليه آثار سلبية باعترافه هو نفسه، لكنه قال إنها غير أكيدة، مع أن الله سبحانه قد قال عن داود: (.. وشددنا ملكه، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ثم تلتها الآيات التي تتحدث عن نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب وذلك يشير إلى أن الآيات التي تحدثت عن قضية النعاج التسعة والتسعين لم يرد الله منها تخطئة داود (ع)، فان من آتاه الله فصل الخطاب - الذي هو تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره، وتمييز حقه من باطله، وينطبق على القضاء - لا يعقل أن يخطئ في نفس ما آتاه الله إياه.

أضف إلى ما تقدم: أن دعوى: كون داود (ع) قد استعجل في الحكم انسياقا

---

(١) سورة ص الآية ١٧ - ٢٦.

(٢) فكأنه قال له: أرأيت لو كنا واحتكمنا إليك.. فقال له انك مظلوم لو لم يأت خصمك بحجة بينة.

(٣) راجع: تفسير الميزان ج ١٧ ص ١٩٣ - ١٩٤، وراجع تنزيه الأنبياء ص ١٢٧ - ١٣٠.

مع عاطفته، أو نحو ذلك ينافي الحكمة التي آتاه الله إياها، لأنها وضع الشيء في موضعه، كما أنه ينافي القضاء العادل بالحق الذي أعطاه الله إياه أيضا..
٢ - إنه يلاحظ: أن أحد الخصمين قد طرح سؤالا لا يتضمن ادعاء ملكية، ولا يتضمن شيئا خلاف الشرع، حيث ادعى أن أخاه صاحب التسعة والتسعين نعجة قد طلب منه أن يجعلها تحت تكفله، وألح عليه في ذلك، ولم يدع أنه اغتصبها منه، أو أنه ادعى ملكيتها، أو أي شيء آخر، ومجرد طلب تكفل شيء للاستفادة من منافعه ليس حراما..
٣ - إن قول داود عليه السلام: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه)، لا يدل على أنه كان في مقام إصدار حكم. إذ يمكن أن يكون ذلك مجرد إخبار له بالواقع الذي عرفه داود (ع) عن طريق الوحي أو عن أي طريق آخر..
٤ - وأما قوله تعالى: (فظن داود أنما فتناه) فيراد به - والله أعلم -: أنه ظن أن الله سبحانه قد أرسل إليه من يسأله هذا السؤال، وقد أراد سبحانه امتحانه بذلك، كما انه قد ظن أن مبادرته إلى إخبار السائل بما علمه لم تكن هي المطلوب، بل لعل المطلوب هو رسم الحكم بطريقة محاكمة قضائية.
وهكذا يتضح أنه لا يصح قول هذا البعض إن داود لم يستطع النجاح في هذه الفتنة فأخطأ.
٥ - وربما يكون المتخاصمان قد تخيلا أن ما قاله داود (ع) قد كان حكما قضائيا منه، من موقع كونه حاكما وقاضيا، لا إخبارا عن معرفة حصلت له من موقع كونه نبيا، لا سيما وأنهما قد طلبا منه أن يحكم بينهما، فأخبرهما بالواقع، ولم يستجب لطلبهما بإصدار الحكم.. ولعل هذا هو السبب في عدم اعتراض صاحب النعاج التسعة والتسعين، وعدم دفاعه عن نفسه، ولم يذكر داود (ع) بأن له الحق بذلك.
والنتيجة لما تقدم هي:
أ - إن من الطبيعي أن يفكر داود (ع) بأن هذه القضية قد تكون امتحانا له، فطلب من الله سبحانه أن يستر له ما قد يراه الناس تقصيرا، وهو ليس كذلك في الواقع، وأن يعود عليه بالرحمات والألطاف، فكان له ما أراد.

ب – إن داود (ع) لم يبادر إلى تشكيل محكمة لفصل القضية قضائيا، بل اكتفى بإخبار الخصمين بحكم المسألة. وأخيرا فالرواية إن كانت موافقة لحكم العقل القطعي فلا مانع من الأخذ بها، وإلا فهي مطروحة أو مؤولة، ولا فرق في ذلك بين كونها صحيحة السند أو لا.

ولا ننسى الإشارة أخيرا إلى تناقض كلامه عن آدم (ع) في هذا المقام حيث نفى عنه المعصية هنا، مع كلامه المتقدم في صدر الكتاب

والذي قال فيه: " إن معصية آدم كمعصية إبليس ".

٤١٠ – " استعراض الخيل " شغل سليمان (ع) ففاتته الصلاة.

٤١١ – نقاط الضعف في الأنبياء لا تنافي العصمة.

٤١٢ – سليمان ابتعد عن الخط الرسالي قليلا.

٤١٣ – الضغط الإلهي أعاد سليمان (ع) إلى الخط.

٤١٤ – سليمان (ع) يضرب أعناق الخيل وسوقها ليؤلم نفسه فيما تحبه.

يقول البعض عن سليمان (ع) في تفسير قوله تعالى: (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد):

" المراد بالخير: الخيل، فيما قد تطلق عليه هذه الكلمة من المعنى، وبذلك يكون المعنى، أنه استبدل حب الخيل عن ذكر الله حتى شغل عن صلاته (حتى توارت بالحجاب) أي حتى غابت الشمس، وفاتته صلاة العصر بسبب ذلك.. وهذا هو المشهور بين المفسرين، من أن استعراض الخيل أمامه امتد بحيث شغله عن صلاته.

وقد أثار بعض المفسرين احتمال تعلق (وحبه لها عن ذكر ربي)، ب (حب الخير) بلحاظ انطلاقه عن أمر الله، ليكون استعراضه لها وحبه لها عملا عباديا ليتهيأ بها للجهاد في سبيل الله، وبذلك يكون الشاغل له عن عبادة الله، عملا يختزن في داخله عبادة الله.

ولعل الأساس في هذا التوجيه التفسيري، هو الخروج بعمل سليمان عن كونه مخالفا لموقعه الرسالي، في انشغاله باستعراض الخير عن عبادة الله الواجبة في وقت معين..

ولكن ذلك لا يفيد شيئا في هذا الجانب، لأن صلاة العصر إذا كانت موقتة بوقت معين، بحيث يذهب وقتها بغروب الشمس وتواريها بالحجاب، كما يظهر من بعض الروايات، فإن الانشغال عنها المؤدي إلى تركها، بعمل آخر مرضي لله، موسع في وقته، غير مبرر شرعا.

ولهذا فقد يكون من الأقرب إبقاء الآية على ظاهرها الذي يوحي بان سليمان كان في مقام توبيخ نفسه أو الاعتذار إلى الله عما حدث له، مما لا يتناسب مع التوجيه المذكور الذي قد لا يكون له معنى، إلا أن يقال، إن ذلك بلحاظ أهمية الصلاة وبذلك يكون قد قدم المهم على الأهم في الوقت الذي يتسع لها جميعا، مع كون تقديم الصلاة أفضل، بلحاظ الوقت..

كيف نفهم حدود العصمة؟

وقد نلاحظ في هذا المجال، أن مسألة حدود العصمة، فيما يراد من خلاله تأكيد القيمة الأخلاقية المنفتحة على الله في القيام بما يحقق رضاه في أفق محبته.. لا يكفي فيها التركيز على ترك المعصية، بل لا بد فيها من الانفتاح على العمق الروحي الذي يتناسب مع قيمة النبوة في جانب القدوة الرسالية منها..

.. وقد ينبغي دراسة الأسس التي يحاول الكلاميون الذين يتبنون مسألة عصمة الأنبياء بالشكل المطلق، لنتعرف ماذا يمكن لنا أن نواجه به الظواهر القرآنية التي تمنح الجانب الإنساني قيمة واقعية في تقييم شخصية النبي، بالمستوى الذي لا يتعد عن الإخلاص في الصدق الواعي في خط الرسالة، مع إفساح المجال لبعض نقاط الضعف الإنساني أن تنفذ إلى حياته، بشكل جزئي طبيعي..

(ردوها علي) أي الخيل - على ما هو الظاهر - في عملية استعادة للإستعراض ولكن بروحية أخرى (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) قيل في معناه: إنه شرع يمسح بيده مسحا بسوقها وأعناقها ويجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة. وقيل: المراد بمسح أعناق الخيل وسوقها ضربها بالسيف وقطعها، والمسح القطع، فهو، غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله فأمر بردها ثم ضرب بالسيف أعناقها وسوقها فقتلها جميعا ".

ويتابع البعض كلامه فيقول:

" ويعلق صاحب الميزان على هذا الوجه بأن هذا الفعل مما تتنزه عنه ساحة الأنبياء عليهم السلام فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم " (١).

----

(١) الميزان في تفسير القرآن ج ١٧ ص ٣٠٤.

ويذكر في موضع آخر (١) " أن الروايات التي تؤكد على هذه القصة بهذا الشكل تنتهي إلى كعب الأحبار، بالإضافة إلى الإغراق في التفاصيل التي تدخل في دائرة الأعاجيب.
أما تعليقنا على ذلك، فان الظاهر من الآية قد يؤكد فكرة ضرب أعناقها وسوقها، لأن مسألة تسبيلها في سبيل الله لا يتوقف على ردها عليه وكما أنه لا يفسر مسح أعناقها وسوقها، فان من المتعارف مسح الخيل على نواصيها كما أن هذه الروايات تلتقي مع ظهور الآية في رد الفعل الذي قام به سليمان إزاء انشغاله بها عن الصلاة، مما جعله يفكر بالخلاص منها بقتلها، من غير ضرورة لأن يكون ذلك على سبيل الانتقام منها، أو إتلافها كمال محترم لا يجوز إتلافه بل قد يكون ذلك بمثابة ضغط على نفسه التي أحبت الخيل بهذا المستوى الأمر الذي يريد إيلامها فيما تحبه بهذه الطريقة، مع ملاحظة أن ذلك حلال في شريعته لأن الخيل كانت تذبح كالأنعام، للطعام، والله العالم.
(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا) إن هذه الآية توحي بوجود فتنة واختبار في حياة سليمان، لتوجيه بعض أوضاعه التي يريد الله له أن يركزها على أساس من الإستقامة في الفكر والعمل، فيما يبتلي الله به عباده ورسله من أجل أن يربيهم على الثبات في مواقع الاهتزاز من خلال حركة التجربة في الواقع العملي في حياتهم التي يراد لها أن تطل على حياة الآخرين من موقع القيادة الرسالية.. وربما توحي الآية من خلال قوله (ثم أناب)، بأنه ابتعد عن الخط قليلا، فيما هو القرب السلوكي من الله، ثم عاد إليه بعد أن رأى الضغط عليه، فيما ابتلاه به من ناحية فعلية " (٢).
عرض الآيات
قال الله تعالى: (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب. إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق. ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب. قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب.

----

(١) نفس المصدر ص ٣٠٧.
(٢) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٩ ص ٢٨٩ - ٢٩٤.

والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (١).
وقفة قصيرة
إننا بالنسبة إلى الآيات الشريفة، نذكر القارئ بما يلي:
١ - قال السيد المرتضى: ظاهر الآية لا يدل على إضافة قبيح إلى النبي، والرواية إذا كانت مخالفة لما تقتضيه الأدلة لا يلتفت إليها لو كانت قوية ظاهرة فكيف إذا كانت ضعيفة واهية (٢).
٢ - وإذا رجعنا إلى الآيات الكريمة نفسها نجدها تصرح بان عرض الخيل على سليمان (ع) قد كان بالعشي، ولا دلالة فيها على أن العرض قد حصل في حين كانت الشمس ظاهرة..
٣ - إن ضمير ردوها يرجع إلى الصافنات (وهي الخيل) وكذلك ضمير توارت بالحجاب، فما معنى إرجاع الضمير إلى الشمس، وهي لم تذكر في الكلام..
٤ - إن عبارة (أحببت حب الخير) قد أريد به بيان نوع الحب الذي أحبه، فهو لم يحب حب الشهوات، أو حب الدنيا الذي هو باطل وغير مشروع، بل كان حبه من نوع حب الخير، إذن، فليست كلمة (حب الخير) مفعولا به (لأحببت).
وقوله (عن ذكر ربي) بيان لمنشأ ذلك الحب، وأنه حب ناشئ عن ذكر الله سبحانه..
٥ - إن قول سليمان (ع): (إني أحببت) الآية.. قد جاء تفريعا بالفاء على قوله (عرضت).. أي أن الخيل عرضت عليه فقال هذا القول، ولعله ليدفع أي تصور خاطئ عنه يريد أن يتهمه بان استعراضه للخيل قد كان من منطلق حب الهوى وحب الدنيا ولذاتها، فأوضح لهم سليمان (ع) أن الأمر ليس كذلك، بل هو من منطلق حب آخر، هو حب الخير، وتقوية الدين، لأن الخيل من أهم وسائل الجهاد، ومن أسباب القوة للمؤمنين على أعدائهم.

----

(١) سورة ص الآية ٣٠ وما بعدها.
(٢) تنزيه الأنبياء ص ١٣٢ والبحار ج ١٤ ص ١٠٢.

٦ - وحين انتهى العرض، أمر الموكلين بالخيل بأن يردوها عليه، فطفق يمسح سوقها وأعناقها إيناسا لها، وتحببا وإعجابا بها.
٧ - وقد ظهر مما تقدم: أنه ليس في الآيات ما يشير إلى قتل الخيل.
٨ - إن تعلق نفس سليمان بالخيل، لا يخوله أن يقطع قوائمها ورؤوسها، فهل يصح أن يكون هو المذنب، والخيل هي التي تعاقب؟!!
٩ - قال السيد المرتضى: إن الله تعالى ابتدأ الآية بمدحه والثناء عليه، فقال: (نعم العبد إنه أواب)، وليس يجوز أن يثني عليه بهذا الثناء، ثم يتبعه من غير فصل بإضافة القبيح إليه، وأنه تلهى بعرض الخيل عن فعل المفروض عليه من الصلاة (١).
١٠ - هل يمكن لنبي معصوم أن ينسى واجبا مكلفا به إذا كان أهم من العمل الذي يتصدى له؟ وإذا لم يكن أهم فلماذا يقطع أرجل الخيل ورؤوسها؟.
١١ - لو كان المقصود أنه آثر حب الخيل وقدمه على ذكر ربه، فالمناسب أن يأتي بكلمة (على) لا بكلمة (عن).
٤١٥ - الولاية التكوينية لسليمان: (خدمات غير عادية).
٤١٦ - سليمان احتاج هذه الخدمات لمشاريعه العمرانية وتنقلاته، وحاجاته الإنسانية والاجتماعية.
ونقول:
يقول البعض عما أكرم الله به نبيه سليمان بن داود عليه السلام:
".. وهذه إطلالة سريعة على النبي سليمان الذي جعل الله له ميزة معينة في الخدمات غير العادية التي هيأها الله له فيما كان يحتاجه لتنقلاته أو مشاريعه العمرانية، أو في حاجاته الإنسانية والاجتماعية. "
وقفة قصيرة
نلاحظ هنا أمرين:
أحدهما: أنه سمى الولاية التكوينية لنبي الله سليمان عليه السلام ب (الخدمات غير العادية)..!
ثانيهما: أنه جعل ذلك من باب الخدمات التي يحتاجها سليمان (ع) في

---

(١) تنزيه الأنبياء ص ١٣٢ والبحار ج ١٤ ص ١٠٢.

تنقلاته وفي مشاريعه العمرانية الخ..
والسؤال هو: هل كان لدى سليمان (ع) عليه السلام حاجات إنسانية اجتماعية، ولم يكن لدى غيره من الأنبياء حاجات كهذه؟.
وهل كان سليمان (ع) بحاجة إلى تنقلات، ولم يكن غيره من الأنبياء بحاجة إلى ذلك؟.
وهل كان لدى سليمان (ع) مشاريع عمرانية، ولم يكن لدى أي من الأنبياء حتى نبينا الأكرم (ص) مثل هذه المشاريع؟
وإذا كانت بشرية سليمان (ع) لم تمنعه من الحصول على هذه الخدمات غير العادية، فهل إن بشرية نبينا الأكرم (صلى الله عليه وآله) قد منعته منها؟
وما هو الفرق بين بشرية هذا وذاك يا ترى؟..
هذا وأين التحدي في كل هذه الخدمات غير العادية المعجزة. فإذا كانت المعجزة لا تحصل في غير موارد التحدي - كما صرح به البعض -، فلماذا حصلت كل هذه المعجزات لسليمان ولداود عليهما السلام.؟!

٤١٧ - معركة أو (إشكال) بين الله تعالى والنبي زكريا.
٤١٨ - زكريا يعتقد باستحالة أن يولد له.
٤١٩ - فوجئ زكريا لأنه لم يحسب أن يتم الأمر بهذه السهولة.
٤٢٠ - ربما يتصور أن دعاءه مجرد تمنيات.
٤٢١ - زكريا ينطلق في سؤاله ربه بما يشبه الصراخ العنيف.
٤٢٢ - زكريا يعتقد أن الله لا يتدخل في الأمور بشكل غير عادي.
٤٢٣ - زكريا لا يطمئن إلى أن ما يلقى اليه هو الوحي الا بآية ومعجزة.
٤٢٤ - زكريا يتفاجأ بالقدرة الإلهية في مخالفة السنن.

يقول البعض:
" (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) فقد أراد الله أن لا يخيب أملك فيه ورجاءك في رحمته فرزقك ولدا ذكرا سويا، ومنحه اسما لم يحمله أحدا من قبله.. فماذا تريد بعد ذلك.. وقد أكرمك الله بكرامته التي يكرم بها عباده الصالحين، وأنبياءه المرسلين..
زكريا يتساءل متعجبا
(قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) فقد

غيرني الزمان إلى الحالة التي لم يبق لي معها شيء من الحيوية تماما كالعود اليابس الذي لا خضرة فيه ولا حياة، فكيف أن أهب الحياة لغيري في مثل هذه الظروف المستحيلة. وكأن زكريا قد فوجئ بأمر لم يكن منتظرا لأنه لم يحسب أن المسألة تتم بمثل هذه السهولة، وأن الدعاء يستجاب بهذه السرعة، وأن ما كان مستحيلا في نظره أصبح واقعا في حياته.. وربما كان يتصور أن دعاءه بالولد يدخل في نطاق التمنيات التي يتحدث بها الإنسان إلى ربه، من دون أن يكون له طمع كبير في حصولها، لا لأنه يشك في قدرة الله على ذلك بل لأنه لا يعتقد أن الله يتدخل في الأمور بشكل غير عادى لمصلحة شخص معين، بعد أن جعل الحياة كلها خاضعة للسنن الكونية في وجود الأشياء وفي حركتها العامة والخاصة.. وهذا هو ما جعل السؤال ينطلق منه فيما يشبه الصراخ العنيف، فيما توحي به الآية (قال كذلك قال ربك) وهذا هو ما سمعه من الصوت الخفي الذي كان يتحدث إليه من دون أن يرى أحدا أمامه.. فليس هو الله الذي كان يكلمه بل هو شخص آخر غير الله، قد يكون ملكا، أو يكون أي شيء آخر (هو علي هين) فلن يصعب على الله أن يبدع الحيوية فيك وفي زوجتك لتستطيعا إنجاب ولد، بعد هذا العمر الطويل (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) فكيف تواجه المسألة بما يشبه المفاجأة..

وربما أراد زكريا أن يعيش الطمأنينة القلبية التي توحي إليه بأن هذا الوحي الذي يلقى إليه، بالواسطة، فيما يسمع من صوت، لا يرى صاحبه، هو وحي الله فأراد أن يستوثق لقناعته، فطلب آية لا يستطيع غير الله أن يحققها، لأنها تتصل بوحدانية القدرة لديه. (قال رب أجعل لي آية) ترتاح إليها نفسي ويطمئن لها قلبي، فأعرف أن هذه البشارة، المعجزة، هي منك، وحدك، لا من غيرك لتكون المعجزة في حياتي هي الدليل على المعجزة القادمة و (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) وذلك بأن يحتبس لسانك فلا تقدر على النطق في هذه المدة، من دون علة أو صدمة، ولكن بقدرة الله ، فتلك هي الآية المطلوبة في الدلالة على أن كل ما بك وما ينتظرك فهو من الله " (١).

وقفة قصيرة

إن هذا البعض يطرح أمورا لم نعرف ما هي المبررات لطرحه لها بهذه الطريقة، فنلاحظ ما يلي:

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ١٦ – ١٨

١ - إنه يذكر: أن زكريا عليه السلام لم يطمئن إلى أن ذلك الذي يكلمه هو ملك يوحى إليه من عند الله، حتى طلب معجزة تركز عنده القناعة، وترتاح إليها نفسه، فكان له ما أراد..

وهذا الأمر يطرح أمورا:

أولها: إن ذلك يجعل كثيرا من موارد الوحي المشابه تتطلب إظهار معجزة تبعث الطمأنينة في نفس الموحى إليه في أن يكون الذي يكلمه هو جبرئيل.

الثاني: إننا لم نعرف من أين عرف ذلك البعض أن طلب الآية قد كان لأجل الحصول على الطمأنينة لزكريا عليه السلام بحقيقة الوحي.

فلعل الآية كانت لأجل أمر أو أمور أخرى غير ذلك، مثل أن يقنع قومه بالحقيقة التي سيفاجئهم بها.

الثالث: من أين عرف ذلك البعض: أن زكريا عليه السلام لم يكن يعرف طبيعة الذي كان يكلمه، هل كان ملكا أو غيرها؟ ومن أين عرف ذلك البعض أيضا أنه كان على شكل صوت لا يرى صاحبه؟ فليس في الآية ما يدل على ذلك.

ومن الممكن أن يكون ذلك الوحي قد جاء به الملك الذي يعرفه، ولم يزل يأتيه طيلة عشرات السنين التي مضت من نبوته، حيث كان قد بلغ من الكبر عتيا، حسب نص الآيات القرآنية التي هي مورد البحث.

على أن قوله في الآية (كذلك قال ربك) ليس بالضرورة أن يقوله غير الله، فلعل ربه هو الذي كلمه بهذه الطريقة.

٢ - من أين عرف ذلك البعض أن السؤال قد انطلق من زكريا بما يشبه الصراخ العنيف.. فيما توحي الآية!! حتى إن المرء ليخال أن ثمة مشادة أو معركة كلامية يفتعلها زكريا (ع) مع أنه في مقام يتكلم فيه مع ربه والمقام مقام بشارة؟

ولا ندري كيف انتهى هذا الإشكال دون عزل زكريا عن منصبه!.

وكيف توحي الآية بذلك؟ وأي كلماتها يوحي بالصراخ العنيف؟!

٣ - من أين عرف أن زكريا (ع) كان لا يعتقد أن الله يتدخل في الأمور

بشكل غير عادي لمصلحة شخص معين؟ فلعله كان يعتقد أنه تعالى يفعل ذلك، لكنه أراد بسؤاله أن يعرف إن كانت حالته ستكون هي الأخرى من بين مفردات ذلك أم لا..

ومن الواضح: أن زكريا (ع) كان يعرف أن ولادة إسماعيل (ع) كانت بعد شيخوخة أبيه إبراهيم.

وكان يعرف أيضا أن النار كانت بردا وسلاما على إبراهيم، حينما ألقي إبراهيم فيها.

ويعرف أيضا ما جرى لمريم (ع)، وهي ترى المعجزات حين حملها بعيسى (ع) وولادتها له، كتساقط الرطب الجني عليها في غير أوانه.. وأوضح من هذا كله أنه عليه السلام كان كلما دخل على مريم المحراب (وجد عندها رزقا قال يا مريم انى لك هذا، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة).

.. وهو نفسه يعرف قصة يونس والحوت، ويعرف ما جرى لأهل الكهف، وغير ذلك مما لا يكاد يحصى..

٤ - وأما قوله: إنه كان يعتقد باستحالة أن يولد له، ثم قوله: إنه ربما كان يتصور أن دعاءه بالولد كان يدخل في نطاق التمنيات.. من دون أن يكون له طمع كبير في حصولها. ثم قوله: إن زكريا كان يعتقد: أن الله قد جعل الحياة كلها خاضعة للسنن الكونية في وجود الأشياء وفي حركتها العامة والخاصة.

إن ذلك كله يرد عليه: أن من يعتقد ذلك لا يمكن أن يكون له أدنى طمع في استجابة دعائه. فما معنى ذلك الدعاء إذن؟ وما هو المبرر لتلك التمنيات التي تصبح مجرد خيالات لا مورد لها من نبي يفترض فيه أن يفكر فيما ينفع ويجدي؟.

٥ - لا نعرف المبرر لأن يكون زكريا (ع) " لا يعتقد أن الله يتدخل في الأمور بشكل غير عادي لمصلحة شخص معين، بعد أن جعل الحياة كلها خاضعة للسنن الكونية في وجود الأشياء وفي حركتها العامة والخاصة ".

ومن قال إن ما حصل له كان منافيا للسنن الكونية؟!.

فهل كان زكريا يجهل كل تلك التدخلات الغيبية في الشؤون العامة

والخاصة التي لا تكاد تحصى، بدءا من قضية الطوفان ومرورا بما جرى على إبراهيم (ع)، وموسى (ع)، وعيسى (ع)، ونوح (ع)، ويونس (ع)، ولوط (ع)، وصالح (ع)، وسليمان (ع)، وداود (ع).. وغير ذلك مما ذكره الكتاب العزيز.
أم أنه عليه السلام كان - والعياذ بالله - يذهب مذهب اليهود والضالين الذين قال الله عنهم:
(وقالت اليهود: يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء) (١).
٤٢٥ - يحي ليس نبيا.
يقول البعض:
" أولئك الذين أنعم الله عليهم فكيف جزاء من بعدهم:
(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) (٢).
(أولئك الذين أنعم الله عليهم) وهم هؤلاء الذين تقدمت الإشارة إليهم، فيما قصه الله من أمرهم، بالإجمال أو التفصيل، وهم زكريا ويحيي ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس الذين أنعم الله عليهم بالإيمان الخالص التوحيدي الذي ينفتح على الله بروحية العبد الطائع الذي أخلص لله في العقيدة، وفي الطاعة وأعطى من فكره وعمله الرضا لله، فلم يغضب عليه لتمرده ولا لضلاله ومن النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح من البقية الصالحة من المؤمنين الخالصين الذين آمنوا بنوح النبي واتبعوه من ذرية إبراهيم وإسرائيل الذين امتدت النبوة فيهم وتحولت إلى خط متحرك في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله (وممن هدينا واجتبينا) من الذين هداهم الله بما أفاض عليهم من نور البصيرة، وانفتاح العقل، وصفاء الروح، ومسؤولية الحركة،

----

(١) المائدة الآية ٦٤.
(٢) سورة مريم الآية ٥٨ - ٦٣.

واستقامة الطريق، ووضوح الهدف، وتقوى الفكر والعمل.
وقد يكون المراد من كل هؤلاء هم النبيون الذين أنعم الله كما قد يلوح من عنوان الآية التي حددت المشار إليهم بالنبيين، ولكننا عندما نلاحظ ذكر اسم مريم، ويحيى، وهما ليسا من الأنبياء فقد نستوحي من ذلك ان المسألة أشمل من ذلك وتكون الإشارة إلى هؤلاء على أساس انهم يمثلون النموذج الأكمل للمهتدين الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والتقوى، واجتباهم لرسالته ولدينه (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) فيما يمثله السجود من خضوع لله في الشعور العميق بالعبودية، وفيما يعبر عنه البكاء من إحساس بالروحية الفياضة الخاشعة أمام خوف الله، ومحبته في انفعال إيماني عميق بالمضمون الروحي لآيات الله، والإشراق الفكري لمعانيها.. وهكذا كان هؤلاء الرواد طليعة البشرية " (١).
وقفة قصيرة
ومن الواضح: أن يحيى عليه السلام كان من أنبياء الله المرسلين، كما صرح به القرآن، حيث يقول لزكريا: (إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) (٢) وراجع الآيات التي نزلت في سورة الأنعام (٨٣ - ٩٠) حيث عدت يحيى عليه السلام في جملة الأنبياء.
هذا البعض يرى: أن يحيى عليه السلام لم يكن نبيا وذلك مخالف لصريح القرآن، ولإجماع المسلمين كافة.
ولا ندري السبب في حكمه هذا، وقد كان يحيى (ع) معاصرا لعيسى (ع)..
٤٢٦ - إنكار نبوة عيسى وهو في المهد صبيا
٤٢٧ - رد كلام الأئمة في الاستدلال بالآية على إمامة الجواد (ع).
يقول البعض:
".. (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) وهكذا أراد أن يتحدث إليهم عن صفته المستقبلية فيما يريد الله أن يمارس من دور أو يقوم به من مسؤولية، فهو مهما أحاط به من أسرار في خلقه وفي قدراته لا يبتعد عن عبوديته لله " (٣).

---

(١) من حي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ٦٠ - ٦١.
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩.
(٣) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٥ ص ٣٧.

وقفة قصيرة

إن من الواضح أن كلمة (آتاني الكتاب) تدل على أن ذلك قد حصل في الماضي أي أن الله سبحانه قد أعطاه ذلك في وقت سابق على موقفه هذا الذي يكلمهم فيه.

وقد استدل الأئمة (ع) بهذه الآية بالذات على إمامة الإمام الجواد (ع) في صغره وفقا لما هو ظاهرها الذي هو حجة فراجع (١).

كما أنه لا شك في صلاحيتها للاستدلال على إمامة الإمامين الهادي والمهدي (ع)، فتأمل وتنبه.

أضف إلى ذلك أن كلمة جعلني وآتاني إذا كانت تتحدث عن المستقبل، فإن قوله: وجعلني مباركا أيضا هي إخبار عن المستقبل، وهي تشعر بنفي البركة الفعلية عنه، مع أن كونه مباركا بالفعل وفي كل لحظات حياته، مما لا شك فيه ولا شبهة تعتريه، فلماذا هذا الإشعار بأمر لا حقيقة له؟!

فما معنى حمل الآية على أن عيسى (ع) أراد أن يخبرهم عن أنه سيحصل على درجة النبوة في المستقبل. وأن الله سيؤتيه الكتاب، وسيجعله نبيا. وقد كان بالإمكان أن يقول: سيؤتيني الكتاب، وسيجعلني نبيا، وسيجعلني مباركا. مع عدم وجود قرينة حالية ولا مقالية على إرادة زمن الاستقبال في الآية.

بل في صحيحة يزيد الكناسي قال:

سألت أبا جعفر (ع) أكان عيسى بن مريم (ع) حين تكلم في المهد حجة لله على أهل زمانه؟

فقال: كان يومئذ نبيا حجة لله غير مرسل. أما تسمع لقوله حين قال:

(إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) (٢)..

----

(١) راجع الكافي ج ١ ص ٣٢٢ و ٤٩٤ و ٣٨٤ و ٣٨٢ و ٣٨٣ وبحار الأنوار ج ٥٠ ص ٢٣ و ٢٤ و ٣٤ وراجع ص ٢١ و ٣٥ و..

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٨٢ و ٣٨٣.

القسم الثاني:
النبي الأكرم محمد
(صلى الله عليه وآله أجمعين)

الفصل الأول:
ثقافة!! ومعارف نبينا الأعظم
(صلى الله عليه وآله وسلم)

٤٢٨ - النبي لا يعرف اللغات.
٤٢٩ - النبوة لا تقتضي التفوق المطلق في كل شيء.
٤٣٠ - لا مانع من التفوق كميزة شخصية لا كميزة نبوية قيمة.
٤٣١ - التفوق الشخصي في أكثر الصفات لا في جميعها.
يقول البعض:
" وتتحدث بعض الآيات عن موضوع العلم باللغات، لتشير إلى أن ذلك وارد بالنسبة إلى النبي، وذلك في قضية اتهام الكفار للنبي، بأن هناك إنسانا يقوم بتعليمه، فيجئ الرد القرآني عليها حاسما، على أساس أن هذا الشخص الذي ينسبون إليه تعليم النبي من الأعجميين، بينما نجد القرآن عربيا مبينا.. فكيف يمكن أن تصح التهمة.. ومن الطبيعي أن هذا الرد لا يصلح لإفحام الكفار إلا إذا كان النبي لا يعلم لغة هذا الأعجمي.. لأنه - في هذه الحالة - لا يستطيع أن يفهم منه، أو يقوم بمهمة الترجمة لما يمليه عليه ذلك من أحاديث التوراة والإنجيل وغيرهما.
قال تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ((١٦ / ١٠٣)
إننا نتحفظ في ذلك، في إطار الفكرة التي تربط النبوة بالتفوق المطلق في كل شيء، لأن النبوة لا تقتضي ذلك الذي يقررونه كله.. ولكننا لا نمانع في أن يكون للنبي أكثر الصفات المذكورة من ناحية واقعية موضوعية.. كميزة شخصية خاصة، لا كميزة نبوية حتمية في حساب الحكم العقلي القاطع - كما يقولون " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - إن الآية التي استدل بها لا ربط لها بمسألة معرفة النبي (صلى الله عليه

----
(١) المعارج: ص ٦٥٦ و ٦٥٧، والحوار في القرآن، ص ١٠٥.

وآله) باللغات؛ لأنها إنما تتحدث عن دعواهم: أن هذا القرآن المعجز لهم في بلاغته الفائقة هو من صنع إنسان بعينه، فهو ليس وحيا من الله سبحانه، ولا هو من إنشاء النبي محمد (صلى الله عليه وآله)..

وكأنهم لا يريدون نسبة ذلك إليه، لأن ذلك يستبطن الاعتراف له بالتفوق عليهم، حين قام بما عجزوا هم عنه، كما أنهم يدعون: أن منشئ القرآن هو رجل أعجمي - وربما يقصدون أنه من أهل الكتاب، لأنهم كانوا مبهورين بهم، ويعتبرونهم هم مصدر المعارف الدينية، وينظرون إليهم نظر التلميذ إلى معلمه، وعلى هذا الأساس فإنهم ينسبون ما جاءهم به من معارف دينية، وتفصيلات إيمانية وغيرها إليهم، على اعتبار أنه لابد أن يكون قد أخذه من واحد من هؤلاء.

فجاء الرد القرآني الإلهي على هذه الدعوى الزائفة ليقول: إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من إنشاء بشر، بل البشر يعجزون عنه، فكيف إذا كان هؤلاء البشر لا يعرفون اللغة العربية، وهذا القرآن لسان عربي مبين؟!.

ولم تتحدث الآية عن أمر الترجمة لما يمليه ذلك الأعجمي على النبي (صلى الله عليه وآله) من أحاديث التوراة والإنجيل.

٢ - ما هو المبرر لحكمه بأن النبوة لا تقتضي التفوق المطلق على سائر البشر من غير الأنبياء؟!، فإن النبوة إذا كانت اصطفاء إلهيا، واجتباء ربانيا، فما هو معنى أن يختار الله سبحانه - المفضول ويترك الفاضل؟! كما قرره هذا البعض - حسبما نقلناه عنه في هذا الكتاب - وكيف رجح ذاك على هذا؟!. ما دام أن من يرى لنفسه امتيازا على غيره في أي مجال كان، ولو في مجال اللغات، سيجد في نفسه حالة من الترفع والإباء عن الانقياد وإخلاص الطاعة لذلك الغير الأقل منه، ولن يكون ذلك السخي بكل شيء، حتى بروحه وولده امتثالا لأوامره.

بل سيجد نفسه غاليا ونفيسا لا يدرك الآخرون قيمته، ولذلك يفرطون فيه خصوصا وأن ذلك النبي سيكون معذورا بجهله، الذي إذا فتح بابه فإن احتمالاته سوف ترد في مختلف الشؤون والحالات..

نقول هذا بغض النظر عما يستند إليه علماؤنا من أدلة قاطعة وبراهين

ساطعة، ومنها الروايات الكثيرة، والمتنوعة بدرجة كبيرة، مما دل على أكملية الأنبياء والأوصياء على البشر جميعا في جميع الحالات والشؤون، وعلى تفوقهم عليهم في مختلف العلوم والفنون، حتى أن الله سبحانه قد علم أنبياءه حتى منطق الطير، والحيوان، وسخر لهم الريح، وعفاريت الجان.

ولهذا البحث مجال آخر..

٣ - إن الآية إنما تنفي علم النبي باللغات من خلال تعلمه إياها من البشر.. فلو أنه (صلى الله عليه وآله) قد علم اللغات بواسطة التعليم الإلهي، فإن ذلك يكون دليلا على ارتباطه بالغيب.. وكفى في ذلك دليلا على أنهم مبطلون في ما يوجهونه إليه من اتهامات.

وبنفس هذا التقرير نجيب على السؤال الذي يطرح عن أمية النبي (ص)، حيث نقول: إن المقصود: هو أن الناس يرون أمية رسول الله (ص)، فإذا جاء وحي معجز، وعلم غيبي، واطلاع عظيم على أسرار الخلق والخليقة ومعرفة باللغات وعلم مفاجئ بالقراءة والكتابة فإن ذلك لابد أن يبهرهم، ويقهر عقولهم، ويضطرهم للبخوع والتصديق بنبوته، وليس المراد أنه لابد أن يبقى أميا عاجزا عن القراءة والكتابة إلى آخر حياته، كما ربما يتخيل البعض.

٤ - يضاف إلى جميع ذلك: أن العرب هم الذين ادعوا: أن أهل الكتاب قد علموا النبي هذا القرآن، وإذا كان الذي قصدوه ذا لسان أعجمي، فإن الرد يكون عليهم، بأن هذا القرآن لسان عربي مبين، فكيف يحسن ذلك الأعجمي الترجمة بهذا المستوى من الإعجاز، ويعجز العربي نفسه عن إنشاء مثل هذا القرآن.

٤٣٢ - مهمة الأنبياء هي - فقط - التبشير والإنذار -

٤٣٣ - الله يعلم الأنبياء ما يحتاجونه في نبوتهم، لا أزيد من ذلك.

٤٣٤ - لا دليل على لزوم كون النبي (ص) أعلم الأمة في كل شيء.

٤٣٥ - قد يعلم الله نبيه ما يحتاجه في مهمته الرسالية - وقد لا يعلمه.

٤٣٦ - ليس من الضروري أن يعلم النبي علم الذرة والكيمياء.

٤٣٧ - علم الذرة والكيمياء والفيزياء، لا صلة لها برسالات الأنبياء.

سئل البعض:

النبي أو الإمام إما أن يكون هو الأعلم أو لا يكون، فإذا لم يكن الأعلم، فهناك من يستحق هذا المنصب غيره لأنه أعلم وأفضل منه.

وإن كان هو الأعلم، فبناء على ذلك يجب أن يكون أعلم أمته، وأعلم السابقين واللاحقين، وذلك طبعا بلطف من الله، وهذا يعني أيضا أن يكون مستوعبا لآخر العلوم والمكتشفات، وبالتالي يكون لديه علم الغيب، فكيف يكون ذلك؟
فأجاب:
" نحن نتكلم استنادا إلى القرآن، فالله أرسل الأنبياء مبشرين، ومنذرين (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ((الانعام: ٤٨)، (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ((الفرقان: ٦٥)، (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ((الأحزاب: ٤٥ - ٤٦)، والله يعلم نبيه، ويعلم أولياءه من الغيب، ما يحتاجونه في نبوتهم، وليس من الضروري أن يعلموا الغيب كله، كما يقول السيد المرتضى.. فليس من الضروري أن يعلم النبي علم الذرة، وعلم الكيمياء، وعلم الفيزياء، لأنها ليست ذات صلة برسالتهم، أما وجوب ان يكون النبي أعلم الأمة، في كل شيء حتى ما لا علاقة له بمهمته الرسالية، ولكن الله قد يعلمه من ذلك ما يحتاجه فيه أو إذا أراد علم، فليس لدينا دليل على هذا " (١).
وقفة قصيرة
ونلاحظ هنا ما يلي:
١ - إذا كان الله سبحانه قد أرسل أنبياءه مبشرين ومنذرين، فلا يعني ذلك أن مهمتهم محصورة في ذلك.. وما ورد من ذلك في بعض الآيات القرآنية لابد أن يتكامل وينضم إلى ما ورد في الآيات الأخرى، كقوله تعالى:
(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم. آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة ((٢).
وفي هذا الكتاب تبيان كل شيء.
وقوله تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوي عزيز ((٣).

---

(١) الندوة: ج ١ - ص ٣٦٠.
(٢) سورة الجمعة: الآية: ٢.
(٣) سورة الحديد: الآية: ٢٥.

وقال سبحانه: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ((٢).
والمراد بكافة للناس، أي من يكف الناس عن تجاوز الحدود..
وقال: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ((٣).
وقال: (يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول ((٤).
وقال سبحانه: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، إن الله قوي عزيز ((٥).
وكل ذلك يدل على أن مهمة الأنبياء لا تقتصر على التبشير والإنذار، بل فيها سلطة، وتحتاج إلى نصرة بالغيب. وسيكون فيها غلبة من موقع العزة والقوة.. كما أن جعل الأنفال والخمس لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، واعتباره كافة ومانعا للناس عن تجاوز الحدود، واعطاءه مقام الشفاعة، وإعطاءه مقام الشهادة على الخلق.. ان كل ذلك وسواه مما يضيق المقام عن تعداده يعني أن النبي ليس مجرد بشير ونذير، وشهادته على الخلق تستدعي أن يملك قدرات يستطيع من خلالها أن يطلع على أعمال الخلائق الجوارحية والجوانحية، ومنها عقائدهم ونواياهم وأحاسيسهم ومشاعرهم من حب وبغض وحقد وحسد ورأفة وقسوة قلب وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة الأمر والنهي.. وذلك ليستطيع أن يشهد عليهم، (رسولا شاهدا عليهم ((٦) (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ((٧) وكذلك الإمام، وكذلك السيدة الزهراء - عليها السلام - باعتراف هذا البعض، ولأجل ذلك فإننا لا نستغرب إذا سمعنا، وقرأنا أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يرى من خلفه، كما يرى من أمامه، وأنه تنام عيناه، ولا ينام قلبه.. وأنه يرفع للإمام عمود من نور فيرى أعمال الخلائق، وأنها تعرض عليه دوريا..
وأنه (صلى الله عليه وآله) كان يكلم النمل، والشجر والحجر، وأنواع

----

(٢) سورة سبأ: الآية: ٢٨.
(٣) سورة النساء: الآية: ٥٩.
(٤) سورة الأنفال: الآية: ١.
(٥) سورة المجادلة: الآية: ٢١.
(٦) سورة المزمل، الآية: ١٥.
(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥، وسورة الفتح، الآية: ٨.

الحيوانات، وكل قوم بلغتهم.. وإلى آخر ما هنالك مما يفوق حد الحصر والإحصاء.
ولو كانت القضية تنتهي عند حدود التبشير والإنذار اللذين قد يقوم بهما حتى غير النبي. أو حتى لو كان الأمر ينتهي عند حدود الشهادة، لم يكن ثمة حاجة إلى أن يخلق الله أرواح النبي والأئمة قبل خلق الخلق بألفي عام، وأن يجعلهم أنوارا معلقين بساق العرش، فإن هذا وسواه كثير مروي في كتب الفريقين من سنة وشيعة.
ولم يكن ثمة حاجة إلى المعراج.. ولا كان لدى وصي سليمان علم من الكتاب يأتي به بعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس..
وكذلك فإن سليمان وداود (عليهما السلام) لم يحتاجا إلى علم منطق الطير، ولا إلى أن يلين الله الحديد لداود، ولا إلى تسخير الريح وغيرها لسليمان..
فإن التبليغ والإنذار، وحتى حكومة الناس بالعدل لا تحتاج إلى شيء مما ذكرناه.. لو كانت مهمة الأنبياء محصورة بذلك ومقصورة عليه..
٢ - إن ما أوكله الله إلى أنبيائه لا يعرف عن طريق العقل فلا بد من النقل فيرد السؤال: ما هي الآية أو الروايات المفيدة للقطع - حسب ما قرره ذلك البعض - التي دلت هذا البعض على أن النبي والإمام لا يحتاجان إلى علم الذرة والكيمياء، والفيزياء؟! أو أن ذلك ليس ضروريا لهما في مهماتهما التي أوكلها الله إليهما؟!، وفي معارفهما؟! وفي ما يرتبط بتكوين شخصية النبي والإمام؟!، وفي مقام إعدادهما لهذا المقام؟!.
٣ - ما الدليل الذي أقامه هذا البعض على: أنه لا يجب أن يكون النبي والإمام أعلم الأمة في كل شيء.. فإن النفي عنده يحتاج إلى دليل يفيد اليقين بالنفي ولا يكفي مطلق الحجة.
٤ - إن غاية ما عند هذا البعض هو قوله: " ليس لدينا دليل على هذا " فالذي ليس لديه دليل على الإثبات هل يكون عدم دليله على الإثبات دليلا على النفي؟!..
٥ - ان هذا البعض يدعي أن علوم الذرة والكيمياء والفيزياء لا صلة لها برسالتهم..
ومن الواضح أن نفي الصلة بين الرسالات وبين العلوم المذكورة يحتاج إلى اطلاع على حقائق الكون، ومعرفة الغيوب بصورة مباشرة وذلك غير متيسر

لنا نحن البشر على الأقل فهل هو متيسر لهذا البعض؟!
وعلى كل حال، فإن السؤال يبقى هو السؤال:
ما هو الدليل على نفي هذه الصلة، فإن هذا البعض نفسه يقول: إن " النفي يحتاج إلى دليل كما الإثبات يحتاج إلى دليل ".
٤٣٨ - النبي لم يكن ملما بتاريخ الأنبياء قبل النبوة.
٤٣٩ - قلة وعي النبي للمشاكل التي تواجهه هي بسبب جهله بتاريخ الأنبياء.
٤٤٠ - لو كان ملما بتاريخهم لتصرف على سنة الله في رسله ورسالاته.
٤٤١ - لو كان ملما لعرف كيف يخطط على ضوء تجارب الأنبياء.
٤٤٢ - الله أراد لكل مرحلة أن تستفيد من التاريخ الرسالي للمرحلة السابقة.
٤٤٣ - الاستفادة لكل مرحلة لا تتحقق الا بالوحي الإلهي الذي يقص عليه أنباء الرسل.
٤٤٤ - الله لم يكن قد زود رسوله بكل تعليماته وتشريعاته وتوجيهاته.
٤٤٥ - القرآن يؤكد جهل النبي بالأديان السماوية قبله.
٤٤٦ - النبي كان له مستوى ثقافي عال.
٤٤٧ - المستوى الثقافي للنبي هو من خلال تجاربه.
٤٤٨ - المستوى الثقافي للنبي هو من خلال تأملاته.
٤٤٩ - المستوى الثقافي للنبي هو من خلال ملكاته الفكرية والروحية.
ويقول البعض في تفسير قوله تعالى:
(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ((١٣ / ١٣٠).
وقوله:
(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا ((٣٥ / ٣٣).
- يقول - ما يلي:
" وربما كان المراد به التقوية للروح النبوية في حركة التفاصيل ليواجه المواقف من خلالها بالصلابة الثابتة التي لا تهتز أمام التحديات من خلال الحديث عن تاريخ الأنبياء الذي لم يكن ملما به قبل نزول القرآن ليزداد بذلك وعيا للمشاكل التي تعيش في حركة الرسالة في الواقع، وليتصرف - من خلال ذلك - على سنة الله ورسله ورسالته ليعرف كيف يخطط الخطة في اتجاه الوصول إلى الهدف على ضوء تجارب الأنبياء في واقع النبوات، لأن الله أراد للتاريخ الرسالي أن تقدم كل مرحلة تجربتها للمرحلة الأخرى، وأن يوحي كل نبي من خلال تاريخه بنتاج حركته للنبي الآخر، ولن يكون

ذلك إلا بالوحي الإلهي الذي يقص عليه أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده.
أما في الآية الثانية فإنها تتحدث عن جزئيات التحديات في التطورات السلبية أو الإيجابية التي تعيشها الرسالة، ويواجهها الرسل في التجربة الرسالية في الحرب والسلم، لتمنح كل موقف حكمه، ولكل مشكلة حلها، ولكل معركة سلاحها، ولكل تجربة درسها، لأن الله كان ينزل آياته تبعا لحاجة الواقع الذي يبحث عن الأجوبة في أكثر من علامات الاستفهام، ولم يكن قد زود رسوله بكل تعليماته، وكل تشريعاته وتوجيهاته له وللمسلمين، ولذلك كان النبي (ص) يردد كلمته المأثورة - عند إلحاح المسلمين عليه في إصدار الموقف الحاسم - (إني أنتظر أمر ربي) لأن ذلك هو الذي يعمق في نفوس المسلمين أن النبي لم يصدر فيما يبلغه أو يعالجه من موقف ذاتي، بل من وحي إلهي، حتى لا تختلط لديهم شخصية الذات في تصورهم للجانب الذاتي للرسل مما قد يملكون الحرية في قبوله أو رفضه - كما يتخيلون - وشخصية الرسول في حديثه عن الله مما لا بد لهم أن يقبلوه من دون مناقشة على أساس الخط الشرعي الإسلامي الذي جاء في قوله تعالى:
(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ((٣٣ / ٣٦).
ولذلك كانوا يسألونه - حسب رواية السيرة - عن كل ما يصدره: هل هو رأي ارتأيته أو هو وحي من الله ليحددوا موقفهم منه على أساس تحديد ذلك، لكننا نرى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن له شخصيتان في حركته الرسالية في الشؤون الخاصة والعامة، لأنه كان يمثل التجسيد الحي للرسالة فهو القرآن الناطق الذي يتمثل القرآن الصامت في كل سيرته قولا أو تقريرا:
(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيها شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ((٤ / ٦٤).
(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ((٣٣ / ٣١).
فهو القدوة والأسوة في كل شيء فكيف يكون له شخصيتان في سلوكه العملي مع الناس، لتختلف فيه شخصية الإنسان عن شخصية الرسول، أما تثبيت الله للذين آمنوا فإنه يحصل من خلال القرآن الذي يعمق فيهم الإيمان بالله، ويفتح

لهم آفاق المعرفة بالله، وبخلقه وبمنهجه ورسالته وشريعته.. " (١).
ويقول في مورد آخر:
" وعلى ضوء ذلك كله لا بد لنا من استيحاء القرآن في سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لنبدأ من ثقافته قبل النبوة، هل درس الإنجيل في تلك المرحلة؟ وهل كان مطلعا على التفاصيل التاريخية للأنبياء، وهل كان يقرأ أو يكتب؟
إن الصورة القرآنية تؤكد أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن ملما بذلك كله، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:
(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم ((/ ١١٣) " (٢).
ويسأل هذا البعض أيضا:
ما المستوى الثقافي الذي كان عليه النبي (ص) قبل نبوته؟
فيجيب:
" لا بد لنا من استيحاء القرآن في سيرة النبي محمد (ص) لنبدأ من ثقافته قبل نبوته، فالصورة القرآنية تؤكد أن النبي (ص) لم يكون (كذا) ملما بالأديان السماوية التي جاءت من قبله، وانه لم (كذا) يجيد القراءة أو الكتابة فقد جاء في القرآن الكريم:
(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ((النساء / ١١٣).
(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ((الشورى: ٥٢).
(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ((آل عمران: ٤٤).
(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ((يوسف: ١٠٢).
(وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ((القصص: ٨٦).

---

(١) المعارج: ص ٥٥٨ و ٥٥٩.
(٢) المعارج: (مجلة) ص ٥٤٥.

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ((يونس: ١٦).
وهكذا جاء القرآن ليؤكد أن النبي (ص) لم (كذا) يمارس القراءة والكتابة:
(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ((العنكبوت: ٤٨).
وقد كان ذلك كحجة على النبوة في عمقها الغيبي لأن هذه الشمولية الثقافية لا يمكن أن تكون منطلقة من الجهد البشري من إنسان لم تكن له أية تجربة ثقافية من خلال اطلاعه على مصادر المعرفة الكتابية أو غيرها.
ولكن ليس معنى ذلك أن النبي (ص) كان لا يملك المستوى الثقافي العالي من خلال تأملاته وتجاربه والألطاف الإلهية عليه في ملكاته الفكرية والروحية من خلال إعداد الله له للمهمة الكبرى في الرسالة الإسلامية " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - ان الصورة القرآنية تؤكد أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يعرف ملة أبيه إبراهيم شيخ الأنبياء (عليه السلام)، وكان متبعا لها وملتزما بها قال تعالى: (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين ((٢).
٢ - إن الآيات التي استشهد بها على أقواله لا تدل على ما يرمي اليه، وذلك لأن بعضها - كآية سورة النساء: ١١٣ وفيها: (وعلمك ما لم تكن تعلم (يدل على أن ما عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) من معارف إيمانية ومن حكمة وكتاب إلهي هو من الله سبحانه، وقد علم الله سبحانه نبيه بالإضافة إلى ذلك أمورا لم يكن (صلى الله عليه وآله) عالما بها.. وذلك لا يعني: أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن ملما بالأديان قبل أن يبعثه الله رسولا، إذ إن قوله تعالى: (علمك ما لم تكن تعلم (لم تبين لنا متى علمه ذلك، كما أنها لم تحدد الأمور التي علمه إياها، فهل علمه الأديان السماوية التي سبقته؟!، أو أنه علمه التفاصيل التاريخية لحياة الأنبياء؟!، أو علمه أسرار الخلق

----

(١) المعارج: ٦٠٤ و ٦٠٥.
(٢) سورة النحل: الآية: ١٢٣.

والخليقة، وألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب.. وهي التي علمها (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين علي (عليه الصلاة والسلام)؟!.

إن ذلك لم يتضح من الآية.. فكيف اتضح لذلك البعض أن المقصود هو هذا دون ذاك؟!

على أن قوله (ص): (كنت نبيا وآدم بين الماء والطين). وكونهم أنوارا بعرشه محدقين أو معلقين بساق العرش قبل خلق الخلق بألفي عام يشهد بأن علمهم سابق حتى على خلق الخلق فلماذا العجب إذن إذا حدثت فاطمة أمها وهي في بطنها وما إلى ذلك؟!..

٣ – وأما آية سورة الشورى ٥٢ فإن قوله: (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان (لا يريد به نفي ذلك عنه قبل بعثته كرسول، وإلا لزم أن يكون (صلى الله عليه وآله) – والعياذ بالله – كافرا قبل البعثة، لأنه نفى عنه صفة الإيمان أيضا.. وذلك لا يمكن أن يصح. مما يعني: أن المراد بالآية أنه (صلى الله عليه وآله) إنما تلقى الوحي بواسطة الروح من قبل الله سبحانه.. فقولهم: إنها أساطير الأولين اكتتبها، وقولهم: إنما يعلمه بشر، ونحو ذلك، باطل لا يصح.

فالمراد بالآية: أنك يا محمد لولا وحينا لك بواسطة الروح، وهو جبرئيل لم تكن تدري ما الكتاب. ولولا هدايتنا لك بالفطرة، وبحكم العقل الصريح لم تكن تدري ما الايمان.

ويبقى سؤال: متى كان هذا الوحي له (صلى الله عليه وآله)..

ويأتي الجواب: أن الروايات قد دلت على أنه (صلى الله عليه وآله) قد كان نبيا قبل أن يكون رسولا بل دلت الروايات على أن نبوته قد بدأت من حين ولادته (صلى الله عليه وآله وسلم).

٤ – وأما آية سورة آل عمران / ٤٤: (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم (، فهي واضحة الدلالة على أن المراد أن الوحي هو الذي أعلمك يا محمد بأنهم قد ألقوا أقلامهم أيهم يكفل مريم إلخ.. ولولا الوحي فإنك لا تستطيع معرفة ذلك، أما متى كان هذا الوحي فقد أشرنا إلى أن الروايات هي التي تحدد ذلك فقد يكون منذ الولادة حيث بدأت النبوة، وقد يكون بعدها.

٥ – وكذلك الحال بالنسبة لآية (١٠٢) من سورة يوسف، وهو قوله تعالى: (ذلك من انباء الغيب نوحيه إليك.. (فإنها دالة على أن معرفته (صلى الله عليه وآله) بتلك الأخبار الغيبية إنما كانت عن طريق الإنباء والوحي، لكنها لا تعين لنا متى كان ذلك، فلعله كان قبل سنوات من البعثة، لكنه لم يؤمر بإبلاغه إلى أن يحين وقته، وقد حان وقته الآن...

٦ – ونفس هذا الكلام يجري بالنسبة للآية (٨٦) من سورة القصص: أعني قوله تعالى: (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك (، فإن المراد بها أن إنزال القرآن عليه كان رحمة من الله، فرجاؤه إنما هو سبيل رجاء الرحمة الإلهية.

ولا دليل يثبت أن حدوث هذا الرجاء كان حين البعثة، فلعل رجاءه هذا قد بدأ في أول لحظات حياته، ومنذ امتلك الشعور والإدراك.

٧ – أما آية سورة يونس: (قل: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به (فإنها تدل على أنه إنما أذن الله سبحانه له في تلاوة القرآن عليهم بعد مضي وقت طويل قبل ذلك..، ولكن ذلك لا يعني أن القرآن قد نزل عليه في أول يوم بعثته إليهم كرسول، فلعله نزل عليه قبل سنين كثيرة، لكن الله لم يأذن له بتلاوته عليهم إلا في هذا الوقت..

٨ – وأما آية سورة العنكبوت (٤٨): (وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك (.. فلا تدل على أنه لم يكن يعرف القراءة، بل هي تتحدث عن التلاوة التي هي إلقاء الكلام ولو عن ظهر قلب.

فالمقصود: أنه لم يتل أيا من كتب السابقين.. كالتوراة والإنجيل ونحوهما قبل أن ينزل القرآن عليه، فالقرآن هو أول كتاب تلاه وألقاه.

بل هي لا تدل أيضا على أنه لم يكن يعرف الكتابة، لأنها إنما تتحدث عن أنه (ص) لم يكن يخط الكتب السالفة بيمينه.. فكيف يتهمونه بأمر ما رأوه قد مارسه، ولا يوجد أي دليل على أنه اطلع على أي كتاب سابق.. لا من خلال تلاوته له، ولا من خلال كتابته لمضامينه، فما هو المبرر لاتهامه بأنه قد استفاد من تلك الكتب إلا مجرد الحدس والتخمين، والرجم بالغيب.

الأمر الذي من شأنه أن يسقط اتهاماتهم عن أية قيمة، لعدم وجود أساس معقول لها.
فاتضح مما تقدم: أن ما ذكره في معنى الآيات ليس هو المعنى النهائي، الذي لا محيص عنه فيها، بل إن هناك معاني محتملة، وقريبة لها، فلا مبرر للاستدلال بها.
هذا.. وقد أشرنا فيما سبق أن أمية النبي لا تعني نقصا فيه، بل هي غاية الكمال، لأنها تعني أن هذا الذي لم يقرأ ولم يكتب ها هو في لحظة واحدة يصبح عارفا أدق المعرفة وأشملها لعلوم ولأمور لم تمر عليه من قبل.. حتى إن لم يكن يقرأ فصار يقرأ ولم يكتب فصار يكتب مع عدم تعلمه لهذه الأمور من قبل.. مما يدل على أن قد حدث له حدث فريد، وهو اتصاله بالغيب وصدقه فيما يدعيه من الوحي الإلهي، فعدم معرفته بالقرآءة والكتابة وعدم تلقيه معارفه عن طريقها غاية الكمال له.. لأنه قد أصبح يملك أدق المعارف والعلوم وأوسعها من دون الاستعانة بكتابة أو قراءة وهذا غاية الكرامة والفضل، ولكن جهلنا نحن بالقرآءة والكتابة يعد نقصا فينا لأننا نحرم والحالة هذه من نيل المعارف ونبقى في دائرة الجهل.
٩ - إن العبارة الأخيرة لهذا البعض تشير إلى أن مصدر معارفه (ص) قبل النبوة هو تأملاته، والألطاف الإلهية عليه في ملكاته الفكرية والروحية.
ومن الواضح أن ذلك لا يكفي في اعتباره (ص) مثقفا، فضلا عن أن يملك المستوى الثقافي العالي على حد تعبير هذا البعض رغم تحفظنا الشديد على مثل هذه التعابير بالنسبة للأنبياء (عليهم السلام) فإن التأمل، والملكات الفكرية والروحية للنبي لا تجعله عالما بما جرى للسابقين، ولا مطلعا على شيء من التفاصيل التاريخية لمن سبقه من الأنبياء، كما أن ذلك لا يجعله ملما بالأحكام والشرائع والحقائق الدينية وغيرها وبالآيات السماوية التي جاءت أو نزلت من قبله..
بل يكون علماء أهل الكتاب والحالة هذه، وكذلك غيرهم أعلم منه في ذلك، لأنهم يملكون ولو مقدارا ضئيلا من تلك المعارف مهما كان مشوبا بغيره من الأباطيل.

١٠ – ولو سلمنا: أن التأملات والملكات الفكرية تجعله عالما، فإن علم الأنبياء يصبح منوطا بمراتبهم المعنوية، فهي التي تؤهلهم لخوارق العادات، حتى مثل الإتيان بعرش بلقيس، بإذن الله.. وما إلى ذلك مع أن النص القرآني يقول: (عنده علم من الكتاب (مما يشير إلى أن هذا العلم الذي حصل عليه من الكتاب، لا من التأمل، هو الذي مكنه من الإتيان بالعرش من اليمن إلى بيت المقدس.

١١ – لا ندري لماذا فقد النبي (صلى الله عليه وآله) هذه المعرفة.. وقد كان حريا بأن يكون عالما بالشيء الكثير من ذلك، ولو من خلال معاشرته لجده عبد المطلب، وعمه أبي طالب، وسواهما من الناس الذين عرفوا شيئا من تواريخ الأنبياء السابقين، وما عرفوه وألموا به من تعاليم الأديان السماوية..

٤٥٠ – قبل البعثة لا تجربة ثقافية للنبي (ص).

٤٥١ – عناوين الشك في شخصية النبي (ص).

يقول البعض:

" عندما ندرس حياة النبي تبدو لنا هذه الحياة بسيطة، ليست فيها أية حالة ثقافية، وإن القرآن كان أمينا في نقل الأفكار المضادة تماما كما هو أمين في نقل الأفكار المناصرة، لقد استطاع القرآن أن يحدثنا بأمانة عن عناوين الشك في شخصية النبي الذي لم يستطع أن يحصل تجربة ثقافية كافية قبل النبوة أو اية معلومات تاريخية يستطيع من خلالها التأثر بما قبله من الأنبياء " (١).

وقفة قصيرة

ونقول إن النبي قد كان نبيا منذ صغره، ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره (٢).

وعلى هذا الأساس، فإنه لولا هذا الوحي الإلهي، وهذا الملك المسدد له، فإنه (ص) لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، قال تعالى: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وذلك هو معنى قوله

---

(١) أسئلة وردود من القلب ص ٦٣.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٩٠ وهي الخطبة القاصعة.

تعالى: (ووجدك ضالا فهدى).
إذن.. فما معنى وجود عناوين للشك في شخصية النبي (ص)، استطاع القرآن أن يحدثنا عنها بأمانة؟!!
وإذا كان الله قد قرن به ملكا يسدده منذ أن كان فطيما، ويسلك به سبيل المكارم، فما معنى عدم حصوله على تجربة ثقافية كافية قبل نبوته؟!!..
٤٥٢ – عتاب يكشف عن الخطأ غير المقصود للتصرف.
٤٥٣ – المصلحة الغالبة كانت في عدم الإذن لهم.
٤٥٤ – النبي يخالف الأولى في التصرف.
٤٥٥ – وسائل النبي في تعامله تخطئ وتصيب كوسائل القضاء.
٤٥٦ – النبي يخطئ في رصد الأشياء الخفية.
٤٥٧ – عدم وضوح وسائل المعرفة توقع النبي في الخطأ.
٤٥٨ – الغيب محجوب عن النبي، إلا فيما يوحى إليه.
٤٥٩ – القرآن يتحدث كثيرا عن مخالفة الأولى للأنبياء.
٤٦٠ – الأنبياء يخالفون الأولى بسبب غموض ظواهر الأشياء.
يقول البعض؛ في تفسير قوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم) (١):
" لأن مثل هذه الكلمة تستعمل في مقام العتاب الخفيف الذي يكشف عن طبيعة الخطأ الغير مقصود (٢) للتصرف، كما أن الحادثة لا تحمل في داخلها أية حالة من حالات الذنب، فالنبي يملك أمر الحرب، فيأذن لمن يشاء بالخروج أو لا يأذن، فليس للمسألة واقع خارج نطاق إرادته، وليست هناك أوامر إلهية في مسألة خروج هؤلاء، وعدم خروجهم، ليكون تصرفه (عليه السلام) مخالفة لها، بل كل ما هناك أن الله أراد أن يضع القضية في نصابها الصحيح من المصلحة الغالبة في ترك الإذن لهم ليفتضح أمرهم ويتبين زيفهم بشكل واضح، فيتعرف المسلمون على حقيقتهم، فيرفضوهم من موقع الحقيقة الداخلية التي تنكشف من خلال تصرفاتهم فالمسألة تدخل في دائرة مخالفة ما هو الأولى في التصرف، وليس في ذلك انتقاص من عصمته وانسجامه مع الخط الذي يريد الله له أن يسير فيه.
فقد ترك الله للنبي (صلى الله عليه وآله) مساحة يملك فيها حرية الحركة من خلال ما يدبر به أمر الأمة بالوسائل العادية المألوفة التي قد تخطئ في بعض

---

(١) قد ذكرنا شطرا من كلام هذا البعض في موضع آخر من هذا الكتاب، فراجع.
(٢) الصحيح: غير المقصود.

مجالاتها، لا بالوسائل الغيبية التي لا يملكها بطريقة ذاتية، لم يكشفها الله له بشكل مطلق، تماما كما هي الحال في ممارسته القضاء بين الناس حيث قال: (إنما أقضي بينكم بالأيمان والبينات) " (١).

معنى خطأ النبي

" وليست هناك مشكلة أن يقع الخطأ، في ما هو الواقع في رصد الأشياء الخفية من خلال غموض الموضوع لعدم وضوح وسائل المعرفة لديه، ما دام الغيب محجوبا عنه، إلا في ما أوحى به الله إليه من أسرار علمه، وهذا ما أراد القرآن تأكيده في أكثر من آية في توضيحه لكثير من حقائق الأمور بعد وقوعها وتحركها في دائرة خلاف الأولى، في ما كان وجه الصلاح غامضا فيه من جهة ظواهر الأشياء، كما في هذه المسألة التي أراد الله أن يوحي من خلالها بالحقيقة إلى نبيه، الذي أذن لهم في عدم الخروج انطلاقا من سمو أخلاقه، وسعة صدره، ومواجهته الحالة بالرفق واللين، من خلال ما حدثنا الله به عن أسلوبه في الحياة، ولكن القوم لم يكونوا بالموقع الذي يستحقون فيه ذلك، وهكذا كان خطابه لنبيه بأسلوب العتاب المحبب " لم أذنت لهم " في ترك الخروج، فقد اعتبروا ذلك حجة لهم أمام المسلمين الآخرين في تأكيد صدقهم في الإيمان، وانسجامهم مع خط الطاعة لله وللرسول " (٢).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن ما ذكره هذا البعض هنا عن خطأ النبي الكريم (صلى الله عليه وآله)، مردود عليه ومنبوذ إليه فإن الخطأ ممنوع على النبي حتى لو لم يكن هناك أمر ونهي إلهي صريح.. ويزيد الإصرار على رفض هذه المقولات أنه قد قرر أن النبي لم يكن يعرف المصلحة والمفسدة فيما أقدم عليه فكانت النتيجة أن أقدم النبي (ص) على ترك الأولى، فتركه للأولى ناشئ والعياذ بالله عن جهله به، إلى آخر ما ذكره..

٢ - إن الكثيرين حين لا يهتدون إلى معرفة الوجه في تعابير الآيات القرآنية في العديد من الموارد التي تتحدث عن بعض مواقف الأنبياء وحركتهم

---

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ج ٧، ص ٤١٤، رواية ١.

(٢) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١١ - ص ١٢٤ و ١٢٥.

وتصرفاتهم، يلجأون إلى القول: بأن هذا التصرف المنسوب للنبي أو الولي هو من قبيل مخالفة الأولى في مقام التصرف، ومخالفة الأولى لا تنافي العصمة..

مع أن هذا الكلام غير سديد، فإن مخالفة الأولى إن كانت ناشئة عن الجهل بوجوه الحسن والقبح، وبما ينبغي أن يكون عليه.. فنحن نجل الأنبياء عن أن يكونوا غير قادرين على التمييز بين الأمور التي لا يحتاج التمييز ومعرفة الراجح منها إلى أكثر من التدبر في جهات الحسن الظاهرة في هذا العمل أو ذاك، والموازنة بينهما..

وإن كان النبي والوصي يدرك رجحان هذا على ذاك، ولكنه يتبع هواه في الأخذ بالمرجوح منهما، فالمصيبة تكون أفدح، وأعظم، والخطب أمر، وأدهى.

وإن كان يأخذ بالمرجوح من دون سبب سوى الاستهتار، وعدم المبالاة.. فإن ذلك أيضا مرفوض في حق الأنبياء، والأولياء، فلا يقبل في حقهم أن يكونوا يرجحون غير الراجح، أو يرفضون الأخذ بما هو أولى بالأخذ، فإن ذلك يكشف عن عدم وجود توازن في شخصية هذا الإنسان المعصوم، وعن أنه يفقد الضوابط والمعايير التي يفيده الالتزام بها ومراعاتها في هذه الحياة..

وما أعظمها من كارثة، وما أخطره من نقص أن يكون الإنسان غير قادر على اختيار الأفضل والأمثل..

ومن يكون هذا حاله كيف يصح أن يختاره الله ليكون الأسوة والقدوة، والمربي، والحافظ.. فقد يتخلى عما هو الأولى في أشد المواقف حساسية، وأعظمها خطرا، كما يذكرونه بالنسبة لآدم (عليه السلام).

وبعبارة أخرى: إن اختياره للمرجوح لا ينسجم مع حكمته، وعقله، ومع توازن شخصيته، كما أن الله سبحانه لا يمكن أن يختاره نبيا، ولا وليا خصوصا إذا كان ثمة من يختار الراجح والأولى ويترك المرجوح، فإن اختيار ذاك على هذا ينافي الحكمة، والتدبير، والرحمة بالبلاد وبالعباد.. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..

ومهما يكن من أمر فإن العلماء إذا غفلوا عن هذا الأمر، وتحدثوا عن إمكانية مخالفة النبي للأولى فإنهم بمجرد أن نلفت نظرهم إلى هذه المحاذير سوف يبادرون إلى التخلي عن قولهم ذاك لصالح القاعدة التي يلتزمون بها.

ولكن هذا البعض بملاحظة هذا الكم الهائل من المقولات قد اتخذ له

منهجا آخر، وتكونت لديه نظرة أخرى للأنبياء وقد جاءت مقولاته هذه منسجمة مع هذه النظرة وذلك المنهج، فلا يصح قياس أمره عليهم وما ذكرناه عنه في هذا الكتاب خير شاهد على ذلك.

٣ - إن قياس هذا البعض سلوك الأنبياء، وتعاملهم مع الناس، ومع الله، ومع أنفسهم، وفي جميع المواقع، على أمر القضاء بين الناس قياس مع الفارق..

فإن الله سبحانه قد شاء أن يعتمد نبيه، ووليه وسائل معينة في القضاء، لأن الاعتماد على الغيب في القضاء وفقا للتحليل التاريخي - حسب مصطلح البعض - من شأنه أن يفسح المجال أمام قضاة السوء، وحكام الجور لأن يدعوا على الناس ما ليس بحق، وتكون حجتهم هي: أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد فعل ذلك، ونحن خلفاؤه، ونجلس في موقعه، ونقوم بمهماته، فإذا كان هو يقتل القاتل، ويقيم الحد على السارق، استنادا إلى علمه، ومن دون حاجة إلى شهود فنحن أيضا نفعل ذلك..

فيأخذون الناس بهذا الأمر، ويقتلون من يشاؤون، وينكلون بالناس حسبما يشتهون، ويستفيدون من هذا الغطاء الشرعي - بحسب ظواهر الأمور - لتأكيد سلطانهم، والقضاء على خصومهم ومعارضيهم، وابتزاز الناس في أموالهم، وأعراضهم وومواقفهم، وما إلى ذلك..

وقد يكون هذا مدخلا للقضاء على كل عناصر الفضل والخير والدين، وإبادة قوى الصدق، والإيمان، والصلاح، والتخلص من كل ما يخافون منه..

٣ - أما بالنسبة لمعنى الآية، فإننا قد بيناه فيما سبق من هذا الكتاب فراجع..

٤٦١ - النبي لا يملك أية مقومات ذاتية كبيرة.

٤٦٢ - النبي لا يملك أية قدرات شخصية مطلقة.

٤٦٣ - الدرس الفكري: أن لا نغرق أنفسنا بالأسرار العميقة التي يحاول البعض إحاطة شخصية النبي بها.

٤٦٤ - يحيطون النبي بالأسرار للإيحاء بأنه يرتفع فوق مستوى البشر.

٤٦٥ - النبي ليس فوق مستوى البشر في إمكاناته الذاتية.

٤٦٦ - النبي ليس فوق مستوى البشر في قدراته الكبيرة.

٤٦٧ - هو فوق البشر بأخلاقه، وخطواته، ومشاريعه المتصلة برسالته.

٤٦٨ - علينا أن نشعر أن النبي قريب منا بصفاته البشرية التي هي أساس التمثل والاتباع، والاقتداء.

٤٦٩ - الأبحاث السائرة في هذا الاتجاه، انحراف عن الخط القرآني في دراسة شخصية النبي.

٤٧٠ - الله قد يطلع النبي على بعض غيبه، مما قد يحتاجه في نبوته من علم المستقبل، أو خفايا الأمور.
٤٧١ - التصور القرآني ينفي فعلية علم النبي للغيب من الناحية الوجودية.
٤٧٢ - النبي ليس مجهزا في تكوينه البشري بالقدرة على علم الغيب.
٤٧٣ - الله يطلع رسله على الغيب بطريقة التعليمات التدريجية.
٤٧٤ - ليس علمه بالغيب منطلقا من قدرة تتحرك بالفعلية، بحيث يعلم بالغيب كلما أراد من خلالها.
يقول البعض:
" (إن اتبع إلا ما يوحى إلي (وهكذا أراده أن يقف بينهم عبدا خاشعا بين يديه، لا يملك أية مقومات ذاتية كبيرة، أو أية قدرات شخصية مطلقة، رسولا أمينا على الدور الذي أوكله الله إليه، فهو ينتظر أمر الله ووحيه في كل صغيرة أو كبيرة ليتبعه، ويبلغه للناس، وربما كان الحديث عن الاتباع موحيا بالصفة المطيعة المتواضعة التي تجسدها شخصيته ليكون في ذلك بعض الإيحاء لهم بالطاعة لله، والاستغراق في دور العبد المطيع الذي يتمثل حركة العبد (النبي)، في شخصية العبد المؤمن، وإذا كان التوجيه الإلهي يفرض على الرسول أن يقدم نفسه إلى الناس بهذه الصفة فقد نجد فيه الدرس الفكري الذي يريدنا أن لا نغرق أنفسنا بالأسرار العميقة التي يحاول البعض أن يحيط بها شخصية النبي، للإيحاء بأنه يرتفع فوق مستوى البشر في إمكاناته الذاتية، وقدراته الكبيرة، بل بصفته الرسالية من حيث أخلاقه، وخطواته، ومشاريعه المتصلة برسالته.
وذلك هو السبيل للتعامل مع شخصية الأنبياء، والأولياء، بالأسلوب القريب إلى الوعي الإنساني العادي، في ما يمكن للإنسان أن يعيشه، ويتصوره ويتمثله في نفسه، ليشعر بأن النبي قريب منه بصفاته البشرية المثلى التي يمكن أن تكون أساسا للتمثل، والاتباع، والاقتداء، وفي ضوء ذلك، نجد في الأبحاث السائرة في هذا الاتجاه انحرافا عن الخط القرآني الذي يرسم للناس في دراستهم لشخصية النبي (ص)، وهنا نقطة، وهي مسألة نفي النبي في حواره مع المشركين علمه بالغيب، فقد جاء في
الميزان، قال: المراد بنفي علم الغيب، نفي أن يكون مجهزا في وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العادة إلى العلم به من خفيات الأمور كائنة ما كانت (١).
وهذا هو التصور القرآني الصحيح الذي يؤكد نفي الفعلية لعلم الغيب من الناحية الوجودية بمعنى أن يكون مجهزا في تكوينه البشري بالقدرة الخاصة لعلم الغيب بحيث يتحرك نحوه - في فعليته - بشكل طبيعي، بل المسألة هي أن الله

----

(١) تفسير الميزان: ج ٧، ص ٩٧.

قد يطلعه على بعض غيبه مما يحتاجه في نبوته من أمور المستقبل، ومن خفايا الأمور كما في قصة عيسى (ع)، (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ((آل عمران: / ٤٩) ونحو ذلك، ولعل هذا هو الذي أشار إليه أمير المؤمنين علي (ع) في إخباره بالمغيبات عن سؤاله: (هل هذا علم بالغيب؟) في تصورهم للمعنى الذاتي من خلال القدرات الخاصة التي يملكها في ذلك.

فأجاب: (وإنما هو تعلم من ذي علم) (١) وهذا هو الذي عبر عنه بعض المفسرين (هو علم الغيب بالعرض) أي تعلم من عالم الغيب.

وخلاصة الفكرة: هي أن الله كان يطلع رسله بطريقة التعليمات التدريجية المحدودة على الغيب كما في قوله تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ((سورة الجن: ٢٦) ولم يكن علم الغيب منطلقا من قدرة تتحرك بالفعلية ليعلم بالغيب كل ما أراد من خلالها بحيث إن الله أعطاه ذلك من خلال القاعدة المنتجة للعلم في نفسه.. والله العالم " (٢).

وقفة قصيرة

إننا نسجل هنا ما يلي:

١ - من أين؟ وكيف علم هذا البعض أن النبي لا يملك مقومات ذاتية كبيرة، أو قدرات مطلقة، أو أن الأنبياء ليسوا فوق مستوى البشر في قدراتهم الذاتية وإمكاناتهم.

فإن ذلك من الأمور التكوينية، ومن الغيبيات التي لا يعرفها إلا الله سبحانه..، وهو يشترط في معرفة الأمور التكوينية والغيبية وغيرها، قيام الدليل القطعي، الموجب لليقين التام، ولا يكفي فيها مطلق ما هو حجة..

٢ - إذا كان النبي (صلى الله عليه وآله) أفضل من البشر، وإذا كان الله سبحانه قد خلقه هو والأئمة قبل خلق الخلق بألفي عام، وجعلهم أنوارا بعرشه محدقين، وإذا كانوا أنوارا في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة.

وإذا كان النبي شاهدا على الخلق يرى أعمالهم الجوارحية، والجوانحية، ويشهد عليهم بها وإذا كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وإذا كانت تنام عيناه، ولا ينام قلبه، ثم ما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) من

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٨.

(٢) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ٩، ص ١١٤ و ١١٥.

أنه قال لعلي (عليه السلام): (يا علي ما عرف الله حق معرفته غيري وغيرك. وما عرفك حق معرفتك غير الله وغيري) (١). وما إلى ذلك، وهو كثير جدا.
فإن النتيجة تكون هي أن هناك أسرارا عميقة تحيط بهم (عليهم السلام) لا ندرك كنهها، ولا ضير في أن نغرق أنفسنا بها، إذا كان الله ورسوله، والأئمة الأطهار (عليهم السلام) هم الذين أخبرونا عنها في محاولة لشد أنظارنا إليها، وإطلاعنا عليها لحكمة هم يعرفونها.
٣ - إن شعورنا بأن النبي (ص) قريب منا بصفاته البشرية، وكون ذلك هو أساس التمثل، والاتباع، والاقتداء صحيح، ولكنه لا يمنع من اعتقادنا أيضا بوجود قدرات، وإمكانات غير عادية لدى هذا النبي (صلى الله عليه وآله) في جهات أخرى من شخصيته، وحياته.
بل قد يسهم وعينا لهذه الحقيقة في الحرص على الاتباع له، والتأسي به.. في الجهات العملية، في دائرة السلوك، والأخلاق، والمواقف الرسالية، والالتزام العقيدي، والإيماني، وغير ذلك..
٤ - إن الخط القرآني في دراسة شخصية النبي يرتفع بهذه الشخصية إلى مراتب لا تبلغها أوهام البشر، حين يأخذ نبيه في رحلة المعراج إلى السماوات العلى، حتى بلغ (عليه الصلاة والسلام) سدرة المنتهى.
وأما الآيات التي يستند إليها هذا البعض في إبعاد الأنبياء عن مواقع الكرامة الإلهية.. فقد فسرها العلماء، وبينوا معانيها.. بطريقة صحيحة، ومنسجمة مع كل المقاييس التي ارتضاها القرآن، وأكدها، والتزم بها الإسلام، وأيدها، وقد يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب بعضا من ذلك.
٥ - وأما أن الله سبحانه قد يطلع نبيه على بعض غيبه، مما قد يحتاجه في نبوته، فهو كلام صحيح.. ولكنه لا يمنع أيضا من أن يطلعه على جميع غيبه، فإن قوله تعالى: (عالم الغيب والشهادة فلا يطلع على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول (لم يحدد فيه مقدار الغيب الذي يطلع الله عليه بعض رسله، بل إن سياق الآية - على غيبه - ظاهر في إمكانية أن يطلع الله بعض رسله على كل غيبه.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٣١٠ والبحار ج ٣٩ ص ٨٤.

فمن أين أتانا هذا البعض بالتخصص بخصوص ما يحتاجه النبي في نبوته؟!، ومن أين جاء بكلمة (بعض) في قوله: (بعض غيبه)؟!.
٦ - وأما أن التصور القرآني ينفي فعلية علم النبي للغيب من الناحية الوجودية، أي أنه ينفي وجود قدرة ذاتية تمكنه من العلم كلما أراد، وساعة يشاء.. فذلك أيضا غير صحيح، فإن التصور القرآني يعطينا إمكانية أن يعلم الله نبيه بجميع غيبه كما ألمحنا إليه آنفا.
ولكنه ينفي أن تكون النبوة من حيث هي نبوة تقتضي علم الغيب بصورة ذاتية..
ولا ينفي إمكانية أن يكون الله قد جهز نبيه بقدرة يستطيع بها الاطلاع على الغيب ساعة يشاء، وفي كل ما يريد.. وقد دلت الأخبار الواردة عن المعصومين (عليهم السلام) على ذلك..
٧ - من أين علم هذا البعض: أن الله يطلع أنبياءه على الغيب بصورة التعليمات التدريجية، فإن هذا يحتاج إلى دليل يقيني، ولا يكفي فيه مطلق الحجة.. كما يقول هذا البعض نفسه.
إذ لعل الله قد أطلع رسوله على غيبه كما هو مفاد الآية، لكي يرفع بهذا العلم مقامه، ويكرمه به. لكنه منعه من إخبار الناس به، فصار ينتظر أمر ربه في إبلاغ كل حدث يريد إبلاغه للناس.
٨ - على أن نفيه وجود قدرة تمكن النبي من علم الغيب يحتاج إلى دليل.. حسبما قرره هذا البعض نفسه، فأين هو دليله القطعي - حسب رأيه - الذي أقامه على هذا النفي؟

الفصل الثاني:
معجزات رسول الله (ص)..
المعراج وشق القمر

٤٧٥ – إنكار معجزة شق القمر للرسول (ص).
٤٧٦ – لا فائدة من إرسال الآيات في هذا الزمان.
٤٧٧ – الحديث المتواتر إذا لم يوثق ببعض رجال سنده يتحول إلى خبر واحد.
٤٧٨ – لا يوجد أساس يقيني للالتزام بروايات شق القمر.
٤٧٩ – وقوع شق القمر مخالف للظواهر القرآنية.

يقول البعض:

".. كيف نفهم انشقاق القمر من الآية؟

أما انشقاق القمر فقد، جاءت الروايات لتؤكد أن معناه يعبر عن آية كونية، في نطاق المعجزة المقترحة من قبل المشركين على النبي (ص) لإثبات نبوته، وقيل: إن أهل الحديث، والمفسرين اتفقوا على قبولها، ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا إن معنى قوله: (وانشق القمر) سينشق القمر عند قيام الساعة، وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع.

أما تعليقنا على ذلك، فهي أن المسألة لا بد أن تناقش من نقطتين:

النقطة الأولى: من زاوية الاستغراق في مضمون النصوص في ذاتها من حيث إمكانها ومعقوليتها، وفي سند النصوص من حيث وثاقتها وصحتها.

النقطة الثانية: من زاوية المقارنة بين هذه النصوص المفسرة للقرآن بذلك، وبين المفاهيم القرآنية العامة في مسألة المعجزة الحسية الكونية وغير الكونية، الخارقة للعادة، سواء كانت مقترحة أو غير مقترحة، على أساس القاعدة القائلة بأن علينا عرض الأحاديث على ما جاء به القرآن من حقائق بمقتضى الظهور الواضح، لأن ما خالف كتاب الله فهو باطل أو زخرف.

أما النقطة الأولى: فقد تحتاج إلى عرض بعض هذه الروايات كنموذج للمجموع، ففي

رواية أنس بن مالك، قال الإمام احمد: حدثنا معمر، عن قتادة عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي (ص) آية، فانشق القمر بمكة مرتين فقال: اقتربت الساعة وانشق القمر.

ومن رواية جبير بن مطعم، قال الإمام احمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله (ص) فصار فلقتين، فلقة على هذا الجبل وفلقة على هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

وفي أمالي الشيخ - أبي جعفر محمد بي الحسن الطوسي، بإسناده عن عبيد بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي - عليهم السلام - قال: انشق القمر، بمكة فلقتين فقال رسول الله (ص): اشهدوا اشهدوا. وقد ذكر في الميزان أن علماء الشيعة ومحدثيهم تسلموا الخبر بانشقاق القمر لرسول الله (ص) من غير توقف. ونقل في روح المعاني عن السيد الشريف في شرح المواقف وعن ابن السبكي في شرح المختصر أن الحديث متواتر لا يمترى في تواتره.

ولكننا لا نستطيع إحراز التواتر من خلال هذه الأخبار التي لم يكن رواة بعضها موجودين في زمن الانشقاق المفروض ليكونوا شهودا عليه، مما يعني أنهم نقلوه عن أشخاص آخرين لا نعرف وثاقتهم، الأمر الذي قد يجعل منها أخبار آحاد لا تثبت بها مثل هذه الأمور كما قرر في علم الأصول.. وقد يكون التسالم على قبولها ناشئا من الاجتهاد التفسيري في معنى الآية على أساس أن الآية الثانية تفسر ذلك فيكون الاعتماد على القرآن في توثيق المضمون الخبري لا على طبيعة الخبر.

فإذا تجاوزنا ذلك، إلى موضوع الإمكان، فلا بد أن نسلم بأنه من الأمور الممكنة في ذاتها، وقد حدثنا القرآن عن انشقاق السماء ونحو ذلك من الحوادث التي تتصل بتبدل الظواهر الكونية وتغيرها عما هي عليه، فإذا صح الخبر فيها ثبت وقوعها.

أما النقطة الثانية، فقد أثير حولها الإشكال من جهة الآيات الكثيرة التي تنفي صدور الآيات المعجزة لا سيما المقترحة من قبل الناس كما في قوله تعالى: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) (١) فإن مفاد الآية يوضح بأن الإرسال بالآيات لا يحقق أية نتيجة في دائرة الإيمان، لأن السابقين الذين أرسلت الآيات إليهم لم يتجاوبوا معها، ولم ينتفعوا

----

(١) سورة الإسراء الآية ٩٥

بها، بالرغم من كل ما تثيره في نتائجها من تهاويل الخوف باعتبار أن نزول الآية التي لا يعقبها الإيمان يؤدي إلى نزول العذاب. ويتأكد الإشكال في الآيات المقترحة التي أراد الله من رسوله أن يعرفهم امتناع استجابة الله لهم في طلبهم إياها، وهو القادر على ذلك لأنه المهيمن على الكون كله، فيما يريد أن يخلقه من ظواهر غير موجودة، أو فيما يريد أن يغيره من حال إلى حال في الظواهر الموجودة، فان الأمر خاضع لحكمته لا لاقتراحهم.. أما النبي الذي تقدم إليه تلك الطلبات فليس قادرا على ذلك، لأن بشريته تمنعه من قدرته على ذلك كما أن صفة الرسالة لا تجعل له دورا في تغيير الظواهر من حوله.

ولعل هذا الجو هو الذي يتمثل للإنسان القارئ للقرآن في ملاحقته لخطوات الرسالة أمام التحديات الموجهة إليها من المشركين.. وفي ضوء ذلك قد نلاحظ اختلاف هذا التفسير مع المفاهيم القرآنية العامة فيكون الحديث المتضمن لها حديثا مخالفا للظواهر القرآنية.

وقد أجاب هؤلاء المفسرون للآية بما ذكر، بأن الآية التالية لها تؤكد بأن المقصود من انشقاق القمر، هو ما حدث على يد الرسول (ص) في مكة فيما رواه المفسرون، وذلك لأن الظاهر من قوله تعالى: (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أنها آية واقعة قريبة من زمان النزول، أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا: سحر مبين.

وقد يورد عليهم بأن الآية الثانية لا تدل على أنها من توابع الفكرة التي تثيرها الآية الأولى.. بل ربما كانت الأولى عنوانا للأجواء التي توحي بيوم القيامة، فيما يراد إثارته من تذكير هؤلاء المشركين وغيرهم به، لتنطلق الآيات بعدها لتتحدث عن سلوكهم المنحرف عن الرسالة الذي يعرضهم للنتائج الصعبة على مستوى العذاب في نار جهنم.. وبذلك يكون الحديث عن ردهم الآيات بأنها سحر مستمر مماثلا لكل الآيات التي تتحدث عن تهمة النبي (ص) بأنه ساحر من دون أن تكون مرتبطة بحادثة معينة.. وقد نلاحظ، في هذا المجال، ضرورة التدقيق في كلمة (مستمر) التي تعني انطلاق التهمة قبل الآية لتكون مستمرة بعدها.. مما قد يتنافى مع انطلاق تهمة السحر من خلالها.

وقد أجاب بعض المفسرين عن استلزام نزول الآية للعذاب بعدها في حالة الكفر، بأن ذلك لا يشمل كل الناس الموجودين آنذاك، بل الجماعات المقترحة لها المكذبة بنتائجها، وقد أهلك الله هؤلاء وهم صناديد مكة ".

إلى أن قال:

علامات استفهام حول معجزة انشقاق القمر

" ويتساءل الرافضون لهذا التفسير، إن القمر لو انشق كما يقال، لرآه جميع الناس ولضبطه أهل الأرصاد في الشرق والغرب لكونه من أعجب الآيات السماوية، ولم يعهد فيما بلغ إلينا من التاريخ والكتب الباحثة عن الأوضاع السماوية له نظير، والدواعي متوفرة على استماعه ونقله.

وأجيب بما حاصله، أن من الممكن أولا: أن يغفل عنه فلا دليل على كون كل حادث أرضي أو سماوي معلوما للناس محفوظا عندهم يرثه خلف عن سلف. وثانيا: أن الحجاز وما حولها من البلاد العربية لم يكن بها مرصد للأوضاع السماوية، وإنما كان ما كان من المراصد بالهند والمغرب من الروم واليونان وغيرهما، ولم يثبت وجود مرصد في هذا الوقت - وهو على ما في بعض الروايات أول الليلة الرابعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة.

على أن بلاد الغرب كانت تختلف بالأفق مع مكة مما يوجب فصلا زمانيا معتدا به وقد كان القمر، على ما في بعض الروايات، بدرا وانشق في حوالي غروب الشمس حين طلوعه، ولم يبق على الانشقاق إلا زمانا يسيرا ثم التأم فيقع طلوعه على بلاد الغرب وهو ملتئم ثانيا.

وقد يجاب عن هذا بأن من الممكن التسليم بالفكرة التي يثيرها الجواب الثاني.. أما بالنسبة إلى الجواب الأول فليس هناك مجال للتسليم به.. لأن مسألة انشقاق القمر بالطريقة التي تثيرها الروايات تمثل حادثا خطيرا لم يعهده الناس في حياتهم، مما يجعل إمكان غفلة البعض عنه لا تبرر غفلة الأكثر لا سيما في تلك المناطق التي يلتقي فيها الناس بالقمر في مراقبة دائمة له باعتباره مصدر الضوء البارز في لياليهم التي لا يملكون فيها إلا الطرق البدائية في مصادر النور.. ولذلك فإن هذا الحدث لو كان لذاع وشاع وملأ الأسماع، كما يقولون، ولاستمر الحديث عنه مدة طويلة.. ولكان يوما تاريخيا يخلده الناس فيما يؤقتون به الأمور على طريقتهم المعروفة في حساب التاريخ بالأيام التي تحمل حدثا كبيرا لا يختلف الناس فيه لضخامة الأثر الذي يتركه في حياتهم.

وفي ضوء ذلك كله، فإننا نتحفظ في المسألة لأننا لا نجد أساسا يقينيا للالتزام بهذه الروايات، كما لا نجد ظهورا قرآنيا في تحديد الموضوع بزمان الرسالة. " (١).

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٢١ ص ٣٢٣ - ٣٣١.

وقفة قصيرة

١ - إن هذا البعض يقول: إن أخبار وقوع انشقاق القمر في عهد رسول الله (ص) متواترة: ونقل لنا عن كتاب " الميزان ": أن علماء الشيعة ومحدثيهم قد تسلموا الخبر بانشقاق القمر لرسول الله (ص) من غير توقف.

ثم إن هذا البعض قد ناقش في تواتر هذه الأخبار بأن بعض رواتها لم يكونوا موجودين في زمن الانشقاق، مما يعني أنهم نقلوها عن أشخاص آخرين، لا نعرف وثاقتهم، فتكون أخبار آحاد، ولا تثبت هذه الأمور بخبر الواحد.

ونقول:

أ - لا ندري كيف يصبح الحديث المتواتر من أخبار الآحاد، إذا لم تثبت وثاقة بعض رواته؟! فهل يعتبر في الخبر المتواتر وثاقة رواته؟! وهل يعتبر أن يكون جميع الرواة معروفين لدينا أو موجودين في زمن الحادثة؟! حسبما يشير إليه قوله: (لم يكن رواة بعضها موجودين في زمن الانشقاق المفروض، ليكونوا شهودا عليه؛ مما يعني أنهم نقلوه عن أشخاص آخرين، لا نعرف وثاقتهم الأمر الذي قد يجعل منها أخبار آحاد).

وإذا كان رواة بعضها غير موجودين حين حصول الحدث، فإن رواة الباقي المتواتر نقله كانوا موجودين آنئذ.

ومن أين له أن من شروط التواتر هو وثاقة الرواة؟ وأين قرأ ذلك وما الذي دله على هذا فأنكر ما يثبت به؟

ب - إن هذا الأمر، أعني انشقاق القمر، ليس من أصول العقائد، التي يتوقف عليها الإسلام والإيمان، ليحتاج ثبوته إلى القطع واليقين، وإنما هو حدث تاريخي خارق للعادة له مساس بالعقيدة، يثبت بما هو حجة شرعية كأي حدث حصل في التاريخ خارق للعادة ينقل لنا عن النبي (ص) قولا أو فعلا، أو كرامة إلهية له (ص).. فإن مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى أكثر من ذلك لا سيما عند هذا الرجل الذي لا ينفك يدعي أنه يلتزم بحجية خبر الواحد من باب طريق العقلاء.

نعم، لو كان ذلك من المعجزات التي يتوقف على إثباتها إثبات نبوة النبي مثلا احتاج ذلك إلى الثبوت القطعي.

وهذا من الأمور البديهية والواضحة لدى العلماء.
٢ - إن هذا البعض قد قبل بالمناقشة التي تقول؛ (لو كان الانشقاق قد وقع لكان اللازم نزول العذاب، لأن هذه معجزة اقترحها المشركون، وقد استجاب الله لاقتراحهم حسب الفرض، فحيث لم يؤمنوا فإن اللازم هو نزول عذاب الاستئصال عليهم، كما هو الحال في الموارد المشابهة).
ونقول:
أ - قال الله سبحانه: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون) (١).
فهذه الآية تعطينا أن الله لم يكن لينزل عليهم العذاب ونبي الله الأكرم (ص) موجود فيما بينهم.
ب - إن هذا البعض نفسه قد ذكر ثلاث روايات عن وقوع حادثة شق القمر، ويلاحظ أن اثنتين منها لم تذكرا أن أهل مكة قد اقترحوا على الرسول ذلك، فإذا طرحنا الرواية الثالثة، لأجل ضعف سندها، ولم نحمل المطلق على المقيد، لأجل ذلك، فإن ذلك لا يحتم علينا رفض الروايات المطلقة التي تنسجم مع الظهور القرآني، إذ لعلها كرامة أكرم الله بها نبيه ابتداء منه تعالى بهدف إقامة الحجة على المشركين تماما كما هو الحال في تسبيح الحصى في يديه، وسجود الشجر له، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكليم الحيوانات له (ص)، وغير ذلك.
ج - ولنفترض أننا حملنا مطلق الروايات على المقيد منها، وقلنا إن انشقاق القمر قد حصل باقتراح منهم فكما أنه لا يجب على النبي (ص) قبول كل اقتراح فلا يجب أيضا أن يرد كل اقتراح.
و مع هذا فليس كل آية مقترحة توجب نزول العذاب، بل ما يوجب ذلك هو ما يكون اقتراحا يمثل التحدي له من قبل عامة الناس، بحيث يكون

----
(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ - ٣٣ - ٣٤.

عدم ظهور الآية دليلا لهم على كذب النبي في مدعاه - والعياذ بالله - ويتم حسم القضية بهذه الطريقة من الأساس.
أما إذا كان اقتراحا من أفراد لا بعنوان التحدي العام له، ولرسالته، فلا يجب أن ينزل العذاب بسبب ذلك.
وكذا لو كان هذا التحدي ليس حاسما كما ذكرنا.
ولم يظهر أن القضية في موضوع شق القمر كانت مستجمعة لهذين الشرطين.
٣ - وأما استدلاله على أن العذاب لابد أن ينزل بعد الآية المقترحة بآية (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) (١).
فهو استدلال باطل، وذلك لما يلي:
أ - إن ما ذكرناه آنفا كاف في إبطال هذا الإستدلال.
ب - إن قوله تعالى: (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) يدل على أن باب إرسال الآيات لم يغلق، وإنما هو مفتوح حين يريد الله تعالى تخويفهم بإظهار قدرته وهيمنته.
ج - إن قوله في تفسير هذه الآية: إن إرسال الآيات لا فائدة فيه.. لو صح: لاقتضى أن لا يكون سبحانه قد أرسل الآيات في السابق أيضا، فإنه إذا كانت الآيات بلا فائدة ولا تحقق نتيجة، فكيف يفعل الله سبحانه أمرا لا فائدة فيه، وإن كانت مفيدة في السابق فما الذي منع من فائدتها الآن.
٤ - وبعدما ذكرنا يظهر بطلان قوله عن عدم وقوع انشقاق القمر حسبما تقدم نقله من كتابه:
" وفي ضوء ذلك قد نلاحظ اختلاف هذا التفسير مع المفاهيم القرآنية العامة، فيكون الحديث المتضمن لها حديثا مخالفا للظواهر القرآنية ".
وكيف انفرد في فهم هذه المخالفة مع أن علماءنا جميعا تسلموا هذه

---

(١) سورة الاسراء / ٥٩.

الاخبار بلا توقف، فيدور الامر بين الطعن فيما فهموه جميعا بلا توقف هذا من جهة، أو الطعن في صحة فهمه هو من جهة أخرى، والأمر موكول إلى القارئ المنصف لا سيما بعد ظهور عدم صحة ما استند اليه في فهم هذا وهو لزوم نزول العذاب في المعجزات المقترحة.

٥ - قال فيما تقدم:

" وقد نلاحظ في هذا المجال ضرورة التدقيق في كلمة مستمر، التي تعني انطلاق التهمة قبل الآية لتكون مستمرة بعدها، مما قد يتنافى مع انطلاق تهمة السحر من خلالها ".

وقد اعتبر ذلك مؤيدا لمقولة أن يكون المراد بالآية الأولى التذكير بالأجواء التي توحي بيوم القيامة. ويكون قوله تعالى:

(وإن يروا آية يعرضوا..) الخ.. من قبيل قولهم عنه إنه ساحر دون أن تكون مرتبطة بحادثة معينة.

ونقول:

أ - إن التدقيق في كلمة مستمر لا يجديه نفعا، لأن مقصودهم بها أن هذا الذي يرونه من انشقاق القمر ما هو بزعمهم إلا استمرار لممارساته السحرية التي رأوا العديد من مفرداتها، فهذه الحادثة قد جعلتهم يجددون اتهامهم إياه بهذه التهمة الباطلة. وتكون تهمة السحر له قد انطلقت من هذه الحادثة بالذات، ولكنها تهمة لاحظ من أطلقها مجموعة أحداث أراد أن يبرر بها عودته لإطلاق هذا الاتهام بالذات.

ب - إن من الواضح أن اعتبار الآيات في سياق واحد أولى من فصلها عن بعضها البعض، لا سيما إذا جاءت الرواية لتؤكد وحدة هذا السياق، وترابط الآيات بعضها مع بعض.

فالإصرار على تجاهل الرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام وعن غيرهم الصالحة للقرينية على وجود هذا الارتباط السياقي أمر لا مبرر له على الاطلاق.

٦ - قد دافع عن القول: بأن غفلة الناس عن هذا الأمر الخطير، وهو انشقاق القمر، تدل على عدم حصوله.

ونقول في دفاعه هذا:
إن ما ذكره من دلائل وشواهد لا يصلح لذلك، وذلك لما يلي:
أ - إن هذا الانشقاق قد حصل في نصف الكرة الأرضية حيث يوجد الليل دون النصف الآخر حيث يوجد النهار.
ب - في هذا النصف قد لا يلتفت أكثر الناس إلى ما يحصل في الأجرام السماوية، إذا كان ذلك بعد نصف الليل، حيث الكل نائمون.
ج - لربما يكون في بعض المناطق سحاب يمنع من رؤية القمر.
د - إن الحوادث السماوية إنما تلفت النظر إذا كانت مصحوبة بصوت كالرعد، أو بأثر غير عادي كقلة نور الشمس في الكسوف، إذا كان لمدة طويلة نسبيا.
ه - هذا كله عدا عن أن السابقين لم يكن لهم اهتمام كبير بالسماء وما يحدث لأجرامها.
و - لم يكن ثمة وسائل إعلام تنقل الخبر من أقصى الأرض إلى أقصاها بسرعة مذهلة لتتوجه الأنظار لما يحدث.
ز - إن التاريخ الموجود بين أيدينا ناقص جدا، فكم كان في تلك المئات والآلاف من السنين الخالية من كوارث، وزلازل، وسيول عظيمة، أهلكت طوائف وأمما، وليس لها مع ذلك في التاريخ أثر يذكر، بل إن زرا دشت - وقد ظهر في دولة عظيمة وله أثر كبير على الشعوب على مدى التاريخ - لا يعرف أين ولد وأين مات ودفن، بل يشك البعض في كونه شخصية حقيقية أو وهمية.
٧ - وبعد ما تقدم نقول: إنه لا يجب أن يعرف جميع الناس بانشقاق القمر، ولا أن يضبطه التاريخ بشكل دقيق. بل اللازم هو معرفته من قبل من ظهرت هذه المعجزة عنده من أجل إقناعه.
٨ - إن إنكاره لمضامين الأحاديث التي أجمع عليها المسلمون سوى من استثناهم هذا البعض - وهم فقط ثلاثة أشخاص: الحسن البصري، وعطاء، والبلخي - إن إنكاره له - استنادا إلى هذه الاستبعادات، الاستنسابية مع وجود هذه المعطيات التي قدمناها ليس له ما يبرره.

٩ – قول هذا البعض: (إن الأرصاد لم تسجل هذا الأمر ولا أشارت اليه..) لا يفيد شيئا، لأن هذا الأمر لا حاجة فيه إلى أرصاده، لأن الأرصاد كانت موجودة عند غير العرب، وكانت من القلة بمكان.. وليس ثمة ما يشير إلى أن القائمين عليها كانوا في تلك الساعة في حالة رصد للسماء ولما يجري فيها.

١٠ – إن من الواضح أن إنكار شق القمر سوف يقطع الطريق على الخوض في أمر رد الشمس إلى علي عليه السلام الثابت هو الآخر بالرواية الصحيحة سندا عند السنة فضلا عن الشيعة، فإن الاستنسابات والاستحسانات، التي أريد لها أن تنفي حادثة شق القمر تصلح لنفي حادثة رد الشمس لأمير المؤمنين أيضا.. وربما نجد في كلام هذا البعض ما يشير بخصوصه إلى هذا الإنكار أيضا. ولكننا لا نثير ذلك هنا، لأننا أخذنا على عاتقنا الاقتصار في أقاويله على ما هو مكتوب ومطبوع.

٤٨٠ – الكثير من الخيال في خصوصيات الرواية المتواترة.

٤٨١ – في الروايات ما لا يستطيع الباحث تفسيره بطريقة معقولة فهو من الخيال.

٤٨٢ – الزمن لا يسمح بتغطية جميع الحوادث المذكورة في الإسراء والمعراج.

٤٨٣ – المسألة الإعجازية تبقى في دائرة القدرة البشرية المحدودة للنبي (ص).

٤٨٤ – قدرات النبي (ص) تخضع لعامل الزمان والمكان.

٤٨٥ – إذا كان الإسراء بالجسد فهو يخضع للقدرات البشرية.

٤٨٦ – إذا كان الإسراء بالجسد ففي الروايات خيال وإلا فلا خيال.

ويقول البعض:

" قصة الإسراء

وقد أجملت الآية الأولى من هذه السورة مسألة الإسراء ولم تفصل شيئا من حوادثها.. ولكن الروايات المتواترة أفاضت في الحديث عن ذلك، ربما كان في الكثير مما ذكر في خصوصياتها الكثير من الخيال فيما نلاحظه من بعض القضايا التي قد لا يستطيع الباحث تفسيرها بطريقة معقولة. لا سيما فيما أفاض فيه المحدثون عن قصة المعراج، الذي يذكرون انه كان في ليلة الإسراء في الوقت الذي لا يسمح مثل هذا الزمن القصير في تغطية ذلك كله لأن المسألة إذا كانت تحمل الإعجاز في طبيعتها فإنها تبقى في دائرة القدرة المحدودة للنبي في خصوصيات بشريته التي تخضع لعامل الزمان والمكان في حركته الزمانية والمكانية، إذا كان الإسراء بالجسد كما هو المعروف فيما بينهم " (١).

----

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٤ ص ٦.

وقفة قصيرة

١ - لا ندري كيف يحكم هذا البعض على مضمون رواية متواترة أن في الكثير من خصوصياتها الكثير من الخيال؛ ثم يجعل ذلك ذريعة لردها خصوصا قصة المعراج. فإن تواتر الرواية يعني قطعية صدورها عن المعصوم، فإذا كانت خصوصياتها متواترة أيضا فإن تلك الخصوصيات تثبت أيضا. بل إنها حتى لو لم تكن متواترة فإن ذلك لا يبرر له وصف تلك الخصوصيات بأنها خيال، كما سيأتي لأن ثبوتها بما هو حجة بخبر الواحد مثلا يكفي في لزوم التسليم بها والأخذ بمضمونها. فهل هذا الخيال هو خيال المعصوم؟!. أم هو خيالنا نحن في فهم وتقييم كلامه (ع)، وما بينه لنا من حقائق !؟

٢ - إن عدم قدرة البعض على تفسير أو استيعاب بعض القضايا لا يبرر له اعتبارها أمورا خيالية، بل عليه أن يترك المجال لمن يملك القدرة على فهم هذه القضايا من خلال ما يعرفه من ضوابط ومعايير إيمانية وعلمية قادرة على وضع الأمور في نصابها الصحيح.

٣ - إن ما أفاض فيه المحدثون من تفاصيل في قضية المعراج، إنما هو من الأمور التوقيفية الممكنة التي يفترض أن يأخذوها من المعصوم المطلع على هذه الأمور التي لا يدركونها بعقولهم، ما دام انها ترتبط بعالم الغيب.

٤ - إن الظاهر هو أن هذا البعض لم يستطع تفسير ما يذكر من تفاصيل في قضية الإسراء، فضلا عن قضية المعراج فلجأ إلى الاستبعاد والانكار.

٥ - انه إذا كان الإنسان يرى في منامه أحداثا تفصيلية تحتاج إلى مساحة زمنية واسعة - نعم يراها - في زمن قصير للغاية. فلماذا لا تختصر القدرة الإلهية الزمان الحقيقي في نطاق تجسيد الحدث الزماني للأجسام التي تحتاج إلى الزمان والمكان. فإن سيطرة القدرة الإلهية على الحركة في المادة الزمانية مما لا يصح إنكاره..؟

بل إننا نجد هذا الإنسان قد تغلب على كثير من المصاعب، واختصر المسافات إلى درجة كبيرة ومذهلة، فكيف بخالق هذا الوجود كله، الذي جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم (ع) ومكن آصف بن برخيا وصي النبي سليمان عليه السلام الذي عنده علم من الكتاب أن يأتي بعرش بلقيس، وما إلى ذلك.

وليكن الشاهد الحي على إمكانية الاسراء والمعراج، هو حدوث نظائر كثيرة له حين تتدخل القدرة الإلهية.
ومن ذلك طي الأرض للإمام علي عليه السلام، حينما جاء من المدينة في الحجاز إلى المدائن قرب بغداد في العراق، ليتولى تجهيز سلمان الفارسي ودفنه.. (١).
وكذا طي الأرض للإمام الجواد عليه السلام حيث ذهب من المدينة في الحجاز إلى خراسان ليتولى مراسم تجهيز ودفن أبيه الإمام الرضا عليه السلام.
وكذلك الحال بالنسبة للإمام السجاد حينما ذهب من الكوفة إلى كربلاء لدفن الأجساد الطاهرة حيث عاونته قبيلة بني أسد على ذلك.
وليكن من ذلك أيضا انتقال عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين، قبل ارتداد الطرف مع أن هذا العرش زماني ومكاني.
وليكن من ذلك أيضا، قصة التقام الحوت ليونس، وبقائه في بطنه برهة من الزمان، (ولولا أن كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون).
٦ - إذا كانت القضية ترتبط بالإعجاز الإلهي فلماذا يجب أن تبقى في حدود القدرة البشرية المحدودة للنبي (ص)، فإن بقاءها كذلك يتنافى مع كونها معجزة إلهية.
ومن الذي قال: إن بشرية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تحدد قدرته إلى درجة يمتنع معها حصول مثل هذه الأمور له (ص)، حتى لو كان الإسراء بالجسد؟!.
وهل يريد أن يقنعنا أن القول بصحة هذه التفاصيل يلازم القول بأن الإسراء كان بالروح، كما قالت عائشة وغيرها من بني أمية؟!!
وهل يريد أن يقنعنا بعدم قدرة البشر على فعل الخوارق مع أن عليا (ع) قال عن عيسى (ع) فيما يرتبط بمشيه على الماء: لو ازداد يقينا لمشى في الهواء، فهل كان مشيه على الماء بروحه أم بالروح والجسد؟!.

----

(١) ومناقشة البعض في هذا الأمر لا أهمية لها، لأنها تدخل في سياق نظرته العامة لمثل هذه الأمور إلى حد ادعى معه لزوم تحصيل التواتر القطعي في هذه الأمور وأمثالها.

الفصل الثالث:
إهانات لا تتحمل لرسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم)

بداية

إننا نورد في هذا الفصل فقرات من مقولات سجلها البعض حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سيتضح للقارئ العزيز: أن كثيرا منها يمكن أن تدخل في عدد من الفصول الأخرى أيضا.. ولكننا لم نحاول الإشارة إلى ذلك في تلك الموارد لأننا نعلم: أن القارئ الكريم يدرك أن ما يقوله هذا البعض عن نبينا (ص) لا يمكن استثناء سائر الأنبياء منه، فإن ما يجوز على أكرم الخلق وأفضلهم لابد أن يكون جائزا على من عداه من أنبياء الله، الذين لم يدركوا مقامه، ولم يصلوا إلى درجته.

كما أن القارئ الكريم قادر على الربط بين الأمور، والاستفادة من المقولة الواحدة في المواقع المختلفة التي تناسبها.

وعليه فإننا نقدم للقارئ الكريم الأمور التالية:

٤٨٧ - لا تفعلوا مثل فعل النبي (ص).

٤٨٨ - لا تكن منطلقاتكم منطلقات النبي محمد (ص).

٤٨٩ - النبي (ص) لا يعرف المهم من الأهم.

٤٩٠ - النبي (ص) يقوم بتجربة غير ذات موضوع.

٤٩١ - الله يربي رسوله تدريجيا بعد الوقوع في الخطأ.

٤٩٢ - النبي (ص) يحتاج إلى تكامل الوحي، وسعة الأفق، وعمق النظر للأمور.

٤٩٣ - النبي (ص) يستغرق فيما فيه مضيعة للوقت.

٤٩٤ - النبي يفوت الفرص المهمة.

٤٩٥ - النبي (ص) يخطئ في التشخيص.

٤٩٦ - النبي (ص) لا يعرف مسؤوليته المباشرة.

ويقول البعض، إن آيات عبس وتولى قد نزلت في النبي محمد (ص)، وكلماته حول هذا الأمر كثيرة، ونحن نختار منها ما يلي:

يقول البعض:
" لكن الله أراد أن يبين طبيعة المسألة، وأن يخاطب الآخرين: إذا ابتليتم بمثل هذه القضية طبعا لا تكن منطلقاتكم منطلقات النبي (ص)، فلا تفعلوا مثل ذلك " (١).
يقول هذا مع أن الله سبحانه يقول: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (٢)، ويقول:
".. (أما من استغنى، فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى)، للإيحاء له بأن عدم حصوله على التزكية، بعد إقامة الحجة عليه من قبلك مدة طويلة، لا يمثل مشكلة بالنسبة إليك، لأنك لم تقصر في تقديم الفرص الفكرية بما قدمته من أساليب الإقناع، مما جعل من التجربة الجديدة تجربة غير ذات موضوع لأنه – يعني ذلك الغني – يرفض الهداية من خلال ما يظهر من سلوكه، الأمر الذي يجعل من الاستغراق في ذلك مضيعة للوقت، وتفويتا لفرصة مهمة أخرى، وهي تنمية معرفة هذا المؤمن الداعية الذي يمكن أن يتحول إلى عنصر مؤثر في الدعوة الإسلامية " (٣).
وذكر في موضع آخر كيف أن النبي قد أخطأ في تشخيص ما ينبغي عليه، فهو يقول:
" (فأنت عنه تلهى) لأنك تحسب أن إيمان هؤلاء الصناديد قد ينفع الإسلام أكثر من نمو إيمان هذا الأعمى الذي يمكن أن يؤجل السؤال لوقت آخر، ولكن المسألة ليست كذلك.. لأن هذا الأعمى وأمثاله، يمثلون مسؤوليتك المباشرة كرسول يعمل على تنمية خط الدعوة بتنمية الدعاة حوله، من أجل أن يؤثروا عليك في بعض الجهد، أو يوسعوا ساحة الدعوة في مواقع جديدة.
وهذا هو ما يريد الله أن يفتح قلبك عليه فيما يريد لك من تكامل الوعي، وسعة الأفق، وعمق النظرة للأمور.
ولا مانع من أن يربي الله رسوله تدريجيا، ويثبت قلبه بطريقة متحركة الخ.. " (٤).
ويقول عن ابن أم مكتوم:
" فأراد أن ينتهز فرصة وجود النبي مع المسلمين أن يأخذ من علمه فيما أنزله الله

---

(١) الموسم العددان ٢١ – ٢٢ ص ٢٩٥ وراجع ص ٨٦.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.
(٣) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٢٤ ص ٦٧.
(٤) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٢٤ ص ٧٦.

عليه من كتاب، وما ألهمه من علم الشريعة والمنهج والحياة.. ولكن النبي لم يستجب له لأن هناك حالة مهمة يعالجها في دوره الرسالي المسؤول في محاولة لتزكية هؤلاء الكفار من وجهاء المشركين، طمعا في أن يسلموا ليتسع الإسلام في اتباع جماعتهم لهم، لأنهم يقفون كحاجز بين الناس وبين الدعوة، ولذلك أجل النبي (ص) الحديث مع هذا الأعمى إلى وقت آخر، فيما كانت الفرص الكثيرة تتسع للقاء به أكثر من مرة فتكون له الحرية في إغناء معلوماته بما يجب في جو هادئ ملائم، بينما لا تحصل فرصة اللقاء بهؤلاء دائما، فكانت المسألة دائرة، - في وعيه الرسالي - بين المهم، في دور هذا الأعمى، وبين الأهم، في دور هؤلاء الصناديد.

ولكن الله يوجه المسألة إلى ما هو الأعمق في قضية الأهمية في مصلحة الرسالة، باعتبار أن هذا الأعمى قد يتحول إلى داعية إسلامي كبير، (وما يدريك لعله يزكى) فيما يمكن أن يستلهمه من آيات القرآن التي يسمعها، مما يغني له روحه، فتصفو أفكاره، وترق مشاعره، وتتسع آفاقه " (١).

وقفة قصيرة

ونقول: إن آيات سورة عبس هي التالية: (عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى) (٢).

ونحن نشير هنا إلى ما يلي:

١ - إن الذي يلاحظ الآيات الشريفة لا يجد فيها أي شيء يدل على أن المقصود بها هو شخص رسول الله (ص) بل فيها ما يدل على أنها لا تليق به (ص)، فلماذا الإصرار على ذلك؟ من قبل البعض، وبشكل لا يقول به حتى من يدعي نزولها في النبي (ص) من العامة.

٢ - إن قوله تعالى: (وما يدريك) ليس خطابا لرسول الله، وإنما هو التفات من الغيبة إلى الخطاب، مع العابس نفسه.

٣ - إن قوله تعالى: (فأنت له تصدى) لا يدل على أنه كان يتصدى له

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ٢٤ ص ٧٣.

(٢) سورة عبس الآيات ١ - ١٠.

لأجل الدين، فلعله كان يتصدى للأغنياء لأهداف دنيوية، ولعل ذلك العابس يتظاهر بأنه مهتم بنشر هذا الدين، وقد جاء مع أولئك الأغنياء مظهرا حرصه على إيمانهم، فكان يتلهى بالحديث معهم، مظهرا الضيق والإشمئزاز من ذلك الفقير.

٤ - وقوله تعالى: (وما يدريك لعله يزكى) ليس فيه أن الغني سوف يزكى على يد ذلك العابس، فلعله يتزكى على يد شخص آخر غيره، ممن هم في ذلك المجلس، كالنبي (ص)..

٥ - إن الآيات تشعر - إن لم نقل تدل - أنه قد كان من عادة العابس أن يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء، ولم يكن ذلك من عادة النبي (ص).

٦ - قد روي عن أهل البيت (ع) أن الآيات قد نزلت في رجل من بني أمية، وبعض الروايات قد صرحت باسمه (١)، وروى الطبرسي أيضا عن الإمام الصادق عليه السلام: (أن رسول الله كان إذا رأى ابن أم مكتوم قال: مرحبا مرحبا، لا والله، لا يعاتبني الله فيك أبدا، وكان يصنع به من اللطف، حتى كان يكف عن النبي (ص) مما يفعل به.

والظاهر أنه (ص) كان يريد بهذا الفعل التعريض بمن صدر منه ذلك في حق ابن أم مكتوم.. كأنه يقول له: والله أنا لا أعاملك كما عاملك فلان..)

هذا بالإضافة إلى أن دعوى نزول الآيات في النبي (ص) إنما وردت في روايات غير الشيعة.

واغترار البعض بها، وقبوله لها وترك ما روي عن أهل البيت (عليهم السلام)، لا يعلم له وجه صحيح، علما أن بعض مفسري العامة، ومنهم الفخر الرازي في رسالته في عصمة الأنبياء قد طرح هذه الروايات، وعلل ذلك بأنها أخبار آحاد ومخالفتها للقواعد العقلية.

٧ - إن الاعتذار عن نزول الآية في النبي (ص): بأن ابن أم مكتوم كان أعمى، وليس في العبوس إساءة له، لأنه لا يرى، إعتذار غير سديد، لأن الله سبحانه قد طالب العابس بهذا الأمر، واعتبره أمرا يستحق اللوم والعتاب..

وإذا كان ابن أم مكتوم لا يرى العبوس، فان الحاضرين قد رأوه وأدركوه، واستقر في أنفسهم أن العابس غير مرتاح من ذلك الأعمى.

---

(١) راجع تفسير القمي ج ٢ ص ٤٠٥ وتفسير البرهان ج ٤ ص ٤٢٧ و ٤٢٨ وتفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٠٨ و ٥٠٩ ومجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧.

٨ - إن الاعتذار عن ذلك بوجود وحدة حال بين الأعمى وبين النبي (ص) هو الآخر اعتذار غير سديد، إذ لا يوجد ما يثبت وجود وحدة الحال هذه، وقصة دخوله على بعض زوجات النبي (ص) لا تدل على وجود وحدة حال.. وذلك لعدة أمور:

أولا: عدم وجود ما يشهد لتكرر ذلك، فالرواية لا تذكر أزيد من أنه جاء واستأذن، فقال النبي (ص) لزوجتيه قوما وأدخلا البيت، فاحتجتا بأنه أعمى، فقال لهما أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟ (١).

ثانيا: إن وقوع مثل هذه الأمور لا يدل على وحدة الحال، فقد كان الكثيرون من الصحابة يدخلون على النبي (ص)، في حين تكون زوجاته عنده، لا سيما مع عدم تعدد الحجرات التي كانت تسكنها النساء مما قد بني حول المسجد.

ثالثا: إذا كانت هذه الحادثة قد حدثت في مكة وفي أوائل البعثة، فمن أين يثبت لنا وجود وحدة الحال هذه، في تلك الفترة بالذات، فيما بين ابن أم مكتوم وبين النبي (ص)..

رابعا: إن وجود وحدة الحال المزعومة، لا يبرر تضييع حق ذلك الأعمى، ففي الخبر: لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه (٢).

خامسا: إن نفس صدور ذلك من النبي (ص) أمام المشركين يعطي انطباعا سيئا عن أخلاق الإسلام، ومنطلقاته في التعامل مع الآخرين.

سادسا: إنه لا معنى للنهي عن أن يفعل الناس مثل فعل النبي (ص)، وقد قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

سابعا: كيف يمكن أن يقول أحد عن أفضل الرسل: إنه لا يعرف الأهم من المهم، وإنه يستغرق فيما هو مضيعة للوقت، ويفوت الفرص، ويفرط في تنمية المعرفة الإيمانية لدى المؤمنين، وإنه يجهل بحقيقة مسؤولياته، ويخطئ في تشخيص تكليفه، وأي نبي هذا الذي أرسله الله وفيه كل هذه العلل؟!..

----

(١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ وتفسير البرهان ج ٤ ص ٤٢٨ وتفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٠٩.

(٢) الوسائل كتاب الحج أبواب العشرة باب ١٢٢ حديث ١٢.

٤٩٧ – الخطأ غير المقصود للنبي (ص).
ويتحدث ذلك البعض عن الخطأ غير المقصود لنبينا محمد (ص)، فيورد احتمالا يقول: " (عفا الله عنك) (١) وهذا أسلوب في العتاب لا يعنف في المواجهة، بل يرق ليخفف من وقع الخطأ، انطلاقا من عدم الاطلاع على مواقفهم الحقيقية، مما يؤدي إلى تصديقهم فيما يقولون " (٢).
وقفة قصيرة
إن من المعلوم: أنه ليس ثمة من خطأ على الإطلاق، وأن النبي (ص) كان مطلعا على حالهم، ولا يصح احتمال الخطأ، وغيره مما ذكره في حق النبي (ص)، بل المتعين أن يقال: إن النبي (ص) كان عالما بحقيقة نواياهم، ولكنه كان يظهر تصديقهم لأن عليه أن يعاملهم وفق الأمارات الظاهرية، لا وفق علمه الخاص بحالهم، كما أشارت إليه الآيات، فإذا كان يعرف ذلك، ثم يعاملهم بمنتهى الإحسان والرفق، فإنه يكون غاية في الخلق النبوي الكريم..
وقوله: (عفا الله عنك) تعبير يستعمل عادة في مقام إظهار استحقاق الطرف الذي يجري الحديث عنه إلى العقوبة، ولكن استعمال هذا التعبير لا يعني أن العفو عنه كان خطأ، فهو كقولك: سامحك الله لم عفوت عن فلان، فان العفو عنه حسن، لكن المطلوب هو إبراز استحقاقه للعقوبة، وهنا قد جاء التعبير الإلهي عنهم بذلك من أجل فضحهم، واظهار نواياهم، بل إننا إذا رجعنا إلى ما هو المتعارف عند الناس في مجال التعامل، فإننا نجدهم لا يتسامحون مع هذا النوع من الناس، بل يعاملونهم بصرامة وحزم، حين يدركون خبث باطنهم وسوء نواياهم، ومكرهم، واحتيالهم، ويرون أن معاملتهم بهذا المستوى من الصفح واللين خطيئة وذنب، فيكون قوله: (عفا الله عنك) أيضا مشيرا إلى ما بلغته معاملة رسول الله (ص) لهم من نبل وكرامة وصفاء، مع وجود هذا الحجم الهائل من خبثهم، ومن إجرامهم الكبير، ولا ينبغي إغفال حقيقة كون نسبة الخطأ إلى النبي (ص) منافية لعصمته في مذهب

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٣.
(٢) من وحي القرآن ج ١١ ص ١٢٩.

الشيعة الإمامية، لأنهم قائلون بعصمة الأنبياء (ع) عن الخطأ والخطيئة والسهو والنسيان قبل البعثة وبعدها في التبليغ والاعتقاد والأفعال والأحكام.

٤٩٨ - الزهراء (ع) عوضت النبي (ص) ما فقده من حنان.

٤٩٩ - جوع النبي (ص) وهو في القمة إلى الحنان.

إن البعض يقول:

".. وإذا كانت كلمة " أم أبيها " تعني الإحساس القوي باستعادة عاطفة الأم التي فقدها في طفولته فعاش فراغها في مشاعره من خلال ابنته فاطمة.. إلى أن يقول: إن النبي استعاد أمه في ابنته، ومعنى ذلك، أنه عاش الامتلاء الروحي العاطفي الشعوري الذي يحتاجه في بشريته حتى وهو في قمة الفعلية لأن الرسول بشر، يتألم ويفرح، ويحزن ويتعب، ويتحسس كل الأجواء التي تثبت موقفه وتثبت موقعه، وتطلق آفاقه.. " (١).

ونجده يقول أيضا:

" بدأ النبي حياته وهو يشكو فقد حنان الأم، لأن حنان الأم ليس شيئا يمكن أن تتكفله مرضعة أو مربية، إنه شيء من عمق الروح، من عمق القلب، لأن الولد جزء من الأم، ولذلك فإن إحساسه كإحساس الإنسان بنفسه، ليس شيئا خارجا عن حياته، ولكنه شيء داخل في حياته وكانت هي جزءا من الرسول، والجزء يتفاعل مع الأجزاء الأخرى، ولذلك أعطته أمومتها باحتضانها له، وقالها رسول الله وهو يشعر أن ذاك الفراغ الذي فقده بفقدان أمه استطاع أن يملأه من خلال ابنته، فإبنته هي أمه بالروح وابنته بالجسد، ولذلك قال عنها إنها (أم أبيها)، كم تحمل هذه الكلمة من دلالات.. ألخ " (٢).

ويقول في نص آخر:

" إن كلمة النبي (ص) عن الزهراء (ع) إنها (أم أبيها) توحي لنا: أن النبي (ص) عاش مع ابنته الزهراء (ع) حنان الأم وعطفها، بحيث عوضته عما فقده من حنان أمه وعاطفتها، حتى إنه (ص)، وهو يتمثلها كيف ترعاه، وتحنو عليه، وتبكي إذا مسه سوء، كان يحس كما لو أن أمه كانت تفعل ذلك، وتعيش معه، وليس هذا عقدة نقص في شخصيته (ص) وهو (ص) لم يشك عقدة نقص على الإطلاق ".

---

(١) مقابلة مع إذاعة النور بتاريخ ٢٢ - ١١ - ١٩٩٧. موجود لدينا في شريط رقم ٥

(٢) الندوة ج ١ ص ٥٨.

إلى أن قال:

" فالنبي (ص) يمثل الكمال كله. وعلى هذا، فإن إحساس البشر بالجوع لا يعني نقصا فيه، وليس هناك فرق بين الجوع إلى الطعام، وبين الجوع إلى الحنان. فنحن نعيش الجوع إلى الحنان كما نعيش الجوع إلى الطعام. فهل هناك نقص في النبي (ص) عندما يحس بالجوع، إن كان جوعا للحنان، أو للطعام؟ .. الخ " (١).

ونقول:

إنه ليس في كلام النبي (ص)، ما يشير إلى وجود هذا الجوع إلى الحنان في داخل نفسه كما ينسبه إليه هذا البعض. وإذا صح قياس الجوع إلى الحنان على الجوع للطعام، صح أيضا قياسه على الجوع الجنسي أيضا. فهل يصح أن يقال: إن عزوبة النبي التي استمرت سنوات، قد أوجدت عنده جوعا جنسيا يحتاج إلى تعويض؟ ! ثم يفسر تعدد زوجاته (ص) على هذا الأساس؟! وهل إن النبي (ص) قد بقي جائعا إلى الحنان ما يقرب من خمسين سنة، حتى أصبح جوعا (مزمنا) يكتوي (ص) بناره، وفراغا مستمرا، لا يجد ما يدفع غائلته، أو يدفع عنه؟

إننا نقول:

إنه لا يصح قياس الجوع إلى الحنان على الجوع إلى الطعام. فلو افترضنا أن النبي (ص) قد احتاج في طفولته إلى العطف، فذلك لا يعني أن تستمر حاجته إليه إلى ما بعد خمسين سنة، ولا أن يكون لديه فراغ عاطفي يحتاج إلى ملء وتعويض، وذلك لأن بعض الأمور تفقد مبرراتها ومواقعها ومقتضياتها، ولا يبقى لها مجال، فتزول وتتلاشى. فمن حرم في طفولته من الرضاعة فإنه لا يعوض عنها برضاعه بعد خمسين سنة بحيث يحتاج إلى أم يلتقم ثديها، ويرتضع من لبنها.

ولا ندري لماذا يقيس هذا البعض الحاجة إلى الحنان في الطفولة على الحاجة للأكل والشرب، ولا يقيسها على الحاجة إلى الرضاعة، فإنها بها أنسب وإليها أقرب. فإن الكلام هو عن حاجات الطفولة، وليس الكلام عن وسائل بقاء الحياة واستمرارها. وهل إذا كان الطفل يحتاج في حال طفولته إلى ثوب يلبسه ولم يحصل له ذلك، فهل يبقى بعد خمسين سنة بحاجة إلى لبس نفس

---

(١) نشرة بينات عدد ٣٥ بتاريخ ٣٠ - ٥ - ١٩٩٧.

الثوب؟. واستبعاد كلمة عقدة نقص لا يدفع الإشكال ولا يحل العقدة.
فإن القول بوجود فراغ نفسي في الشخصية الإنسانية للنبي (ص)، أمر مرفوض.. تماما كرفضنا لمقولة معاناته (ص) من عقدة نقص.. ونحن نعتقد: أنه (ص) هو الإنسان الكامل في عقله، وفي مشاعره، وفي تكوينه النفسي والعاطفي.
ونعتقد: أنه (ص) حتى حين تعطف ابنته عليه، فإنها إنما تقوم بمسؤولياتها وتؤدي واجباتها، وتعبر عن رفيع أدبها تجاهه (ص). والزهراء هي الأسوة والقدوة في ذلك كله..
ويمكن تقريب هذا المعنى إذا لاحظنا حال أي إنسان يكرم والديه أو يحترم معلمه، أو يعبد الله تعالى فإنه إذا فعل ذلك وقبل يد والده أو معلمه، أو صلى لربه لا يكون قد ملأ فراغا في نفس والده أو لدى ذلك العالم، كما أن الله ليس بحاجة إلى صلاته، ولا هي تملأ له فراغا، أو تحل له عقدة تعالى الله وأنبياؤه عن ذلك علوا كبيرا.
وأما معنى قوله (ص) في حقها سلام الله عليها أنها أم أبيها فلا يعني أن أباها كان بحاجة إلى عاطفتها، بل معناه أنها على صغر سنها قد ظهر منها من العطف والحنو والتفاعل الروحي والعاطفي معه (ص) كما لو كانت أما تتفاعل مع ولدها، دون أن يكون النبي (ص) بحاجة إلى ذلك، ولا كان يعاني من فراغ ملأته عليه. فلماذا هذا الإصرار على أن ينسب للنبي (ص) فراغا في تكوينه النفسي وفي شخصيته النبوية؟!!.
٥٠٠ – قد يكون ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول انفتاحا في الإنجذاب العاطفي إليهم.
٥٠١ – ما ألقاه الشيطان يؤدي إلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة.
٥٠٢ – ما ألقاه الشيطان يؤثر على صلابة الفكرة في حركة المواجهة.
٥٠٣ – ما ألقاه الشيطان يؤدي إلى إضعاف المؤمنين.
٥٠٤ – ما ألقاه الشيطان يوجب اهتزاز إيمان المؤمنين.
٥٠٥ – أسلوب النبي (ص) (وهو ما ألقاه الشيطان) قد يوحي بغير ما يريده.
٥٠٦ – ألقى الشيطان للنبي (ص) أن يحاول احتواء الساحة بالموقف المهادن.
٥٠٧ – ألقى الشيطان إليه (ص) أن يجامل عقيدتهم دون اعتراف بها.
٥٠٨ – إلقاءات الشيطان هي خطورات ذهنية تبرز في مظاهر السلوك.
٥٠٩ – النبي يخطئ في تشخيص تكليفه الشرعي.

٥١٠ – يزيل إلقاءات الشيطان، حتى لا يبقى أثر سلبي على حركة الرسالة في الفكرة والأسلوب.
٥١١ – المجتمع المؤمن يتأثر سلبا بإلقاءات الشيطان.
٥١٢ – المجتمع المشرك يتأثر إيجابا بإلقاءات الشيطان.
٥١٣ – القاء الشيطان يدخل في فكر النبي وقلبه.
٥١٤ – الآتي من الشيطان داخل في عمق الأمنية في داخل الذات.
٥١٥ – إلقاءات الشيطان تطوف بذهن النبي وتتحرك بسرعة في مظاهر سلوكه.
٥١٦ – هذه الأفكار كانت تخطر في أذهان الأنبياء والرسل السابقين أيضا.
قال الله تعالى:
(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) (١).
ويقول البعض في شرح هذه الآية:
".. وقد فسر المفسرون المعترضون على هذه الرواية، الآية بطريقة أخرى. فقد جاء في الميزان أن معنى الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى) وقدر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدم دينه وإقبال الناس عليه وإيمانهم به ألقى الشيطان في أمنيته وداخل فيها بوسوسة الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي وأبطل سعيه فينسخ الله ويزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي وإظهار الحق والله عليم حكيم..
وقد نلاحظ على هذا التفسير، أنه حاول أن ينظر إلى مسألة إلقاء الشيطان في الأمنية النبوية في الواقع الخارجي لحركة الأمنية في ساحة الصراع بين خط الله وبين خط الشيطان.. مما يجعل الآية جارية على أساس الأجواء التي تتحدث عن إغراء الشيطان للآخرين في إبطال الأمنية في خط الواقع ولم يحاول أن ينظر إليها من الداخل، فيما تختزنه كلمة " فيلقي الشيطان في أمنيته " من معنى إدخال شيء فيها بحيث تكون ظرفا له وموقعا من مواقعه، لا حركة خارجية من الآخرين في مواجهتها، ليكون النسخ – من خلال ذلك – نسخا في حركة الواقع، لا نسخا في طبيعة خصوصيات الأمنية.
إن هذا المعنى الذي ذكره صحيح في الاعتبار، ولكنه لا ينسجم مع ظهور الآية

---

(١) سورة الحج الآية ٥٢ و ٥٣.

في كلماتها، كما نفهمه.. لأنها ظاهرة في وجود شيء ما من الشيطان في طبيعة الأمنية.. وقد لا يكون من الضروري ظاهرا أن يكون هذا الشيء فعليا فيما يصدر عنه من قول أو فعل.. أو يكون منافيا للمبادئ التي يبشر بها، فقد يكون انفتاحا في الإقبال عليهم والاستماع لهم والانجذاب العاطفي إليهم والإيحاء لهم بالتفكير فيما يقولونه مما قد يطمعهم فيه، أو يوحي إليهم بأن موقفه قد أصبح أكثر مرونة.. فيؤدي ذلك إلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة، من حيث تأثيره على صلابة الفكرة في خط المواجهة وتبيان الموقع في ساحة الصراع.. وإضعافه للمؤمنين الذين قد تكون المرونة في الموقف في علاقة النبي بالمشركين، موجبا لتخفيف حالة التوتر النفسي لديهم، فيهتز إيمانهم من خلال ذلك.

قد تكون المسألة متحركة في خط الإيحاء في الأسلوب الذي قد يوحي بغير ما يريده.. مما يدخل في محاولة احتواء الساحة، بالموقف المهادن لهم، والمجامل لعقيدتهم، من دون إعطاء أي اعتراف بها أو أي انجذاب إليها، وذلك من باب السكوت عنهم، والاكتفاء بالإعلان عن وحدانية الله من الناحية الإيجابية التي ترتبط بعبادته، لا من الناحية السلبية التي ترتبط برفض عبادة غيره، ليكون ذلك بمثابة الهدنة التي تخف فيها حدة الصراع، من أجل إيجاد الجو الملائم لإدارة الحوار معهم في جو هادئ..

قد تكون هذه الأفكار وأمثالها هي التي كانت تخطر في ذهن النبي محمد (ص) في بعض الحالات الصعبة كما كانت تخطر في أذهان الأنبياء والرسل من قبله، عندما تشتد التحديات أمام الدعوة، ويتعرض المؤمنون للزلزال النفسي من خلال الضغوط التي تضغط عليهم بكل قسوة.

ولكن هذه الإيحاءات لا تترك أثرها في الواقع، ولا تملك موقعا مستقرا في عمق الذات، بل هي خطورات ذهنية تطوف بالذهن، وتتحرك - بسرعة - في مظاهر السلوك، فيتأثر بها المجتمع المؤمن بطريقة سلبية، وينجذب إليها المجتمع الكافر، بطريقة إيجابية.. ولكنها سرعان ما تزول أمام الحاجة إلى الموقف الحاسم الذي يفصل بين الإيمان والشرك بفاصل واضح، لا مجال فيها لأية مهادنة، أو لأي لقاء لأن المسألة تتصل بالأسس لا بالتفاصيل.. ولعل هذا هو المعنى الإيحائي الذي نستوحيه في قوله تعالى: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا).

إن هذه الآيات وأمثالها قد توحي بأن هناك شيئا ما يخطر بالبال، ولكنه لا يثبت في النفس بل يطفو على سطح بعض الممارسات، ثم ينتهي بشكل حاسم.. من دون أن يسيء إلى فكرة العصمة في الذات، أو العصمة في التبليغ، لأن تأثر الإنسان بما حوله في مسائل الخطورات الذهنية السريعة الطارئة، تماما، كما هو تأثره بما حوله من الروائح الطيبة أو النتنة، أو بما تثيره الأطعمة اللذيذة القريبة منه، من افرازات جسدية في حالة الجوع، أو الاشتهاء.. فان العصمة، لا تلغي العنصر الإنساني الذاتي في شخصيته، بل تلغي الحركة المنحرفة في خط العقيدة التي يعتقدها، والفكرة التي يتبناها، والكلمة التي يقولها، والحركة التي يتحرك فيها..

ربما يكون هذا الذي عرضناه تفسيرا للآيات، فيما نستوحيه من معناها، لأنه يتناسب مع طبيعة الأسلوب والكلمات الذي يؤكد أن الشيء الآتي من الشيطان يدخل في عمق الأمنية في داخل الذات، لا أنه يتحرك في دائرة الآخرين الذين يعيشون أجواء الرسالة بحيث يكون الإلقاء حركة في خط الأمنية في خط الآخرين، كما أنه لا يتنافى مع الشخصية النبوية الرسالية في التزامها بالتوحيد وإصرارها عليه، وابتعادها عن كل الإيحاءات والكلمات التي تتنافى معه، حتى بنحو الغفلة والسهو.. والله العالم بحقائق آياته.

(فينسخ الله ما يلقي الشيطان) ويزيله من فكر النبي أو الرسول وقلبه، حتى لا يبقى منه أي أثر سلبي على حركة الرسالة في الفكرة والأسلوب، لأن الله يتعهد رسله بالرعاية في مشاعرهم وأفكارهم، كما يتعهدهم في حياتهم وحركتهم في خط الرسالة، وذلك من خلال رعايته لرسالته من خلالهم (ثم يحكم الله آياته) ويثبتها فلا يدع أي مجال للريب فيها، من أية جهة كانت، وذلك من خلال ألطافه التي يغدقها على رسوله، فيمنع - بذلك أي تحريف للكلمة، وأي زيادة فيها، لأن ذلك هو السبيل لإحكام الآيات على أساس الثقة الشاملة بموافقتها للوحي الإلهي ".

إلى أن يقول:

" (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) من الكفر أو النفاق (والقاسية قلوبهم) الذين تحجرت قلوبهم بالجهل والتخلف حتى لم تعد تنفتح على شيء من الفكر الحق، وتجمدت مشاعرها بالغلظة والقسوة، حتى لم تعد تنبض بالرحمة والخير. وذلك من خلال هذه الأجواء التي تثيرها الأساليب المتنوعة في الطبيعة الإيحائية لحركة النبي في الساحة.. حيث تأخذهم العزة بالإثم من جهة، باعتبار ذلك مظهر قوة

لهم فيما يمثله من التنازلات الإيحائية لحسابهم، أو تحركهم في طريق الفتنة " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

إن لنا هنا وقفات عديدة نكتفي ببعض منها، روما للاختصار، كما وكيفا، فنقول:

١ - إن هذا البعض يصر على أن إلقاء الشيطان قد كان على شكل خطورات ذهنية تبرز في مظاهر سلوك النبي (ص) (٢).

وأن الشيطان قد ألقى في فكر النبي (ص) وفي قلبه، مع أن الله سبحانه يقول:

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) (٣).

ويقول:

(قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) (٤).

وقال تعالى:

(انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (٥).

وقد يقال: إن الخطور بالبال ليس من الغواية، فلا تشمله الآية الشريفة، غير أننا نقول:

إن هذا البعض لا يقتصر على مجرد الخطور بل هو يقول: إنه ينعكس على الممارسة ويظهر في سلوك النبي (ص) أيضا.

٢ - إن هذا البعض يقول:

" إن ما ألقاه الشيطان في فكر النبي وقلبه قد انعكس على ممارساته، وتحول إلى سلوك وتجسد انجذابا إليهم، واستماعا لهم، وقد أدى ذلك إلى إضعاف المؤمنين في ساحة الصراع، وتقوية الكافرين، وإلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة.

كما انه قد تمثل بالموقف المجامل لعقيدتهم والمهادن لهم ".

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الأولى، ج ١٦ ص ١٠٨ - ١١٣.

(٢) إننا قد نجد بعض المفسرين يفسر إلقاء الشيطان بالمرور بالخاطر، ولكنه مجرد خطور ذهني، وليس خطور مراودة ولا انعكاس فيه على تصرفات النبي (ص)، كما يقول هذا البعض.

(٣) سورة الحجر الآية ٤٢.

(٤) سورة ص الآية ٨٢.

(٥) سورة النحل الآية ٩٩.

ويقول هذا البعض أيضا:
" إن ذلك يحصل لجميع الأنبياء في المواقف الصعبة التي يواجهونها ".
ولا ندري كيف نوفق بين أقواله هذه وبين قوله الذي أورده تتمة له: " من دون أن يسيء إلى فكرة العصمة في الذات أو العصمة في التبليغ " إلى أن قال:
" فإن العصمة لا تلغي العنصر الإنساني الذاتي في شخصيته، بل تلغي الحركة المنحرفة في خط العقيدة التي يعتقدها، والفكرة التي يتبناها والكلمة التي يقولها، والحركة التي يتحرك فيها ".
فهل يتوافق هذا مع قوله:
" إن الذي ألقاه الشيطان قد انعكس على بعض ممارسات النبي (ص) وتجسد استماعا وانجذابا عاطفيا إليهم، وإقبالا عليهم، وموقفا مهادنا لهم، ومجاملا لعقيدتهم، وأدى إلى تقوية الكافرين وإلى اهتزاز الموقف في حركة الرسالة، وإلى إضعاف المؤمنين. وإن الشيطان قد ألقى ما ألقاه في فكر النبي وفي قلبه ؟!.
وأين هي العصمة في الحركة التي يتحرك فيها هذا النبي، وفي الأسلوب الذي ينتهجه ويمارسه، لا سيما وأنه يلتزم أحيانا كثيرة بما يسميه بالعصمة التكوينية، فأين العصمة مع كل هذا، وأين تكوينيتها التي الزم نفسه بها!؟.
وأي خلل أعظم من هذا الخلل الذي حصل بسبب ما ألقاه الشيطان؟! وبسبب ممارسات النبي التي نشأت عن ذلك؟!
٣ - ألا يعتبر كل هذا الذي حدث بسبب ما يطفو على سطح بعض ممارسات النبي (ص) مما نشأ عن إلقاء الشيطان، ألا يعتبر ذلك كله ناشئا عن جهل النبي - والعياذ بالله - تكليفه الشرعي، وخطأه في تشخيص الوظيفة في مقام التبليغ؟!.
وإذا كان ذلك قد أوجب كل تلك السلبيات التي ذكرها هذا البعض، حسبما ذكرناه آنفا، فإن المصيبة تصبح بالنسبة لحفظ الدين ونشره أعظم وأخطر، وأدهى وأكبر.
حيث لا يبقى وثوق بالنبي (ص) حتى من ناحية تبليغ الرسالة وحفظ رسوم الشريعة.
لا سيما إذا كان ذلك سيحصل لجميع الأنبياء، ولا يتعلم لاحقهم من سابقهم، وآخرهم من أولهم!.

٤ – بقي أن نشير إلى أن المراد من الآية الشريفة هو: أن كل نبي من الأنبياء يحب ويرغب (لأن التمني هو الرغبة في الأمر المحبوب) ما يتناسب مع وظيفته كرسول. وأعظم ما يتمناه هو ظهور الحق والهدى، وطمس الباطل، ورد كيد الأعداء.
فيلقي الشيطان في أمنيته (ولم يقل: في فكره ولا في قلبه) وأمنيته هي ظهور الحق. يلقي فيها ما يفسدها ويوجب عدم ظهورها.
فالأمنية هي: الشيء الذي يتمناه الإنسان ويرغب فيه، كما تقول: أمنيتي شفاء ولدي، أو نجاحه في الامتحان، ثم يحصل ما لم يكن بالحسبان مما يمنع من شفائه أو من نجاحه، كخطأ الطبيب في الدواء، وغيبة معلمه، فنقول: إن الشيء الفلاني ضيع علي أمنيتي تلك وأفسدها، ولا يعني ذلك أن ذلك الشيء وهو خطأ الطبيب مثلا قد دخل في فكرك وقلبك، وأفسد التمني والرغبة.
بل هو قد أفسد الأمنية والمتمنى. فالرغبة باقية، ولا تزال قائمة، والمتمني لم يزل يحب شفاء ولده ونجاحه بالامتحان.
ولأجل ذلك فإن كل نبي يتمنى أمرا وذلك الأمر هو أمنيته، فيلقي الشيطان في تلك الأمنية وفي ذلك الأمر بالذات (لا في نفس التمني والرغبة) ما يفسده ويضيعه، فيراه الناس ويفتتن الذين في قلوبهم مرض بفعل الشيطان هذا. فتتدخل الإرادة الإلهية لتبطل كيد الشيطان، ويظهر نور الهدى، ويتجلى بطلان الباطل.
والقرينة على أن المراد بالأمنية هو ظهور الحق وزهوق الباطل هو قوله تعالى بعد هذا (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أي من شبهات وغوايات (ثم يحكم الله آياته) ويظهر نور الحق والله عليم حكيم.
وبذلك أيضا يعرف السبب في أن الله سبحانه قال: ألقى الشيطان في أمنيته ولم يقل في تمنيه.
٥ – إن هذا البعض قد رفض ما ذكره العلامة السيد الطباطبائي من أن إلقاء الشيطان في الأمنية النبوية إنما هو في الواقع الخارجي وأن الآية تتحدث عن إغواء الشيطان للآخرين.
نعم لقد رفض هذا القول مدعيا أن هذا يخالف دلالة الآية على وجود شيء

ما من الشيطان، في طبيعة الأمنية أي في الداخل على شكل خطورات في البال أو في الذهن.. الخ.. حيث قال تعالى: (ألقى الشيطان في أمنيته) ثم فسر قوله تعالى: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) بالإزالة من فكر النبي وقلبه.
ولكنه هو نفسه قد عاد وادعى أن هذه الخطورات تنعكس على السلوك والممارسة، وتنشأ عنها آثار سلبية في الواقع الخارجي، فيضعف المؤمنون ويقوى الكافرون بسبب ذلك. وذلك ليتمكن من تفسير قوله تعالى: (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض). لأن مجرد الخطورات الذهنية لا توجب الافتتان من أحد ما لم تظهر على صعيد الواقع حركة وسلوكا وموقفا.
وبذلك يكون هذا البعض قد قرر للآية معنى يسيء إلى العصمة، حيث تستقر هذه الخطورات في النفس وتترجمها بالممارسة كما أنه قد خالف ظاهر الآية أيضا لأن الآية تقول إن نفس ما ألقاه الشيطان هو الذي يكون فتنة للذين في قلوبهم مرض، فإذا كان هو هذه الخطورات الذهنية وحسب، فإنها لا يعرفها الناس ولا يرونها. فكيف يفتتنون بها!؟ فلا بد من التأويل في الآية لتنطبق على الحركة والسلوك الخارجي للنبي (ص). بادعاء أنها هي الخطورات الذهنية بسبب تجسدها فيه.
والنتيجة هي: أن ما ألقاه الشيطان له معنيان:
أحدهما: الخطور في البال والقلب في قوله تعالى (ألقى الشيطان في أمنيته) وفي قوله تعالى (فينسخ الله ما يلقي الشيطان).
الثاني: الحركة الخارجية والسلوك والممارسة: وذلك في قوله تعالى: (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض).
ثم هو يقصد بالأمنية معنيين:
أحدهما: الرغبة والتمني، وذلك في قوله تعالى: (في أمنيته) وقوله: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان).
الثاني: ما نشأ عن الرغبة من حركة وسلوك، ومن مشاكل وآثار في الواقع الخارجي. وهو الذي افتتن به الذين في قلوبهم مرض، في قوله تعالى: (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض).
والذي ذكرناه نحن في معنى الآية، وكذلك الذي ذكره العلامة الطباطبائي

لا يلزم عليه شيء من ذلك. حيث قلنا: إن المراد بالأمنية هو الشيء الذي يتمناه الإنسان، وليس المراد بها الرغبة والتمني.. وهذا هو الظاهر المتبادر.

أما ما ذكره ذلك البعض فهو مخالف لظاهر القرآن من أكثر من جهة ولا مجال للأخذ به وليس كلام صاحب الميزان.

٦ - وقد أورد هذا البعض في سياق كلامه الآيات الكريمة التالية، مستشهدا بها على ما يذهب إليه: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا تجد لك علينا نصيرا) (١).

ونقول:

إن هذه الآيات لا تؤيد ما ذهب إليه، لا من قريب ولا من بعيد، لأنها تقول: انه (ص) لم يركن إليهم، بل ولم يقترب من الركون، لأن الله سبحانه قد أعطاه من العزيمة والثبات ما جعله في منأى عن ذلك كله.

وذلك بقرينة كلمة (لولا) الدالة على أنه لم يكد يركن، ولم يطف في ذهنه أي خيال، ولا خطر في باله من هذا الفعل حتى الاحتمال، فضلا عن أن ينعكس ذلك على سلوكه، وممارسته، ويتسبب بخلق مشاكل، وتنشأ عنه آثار، أو ما إلى ذلك.

فلا معنى للاستشهاد بهذه الآية بأي وجه.

٥١٧ - إمكانية أن تثير التحديات ضعفا في النبي.

٥١٨ - قد يكون النبي يبحث دائما عن الهروب.

٥١٩ - قد يحطم هذا الضعف شخصية النبي.

٥٢٠ - قد يسيء هذا الضعف إلى موقع النبي.

٥٢١ - إمكانية أن يتعقد النبي بسبب ضعف تثيره التحديات.

٥٢٢ - إمكانية أن يتحول النبي إلى مخلوق مختنق بأزمته.

يقول البعض:

" في تفسير قوله تعالى: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل (" (٢).

----

(١) سورة الإسراء الآيات ٧٣ - ٧٥.

(٢) سورة هود: الآية: ١٢.

" وهنا يكمن سؤال: ماذا تعني هذه الآية في تقييم شخصية النبي محمد (ص) فهل كان يضعف أمام التحديات، لتجئ هذه الآية وأمثالها من أجل أن تقوي ضعفه، أو تسند له موقفه، أو تخفف عنه أحزانه، وتطيب به نفسه، وتزيل عنه آلامه؟ وهل جاءت في أجواء التأنيب الإلهي له، أو ماذا؟.

والجواب عنه: إن الآية ليست في مورد الحديث عن الحالة الواقعية الفعلية التي كانت تحيط بموقف النبي (صلى الله عليه وآله) أو تمثل شخصيته، بل كانت في مورد تقييم الطبيعة الموضوعية لما يمكن أن تثيره التحديات التعجيزية في الحالة الإنسانية من ضعف يبحث دائما عن الهروب، مما يمكن أن يحطم شخصيته أو يسيء إلى موقعه، أو يتعقد من ذلك، فيتحول إلى مخلوق مختنق بأزمته، وربما كان هذا السبب هو السر في الإتيان بكلمة (لعل) التي توحي بإمكانية الموضوع، لما تختزنه مثل هذه الأمور من نتائج على مستوى الانفعالات الإنسانية، في مواجهة عوامل الإثارة.

وبذلك يمكن أن تكون الآية عاملا وقائيا يريد الله به حماية النبي (ص) من الوقوع في مثل هذه التجربة، أو الخضوع لهذا الانفعال، أو تكون عملية إيحائية للعاملين - من خلال النبي - ألا يستسلموا لهذه الحالة، لو واجهوا مثلها، انطلاقا من فهمهم لطبيعة الدور الذي أوكله الله إليهم من الدعوة إلى سبيله بالوسائل الواقعية المألوفة ومما يجعلهم لا يعيشون الضعف في مواجهة هذه التحديات، لأنهم لا يعتبرونها تحديا لدورهم أو لقدرتهم الطبيعية، بل كل ما هنالك، أنها التحدي لما يتوهمه أولئك من دور، دون ارتكاز إلى علم أو إيمان " (١).

وقفة قصيرة

ونقول:

١ - إن دلالات كلمات هذا البعض ترسم للقارئ طرفا من الصورة التي تعيش في ذهنه لأنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، وليس هذا المورد الذي نحن بصدد الحديث عنه إلا أحد المفردات الكثيرة التي تجسد هذا المعنى، وتؤكده.

فقد استهل كلامه بالإشارة إلى أن الآية الشريفة: لا تتحدث عن حالة واقعية

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٢، ص ٣١.

فعلية.. لكنه أكد على أن الآية تتحدث عن إمكانية حدوث ذلك لنبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله)، أي أنه يمكن أن يتعقد أو أن يختنق بأزمته، واعتبر أن هذا هو السبب في الإتيان بكلمة لعل، في قوله تعالى: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك (.

ولكن من الواضح: أنه حتى احتمال حصول ذلك للأنبياء مرفوض جملة وتفصيلا.. فالنبي لا يتعقد، ولا يختنق بأزمته، ولا يضعف إلى درجة أن يبحث دائما عن الهروب إلى آخر ما هنالك مما ذكره..

٢ - إنه قد ذكر أخيرا احتمال أن يكون ذلك عملا إيحائيا للعاملين من خلال النبي (صلى الله عليه وآله)، الا يستسلموا لهذه الحالة فيما لو واجهوا مثلها.

ونقول له:

إنه إذا كان هذا الاحتمال كافيا في إعطاء الخطاب في الآية قيمته، وحيويته، فلماذا تثار احتمالات فيها انتقاص لمقام النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين؟!

٣ - بل إنه حتى لو لم يهتد هذا البعض إلى هذا المعنى الذي تشير إليه الآية فإنه لا يحق له إبداء احتمالات لا يشك عاقل في أنها تتنافى مع حقيقة النبوة، ومع مقام النبي المعصوم.. بل عليه أن يعترف بالعجز عن فهم المراد من الآية، ويرجع علمها إلى أهله، وهم الراسخون في العلم من أهل بيت النبوة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

٤ - ولماذا لم يلتفت هذا البعض إلى ما ذكره العلامة الطباطبائي، من أن هذه الآية تريد أن توبخ الكفار على استمرارهم في العناد، والتحدي.. وضرب مثلا لذلك، بملك تمرد عليه بعض ضعفاء رعيته، فبعث إليهم عاملا له برسالة يقرؤها عليهم تدعوهم إلى السمع والطاعة، وتلومهم على تمردهم، واستكبارهم، فيردون على رسوله ما بلغهم إياه، فيكتب إليهم رسالة ثانية، ويأمره بقراءتها عليهم، وإذا فيها:

(لعلك لم تقرأ كتابي عليهم خوفا من أن يقترحوا عليك أمورا تعجيزية، أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلي، وإنما هو مفترى منك؟!.

فإن كان الأول، فإنما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ.

وإن كان الثاني، فإن الكتاب بخطي، كتبته بيدي، وختمته بخاتمي)..

والآيات القرآنية التي هي موضع البحث هي تماما في هذا السياق.. والآيات هي التالية: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك، وضائق به صدرك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل. أم يقولون افتراه؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، وأن لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون ((١).

٥٢٣ – لعل انفعال النبي لشخصه يتجاوز انفعاله لأجل الله.

٥٢٤ – التسلية للنبي لعلها لتخليصه من حالة ذاتية ترهقه.

٥٢٥ – قد يحزن النبي لمسألة شخصية ككون التكذيب موجها إليه كشخص.

٥٢٦ – قد يواجه النبي الموقف بالمشاعر الذاتية بدلا من العقلية الواقعية.

٥٢٧ – قد يواجه النبي الموقف بالمشاعر الذاتية بدلا من الذهنية المرنة.

٥٢٨ – تسلية النبي بالإيحاء إليه أن التكذيب موجه إلى الله لا إلى شخصه هو.

٥٢٩ – محاولة تأكيد الفكرة في ضمير النبي لكي يفرغ ذاته من الانفعال.

٥٣٠ – النبي يواجه صدمات انفعالية صعبة – شخصية – تثقل حركته في الدعوة.

٥٣١ – ردة الفعل لدى النبي يجب أن تبتعد عن الذات والذاتيات.

٥٣٢ – التكذيب لله وهو فوق الانفعال لا للنبي الذي ليس كذلك.

٥٣٣ – النبي قد يرى العمل مرتبطا بذاته لا بمسؤوليته.

٥٣٤ – لو أن النبي اعتبر العمل مرتبطا بمسؤوليته لا بذاته لعمل بموضوعية، وهدوء.

٥٣٥ – النبي قد يفهم القضية أمرا شخصيا له.. ولا يفهمها مرتبطة بالنطاق العام للرسالة.

٥٣٦ – هناك حالة بشرية في النبي تحب التمرد.

٥٣٧ – هناك حالة بشرية في النبي تحب الهروب من المسؤولية.

٥٣٨ – مواجهة حالة التمرد والهروب بمنطق الواقع.

٥٣٩ – الواقع يفرض الهدوء النفسي، وحالة النبي البشرية ليست كذلك.

٥٤٠ – الواقع يفرض الإتزان العاطفي، والحالة البشرية في النبي خلاف ذلك.

٥٤١ – الواقع يفرض الثبات العقلي، والحالة البشرية في النبي ليست كذلك.

يقول البعض:

" هل كان الرسول يشعر بالحزن الروحي على ما يواجهه به قومه من تكذيب؟ وهل كانت المسألة تمثل بالنسبة إليه حالة ذاتية ترهقه ليحتاج إلى التسلية التي تبعد الموضوع عن التحدي الذاتي، وتجعله بمنأى عن النتائج السلبية المؤثرة على

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢ – ١٤.

المشاعر الخاصة، وذلك بالإيحاء له بأن التكذيب ليس موجها إليه، بل موجه إلى الله من خلال ما يكذب به الظالمون من آيات الله؟

وهل إن مثل هذا الأسلوب يريح النبي محمدا (ص)؟ وإذا كان الأمر على هذا الشكل، فهل يمكننا أن نفهم أن انفعاله الشخصي يتجاوز انفعاله لله؟ وأخيرا، هل ينسجم مع شخصية النبي في ما نعرفه عن إخلاصه لرسالته لربه؟

هذه هي علامات الاستفهام التي قد ترتسم أمام القارئ لهذه الآيات عندما يواجه معانيها من خلال الفهم الحرفي لألفاظها.

ولكننا نفهم منها أسلوبا قرآنيا يتحدث عن تحليل الموقف الرسالي للرسول، ولكل الرساليين الذين يتبعون خطاه، في ما يمكن أن يخضع له البشر من نوازع ذاتية أمام التحديات، فهو يوحي بوجود شيء من هذا القبيل، كفرضية قابلة للحدوث، ولكن ليس من الضروري أن تكون قد حدثت بالفعل، لينتقل من خلال ذلك إلى الإيحاء بأن الموضوع لا يتحمل أية صدمة انفعالية صعبة، تثقل حركة الذات في الدعوة.

فإذا كانت صفة الرسالة هي التي تطبع شخصية الرسول فإن كل ردة فعل سلبية أو إيجابية ترتبط بتلك الشخصية يجب أن تكون بعيدة عن الذات والذاتيات.

وبهذا تكون القضية متعلقة بالله الذي لا يضيره شيء من تكذيبهم، وجحودهم كما لا ينفعه شيء من إيمانهم وتصديقهم، لأنه الغني عن ذلك كله، فلا مجال لأي انفعال لأن الذات لا علاقة لها بالموضوع، والرسالة المنزلة من الله لا تتأثر بذلك، إن الله فوق الانفعال، فماذا يبقى في الساحة؟

إن المسألة – بكل بساطة – هي أن يواجه الرسول الموقف بعقلية واقعية، وذهنية عملية مرنة، بعيدا عن كل الحالات الشعورية الذاتية، وبذلك تستمر القافلة الرسالية في سيرها الطبيعي، لتصل إلى أهدافها الكبيرة في نهاية المطاف.

وفي ضوء ذلك، تتحول هذه الآيات إلى خطة تربوية للعمل الرسالي، يواصل من خلالها ذاك العمل طريقه بكل موضوعية وهدوء، تماما كأي عمل يرتبط بمسؤوليته ولا يرتبط بذاته، حيث يتحرك الداعية على أساس المعطيات الواقعية، ومدى انسجامها مع خط المسؤولية في عمله، فيعيش التجرد من كل ما لا يرتبط بالعمل، مما يجعل للحركة فاعلية قوية، ويقود الموقف إلى خطوات الواقع.

وهكذا تخرج القضية من النطاق الشخصي، لتتصل بالنطاق العام للرسالة، وللرسول، فلا تعود شيئا شخصيا للنبي، بل تتحول إلى قاعدة عامة لكل الرسل، والرسالات، ومن هنا تتساقط كل علامات الاستفهام أمام شمولية القاعدة وثباتها.

إن القرآن يريد أن يؤكد الفكرة - الخط - في ضمير النبي الداعية، ليفرغ ذاته من الانفعال، فهناك حالة بشرية تحب التمرد والمواجهة، والهروب من المسؤولية، فلا بد من مواجهتها من منطق الواقع الذي يبحث في الأرض عن الإمكانيات الحاضرة، والمستقبلية لانتصار الدعوة في حركتها الفاعلة، مما يفرض المزيد من الهدوء النفسي والإتزان العاطفي، والثبات العقلي.

فالدعوة تمثل رسالة الله، والتكذيب يواجه هذه الرسالة، فهو يواجه الله في النهاية " (١).

وقفة قصيرة

ونقول.

لقد طرح ذلك البعض أسئلته أولا حول سبب حزنه (ص) لتكذيب قومه له، وأنه هل هو حالة ذاتية له، أو هل أن انفعاله الشخصي يتجاوز انفعاله لله وغير ذلك..؟ ثم قرر في إجابته عنها: أن ليس من الضروري أن يكون ذلك كله قد حدث بالفعل، ولكنها تبقى فرضية قابلة للحدوث عنده، واحتمال كونها كذلك يساوق القول بإمكانها، وذلك يعني أنه لا مانع من وقوعها.. ثم أفاض في تفاصيل عناصر هذا الأمر القابل للحدوث لكل من النبي، والداعية على حد سواء.. فجاء هذا السيل من التصريحات التي حاولنا أن نشير إلى أكثرها في العناوين التي صدرنا بها الفقرات المنقولة منه حرفيا فاقرأ، واعجب ما بدا لك!!

- فهل يصح احتمال ذلك كله في حق الأنبياء؟
- وهل يجتمع احتمال هذه الأمور مع الاعتقاد بعصمتهم؟
- وإذا كانت عصمتهم إجبارية فما معنى احتمال أمور كهذه في حقهم؟!
- وأي نبي هذا الذي يخلط بين التكذيب لشخصه والتكذيب لله؟!
- وأي نبي هذا الذي يسليه، ويريحه أن يكذب الناس الله؟ ويحزنه أن يكون التكذيب موجها لشخصه..؟!.

إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا بد أن تدور بذهن كل منصف عاقل.. وهل يصح بعد هذا كله أن يدعي هذا البعض أنه يعتقد بعصمة الأنبياء، وبكفاءتهم العلمية والإيمانية لتحمل شمولية الرسالة؟!.

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ٩ - ص ٨٢ و ٨٣.

٥٤٢ – المشاعر السلبية للنبي ربما تتحول إلى عقدة.
٥٤٣ – المشاعر تتحول إلى تساؤل دائم عن سبب إعراض المشركين عن القرآن.
٥٤٤ – المشاعر السلبية تتحول إلى تساؤلات عن أشياء كثيرة تضغط على وجدانه.
يقول البعض:
" (فلعلك باخع نفسك على آثارهم (الخطاب لرسول الله (ص) الذي كان يعيش الألم والحسرة أمام بعد المشركين، وإعراضهم عن القرآن، وعن الدعوة إلى الله، وهذه المواقف تمثل خطوات المشركين العملية على صعيد خط الرسالة، تماما كما هي الآثار التي تتركها أقدامهم على الطريق في حالة السير.
وربما تؤدي به هذه المشاعر السلبية الضاغطة إلى الهلاك، عندما تتعاظم أو تتحول إلى عقدة، وتساؤل دائم عن السبب في هذا الموقف المضاد، وعن الضعف الذي يحيط بشخصه، وبالساحة أمام قوة هؤلاء، وعن أشياء كثيرة قد تطوف في نفسه، وتضغط على وجدانه.. إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا.. الخ " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
إننا نجل مقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن أن ينسب إليه إمكانية الابتلاء بالعقد النفسية نتيجة لمشاعر سلبية ضاغطة، ولا بد أن نعطف كلامه هذا على حكاية الجوع العاطفي للحنان، فإن هذا يوضح ذاك، ويظهر عدم صحة ما يحاول أن يتخلص به من سلبيات ذلك القول العجيب، والغريب، وسيأتي توضيح ذلك حين الحديث عن مقولاته حول الزهراء (عليها السلام). في بعض فصول هذا الكتاب.
كما أننا نجل مقام النبي (صلى الله عليه وآله) عن أن يكون – والعياذ بالله – جاهلا إلى درجة ابتلائه بالتساؤل الدائم عن أسباب الموقف المضاد للمشركين، وجاهلا بأسباب ضعف الساحة الإسلامية أمام قوة أولئك.
وبعد ما تقدم نقول: إن إيغال هذا البعض في الخيال الذي لا مبرر له جعله يحتمل هذه الأمور الغريبة والعجيبة، مع أن الآية صريحة في أن حزن رسول الله (صلى الله عليه وآله) الناشئ عن صدود الناس عن الحق كان حزنا عظيما

---

(١) من وحي القرآن: الطبعة الثانية دار الملاك، ج ١٤ – ص ٢٧١.

جدا، ولا غرو في ذلك فهو يرى الكفر والشرك من أعظم الموبقات بمقدار معرفته بسلبيات هذا الشرك وآثاره البغيضة.
٥٤٥ – قد يكون آباء النبي (ص) كفارا.
٥٤٦ – المهم أن لا يكونوا أبناء زنا.
٥٤٧ – العقل لا يقبح كفر آباء النبي (ص) بشرط أن يكون النكاح شرعيا لا زنا.
سئل البعض:
السؤال: يدور كلام كثير حول ضرورة أن يتولد النبي عموما، أو نبينا محمد (ص) خصوصا من آباء مؤمنين موحدين، فما رأيكم بهذه المسألة؟
فأجاب:
" هناك كلام للشيخ المفيد بإجماع الشيعة، على أن آباء النبي إلى آدم (ع) كانوا موحدين على الإيمان بالله.. ويستند الشيخ المفيد في كتابه تصحيح الإعتقاد في الإحتجاج لذلك إلى قوله تعالى (.. الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين ((الشعراء: ٢١٨ – ٢١٩) قال: يريد به تنقله في أصلاب الموحدين.
ولكننا نلاحظ: أن الآية لا تدل على نفي تقلبه في غير الساجدين من آبائه لأنه يكفي في صدق ذلك أن يكون بعضهم من الساجدين.
مع ملاحظة أخرى، وهي أن ظاهر الآية هو الحديث عن قيام النبي (ص) لعبادة الله، وتقلبه في الساجدين من عباد الله، باعتبار استغراقه في السجود لله سبحانه.
وإذا كانت بعض الأحاديث تدل على إرادة خلاف الظاهر، مما ذكره الشيخ المفيد، فإنها تتحدث عن تقلبه في أصلاب النبيين، كما جاء في رواية محمد بن الفرات عن الإمام الباقر (ع)، وفي رواية أبي الجارود، عن الباقر (ع) قال: (سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله – عز وجل –: (وتقلبك في الساجدين (قال: يرى تقلبه في أصلاب النبيين، من نبي إلى نبي، حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم).
ومن المعلوم أنه ليس المقصود بذلك – على تقدير صحة الحديث – أن أجداد النبي بأجمعهم أنبياء، فيكون المقصود به أنه تقلب في أصلاب الأنبياء، من دون أن يكون نافيا لتقلبه في غيرهم.. "
أن قال:
" أما الإجماع فقد يكون مدركه كلام المفيد، فلا يكون تعبديا. ولا قبح من ناحية

العقل في كونهم كفارا، إذا كان النكاح شرعيا، لا زنا " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - إننا لا نريد أن نتصدى في هذه العجالة لبحث هذا الموضوع فنأتي بالروايات التي رويت في كتب الفريقين، مما دل على إيمان آباء رسول الله (صلى الله عليه وآله)..
فإن هذا الكتاب ليس كتاب بحث واستدلال، وإنما هو مخصص لبيان أقاويل جاء بها البعض.. لا مجال لقبولها في نفسها، أو في سياقها الذي وضعت فيه.
ويكفي أن نشير هنا إلى أنه حتى أهل السنة، فإنهم قد ألفوا كتبا في هذا الموضوع، وذكروا فيها الروايات التي تفيد في بيان هذا الأمر..
ومنها:
الف: مسالك الحنفا في والدي المصطفى.
ب: الدرج المنيفة في الآباء الشريفة.
ج: المقامة السندسية في النسبة المصطفوية.
د: التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله (ص) في الجنة.
ه: السبل الجلية في الآباء العلية.
وكلها مطبوعة بعنوان الرسائل التسع - للسيوطي في الهند - حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨٠ ه.
٢ - إنه إذا كان هذا البعض يلتزم بأن النفي يحتاج إلى دليل، كما الإثبات يحتاج إلى دليل.. فأين هو دليله على النفي، فإن غاية ما جاء به هو أن علق على بعض أدلة المثبتين.. ولم يأت بدليل يثبت مقولته هذه..
٣ - إن الدليل المطلوب من هذا البعض - على الخصوص - لابد أن يكون مفيدا لليقين، ولا يكفيه الإستدلال بالظواهر الظنية، وبالأدلة المعتبرة في خصوص الأحكام.. لأنه هو نفسه يقرر لزوم هذا النوع من الأدلة فيما يرتبط بالتاريخ، وبالأشخاص، وبالتفسير، وفي مختلف شؤون الحياة، وسائر

---

(١) المسائل الفقهية: ج ٢, ص ٤٤٩ و ٤٥٠.

المعارف.. ويرفض الاستدلال عليها بالأدلة المعتبرة في الأحكام الشرعية الفقهية ويقول: هي حجة فيها دون سواها.
٤ - إن هذا البعض قد ناقش الاستدلال بالآية، على أساس أنه يكفي في صدق تقلبه أن يكون بعض آبائه من الساجدين.
ولكن من الواضح: أنها مناقشة لا تصح.
فأولا: إن الظاهر هو أن هذه الآية واردة مورد الامتنان على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فحملها على العموم والشمول يكون هو الأظهر، والأنسب بمقام الامتنان الإلهي.. وبيان الرعاية الإلهية له (صلى الله عليه وآله)..
ثانيا: إن الجمع المحلى بالألف واللام يفيد العموم بإجماع العلماء كما هو مقرر في علم الأصول (١). وكلمة الساجدين جمع محلى بالألف واللام، فهي تدل على العموم.
٥ - إن دعواه أن ظاهر الآية هو تقلب النبي (صلى الله عليه وآله) بين عباد الله الساجدين باعتبار استغراقه في السجود لله سبحانه.. لا مجال لقبولها.. فإن غاية ما هناك أن يكون ذلك محتملا في معنى الآية بصورة بدوية.. فإذا جاء التفسير عن المعصوم ليعين أحد الاحتمالين.. فإنه يتعين، وينتفي الاحتمال الآخر.. لأن الأئمة أعرف بمقاصد القرآن من كل أحد.. فلا تكون الرواية المروية عنهم مخالفة لظاهر القرآن لمجرد أنها عينت هذا الاحتمال وأكدت أنه هو المقصود دون ذاك.
فلا يصح قوله:
" إذا كانت بعض الأحاديث تدل على إرادة خلاف الظاهر.. الخ "
٦ - بقي أن نشير إلى قوله:
" ليس المقصود أن أجداد النبي (ص) بأجمعهم أنبياء.. بل يكفي في صدق الآية أن يتقلب في أصلاب بعضهم، دون أن تنفي تقلبه في أصلاب غيرهم.. "
فقد ظهر: أن إرادة هذا المعنى لا تنسجم مع مقام الامتنان، كما أن نفس الرواية ظاهرة في العموم والشمول لجميع أجداده (صلى الله عليه وآله)، حيث تقول: يرى تقلبه في أصلاب النبيين، من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه.

---

(١) راجع: مفاتيح الأصول.

فإن التعبير بحتى التي جاءت لبيان الغاية، قد أظهر.. أن تقلبه في الأنبياء قد استمر من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه.. ولا يتناسب هذا التعبير مع إرادة الموجبة الجزئية..

٧ - إن من الواضح: أن النبوة لها حالاتها، فهناك نبي مرسل إلى الأمة وهناك من أرسل إلى قوم، وإلى عشيرة، وإلى حي، وقد يكون نبيا يكلمه الملك، ويخبره عن الله، وليس مرسلا لأحد.. بل يعيش هو حالة الصلاح في نفسه، ويكون الكمال المتجسد الذي يرى فيه الناس - دون أن يكون مأمورا بشيء تجاههم - الإنسان الإلهي المتوازن، والمرضي في كل حالاته.. فيهيؤهم ذلك لأجواء الإيمان، ويثير في فطرتهم كوامن الخير والصلاح، والإيمان والتقوى..

وعلى هذا الأساس، فلا ضير في أن يكون جميع آباء النبي الذين خرج من أصلابهم أنبياء إلى آدم، وإن لم تكن لهم دعوة، ولا رسالة تختص بهم، فيكون عبد الله والد النبي (صلى الله عليه وآله)، وعبد المطلب وكذلك آباؤه جميعا لهم هذه الصفة، وإن اختلفت مقاماتهم، ومهماتهم.. حسبما ذكرنا.

٨ - ويؤيد ذلك أيضا: ما ورد من أن الأرض لا تخلو من حجة، إما ظاهر مشهور، أو غائب مستور، ومن أولى من آباء رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذا المقام؟!

٩ - ويبقى إجماع شيعة أهل البيت (عليهم السلام)، الذي لم يقبل هذا البعض بأن يكون تعبديا، لأن من المحتمل أن يكون مستندهم فيه هو أدلة الشيخ المفيد..

ونقول:

إن حديثه عن تعبدية الإجماع هنا غريب وعجيب، فإن هذا الإجماع ليس على حكم شرعي، ليوصف بالتعبدية تارة وتنفى عنه أخرى.. بل هو إجماع يكشف لنا عن أن هذا الأمر الذي لا يعرف إلا من أهله ولا طريق إلى معرفته بالعقل، قد قرره أهله وهم الأئمة الطاهرون المعصومون، وتحدثوا عنه وذكروه للناس وصرحوا به، وقالوا: إن آباء النبي كلهم مؤمنون من آدم (عليه السلام) إلى عبد الله أبي رسول الله (ص)، لأن العلماء لا يقولون ذلك من عند أنفسهم، فهو علم من ذي علم.

وواضح أن من يريد التعرف على أي مذهب، فإنه يرجع إلى الأتباع الذين هم أعرف بقول إمامهم.

أضف إلى ما تقدم: أنه لو كان الإجماع تعبديا للزم أن يكون الإجماع على

الإمامة تعبديا أيضا، فهل يحكم هذا البعض برده لكونه مستندا إلى الأدلة؟!.. فهل هذا المنهج الإستدلالي صحيح أيضا؟!..

١٠ - وقال هذا البعض في آخر كلامه:

" لا قبح من ناحية العقل في كونهم كفارا، إذا كان النكاح شرعيا لا زنا ".

وظاهر كلامه هذا: أن القبح موجود فيما إذا لم يكن النكاح شرعيا..

فهل يريد أن يقول: إن شرك الآباء لا قبح فيه من ناحية العقل، أما الزنا ففيه قبح من هذه الناحية العقلية؟!

والسؤال هو: ما هو الفرق بين الأمرين؟ من الناحية العقلية البحتة؟! ولماذا قبح هذا ولم يقبح ذاك؟!

٥٤٨ - التقلب في أصلاب الآباء الأنبياء لا يدل على أن أولئك الأنبياء كانوا مؤمنين!!

يقول البعض:

" استدل الشيعة الإمامية على أن هذه الآية من سورة الشعراء:

(وتقلبك في الساجدين (تدل على أن جميع آباء النبي موحدون وأن معناها تقلبك في الساجدين الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبيا. وقد روي عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: يرى تقلبه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم (ع).

ولكن ذكرنا في تفسيرنا (من وحي القرآن)، أن المراد من الآية بحسب الظاهر من السياق، وقد ذكره جمع من المفسرين: يراك في تقلبك في الساجدين المصلين الذين يصلون معك، أو يراك في تحركك في أجواء السجود مع الفريق الذي يسجد لله خشوعا، في ما يمثله مجتمع الساجدين العابدين الذي تتقدمه أنت في الموقع الطليعي فيه، والله العالم. أما الرواية، فلا دلالة فيها إلا على طهارة الآباء من الولادة بالزنا " (١).

وقفة قصيرة

ونذكر هنا:

١ - إن ما قدمناه في الفقرة السابقة يكفي لبيان عدم صحة ما ذكره هذا البعض هنا.. ولسنا بحاجة إلى التذكير بأنه إذا كان أهل البيت قد فسروا الآية

---

(١) بينات عدد ١٥٧ بتاريخ ١١ شعبان ١٤٢٠ ه‍ ١٩ تشرين الثاني ١٩٩٩ م.

الشريفة بأن المقصود بها: أن الله سبحانه يرى تقلب نبيه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه. فلا بد من قبول ذلك منهم؛ فإن أهل البيت أعرف من كل أحد بمعاني القرآن، وبأهدافه ومراميه..

وكما قال الإمام الصادق (ع):

(فليذهب الحسن يمينا وشمالا فوالله ما يوجد العلم إلا هاهنا) (١).

ولن نصغي ولن نقبل من أحد أن يقول لنا: قال الإمام الصادق عليه السلام. وأقول، فما ذكره هذا البعض في تفسيره لا بد أن يرد عليه، وأن يؤخذ فقط بكلام أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم.

٢ - والأعجب من ذلك قول هذا البعض هنا:

" وأما الرواية فلا دلالة فيها إلا على طهارة الآباء من الولادة بالزنا ".

مع أن الرواية صريحة في أن الرسول لم يزل يتقلب في أصلاب النبيين: من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه.

مما يعني: أن جميع آبائه صلى الله عليه وآله قد كانوا مؤمنين أتقياء أبرارا. بل كانوا من الأنبياء، حتى والده عبد الله.. ولا مانع من أن يكونوا كذلك، فقد كان ثمة أنبياء تقتصر نبوتهم على أنفسهم، وعلى المحيط المحدود الذي يعيشون فيه، وقد تمتد نبوتهم إلى العشيرة أو الحي أو البلد الصغير أو الكبير.. من أجل أن يحفظوا الحق والخير في الناس بالمقدار الممكن لهم، بحسب ما يوجههم الله سبحانه إليه، ويأمرهم به، كما أشرنا سابقا.

٥٤٩ - نفي النبوة عن النبي (ص) قبل سن الأربعين.

ومن الواضح: أن هناك روايات رواها السنة والشيعة تدل على أن النبي (ص) قد كان نبيا منذ ولد يكلمه الملك ويسمع الصوت ثم أرسله الله رسولا للناس كافة بعد أن بلغ الأربعين، وكلمه الملك معاينة، ونزل عليه القرآن، قال المجلسي رحمه الله: إن ذلك ظهر له من الآثار المعتبرة والأخبار المستفيضة (٢).

لكن البعض يقول:

---

(١) الكافي ج ١ ص ٥١.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٢٧٧، وراجع كتابنا الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) ج ٢ ص ١٩٥ - ١٩٨.

" النبوة الفعلية لا بد لها من الوحي، ومن التكليف الإلهي، ولم يكلفه الله بالنبوة إلا بعد أربعين سنة " (١).

وقد كنا نتمنى أن يشير إلى تلك الآثار، والأخبار المستفيضة، ومن بينها ما هو معتبر وصحيح، التي اعتمد عليها المجلسي وغيره، خصوصا وأن هذا الأمر يحتاج إلى التعريف والتوقيف، وليس هو من الأمور التي يمكن ان تنالها العقول والأفهام..

---

(١) نشرة فكر وثقافة بتاريخ ٣ - ٨ - ١٩٩٦، ص ٢

العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي
خلفيات
كتاب مأساة الزهراء (ع)
الجزء الثالث
دار السيرة
بيروت - لبنان

المقصد الرابع:
مع الأئمة.. والأولياء
(عليهم السلام)

القسم الأول:
في رحاب دعاء كميل

٥٥٠ – علي عليه السلام يبين حاله.
٥٥١ – علي (ع) يطلب من الله أن يغفر ذنوبه وخطاياه.
٥٥٢ – يدا علي (ع) تقترفان الذنوب.
٥٥٣ – قلب علي (ع) يكسب الآثام.
٥٥٤ – الذنوب تقصم ظهر علي (ع).
٥٥٥ – الأجواء توقظ غرائز علي (ع).
٥٥٦ – غرائز علي (ع) تغلب عقله.
٥٥٧ – علي (ع) يقع في المعصية.
٥٥٨ – علي (ع) يعد الله بأنه سيتراجع عن خطئه وإساءته ومعصيته.
٥٥٩ – علي (ع) يطلب من الله أن لا يفضح ما اطلع عليه من سره.

وفيما يرتبط بلغة الحديث مع علي (ع) نجد أن البعض حين يشرح دعاء كميل، ليقرأه كل راغب حتى غير المسلم الذي يريد أن يتعرف من خلاله على نظرة المسلمين إلى إمامهم باعتبارهم اعرف الناس به وبشؤونه وحالاته.

فإذا رجع أحد ما إلى كتاب هذا البعض فسيجده يقول عنه:

" فلأن الله سبحانه وتعالى هو خير مرجو وأكرم مدعو فان الإمام علي (ع) يقسم عليه بعزته أن لا يحجب عنه دعاءه بسبب مما اقترفته يداه من الذنوب، وبما كسب قلبه من الأثام. وكأن لسان حال الإمام (ع) في كل ذلك:

يا رب أنت العزيز الذي لا يذل، وأنا الذليل أمامك، وأنت الرب الرحيم، أنا أدعوك وأتضرع إليك، أريد منك شيئا واحدا، وهو أن لا يحجب عنك دعائي وهو في طريقه إليك، ولا تجعل ذنوبي تمنع عنك دعائي، فالمهم عندي بمكان أن يخرج دعائي من قلبي ويصل إليك. اجعل قلبي ودعائي منفتحا عليك، لأن دعائي إذا وصل إليك فإنك تتقبل الدعاء، لأنك (خير مرجو، (و) أكرم مدعو).

ويتابع الإمام (ع) ببيان حاله قائلا:

ولا تفضحني بخفي ما اطلعت عليه من سري (يا رب هنالك الكثير من الأشياء التي أقوم بها من دون أن يراني أحد، أو أتكلم بشيء ولا يسمعني أحد، وأنت الساتر الرحيم. فيا رب، لا تفضحني في الدنيا وفي الآخرة، وأعدك بأني سأتراجع عن خطئي وإساءتي ومعصيتي " (١).

وقال:

" ماذا نشعر ونحن نرى عليا (ع) يسأل المغفرة تلو المغفرة، ثم لا يكتفي بذلك بل يتجاوزه إلى سؤال شفاعة الله سبحانه وتعالى له.

ألا تشعر: أن عليا (ع) لا يزال خائفا، ولا سيما أن الذنوب والخطايا التي طلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفرها له، هي من الذنوب الكبيرة التي يكفي ذنب واحد لينقصم الظهر منها " (٢).

وقال أيضا:

" فالإمام عليه السلام يقول: يا رب، لقد خلقت لي هذه الغرائز، ومن حولي أجواء تثير هذه الغرائز، تستيقظ غرائزي عندما تحف بها الروائح والأجواء الطيبة التي تثيرها.

أعطيتني عقلا ولكن غرائزي في بعض الحالات تغلب عقلي فأقع في المعصية " (٣).

وقد ذكرتني الكلمة الأخيرة بما يذكر ذلك البعض عن يوسف وامرأة العزيز، من أنه يندفع إليها كما يندفع الجائع إلى الطعام بصورة لا إرادية (أو إرادية) حسب تصريحه في مجلس آخر. وفي نص آخر قال: إنه (ع) عزم على أن ينال منها ما كانت تريد نيله منه...

٥٦٠ - لو أخذ الله عليا بما يناسب وضعه لما استحق إلا العذاب.

٥٦١ - لسان حال علي: أنا يا رب أهل للعذاب.

٥٦٢ - لسان حال علي: أنا في مقام العاصي، والمذنب.

٥٦٣ - علي يسأل الله أن يغفر له الذنوب التي تميت القلب.

٥٦٤ - علي يسأل الله أن يغفر له الذنوب التي تضع القلب في التيه، والضلالة.

٥٦٥ - علي يتوسل ليسأل الله مغفرة كل ذنب، وكل خطيئة.

٥٦٦ - علي يطلب السماح عن خطاياه، وذنوبه.

----

(١) في رحاب دعاء كميل ص ١٥٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٤.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٩.

٥٦٧ – علي يطلب مغفرة الذنوب التي تمس كيانه وشخصيته.
٥٦٨ – علي يطلب مغفرة الذنوب التي تجعل شخصيته متهالكة، وضعيفة.
٥٦٩ – يطلب مغفرة الذنوب التي تفقد شخصيته دورها الإيماني الفاعل.
٥٧٠ – يطلب مغفرة الذنوب التي تحوله إلى ركام هامشي لا دور له، ولا موقع.
٥٧١ – يطلب مغفرة الذنوب التي تجعله فارغا مضطربا سقيما.
٥٧٢ – يطلب مغفرة الذنوب التي تجعله فاشلا وساقطا.
٥٧٣ – علي لا يثق بعمله.
٥٧٤ – قد يكون في عمل علي غش كثير.

وفي سياق لغة الحديث مع علي – عليه السلام – نذكر النصوص الإضافية التالية:

يقول البعض:

" ويختم الإمام دعاءه بأن يسأل الله تعالى أن يتخذ بحقه ما يناسب ساحة قدسه تعالى من الرحمة، والعفو والمغفرة، لأنه تعالى (أهل التقوى والمغفرة)، لا أن يأخذه بما يناسب وضعه، لأنه لو أخذه بما يناسب وضعه لما استحق سوى العذاب.

فلسان حال علي (ع) يقول:

أنت، يا رب، (أهل التقوى والمغفرة) أي بيدك أن تغفر، وتتوب، وتسامح لا بيد أحد سواك، وحدك المؤهل لأن تتجاوز عن السيئات والأخطاء والمعاصي، فلأنك أنت الرب الرحيم، الرحمن، الحنان، المنان، المفضل المعطي، الجواد، الكريم، الشفيق، العطوف.. بينما أنا يا رب أهل للعذاب، استأهل العذاب، لأني في مقام العاصي، والمذنب، والمقصر بحقك وواجباتك. ولذا، يا رب، أسألك بحق محمد وآل محمد، أن تحاسبني بما أنت أهل له، لأن في ذلك نجاتي، ولا تأخذني بما أنا أهل لأن في ذلك خسراني وعذابي، وصل على محمد والأئمة الميامين من آله وسلم تسليما كثيرا " (١).

ويقول:

" هذا الشعور نتمثله في كلمات الإمام (ع): (اللهم إني أسألك سؤال خاضع متذلل خاشع أن تسامحني وترحمني)، عندما يطلب الرحمة من الله، والسماح من الله، حول ما أسلف من خطايا وما قام به من ذنوب، إنه يقول لله: أنا أطلب منك يا رب الرحمة والسماح بروح الإنسان الذي يشعر أن له عليك حقا، ليس ل

----
(١) في رحاب دعاء كميل: ص ٢٧٥ و ٢٧٦.

أحد في الكون حق عليك، حقك على الناس كلهم " (١).
ويقول:
" فكيف يمكن لمن ابتعد ونأى بنفسه عن الله تعالى أن تصيبه رحمته برذاذها، أو يلامسه لطفه تعالى بأنامل الحب والحنان؟ كيف يمكن لمن تحجر قلبه حتى بات صلدا أن ينفجر منه الماء، ماء الأمل والحياة.
ولذا يسأل علي (ع) الله سبحانه وتعالى أن يغفر له الذنوب التي تميت القلب، والتي تضع القلب في التيه، والضلالة، حتى يبقى على صلة الأمل بالله تعالى " (٢).
ويقول:
" ويبدو، من سياق سؤاله – عليه السلام – أن المراد بالخطيئة هنا هو المعنى الثاني لا المعنى الأول، أي المراد مطلق الخطأ.
فنحن نجد في سؤاله هذا – عليه السلام – توسعا في الطلب، فبعد أن سأل – عليه السلام – الله أن يغفر بعض الذنوب كتلك التي (تهتك العصم) و (تغير النعم) و (تنزل النقم)، (وتقطع الرجاء).. توسع في سؤال المغفرة ليشمل كل ذنب، وكل خطيئة، وفي ذلك استبطان عميق، واستشعار مرهف لرحمة الله تعالى، وجوده، وكرمه، ولطفه، وإحسانه، فهو – عليه السلام – يدفع بأمله إلى أقصى الحدود، هذا الأمل الذي ما كان ليتوقد ويسطع لولا التعلق برحمة الله تعالى، وعدم الوقوع في فخ القنوط واليأس من روحه تعالى، ولولا استحضار ما هو عليه الله سبحانه وتعالى من الجود، والكرم، والتجاوز، والمغفرة، فهو الرحمن الرحيم، وهو الجواد الكريم، وهو التواب الغفور " (٣).
ويقول:
" يقول الامام (عليه السلام): يا رب أنا ليس لي ثقة بعملي، لأنه قد يكون فيه غش كثير، فالدعاء ضمانة بيدي، كما أن كل شيء بيدك، يا الله، فافعل بي ما أنت أهله، ولا تفعل بي ما أنا أهله " (٤).
ويقول:

---

(١) في رحاب دعاء كميل: ص ١٠٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٨٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٨٦.
(٤) في رحاب دعاء كميل: ص ٢٧٠.

" إن عليا – عليه السلام – يشرع في هذا المقطع من دعائه في تبيان ما من أجله كان يتوسل مقسما بأسماء الله تعالى، وصفاته.
وهو يبدأ بسؤال المغفرة للذنوب التي من شأنها أن تمس كيانه وشخصيته، فتحيلها إلى شخصية متهالكة، ضعيفة، لا حول لها، ولا قوة، فاقدة لأي اعتبار أو موقع، أو دور فاعل وإيماني في الحياة.
وفي قوله – عليه السلام – إشعار بأن هناك من الذنوب، ما من شأنه أن يفتك بكينونة الإنسان، ويحوله إلى مجرد ركام ليس له من الحياة إلا صورتها، فهو يعيش على الهامش من دون أي حضور أو موقع أو دور، فهو إنسان تفتك به الأمراض المعنوية من كل حدب وصوب، فإذا به إنسان فارغ مضطرب، سقيم فاشل وساقط لا يكاد يلوي على شيء.
إن أخطر الأمراض وأفدحها هي تلك التي تصيب شخصية الإنسان، أي تصيب روح الإنسان لأنها تفتك بالبعد الرئيسي من أبعاد وجوده وتميزه، وتصيب محل كماله، ومستودع آفاقه وآماله، ومرتكز مصيره.
ولذا فإنه – عليه السلام – يسأل الله سبحانه وتعالى، أن يغفر له الذنوب التي لها أمثال هذه النتائج، لكي يصلح سره وعلانيته معا، فيستعيد مكانته وموقعه في الحياة " (١).
وقفة قصيرة
إن هذا البعض حين تصدى لشرح بعض الأدعية – كدعاء كميل وغيره – قد أوقع نفسه في ورطة كبيرة، حين ظهر أنه يتعامل في تعابيره – على الأقل – مع الأنبياء والأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين، من حيث التوقير والاحترام المطلوب بما هو أقل مما يتعامل به مع الخدم والحشم ومع المرافقين فضلا عن الأولاد والأحفاد، أو سائر الناس العاديين.
وقد ذكرنا هنا وفي مواضع متعددة من هذا الكتاب شطرا من كلماته التي تظهر هذا الأمر..
وكنا نتمنى له أن يوفق لإصلاح ظواهر كلماته.. خصوصا.. وأن ما سجله في حق الأئمة (عليهم السلام) إذا رجع اليه من لا يعرف الإسلام، ولا الأنبياء، ولا الأوصياء، نعم.. إذا رجع إليه وقرأ ذلك بهدف استخلاص ملامح الصورة عن هذا الإمام، وعن ذلك النبي (ص) باعتبار أنه يرجع إلى أحد أتباع تلك الشخصية والعارفين

---

(١) في رحاب دعاء كميل: ص ٧٢ ورؤى ومواقف: ج ١ ص ١٤٨ و ١٤٩.

بأحوالها. فسيخرج بتصور مغاير تماما للصورة الحقيقية لهم (عليهم السلام)، وذلك حين يجده يصورهم على أنهم يرتكبون من الكبائر ما ينقصم الظهر لكل واحدة منها.. وسيجد أن غرائزهم وأهواءهم تقودهم إلى ارتكاب الجرائم الخطيرة.. وما إلى ذلك..
ولكن – للأسف – فإن هذا البعض ليس فقط لم يبادر إلى إصلاح ظواهر تعابيره – بل ذهب ليتلمس التأويلات البعيدة، وغير المقبولة.. والغائمة.. فكان أن زاد الطين بلة والخرق اتساعا..

ولا نريد أن نقول هنا أكثر من هذا، ولبحث وبيان فساد تلك التأويلات والتوجيهات موضع آخر إن شاء الله.

واللافت: أن هذا البعض ليس فقط لا يتعامل مع الأنبياء والأوصياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بما يليق بشأنهم من التوقير والاحترام.

وإنما هو يظهر إلى جانب ذلك من الإكرام والاحترام والمجاملة لأهل الضلال، ومن بشاشة ولطف وانعطاف تجاه الفساق والمنحرفين والمنحطين إلى الدرك الأسفل، ممن عملهم دائب في سبيل محق دين محمد (صلى الله عليه وآله). ما يثير العجب. إن ذلك لا يقاس بما يظهر من ذلك البعض تجاه أهل الإيمان، حيث إنه حين تصل النوبة إليهم، فإن الأمر يتخذ منحى خطيرا في نقده اللاذع والمغرق في القسوة والبالغ في الشدة والحدة، بل إن هذه الشدة والحدة والقسوة البالغة منه لم يسلم منها حتى الأنبياء.

ومهما يكن من أمر، فإننا قد ذكرنا شطرا من كلماته التي تضمنت طائفة من تعابيره فيما يتعلق بأمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب عسى أن تكون كافية في إيضاح المقصود.

كيف نفسر أدعية الأئمة والأنبياء (ع)

وقد حاول هذا البعض أن يفسر أدعيتهم عليهم السلام بما ينسجم مع الأفكار التي يحملها عنهم.. الأمر الذي دعانا إلى إعطاء مفردات موجزة تسهل على القارئ معرفة الوجه والمنحى الصحيح لتلك التعابير من حيث انسجامها مع واقع العصمة لهم صلوات الله وسلامه عليهم.

ويمكن بيان حقيقة الأمر فيما يرتبط بالدعاء الصادر عن المعصومين مما

يتضمن توبتهم واستغفارهم من الذنوب التي تهتك العصم، وتنزل النقم، وتقطع الرجاء و.. الخ، مع أن شيئا من ذلك لم يصدر منهم! في ضمن النقاط التالية:

أولا: إن الله سبحانه حين شرع أحكامه، قد شرعها على البشر كلهم، على النبي والوصي المعصوم، وعلى الإنسان العادي غير المعصوم، وعلى العالم والجاهل، وعلى الكبير الطاعن في السن والشاب في مقتبل العمر، وعلى المرأة والرجل، وعلى العربي والأعجمي، وعلى العادل والفاسق.

فيجب على الجميع الصلاة والزكاة والحج، والصدق والأمانة، و.. الخ.. وقد رتبت على كثير من التشريعات مثوبات، وعلى مخالفتها عقوبات.. ينالها الجميع، وتنال الجميع بدون استثناء أيضا. حتى لو لم يفهموا معاني ألفاظها، ولم يدركوا عمق مراميها، كما لو كانوا لا يعرفون لغة العرب، أو كانوا أميين لم يستضيئوا بنور العلم.

فالثواب المرسوم لمن سبح تسبيحة الزهراء (ع) هو كذا حسنة.. لكل من قام بهذا العمل استحق هذه الحسنات.

كما أن لهذه العبادات آثارا خاصة تترتب على مجرد قراءتها، حتى لو لم يفهم قارؤوها معاني كلماتها، فمن قرأ آخر سورة الكهف مثلا، وأضمر الاستيقاظ لصلاة الصبح في الساعة الفلانية، فإن الاستيقاظ سيتحقق، كما أن من كتب نصا بعينه يشفي من الحالة الكذائية، فإن الشفاء يتحقق.

كما أن المعراجية للمؤمن المترتبة على الصلاة في قوله (ع): الصلاة معراج المؤمن. أو القربانية في قوله (ع): الصلاة قربان كل تقي. سوف تتحقق بالصلاة حتى لو لم يفهم المصلي معاني كلماتها، ومرامي حركاتها فإن نفس هذا الاتصال بالله سبحانه بطريقة معينة ومحدودة على شكل صلاة أو زيارة، أو تسبيح وغير ذلك مما شرعه الله سبحانه، يحقق هذه الآثار، ويقود إليها، إذا كان مع نية القربة وظهور الانقياد والتعبد لله سبحانه وفق تلك الكيفيات المرسومة من قبله تعالى، وذلك يحقق غرضا تربويا، وإيحائيا تلقينيا يريد الله سبحانه له أن يتحقق.

ولأجل ذلك نجد: أن النبي (ص) يقول: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)، ويقول في الأذان والإقامة:

أشهد أن محمدا رسول الله.. ويقول ذلك غيره.. ولا يصح منه الأذان ولا

الإقامة، ولا يحصل على ثوابهما، ولا على ثواب الصلاة ولا على آثارها بدون الاتيان بكل ما هو مرسوم فيها.
والرجل والمرأة يقرآن في دعاء واحد: ومن الحور العين برحمتك فزوجنا.. ولا يعني ذلك: أن تقصد المرأة مضمون هذه الفقرة بالذات وبصورة تفصيلية بل هي تقصد الإتيان بالمرسوم والمقرر.
وإذا سألت: هل يعقل أن تكون صلاة النبي (ص) والولي عليه السلام كصلاة أي إنسان عادي آخر من حيث ثوابها، وتأثيراتها؟
فإن الجواب هو: إن التفاوت إنما يكون فيما ينضم لذلك المرسوم من حالات الإخلاص أو ما يصاحبه من تعب وجهد، فالثواب إنما هو بإزاء خصوصية إضافية (كالخشية) التي أنتجتها عوامل أخرى كمعرفة الله سبحانه، وكمال العقل، والسيطرة على الشهوات والميول.. أو أي جهد آخر إضافي قد بذل ووعد الله عليه بالمثوبة المناسبة له على اعتبار: أن أفضل الأعمال أحمزها..
فاتضح مما تقدم: أن إتيان المعصوم بالعبادات المرسومة، ومنها الأدعية لا يستلزم أن يكون قد أصبح موضعا لكل ما فيها من دلالات، فلا يكون استغفاره دليلا على وقوع الذنب منه.
ثانيا: يقول بعض المهتمين بقضايا العلم: إن أجهزة جسم الإنسان تقوم بوظائف لو أردنا نحن أن نوجدها بوسائلنا البشرية لاحتجنا ربما إلى رصف الكرة الأرضية بأسرها بالأجهزة: هذا على الرغم من أنه إنما يتحدث عن وظائف الجسد وخلاياه التي اكتشفت، مع أنه لم يتم اكتشاف الكثير الكثير منها حتى الآن فضلا عن سائر جهات وجود هذا الإنسان.
فالله سبحانه يفيض الوجود والطاقة والحيوية على كل أجهزة هذا الجسد وخلاياه لحظة فلحظة وهذه الفيوضات وطبيعة المهام التي تنتج عنها، وكل هذا التنوع وهذه التفاصيل المحيرة تشير إلى عظمة مبدعها في علمه وفي إحاطته، وفي حكمته، وفي تدبيره، وفي غناه، وفي قدرته ووو..
فإذا كان النبي والولي المعصومان يدركان هذه النعم التي لولا الله سبحانه لاحتجنا لإنجازها إلى أجهزة تغلف الأرض بكثرتها.

ويعرف أيضا: بعمق أنه المحل الأعظم لتلك النعم ويعرف عظمتها وتنوعها في مختلف جهات وجوده ويجد ويحس بآثارها في جسده، وفي روحه ونفسه، وكيف أن كل ذرة في الكون مسخرة لأجله، ولأجل البشر كلهم حسبما صرح به القرآن الكريم، ويعرف الكثير من أسرار ملكوت الله سبحانه..

وخلاصته

أن النبي والولي يحس أكثر من كل أحد بقيمة وعظمة واتساع النعم التي يفيضها الله عليه.

فلا غرو إذن إذا كان يرى نفسه - مهما فعل - مذنبا، ومقصرا لعدم قيامه بواجب الشكر لذلك المنعم العظيم.. بل هو يبكي.. ويبكي من أجل ذلك، ولا يكف عن بذل الجهد.. وحين يقال:

يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر؟ نجده يقول: أفلا أكون عبدا شكورا.

ونوضح ذلك بالمثال، فنقول: إن من يريد تقديم هدية لسلطان أو ملك، فإنه قد لا يجد فيما يقدمه ما يناسب جلال السلطان وأبهة الملك، فيرى نفسه مقصرا فيما قدمه إليه.. بل ومذنبا في حقه.. تماما كما كان لسان القبرة التي أهدت لسليمان جرادة كانت في فيها، وذلك لأن الهدايا على مقدار مهديها.

وواضح أن حال المعصوم مع الله تختلف عن حالنا، فهو يعرف الله حق معرفته، ولأجل ذلك فإن عبادته له ليست خوفا من ناره ولا طمعا في جنته، بل لأنه يراه أهلا للعبادة، فهو يعبده عبادة العارفين، والعالمين.. كما أنه يعرف أيضا أن موقعه يجب أن يكون موقع العبودية التامة، والخالصة، لأنه واقف على حقيقة ذاته في ضعفه، وفي واقع قدراته، وحقيقة قصوره وحاجته إليه في كل آن، كما هو واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان.. ويرى نفسه مذنبا في هذا التقصير.. وقد يجر عليه ذلك فقدان لطف الله به، وهتك العصم التي يكون بها قوته وثباته، ثم قطع الرجاء، وحبس الدعاء.. الخ.

ثالثا: وبتقريب آخر نقول: إن نسيج الأدعية والأذكار حين يراد له أن يكون دعاء أو ذكرا مرسوما للبشر كلهم بجميع فئاتهم، ومختلف طبقاتهم

ويلائم جميع حالاتهم، وتوجهاتهم، فإنه يكون - بما له من المعنى - بحيث يتسع لتطبيقات عامة ومتنوعة، ويجمعها نظام المعنى العام.

ويساعد على اتساع نطاق تلك التطبيقات، ويزيد في تنوعها مدى المعرفة بمقام الألوهية، ومعرفة أياديه ونعمه وأسرار خلقه وخليقته تبارك وتعالى وما إلى ذلك.. من جهة.. ثم معرفة الإنسان بنفسه، وبموقعه، وحالاته.. و.. من جهة أخرى. فبملاحظة هذا وذاك يجد المعصوم نفسه - نبيا كان أو إماما - في موقع التقصير، ويستشعر من ثم المزيد من الذل والخشية، والخشوع له تعالى.

فالقاتل والسارق والكذاب حين يستغفر الله ويتوب إليه، فإنما يستغفر ويتوب من هذه الذنوب التي يشعر بلزوم التخلص من تبعاتها، ويرى أنها هي التي تحبس الدعاء وتنزل عليه البلاء، وتهتك العصم التي تعصمه، ويعتصم بها، وتوجب حلول النقم به.

أما من ارتكب بعض الذنوب الصغائر، كالنظر إلى الأجنبية، أو انه سلب نملة جلب شعيرة، أو لم يهتم بمؤمن بحسب ما يليق بشأنه.. وما إلى ذلك..

فإنه يستغفر ويتوب من مثل هذه الذنوب أيضا، ويرى أنها هي التي تحبس دعاءه، وتهتك العصم التي تعصمه ويعتصم بها، وتحل النقم به من أجلها.

وهناك نوع آخر من الناس لم يقترف ذنبا صغيرا ولا كبيرا، فإنه حين يقصر في الخشوع والتذلل أمام الله سبحانه، ولا يجد في نفسه التوجه الكافي إلى الله في دعائه وابتهاله، بل يذهب ذهنه يمينا وشمالا.. فإنه يجد نفسه في موقع المذنب مع ربه، والعاق لسيده، والمستهتر بمولاه. وهذه ذنوب كبيرة بنظره، لا بد له من التوبة والاستغفار منها.. وهي قد توجب عنده هتك العصم التي اعتصم بها، وحلول النقم، وحبس الدعاء، وقطع الرجاء، وما إلى ذلك.

أما حين يبلغ في معرفته بالله سبحانه مقامات سامية، كما هو الحال بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام، أو بالنسبة لرسول رب العالمين، فإنه لا يجد في شيء مما يقوم به من عبادة ودعاء وابتهال: أنه يليق بمقام العزة الإلهية.

بل هو يعد الالتفات إلى أصل المأكل والمشرب والاقتصار على مثل هذه الطاعات تقصيرا خطيرا يحتاج إلى الخروج عنه إلى ما هو أسمى وأسنى، وأوفق بجلال وعظمة الله سبحانه، وبنعمه وبفضله وإحسانه وكرمه..

وهذا التقصير - بنظره - لا بد أن ينتهي إلى الحرمان من النعم الجلى، التي يترصدها، حينما لا يصل إلى درجات تؤهله لتقبلها، وكذلك الحال بالنسبة إلى نفوذ دعائه وحجبه عن أن يستنزل العطايا الإلهية الكبرى، أو يرتفع به إلى مقامات سامية يطمع بها، ويطمح إليها.. كما أن النبي والوصي قد يجد نفسه غير متمكن من العصم التي يريد لها أن تكون منطلقا قويا يدفع به إلى ما هو أعلى وأسمى، وأجل.

وبعبارة أخرى: إنهم يرون: أن عملهم هو من القلة والقصور بحيث يوجب حجب الدعاء، ووقوعهم بالبلاء، ومن حيث إنه غير قادر على النهوض بهم بصورة أسرع وأتم ليفتح لهم تلك الآفاق التي يطمحون لارتيادها، ما دام أن شوقهم إلى لقاء الله يدعوهم إلى الطموح إلى طي تلك المنازل بأسرع مما يمكن تصوره.

فما يستغفر منه الأنبياء والأوصياء، وما يعتبرونه ذنبا وجرما.. إنما هو في دائرة مراتب القرب والرضا وتجليات الألطاف الإلهية.. وكل مرتبة تالية تكون كمالا بالنسبة لما سبقها، وفي هذه الدائرة بالذات يكون تغيير النعم، ونزول النقم، وهتك العصم الخ.. بحسب ما يتناسب مع الغايات التي هي محط نظرهم عليهم السلام.

والخلاصة: إن كل فئة من هؤلاء إنما تقصد الاستغفار والتوبة تطبيقا للمعنى الذي يناسب حالها، وموقعها وفهمها ووعيها، وطموحاتها وخصوصيات شخصيتها، وحياتها وفكرها وواقعها الذي تعيشه، أي أنهم يقرؤون الأدعية ويفهمونها، ويقصدون من تطبيقات معانيها ما يناسب حال كل منهم، وينسجم مع معارفهم، وطموحاتهم.. ولكنها على كل حال أدعية مرسومة على البشر كلهم، وللبشر كلهم.

لفت نظر

وأخيرا.. فإننا نلفت القارئ الكريم إلى الأمور التالية:

أولا: إن إنكار البعض أن يكون دعاء النبي (ص) أو الإمام (عليه السلام) تعليميا، ليس في محله، إذ لا ريب في أن ثمة أدعية قد جاءت على سبيل التعليم للناس، وبالأخص بعض الأدعية التي تعالج حالات معينة كالأدعية التي لبعض الأمراض أو لدفع الوسوسة أو لبعض الحاجات، وما إلى ذلك.. أو تريد بيان التشريع الإلهي للدعاء في مورد معين وقد لا يكون النبي (ص) أو الإمام (عليه السلام) موردا لذلك التشريع لسبب أو لآخر..

ثانيا: قوله إن الإمام إنما يدعو الله من حيث هو إنسان، لا يحل المشكلة، فإنه

إذا كان هذا الإنسان لم يرتكب ذنبا، ولا اقترف جريمة، فلماذا يطلب المغفرة الإلهية؟ ولماذا يبكي ويخشع؟! فإن الإنسانية من حيث هي لا تلازم كونه عاصيا.

وإن كان قد أذنب وأجرم بالفعل، فأين هي العصمة؟ وأين هو الجبر الإلهي – المزعوم من قبل هذا البعض – في عصمة الأنبياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟!.

ثالثا: إن من الواضح أن الذنوب المشار إليها في الأدعية لم يرتكبها الداعي جميعا، فكيف إذا كان هذا الداعي هو المعصوم كما اعترف به هذا البعض.. وذلك يشير إلى صحة ما ذكرناه في الوجوه التي أشرنا إليها آنفا وخصوصا الأخيرة منها.

رابعا: إن المراد بالمغفرة في بعض نصوص الأدعية خصوصا بالنسبة إلى المعصوم، هو مرحلة دفع المعصية عنه، لا رفع آثارها بعد وقوعها..

كما أن الطلب والدعاء في موارد كثيرة قد يكون واردا على طريقة الفرض والتقدير، بمعنى أنه يعلن أن لطف الله سبحانه هو الحافظ، والعاصم.. ولكن المعصوم يفرض ذلك واقعا منه لا محالة لو لم يكن الله يكفي بلطف منه، فهو على حد قول أمير المؤمنين (عليه السلام)..

(لست بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني) (١).

وقد شرحنا هذه الكلمة في بحث مستقل، بعنوان (لست بفوق أن أخطئ) فليراجعه من أراد..

---

(١) الكافي ج ٨ ص ٢٩٣ وبحار الأنوار ج ٢٧ ص ٢٥٣ وج ٤١ ص ١٥٤ وج ٧٤ ص ٣٥٨ / ٣٥٩ ونهج البلاغة ص ٢٤٥ ط دار التعارف بيروت.

القسم الثاني:
سيدة النساء فاطمة
(عليها السلام)

يقول البعض عن كتاب الزهراء القدوة:
" قد قام فضيلة العلامة الشيخ حسين الخشن - حفظه الله - بجمع وتنسيق الكلمات وإعداد تلك الأحاديث بأسلوب شيق، وتدقيق وتحقيق، وتوزيع الموضوعات بالمستوى الرفيع، بحيث أصبح هذا الكتاب (الزهراء القدوة) يمثل كل فكري في سيدة نساء العالمين راجيا له من الله الأجر وللكتاب. المزيد من النفع للقراء الذين سوف يجدون في هذه الكلمات إنسانا يتجلى في فكره عظمة الزهراء وقداستها وعظمتها بدلا مما يثيره الذين لا تقوى لهم أمام الغوغاء بما هو العكس في ذلك، سائلا الله لهم الهداية إلى الصراط المستقيم، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل " (١).
ونقول:
١ - إننا سنجد في هذا الكتاب: الشيء الكثير من مقولات هذا البعض التي تتمثل فيها الجرأة غير المقبولة حينا، وغير المعقولة حينا آخر.. وأنه رغم محاولات الابتعاد به عن مواقع الصراحة التامة والتوسل بالأساليب البيانية التي تمكن الكاتب من التمرير، ثم التبرير.. فإنه بقي قادرا على أن ينم عن أفكار صاحبه، ويدل على نواياه.. وسيظهر هذا القسم من الكتاب بعضا من ذلك.. إن شاء الله تعالى. وسيظهر لكل أحد.. أن الكتاب المشار إليه يمثل وثيقة إدانة لهذا البعض لن يكون بإمكانه التملص والتخلص منها إلا بالتراجع عن تلك المقولات، وإلا بالتصحيح، وبالإعلان لذلك بشكل واضح وصريح.
٢ - إن هذا الكتاب لا يمثل كل فكر هذا الرجل، فهناك أشياء كثيرة

----

(١) الزهراء القدوة: ص ٦.

وخطيرة قد سجلها في مؤلفاته الأخرى وغيرها.. قد تجاهلها هذا الكتاب ولم يكد يقترب منها، ولا اجترأ على الالماح إليها..

ولعله يترصد الفرصة المناسبة لذلك، ربما حين يشعر في نفسه بعضا من القوة، أو بعضا من الحصانة والامتناع فيما يتخذه لنفسه من أبراج يتصور أنها عاجية أو غيرها.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد..

١ - فإننا آثرنا أن نتحدث في هذا القسم الخاص بالزهراء، بدرجة من الصراحة، وأن نسمي الأمور بأسمائها، ما دام أن مراعاتنا الشديدة السابقة، ونأينا بأنفسنا عن التصريح إلى التلميح لم يمنع من توجيه أنواع التهم إلينا، كما أنه لم ينفع في تعديل هذا البعض لأفكاره، ولا في تراجعه عن أي من مقولاته.. فلماذا إذن نراعي.. ولماذا نتحفظ، ولماذا نلمح، ولا نصرح، والمقولات لم تزل على حالها، والإهانات للأنبياء والأوصياء وللعلماء وللمراجع.. لم تتغير ولم تتبدل.

وللإجابة على ذلك نقول:

إننا لا ننظر إلى الأمر من ناحية علاقته بنا كأشخاص وإنما أحببنا أن لا يتخذ الآخرون من ذلك ذريعة ووسيلة للطعن على المذهب، وعلى أهله.. ثم من أجل أن لا نحرج الكثير من محبيه، ولا نثير حفيظتهم، وليتمكنوا من تقبل هذا الأمر بروح طيبة ونفس رضية بعيدة عن مشاعر التعصب للأشخاص.

٢ - سنخصص هذا القسم للإلمام بطائفة من مقولات هذا البعض حول السيدة الزهراء (عليها السلام) وسيرى القارئ الكريم أننا لم نقتصر على ما ذكره هذا البعض عن السيدة الزهراء (ع) في كتبه، بل ذكرنا أيضا - وإن كان يسيرا جدا - بعضا مما قاله عنها في خطبه المسجلة على أشرطة الفيديو والكاسيت.. والمتداولة بين الناس،

وتباع في الأسواق في مراكز التسجيلات الصوتية التابعة لمؤسساته.
والسبب في ذلك: أنك تجد أكثر مقولاته في سائر المجالات قد أثبتها في الكتب والمؤلفات، وعلى صفحات الجرائد والمجلات وأنها تنشر بصورة متكررة في كتب تختلف أسماؤها، وتتفق في كثير من مضامينها عادة.. لكن مقولاته عن الزهراء أبقاها - في أكثرها - في دائرة المسموع، لا المكتوب، ولم يسمح لها بأن تطبع في كتاب، أو أن تحتويها جريدة، أو مجلة، إلا بعد رقابة صارمة، يمارس فيها الكثير من التقليم، والتطعيم، بهدف التعتيم على هذا الفريق، أو ذاك.. وإذ لزم الأمر فإن التحريف والتشويه هو الحل، ما دام أن آخر الدواء الكي.
٣ - قد صدر مؤخرا كتاب باسم (الزهراء القدوة) اعتبره هذا البعض يمثل كل فكره عن الزهراء، وبمقارنة بسيطة بين ما ذكره هذا البعض في محاضراته سواء ما كان منها عبر الإذاعة التابعة له أو غيرها، وبين ما اختير بعناية فائقة ليودع في هذا الكتاب، فإنك ستجد البون شاسعا، والفارق كبيرا جدا، يوحي لك بحجم التدليس الذي يمارسونه في خصوص موضوع الزهراء (عليها السلام)..
ومهما يكن من أمر فهناك عشرات من أشرطة الكاسيت والفيديو، بصوت وصورة هذا البعض قد تضمنت مقولات خطيرة له حول قضايا الزهراء (عليها السلام)..
ولم يعتذر هذا البعض عن أي واحدة من تلك المقولات إلى هذا التاريخ.. بل هو يحتفظ بها، ويدافع عنها.. بين الحين والآخر..
أما هذا الكتاب الأخير - الذي يقول إنه يمثل كل فكره، فإنه لن يفيد شيئا، إذ إنه هو نفسه قد قرر للناس عبر إذاعته: أن تراجعه الظاهري الذي أعلنه في سنة ١٩٩٣ م في رسالة منه إلى قم.. إنما كان بهدف درء ما أطلق عليه هو اسم الفتنة، واستجابة لنصائح بعض أصدقائه!!
٤ - وهذا معناه: أن الأجيال المقبلة سوف تعتبر هذا الكتاب أيضا من مفردات الانحناء أمام العاصفة، ويراد به التخلص من الضغوط التي يواجهها، فهو إذن لا يمثل حقيقة رأيه، لا سيما وأنه لم يعلن عن خطأ أي من آرائه السابقة.. بل قد أعلن أنه لم يحدث فيها أي تغيير، وأنه ملتزم بها ومسؤول عنها كلها، ومنذ عشرات السنين إلى الآن..

٥ - على أن هذا الكتاب، وإن كان يلهج باستمرار بالمديح والثناء على السيدة الزهراء (عليها السلام)، لكنه يخفي في طياته أمرا، أو فقل أمورا تجعل هذا المديح بلا فائدة ولا عائدة. بل هي تجعل منه غطاء لتمرير مقولات كثيرة، ربما يراد بهذا الكتاب التأسيس للاحتفاظ بها من جهة.. وإعطاء الفرصة لإسكات المعترضين، وتغيير المفهوم المعروف عنها..

أولا: يصور أن العلاقة بين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين الزهراء (عليها السلام) هي علاقة إنسان هو في القمة في خصاله وميزاته الشخصية، وخلقه الرفيع بابنته التي تحمل أيضا مواصفات شخصية مميزة، وليس ثمة أكثر من ذلك.. فليست المسألة مسألة اصطفاء إلهي، وتربية ورعاية ربانية، لمن هم صفوة الوجود، وخيرة الله، ووجه الله، وجنب الله، وباب الله.. ولأجل ذلك، فإن ما يمدح شخصها به، لا يختلف كثيرا عما يمدح به أية امرأة صالحة من سائر الناس.

ثانيا: هناك مقولات كثيرة ناقشنا في هذا القسم طائفة منها، وقد سعى هذا البعض في كتابه هذا إلى التأكيد على عدد منها.. كما أنه قد سعى إلى خلق مناخات تسمح له في بالمستقبل بإعادة التأكيد على مقولات جريئة أخرى عرفت عنه. لم ير الوقت مناسبا الآن لإثارتها بصراحة وقوة..

أضف إلى ذلك أنه استطاع أن يخفف من حدة وصراحة مقولات كثيرة له إلى درجة تجعل الإنسان العادي يكاد يتوهم أنه قد اصلح أو تراجع عن بعض ما كان قد أعلن عنه منها..

٦ - إننا في هذا القسم لن نقتصر على خصوص الموارد التي أشرنا إليها واجبنا عنها في كتاب مأساة الزهراء، بل سنورد هنا بعضا من كلامه في موارد أخرى أيضا.. ونسجل إجابات سريعة عن طائفة منها، وسنغض الطرف عن طائفة أخرى لوضوح فسادها لكل أحد..

وسيجد القارئ الكريم أننا لم نحاول استقصاء أقاويله حول هذا الموضوع، على أساس أن خير الكلام ما قل ودل.

وسيظهر بما لا مجال معه للشك عدم صحة ما يحاولون التسويق له، من أن القضية هي مجرد قضية كسر الضلع - وحسب - وهي لا تستحق هذا المستوى من

التصدي والمواجهة.. فإن المسألة ليست من أصول الدين على حد تعبير أحدهم، نعم سوف يتضح أن القضية أكبر من ذلك بكثير، فإن هذا البعض ينكر كل شئ جرى على الزهراء بعد وفاة أبيها، سوى غصب فدك بحسب الظاهر، بل قد شكك حتى في صحة أقوال الزهراء في فدك حسبما ذكرناه في محله من هذا الكتاب، فهو ينكر ضربها، وإحراق بابها، ودخول بيتها، وإسقاط جنينها، وكسر ضلعها..

بل هو يدعي:

" أن احترامهم وحبهم لها، ومكانتها (ع) لديهم يمنعهم من ذلك كله، ومن توجيه أية إساءة حقيقية لها.. ".

ونحن نستهل هذا القسم بالإشارة إلى بعض تناقضاته فيما يتعلق بالسيدة الزهراء (عليها السلام)، ثم نتبع ذلك بطائفة من أقاويله حولها، ونتمنى أن يجد القارئ فيها ما يكفي لإعطاء فكرة واضحة عن حقيقة ما يعتقده هذا البعض في قضايا السيدة الزهراء (عليها السلام)، وفيما جرى عليها..

ومن الله نستمد العون، وهو ولي التوفيق..

المطلب الأول:
مقولات جريئة حول
الزهراء (عليها السلام)

الفصل الأول:
مقولات متناقضة حول
الزهراء (عليها السلام)

بداية
إن الملفت هنا هو: أن هذا البعض قد نقض كلامه، واختلفت أقاويله حول الزهراء (ع) في أكثر من مورد.. ولا يمكن عد ذلك تراجعا عن أقاويله السابقة، ما دام أنه لم يعلن أن ما سبق كان خطأ، وأنه قد امتنع عن الالتزام به، بل إن ذلك أيضا لا ينفع إذا لم يتم إعلام الناس بأن الطبعات التي تتناقض فيها المطالب والآراء، ليس كل ما فيها صحيحا.. خصوصا فيما يرتبط بكتابه المسمى ب " من وحي القرآن " لجهة أنه كان قد أعلن في سفره للحج في سنة سابقة:
" أن كل ما فيه بكلا طبعتيه (طبعة دار الزهراء، وطبعة دار الملاك) صحيح.. "
غير أنه لما ظهرت الطبعة الثانية، ظهرت التناقضات فيما بينها وبين سابقتها.. ولا يزال هو المطالب بالإجابة على سؤال: هل يمكن الالتزام بالرأيين المتناقضين في آن واحد.. وهل يمكن القول بأن جميع ما ورد في الطبعتين صحيح؟
ومهما يكن من أمر فإننا نذكر من تناقضاته الكثيرة هنا ما يلي:
٥٧٥ - تارة يقول: إن آيات إرث سليمان لداود ويحيى لزكريا ناظرة لإرث الموقع.
٥٧٦ - وأخرى يقول: إنها تتحدث عن إرث المال.
فأي هذين هو الصحيح.
قال في كتاب من وحي القرآن عن آيات ارث سليمان لداود، وعن قول زكريا: (فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب (.
" إن المقصود بهما هو ارث الموقع لا المال ".
" فلا دلالة لهما على إرث الزهراء (ع) لفدك.. "

ثم قال عن هذه الآيات بالذات في كتاب الزهراء القدوة (١).
" إنها تتحدث عن إرث المال.. "
٥٧٧ - تارة يقول: عرف قبر الزهراء (ع).
٥٧٨ - وأخرى يقول: لم يعرف.
وكذلك الحال بالنسبة لمعرفة قبر الزهراء (ع) فإنه كان قد ادعى أنه قد عرف وذلك في شريط معروف ومسجل بصوته.
وهذا الشريط هو الذي كان السبب في تنبه العلماء لحقيقة ما يجري وأثار نقدهم لمقولاته وألفت نظرهم لمخالفاته.
ولكنه عاد فقال:
" إن قبرها لا يزال غير معروف " (٢).
٥٧٩ - العصمة إجبارية..
٥٨٠ - العصمة لا تسلب الاختيار.
وإذا قارنا بين أقواله حول العصمة فنجدها متضاربة ومتناقضة، فإنه تارة يطلق كلامه ويقول:
" إنها على نحو الإجبار، سواء في عصمة الأنبياء، أو الأئمة، أو الزهراء عليهم السلام ".
وأخرى يقول:
بل هي إجبارية في ناحية المعاصي فقط،
وقد تحدثنا عن هذا الأمر أكثر من مرة..
وثالثة يتراجع عن ذلك حيث يتحدث أخيرا عن عصمة السيدة الزهراء (ع) ويقول:
" إن الله قد أودع فيهم عناصر القداسة والروحانية والعلم، لكن هذا لا يستلزم سلبهم الاختيار " (٣).

---

(١) الزهراء القدوة ص ٢٩٦ و ٢٩٩.
(٢) الزهراء القدوة: ص ١١٤
(٣) هذا الرأي الأخير ذكره في كتاب: الزهراء القدوة ص ١٦٤.

٥٨١ - الزهراء رضيت عن الشيخين.
٥٨٢ - الزهراء لم ترض عنهما.
وكان قد قال:
" إن الشيخين قد جاءا إلى الزهراء فاسترضياها فرضيت.. "
ولكنه عاد أخيرا ليعلن في كتاب جديد يقول عنه:
" إنه يمثل كل فكري في سيدة نساء العالمين "؛ " إنها لم ترض عنهما حينما جاءا لاسترضائها " (٢).
فأي ذلك هو الصحيح؟
٥٨٣ - تناقضه في تفسير كلمة, (وإن).
وكان قد قال:
" قيل للثاني لما جمع الحطب، وأراد إحراق بيت الزهراء (ع): إن في الدار فاطمة!!
فقال: وإن..
إن معنى هذه الكلمة: أنه وإن كانت فيها فاطمة، فنحن لا شغل لنا بها، نحن جئنا لاعتقال علي فقط.. "
لكنه عاد أخيرا، فسجل في كتاب يقول:
" إنه يمثل كل فكره عن الزهراء (ع): " إن معنى هذه الكلمة: " أنه لا مقدسات في هذا البيت، فلا مانع من أن يحرق على أهله " (٣).
ومن تناقضاته التي نحب إلقاء المزيد من الأضواء حولها.. الموارد التالية:
٥٨٤ - المباهلة أسلوب تأثير نفسي للإيحاء بالثقة.
٥٨٥ - المباهلة لا تدل على فضل الزهراء (ع)، بل تدل على أن أباها كان يحبها.
٥٨٦ - المباهلة تدل على عظيم فضل الزهراء.
ورغم أن هذا البعض كان قد قرر: أن المباهلة بالزهراء وبعلي والحسنين، إنما تدل على أن النبي (ص) قد جاء بأحب الناس إليه. وأنه على استعداد للتضحية حتى بابنته وولديها، وبابن عمه في سبيل هذا الدين، فلا دلالة فيها على عظيم ما لهم من فضل.

---

(٢) الزهراء القدوة: ص ١١٢ و ١١٣.
(٣) الزهراء القدوة: ص ١٠٩.

لكنه بعد أن واجه الاعتراضات عاد وقال في كتابه الذي حاول تلطيفه قدر الإمكان:
" من هنا كانت الآية الشريفة دليلا بينا على عظمة أهل البيت - بمن فيهم سيدتنا فاطمة (ع)، ومنزلتهم الرفيعة عند الله وعند رسوله (ص) ".
فإذا كانت آراؤه لم تتغير منذ ثلاثين سنة، فهل هذا الرأي أيضا منها؟! وإن كان ملتزما بآرائه كلها كما يقول، فهل يلتزم هنا بكلا الرأيين المتناقضين؟! وإذا كان أحدهما خطأ فلماذا لم يشر إليه، ويدلنا عليه؟!
ويلاحظ هنا: أن هذا البعض إن صح أنه قد تراجع عن عدد يسير جدا من آرائه، ربما لا يصل إلى عدد أصابع اليد أو اليدين.. فإن ذلك إنما جاء في الموارد غير الأساسية، وغير الحساسة، وهي تلك التي لا يحدث تراجعه عنها أي ضرر في التصور العام، وفي الهيكلية العامة التي رسمها للإسلام الذي يريد أن يحمل الناس عليه، بطريقة أو بأخرى..
وقد قلنا: إننا نشك في أن تكون هذه الموارد اليسيرة داخلة في دائرة التراجع والتصحيح، إذ إننا نحتمل:
١ - أن تكون قد جاءت لتهدئة الجو العام والسيطرة عليه مع يقينه بأن الناس سوف يعرفون حقيقة رأيه بعد هدوء العاصفة، حيث إنه قد احتفظ به مكتوبا أو مسجلا في المواقع الأخرى، ولم يرض بتحريك أي حرف منه من موقعه.. بل لقد سجل أنه ملتزم بكل فكرة قالها منذ عشرات السنين.
الأمر الذي يفسره المفسرون، على أن كلامه الأخير، إنما هو انحناء أمام العاصفة، لا أكثر..
٢ - إن بعضا من تناقضاته قد نشأت عن كونه لم يدقق في ما يلقيه على الناس من كلام.. فيكون داخلا في نطاق إلقاء الكلام على عواهنه، وبصورة عفوية وارتجالية، فيقول هنا شيئا ثم ينساه ليقول هناك ما يناقضه ويخالفه..
وعلى كل حال.. فإن ما ذكره هذا البعض في كتابه من وحي القرآن في الطبعة الأولى.. من أن النبي قد أشرك أهل بيته في المباهلة كأسلوب من أساليب التأثير النفسي ليوحي لهم بثقته بما يدعيه، لا يمكن قبوله رغم تصريحه

بصحة كل ما جاء في تلك الطبعة.. نعم إنه مرفوض لأنه يعني: أن قضية المباهلة لا ترقى إلى مستوى الجدية الحقيقية.
كما أن إيحاءه بأن القضية لا تزيد عن كونها مبادرة شخصية من رسول الله (ص)، وليست قرارا إلهيا، وتدبيرا ربانيا، يعطي الدلالة القاطعة على ما لأهل البيت من مقام وفضل وكرامة عند الله تعالى.
إن كلامه هذا - لا يمكن قبوله منه بأي وجه، وقد صرحت الآية الكريمة بأن الله سبحانه هو الذي أمره بإخراج هؤلاء بالذات للمباهلة، فهي تقول:
(فقل: تعالوا ندع أبناءنا.. (الخ..
٥٨٧ - تارة ينكر وجود خصوصيات غير عادية في الزهراء.
٥٨٨ - وأخرى يثبت.
٥٨٩ - تارة يقول: لا يوجد عناصر غيبية في شخصيتها.
٥٩٠ - وأخرى يقول: هناك عالم من الغيب في شخصيتها.
قد ذكر البعض في كتابه تأملات إسلامية حول المرأة: كلاما حول الزهراء، وزينب وخديجة، ومريم، وآسية بنت مزاحم عليهن السلام.
ونفى أن تكون هناك أية خصوصية غير عادية في شخصياتهن إلا الظروف الطبيعية التي كفلت لهن النمو الروحي، والعقلي، والالتزام العملي..
وحين ثارت الاعتراضات على هذا الكلام، أصر ولا يزال مصرا على إبقائه على ما هو عليه، ولم يغير فيه حتى الآن أية كلمة..
وبدأ يشيع بين الناس: أن مراده صحيح وسليم، ولكن الآخرين إما لم يفهموا مراده، أو أنهم قد فهموه ولكنهم تعمدوا صرفه عن ظاهره..
بل صار يمارس ضغوطا غير عادية، ويهاجم الآخرين بشراسة وقسوة، من أجل إلزامهم بصحة أقواله في كتابه تأملات إسلامية، وصار يوجه لهم الاتهامات، ويعلن بالتجريح ثم التظلم (!!)، وما إلى ذلك..
ولعل أخف عباراته حدة هو ما سجله في الكتاب الذي يقول عنه: إنه يمثل كل فكره حول السيدة الزهراء. فهو يقول:
" ولئن بقي هذا البعض يصر، ورغم كل كلماتنا وصراحتها في تقديس السيدة

الزهراء (ع) وتعظيمها، وبيان عصمتها.. ورغم كثرة محاضراتنا وتنوعها منذ أكثر من خمسين سنة في شأن أهل البيت (ع)، على تقويلنا ما لم نقله، وتحميل كلامنا ما لا يحمله في شأن سيدتنا الزهراء (ع) وعصمتها، أو في شأن ولاية سيدنا أمير المؤمنين (ع) التي أكدها ونص عليها النبي الأمين (ص) في مواضع عديدة أبرزها في غدير خم، فإننا ندعو الله لهم بالهداية إن كان لا يزال عندهم قابلية ذلك، وإلا فحسابهم على الله، ولنا معهم موقف يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين الذي لا يغادر صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها في كتاب، وسيكون الحساب بمحضر جدنا رسول الله (ص) وجدنا أمير المؤمنين (ع) وجدتنا الصديقة الزهراء (ع)، ونرى لمن يكون الفلج في ذلك اليوم " (١).

فقد ضمن كلامه هذا..

١ - اتهاما للآخرين بأنهم يقولونه ما لم يقله، وتحميل كلامه ما لم يحمله.

٢ - ادعى لنفسه أن كل كلماته صريحة في تقديسه للزهراء، وتعظيمها، وبيان عصمتها..

٣ - ادعى مثل ذلك أيضا بالنسبة لولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

٤ - إظهار أن منتقديه لا يسيرون في صراط الهداية.

٥ - أنه رجل متسامح، يدعو حتى لمن يفترون عليه بالهداية؟!

٦ - أنه مطمئن إلى أن الفلج له يوم القيامة.

٧ - وأخيرا تعابيره بجدنا النبي، وجدنا علي، وجدتنا الزهراء.. ربما من أجل استدرار عطف الناس في مثل هذه المواقف، وربما لأسباب أخرى. لا سيما مع ملاحظة نظرته إلى الأنساب حيث تجده ليس فقط لا يهتم للإنتساب إلى الرسول، بل هو يجهر بعدم القيمة لها، ولا يرغب بإعطائها أهمية تذكر حتى إنه حين سئل عن نظرتة إلى لقبي (السيد والأديب) بالنسبة إليه نجده قد رجح لقب الأديب عليه، فقد سئل: أيهما تفضلون؟ لقب السيد أم لقب الأديب؟!

فقال:

---

(١) الزهراء القدوة: ص ١٧٣ و ١٧٤.

" لقب السيد ورثته أما لقب الأديب فقد صنعته. ولذا فمع كل أعتزازي بلقب السيد فأنا أكثر اعتزازا بلقب الأديب " (١).
فأستخدامه لهذه اللغة هنا ما هو إلا دليل ضعفه وإنكار مقولاته، فأراد أن يستفيد من محبة المؤمنين لأهل البيت، ويؤثر على مشاعرهم عن هذا الطريق.
ثانيا: إن المهم هنا هو الالتفات إلى: أن هذا البعض لم يحرك أية كلمة من مكانها.. ولم يغير، ولم يبدل شيئا مما قاله.. بل احتفظ به.. حتى وهو يعلن على الملأ ما يناقضه ويخالفه.. ولعله.. ليبقى الباب مفتوحا أمام الاعتذار الذي قاله في إذاعة تابعة له:
إن ما كتبه في رسالته ل (السيد) جعفر مرتضى إلى قم، والتي تضمنت تراجعا عن مقولاته في السيدة الزهراء - عليها السلام -.. إنما كانت لدرء الفتنة، واستجابة لمطلب ناصحيه.. وإلا فهو لم يزل ولا يزال على موقفه السابق، ولن يتراجع عنه..
وهذه السياسة بالذات هي التي لم يزل يمارسها في كل ما اعترضنا به عليه.. فإنك تجده يعلن بخلافه، ولكن بأسلوب:
١ - إن هذا الرأي المناقض والمخالف هو نفس ذلك الذي يخالفه ويناقضه، ومن لا يقبل بذلك، فهو واقع تحت تأثير المخابرات، أو أنه يفهم الأمور بغرائزه، أو أنه بلا دين، وبلا تقوى.. وما إلى ذلك!!
٢ - إنه يحتفظ بالرأيين المتخالفين، أو المتناقضين معا، ولا يغير ولا يبدل شيئا.. بل يصرح بصحة كل ما قاله وكتبه طيلة عشرات السنين..
٣ - إنه يصرح بأن كل ما ينسب إليه مكذوب عليه بنسبة ٩٩، ٩٩ بالمئة. أو أنه مكذوب بنسة ٩٠ بالمئة، والباقي محرف.
ثالثا: إن ما ذكره في كتابه تأملات إسلامية حول المرأة لا يصح توضيحه بما وضحه به، وذلك لوجود تنافر ظاهر بين الكلامين. فإن كان قد تراجع عن كلامه حقا، فليحذفه من كتابه ذاك، وليصرح بأنه قد عدل عما جاء في طبعته الأولى..
ولا نريد أن نفيض في الحديث عن ذلك، بل نكتفي بذكر ثلاث مقارنات:

----

(١) امراء وقبائل ص ٤٥٦.

المقارنة الأولى

إنه يقول في النص الأول:

" إذا كان بعض الناس يتحدث عن بعض الخصوصيات غير العادية في شخصيات هؤلاء النساء، فإننا لا نجد هناك خصوصية إلا الظروف الطبيعية التي كفلت لهن إمكانات النمو الروحي والعقلي والالتزام العملي بالمستوى الذي تتوازن فيه عناصر الشخصية بشكل طبيعي، في مسألة النمو الذاتي " (١).

ثم هو قد شرحه بقوله الآتي:

" لا ريب أن هناك ظروفا طبيعية قد كفلت النمو الروحي والعقلي للسيدة الزهراء (ع) وغيرها من النساء الجليلات وذلك مثل تربية النبي (ص) لها، وتربية زكريا لمريم (ع)، ولكن إلى جانب ذلك هناك اللطف الإلهي الذي كساها بالطهارة والقدسية، وخصها ببعض الكرامات، وهي ما زالت جنينا في بطن أمها (٢) وأكرمها بنزول الملك عليها (٣) " (٤).

والسؤال هو:

أولا: إن النص الأول، قد أنكر وجود خصوصيات غير عادية في شخصيات تلك النسوة.. فهل كون الزهراء نورا كما اعترف به، وهل حديثها مع أمها، وهي لا زالت جنينا في بطنها لا يعتبر خصوصية غير عادية في شخصيتها؟!

ثانيا: إن هذا البعض قد ذكر أن مثل تربية النبي للزهراء، وتربية زكريا لمريم هو المقصود من الظروف الطبيعية..

والسؤال هو:

إذا كان زكريا قد ربى مريم، ورسول الله (ص) قد ربى الزهراء، فمن الذي ربى خديجة بنت خويلد، ومن الذي ربى آسية بنت مزاحم، فإنه قد ذكرهما مع الزهراء أيضا..

ثالثا: قد ذكر: أن هذه الظروف الطبيعية التي هي مثل تربية النبي وزكريا

---

(١) تأملات اسلامية حول المرأة: ص ٨ و ٩، ومجلة المعارج: عدد ٢٨ - ٣١ ص ٩٥٧.

(٢) عوالم الزهراء: ص ٢٠١.

(٣) المصدر السابق: ٥٨٣.

(٤) الزهراء القدوة: ص ١٧١.

كان إلى جانبها اللطف الإلهي الذي كساها بالطهارة وبالقدسية وخصها ببعض الكرامات..
والسؤال هو:
هل يلتزم بمثل ذلك في أمر السيدة خديجة؟ وكذا بالنسبة للحوراء زينب (عليها السلام)، اللتين لم تكونا مشمولتين لآية التطهير، ولا ظهر أنهما اختصتا بنزول الملك عليهما، أو اختصتا ببعض الكرامات حين كانتا جنينين في بطن أمهما؟. مع انه قد ذكر السيدة زينب وخديجة في جملة هؤلاء النسوة اللواتي يتحدث عنهن.
المقارنة الثانية
وقوله:
".. ولا نستطيع إطلاق الحديث المسؤول القائل بوجود عناصر غيبية مميزة، تخرجهن عن مستوى المرأة العادي، لأن ذلك لا يخضع لأي إثبات قطعي ".
قد شرحه أخيرا بقوله:
" وإذا كنا لا نستطيع إطلاق الحديث القائل بوجود عناصر غيبية في شخصية الزهراء (ع) بحيث يخرجها عن كونها بشرا تتحول حياتها كلها إلى معاجز خارقة للقوانين الطبيعية والسنن التي أودعها الله في الكون، لكن هذا لا يعني أبدا نفي ذلك كله، فإن الزهراء الإنسانة كانت تحيط بها ألطاف الله، ونستطيع أن نقول إن هناك عالما من الغيب في شخصيتها، وإنها نور من الأنوار، وفي حياتها الكثير من الكرامات التي أعطاها الله إياها، فقد روي (١) أنه كان يدخل عليها رسول الله فيجد عندها رزقا " (٢).
إلى أن قال:
" ورغم ما تقدم من براهين على عصمة الزهراء وقدسيتها وكراماتها وفضائلها.. فإن ذلك لا يخرجها عن كونها امرأة من جنس البشر تملك من الأحاسيس والعواطف والغرائز ما تملكه سائر النساء، وإنما عظمتها أنها حركت أحاسيسها

----

(١) تفسير الكشاف: ج ١، ص ٢٧٥، وعنه بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٢٩، وعوالم الزهراء: ص ٢٠٧ نقلا عن الخرائج والجرائح.
(٢) الزهراء القدوة: ص ١٧١.

في رضا الله، ولم تسمح لغرائزها أن تخرج عن حدود الله سبحانه، بحيث إن قلبها، وعقلها وجسدها لم ينحرفوا عن خط الإستقامة طرفة عين أبدأ " (١).

والسؤال هو:

أولا: لماذا تحدث عن خروجها عن كونها بشرا، فإن وجود عناصر غيبية - ككونها نورا من الأنوار كما اعترف به هذا البعض في نفس هذا النص المذكور لا يخرجها عن كونها بشرا..

ثانيا: إن كونها نورا من الأنوار، وحديثها مع أمها في بطنها - هو عنصر غيبي في شخصيتها لكن ليس من الضروري أن يحول حياتها - كلها - إلى معاجز خارقة للقوانين الطبيعية.. على حد قوله..

ثالثا: كيف نجمع بين قوله:

" ونستطيع أن نقول: إن هناك عالما من الغيب في شخصيتها، وإنها نور من الأنوار ".

وبين قوله:

" لا نستطيع إطلاق الحديث المسؤول، القائل بوجود عناصر غيبية مميزة تخرجهن عن مستوى المرأة العادي ".

ألا ترى أن بين هذين القولين تناقضا فاضحا؟!.

رابعا: إن كونها نورا من الأنوار، وأن يكون هناك عالم من الغيب في شخصيتها: ألا يميزها عن سائر النساء؟!.

وألا يخرجها ذلك عن مستوى المرأة العادي؟!

فإن كان كلامه صحيحا في أننا نقوله ما لم يقل: فإننا نرضى منه أن يستبدل النص الموجود في كتاب تأملات بالنص الموجود في كتاب الزهراء القدوة.. ونكون له من الشاكرين.. وبذلك يحل الإشكال القائم فيما بينه وبين من يعترض عليه، وسيستجيب الله دعاءه لمنتقدي مقولاته بالهداية، ولا تصل القضية إلى المحاكمة يوم القيامة..

---

(١) الزهراء القدوة: ص ١٧٢.

المقارنة الثالثة
قال البعض في كتاب تأملات إسلامية حول المرأة، وهو يتحدث عن مريم عليها السلام التي اصطفاها الله للروحانية التي تميزها، وسلوكها في طاعة الله، ما يلي:
".. وإذا كان الله قد وجهها من خلال الروح الذي أرسله إليها، فإن ذلك لا يمثل حالة غيبية في الذات، بل يمثل لطفا إلهيا في التوجيه العملي، والتثبيت الروحي، على أساس ممارستها الطبيعية للموقف في هذا الخط، من خلال عناصرها الشخصية الإنسانية، التي كانت تعاني من نقاط الضعف الإنساني في داخلها، تماما كما هي المسألة في الرجل في الحالات المماثلة.. " (١).
ولكنه قال في كتاب: الزهراء القدوة:
" وعندما تحدثنا في تأملات إسلامية حول المرأة (٢)
عن أن الزهراء (ع) كما مريم (ع) وآسية بنت مزاحم ليست بامرأة عادية، فلم يكن في ذلك الكلام إشعار بنفي كرامات الزهراء وعصمتها، كيف وقد أشرنا في تلك الصفحة نفسها إلى أن الله سبحانه منح بعض تلك النسوة العظيمات من ألطافه ما يسددهن، ويثبتهن روحيا وعمليا، وإنما كان ذلك الكلام يرمي كما يشهد به صدره وذيله أنها (ع) لم تكن إلا بشرا وتحمل خصائص سائر النساء كما كان رسول الله (ص) بشرا ويحمل خصائص الرجال (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ((الكهف: ١١٠) وإلا لو لم يكن رسول الله بشرا، وكذلك الأنبياء والأئمة والزهراء - عليهم جميعا سلام الله، لما كان لهم فضل على سائر الناس، ولما كان هناك معنى للاقتداء بهم (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ((الأنعام: ٩) فعظمة هؤلاء وقيمتهم أنهم بشر وليسوا ملائكة ولكنهم بإرادتهم وقداستهم أرفع شأنا عند الله من الملائكة.. ولهذا علينا عندما نقدم الزهراء (عليها السلام) أو نقدم آل البيت (ع)، أن لا نقدمهم بطريقة توحي بأنهم ملائكة أو أنهم غيب من الغيب، لأننا وإن كنا
نعتقد أن الغيب يمثل الأساس في عقيدتنا، ولكن إرادة الله قضت أن يكون المثل الأعلى للناس والهادي لهم من الضلالة من جنسهم (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ((الإسراء / ٩٣) (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ((الجمعة: ٢) " (٣).

---

(١) تأملات اسلامية حول المرأة: ص ٩ - والمعارج: عدد ٢٨ - ٣١، ص ٩٥٧ و ٩٥٨.
(٢) تأملات اسلامية حول المرأة: ص ٩ - دار الملاك ط ٦، ص ١٩٩٧.
(٣) الزهراء القدوة: ص ١٧٢ و ١٧٣.

ومن خلال المقارنة بين هذين النصين نخرج بالنتيجة التالية:
أولا: إن الروح الذي أرسله إلى مريم - حسب النص - في تأملات كان له دور التوجيه العملي لها، والتثبيت الروحي.. أي أنه يدلها على الخطوات التي تقوم بها.. ويثبتها حين كانت تعاني من الضعف الإنساني في داخلها، بسبب المشكلة التي طرأت عليها..

ولكن ذلك لا يعني أنه أرسل لزينب مثلا هذا الروح ليوجهها كيف تتصرف حين المحنة، أو يثبتها روحيا، وهي تعاني من الضعف في داخلها.. على حد قول هذا البعض.

ولا يدل ذلك أيضا على أنه قد أرسل للزهراء أو لخديجة، أو لآسية هذا الروح ليفعل مثل ذلك..

وحيث إنه قد صرح في كلامه بأن تلك النسوة ليس فيهن أية خصوصية غير عادية إلا الظروف الطبيعية، ثم استثنى مريم، بسبب المشكلة التي واجهتها، فذلك لا يعني أن ما حصل لمريم قد حصل لغيرها..

فقوله في النص الثاني:
" لم يكن في ذلك الكلام (الذي ورد في تأملات) إشعار بنفي كرامات الزهراء.. " صحيح، إذ إنه لم يكن فيه إشعار بذلك، بل كان فيه تصريح.. ومريم فقط هي التي حظيت بتوجيه الروح وتثبيته لها في وقت المحنة..

أما الزهراء، فبقيت، حالها كحال زينب، ليس فيها أية خصوصية غير عادية، ولا يوجد عناصر غيبية مميزة لها تخرجها عن مستوى المرأة العادي وكذلك حال خديجة وآسية.. وفقا لأقاويل هذا البعض؟!

ثانيا: قد عرفنا: أن وجود خصوصية غير عادية في شخص - ككونه نورا من الأنوار - على حد تعبير هذا البعض لا يخرجه عن كونه بشرا، ولا يجعله من الملائكة..

ثالثا: لقد قال في النص الثاني:
" علينا عندما نقدم الزهراء (ع)، أو نقدم آل البيت (ع) أن لا نقدمهم بطريقة توحي بأنهم ملائكة، أو أنهم غيب من الغيب، لأننا وإن كنا نعتقد: أن الغيب

يمثل الأساس في عقيدتنا، ولكن إرادة الله قضت أن يكون المثل الأعلى للناس، والهادي لهم من الضلالة من جنسهم ".
ويقابل هذا القول: قوله التالي:
" إن علينا أيضا: أن نقدمهم على أنهم بشر مميزون، ولهم ارتباط بالغيب، وفيهم خصوصيات غير عادية جعلتهم أهلا لاصطفاء الله لهم، وأنهم نور من الأنوار، وأن مريم كلما دخل عليها زكريا المحراب، وجد عندها رزقا.. وأن فاطمة كانت تحدث أمها في بطنها، وكان الملك ينزل عليها، وأن هناك عالما من الغيب في شخصيتها على حد تعبير هذا البعض نفسه، ولا يجوز لنا أن ننكر وجود هذا الغيب في شخصيتها ولا أن ننكر أنها شخصية مميزة عن سائر أبناء جنسها، وأنها فوق مستوى المرأة العادي.. وأنها، وأنها.. إلخ "

الفصل الثاني:
الزهراء (ع) البنت الوحيدة
لرسول الله (ص)

بداية

١ - ليعلم القارئ الكريم: أننا قد نجد الكثير من الأمور التي سجلها البعض في كتبه غير منسجمة مع الحقيقة الإيمانية والإسلامية، أو العلمية، ولكننا نغض الطرف، ونتغاضى عن ذلك كله، لأننا نقر ونعترف بأننا غير قادرين على استقصاء مقولاته، ولأننا لا نجد ضرورة لذلك.. ما دام أن المهم عندنا هو وضع القارئ في دائرة الحذر من أن يأخذ بمقولات هذا البعض من دون تمحيص..

٢ - كما أن درجة الخلل في ما يقدمه هذا البعض للناس: قد بلغت حدا جعلني لا أغالي إذا قلت: إنني كثيرا ما لا أحتاج إلى أكثر من فتح أي كتاب لأجد الخلل ماثلا أمامي فأبادر إلى تسجيل التحفظ عليه، من دون حاجة إلى بذل جهد كبير في التنقيب والاختيار.

٣ - بل إن جملة من عناوين هذا الكتاب المختلفة قد اختار أحد الأخوة لي مواردها من كتاب من وحي القرآن بصورة سريعة، لم يحتج معها إلى أكثر من تصفح سريع له.. مع أن هذا الأخ ليس عالما، ولا يحمل شهادات عالية، وإنما هو إنسان واع سليم الفطرة طاهر الذات مؤمن ملتزم، والملفت هنا: أن هذا الأخ لا يعمل في القطاع الثقافي، ولا يدعي لنفسه شيئا من العناوين في هذا الاتجاه.

بل هو عامل عادي يمارس لنفسه حرفة يعتاش منها هو وعائلته كأي إنسان صاحب حرفة نافعة في هذا المجتمع الواسع.

وهذا يعطي: أن إدراك خطأ مقولات هذا البعض لا يحتاج إلى التخصص في جامعات الشرق والغرب، فالمكابرة في أمر هذا البعض تصبح غير ذات قيمة، ولا مجال لتبريرها.

٤ – وبعد كل الذي تقدم.. نقول: إن بعض مقولات هذا الرجل إنما نذكرها لأجل أن نجعل القارئ يتلمس بنفسه كيف أن هذا البعض يسعى لوضع علامات استفهام، وإثارة شبهات، وتغيير الإعتقاد ليس فقط في أبسط الأمور بل وحتى في أمور لا يخطر على بال أحد أنها تدخل في نطاق اهتمامات هذا البعض..

ولعل ما ذكرناه في هذا الكتاب يكفي لإعطاء القارئ التصور الحقيقي الذي يسعى إليه هذا البعض وما يؤسس له.

ولا أريد الإطالة على القارئ الكريم، بل أترك له المجال لمتابعة أقاويل هذا البعض بعيدا عن أية انفعالات تبعده عن متابعة البحث بروح الإنصاف وبوجوب الابتعاد عن العناد، وعن التجني والاعتساف. فإلى ما يلي من صفحات:

٥٩١ – بعض الناس (!!) يقولون: ليس للنبي بنات غير الزهراء.

٥٩٢ – ظاهر القرآن يؤكد أن للنبي عدة بنات.

٥٦٣ – لو كان للنبي بنت واحدة لم يخاطبه بالجمع (وبناتك).

٥٦٤ – يتحدث القرآن عن واقع لا عن أشياء فرضية.

٥٦٥ – مشهور المؤرخين يقول بتعدد بناته (ص).

سئل البعض:

هل صحيح أن الرسول (ص) كان لديه بنات غير السيدة الزهراء (ع) من السيدة خديجة (ع)؟

فأجاب:

" هناك خلاف حول هذا الأمر، هناك بعض الناس الذين يقولون أن ليس للرسول (ص) من البنات إلا الزهراء (ع)، وقد أشار إلى ذلك أحد كبار الشعراء أحمد شوقي حين قال:

يلد الزهراء يزهد في سواها

ما تمنى غيرها نسلا ومن

لكن هناك رأيا آخر يقول: إن للرسول (صلى الله عليه وآله) أربع بنات: زينب زوجة أبي العاص، ورقية وأم كلثوم، يقال تزوجهما عثمان، والزهراء (عليها السلام)، وربما يؤكد هذا البعض قوله: إن الله تعالى تحدث مع النبي (صلى الله عليه وآله) عن بنات (قل لأزواجك وبناتك ((الأحزاب: ٥٩) فهو لم يتحدث عن ابنة واحدة، وإنما تحدث عن بنات، مما يدل حسب رأي هذا الفريق بأن هناك أكثر من

بنت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) " (١).
ثم إن هذا البعض قد بين في مورد آخر: أن هذا القول الأخير هو الأصح.. وهو الذي يتبناه.
فقد سئل:
قرأت للشيخ المفيد في " المسائل العكبرية " قوله إن بنات النبي (ص) أكثر من واحدة، وهن فاطمة، ورقية، وأم كلثوم، فهل هذا محل وفاق أم يختلف فيه العلماء؟
فأجاب:
" إن ظاهر القرآن يؤكد ذلك (قل لأزواجك وبناتك (فلو لم يكن لديه إلا بنت واحدة فكيف يخاطبه القرآن بالجمع، فهو هنا يتحدث عن واقع لا عن أشياء فرضية، فظاهر القرآن يدل على أن للنبي (ص) أكثر من بنت ومشهور المؤرخين كذلك وإن كان بعضهم يقول إنه ليس لديه بنات سوى الزهراء (ع) " (٢).
ثم هو يقول:
" ولكن.. هل كان للنبي (ص) بنات غير فاطمة (ع)؟
إن من المعلوم تاريخيا: أنه قد ولد لرسول الله (ص) عدة ذكور، لكنهم ماتوا صغارا.
وأما البنات فمن المعلوم تاريخيا أيضا، بل المشهور والمتسالم عليه بين محققي الفريقين ومؤرخيهم: انه كان للنبي (ص) من البنات: زينب، وأم كلثوم، ورقية، وأنهن عشن، وتزوجن.
وإن ذهب شاذ من المعاصرين، تبعا لشاذ من المتقدمين إلى نفي كون هؤلاء من بنات النبي (ص)، مدعيا أنهن ربائب له.
وهذا من أغرب الآراء، وأعجبها، كونه مخالفا لصريح القرآن الكريم في قوله تعالى: (يا أيها النبي، قل لأزواجك، وبناتك ونساء المؤمنين ((الأحزاب: ٥٩) " (٣).
وسئل:
هل صحيح أن الرسول (ص) كان لديه بنات غير السيدة الزهراء (ع) من السيدة خديجة (ع)؟

----

(١) الزهراء المعصومة: ص ٣٩ و ٤٠.
(٢) الندوة: ج ٥ - ص ٤٨١.
(٣) الزهراء القدوة: ص ٦٠ و ٦١.

فأجاب:
" المشهور: أن للرسول (ص) أربع بنات: زينب زوجة أبي العاص، ورقية، وأم كلثوم، يقال: تزوجتا من عثمان، والزهراء.
وإننا نلاحظ: أن الله تعالى تحدث مع النبي (ص) عن بنات (قل لأزواجك، وبناتك.. ((الأحزاب: ٥٩). فلم يتحدث عن ابنة واحدة، وإنما تحدث عن بنات، ما يدل على أن هناك أكثر من بنت لرسول الله (ص) " (١).
وقفة قصيرة
ونقول:
١ - إن ما استدل به هذا البعض لا يمكن قبوله حيث إنه هو نفسه يصرح بأن القرآن إنما يتحدث عن العناوين العامة، ولا يدخل في التفاصيل.
وقد وجدنا: أن القرآن حين أثبت الولاية لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، قال: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (.. (٢).
وهذه الآية قد نزلت في خصوص أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام حينما تصدق بخاتمه على الفقير، وكان ذلك منه (عليه السلام) في حال ركوعه في صلاته، وقد ثبت ذلك بالروايات المعتبرة والصحيحة التي رواها المسلمون في كتب تفاسيرهم، وفي مجاميعهم الحديثية وغيرها..
وقد لاحظنا أنه سبحانه قد جاء بصيغة الجمع، فقال: (والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.. (ولم يقل الذي آمن وأقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع مع أنه لا يقصد سوى فرد واحد بعينه، وخصوص واقعة معروفة ومحددة.
ولو صح ما ذكره هذا البعض لكان لا بد من القول: إن المقصود هو أشخاص كثيرون، ولا ينحصر الأمر بعلي عليه السلام إلا أن يدعي أيضا: أن هذه الآية لم تنزل في إمامة أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، كما ادعى أن آية: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (لم تنزل في الأئمة الاثني

----

(١) المصدر السابق: ص ٣٥٠.
(٢) سورة المائدة: الآية: ٥٥.

عشر.. وقد ذكرنا طائفة من الآيات التي دلت النصوص المروية من طرق الشيعة، والسنة على نزولها في علي، وأهل البيت (عليهم السلام)، لكن هذا البعض ينكر ذلك، فراجع ما ذكرناه في هذا الكتاب بفصوله المختلفة.

٢ – إن الله سبحانه في آية المباهلة يقول: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ((١) ٠

فقد قال: (ونساءنا (بصيغة الجمع، مع أن المقصود هو خصوص الزهراء (عليها السلام)، وهي فرد واحد. وقد دلت بالآية النصوص الكثيرة التي رواها السنة والشيعة على أنها هي المقصودة..

ومن يدري فلربما يأتي الوقت الذي ينكر فيه هذا البعض حتى هذا الأمر أيضا.. وإن غدا لناظره قريب.. كما أنه سبحانه قال: (وأبناءنا (ويقصد بذلك الحسن والحسين – عليهما السلام – وهما اثنان فقط.

٣ – كما إنه تعالى يقول: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ((٢) والمقصود هم المعصومون منهم دون سواهم، من ذوي قرباه (ص).

٤ – وقال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ((٣) ويقصد الخمسة أصحاب الكساء، دون كل من عداهم من أهل بيته (صلى الله عليه وآله) إذ لا شك في عدم دخول العباس وأبنائه وعقيل وجعفر وو.. نعم إن هؤلاء جميعا غير داخلين في المراد من الآية فضلا عن نسائه صلى الله عليه وآله.

وأما بالنسبة لبقية الأئمة الاثني عشر صلوات الله وسلامه عليهم فقد جاء في الروايات عن أهل بيت العصمة أنهم داخلون في المراد من الآية أيضا.

٥ – فقوله تعالى: (وبناتك (أيضا يقصد به خصوص الزهراء (عليها السلام) إذ قد دل الدليل على عدم وجود بنات للنبي (صلى الله عليه وآله) سواها.

وقد ذكرنا طائفة من هذه الأدلة في كتابنا (بنات النبي (ص) أم ربائبه).

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ٦١.
(٢) سورة الشورى: الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأحزاب: الآية: ٣٣.

ومن هذه الأدلة
١ - النصوص التي ذكرت: أن أبناء رسول الله (ص) ومنهم فاطمة (ع) قد ولدوا بعد البعثة (١).
٢ - إن سورة الكوثر قد نزلت بعد موت أبناء رسول الله (ص)، وقول العاص وغيره: قد انقطع نسله، فهو أبتر، فمات القاسم أولا، ثم مات عبد الله (٢) وحين مات القاسم كان عمره سنتين، وهو أكبر ولده، وقيل عاش حتى مشى (٣).
وقد مات القاسم بعد النبوة كما تدل عليه الأحاديث والنصوص (٤).
وكانت فاطمة (ع) هي آخر من ولد لرسول الله (ص) (٥).
وذلك كله يدل على أنه لم يكن له (صلى الله عليه وآله) بنات تزوجن في الجاهلية بأبناء أبي لهب ثم طلقوهن، ثم لما بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) تزوجت إحداهن من عثمان، وهاجرت معه في السنة الخامسة إلى الحبشة.
٣ - ان هناك أقوالا في تاريخ زواج خديجة برسول الله، لا يمكن معها القول بأنها قد ولدت له بنات وكبرن، وتزوجت اثنتان منهن بابني أبي لهب، ثم لما بعث (ص)، طلقتا منهما، وتزوجتا بعثمان..
حيث قيل: إن خديجة عليها السلام قد تزوجت برسول الله (ص) قبل البعثة بخمس سنين (٦).
وقيل: قبلها بثلاث سنين (٧).
٤ - إن إحدى هاتين البنتين هي أم كلثوم - التي يدعون أنها بعد أن

---

(١) راجع البدء والتاريخ: ج ٥ ص ١٦ وج ٤ ص ١٣٩، ونسب قريش: ص ٢١، والمواهب اللدنية: ج ١ ص ١٩٦، وتاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٧٢، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ٢١٧، وذخائر العقبى ص ١٥٢، والبداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٤، والاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة): ج ٤ ص ٢٨١، والروض الأنف: ج ١ ص ٢١٤ و ٢١٥، والسيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٠٨.
(٢) راجع مصادر ذلك في كتابنا بنات النبي أم ربائبه ص ٤٤ - ٤٦.
(٣) راجع المصدر السابق ص ٤٧ - ٥٠.
(٤) راجع تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٢ - والروض الأنف: ج ١ ص ٢١٤ و ٢١٥.
(٥) راجع مختصر تاريخ دمشق: ج ٢ ص ٢٦٣ و ٢٦٤، وراجع: الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٠٤ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٨، وراجع: الوفاء ص ٦٥٥ ومصادر أخرى في كتابنا: بنات النبي أم ربائبه ص ٤٤ و ٥٩ حتى ٦٢.
(٦) الأوائل: ج ١ ص ١٦١.
(٧) راجع: سيرة مغلطاي: ص ١٢ عن ابن جريج، وراجع: مجمع الزوائد: ج ٩ ص ٢١٩ والأوائل ج ١ ص ١٦١.

طلقت من ابن أبي لهب - قبل الدخول -!! بقيت عزباء إلى أن تزوجها عثمان أيضا بعد موت أختها بعد الهجرة بمدة.
والملفت: أننا لا نجد لها ذكرا في جملة النساء اللواتي هاجرن مع علي، بوصية من رسول الله (ص).. بل ذكرت الفواطم، وأم أيمن، وجماعة من ضعفاء المؤمنين (١).
٥ - وهناك رواية ذكرها أبو القاسم الكوفي مفادها: أن زينب ورقية كانتا بنتين لزوج أخت خديجة من امرأة أخرى، فمات التميمي وزوجته، وبقيت الطفلتان، فضمتهما خديجة إليها، فهما ربيبتا خديجة ورسول الله (ص) (٢).
٦ - ذكر ابن شهر آشوب: أن زينب ورقية كانتا (ابنتي هالة أخت خديجة) كما في كتابي الأنوار والبدع (٣).
وقال ابن شهر آشوب أيضا: (.. وفي الأنوار، والكشف واللمع، وكتاب البلاذري: أن زينب ورقية كانتا ربيبتيه من جحش) (٤).
٧ - على أن من يدعي: أن للنبي بنات غير فاطمة فإنما يقول: إنهن بناته (ص) من خديجة.. مع أن خديجة حسبما تؤيده الشواهد والأدلة قد تزوجها رسول الله (ص) بكرا، ولم تكن قد تزوجت من أحد قبله (ص).
ويدل على ذلك عدة أمور:
ألف: تناقض الروايات حول هذا الزوج المزعوم، وتاريخ هذا الزواج، وكم ولدت؟ ومن ولدت له (٥).
ب - إن التي تمتنع من الزواج بأشراف قريش، لا تتزوج أعرابيا من بني تميم، ولو فعلت ذلك لعيرت به (٦). وهذا البعض قد استدل بتعيير العرب على نفي ضرب الزهراء، المتواتر تاريخيا، فلماذا لا يستدل به على نفي تزوج خديجة من أعرابي.
ج - قال ابن شهر آشوب: روى أحمد البلاذري، وأبو القاسم الكوفي في

----

(١) السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٥٣.
(٢) راجع: الاستغاثة: ج ١ ص ٦٨ و ٦٩ ورسالة مطبوعة طبعة حجرية مع كتاب مكارم الأخلاق ص ٦.
(٣) راجع: مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ١٥٩، والبحار، وقاموس الرجال، وتنقيح المقال، كلهم عن المناقب.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ١٦٢.
(٥) راجع بنات النبي (ص) أم ربائبه: ص ٨٩ و ٩٠.
(٦) راجع: الاستغاثة: ج ١ ص ٧٠.

كتابيهما، والمرتضى في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: أن النبي (ص) تزوج بها، وكانت عذراء.
يؤكد ذلك، ما ذكره في كتابي الأنوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة، أخت خديجة (١).
٨ - قد روي عن أبي الحمراء عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله:
(يا علي أوتيت ثلاثا، لم يؤتهن أحد ولا أنا أوتيت صهرا مثلي، ولم أؤت أنا مثلي.
وأوتيت صديقة مثل ابنتي، ولم أوت مثلها (زوجة).
وأوتيت الحسن والحسين من صلبك، ولم أوت من صلبي مثلهما، ولكنكم مني، وأنا منكم) (٢).
وقريب منه ما روي عن أبي ذر، مرفوعا (٣).
فلو كان ثمة من صاهر رسول الله غير علي، لم يصح قوله (ص): (أوتيت صهرا مثلي، ولم أوت أنا مثلي..) لا سيما وأن هذا الكلام قد جاء بعد ولادة الحسنين عليهما السلام.
٩ - وفي صحيح البخاري: أن رجلا حاول أن يسجل إدانة لعثمان ولعلي على حد سواء، فتصدى لابن عمر يحرضه على الخروج كما خرج غيره، فرفض.. فطلب منه أن يخرج ليصلح بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا.. فيقاتل التي تبغي.. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، فرفض أيضا.
فقال له: فما قولك في علي وعثمان..؟
قال: أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه.
أما علي، فابن عم رسول الله (ص) وختنه، وأشار بيده، فقال: وهذا بيته حيث ترون (٤).
فنلاحظ: أن دفاع ابن عمر عن عثمان، قد اقتصر على أنه حين فر يوم أحد قد عفا الله عنه، لكن الخارجين عليه لم يعفوا عنه، بل قتلوه..

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ١٥٩ وعنه في البحار، وتنقيح المقال، وقاموس الرجال.
(٢) إحقاق الحق (قسم الملحقات) للمرعشي النجفي ج ٥ ص ٧٤ وج ٤ ص ٤٤٤ عن المناقب لعبد الله الشافعي ص ٥٠ (مخطوط) وعن مناقب الكاشي ص ٧٢ (مخطوط أيضا) والحديث موجود أيضا في كتاب: نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ١١٤ ولا بأس بمراجعة ص ١١٣، ومراجعة مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٠٩.
(٣) ينابيع المودة ص ٢٥٥ وإحقاق الحق (قسم الملحقات) ج ٧ ص ١٨.
(٤) صحيح البخاري: ج ٣ ص ٦٨ ط سنة ١٣٠٩.

ولم يذكر أنه صهر رسول الله، أو نحو ذلك..
أما بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام فقد وصفه بأنه ابن عم رسول الله، وصهره وكون بيته ضمن بيوت رسول الله (صلى الله عليه وآله)..
فلو كان عثمان صهرا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) لكان على ابن عمر أن يستدل به أيضا، كما استدل به بالنسبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) لأنه بصدد الإستدلال بكل ما يساعد على دفع التهمة عن عثمان.. فلا معنى لترك الإستدلال القوي الدال على ثقة رسول الله به، والتمسك بدليل ضعيف وسخيف.
لأن العفو عن الفارين يوم أحد كان مشروطا بالتوبة.. وهذا إنما يشمل الذين عادوا مباشرة بمجرد معرفتهم بسلامة رسول الله، لا بالنسبة لمن لم يعد من فراره إلا بعد ثلاثة أيام.
ولو سلمنا أن الله قد عفا عنه.. فلا يلزم من ذلك لزوم عفو الناس عنه أيضا، بعد أحداثه التي ارتكبها بحقهم.
بل إن عفو الله سبحانه في أحد بهدف التأليف والتقوية في مقابل العدو، لا يلزم منه عفوه عنه بعد ذلك إذا كان قد ارتكب في حق المسلمين ما يوجب العقاب فضلا عن أن يوجب ذلك عفو الناس.
١٠ - وأخيرا.. فإننا نلفت النظر إلى أن هذا البعض قد اعترف بأن خطبة الزهراء في المهاجرين والأنصار موثوقة وهو بنفسه أيضا قد شرح هذه الخطبة، وقد جاء فيها إشارة إلى حقيقة أن الزهراء كانت هي البنت الوحيدة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث قالت (عليها السلام): (فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه).
ولو كانت زوجتا عثمان ابنتين لرسول الله (ص) لكان عثمان اعترض، وقال: إن رسول الله كان أبا لزوجتي رقية وأم كلثوم، وكذلك كان زوج زينب..
والغريب أن هذا البعض يعلق على هذه الفقرة بقوله:
" تجدوه أبي دون نسائكم فأنا ابنته الوحيدة، ولم تقتصر على الحديث عن نفسها إلخ.. " (١).

---

(١) الزهراء القدوة.

وقال:
" قد قلنا: إن لرسول الله عدة بنات، كما هو وارد في كتب التاريخ، وكما يظهر من القرآن، لكنه ميز ابنته فاطمة (ع) عن أخواتها " (١).
ونقول: إن ذلك لا يصحح قولها: (كان أبي دون نسائكم..) لأنها في مقام إثبات الفضل والتميز..
وفي الختام نقول:
إنه قد يكون ثمة بنات قد ولدن لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وسماهن زينب ورقية وأم كلثوم، لكنهن متن وهن صغار.
حتى وصفه العاص بالأبتر ونزلت سورة الكوثر.. وصدق الله سبحانه له وعده وولدت الزهراء، وأعطاه الكوثر، هذا بالإضافة إلى وجود ربيبات له (صلى الله عليه وآله) اسمهن أيضا زينب ورقية وأم كلثوم. ثم تزوج عثمان باثنتين من تلك الربائب وتزوج أبو العاص بن الربيع بالثالثة، غير أن ما يلفت نظرنا هو أن هذا البعض يصر على وجود بنات أخريات لرسول الله (ص) سوى الزهراء (ع)؟!
فهل إن ذلك يدخل في نطاق الغيرة على الحقيقة التاريخية؟!. خصوصا تلك التي تؤدي إلى إسداء خدمة لعثمان بن عفان، حيث ينال بذلك فضيلة جليلة، تفيده في تأكيد صلاحيته لمقام خلافة النبوة، ودفع غائلة الحديث عن اغتصابه هذا الموقع من صاحبه الحقيقي، وفقا للنص الثابت بالأدلة القطعية، والبراهين الساطعة والجلية؟!
ويزيد تعجبنا حين نعرف أن هذا البعض يشترط اليقين في الأمور التاريخية، وبديهي أن مجرد وجود ظاهر لفظي لا يفيد اليقين. كما أن الشهرة بين المؤرخين لا تفيده.. ولا ندري كيف يشترط ذلك الشرط، ويستدل بهذه الأدلة؟!!!.

----
(١) الزهراء القدوة: ص ٢٨٥.

الفصل الثالث:
التشكيك في فضائل
الزهراء (ع) وإنكارها

بداية

لقد دأب هذا البعض على إثارة الشبهات حول الكثير من فضائل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) والزهراء أيضا (عليها السلام).. كما يثير الشبهات حول كثير من كرامات الأنبياء ومقاماتهم، وما تفضل الله سبحانه به عليهم..

ونحن نشير هنا إلى بعض من ذلك، مع الالتزام بعدم التعدي عن ما ذكره حول سيدة النساء الصديقة الطاهرة - صلوات الله وسلامه عليها - حيث سنكتفي ببعض ما قاله عنها، لأن هذا القسم مخصص لإعطاء لمحة عن مقولاته فيها، من دون أن يكون هدفنا استقصاء ذلك..

فنقول:

٥٩٦ - تفضيل فاطمة على مريم سخافة.

٥٩٧ - تفضيل الزهراء على مريم تخلف ورجعية.

٥٩٨ - تفضيل فاطمة على مريم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله.

٥٩٩ - تفضيل فاطمة على مريم ترف فكري.

٦٠٠ - لا خلاف بين فاطمة ومريم، فلماذا نختلف نحن..

يجيب البعض على سؤال:

أيهما أفضل فاطمة بنت محمد (ص)، أم مريم بنت عمران؟

فيقول:

" هذا علم لا ينفع من علمه، ولا يضر من جهله، بل هو مجرد ترف فكري ".

ويقول مرة أخرى:

" هو سخافة، ورجعية، وتخلف ".

ويقول:
" إذا كان لا خلاف بين مريم، وفاطمة حول هذا الأمر، فلماذا نختلف نحن في ذلك، لفاطمة فضلها، ولمريم فضلها، ولا مشكلة في ذلك ".
ونحن نقول:
١ - إن النبي نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) هم الذين تحدثوا عن فضل فاطمة على نساء العالمين، وعن أنها سيدة نساء العالمين جميعا، أما مريم فإنها سيدة نساء عالمها.
ولا يمكن أن تكون أقوال النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام).. في جملة العلوم التي لا ينفع علمها، ولا يضر جهلها.. فإن همهم صلوات الله وسلامه عليهم هو هداية الناس، ودلالتهم على كل ما يقربهم من الجنة، ويبعدهم عن النار.. وليسوا بالذين يمارسون الثرثرة غير المفيدة أبدا..
٢ - إن ما يصدر عن النبي وعن أهل بيته الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لا يجوز أبدا أن يوصف بالرجعية وبالتخلف والسخافة، والكل يعلم حكم من يصف المعصومين بأمثال هذه الأوصاف!!:
٣ - وهل قول الله تعالى لمريم (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (هو الآخر من الترف الفكري، أو أنه من مفردات الرجعية والتخلف؟!
٤ - إن معرفة الأفضل: مريم أم فاطمة، لا يعني وجود اختلاف فيما بين الناس إلى درجة يحتاج معها إلى حله، أو إلى تجنبه، أو إلى القيام بعملية مصالحة أو تهدئة.. فإن هذا النوع من الاختلاف لا يحتاج إلى أكثر من بيان الحقيقة، وإزالة الجهل بمقام أولياء الله وأصفيائه.
٥ - إن هذا العلم ينفع من علمه بالتأكيد، لأنه يزيده معرفة بالأسوة والقدوة، ويزيده تعلقا بها، وحبا لها، واهتماما بالتواجد في مواقع رضاها، وتجنب كل ما يسخطها، خصوصا إذا كانت شاهدة على الناس حسبما أقر به هذا البعض..
وهذه المعرفة تزيد في رسوخ الإيمان، وتعميق الارتباط بالزهراء القدوة، ويعرفنا ذلك بمدى سوء وقبح بشاعة وفظاعة الإجرام الذي ارتكبه الظالمون في حقها.
٦ - واللافت: أن ابن تيمية لم يزل يؤكد في كتابه (منهاج السنة) على

مقولة: أن لا داعي للاختلاف فيما بيننا فقد مات علي عليه السلام ومات أبو بكر وعمر، وأصبحوا في ذمة التاريخ. وهذه المقولة بالذات لم يزل هذا البعض يرددها في أجوبته المكتوبة وغيرها، وتجد في هذا الكتاب بعضا من ذلك.

٦٠١ - لا حاجة فيما يفيض التاريخ فيه حول زواج الزهراء.

٦٠٢ - لا حاجة لنا فيما يذكر من جوانب غيبية واحتفالات السماء في ذلك الزواج.

٦٠٣ - ماذا ينفع أو يضر أن نعلم أن الزهراء نور أو ليست بنور.

٦٠٤ - ليس في التاريخ ما يشير إلى نشاط اجتماعي إلا في رواية أو روايتين.

يقول البعض:

" إن التاريخ يفيض فيما لا حاجة لنا فيه في مسألة زواج الزهراء (عليها السلام)، والجوانب الغيبية في ذلك الزواج، فيما تحتفل به السماء، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الأمر ".

كما أن هذا البعض يتحفظ على الحديث الذي يقول بوجود عناصر غيبية أو خصوصيات غير عادية في شخصية الزهراء (عليها السلام).

" وماذا ينفع أو يضر - على حد تعبيره - أن نعرف أو نجهل، أن الزهراء (ع) نور أو ليست نورا؟ فإن هذا علم لا ينفع من علمه، ولا يضر من جهله " (١).

ويقول:

" المفارقة: أننا نجد التاريخ قد أفاض فيما لا يرتبط بالناحية العملية من حياتها، مثل قضية احتفالات السماء في قصة زواجها " (٢).

وهذه هي نفس العبارة السابقة، لكن أجريت عليها تعديلات، بهدف التخفيف من حدة ردة الفعل.

ويقول:

" لا نجد في التاريخ ما يشير إلى نشاط اجتماعي للسيدة فاطمة في داخل المجتمع الإسلامي إلا في رواية أو روايتين.. " (٣).

---

(١) الزهراء القدوة: ١٢٠.

(٢) راجع كتاب: مأساة الزهراء: ج ١ ص ٨٣.

(٣) راجع: مأساة الزهراء: ج ١ ص ٤٩.

وقفة قصيرة

ونقول إننا نسجل على ما تقدم ما يلي:

١ - إنه لا يصح تسخيف أمور غيبية، والتقليل من أهميتها بهذه الطريقة، ما دام أن النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) هم الذين تصدوا لبيانها، أو يحتمل ذلك على الأقل..

فإن كل ما قاله الأئمة المعصومون والأنبياء المكرمون لنا أو يحتمل أنهم قالوه، لا يمكن تسخيفه، أو التقليل من أهميته لا بهذه الطريقة، ولا بغيرها..

خصوصا، وأن فتح هذا الباب سيؤدي إلى انحسار الثقافة الغيبية، فيما يرتبط بالله سبحانه، وبمعرفة أنبيائه، وأوليائه وأصفيائه، وبكثير من حقائق الدين والإيمان.

ولسوف يؤثر ذلك بطريقة أو بأخرى في إضعاف الارتباط بهذه المواقع الإيمانية، ويضعف من ثم حوافز كثيرة ذات مناح مختلفة تؤثر في السلوك وفي المواقف، وفي مستوى وعي الحقائق الإيمانية بصورة عامة.

والخلاصة:

إن النصوص التي تتحدث عن زواج السيدة الزهراء، وعن جوانبه الغيبية، وعن احتفالات السماء بزواجها وعن خصوصيات غير عادية في شخصيتها، وعن أنها (عليها السلام) كانت نورا معلقا في ساق العرش أو نورا محدقا بالعرش قبل خلق الخلق، وغير ذلك.. هي من العلوم التي تنفع من يعلمها، ويضر جهلها من جهلها، ولولا ذلك لم يبادر المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إلى تعليمنا إياها.. فإنه ليس بالذي يلعب معنا في مثل هذه الأمور، ولا في غيرها.

٢ - إن النصوص التي تتحدث عن امتياز الزهراء بأمور ليست لسواها هي من الكثرة بحيث تثبت هذا الامتياز لها عليها السلام - حتى ليكون إنكار ذلك جريمة كبيرة في مستوى إنكار حقيقة جاء بها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ومهما يكن من أمر، فإن كل هذه الغيوب المرتبطة بالزهراء (عليها السلام) هي كغيرها من مفردات الغيب الكثيرة، جزء من هذا الدين، ولها دورها وأهميتها البالغة في صياغة الشخصية الإيمانية، والإنسانية، والرسالية بما لها من خصائص تتبلور من خلالها الشخصية الإسلامية الحقيقية..

وللمزيد من التوضيح راجع كتاب مأساة الزهراء ج ١ ص ٨٥ / ٩٢ فقد ضمناه بحثا حول الإيمان بالغيب، يحسن الرجوع اليه، والوقوف عليه.
٦٠٥ – عدم العادة الشهرية للزهراء حالة مرضية.
٦٠٦ – عدم العادة نقص في الأنوثة، وفي شخصيتها كامرأة.
٦٠٧ – عدم العادة ليس فضيلة ولا كرامة للزهراء.
٦٠٨ – القول بعدم العادة من السخافات.
ويقول أيضا:
" إن عدم رؤية السيدة الزهراء للعادة الشهرية يعتبر حالة مرضية تحتاج إلى العلاج، أو هي على الأقل نقص في أنوثتها، وفي شخصيتها كامرأة، ولا يمكن عد ذلك من كراماتها وفضائلها، وكذا الحال بالنسبة لدم النفاس ".
بل يصف هذا البعض:
" القول بتنزه الزهراء عن الطمث والنفاس بأنه من السخافات ".
وقفة قصيرة
١ – لقد تحدثنا في كتاب مأساة الزهراء (ع) عن هذا الأمر، وذكرنا أربعة وعشرين حديثا مرويا في كتب الشيعة أو السنة أو هما معا، تثبت كلها: أن الزهراء (عليها السلام) منزهة عن هذا الأمر، فمن أرادها فليراجعها.
٢ – إن الآية الشريفة قد قررت: أن المحيض للمرأة هو من جملة الأذى، واعتبرته بعض الروايات اعتلالا.
كما أن بعض الروايات اعتبرت هذا التنزه من مفردات الطهارة.
وقالت روايات أخرى: إن ذلك من خصوصيات بنات الأنبياء.
٣ – وبعد، فإن من يكون مسلما لأقوال رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والأئمة (عليهم السلام) لا يمكن أن يعتبر القول بتنزيه الزهراء عن الحيض والنفاس من السخف، بل عليه أن يقبل بذلك، ويسلم به، وإن لم يدرك عقله السبب في ذلك.. ولا يمكن أن يكون شيء مما يقوله المعصوم سخيفا، أو خاطئا أو غير مفيد لمن علمه.
٤ – إنه قد يحدث لبعض النساء أن لا ترى دم نفاس ولا حيض أبدا، أو أنها

ترى منه الشيء اليسير، ولا يعد ذلك نقصا في أنوثتها، ولا في شخصيتها كامرأة..
بل نجد ذلك يقع موقع الاستحسان والغبطة من مثيلاتها ورفيقاتها.

٥ - إن حالة الحيض والنفاس حدث يقعد المرأة عن الصلاة، وعن الصوم، وعن دخول المساجد، وذلك يحجزها عن أن تعيش الأجواء الروحية بكل حيويتها وصفائها وقوتها..

٦ - إن الله قادر على أن يخلق المرأة التي لا تحيض دون أن ينقص ذلك من أنوثتها، ودون أن يغير في طبيعتها.

٧ - وبعدما تقدم، فإن اختصاص السيدة الزهراء (عليها السلام) بهذه الخصوصية تمييزا لها عمن سواها، يعتبر تكريما وتشريفا لها، واهتماما بها، فهو إذن كرامة لها منه تعالى، وفضل لها على من سواها.

٨ - وأخيرا، فإن اعتبار عدم الطمث في المرأة نقصا إنما هو من جهة ما يصاحبه من العقم وعدم القدرة على الإنجاب، وأما إذا قدر الله لامرأة - كالزهراء (ع) - أن تتنزه عن الطمث مع كمال القدرة على الإنجاب، خصوصا انجاب أولاد كالحسنين وزينب عليهم السلام جميعا فإن ذلك يكون الغاية في كمال المرأة وطهارتها وسلامتها.

الفصل الرابع:
الجرأة على مقام
الزهراء (ع) وأبيها (ص)..

بداية

إننا نذكر في هذا الفصل مفردات من مقولات البعض، التي تضمنت جرأة صريحة على مقام الصديقة الطاهرة المعصومة، والشهيدة المظلومة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، وعلى أبيها، وعلى بعلها وبنيها..

ولا ندري كيف سيبرر ذلك، وبماذا سيجيب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأمير المؤمنين عليه السلام حين يسألانه عن ذلك يوم القيامة.

ولا نريد أن نقول أكثر من ذلك..

بل ننقل القارئ إلى الصفحات التالية ليجد فيها بعضا من مقولاته تلك.

فنقول:

٦٠٩ - النبي (ص) يحرك فاطمة الزهراء (ع) برجله.

٦١٠ - الزهراء (ع) تحتاج إلى من يوقظها للصلاة.

٦١١ - لعل الزهراء كانت تجهل بوجوب الاستيقاظ للصلاة.

٦١٢ - لا يوجد بروتوكول بين النبي (ص) وابنته (ع).

وفي خطبة له عامة سمعها القاصي والداني بثتها إذاعة محلية تابعة له ذكر هذا البعض رواية يرويها أهل السنة في كتبهم - كالسيوطي - تقول:

" إن النبي (ص) قد حرك فاطمة الزهراء عليها صلوات الله وسلامه برجله، وهو يوقظها لصلاة الصبح، وقال لها: قومي يا بنية لا تكوني من الغافلين، ولكي تنالي شفاعة الأنبياء ".

وحين ضجت الساحة بالاعتراض عليه: أنه كيف يورد ذلك في محاضراته وعبر الإذاعات، وهو يتضمن الحط من مقام الزهراء المعصومة.. وطولب بذلك، أصر على موقفه، واستدل على صحته بأمرين:

أحدهما: أنه لا يوجد بروتوكول بين النبي (ص) وابنته عليها السلام.
الثاني: أن هناك حديث صعود الحسنين (عليهما السلام) وهما طفلان على ظهر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال لهما (صلى الله عليه وآله): نعم الجمل جملكما، ونعم الراكبان أنتما.
والأغرب من ذلك: أن أحد اللبنانيين الذين يسكنون في قطر اعترض عليه بأنه كيف يصح أن تنام الزهراء عن الصلاة، وهي المرأة المعصومة؟!
فأجابه ذلك البعض بقوله:
" لعلها لم تكن تعرف هذا الحكم الشرعي، فأراد النبي (ص) أن يعلمها إياه ".
وهذه القضية مما شاع وذاع عنه - خصوصا الشريط الذي يسجل حوار هذا البعض مع ذلك الذي يسكن في قطر (١) ويقال إن اسمه هو أبو تراب.
وقفة قصيرة
ونقول: إن هذا الكلام خطير جدا، لم نكن نظن أن يصدر عن أحد من الناس.. ولا نرى أنه يحتاج إلى تعليق، غير أننا نعيد إلى ذهن القارئ الأمور التالية:
١ - إن هذا البعض يقول: " إن العصمة إجبارية "، فكيف نتصور المعصوم بالإجبار ينام عن صلاته.. أو يمكن أن يكون من الغافلين. ألا يستبطن ذلك نسبة العجز إلى الله سبحانه عن أن يجبر عبده على التزام خط الطاعة؟!!!
٢ - كيف نتصور الزهراء (ع) التي يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها والتي لولا وجود علي (عليه السلام) لم يكن لها كفؤ: آدم (عليه السلام) فمن دونه. وكانت تحدث أمها وهي في بطنها، وكانت نورا محدقا بالعرش، كيف نتصورها على غاية الجهل بأبسط الأحكام الشرعية وهو لزوم الاستيقاظ لصلاة الصبح؟!..

---

(١) وقد ذكر هذا البعض في نفس الشريط: (أن رجلا سأل الإمام الصادق (ع) أن يحلل له الفروج، ففزع الإمام (ع)، فقال له أحدهم: إنه لا يقصد تحليل الفروج المحرمة، بل يقصد: أن تحللوا له نصيبكم من الأمة التي يملكها، فأذن له الإمام حينئذ.. فكيف يفزع الإمام من كلمة..
كما أن الإمام في بعض الحالات يفتش عن أشياء، ويقول: ما كنت عارفا أين توجد..)
ونقول: إن الظاهر من سياق كلام هذا البعض: أنه يريد أن يتهم الإمام الصادق (عليه السلام) بأنه لا يعرف اللغة العربية، وقد فهم الكلام خطأ حتى إنه يفزع من كلمة، ويأتي شخص آخر عادي، فيعلم الإمام بمراد السائل.. وكل ذلك لأجل أن ينفي الولاية التكوينية!! فإن من يفهم الأمور خطأ، ويضيع بعض الأشياء ولا يعرف أين توجد.. لا يمكن أن يكون له ولاية تكوينية..

وهو الحكم الذي يعرفه حتى الأطفال الصغار، فضلا عن الكبار، فكيف بالمعصومين المكرمين، المنتجبين؟! والمصطفين الأخيار؟!
٣ - إن سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) مع سيدة نساء العالمين صلوات الله وسلامه عليها هي على خلاف ذلك تماما، فقد كان (صلى الله عليه وآله) يعاملها بمنتهى التبجيل، والتعظيم والإكرام والاحترام.. حتى لقد روي: (أنه كان إذا دخلت عليه رحب بها، وقبل يديها، وأجلسها في مجلسه) (١).
٤ - إن الله سبحانه قد جعل للمؤمن حقوقا، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) كان أولى الناس برعاية هذه الحقوق، والزهراء عليها سلام الله هي القمة في الإيمان، فكيف ننسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله): أنه قد ضيع حقوقها..
وقد روي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قوله: (لأخيك عليك مثل الذي لك عليه).
وعنه (عليه السلام): (لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من ضيعت حقه) (٢).
٥ - صحيح أنه لا يوجد بروتوكول بين الأب وابنته.. ولكن ذلك معناه رفع الكلفة فيما بينهما، وليس معناه جواز إهانة أحدهما للآخر، وليس معناه أيضا تضييع حقوق الآخر..
الا أن يقول لنا هذا البعض: إنه قد ادعى أن سورة عبس وتولى قد نزلت في رسول الله (ص).. والعياذ بالله، فمن عبس في وجه الفقير، ويتولى عنه، ويتلهى بما لا يجدي استنكافا عن الحديث معه.. نعم، إن من يفعل ذلك، فهو جدير بأن يتصرف مثل هذا التصرف هنا، نعوذ بالله من مقولات كهذه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.
٦ - أما بالنسبة للحديث: (نعم الجمل جملكما، أو نعم المطي مطيكما، ونعم الراكبان أنتما، أو نعم العدلان أنتما، أو نعم الفارسان أنتما) (٣) على اختلاف التعابير.. فلا يصح أن تبرر به هذه المقولة، إذ إن ملاعبة النبي لابنيه جارية

---

(١) راجع: سفينة البحار: ج ٢. ص ٣٧٤.
(٢) الحديثان في بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٦٥ عن كنز الفوائد للكراجكي.
(٣) بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٢٨٤ و ٢٨٥

وفق السنة، وهو أمر محبوب، ومطلوب لله، حتى لقد روي: (من كان عنده صبي فليتصاب له) (١).

فلا يقاس عليه ما يكون على سبيل الجد، ويدخل في سياق التعامل الجدي مع شخصية الإنسان الآخر. فلا يحق لأحد أن يحقر إنسانا في تعامله معه، ولا أن يهينه في مقام تسجيل الموقف تجاه شخصيته وكيانه، كما هو الحال في هذه القصة المزعومة.

أما حيث يكون التعامل ليس تعاملا مع شخص الطرف الآخر، بل يكون مشاركة في إنجاز الواجب فلا يكون للتصرف أي ارتباط بالشخص. فإن الأمر يتجاوز ذلك إلى حد أن نجد النبي (ص) قد أصعد عليا على كتفيه ليحطم الأصنام المعلقة على الكعبة، وليس في ذلك أية إهانة لرسول الله (ص). ما دام أن رسول الله (ص) هو الذي أمره بذلك، وما دام أن ذلك يأتي في سياق التعاون على إنجاز الواجب، وتحقيق الأهداف الإلهية في عز الإسلام وإذلال الشرك، والجهاد في سبيل الله.

وخلاصة ما تقدم

إنه مرة يكون ذلك في مقام الإعزاز والمحبة، كما في ملاعبة النبي (صلى الله عليه وآله) لابنيه الحسن والحسين (عليهما السلام)..

ومرة يكون ذلك في مقام التعاون على إنجاز الواجب، كما في تعاون النبي (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) في إسقاط الأصنام، وصعود علي عليه السلام على كتف رسول الله (صلى الله عليه وآله)..

ومرة يكون ذلك في مقام التعامل الطبيعي مع الشخص وتحريكه برجله فيه تعد على شخصية الطرف الآخر بالإضافة إلى ما يتضمنه من اتهام له بالجهل أو الغفلة، أو بعدم المعرفة بالتكليف، والأحكام الشرعية البديهية.

غير أننا نحتمل أن يكون في الرواية بعض التحريف، بأن يكون النص هكذا: حركها برجلها.. بملاحظة أن الإيقاظ من النوم إذا كان بواسطة تحريك رجل النائم فإنه ينتبه من نومه بصورة طبيعية وهادئة وبدون ذلك فإنه

----

(١) ميزان الحكمة: ج ١٠ ص ٧٠٠ عن الوسائل ج ١٥ ص ٢٠٣، وعن من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٣١٢ وعن كنز العمال الخبر رقم ٤٥٤١٣، وراجع: الكافي: ج ٦ ص ٥٠.

ينتبه مرعوبا.. وعلى هذا المعنى يحمل ما روي بسند صحيح عن علي بن إبراهيم، عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (ع) قال: (انتهى رسول الله (ص) إلى أمير المؤمنين وهو نائم في المسجد، قد جمع رملا ووضع رأسه عليه، فحركه برجله، ثم قال: قم يا دابة الله.. الخ..) (١).

وروي أيضا عن أبي سعيد الخدري في حديث جاء فيه:.. فلما قضى رسول الله المغرب مر بعلي بن أبي طالب وهو في الصف الأول فغمزه برجله، فقام علي متعقبا خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى لحقه الخ.. (٢).

فان المراد كما هو الظاهر: أنه (ص) قد حرك رجل علي (ع)، في الأولى، وغمز رجل علي (ع) في الثانية. ولا أقل من أن ذلك محتمل ولا يستلزم شيئا مما قلناه.

خرافة: تحريك النبي (ص) لعلي بقدمه

وبعد، فقد يتوهم متوهم، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد حرك عليا وعمارا برجله، وذلك في غزوة العشيرة، وذلك في حديث تكنية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي بأبي تراب..

وملخص ما ذكروه هنا: أن عمار بن ياسر يروي: أنه ذهب هو وعلي عليه السلام إلى نفر من بني مدلج، ينظران إلى كيفية عملهم في عين لهم، فأخذهما النوم، قال عمار: فوالله ما أهبنا إلا ورسول الله (ص) يحركنا بقدمه، فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء، فيومئذ قال رسول الله (ص) لعلي: يا أبا تراب (٣).

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٣٠.

(٢) البحار ج ٤٣ ص ٦٠ وفي هامشه عن تفسير فرات ص ٢١ وكشف الغمة للأربلي ج ٢ ص ٢٦ - ٢٧ وعن أمالي الصدوق.

(٣) البداية والنهاية: ج ٣ ص ٢٤٧، والآحاد والمثاني مخطوط في كوبرلي رقم ٢٣٥، وصحيح ابن حبان مخطوط، والبحار ج ١٩ ص ١٨٨، ومسند احمد ج ٤ ص ٢٦٣ و ٢٦٤، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٣ و ١٢٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ١٢ ط صادر، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٩ و ٢٥٠، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٤٠، وكنز العمال ج ١٥ ص ١٢٣ و ١٢٤ عن المصنف، والبغوي، والطبراني في الكبير، وابن مردويه، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن النجار، وغيرهم، وعن ابن عساكر، وشواهد التنزيل ج ٢ ص ٣٤٢، ومجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣٦ و ١٠٠ عن الطبراني في الأوسط والكبير، والبزار، وأحمد، ووثق رجال عدد منهم، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٦٤، وترجمة الامام علي (ع) من تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ٨٦ بتحقيق المحمودي، وأنساب الاشراف ج ٢ ص ٩٠، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٢٦، وطبقات ابن سعد، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٦٣، ودلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ٣٠٣.
ونقل أيضا عن كتاب الفضائل لأحمد بن حنبل رقم ٢٩٥، والغدير ج ٦ ص ٣٣٤، وعيون الأثر لابن سيد الناس ج ١ ص ٢٦٦، والامتاع للمقريزي ص ٥٥.
وعلى كل حال فإن من يراجع غزوة العشيرة في كتب التاريخ والحديث، يجد هذا الحديث مثبتا في أكثر مصادرها.

ونقول:
أولا: إن هذا الحديث حسبما يظهر من المصادر التي ذكرناها في الهامش مروي عن أهل السنة..
وحتى لو رواه الشيعة، فإننا لا يمكن أن نقبل ما ذكر فيه من أمور تنافي عقيدتنا برسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث ذكر: أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد حرك عليا (عليه السلام) أو حتى عمارا - رحمه الله - برجله.
فان ذلك ليس فقط يمثل إساءة لعلي (ع)، بل هو أيضا يمثل اتهاما صريحا للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه والعياذ بالله لا يلتزم قواعد الأدب الإلهي والإنساني في تعامله مع الناس..
أعاذنا الله من الزلل في القول، وفي العمل، إنه سميع مجيب.
ولأجل ذلك، فإنه لا يصح الاعتذار عن هذا الأمر، بأن النبي (صلى الله عليه وآله) إنما حرك عمارا برجله، وليس عليا..
إذ قد كان لعمار أيضا حقوق لا بد من مراعاتها، ولا معنى للتفريط بها، كما أن النبي الأعظم (ص)، وهو المطهر المعصوم المبعوث بمكارم الأخلاق، لم يكن ليرتكب أمرا من هذا القبيل يتنافى مع أبسط الآداب والأخلاق الإنسانية.
إلا إذا التزمنا هنا بوجود تحريف في الرواية، وأن الصحيح هو حركنا بقدمنا.
ثانيا: إن المراجع للروايات التاريخية، ولغيرها يجد أن هناك أمورا، وأحداثا ووقائع، وأقوالا لرسول الله لا يمكن للمؤرخين والمحدثين تجاهلها أو إهمالها، ولكنها لو نقلت للناس على وجهها الصحيح، لألزمتهم بمواقف وأساليب عمل، واعتقادات وارتباطات، وما إلى ذلك.. تختلف تماما عما يمارسونه بالفعل، ولتبدلت مفاهيم، وتغيرت هياكل وأطر فكرية كثيرة..
فكان أن مارس الذين يهمهم توجيه الناس في اتجاهات معينة، في نقلهم لذلك كله نوعا من التصرفات في نقل الحدث، تحفظ لهم مسارهم الذي

وضعوا أنفسهم فيه، من جهة، وتسجل ما يحرجهم تجاهله وإهماله، وتخرجهم من دائرة الإحراج التي يجدون أنفسهم فيها..

وقضية تكنية علي عليه السلام ب (أبي تراب) قد تكون من هذا القبيل، فإنها مما لا يمكنهم تجاهله، بعد أن شاعت وذاعت إلى درجة أن أعداء علي كبني أمية كانوا يعيرون أمير المؤمنين (عليه السلام) بها.

فنقلوها للناس بأشكال ثلاثة مختلفة، سعوا فيها جميعا، وبدون استثناء إلى إدخال إضافات، تبطل مفعولها الذي توخاه رسول الله صلى الله عليه وآله منها.. وتخرجهم من دائرة الإحراج لو أنهم تجاهلوها.

ونحن نشرح هذه الأشكال الثلاثة هنا، مع بعض التوضيح لها فنقول:

النقل الأول

إنه (ص) كناه بهذه الكنية، حيث كان إذا عتب على السيدة الزهراء وضع على رأسه التراب.. أو أنه كان قد غاضبها (عليها السلام)، وخرج إلى المسجد فنام على التراب، فبحث عنه النبي (ص) فوجده، فخاطبه بهذا الخطاب (١).

وذلك لا يصح لما يلي:

ألف: إن عليا عليه السلام يقول: (فوالله، ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني، ولا عصت لي أمرا، ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عني الهموم والأحزان) (٢).

ب - قالت فاطمة لعلي: (ما عهدتني كاذبة، ولا خائنة، ولا خالفتك منذ عاشرتني) فصدقها علي عليه السلام في ذلك (٣).

ج - إن عليا يعرف قول رسول الله (ص): (من آذى فاطمة فقد آذاني) (٤)، ونحو

---

(١) راجع فيما تقدم: السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٢٧، وانساب الأشراف ج ٢ ص ٩٠، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٣٤٧، وعمدة القارئ ج ٧ ص ٦٣٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٦٣ عن صحيح البخاري، والمناقب للخوارزمي ص ٧ ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢١١.
وراجع في مغاضبة فاطمة له: طبقات ابن سعد - ط ليدن - ج ٨ ص ١٦.

(٢) المناقب للخوارزمي ص ٢٥٦، وكشف الغمة للأربلي ج ١ ص ٣٦٣، والبحار ج ٤٣ ص ١٣٤.

(٣) روضة الواعظين ص ١٥١ وفي طبعة أخرى ص ١٨١، والبحار ج ٤٣ ص ١٩١ والعوالم ج ١١ ص ٥٠٢.

(٤) راجع مصادر ذلك في الصحيح من سيرة النبي (ص) ج ٥ ص ٣٤٠ و ٣٤١.

ذلك، وهو عليه السلام المطهر، الذي كان مع الحق وكان الحق معه، وهو قسيم الجنة والنار، فهل يعقل والحالة هذه أن يقدم على مغاضبة فاطمة (ع)؟!.

د - ولماذا كان يضع على رأسه التراب، إذا عتب على فاطمة، ألا يشبه فعله هذا لعب الأطفال؟!

النقل الثاني

إنه (ص) قد كناه بذلك حين المؤاخاة، حيث إنه (ع) حين رأى أنه (ص) لم يؤاخ بينه وبين أحد اشتد عليه ذلك، وخرج إلى المسجد، ونام على التراب، فلحقه (ص)، وخاطبه بأبي تراب ثم آخى بينه وبين نفسه (صلى الله عليه وآله) (١).

ونقول:

إن من الواضح: أن عليا (ع) لم يكن لينزعج من أمر صنعه رسول الله (ص).. الذي يعلم أنه لا ينطق عن الهوى ولم يكن يجهل مكانته عنده، ولا موقعه في الإسلام، وقد كان راضيا بكل ما رضيه الله ورسوله له..

ولعل الهدف من اختراع هذه الصورة هو: إظهار الخلل في سلوكه عليه السلام، وأن هذا اللقب وكذلك مؤاخاة رسول الله (ص) له، إنما كانت بهدف إرضائه، وإزالة الضيق الذي لحق به.. إذن.. فهو لا يشير إلى مقامه السامي، ولا يعبر عن إعظام الجلال له. بقدر ما هو استجابة إنسانية تهدف إلى إرضائه، وإزالة ما في نفسه.

النقل الثالث

هو القصة المتقدمة التي تقول: ان التكنية له بأبي تراب قد كانت في غزوة العشيرة. وقد تضمنت هي الأخرى تلك الإساءة لمقام رسول الله (ص) حسبما أوضحناه فيما سبق..

فلا حاجة إلى الإعادة..

التعامل مع أخبار كهذه

وبعد، فقد أدرك العلماء الأعلام الحقيقة التي أشرنا إليها في بداية حديثنا هذا وهي

----

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ ص ٢٢، ومجمع الزوائد ج ٩ ص ١١١ عن الطبراني في الكبير والأوسط، ومناقب الخوارزمي ص ٧، وكفاية الطالب ص ١٩٣ عن ابن عساكر.

أن الرواة والمؤرخين المغرضين حين لا مناص لهم من نقل الحدث، وعدم تمكنهم من تجاهله، يعمدون إلى أسلوب التصرف الذكي أو الغبي أحيانا، فيضيفون إليه أمورا تفقده معناه ومغزاه، حتى لو كان ذلك على حساب قداسة رسول الله (ص).
وقد دأب العلماء على الأخذ بالفقرات التي يدركون صحتها، وإهمال الفقرات المدسوسة، أو السقيمة.. فإن وجود هذه إلى جانب تلك لا يفقد تلك قيمتها وأهميتها.. إذا
أمكن التمييز بينهما.. كما هو الحال في هذه القضية التي نحن بصدد الحديث عنها..
فنحن نعلم صحة تكنية الرسول (صلى الله عليه وآله) لعلي بأبي تراب، وأنها فضيلة جليلة له عليه السلام، حتى إنها كانت أحب كناه إليه.. وقد نقل ذلك لنا العدو والصديق..
ونعرف أيضا عدم صحة قولهم: إنها كانت بسبب مغاضبته لفاطمة عليها السلام.
أو بسبب انزعاجه من إهمال الرسول له في قضية المؤاخاة، أو أن النبي قد حركه هو، أو عمارا، أو هما معا برجله..
فإن ذلك كله غير صحيح.. كما دلت عليه الأدلة القاطعة، والحجج القوية، الساطعة.
اعتراف واعتذار
وإذا كانت العصمة لله سبحانه، ولأوليائه وأصفيائه. فإننا هنا نعترف بتقصيرنا، ونعتذر عنه للقارئ الكريم، حيث ذكرنا هذه القضية في كتابنا (الصحيح من سيرة النبي الأعظم) (١) وقمنا بنقد وتزييف القولين الأولين، وهما مغاضبة فاطمة (عليها السلام). أو العتب عليها. وانزعاجه (عليه السلام) في قضية المؤاخاة.
وأهملنا الحديث عن تحريك النبي (صلى الله عليه وآله) لهما بقدمه.. ربما اعتمادا على وضوح بطلانه.. وربما ذهولا عن لزوم التعرض له..
ونطلب من القارئ الكريم أن يعذرنا في هذا التقصير الظاهر..
وإذا وفقنا الله لإعادة طبع الكتاب المذكور، فإننا سنزيل هذا الخلل منه إن شاء الله..

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص): ط دار السيرة ج ٥ ص ٣٣٧ - ٣٤٤.

٦١٣ - النبي يعاني جوعا من حنان الأم، إنسان يفتقد حنان الأم في طفولته.
٦١٤ - النبي كرسول يحتاج إلى هذه الحالة العاطفية لينطلق في الحياة بقوة كإنسان.
٦١٥ - النبي شعر بالشبع العاطفي مع الزهراء.
٦١٦ - النبي شعر بأن الفراغ قد امتلأ.
٦١٧ - الزهراء تهتم بالدنيا.. فينزعج النبي (ص)..
٦١٨ - النبي لا يدخل بيت الزهراء بسبب ما فعلته.
٦١٩ - الجفاف العاطفي في الطفولة ينعكس سلبا على قيادات الأمة..
٦٢٠ - جوع الحنان مؤثر في طريقة حياة القيادات.
٦٢١ - جوع الحنان في الطفولة يؤثر في كل حركة العمل للقيادات.
٦٢٢ - الزهراء لا ترتدع عما يزعج النبي من المرة الأولى.

يقول البعض:

" لقد سمعتم أن النبي كان يناديها بأنها (أم أبيها). لماذا هذه الكلمة؟.. لأن النبي كان يعاني جوعا من حنان الأم كأي إنسان يفتقد في طفولته. واستطاعت الزهراء وهي الطفلة الواعية بعد وفاة أمها خديجة أم المؤمنين أن تشعر بمسؤوليتها تجاه أبيها، وان تشعر بمسؤوليتها تجاهه كأب، وأن تشعر بمسؤوليتها تجاهه كرسول، يحتاج إلى هذه الحالة الروحية العاطفية التي يستطيع من خلالها أن ينطلق في الحياة بقوة كإنسان، ولهذا حاولت أن تثير كل عاطفتها الروحية لتحيطه بهذه العاطفة في كل المجالات لتطوقه بالعاطفة فيشعر بنفسه يعيش العاطفة في كلماتها، في ابتسامتها، في لمحاتها، في رعايتها له، في كل ما تريد أن تواجه به مما تواجه البنت أباها.

ولهذا شعر النبي (ص) بهذا الشبع العاطفي، وشعر بأن الفراغ قد امتلأ. ولهذا قال عنها إنها أم أبيها " (١).

ثم ذكر:

" أن النبي (صلى الله عليه وآله) جاء إلى بيتها فوجد على بابها ستارا، وأنها قد لبست قلادة، وألبست الحسن والحسين عليهما السلام قطعتين من الفضة.

فامتنع النبي (صلى الله عليه وآله) عن الدخول إلى بيتها عليها السلام بسبب ذلك، فأرسلت ذلك كله إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) فوزعه على الفقراء " (٢).

---

(١) دور المرأة الرسالي: ص ٢١.

(٢) في رواية: أنه وجد في عنقها قلادة فأعرض عنها، فقطعتها ورمت بها فقال لها.. الخ.

وفي رواية أخرى: أنه وجد ستارا على بابها وسوارين قد لبستهما في يديها فحدق قليلا ثم انصرف، فأرسلتهما اليه (ص)، فقسم ذلك على الفقراء، فقال ثلاث مرات: فداها أبوها، ما لآل محمد وللدنيا، فإنهم خلقوا للآخرة، راجع الزهراء القدوة: ص ٦٨، ومجلة المعارج عدد ٢٨ - ٣١ ص ٩٥٣ و ٩٥٤.

ثم قال:
" ذلك هو الذي جعل منها أم أبيها وربما كان لهذه الصفة أن تكون لكل نسائنا، لكل أخواتنا، أن يعشن هذه الروحية مع كل إنسان يعشن معه، ويشعرن بمسؤوليتهن عن حياته أو بمسؤوليتهن عن رسالته إذا كان صاحب رسالة، أن يعشن هذا الجو، وأن لا تكون البنت بنتا لأبيها فحسب، أن تكون أما له، حتى الزوجة في بعض الحالات قد تعيش مع إنسان يعيش جوع الحنان، وجوع العاطفة في طفولته، ربما كان لها أن تؤدي دور الزوجة كما تؤدي دور الأم من ناحية الحنان والعاطفة الروحية..
هذه الفكرة يمكن أن تعطي معنى طيبا لحياتنا، ويمكن أن تحرك هذا الجمود، وتعطي الطراوة لهذا الجفاف الذي يعيش في حياتنا، ويحولها إلى حياة يتعايش فيها الناس على أساس الحسابات، بعيدا عن معنى العطاء، وبعيدا عن كل معاني الروح، وربما نجد أن كثيرا من الناس من يعيشون قيادة الأمة، أو من يعيشون قيادة أي خلية من خلايا المجتمع، ربما نجد أن الجفاف العاطفي الذي عاشوه في طفولتهم ينعكس على طريقتهم في الحياة، وطريقتهم في العلاقات، وطريقتهم في كل حركة العمل.
ولهذا فإن هذا الجانب يمكن أن يمثل في حياة الإنسان ليس فقط حركة عاطفية تتصل بالشخص، ولكنها حركة عملية تتصل بحركة هذا الشخص في الحياة " (١).
وقفة قصيرة
١ - كنا قد ذكرنا تفسير البعض لكلمة (أم أبيها) في موضع آخر من هذا الكتاب، وعلقنا عليه هناك بما يتناسب معه.. ولكننا وجدناه في مورد آخر، وهو هذا الذي نقلناه عنه آنفا قد ذكر نفس هذا الموضوع، لكنه أضاف إليه بعض ما يوضح مراميه، وأهدافه منه..
حيث إنه قد صرح في آخر كلامه هنا:
" بأننا قد نجد في من يعيشون قيادة الأمة، أو قيادة أية خلية من خلايا المجتمع، أن الجفاف العاطفي الذي عاشوه في طفولتهم قد انعكس على طريقتهم في الحياة، وفي العلاقات، وفي كل حركة العمل.. "
فإن هذا الجانب لا يمثل حركة عاطفية تتصل بالشخص، ولكنها حركة

---

(١) دور المرأة الرسالي: ص ٢٤ و ٢٥.

عملية تتصل بحركة هذا الشخص في الحياة، على حد تعابير هذا البعض.
وذلك يعني: أنه لولا أن فاطمة (عليها السلام) قد عالجت هذا الفراغ الذي كان يعاني - أو يشكو منه النبي (صلى الله عليه وآله) على حد تعبيره.. فمن الممكن أن يؤثر هذا الفراغ العاطفي الذي عاشه النبي (صلى الله عليه وآله) على حد تعبير هذا البعض في طفولته على طريقته في الحياة، وفي علاقاته، وفي كل حركة العمل، لأن هذا الأمر ليس مجرد حركة عاطفية تتصل بالشخص، ولكنه حركة عملية تتصل بحركة النبي (صلى الله عليه وآله) في الحياة.
هذا، ونتمنى على القارئ الكريم أن لا يكتفي بما ذكرناه هنا عن مراجعة ما ذكرناه حول هذا الموضوع في الموضع الآخر.
٢ - وأما ما ذكره من أمر الستار والقلادة فنحن نجل سيدة النساء عن ذلك، ونقول:
أولا: قد ذكر في نص آخر: أن هذه القضية إنما كانت للنبي (ص) مع بعض زوجاته (١). وقد أشار إلى ذلك الإمام علي عليه السلام، كما ورد في نهج البلاغة (٢).
ولم تكن الزهراء لتعمل أي عمل يكرهه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي المعصومة الطاهرة بنص القرآن الكريم..
ثانيا: لعل هذا البعض يعتبر الزهراء جاهلة بأن التزين بمتاع الحياة الدنيا مما لا ينبغي لها، مع أنه قد جاء التحذير تلو التحذير في كتاب الله تعالى، وعلى لسان رسوله الكريم (ص) عن الاغترار بالدنيا، والميل إلى زخارفها.
أما نحن فنقول:
إن تقوى الزهراء (عليها السلام) وعقلها، وكمالها، وزهدها والتزامها الدقيق بما يحبه الله تعالى يمنعها من فعل ذلك..
ولأجل ذلك.. فإنها لا تترك ما تتركه لمجرد أنه مما يزعج رسول الله (صلى الله عليه وآله).. فإنها قد وعت الآيات القرآنية التي تحذر من التعلق بالدنيا، وزخارفها، كأعمق ما يكون الوعي، وسمعت زواجر رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن

----

(١) كنز العمال: ج ١٥ ص ٤٠٤ عن أحمد، وأبي داود، والبيهقي والنسائي.
(٢) نهج البلاغة: ج ٢ ص ١٥٥ - الخطبة رقم ١٥٥ (ط الإستقامة).

الانسياق وراء متاع هذه الحياة الفانية، وزينتها، استماع بصيرة، وتفهم، واقتناع.
٦٢٣ - الزهراء ترى الرجال وتحادثهم.
٦٢٤ - الرجال يرون الزهراء ويحادثونها.
يقول البعض حول حديث:
خير للمرأة أن لا ترى الرجل ولا الرجل يراها:
" إنها (ع) - وهي قائلة هذا القول كانت تلتقي بالرجال وتتحدث معهم أثناء الأزمة التي واجهتها مع الذين هاجموا بيتها وغصبوا فدكا، وقد التقت مع أبي بكر وعمر، حينما جاءا ليسترضياها، وتحدثت معهما بشكل طبيعي، وكانت عليها السلام تخرج مع من يخرجن في غزواته ليقمن بشؤون الحرب ".
ويقول أيضا:
" حتى الزهراء (ع) فإنها على ما ينقل لنا تاريخها، كانت ترى الرجال، وتحادثهم كما كان الرجال يرونها ويحادثونها، ويجادلونها، الأمر الذي يدل على أن - الحديث - لو صح، فلأنه يتحرك في دائرة الأخلاقيات العليا التي لم يكلف الإنسان بها، وإنما وضعت أمامه كقمة يتطلع إليها ويستوحيه لتكون محفزا له لاستسهال ما دونها من أحكام وتعاليم، والعمل بها " (١).
وقفة قصيرة
١ - إن هذا البعض قد ذكر في الصفحة المقابلة للصفحة التي جاء فيها هذا النص: أن الزهراء عليها السلام قد خطبت المهاجرين والأنصار خطبتها المعروفة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجاء في النص ما يلي:
(فلاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (صلى الله عليه وآله).
حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، (يعني ستارا) فجلست ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه.. الخ) (٢).

----

(١) الزهراء القدوة: ص ٢٢٦.
(٢) الزهراء القدوة: ص ٢٧٧ وقد ذكرنا شطرا من مصادر هذه الخطبة الجليلة في كتابنا مأساة الزهراء ج ١ ص ٢٥٩.

٢ - إن هذا البعض نفسه يوثق هذه الخطبة، فهو يقول:
" الظاهر أنه يمكن حصول الوثوق بصدور هذه الخطبة عن سيدتنا فاطمة الزهراء (ع)، لأنها مشهورة ومعروفة، وذكرها المؤرخون القدامى، وقد كان أهل البيت والعلويون يتناقلونها كابرا عن كابر، ويعلمونها ويحفظونها لصبيانهم، ما يدل على أنها من المسلمات عندنا، هذا مضافا إلى أن متنها قوي ومتناسب مع المضمون الفكري الإسلامي " (١).

٣ - والسؤال هو: إذا كانت الزهراء ترى الرجال وتحادثهم، كما كان الرجال يرونها ويحادثونها، فلماذا؟

ألف: نيطت دونها هذه الملاءة يا ترى؟! وقد كان ذلك بأمرها هي!! مع أنه قد كان بإمكانها أن تلتف بعباءتها، وتقف بينهم وتلقي خطبتها.

وكيف يمكنه بعد هذا أن يثبت لنا: أنها (عليها السلام) كانت ترى الرجال، ويراها الرجال؟!

وبقية الكلام حول كلام هذا البعض في كتاب مأساة الزهراء ج ١ ص ٢٥٨ فما بعدها..

ب: ويوم وصل السبايا إلى الكوفة:

(خطبت أم كلثوم بنت علي (عليه السلام) في ذلك اليوم، ومن وراء كلتها (٢) رافعة صوتها بالبكاء) (٣).

ج: وعندما حمل السبايا ورأس الحسين (عليه السلام) إلى الشام يقول الراوي: (فلقد حدثني جماعة كانوا خرجوا في تلك الصحبة أنهم كانوا يسمعون بالليالي نوح الجن على الحسين (عليه السلام) إلى الصباح. وقالوا: (فلما دخلنا دمشق ادخل بالنساء والسبايا بالنهار مكشفات الوجوه) (٤).

د: ويقول ابن طاووس: (وحمل نساؤه على أطلاس أقتاب بغير وطاء، مكشفات الوجوه بين الأعداء) (٥).

ه: عن علي (عليه السلام): (أن فاطمة بنت رسول الله (ص) استأذن عليها أعمى فحجبته فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله) لما حجبته وهو لا يراك؟

---

(١) الزهراء القدوة: ص ٢٣٨ والندوة: ج ١ ص ٤٢٩.

(٢) الكلة: الستار.

(٣) البحار ٤٥ / ١١٢ عن اللهوف ص ٦٥.

(٤) البحار ٤٥ / ١٥٥ عن امالي الصدوق مجلس ٣٣ رقم ٣.

(٥) البحار ٤٥ / ١٠٧ عن اللهوف عن أهل الطفوف ص ٦٠.

فقالت: إن لم يكن يراني فأنا أراه وهو يشم الريح فقال النبي (ص) (اشهد انك بضعة مني) (١).
و: استأذن ابن أم مكتوم على النبي (صلى الله عليه وآله) وعنده حفصة فقال (صلى الله عليه وآله): (قوما فادخلا البيت، فقالتا: ٠ إنه أعمى فقال: إن لم يكن يراكما فإنكما تريانه) (٢).
وعن أم سلمة: كنت عند رسول الله، وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، وذلك بعد أن أمر بالحجاب. فقال: احتجبا. فقلنا: يا رسول الله أليس أعمى؟! قال: أفعمياوان أنتما؟! ألستما تبصرانه؟ (٣).
ز: وتذكر رواية أخرى أنها أرادت ان تأتي إلى أبيها فتبرقعت ببرقعها، ووضعت خمارها على رأسها، تريد النبي (٤).
والرواية: وان كان فيها إشكال من جهة أخرى لكن هذه الفقرة سليمة عن الاشكال.. فان كان ثمة تصرف في الرواية فإنه في غير هذا المورد.
ح: في حديث زواج الزهراء (عليها السلام) بأمير المؤمنين (عليه السلام): (أن أم سلمة أتت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلما وقفت بين يديه كشف الرداء عن وجهها حتى رآها علي. ثم اخذ بيدها فوضعها في يدي علي) (٥).
ط: قد خطبت السيدة زينب أمام يزيد لعنه الله، فكان مما قالته: (أمن العدل يا بن الطلقاء، تخديرك حرائرك وإمائك، وسوقك بنات رسول الله (صلى الله عليه وآله) سبايا قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، يحدو بهن الأعداء من بلد

---

(١) مسند فاطمة ص ٣٣٧ مناقب ابن المغازلي ٣٨١ البحار ٤٣ / ٩١ عن نوادر الراوندي ص ١٣ فاطمة بهجت قلب المصطفى ص ٢٥٨ عوالم ج ١١ ص ١٢٣ احقاق الحق ١٠ / ٢٥٨ ومستدرك الوسائل ج ١٤ ص ٢٨٩ و ١٨٢ وفي هامشه عن الجعفريات ص ٩٥ ودعائم الاسلام ج ٢ ص ٢١٤ والبحار ج ٤٣ ص ٩١ و ٩٢ ج ١٠٠ ص ٢٥٠.
(٢) وسائل الشيعة ج ٢٠ ص ٢٣٢ الكافي ج ٥ ص ٥٣٤.
(٣) الوسائل ج ٢٠ ص ٢٣٢ عن مكارم الاخلاق ص ٢٣٣ ومسند احمد ج ٦ ص ٢٩٦ والجامع الصحيح للترمذي ج ١٥ ص ١٠٢.
(٤) راجع بحار الأنوار ج ٣٩ ص ٢٠٧ عن بشارة المصطفى ص ١٢٢ و ١٢٣.
(٥) مسند فاطمة الزهراء ص ٢٠٠ إلى ٢٠٥ عن امالي الطوسي ج ١ ص ٣٩ بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٩٤ - ٩٦.

إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناقل، ويبرزن لأهل المناهل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والغائب والشاهد والشهيد.. الخ) (١).

إشارة وتذكير

بقي أن نشير إلى أن قول هذا البعض بأن الزهراء كانت ترى الرجال، ويراها الرجال، ثم استشهاده له بمجيء الشيخين إليها لاسترضائها..

لا يمكن قبوله لسببين:

الأول: أن النص التاريخي يصرح بأنها حين جاءا لاسترضائها (شدت قناعها، وحولت وجهها إلى الحائط، فدخلا) (٢).

الثاني: النصوص المتقدمة الصريحة بأنها كانت تتبرقع، وفي أنها تضرب بينها وبين الرجال ستائر، وتخاطبهم من خلفها.. وغير ذلك من نصوص.

٤ – وأما فيما يرتبط بخروج النساء في الحرب فإنما كن يخرجن ليسقين العطشى، ويداوين المرضى، فلا دليل على أنه (صلى الله عليه وآله) كان يسمح للشابات بذلك في غير حالات الضرورة.

٥ – والغريب في الأمر هنا: أن لهذا البعض كلاما ما يوحي بأن السيدة الزهراء عليها السلام كانت تخرج مع النساء لتقوم بشؤون الحرب أيضا.. ولا ندري من أين جاءنا بهذا الخبر.. إذ لا نجد بين أيدينا سوى قصة مداواتها لجرح أبيها في واقعة أحد.

فلماذا يحاول إيهام القارئ بما هو أبعد من ذلك؟!

وهل يمكنه أن يقول لنا: أي شأن من شؤون الحرب تولته السيدة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها؟!

---

(١) الاحتجاج ج ٢ ص ١٢٥ والبحار ج ٤٥ ص ١٥٨ وبلا غلات النساء ص ٢١ والملهوف ص ١٢٧ ومثير الأحزان ص ١٠١ واعلام النساء ج ٢ ص ٥٠٤ وغير ذلك.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٩٨ – ١٩٩ عن كتاب سليم بن قيس ص ٢٤٩ والعوالم [حياة الزهراء (عليها السلام)] ص ٢٢٢.

الفصل الخامس:
مصحف فاطمة (عليها السلام)
مضمونه.. وحقيقته

بداية

إنما تعرضنا في هذا الفصل لمقولات البعض حول مصحف فاطمة، لأننا نشعر أنه يحاول أن يشكك في مضمون هذا المصحف، من حيث اشتماله على علوم غيبية.. وأن يثير شبهات حول كيفية حصولها عليها السلام على هذا المصحف، وذلك بإلقاء بعض الظلال من الشك والترديد على حقيقة أن الملك كان يحدث السيدة الزهراء (عليها السلام) وكان ذلك يدون في هذا الكتاب المعروف بمصحف فاطمة (عليها السلام).

وذلك بدعوى ضعف هذا الخبر، أو ذاك، تارة.. ودعوى تعارض الأخبار أخرى..

ودعوى اشتماله على الأحكام الشرعية ثالثة..

.. وغير ذلك مما سيتضح فيما يلي من صفحات..

٦٢٥ - الزهراء، أول مؤلفة في الإسلام.

٦٢٦ - التسمية بمصحف فاطمة تدل على تأليفها وكتابتها له.

٦٢٧ - في مصحف فاطمة أحكام شرعية.

٦٢٨ - كتاب فاطمة هو مصحف فاطمة.

٦٢٩ - الأحاديث حول مصحف فاطمة متعارضة.

يقول البعض:

" نستطيع القول: إن الزهراء عليها السلام هي أول كاتبة في الإسلام من الرجال والنساء، وأول من كتب حديث رسول الله (ص)، بمسمع ومرأى منه " (١).

وقال:

----

(١) الزهراء القدوة: ص ١٨٨.

" إنها كانت تكتب العلم عن أبيها رسول الله (ص)، حتى إنها كانت أول مؤلفة في الإسلام " (١).

وقال:

" قد يقال: إن الزهراء - عليها السلام - هي أول مؤلفة في الإسلام، إذ قد دلت الروايات على أنه قد كان لها مصحف، عرف باسم (مصحف فاطمة)، فإن هذه التسمية تدل على ما ذكرناه، لأننا إذا قلنا: (مصحف الزهراء) فذلك يعني أن لها دورا في تأليف وكتابة هذا المصحف ".

وفي نص آخر:

" إن نسبة الكتاب إلى فاطمة (ع) يدل على أنها صاحبة الكتاب، كما أن نسبة الكتاب إلى علي (ع) - في ما ورد من الأئمة (ع) عن كتاب علي (ع) - يتبادر فيه أن صاحبه علي (ع).

ومما يتقدم يتضح:

إنه لا مانع من القول: إنها أول مؤلفة في الإسلام، كما أن عليا أول مؤلف في الإسلام " (٢).

ثم إن هذا البعض قد ادعى:

" أن الأحاديث حول مصحف فاطمة (عليها السلام) متعارضة..؟ لأن بعضها يذكر أنه من إملاء رسول الله وكتابة علي (عليه السلام) (٣) والبعض الآخر يذكر أنه كان ملك يأتيها يعد وفاة أبيها يحدثها، وكان علي (عليه السلام) يكتب ذلك، فكان مصحف فاطمة " (٤).

ويزعم البعض:

" أن مصحف فاطمة يحوي أحكاما شرعية "

وهو يستند في ذلك إلى رواية الحسن بن العلاء، عن الصادق (ع) التي تقول:

---

(١) الزهراء القدوة: ص ٣٢٢.

(٢) راجع: الزهراء القدوة: ص ١٩٥ وأجوبة البعض على آية الله التبريزي، الجواب ١٦.

(٣) راجع بصائر الدرجات: ص ١٥٣ و ١٥٥ و ١٦١، والبحار: ج ٤٦ ص ٤١ و ٤٢ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٢٧١.

(٤) الكافي: ج ١ ص ٤١ و ٢٤٠ و ٤٥٧ و ٤٥٨. بصائر الدرجات: ص ١٥٧ و ١٥٣ و ١٥٩. والخرائج والجرائح: ج ٢ ص ٥٢٦. وبحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٤١ و ٢٤٠ وج ٤٣ ص ٧٩ و ٨٠ وج ٢٢ ص ٥٤٥ و ٥٤٦، وراجع: ج ٤٧ ص ٦٥.. الخ.

(وعندي الجفر الأبيض، قال: قلت: فأي شيء فيه؟! قال: زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم (عليهم السلام)، والحلال والحرام، ومصحف فاطمة، ما أزعم أن فيه قرآنا، وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحد، حتى فيه الجلدة، وربع الجلدة وأرش الخدش) (١).

ويقول:

" بعدما عرفت أن المصحف المذكور ليس قرآنا، يقع تساؤل جديد عن مضمونه ومحتواه، فهل هو مشتمل على بعض المغيبات التي كان يحدثها بها الملك، ويكتبها علي (ع)؟ أو هو مشتمل على وصيتها مع بعض الأحكام الشرعية، وربما المواعظ والتعاليم الإسلامية؟

هناك اختلاف في الروايات المتعلقة بذلك:

١ - فهناك رواية حماد بن عثمان عن أبي عبد الله (ع)، أنه لما نظر في مصحف فاطمة (ع) قال: (وما مصحف فاطمة؟ قال: إن الله تعالى لما قبض نبيه (صلى الله عليه وآله) دخل على فاطمة (عليها السلام) من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل إليها ملكا يسلي غمها ويحدثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين، فقال لها: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي، فأعلمته ذلك، وجعل أمير المؤمنين يكتب كل ما سمع، حتى أثبت من ذلك مصحفا، قال: ثم قال: أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون) (٢).

ويمكن المناقشة في المتن بالقول: إن المفروض في الملك أنه جاء يحدثها، ويسلي غمها ليدخل عليها السرور، فكيف تشكو ذلك إلى أمير المؤمنين (ع)؟!

ما يدل على أنها كانت متضايقة من ذلك، كما أن الظاهر منه أن الإمام (ع) كان لا يعلم به، وأن المسألة كانت سماع صوت الملك لا رؤيته.

٢ - وفي رواية أبي عبيدة: (.. وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعد في ذريتها، وكان علي يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة) (٣).

ولا مانع أن ينزل عليها الملك جبرائيل، ولكن الحديث ظاهر في اختصاص العلم

----

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٤٠، والبحار ج ٢٦ ص ٣٧، وبصائر الدرجات ص ١٥٠.
(٢) البحار: ج ٢٢، باب: ٢، ص: ٥٤٥، رواية: ٦٣.
(٣) الكافي: ج ١ ص ٢٤١، والبحار ج ٢٦ باب ٢٦ ص ٤١ رواية ٧٢.

الذي يعلمها إياه مما يكون في ذريتها فقط.. بينما الرواية الأخرى تتحدث عن الأعم من ذلك، حتى إنها تتحدث عن ظهور الزنادقة في سنة ثمان وعشرين ومائة، وهو مما قرأه الإمام علي (ع) في مصحف فاطمة.

٣ - وهناك رواية الحسين بن أبي العلاء، عن الإمام الصادق (ع)، وجاء فيها: (.. مصحف فاطمة (ع)، ما أزعم أن فيه قرآنا، وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحد، حتى فيه الجلدة، وربع الجلدة وأرش الخدش) (١).

والظاهر من هذه الرواية أن المصحف يشتمل على الحلال والحرام.

٤ - وقد ورد في حديث حبيب الخثعمي أنه قال: كتب أبو جعفر المنصور إلى محمد بن خالد، وكان عامله على المدينة، أن يسأل أهل المدينة عن الخمسة في الزكاة من المائتين كيف صارت وزن سبعة، ولم يكن هذا على عهد رسول الله (ص) وأمره أن يسأل عبد الله بن الحسن، وجعفر بن محمد (ع)، فسأل عبد الله بن الحسن، فقال كما قال المستفتون من أهل المدينة، قال: فقال: ما تقول يا أبا عبد الله؟ فقال: إن رسول الله (ص) جعل في كل أربعين أوقية، فإذا حسبت ذلك كان على وزن سبعة، وقد كانت وزن ستة، وكانت الدراهم خمسة دوانيق.

قال حبيب: فحسبناها فوجدناها كما قال، فأقبل عليه عبد الله بن الحسن فقال: من أين أخذت هذا؟ قال: قرأت في كتاب أمك فاطمة (عليها السلام)، قال ثم انصرف، فبعث إليه محمد بن خالد ابعث إلي بكتاب فاطمة (عليها السلام)، فأرسل إليه أبو عبد الله (عليه السلام): إني إنما أخبرك أنه عندي، قال حبيب فجعل محمد بن خالد يقول لي: ما رأيت مثل هذا قط (٢).

وظاهر هذا الحديث أيضا: أن كتاب فاطمة، وهو مصحف فاطمة (٣)، يشتمل على الحلال والحرام.

٥ - وهناك رواية أخرى في الكافي عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله (ع) أنه قال - في حديث -: وليخرجوا مصحف فاطمة فإن فيه وصية فاطمة (عليها السلام) (٤).

----

(١) البحار: ج ٢٦، باب ١، ص ٣٧، رواية: ٦٨.

(٢) الكافي: ج ٣، ص ٥٠٧، رواية: ٢.

(٣) وقد استظهر وحدة كتاب فاطمة مع مصحفها العلامة السيد محسن الأمين العاملي في أعيان الشيعة، ج ١، ص ٩٧.

(٤) الكافي: ج ١ ص ٢٤١، رواية ٤.

٦ - وهكذا نجد أن بعض الروايات تقول: إنه بخط علي (ع) عما يحدثه الملك للزهراء (ع) (١).
٧ - وهناك رواية تدل على أن المصحف من إملاء رسول الله (ص) وكتابة علي (ع) (٢).
ولكن الروايات الأخرى لا تدل على ذلك، وهي المشتملة على الحلال والحرام ووصية فاطمة، فلا بد من الترجيح بينها، أما رواية حماد بن عثمان فهي ضعيفة بعمر بن عبد العزيز أبى حفص المعروف بزحل، يقول الفضل بن شاذان: زحل يروي المناكير، وليس بغال. وعن النجاشي: مخلط، وعن الخلاصة: عربي مصري مخلط (٣).
وأما رواية أبي عبيدة، والظاهر أنه المدائني، فهي ضعيفة، لأنه لم يوثق، ولكن رواية الحسين بن أبي العلاء صحيحة، وقد دلت على اشتماله على الحلال والحرام، وأما رواية حبيب الخثعمي، ورواية سليمان بن خالد فهما ضعيفتان على الظاهر، لكنهما تصلحان لتأييد خبر الحسين بن أبي العلاء، لا سيما أن مبنانا في حجية الخبر هو حجية الخبر الموثوق به نوعا، وقد يكفي في الوثوق عدم وجود ما يدعو إلى الكذب فيه.
ولذا فالأرجح أنه كتاب يشتمل على الحلال والحرام، وإن كان بالإمكان أن يقال بأنه لا تعارض بين الروايات، فنلتزم أن المصحف يشتمل على الأحكام وعلى الأخبار التي كان يحدثها بها الملك، وعلى وصيتها، إذ لا مانع من نزول ملك عليها، ويظهر من العلامة المجلسي إقراره باشتمال المصحف على الأحكام، وعلى ضوء هذا، فإن نسبة الكتاب إلى فاطمة (ع) يدل على أنها صاحبة الكتاب، كما أن نسبة الكتاب إلى علي (ع) في ما ورد من الأئمة (ع) عن كتاب علي (ع) يتبادر منه أن صاحبه علي (ع)، ومما تقدم يتضح أنه لا مانع من القول إنها أول مؤلفة في الإسلام، كما أن عليا أول مؤلف في الإسلام.
وعلى أية حال، فإن الكتاب ليس موجودا بأيدينا، وإنما هو موجود عند الإمام الحجة (عج)، ولذلك فإن الجدل في ما يحويه ويشتمل عليه ليس له أية ثمرة عملية (٤).
وقفة قصيرة
كنا قد تحدثنا في كتابنا " مأساة الزهراء " (٥) عن مقولات هذا البعض حول

---

(١) البحار: ج ٦ ص ٤١ و ٤٤.
(٢) م. ن.: ج ٢٦، ص ٤١. رواية ٧٣.
(٣) مجمع الرجال: ج ٤، ص ٢٦٢.
(٤) الزهراء القدوة: ص ١٩١ - ١٩٥.
(٥) ج ١ ص ١٠٦ - ١١٧.

مصحف فاطمة (عليها السلام).. ونعتقد: أن مراجعة ما ذكرناه هناك تكفي في إعطاء الجواب الكافي والشافي حول تلك المقولات.
لكننا نريد أن نسجل هنا ما يلي:
١ - إن القول:
(بأن الزهراء - عليها السلام - كانت تكتب ما تسمعه من رسول الله (ص))،
أو القول:
(بأنها عليها السلام أول مؤلفة في الإسلام..)
أو القول بأنها:
(أول كاتبة من النساء والرجال..)
أو القول:
(إن التسمية بمصحف فاطمة تدل على أن لها دورا في تأليفه..)
إن كل ذلك ينتهي إلى نتيجة واحدة، وهي التشكيك في أن يكون هذا المصحف بخط علي مما كان الملك يحدث به الزهراء، بعد وفاة أبيها، أو أنه على قسمين:
قسم بإملاء رسول الله (ص) وخط علي (عليه السلام).
وقسم آخر بإملاء الملك وخط علي (عليه السلام)..
فلا تكون هاتان الروايتان متعارضتين، كما يقوله هذا البعض.
٢ - إن قوله:
" إن مصحف فاطمة هو نفس كتاب فاطمة الوارد في رواية حبيب الخثعمي "
ليس له شاهد يؤيده بل هو محض ادعاء، يؤدي إلى تكثير روايات المصحف التي يسعى البعض إلى تكثيرها لكي تظهر عليها بوادر التعارض، وهو ما يضعف أمر مصحف فاطمة من الأساس.. وإن كان سيأتي أنها محاولة فاشلة أيضا.

٣ - إن رواية حماد بن عثمان عن أبي عبد الله، والتي تقول: (أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام..) (١).
لا تعارض رواية الحسين بن أبي العلاء عن الإمام الصادق أيضا، وفيها: (.. وعندي الجفر الأبيض، قال: قلت: فأي شيء فيه؟! قال: زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم - عليهم السلام -، والحلال والحرام، ومصحف فاطمة، ما أزعم أن فيه قرآنا، وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحد، حتى فيه الجلدة، ونصف الجلدة، وربع الجلدة وأرش الخدش).
نعم - إن الروايتين غير متعارضتين، فإن الضمير في كلمة (وفيه ما يحتاج الناس إلينا) يرجع إلى كلمة (الجفر الأبيض)، ولا يرجع إلى مصحف فاطمة. إذ لو كان راجعا إلى مصحف فاطمة (عليها السلام) لم يكن لعطفه بالواو أي مبرر.. بل كان ينبغي الإضراب فيه بكلمة بل.
فيقال: ما أزعم أن فيه قرآنا، بل فيه ما يحتاج الناس إلينا الخ..
لكن هذا البعض تخيل: أنه من متعلقات مصحف فاطمة (عليها السلام)، فحكم بتعارض الروايتين، وهو كما ترى.
٤ - إنه لا معنى للتشكيك بمحتوى مصحف فاطمة (عليها السلام)، فإن محتواه معلوم، وهو وصيتها، وعلم ما يكون.. فمن أين جاء الحديث عن اشتماله على المواعظ والتعاليم الإسلامية؟! وأين هي الرواية التي أشارت إلى ذلك؟! وهل هي من الأدلة القطعية حسبما اشترطه ذلك البعض نفسه؟!..
٥ - إن من الواضح: أن تسلية غمها برسول الله (صلى الله عليه وآله) إنما هو بالحديث عما يكون في المستقبل، وذلك معناه أن تسمع منه ما يجري على ذريتها من الطواغيت، ومن الطبيعي أن تهتم وتغتم بذلك. وإن كان ذلك يسليها عن مصابها برسول الله (صلى الله عليه وآله)، وليس في هذا الأمر أي محذور، فإنه ضريبة المعرفة بهذا الأمر الخطير الذي أكرمها الله تعالى به.

٦ - وعن شكواها لأمير المؤمنين (عليه السلام)، فهي إنما شكت له ما عرفته من مصائب وبلايا تجري على الأمة عامة، وعلى ذريتها خاصة، وهي شكوى طبيعية، تنشأ عن أنها تهتم لأمور المسلمين.

٧ - وأما أن ذلك يدل على أن المسألة كانت سماعه صوت الملك لا رؤيته.. فما هو الضير في ذلك، فإن المهم هو أن الملك هو الذي يحدثها، ويسليها، ولعل ذلك كان في الأكثر حين غياب أمير المؤمنين، أو حين انشغاله.

٨ - أما بالنسبة لرواية أبي عبيدة فلا دلالة لها على حصر العلم بما يكون في ذريتها فقط.. بل غاية ما فيها: أنها أشارت إلى أمر اهتمت له سيدة النساء صلوات الله وسلامه عليها، وهو ما يجري على ذريتها، وأشارت الرواية الأخرى إلى علوم أخرى تضمنها المصحف.

والقاعدة تقول: إنه لا تعارض بين المثبتات، ما دام لم يدل دليل على أنها في مقام التحديد، أي إثبات مضمونها، ونفي ما عداه، وليست رواية أبي عبيدة في هذا السياق. ولا أقل من الشك في ذلك.

٩ - وأما بالنسبة لتعارض أحاديث مصحف فاطمة (عليها السلام)، فإننا لم نستطع أن نتحقق منه، فإن ما ذكره لا يصلح أن يكون من موارد التعارض..

فإن مجرد أن تقول رواية: إنه من إملاء رسول الله (ص)، وخط علي (عليه السلام)، ثم تقول رواية إن الملك بعد وفاة أبيها حدثها فكتب علي (عليه السلام) ذلك أيضا...

إن مجرد ذلك لا يحقق التكاذب بين الروايات، إذ يمكن أن تكون الروايتان معا صحيحتين، فيكون بعض المصحف من إملاء النبي، وبعضه من إملاء الملك.

أما عن الحديث حول ما يشتمل عليه المصحف فقد عرفت أن منشأ الحكم بالتعارض هو الخطأ في إرجاع الضمير..

وحتى لو صح الحديثان معا، فإنه يكون كل حديث مثبتا لخصوصية لا يأباها الحديث الآخر.. إذ لا تعارض بين المثبتات، إلا في بعض الصور التي ليس هذا المورد منها..

١٠ - وبعد ما تقدم نعرف: أنه لا معنى لقوله:

" لكن الروايات الأخرى لا تدل على ذلك، وهي المشتملة على الحلال والحرام، ووصية فاطمة، فلا بد من الترجيح بينها؟! "

فهل إذا دلت رواية على شيء، ولم تدل الأخرى عليه تصبح الروايات متعارضة، ولا بد من الترجيح بينهما؟!

١١ - ما معنى قوله أخيرا:

" الأرجح أنه كتاب يشتمل على الحلال والحرام ".

فإن رواية حماد بن عثمان تنفي ذلك صراحة..

ورواية الحسين بن أبى العلاء قد أخطأ هذا البعض في فهمها، لخطئه في مرجع الضمير.. فهل هذا بهدف استبعاد معرفتها بما يكون، واستبعاد أن يكون الملك قد حدثها؟!..

١٢ - وأخيرا فإن لنا الحق في ان نتساءل عن سبب إيراده رواية الحسين بن أبي العلاء في كتاب (الزهراء القدوة) مبتورة من أولها، فهل أراد بذلك تضييع القارئ فيما يرتبط بمرجع الضمير في الرواية؟.

الفهرس الإجمالي

خلفيات كتاب مأساة الزهراء
الجزء الأول
المقصد الأول: المنهج الفكري والإستنباطي (قواعد ومبان للفكر والاستنباط) ٤١
الفصل الأول: قواعد ومناهج ٤٣
الفصل الثاني: الغاية تنظف الوسيلة.. وقاعدة التزاحم ٦٣
الفصل الثالث: توثيق الحديث واليقين في غير الأحكام ٧٥
الفصل الرابع: الإسلام لا يملك وسيلة بيان.. العمل بالرأي ٩٣
الفصل الخامس: التأويل.. استيحاء من الأئمة ١١٣
المقصد الثاني: النبوة ومعالمها وأمور عقائدية عامة حول الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) ١٣١
الفصل الأول: سمات الأنبياء.. ومستوياتهم ١٣٣
الفصل الثاني: الولاية التكوينية.. ادعاءات واستدلالات واهية ١٥٩
الفصل الثالث: الولاية التكوينية للمعصوم: توضيح.. و.. بيان ١٩٥
خلفيات كتاب مأساة الزهراء
الجزء الثاني
المقصد الثالث: مع الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ٢٢٧
القسم الأول: أنبياء الله تعالى ورسله (عليهم السلام) ٢٢٩
الفصل الأول: آدم ونوح (عليهما السلام) ٢٣٣
الفصل الثاني: إبراهيم ولوط (عليهما السلام) ٢٦٩
الفصل الثالث: موسى وهارون (عليهما السلام) ٢٩٧
الفصل الرابع: يعقوب ويوسف (عليهما السلام) ٣٣١

الفصل الخامس: يونس (عليه السلام) ٣٤٩
الفصل السادس: داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى (عليهم السلام) ٣٦٥
القسم الثاني: النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله أجمعين) ٣٨٥
الفصل الأول: ثقافة!! ومعارف نبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ٣٨٧
الفصل الثاني: معجزات رسول الله (ص).. المعراج وشق القمر ٤١١
الفصل الثالث: إهانات لا تحتمل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ٤٢٥
خلفيات كتاب مأساة الزهراء
الجزء الثالث
المقصد الرابع: مع الأئمة.. والأولياء (عليهم السلام) ٤٥٩
القسم الأول: في رحاب دعاء كميل ٤٦١
القسم الثاني: سيدة النساء فاطمة (عليها السلام) ٤٧٥
المطلب الأول: مقولات جريئة حول الزهراء (عليها السلام) ٤٨٣
الفصل الأول: مقولات متناقضة حول الزهراء (عليها السلام) ٤٨٥
الفصل الثاني: الزهراء (ع) البنت الوحيدة لرسول الله (ص) ٥٠١
الفصل الثالث: التشكيك في فضائل الزهراء (ع) وإنكارها ٥١٣
الفصل الرابع: الجرأة على مقام الزهراء (ع) وأبيها (ص).. ٥٢١
الفصل الخامس: مصحف فاطمة (عليها السلام) مضمونه.. وحقيقته ٥٣٩
الفهرس الإجمالي ٥٥١